الدكتور مختار حساني

تاريخ الدولة الزيّانية

الجزء الأول

الأحوال السياسية

منشورات الحضارة

تاريخ الدولة الزيانية

الجزء الأول

الأحوال السياسية

الدكتور: مختار حساني

منشورات الحضارة

طبـــعـــة 2009

الإيداع القانونـــي: 2009-760
ردمك:2-67-767-9961-978

منشورات الحضارة
ص ب 04 بئر التوتة 16045 الجزائر
هاتف/فاكس، 41. 34. 44 (021)

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

المقـــدمــــة

تعتبر الدولة الزيانية من أهم الـدول التـي نـشأت علـى أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون 1232- 1562. وقـد مرت بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلـدون حيـث كان شاهدا لمرحلة هامة من حياة هذه الدولة، هو وأخيه يحـي ابـن خلدون صاحب كتاب بغيـة الرواد..

وتميزت هذه المرحلة بحروب متواصلة مع القوى الخارجية التـي كانت تعمل من أجل السيطرة على أراضيها،لأهميتهـا مـن الناحيـة الاقتصادية،اذ تعتبر الدولة الزيانية من بين الدول التي أعطت أهميـة كبيرة للتجارة الداخلية والخارجية مع محيطهـا (البحـر المتوسـط، السودان الغربي والمشرق العربي) فالوثائق التي تحصّلنا عليها فـي دور الارشيف بالدول الغربية،وكذلك ما بقي من التـراث المخطـوط الذي يعود لعصر هذه الدولة يؤكد عظمتها في هذا الميدان.

أما في الجانب الثقافي فكانت عاصمتها تلمسان من بين المراكـز الهامة. حيث كان لعلمائها أثر كبير في الحواضر الاسلامية في بـلاد المشرق وبلاد المغرب الاسلامي. فالتراجم المتوفرة لدينا تؤكد هـذا الدور الهام الذي قام به علماء الدولة الزيانيـة ونـذكر مـنهم علـى الخصوص. أبو زكريا يحي المغيلي المزوني الـذي ألـف الـدرر

المكنونة في نوازل مازونه وتعرض فيه إلى الاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال مجموعة من النوازل لعلماء الجزائر، وكذلك محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، رجل الاصلاح في عصره...

وهذا العمل الذي نقدمه للمكتبة الجزائرية يعد مرآة صادقة لاحوال هذه الدولة انطلاقا من دراسة تاريخية اقتصادية، اجتماعية وسياسية.

د. مختار حساني

برج الكيفان في 8. 10. 2007

الـفـصـــــل الأ و ل

مراحــل الدولــة

- المرحلة الأولى:

- يغمراسن بن زيان:

بدأ يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة حياته السياسية بالارتباط بالخلافة الموحدية بمراكش[1]، ثم انفصل عنها أيام الرشيد عبد الواحد بن إدريس، الذي حاول أن يبقي يغمراسن[2] تابعا لدولته فأرسل هدية للمحافظة على بقاء الخطبة للموحدين.

كما واجه الدولة الحفصية التي كان سلطانها أبو زكريا يطمح إلى إعادة توحيد المغرب، تحت ظل دولته مما جعله يتقدم سنة640 /242[3] إلى تلمسان، لإخضاع سلطانها يغمراسن، وعندما رأى أنه لا يستطيع المواجهة انتقل إلى جبال بني ورنيد[4] لقيادة المقاومة ورأى أبو زكريا بأنه لا يستطيع التخلص منه وأنه بمجرد عودته سيتمكن من استعادة عاصمة دولته، لذلك فكر في أن يتقرب منه، ويتحالف معه ضد الدولة الموحدية، فقبل منه يغمراسن، ذلك وعند عودته

1- التنسي، نظم الدر و العقيان ، تحقيق بوعياد ، للحصول على رسالة الدكتوراة ، الحلقة III ، جامعة الجزائر، 1975 ، طبعت 1985 ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص 117.

2- تولى يغمراسن بن زيان الحكم من سنة 633 – 681 هـ ، 1236 – 1283 م . انظر ابن تاريت الطنجي ، التعريف بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا ، لجنة التأليف والنشر،القاهرة 1951 ، ص 152.

3- عن هجوم أبي زكريا الحفصي على تلمسان سنة 640 هـ 1242 انظر ابن خلدون ، العبر، ج7 ، ص165، يحي بن خلدون ، بغية الرواد ، ج1 ، ص 113.

4- ورنيد:نسبة لبطن من بطون زناتة و مازال بنو رنيد قاطنين بذلك الجبل جنوب تلمسان . انظر العبر ، ج7، ص 166

اتصل بشيوخ بني توجين ومغراوة محاولا أن يكون شيوخ القبيلتين أندادا ليغمراسن وقلاعا محصنة تحول دون توسعه نحو الشرق.

لكن هذه السياسة واجهها يغمراسن بعنف وتمكن من القضاء على نفوذ هؤلاء الشيوخ وضمن ولائهم لدولته، كما وقف ضد الموحدين واستطاع أن ينتصر عليهم بتمزيردكت[1] حيث سقط الخليفة الموحدي السعيد في المعركــة[2]، أمــا ما يتعلق بالدولة المرينية، فإنه لم يتمكن الإقتصار عليها لعدم تكافؤ القوة بين الطرفين، وانعدام الوحدة بالمغرب الأوسط، لكثرة ثورات القبائل، وقبل وفاته أوصى[3] بتوجيه إمكانياتهم نحو الشرق والعدول عن المرينين.

- أبو سعيد عثمان بن يغمراسن 681-703هـ/1283-1303[4]

عرف عهده بكثرة الثورات من قبل القبائل البربرية المعارضة للدولة الزيانية أمثال بنو توجين بقيادة آل عبد القوي، إذ تمكن من انتزاع جبل الونشريس وما حولها حتى المدية من أيديهم.

كما استولى على مضارب مغراوة مثل مازونة وتنس وبرشك، ودفع بهم الى الاعتصام بجبل الظهرة، وبذلك استطاع أن يمد نفوذ الدولة إلى كل الأراضي التابعة للدولة في عهد يغمراسن، لكن الدولة المرينية لم تترك لــه الفرصة فقاد أميرها يعقوب المنصور حملة كبيرة للاستيلاء على عاصمة

1- قلعة بجبل مجاورة لوجدة بالناحية الجنوبية منها عنها انظر LVOI MOT aujda et la molat p 243 et 256 calanel GSAMUEL line Eniz me le jebel in bulletin de societé d,histoir du marmol n0 4-5- 1972-73 p 21-36.

2- ابن خلدون ، العبر ، مجلد7 ، ص19 . و المعركة وقعت سنة 745هـ، 1344-1345.

3- نفسه، مجلد7 ، ص 149، انظر أيضا عطاء الله دهينة، وصية يغمراسن ، مقال بمجلة تاريخ و حضارة المغرب ، ع7 ، جويلية 1969 ، ص ص 19-22.

4- ابن خلدون، العبر، مجلد 7، ص 204. يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1 ، ص 208.

الدولة، لكن تلمسان لم تفتح أبوابها للمهاجمين فحوصرت من جميع الجهات واستمر الحصار عليها أكثر من ثماني سنوات.
ويقال أنه توفي خلال ذلك الحصار وتولى بعده ابنه أبو زيان محمد 703-707هـ/1303-1308م.

حكم هذا السلطان الدولة في ظروف مأساوية للغاية، ذلك أن الدولة الزيانية فقدت أغلب أملاكها باستقلال قبائلها أو تعاونها مع القوة المرينية، ويقال أنه توفي بعد الحصار مباشرة وتولى الحكم بعدهالسلطان أبو حمه موسى الأول.

- أبو حمو موسى الأول 707-718هـ/1308-1318م[1]

تميز عهد هذا السلطان بما يلي:

- **أولا:** إصلاح ما تهدم خلال الحصار المريني، وتوفير المؤ ونة داخل تلمسان.

- **ثانيا:** استعادة الأراضي التي فقدتها الدولة، واستولت عليها القبائل، التي أغتنمت فرصة الصراع فأعلنت انفصالها عن الدولة. وقد علّق على ذلك التنسي فقال: « أقام عمود الملك بعدما أشرف على الهلاك، فقارع الثوار، واقتحم الأنجاد والأغوار».

ومن أبرز القبائل التي تم القضاء على ثورتها بني توجين، ومغراوة[2] ألـدّ أعداء الدولة الزيانية، منذ عهد يغمراسن بن زيان، ثم واجه الدولة الحفصية، محاولا الاستيلاء على إمارة بجاية، وذلك تطبيقا لسياسة يغمراسن، الـذي حثّ حلفاؤه على التوسع على حساب بني حفص.

1- ابن خلدون ، العبر ، مجلد 7 ، ص 195.

2- نفسه ، مجا 7 ، ص 203 - 215 .

إذ كان طموح أبوعثمان بن يغمراسن قد وجّه من قبل الزناتيون فان السلطان اباحمو وجد معارضة من ابنه أبي تاشفين الذي تخلص من أبيه بمساعدة الأعلاج، المقربين إليه، كما قتل موظفي دولته، ومن أبرز هؤلاء أسرة بني الملاح الأندلسيين[1].

- عبد الرحمن أبوتاشفين 718-737 هـ/1318-1337[2].

اعتبر من أقوى أمراء الدولة، بعد يغمراسن بن زيان، فقد استطاع أن يقمع الثورات، التي عرفتها الدولة، وعلى الخصوص المغراويين الذين كانوا يطمحون في إقامة دولة لهم، فاستولى على مضاربهم ومدّ نفوذه، على حساب الدولة الحفصية، ولو لا سوء التفاهم، بين قادته لاستطاع أن يضم أراضي الدولة الحفصية إلى إمارته[3].

عرفت تلمسان في عصره ازدهارا في جميع الميادين، الثقافية، والاقتصادية، والإجتماعية، كما قام بحركة عمرانية داخل تلمسان، وخارجها، وشيّد مدرسة استمر وجودها حتى الاحتلال الفرنسي, وقد قدّم لنا الأب برجيس وصفا للمدرسة التي عرفت بالمدرسة التاشفينية، واستقبل في عاصمته مجموعة من العلماء، من الأندلس، والمغرب الإسلامي.

لكنه لم ينعم بهذه العظمة التي وصلتها الدولة، لأن الدولة المرينية، رأت في بقائه خطرا عليها، فتحالفت مع الدولة الحفصية[4] وبذلك أصبح أبوتاشفين يواجه

---

1 - ابن خلدون، المصدر السابق، مجا7، ص216-238. يحيي بن خلدون،بغية الرواد، ج1، ص18.التنسي،نظم الدرو العقيان،ص 139.

2 - ابن خلدون ، المصدر السابق، ج 7 ص 237 .

3 - الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، الجزائر 1973-1974 ، ج 2 ، ص 147.

4- للزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص 112-113.

الخطر الحفصي من الشرق، ومن المرينيين من المغرب، مما جعله يتحصّن بتلمسان ويتولّى قيادة جيش الدولة بنفسه، وعندما دخل ابو الحسن المريني المدينة، استمر في قتاله، حتى سقط أمام قصره، مع أبيه، وبعض موظفيه، دفاعا عن استقلال الدولة الزيانية بتلمسان خلال الاحتلال المريني الأول.

بعد ما تمكن أبو الحسن من القضاء على الدولة الزيانيــة، عمد إلى إعادة بناء المنصورة من جديد، ثم قاد حركة توسّعية على حساب الدولة الحفصية، لإقامة دولة مترامية الأطراف إلاّ أن هذا الطموح توقف في القيروان، عندما تعاونت القبائل العربية عليه، فانهزم في معركة القيروان سنة1347/746ومن بين الذين رافقوه في حملته على إفريقية شيوخ مغراوة، وبني توجين، وبني عبد الواد، الذين اغتنموا هذه الهزيمة فرجعوا الى مضاربهم، بالمغرب الأوسط، ثم عقدوا تحالفا فيما بينهم لكنهم عندما اقتربوا من مضاربهم، توجه كل واحد منهم الى مقر قبيلته.

أما بنو عبد الواد، فتوجهوا إلى تلمسان، فاستولوا عليها وعيّن أبو ثابت وأبو سعيد لتولي شؤون الدولة.

- **أبو سعيد وأبو ثابت 749هـ/1350م.**

تمكّن الأميران من إعادة إحياء الدولة، وتقسيم الحكم بينهما، فكانت الخطبة، والسكّة توحد القبائل، وجعلها خاضعة للدولة. لكن الأخوان، واجها الخطر المريني من جديد، ولم يستطيعا إيقافه، فسقطا شهيدين، وبذلك الدولة من جديد إلى الاحتلال المريني.

- **أبو حمو موسى الثاني 760-791هـ/1359-1389م**[1]

استطاع السّلطان أبو حمو موسى الثاني، أن يغتنم فرصة الإضطرابات، التي عرفتها الدولة المرينية في عهد سلطانها أبي عنان، فعاد من منفاه إلى تلمسان، بمساعدة بني هلال الذين زودوه بقوة عسكرية، مكّنته من الدّخول إلى تلمسان بعد القضاء على الحامية المرينية، وبذلك أعاد مجد الدولة وقد تميّز عصره بما يلي:

- **أولا:** استمرار ثورات القبائل البربرية على الدولة الزيانية، وزيادة نفوذ القبائل العربية التي تحصّلت منه على إقطاعيات كبيرة مكّنتها من السيطرة على أجزاء كبيرة من أراضي التلول، ومن أبرز هذه القبائل بنو عامر، وسويد[2]، وحصين، وبنو يزيد، وحميان، وغيرهم، لكنها لم تستمر في موالاتهم له بل انضمّوا إلى أعدائه من المرينيين، والحفصيين وأمراء الدولة الثّائرين عليه، ومن بين هؤلاء ابنه أبو تشفين الثاني.

- **ثانيا:** القيام بحركة توسُّعية على حساب الدولة الحفصية فحاول الاستيلاء على بجاية[3]، إلاّ أن كثرة الثّوار وضعف القيادة العسكرية، أدّيا إلى هزيمة ببجاية.

- **ثالثا:** كثرة الخطر المريني على دولته، ممّا دفع به إلى ترك تلمسان، والتّوجه نحو الواحات الصّحراوية، فرارا من الجيش المريني[4].

1- الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص 112-113.

2- التنسي ، المصدر السابق ، ص 246.

3- التنسي ، المصدر السابق ، ص 247.

4- الزركشي ، المصدر السابق ، ص 213.

- **رابعا:** خروج أمراء الدّولة عليه، ومن هؤلاء أبوزيان القبي وأبوتاشفين الثاني، اللذان تعاونا مع القبائل العربية، ثم تدخّلت القوات المرينية، بقيادة زيان الوطاسي، فسقط في المعركة عند مواجهته للجيوش المرينية.

وقد عرف عصره اشتداد الصّراع بينه وبين الأمير أبي يحي، الذي وجد مساعدة من شيوخ تلمسان وأعيانها[1]، ومن بين هؤلاء موسى بن حمزة، وعبدالله بن عثمان، وسليمان بن موسى أبو عبد الله، محمد المستعين بالله[2] .

كان لاجئا في تونس فتوجّه منها إلى المغرب الأقصى، ثم دخل أراضي المغرب الأوسط معلنا الثورة على سلطان تلمسان وقد وجد تأييدا لدى القبائل، من هؤلاء أولاد بليل[3] وطن حمزة[4]، ومليكش[5]، وبنو عمر، واشعالية، وبعض حصين[6]، ثم واجه جزائر بني مزغنّة، فاستولى عليها.

ثم وجّه ولده المتوكل على رأس قوة عسكرية لاستعادة أقاليم الدولة فاستولى على متيجة، ومليانة وتنس[7].

وخلال توسّع المتوكّل في أقاليم الدولة، قام أحمد بن الناصر بن أبي حمو بثورة وأيّدته طائفة من أهل تلمسان، لكنّه لم يتمكّن من القضاء على الأمير، فألقي عليه القبض وقتل.

1- لمؤلف مجهول، بغية الرواد، ملحق ورقة 83.

2- التنسي، المصدر السابق.

3- أولاد أبي بليل فخد من بني يزيد سمو باسم شيخهم أبي الليل بن موسى انظر: ابن خلد العبر، ج7، ص263.

4- حمزة أبي سوق حمزة مدينة البويرة حاليا.

5- مليكش قبيلة صنهاجية مضاربها بسهل متيجة انتقلت الآن لشرق جبال جرجرة.

6- حصين قبيلة هلالية موطنهم وهو جبل أشير انظر العبر، ج6، ص92.

7- التنسي، نفس المصدر، ص251.

ولمواجهة الثورات لجأ سلطان تلمسان إلى بناء السّور العظيم الذي أحاط بالقصر، وما انضم إليه.

وفي تلك المدة نهض المتوكّل من مليانة[1]، فاستولى على وطن بني راشد، وهوارة ثم مستغانم[2]، وتمزغران[3]، ثم عمد إلى وهران فافتتحها، ومنها دخل تلمسان.

- **المتوكّل 866-873هـ/ 1442-1468م**

بدأ حياته السّياسية بجمع أفراد الأسرة الزيانية الذين شتّتتهم الاضطرابات والحروب، التي عرفتها الدولة مما دفع ببعضهم إلى ترك تلمسان، واللّجوء للمرينيين، وللحفصيين، وللقبائل العربية والبربرية، والهدف من وراء ذلك القضاء على النّزاعات بين أفراد الأسرة، لكي تستطيع الدولة أن تحافظ على قوّتها واستمرارها، وحتى السّلطان مولاي أحمد، لم يتعرّض له بسوء، بل أحسن إليه وصرفه إلى الأندلس، لكّنه انقلب علبه، وتعاون مع شيوخ القبائل من العرب والبربر، وحاصر تلمسان، ودخلها بعض أتباعه، إلاّ أنّه لم يتمكن من الاستيلاء عليها، لقوة الموالين للمتوكّل.

- كما فشل أيضا محمد بن غالية الذي انطلقت ثورته من وجدة ومنها انتقل إلى جبل بني ورنيد، فوقعت معركة بينه وبين جند المتوكل، انهزم فيها محمد بن غالية.

1- مليانة مدينة قديمة تقع على بعد 120 كلم غربي الجزائر العاصمة و نحو 70كلم جنوب شرشال لمزيد من معلومات منها انظر الوزان المصدر السابق

2- مستغانم مدينة قديمة تقع على بعد90من وهران على شاطيء البحر لمزيد من المعلومات عنها انظر الوزان المصدر السابق ص216 رقم 375.

3- تمزغران او مزغران تقع على بعد 4 كلم جنوبَ غرب مستغانم الوزان ص

- أوضاع الدولة في نهاية القرن9هـ/15م

بعد تعرضنا للمراحل التي مرت بها الدولة الزيانية قبل فترة موضوع الدراسة بصفة موجزة يجدر بنا أيضا أن نقوم بمقارنة بين أحوال هذه الدولة في عصرها الذهبي الذي شمل المدة الممتدة من تأسيس الدولة إلى نهايـــة حكم السلطان أبي حمو موسى الثاني[1]، وعصر الانحطاط الذي امتدّ من نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي حتى سقوط الدولة ماعدا بعض الفترات التاريخية القصيرة مثل عصر المتوكل وعبد الواحد الذي استطاع أن يتدخّل في شؤون بني مرين.

- أولا: عصر القوة و أهم مميزاته

فالدّارس لأحوال الدولة الزيانية في مرحلة قوتها يلاحظ أن سلاطين الدولة تميزوا عن مرحلة الإنحطاط بما يلي:

أ- طول فترة حكم السلاطين في عصر الاستقرار وقصرها في مرحلة الضعف:

فالسلطان يغمراسن[2] مؤسس الدولة الزيانية، حكم فترة زمنية طويلة تمتدّ بين633 الى681هـ/1235 الى1282م قضاها في بناء الدولة وتحصين تلمسان وتشجيع الحركة الفكرية بها با عتماده على العناصر المهاجرة من الاندلسيين[3]ومن مدن المغرب الأوسط كتنس.

والشيء نفسه بالنسبة الى السلطان أبي تاشفين الأول الذي حكم الدولة الزيانية في الفترة الممتدّة ما بين718-737هـ/1318-1337م. تعتبر المدّة

1- من بين الشخصيات الاندلسية: أبو الخطاب بن داود الاندلسي 23.

2- ابن خلدون، بغية الرواد،ج 1 ،ص 113.

3- نفسه،المصدر السابق،ج 1،ص 24.

طويلة إذا ما قورنت بالفترات التاريخية التي حكم فيها الأمراء المتأخّرون، قضى جلّها في تعمير البلاد، ببناء القصور والحصون، والقلاع وتشجيع النشاط الثقافي باستقباله لمجموعة من رجال الفكر[1]، والإقتصاد، وتشجيع المبادلات التجارية بين بلده، والدول الأوروبية، وبلاد الأندلس، والسودان الغربي.

وما يقال أيضا عن عصر السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي تولى شؤون الدولة بين سنة760هـ و791هـ/1389م[2] على الرغم من كثرة الحروب، التي عرفتها الدولة في عصره إلا أنه كان ذا دور فعّال في الحركة الثقافية، والاقتصادية، فشجّع المبادلات التجارية، والتقرّب من العلماء، فأغدق عليهم الأموال،لذلك يعتبر عصره من أرقى عصور الدولة بالنسبة إلى الحياة الفكرية[3].

أما مرحلة الانحطاط التي سبقت فترة موضوع البحث فتميز سلاطينها بالضّعف، وانعدام الطاعة، وقصر الفترة الزمنية التي تولّى فيها هؤلاء، وأحسن ما يمثلها في رأينا أبو ثابت بن أبي تاشفين، الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه، لكن عمّه أبا الحجاج لم يترك له الفرصة لينعم بالحكم، بل ثار عليه، وتولى شؤون الدولة، إلا أنه لم يستمر في حكم الدولة، لأن فترة توليه السلطة لم تتعدّ عشرة أشهر، واغتصب منه كرسي الحكم.

1- من أبرز العلماء الذين استقبلهم أبو تاشفين في تلمسان أبو عمران المشدالي،فشيد له مدرسة عرفت باسمه، ابن خلدون،العبر،مجلد7،ص 621.

2- عن مضارب بني عامر. انظر ابن خلدون ، العبر ، مجلد 6 ، ص 85.

3- أبو حمو لم يكن أميرا مشجعا للحركة الفكرية فقط بل كان هو نفسه عالما ، ألف كتابا عنوانه: واسطة السلوك في سياسة الملوك ، تونس ، 1279-1862 ، صص 13-14.

وما يقال عنه ينطبق على السلطان أبي زيان محمد، الذي لم تزد فترة تولّيه السلطة على سنة، لأنه أبعد من قبل أخيه[1]، الذي لم يكتف بإخراجه من تلمسان فقط بل أرسل إليه من قتله وهو بمضارب بني عامر[2]، المجاورة لعاصمة الدولة، وقصر فترة الحكم لهؤلاء السلاطين ترجع بالدرجة الأولى إلى التنافس بين أبناء السلطان الواحد، لأن ولاية العهد في الدولة الزيانية لم تكن مقنّنة، وبذلك ساهمت في إضعاف الدولة وتفجير تناقضاتها.

كما أنّ تدخل الدول المجاورة لها «بنو مرينو بنو حفص»[3] وتطاحن العصبيّات بها، زاد من خطورة هذا المشكل، فكان موت السلطان يؤدي إلى عصيان ابنائه، وأقاربه، ويفجر صراعا بين أفراد الأسرة الحاكمة، مما يؤدي إلى الانقسام في صفوف القبائل المؤيدة والمعارضة للدولة، والتصفية الجسدية لبعض أمراء الدولة الزيانية.

- ثانيا: استقرار الأمس يعوض بالفوضى:

فالدولة الزيانية في مرحلة قوتها، عرفت نوعا من الاستقرار نتيجة مجموعة من العوامل، نذكر منها:

1- التنسي، المصدر السابق ص 286.

2- عن مضارب بني عامر، انظر ابن خلدون العبر مجلد6 ص85.

3- عن التدخل المريني في شؤون الدولة الزيانية وعلى الخصوص في عهد السلطان أبوالحسن، انظر يحي بن خلدون، بغية الرواد ج1 ص242، ابن مرزوق المسند الصحيح الحسن، في مآثر ومحاسن مولانا السلطان أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغير، الجزائر 1401-1981 ص200.

– **أ:** تأييد أفراد الأسرة الحاكمة، وشيوخ بني عبد الواد الذين تولوا شؤون الدولة، مما أدى إلى اقتسام السلطة في بعض الحالات. كما حدث في عهد السلطانين، أبي سعيد، وأبي ثابت[1].

– **ب:** محاولة استغلال شيوخ القبائل الموجودين في محيط أراضي الدولة الزيانية، بتوزيع الإقطاعيات عليهم، وتعيينهم على رأس بعض المقاطعات، مثل ما حدث لشيوخ هوارة، وبني توجين ومغراوة[2] في هذه المرحلة.

ويقابلها في مرحلة الإنحطاط إزدياد التنافس على تولى السلطة بين الإخوة، مما أدى إلى اغتيالات بين أمراء الدولة، فكان الابن لا يتورّع عن قتل أبيه، لكي يتولّى الحكم، وقد دشّن هذا العمل الشيخ السلطان أبوتاشفين الأول، الذي عمد إلى قتل أبيه بعد أن تبين له أنه يريد تولية ابن عمه أبي عامر، وحرمانه من الحكم717 هـ/1317-1318م.

كما كانت القوى الخارجية وراء عملية اغتيال بعض أمراء الدولة الزيانية، بتحالفها مع الخارجين عليها بداخل الدولة، وأحسن مثال على ذلك السلطان أبو تاشفين الثاني، الذي ثار على أبيه أبي حمو موسى الثاني، وبعد فشله في الإطاحة به إلتجأ إلى بني مرين فتحالف معهم، مما جعلهم يقدّمون له يد المساعدة، فأرسل السلطان أبو العباس المريني زيان بن عمر الوطاسي على رأس القوة المرينية، وعندما علم بها أبو حمو خرج من تلمسان لملاقاتها قبل وصولها تلمسان، فوقعت معركة بجبل بني ورنيد، سقط أبو حمو موسى الثاني

1– ابن خلدون يحي ، بغية الرواد ، ج 1 ، 236 ، ابن خلدون ، العبر ، مجلد 7 ، ص 253 ، توفي الأخوان سنة 753هـ ، 1352م.

2– ابن خلدون ، العبر ، مجلد 7 ، ص 236-238.

خلالها من فوق ظهر جواده، فهلك من جرائه وبذلك تمكن أبو تاشفين من الوصول إلى حكم الدولة الزيانية[1].

وعندما توفي هذا السلطان حدث صراع حاد بين إخوانه وكان أول ضحية هذا الصراع ابنه ثابت[2]، الذي خلفه في حكم الدولة الزيانية، فلم ينعم بهذا العرش إلا فترة قصيرة حتى ثار عليه عمه أبو الحجاج يوسف، فعزله وتولى شؤون الدولة مما جعل الدولة المرينية ترى فيه خطرا على مصالحها، فشجعت أبا زيان على الثورة عليه، وقد تمكّن من إزاحته من على السلطة بفضل الموالين للدولة المرينية داخل المجتمع الزياني، لكنه مثل سابقه لم ينعم بالسلطة، إذ ثار عليه أخوه السلطان أبو محمد عبد الله الذي تحالف مع القوة المرينية في الوصول إلى الحكم.

وهكذا نجد أن القوى الخارجية كانت تسعى إلى تعيين من يتولى شؤون الدولة الزيانية.

- **ج:** خضوع القبائل في المرحلة الأولى وتدخلها في شؤون الدولة في المرحلة الثانية، ففي عصر قوة الدولة وعلى الخصوص في عهد السلطان يغمراسن بن زيان، وأبو تاشفين الأول، استطاعت الدولة الزيانية أن تتحكّم في القبائل، وتتدخل في تعيين شيوخها، وتتقرب من البعض منهم، وتعيينهم على بعض ولاياتها، ضمانا لاستمرار تأييدهم لها وعدم تعاونهم مع أعداء الدولة، فيغمراسن بن زيان، استطاع بفضل سياسته الحكيمة أن يحقق نجاحا كبيرا

1- ابن خلدون،العبر، مجلد7،ص305 ،بغية الرواد،ج2 ،ص313.

2- التنسي،نظم الدر والعقيان،ص336.

في سياسته الداخلية، لأنه استطاع أن يتقرب من رؤساء القبائل البربرية، ويسلك نحوها طريقتين:

- **أولا:** استغلالها لصالح الدولة، مما جعله يحقق نجاحا في توحيد دعائم الدولة الزيانية ولكي يضمن بقاء موالاتها، أسند إلى بعض شيوخها المقاطعات، كما أسند إليهما بعض المهام الأخرى، لكي يكون جدارا منيعا ضد أعداء الدولة[1].

- **ثانيا:** أسلوب العنف لأن هذه القبائل كانت في بعض الحالات تتحالف مع القوى الخارجية، مثل الحفصيين الذين كانوا يرون في هذه القبائل وتحالفهم معهم، طريقة لمواجهة طموح يغمراسن بن زيان، في إقامة دولة قوية، لكن لم يرض بالأمر الواقع، فأعلن الحرب على تلك القبائل، واجتاح مضارب بني زيان، توجين ومغراوة، لإخضاعه للسلطة المركزية[2].

وبعد وفاته تولى ابنه أبو سعيد عثمان يغمراسن[3]، فحاول أن يسلك مع هذه القبائل، سياسة اللّين مما جعلها تعلن مهادنتها له، وبذلك تمكن من توحيد القبائل، وجمع صفوفها وتوحيد كلمتهما لصالح الدولة وكانت القوى الخارجية ترى في ذلك خطرا على نفوذها. وقد حدث ذلك في عهد السلطان أبي عثمان

1- من بين الاعداء،المرينيين ويبدوان سبب النزاع بين يغمراسين وبني مرين، يرجع إلى الجواب في الموطن والمنافسة على رئاسة قبائل زناتة، أنظر،ابن عذاري،البيان، المغرب تحقيق ليفي برفنسال ط باريس 1929.

2- ابن خلدون، العبر،مجلد7، ص137، ابن ابي زرع و وض القرطاس، ص197 السلاوي لاستقصا، ج3، ص96،.

3- ابن خلدون العبر ، مجلد 7 ، ص204، بغية الرواد ، ج1 ، ص208.

سعيد بن يغمراسن، الذي تمكن بفضل سياسته أن يوجّه القبائل بحملة كبيرعلى الدولة دامت أكثر من ثماني سنوات، حوصرت خلالها الدولة[1].

أمّا السلطان أبو تاشفين الأول، فقد وقف هو الآخر موقفين متعارضين:

- **الأول:** مواجهة هذه القبائل، التي كانت قد أعلنت الثورة على السلطان أبي حموموسى الأول، وعلى الخصوص قبيلة مغراوة[2] وبني توجبين، كما قضى على الحركة الانفصالية، التي قام بها محمد بن يوسف في مليانة، في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول ثم مدّ نفوذه على حساب الدولة الحفصية[3]، وتحالف مع القبائل الثائرة عليها في منطقة الزاب، التي كانت تحت إشراف ابن مزني.

- **ثانيا:** عمد في بعض الأحيان إلى مهادنتها مما جعل الدولة المرينية ترفض السيطرة فتحركت لتحطيم قوة بني عبد الواد لأن أمراءها لا يريدون أن يروا في حدودهم الشرقية دولة قوية، ربما ستخلق لهم مشاكل، وعلى الخصوص حدودهم الشرقية وهو ما دفع بهم إلى التحالف مع الحفيصيين، ضد السلطان أبي تاشفين الأول الذي واجه التحالف بكل شجاعة، مما جعله يسقط في ميدان المعركة، هو وابناؤه وكبار موظفيه، دفاعا عن استقلال الدولة الزيانية[4].

1- ابن خلدون،العبر،مجلد7،ص441-444، روض القرطاس،ص278،يذكر ابن خلدون يحي، ان اول مانزل نزل بدرع الصابون بطاهر تلمسان، 1297،689، بغية لرواد، ج1،ص209 .

2- ابن خلدون ، العبر ، مجلد 7 ، ص 216-238.

3- نفسه،ج7،ص239 ابن خلدون بغية الرواد ، ج1، ص218، السلاوي المصدر السابق ، ج3 ، ص253 .

4- ابن خلدون يحي ، بغية الرواد،ج1،ص236،ابن خلدون،العبر مجلد 7،ص 253 .

وهناك مثال يتجلّى في عهد السلطانين أبي ثابت وأبي سعيد اللذين استطاعا إحياء الدولة الزيانية من جديد، بفضل تعاونهما، كما تمكّنا من قمع الثوارت التي قامت بها الدولة الزيانية، والتي كان من ورائها تنافس العصبيات القبلية في أرض الدولة الزيانية المتمثلة في قبيلة كومية، وهوارة، وبني راشد، ومغراوة، وبعد نجاحه في توحيد تلك القبائل، ثارت ثائرة المرينيين فقاموا بحملة أدت إلى سقوط الدولة الزيانية، ومقتل أبي ثابت وأبي سعيد[1].

ولم تعد الدولة إلى سابق عهدها لا في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني الذي استطاع ان يشتت شمل القبائل التي تحالفت مع الدولة المرينية، مثل قبيلة مغراوة، سنة762هـ/1360-1361م[2] أما بنوتوجين فكان على رأس القبيلة علي بن عمر بعد قتل أخيه نصر بن عمر[3]، الذي عُرف بتقليب سياسته من مهادنة إلى معارضة، لذلك عندما تسوء أحول أبي حمو موسى ينسحب من جديد ويتخلى عن المعارضة ولم يتوقف عند هذا الحد، بل تحالف مع أعدائه، فقد وقف إلى جانب علي بن هارون، وأنصاره ضد السلطان الذي قام بحملة قوية استطاع خلالها قمع القبائل المتمردة على الدولة، فداس مضارب توجين، ومغروارة[4] حتى وصل إلى جزائر بني مزغنة. كما قام أبوزيان بن أبي يحي الراشدي، بالتمرد على أبى حمو موسى، فقاومه وألقى عليه القبض، وأدخله السجن، إلى أن مات وبموته ضعف بنو راشد، وخضعوا لأبي حمو.

1- قتل الاخوان خلال مواجهتهما للجيوش المرينية سنة 735هـ،1352م،انظر ابن خلدون،العبر ، مجلد،7، ص253، بغية الرواد،ج1، صص236-237

2- ابن خلدون، العبر ،مجلد7،ص254.

3- نفسه مجلد7 ، ص254.

4- ابن خلدون ، العبر ، مجلد 7،ص621.

هذا ما يتعلق بالقبائل البربرية، أما العربية فكان خطرها على الدولة لا يقل عن الأولى فقد استطاع السلاطين الذين سبقوا أبا حمو موسى، من قمع ثوراتها، لكن في عهده سببوا له مشاكل، وعلى رأس هؤلاء شيوخ بني عامر وسويد، وحصين، مقابل ذلك كان الأمراء المتأخرون ألعوبة في يد غيرهم وعلى الخصوص شيوخ القبائل، ويذكر ذلك الرحّالة المصري عبد الباسط خليل، الذي زار تلمسان في الثلث الأخير من القرن 9هـ/15م، حيث تعرض لاستبداد شيوخ القبائل وأثرهم على أمراء الدولة الزيانية، وفي هذا الصدد قال: " ثم عاد محمد بن أبي ثابت إلى المدينة في موكبه الحافل، بمناسبة يوم عيد الأضحى، فسمع أمراء في غضون اجتيازه على الناس من يدعوا له بدعوات، من ذلك أن يسخروا له سليمان بن أبي موسى فعجبت من ذلك، فقيل لي أن سليمان هذا من كبار أمراء عرب تلك البلاد، وهو أمير عربان هلال، إلا أن قال ومن كان سليمان معه من ملوك تلمسان، رابح أمره، ومن كان عليه بني أدباره"[1].

فهذا النص الذي جاء به عبد الباسط خليل الذي زار تلمسان في عهد المتوكل الذي يعتبر أقوى من الأمراء الذين سبقوه، لكنه كان يخضع لتأثير هؤلاء الشيوخ، ويمكن أن نستخلص من النص مايلي:

- **أولا:** أن شيوخ القبائل العربية الذين كان لهم تأثير على أرياف الدولة الزيانية، انتقلوا إلى مدن وأمصار الدولة واستقر بعضهم بعاصمتها، وبذلك أصبحوا يوجّهون سياسة الدولة، وينصّبون من أرادوا ويعزلون من يرونه

1- عن محمد بن أبي ثابت المتوكل انظر التنسي المصدر السابق ص255-271.

* Abdel B Halile Op Cit

.p.p 155-136

غير مساير لمصالحهم الذاتية مما يوضّح لنا ضعف أمراء الدولـــة فـــي هـــذا العصر.

- **ثانيا:** أن كل الناس كانوا على دراية بحكم الدولة ليس أمراء بني زيـــــان، بل هؤلاء الشيوخ الهلاليين، الذين زاد نفوذهم بعد ضعف القبائل الزيانيـــــة، وهو ما يؤكده السليماني بقوله"كان أمراء العرب زعماء على استبدادهم بجباية شعوب زنانة، الخاضعين لهم، فكانوا يأخـــذون مـــن ذلـــك قـــسطا معلومـــا، ويخضعون لحكومة تلمسان، فكانوا في الحقيقة نوّابا عن الحكمة، يؤدون لهـــا طاعة معلومة، العسكر عند الاجتياح للدفاع عن الـــوطن، وجبايـــة الطرقـــات ورفـــع اليد العادية، مع ذلك يدعون لسلطان بني زيان علـــى منـــابرهم فـــي مدنهم، وقراهم في جمعاتهم وأدعيادهم"[1] .

يتجلى لنا ذلك من النص ضعف السلطة المركزية وتحـــدي القبائـــل لهـــا ونتوصل من خلاله إلى مايلي:

- **أولا:** أن الدولة الزيانية فقدت حق الإشـــراف على جبايـــة الـــضرائب من القبائل مثل ما كان عليه الحال في عصرها الذهبي، إذ لم يكـــن موظفـــو الدولـــة هم الذين يقومون بذلك بمساعدة الحامية العسكرية، بل أصبح ذلك من احتكار القبائل العربية.

1- السليماني الشمارخ، ج3 ورقة111 أما الموظفون الذين كانت الدولة تعهد إليهم بمهمة جمـــع الضرائب في الغالب يكونون من أقرب المقربين لسلاطين الدولة كأبنـــائهم وفـــي ذلـــك يقـــول عبدالرحمن بن خلدون أن أبا حمو موسى الثاني قد بعث ولده أبا تاشفين لقبض الصدقات، انظر العبر، مجلد7، ص920.

- **ثانيا:** أن الأقاليم التي كانت الدولة تعيّن لها قادة مثل جزائر بني مزغنة والمدية ومليانة وبرشك أصبحت من اختصاص شيوخ القبائل، مما جعلها فيما بعد تعلن انفصالها عن الدولة.

ومن بين العلماء الذين تناولوا استبداد شيوخ القبائل وأخرجوهم عن سلطتهم[1] ونفوذهم، فهم لايعترفون بسيادة بني عبد الواد وأحسن مثال على ذلك سويد وبنوعامر أما نصّ الاستفتاء فقد جاء فيه: ‹‹سأل الحفيد محمد العقباني عن هؤلاء الأعراب المتغلبين على البلاد لضعف السلطة أحيانا يكونون خدّاما للسلطان وتارة يكونون متحالفين على السلطان، كما يفعل عرب بلاد بني عامر وسويد، يعمد أحدهم الى تولية قاضي في وطنه بلا أمر الإمام فيقضي ،هل تصح توليته وتنفيذ أحكامه».

كما يؤكد هذا الاستبداد السؤال الذي وجهه للإمام بن عرفة في الموضوع نفسه، وهو أن القبائل رغم خضوعها للحكومة المركزية فإنها عندما تشعر بضعفها تنتصر عليها وتطالب بتوسيع إقطاعياتها.

وهو ما يؤكده المازوني[2] بقوله: «جماعة في مغربنا من العرب تبلغ مابين فارسها وراجلها قدر عشرة ألاف أو تزيد ليس لهم حِرف إلاّ شنّ الغارت وقطع الطرقات على المسلمين وسفك دمائهم وانتهاب أمولهم بغير حق يأخدون حريم الإسلام أبكارا أوشيوخا قهرا وغلبة وبهذا دأب سلفهم وخلفهم مع ان أحكام السلطان أو نائبه لاتنالهم بل ضعف في مقاومتهم بل أذعن وأصبح يغدق عليهم الأعطية والانعام لبعض رعيته ونصب عمالهم فيها، وقطع عمال

1- المازوني : الدرر المكنونة في نوزال مازونة ورقة ج1 ورقة.
2- نفسه ، ج1 ، ورقة P.223

السلطة، عن النظرفي جبايتها ثم مع ذلك لاتأمن من الرفاق عمّال السلطان، فنصبوا الغارات على هذه البلاد وقتلوا من عاجلوه، وقطعوا الطرق[1].

الذي يستخلص من النص يتمثل فيما يلي:

- **أولا:** أن القبائل في نهاية القرن9هـ/15م لم تكن تقدّم مساعداتها للدولة كما كانت عليه من قبل تشارك في قوة الدولة، لكن في هذه المدّة أصبحت تلك القوة تستغل في الاغارة على القبائل الضعيفة وعلى الخصوص القبائل البربرية[2] التي انهكتها الحروب السابقة التي عاشتها الدولة الزيانية، فأصبح شيوخها يقدّمون الأموال للقبائل العربية مقابل حفظ مضاربهم من غارات تلك القبائل.

- **ثانيا:** لم يكن لاستبداد هذه القبائل وانفصالها عن الدولة انعكاسا عليها فقط، بل حتى رعاتها الذين أدّوا أدوارا لايستهان به في تعطيل الحركة التجارية بين أسواق الدولة ومدنها، لهجومهم على القوافل التجارية التي تنتقل بين تلك المدن والأسواق وحتي الزوايا لم تسلم من غاراتهم وهذه الغارات المتواصلة على مضارب القبائل وقطع الطرقات على القوافل التجارية جعلت هؤلاء يتحصّلون على أمول طائلة، وهو ما دفع بالوزان[3] إلى القول: ان ما يملكه شيوخ هذه القبائل في خيامهم، من أموال وأثاث لا يوجد في قصور الدولة الزيانية.

1- المازوني ، المصدر السابق، ج1 ، ورقة 295 .

2- من ابرزالقبائل التي انهكتها الحروب قبيلة مغراوة وبني توجين ، وهوارة ، مماسهل القبائل العربية في زحزحتها من مضاربها ، وقد بدأ ذلك في نهاية عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني 791هـ، 1391م نستعرض في الباب المتعلق بالاحوال الاجتماعية الى الصراع القبلي الذي عاشته ارضي الدولة الزيانية في عهد هذالفترة .

3- حسن الوزان ، المصدرالسابق ، ص306.

أم الفقهاء في نوازلهم أمثال المازوني[1] فقد طرحوا قضية التعامل مع هـذه القبائل لأن أموالهم اغتصبوها من القبائل الأخـرى وأجـازوا التعامـل فـي المواشي لأنهم كانوا مربين لها.

وهكذا نجد أن سلاطين الدولة المتأخرين كانوا عاجزين أمام استبداد هـذه القبائل وتأثيرها على الحياة الاقتصادية بتعطيلها للمسالك التجاريـة، وفـرض ضرائب جائرة على القوافل مقابل حمايتها، عكس مـا عرفتـه الدولـة فـي عصرها الذهبي، ضمنت أمن القوافل التجارية بتجهيـز فـرق مـن قواتهـا العسكرية لحراسة تلك القوافل، مما أدى إلى ازدهار النشاط التجاري[2] ودفـع إلى استغلال أراضيهم الزراعية.

- **ثالثا:** إن الأقاليم التي كانت الدولة تعيّن لها قادة مثل جزائر بني مزغنـة، والمدية ، ومليانة، وبرشك - كما ذكرنا سابقا- أصبحت من اختصاص شـيوخ القبائل، مما جعلها فيما بعد تعلن الإنفصال عن الدولة وحتى بقية الموظفين، فقـد أصبحوا هم الذين يختارونهم وفي مقدمتهم القضاة لتطبيق الأحكام وهو ما يتأكـد لنا من خلال هذه النازلة "الحمد لله جوابكم في أمرنا وهو أن من أهل القرى لـم يكن عندهم سلطان يحكم أمرهم، فأهل القبيلة ليس عندهم إلاّ الشيوخ، كما عرفتم أمر القبائل أجازوا لهؤلاء أن يتخذوا قاضيا بأجرة معلومة، عند تمام كل سنة يأخذ أجرته التي تفرض على الشيوخ، ثم إن هؤلاء عند الميعاد يأخذون ذلك من أهـل قريتهم من الرجال والنساء والصبيان، إلى غير ذلك مما يوضح لنا فـقـدا

1- المازوني، المصدر السابق، ح2، ورقة 276 P .

2- الحسن، المصدر السابق، ح2، ص195. أنظر:
Route du commerce et des échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée p 3 6 7.

الدولة لسلطتها، وعدم تحكمها في تلك القبائل، مما يؤكد ما توصلنا إليه أن عبدالله المستعين الذي قال عنه التنسي أنه "لمّا وصل إلى الحكم قامت عليه ثورات متعدّدت استمرّت طوال حكمه الذي دام ثلاثين سنة[1]".

- ثورات أمراء الدولة في عصر الانحطاط وقلتها في عصر الدولة:

لم تعرف المرحلة الأولى ثورات أمراء الدولة على إخوانهم وأعمامهم وأبائهم كما عرفته مرحلة الانحطاط، التي كانت سببا في انفصال أقاليم الدولة، ونستدل على ذلك من سيرة أبي عبد الله محمد المستعين الذي قال في شأنه: " فلمّا وصل الوطن بايعه أولاد بليل، ومليكش، وبنوعمر، وموسى وجمهور الثعالبة وحصين".

يبدو أن تلك القبائل لم تكن موالية للدولة الزيانية، لذلك اغتنموا ثورات هذا الأمير فتحالفوا معه ضد أمير تلمسان مقابل الاستفادة من إقطاعياته لهم بعد توليه السلطة، كذلك توضح لنا حركة ابنه المتوكل الذي ثار على السلطان الزياني، أغلب القبائل لم تكن تابعة للدولة وفي هذا الصدد يقول التنسي عن المتوكل: "أنه مهّد متيجة وتقدم إلى المدية وفتحها ثم توجّه إلى مليانة، فأخذها وتمادى إلى تنس، فاستولى عليها، وهناك التحق به نفر من بني عبد الوادي وأهل تلمسان ومنها التحق بعاصمة الدولة"[2].

وهكذا نرى أن الخروج عن السلطان لم يكن مقتصرا على القبائل فقط بل يشمل أمراء الدولة أيضا بمساعدة بعض أعيان تلمسان، الذين كان لهم تأثير داخل المجتمع، وأحسن مثال على ذلك ما حدث للأمير أبا يحيى بن أبي حمو

1- المازوني، المصدر السابق، ج1 ورقة289.

2- التنسي، المصدر السابق، ص255.

موسى الثاني الذي لقي تأييد موسى بن حمزة، وعبد الله بن عثمان وسليمان بن موسى، ولعلّ هؤلاء من أبرز شيوخ القبائل الذين لهم تأثير على الدولة الزيانية[1].

وحدث ذلك لأحمد بن الناصر بن أبي حمو، الذي التفت حوله طائفة من أعيان تلمسان، وعندما فشل في إزاحة السلطان ألقي علية القبض، وأتى به الأمير أحمد فأمر بقتله[2] وحدث بين الأمراء الذين أعلنوا ثورتهم على دولة محمد ابن عبد الرحمن الذي ثار على المتوكل والتفت حوله مجموعة من أعيان تلمسان، وتعلقوا بدعوته حسب تعبير التنسي فأقام أياما محاصرا تلمسان والقبائل المجاورة مما جعلهم يستطيعون الدخول إلى المدية، إلاّ أن الجماعة الموالية للمتوكل قد استطاعت تثبيت صفوف هؤلاء، فرحلوا عن تلمسان بينما عاد البعض إلى خدمة المتوكل واستمر البعض الآخر في المعارضة.

ومن الثائرين من أمراء الدولة محمد بن عالية: الذي استطاع أن يجمع حوله بعض شيوخ قبائل النواحي المجاورة لتلمسان فالتقى بالجيش الزياني الذي أرسله المتوكل بجبل بني ورنيد فقتل الثائر، مع مجموعة من أتباعه.

هذه الثورات المتوالية أثرت تأثير سلبيا على أوضاع الدولة الزيانية في عصر العباس العاقل، فقال[3]: « استولى المتغلبون على الأوطان، أكثر الثوار من الزناتية والعربان».

1- نفسه ، ص 256

2- نفسه ، ص256

3- التنسي،المصد ر السابق،ص256.

فاغتنمت كل جهة تناحر بني زيان وتقاتلهم وتضغط عليهم لتحكم نفسها بنفسها، فتقلصت مملكة تلمسان إلى أن أصبحت لا تتعدّ العـــاصمة ونواحيها[1]، فقلّ الرجال المدافعون عن الملك[2] وهذا ما يؤكده السليماني بقوله ولي الأمر بعد هلاك سابقة في حدود الستين وثمانمائة فأقام بأمرهم ولم يتعد نفوذ أعمال تلمسان ووهران وبني راشد وقد سالم أمراء العرب.

- ثورة محمد بن يوسف الملياني

عرفت الدولة الزيانية خلال هذه الفترة مجموعة من الثورات منها ثورة محمد بن يوسف الملياني، في عهد السلطان أبي قلمون[3] لأن رجال الزوايا خلال هذه المدة أصبحوا يشكلون قوة جديدة في المجتمع الزياني، يُحسب لها ألف حساب وقد أدرك بعض الأمراء دور الطريقة فتقربوا منهم، ومن بين هؤلاء المستعين الذي وجه عناية لأبي الحسن مخلوف الملقب بأبركان، الذي كان يتوجه إليه في حالة الشدائد، كتهديد السلطان الحفصي للدولة انزيانية وكذلك الثاني الذي تقرّب من محمد بن يوسف الملياني، فسهّل له مهمة تأسيس أول زاوية له برأس الماء، عند مضارب بني راشد غير بعيدة عن مقر قائد وطن بني راشد .

ورأى الثابتي بأن عمل الملياني سيكون له تأثيرا إيجابيا على الدولة، لأنه سيجعل الناس يلفون حولها، مما ساعد الملياني على مزيد من الظهور،

1- نفسه، ص256

2- نفسه،ص256.

3ـ هوالاميرأبو قلمون عبد الله بن محمد المر،أي نفس المصدرج1،ص96، ابو على الحسن ابركان مخلوف المريلي الراشيدي بين تلمسان لمزيد من المعلومات عنه،انظر ابن صعد،روضة النسرين في التعريفب الاشباح الاربعة، مخطوطة رقم 259 .

والنفوذ، فأصبحت لها اليد الطولى على قادة الدولة، وقضاتها بإقليم بني راشد، فلا يردّ له القائد طلبا ولا يخالف القاضي له أمرا، وحتي أمراء الدولة الزيانية برأس الماء، لأنها تعتبر حرما لا تصله أيديهم ولا يتعقبون من يتجه إليها من بطشهم.

وبذلك يكون الثابتي قد ملك الزاوية من موارد اقتصادية هامة انتهت بها إلى طور القوة ودخول المغامرة السياسة.

هذا ما يلخص عهد السلطان الثابتي الذي سالم الملياني وحاول استغلاله لصالح الدولة، فأما الذين جاؤوا بعده فوقفوا موقفا معارضا له، والباحث يجد صعوبات فيما يتعلق بتحديد تاريخ ثورة الملياني على الدولة الزيانية، وفي عهد أي أمير من الأمراء الثلاثة، الذين ورد ذكرهم في البستان، وهم أبو عبد الله وأبو حمو موسى الثالث، والمسعود[1].

بعض الكتاب الذين تناولوا الموضوع اعتبروا أن الثورة كانت في عهد السلطان أبي عبد الله، واستمرت في وقت أبي حمو موسى الثالث.

ومن أبرز دوافع تغيّر سياسته تجاه أمراء الدولة الزيانية:

- **أولا:** أن الأمراء الثلاثة الذين ورد ذكرهم لم يعتنوا بالرّعية فزاد انتشار الآفات الاجتماعية، دفع الملياني للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، بمضارب بني راشد.

- **ثانيا:** الدافع الديني ويتمثل في أن أمراء الدولة في المرحلة الأخيرة استعملوا الجالية اليهودية، في تسيير اقتصاد الدولة مما كان لها رد فعل علماء الدولة

1- محمد الصياغ القلعي ، بستان الازهار ورقة 16 حكم ابو عبد الله مابين سنة 1500-1505و ابوحموموسى الثالث مابين27-1528انظر ملاحق هذه الرسلة.

ورجال الزاوية بها وفي الزاوية الراشيدية مما دفع بأمراء الدولة الزيانية إلى تغيير موقفهم من محمد بن يوسف الملياني.

لا نعرف تاريخ تغييرهذه العلاقة، كل ما لدينا هو النص الذي جاء به الصباغ وقد اعتمد عليه كل الذين كتبوا سيرة محمد بن يوسف الملياني وقد ذكر أنه ذات يوم بوهران في جمع من مريديه جالسين ينشدون قصائد التصوف ويرقصون وإذا ما استراحوا تبادلوا الآراء ويتجاذبون أطراف الحديث في شؤون العامة وفي نظام الدولة الزيانية فقال أحدهم عن هذه الدولة «إنها سلطة كسلطة اليهود[1]» .

يبدو أن عيون السلطان الزياني كانوا مندسّين بين مريدي الزاوية الراشدية مما جعل الخبر يصل إلى أبى عبد الله الذي أمر قائد وهران بإلقاء القبض على الملياني، وعندما علم بذلك أنذره أتباعه في وهران بترك المدينة والتوجه إلى رأس الماء حتى لا يُلقى عليه القبض ويُسلّم إلى الأمير الزياني الذي علم بانسحابه من وهران فأخبر قائد قلعة بني راشد أحمد بن غانم بإلقاء القبض عليه، غير أنه عوض أن ينفذ أمر سلطانه بإلفاء القبض على الملياني اكتفى بالمطالبة بإبعاده عن قلعة بني راشد حتى لا يفهم أنّه من بين أتباعه.

فهذا الأسلوب الذي أتبعه قائد وطن بني راشد يؤكد شيئين أساسيين:

- **أولا:** أن الزاوية الراشدية كان لها تأثيرا كبيرا بمضارب بني راشد بفضل الملياني، وطلابه، ومريديه الذين كانوا موزّعين ببني راشد، وهوارة، والحشم،

1- الصباغ،المصدر السابق،ورقةP7،المرزي سعد السعود،ج1 ،ص74،تحقيق يحي بوعزيزدار العرب لاسلامي سنة

وغيره من قبائل الناحية، ولعل هذا هو سر تأييد سكان المنطقة للأخوين عروج وخير الدين ومشاركة مجموعة من طلبة الملياني في معركة قلعة بنى راشد.

- **ثانيا:** أن موظفي الدولة الزيانية، لم يكون ينفذون أوامر الدولة، وهذا أدى بالدرجة الأولى إلى ضعف قوة الدولة واعتمادها على شيوخ القبائل، وهو ما لا نجده في عصرها الذهبي، وأحمد بن غانم هو الذي اقترح على الملياني الارتحال من وطن بني راشد، فارتحل إلى موضع يقال له يلل[1] من وطن بني وغد[2] بمضارب هوارة.

وأن اختيار وطن هوارة، الذي تحت إشراف سويد يدل على قوة هذه القبيلة، التي لا يستطيع السلطان الزياني أن يفرض عليها الأمر الواقع لكي تسلمه له، لأنها من القبائل المستقلة عن الدولة لكثرة الاضطربات بأمصارها وأريافها، لكن همه الوحيد تمثل في قضاء جل وقته في سماع الموسيقى وغيرها، ومما زاد من خطورة الوضع أنه استظهر على أمره ببطانة من جالية الأندلس فسرحوا به في مضايق الحضارة والانغماس في نعيم الترف حتي صرف الاموال في الشهوات ولوازم الرفاهية.

1- يلل،من المدن القديمة ، و ذكرها الذي الرحالة امثال ابن حوقل والبكري وهي الان من بين دوائرولاية غليزان ولاتزال تحمل نفس الاسم، أنظر ابن حوقل صورة الارض البكري المغرب، ص

2- بني وغدا وبنووغد قبيلة قريبة من هوارة شرق مدينة معسكر التي تعرف اليوم بالقلعة، انظر المرزاي المصدرالسابق ، ج1 ، ص74.

يبدو من النص أن هناك فئتين من المهاجرين الأندلسيين:

- **الأولى:** كان لها تأثير إيجابي على الدولة الزيانية بنشر الفنون الأندلسية في أوساط المجتمع الزياني فأزدهرت الثقافة والصناعة والزراعة ونشطت حركة الجهاد البحري انطلاقا من موانئ الدولة الزيانية لانقاذ إخوانهم في إسبانيا .

- **الثانية:** لم تغير أحوالها التي كانت عليها في الأندلس كالانغماس في النعيم والترف في الوقت الذي كانت فيه القوة الإسبانية تستولي على مضارب الأمصار والقلاع والحصون الإسلامية وعندما انتقلت إلى بلدان المغرب الإسلامي، استقرت بالأمصار وتقربت من أمراء الدولة وأعيان المجتمع فكان تأثيرهم سلبيا، فقد دفعت بأمراء الدولة الزيانية إلى الانغماس في اللهو وتسخير أموال الدولة في هذا الميدان وعدم الاهتمام بشؤون الرعية وكذلك الجيش الذي يحتاج الى الأموال، فزادت الثورات وكثرت التدخّلات الأجنبية في شؤون الدولة واستغلت الجالية اليهودية ذلك، وقد علّق على هذا السليماني فقال:« اتخذ أبو العباس أعوانا من اليهود لجباية الأموال وقبض العشار من تجار الإسبان وغيرهم من المتردّدين للتجارة على سواحل المغرب الأوسط فاستطالوا على الرعية بضرب الثغور وأخذ الأموال وتوظيف الضرائب المتنوعة وامتدت اليد العادية إلى مصادرة ذوي اليسار وأهل الفضل واشتدت الوطأة على الناس»[1] .

يستخلص من النص مايلي:

- **أولا:** استغلال أفراد الجالية اليهودية للوضعية السياسية للدولة الزيانية أحسن استغلال، إذ أنهم رفضوا دفع الجزية بدعوى أن ذلك يقلّل من مكانتهم، كما

1- عن السلطان ابو عبدالله J.J.L.Barges، Complemen de histore des Ben zeiyan Rois de Tlemcen، Paris, 1887.P 366.

حاولوا إنكار بعثة الرسول(ص) فدخلوا في مناظرات مع علماء الدولة الزيانية ولم يحدث هذا في عصر قوة الدولة.

- **ثانيا:** تحكموا في أسواق الدولة الزيانية بالمناطق الشمالية والواحات الصحراوية وأصبحوا هم الذين يحددون أسعار البيع والشراء دون تدخل الدولة التي تخلّت عن دورها، فأصبح هؤلاء هم الذين يشرفون على مكاتب الديوانة في كل موانئها ويحددون أسعار الضريبة الجمركية دون الرجوع إلى الدولة ولا يسلمون لها إلا الجزء القليل مما كانوا يقبضونه.

كما قاموا بتحديد الضريبة وجمعها من التجار والحرفيين المسلمين بأسواق الدولة الزيانية كما أشرفوا على أخذ المكس على القوافل التي تأتي الى أمصار الدولة ومنها مدينة تلمسان.

فهذا الدور الذي أصبح من صلاحيات الجالية اليهودية وهو الإشراف الكلي على الحركة الإقتصادية في الدولة الزيانية، دفع بعلماء تلمسان إلى مواجهة السلطة الزيانية، فهذا ابن مرزوق يعلّق على الأوضاع فيقول:
« تلمسان دار لا تليق بحالنا ولكن لطف الله نسأل في الفضل[1] فكيف يرجى الخير فيمن يسوسه يهود وفجار ومن ليس يرتضى » أما عبد الكريم المغيلي فقد فضل الهجرة إلى الواحات الصحراوية حيث قاد المقاومة ضد الجالية اليهودية في إقليم توات الذي كان مفترقا لطرق القوافل التجارية.

1- المقرى ،نفح الطيب، ج4،ص366) عن هجرة المغيلي إلى اقليم توات،انظر الونشريسي، المعيار،ج2 ،ص276
الحسن الوزان،وصف إفريقية تحقيق حجي دار الغرب بيروت 1983،ص505 .

- كثرة الأوبئة في ضعف الدولة وقلتها في عصر قوتها

ومما زاد الأمر سوءا في هذه المرحلة من حياة الدولة الزيانية انتشار الأوبئة التي عمّت الأمصار والأرياف وضّحت لنا سيرة محمد بن يوسف الملياني أخبار هذه الأوبئة وسجّل بعض حالاتها وعيّن أمكنة الإصابة بها في زاوية رأس الماء الراشيدية والقلعة ومستغانم وازدادت خطورة الإصابة بها في البادية[1]، وقام الملياني بدور مشرف في مواجهة المرض وإيواء المرضى.

- رابعا: المحافظة على الأمن في المسالك في عصرالقوة وانعدامه في قوة الضعف.

ومن بين الذين تناولوا موضوع انعدام الأمن في المسالك التي تربط عاصمة الدولة والدولة المجاورة لها الحسن الوزان الذي أشار إلى القبائل الموجودة في أنجاد بأنها كانت تشكل خطرا على القوافل التجارية التي تربط تلمسان بالواحات الصحراوية كتوات[2] وورجلان[3] وكذلك فاس وبقية مدن المغرب الأقصى وقد حاول سلاطين الدولة كسب ودّها بإغداق الأموال عليها مقابل حمايتها للقوافل المارّة بمضاربها ويزداد الأمر خطورة في فصل الشتاء إذ تتوجه القبائل المتحالفة مع الدولة إلى الواحات الصحراوية فترتفع حركة الاعتداء على القوافل.

1- الصياغ ، البستان ، ورقات 76-88-59.

2- توات تقع اليوم بولاية ادرار و من أبرزقصورها التي عرفت دوار كبيرا في المبادلات التجارية تامنطيت ، انظر، الوزان المصدر السابق .

3- ورجلان ،ضبطها ياقوت الحموي ورقلان بينما رسمها ابن خلدون و ركلة و جاءت عند الإدريسي ورجلان وهي لان عاصمة لولاية ،انظر ابن خلدون ، العبر مجلد 6، ص418، يافوت الحموي ، معجم البلدان ج8 ، 414 الاداريسي صفه المغرب نشر هنري بيريس الجزائر 1957 ص120

وقد نبّه على ذلك قبله الرحّالة عبد الباسط خليل، الذي ذكر أن الطريق الذي يربط تلمسان بفاس، يتميز بخطورة لكثرة قطاع الطرق الذين يشنّون الغارات.

ولم يكن هذا المسلك هوالوحيد الذي يتعرض لتلك الغارة، بل حتى الذي يربط وهران ومستغانم بمدينة تلمسان: قبائل سويد، وبني عامر، والناحية، وكذلك الذي يصل هنين بتلمسان حيث يوجد ذوي عبيد الله الذين يغيرون على القوافل التي تسلكه.

- خامسا: جعل القيادة العسكرية لدى عديمي الكفاءة والتخصص

في أواخر عهد بني زيان خلافا لما كانت عليه في السابق، يعتبر هذا من بين عوامل الاختلاف بين العصر الذهبي وعصر الإنحطاط، لأن القيادة العسكرية في الفترة الأولى كانت بيد أشخاص لهم معرفة بشؤون الحرب، عكس المرحلة الأخيرة التي انتزعت فيها السلطة من رجال الحرب، وأعطيت لأناس لاعلاقة لهم بفنون القتال.

كما أن القوة التي واجهتها الدولة الزيانية في مرحلتها الأولى كانت متشابهة معها من حيث الأسلحة، وفنون الحرب[1]، عكس المرحلة الأخيرة، وعلى الخصوص القرن العاشرهجري والسادس عشر ميلادي، حيث كانت أسلحة القوى التي تصارعت معها أكثر تطورا مما لدى الجيش الزياني، كما أدى تقلّص نفوذها إلى قلّة مدخولها، وبذلك عجزت عن تجنيد القوات لمواجهة

1- أحسن مثال على ذلك يغمراسن بن زيان وأبو تاشفين وأبو ثابت،انظر ابن خلدون العبر،مجلد 7،ص163-166ابن أبي زرع الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبارملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،فاس 1343-188.

أعدائها، وأحسن مثال على ذلك أن السلطان أبا حمو موسى الثالث تلقّاها من الدولة الإسبانية، مقابل تبعيته لها.

- سادسا: أصبح جبي الضرائب على يد شيوخ القبائل بعد ماكان من اختصاص الدولة.

ومن بين أوجه الاختلاف بين العصر الذهبي وعصر الإنحطاط وفي المرحلة الأولى استطاعت الدولة الزيانية أن تفرض على أغلب القبائل الموجودة بأراضيها دفع مبالغ كبيرة من المال في شكل ضرائب متنوعة، استغلتها في مواجهة أعدائها، وقد أعفت تجار الدولة الزيانية بمدينة تلمسان[1] وحرفييها، مساعدة منها لازدهار الصناعة، والتجارة بتلمسان، ولكن سلاطين الدولة المتأخرين اختلفوا عن الذين سبقوهم، ففرضوا الضرائب على جميع البضائع والأموال الناتجة عنها، ويزعم أمراء هذه الدولة بأنهم فقراء، حيث أخذت منهم اجزاء من أراضي الدولة، وعلى الخصوص موانئها الرئيسية، واستمرار الحروب بينها وبين أعدائها بجعلها في أشدّ الحاجة إلى الأموال، تلك حال تلمسان ومدنها وأربافها فقد تميزت بالإجحاف، فالضرائب ثقيلة على الرعية[2]، وخطورتها تضاعفت بطريقة إدخالها على يد الولاة أو على يد شيوخ القبائل[3] مما كان يزيد من فقر المزارع ويعزّز تحوله من النشاط الزراعي إلى تربية المواشي، وهي نمط الترحال للتخلص من قبضة الحياة .

1- التنسي المصدر السابق ص 208 -214.

2- التنسي المصد السابق ، ص208 -214.

3- لمؤلف مجهول غزوات عروج وخيرالدين ورقات 76.

فلقد ذكر الحسن الوزان: أن النظام الجبائي بالمغرب الإسلامي لايترك للمزارع ما يكفيه لضمان قوته[1].

وهكذا نجد أن وضع الدولة الزيانية لنظام جبائي جائر يميز بين القبائل الخليفة فيعفيها من الضرائب والقبائل العارمة التي تتحمل أعباء هذا النظام الجبائي، جعل هذه القبائل الأخيرة ترفضه، وكان رفض الضرائب أهم عنصر في تحديد موقف القبائل من الحكم، كما كانت الضرائب من أهم أسباب عصيان القبائل، في أراضي الدولة الزيانية وقد أدي الفقهاء دورا أساسيا في تبرير ورفض القبائل لأداء الضرائب الشرعية.

- سابعا: الانغماس في الترف واللهو عكس مرحلة القوة.

ومن بين الإختلافات بين المرحلتين أن سلاطين الدولة الأوائل وعلى الخصوص المرحلة الأولى كانو يعيشون حياة بعيدة عن الرفاهية، مما جعلهم يحافظون على أموال بيت المال ويصرفونها فيما يعود بالفائدة على الدولة الزيانية، ومن علامات الإنحطاط التهافة على الحياة السهلة.

1- الحسن الوازن المصدر السابق ص353.

- اعتماد عناصر ذات كفاءة في تسيير شؤون الدولة في عصر القوة عكس فترة الضعف.

كما قرّب سلاطين الدولة إليهم في عصر قوة الدولة رجال الفكر والموظفين ذوي الكفاءة، كما حدث في عهد يغمراسن[1] بن زيان الذي اعتمد على أفراد من الجالية الأندلسية وبعض شيوخ القبائل وخاصة قبيلة بني عبد الواد[2].

وما يقال عليه ينطبق على السلطان أبى حمو موسى[3] الأول الذي استغلّ عائلة آل الملاح لكفاءتها فجعل أفرادها من كبار موظفي دولته وحتى ابنه[4] أبو تاشفين الأولى لم يحد عن هذه السياسة مما جعل عصره يعتبر من أرقى عصور الدولة الزيانية.

أما سياسة أمراء المرحلة الأخيرة فكانوا عكس من سبقهم، فهذا محمد بن أبي ثابت تاشفين بن أبي حمو امتاز عصره بعدم الإستقرار وهو ما يؤكده[5] السليماني بقوله:« تولى الأمر بعد عزل أبي العباس فتبدلت الأحوال واشتدت الأهوال وصار شوطا في إظهار الأئمة والتلبس عن الرفاهية وضاقت مدته وساءت سمعته».

يستخلص من النص أن التغيّر الذي حدث بعد توليه السلطة أنه لم يوجه أية عناية للدولة التي كانت تعصف بها الرياح.

1- ابن خلدون بغية الرواد ،ج1،ص106
2- نفسه ،ج1،ص216
3- نفسه ،ج1،ص216
4- نفسه ،ج1،ص212
5- السليماني ،المصدر السابق ،ج3، ص115.

الــفــصــل الثــانــي

تدهور الأحوال السياسية

من911/923هـ و1505/1517م

نظرا لتسارع الأحداث في هذه الفترة الممتدة من «906/962هـ الموافق لـ1500/1554م» قد قسمناها إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى:911هـ-923هـ/1505م-1517م

وقد بدأت هذه الفترة بأكبر حادث عرفته الدولة الزيانية في مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي وهو بداية الهجوم الإسباني على المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة.

ففي سنة911هـ/1505م سقط مرسى من أهم مراسي الدولة وهو المرسى الكبير وتنتهي هذه المرحلة الأولى بإستشهاد عروج سنة «923هـ/1517» على الأرجح وعودة السلطان الزياني أبوحمو موسى الثالث إلى عرشه.

وأما إنهيار صرح الدولة في هذه المرحلة فيرجع إلى عوامل منها:

1- العوامل الداخلية: من أبرز العوامل الداخلية التى أدت إلى ضعفها تقلص مساحتها.

قد عرفت الدولة الزيانية خلال عصرها الذهبي إمتدادا نحو الشرق فوصلت حدودها إلى جبال الزان (أكفدو) القريبة من بجاية وغربا مدينة تاوريرت التي تقع غرب وجدة بحوالي مائة وستة وثلاثون كلومتر وجنوبا حتى وادي مرب وواحة جورارة وشمالا البحر المتوسط بما فيه من موانئ ناشطة كدلس وجزائر بني مزغنة (الجزائر) وشرشال، برشك، تنس، مستغانم، أرزيو، وهران، أرشقول ومرسى هنين.

بعدها أخذت هذه المساحة تتقلص تحت الضغوط والضربات حتى فقدت الدولة سهولا ومدنا فأصبحت في عهد أبي عبد الله لا تتعدى أعمال تلمسان وإقليم بني راشد وقد أكّد ذلك السليماني فقال: «ولي الأمر بعد هلاك سابقه في حدود الستين وثمانمائة. فأقام بالأمر أبي عبد الله[1] ولم يتعد نفوذه أعمال تلمسان وبني راشد بعد أن سالم أمراء العرب »[2].

وقد استمر هذا الوضع خلال فترة موضوع البحث بل زاد عما كان عليه من قبل فقد فقدَ بنو زيان «المرسى الكبير سنة «1505/911»، ووهران«1509/914»، وهنين/1531» فاشتدّ الخناق على الدولة وتركها دولة داخلية.

أما القبائل التي كانت في يوم ما عضدا للدولة فقد أصبحت عاملا سن عوامل إنهيارها بإنفصالها وتمردها وقد أصبحت إمارات ومشيخات في شبه استقلال ومن بين هذه الإمارات نذكر.

أ : إمارة السويد (سويد)

احتلت هذه الإمارة حوض شلف وسفوح ونشريس وأراضي مغراوة وهو ما يتأكد من قول السليماني[3]: « وقد استبدّوا بالشلف ومايليها من البسائط إلى

1- هو أبو عبد الله المتوكل محمد بن محمد بن ثابت بن تاشفين، 867،1462م - 1475،880م.

2- السليماني: المصدر السابق، ج3، ورقة 109، مرمول، المصدر السابق، ج2، 320.

3- السليماني: الشماريخ ج3، ورقة 110.

وهران مع جبل ونشريس وسائر بلاد مغراوة ، وبني توجين[2].

وقد استمر نفوذ شيوخ سويد في المنطقة، حتى نهاية الدولة الزيانية، فالوثائق الوطنية، والإسبانية تؤكد مشاركة هذه القبيلة في الأحداث التي عرفتها الناحية، وبالخصوص موقفها من محاولات الإسبان المتكررة للسيطرة على مستغانم لأهميتها الاستراتيجية[3].

ب : إمارة حصين

سبطرت هذه الإمارة على قبائل حصين، التي تتمركز في جبال تيطري، والنواحي المجاورة لها، كمتيجة وهو ما يلاحظه نفس المؤلف بقوله:[4] «استبد اخوانهم حصين، بن زغبة، بجبال تيطرى وما يليها من جبال متيجة، وبسيطها إلى الجزائر».

جـــ : إمارة بني عامر

هذه الإمارة تتشكل من قبائل بني عامر، الذين أدّوا دورا نشيطا في الأحداث التي عرفتها الدولة، وعلى الخصوص في عهد السلطان، أبي حمو الثاني، وكان استقرارهم بالجانب الجنوبي من تلمسان، إلى جبل كزول، بتيهرت حتى عين إيفكان، قرب معسكر، وتسالة ومنها امتدّ نفوذهم إلى ضواحي وهران.

2- ابن خلدون: العبر، مجلد6، ص195.

3- RUFF (Paul) La domination Espagnole à Oran sous le Gouvernement du comte d'Alcaudete, Paris, E. Leroux, p106 à 190.

4- السليماني: المصدر السابق، ورقة 109.

إلى جانب مضاربهم، يوجد بنو يزيد، وأصلهم من حميان، وأولاد جـواب، وبنو كرز، وبنو موسى، والمرابعة، والخشنة، والعكرمة، فأصبحت هذه القبائـل تشكل إمارة.

د: بنـو راشـد:

سيطر بنو راشد على القلعة التي سمّيت باسمهم بعد استيلائهم عليها وإبعادهم لقبائل بني ومانو وبني يلومي، الذين استوطنوها حتى عهد الموحدين، لكن ضعف بني راشد فيما بعد، سهّل مهمة الهلاليين في السيطرة على بعـض مـضاربهم[1]، ونستدل على ذلك بهذا النص: " استبد ببلاد بني راشد، عرب المعقل، مـن أولاد عبد الواحد وأولاد رحو، وأولاد قيان، وأولاد عيسى، وأولاد مراح، ومن اخـتط منهم من بني هلال، وفي تلك الناحية نجد القبائل البربرية، المتمثلة في الحشم[2]، الذين امتدت مضاربهم، بين جبل أوسلاس جنوبا، إلى قلعة هوارة وبني شـقرون شمالا، وبين القلعة ومرافي الصحراء، إلى بسيط سيق ووادي الحمـام غربـا". هـذا ما يتعلق بالقبائل التي تقطن النواحي الشرقية من عاصمة الدولة.

أما الجانب الغربي، من تلمسان، فنجد من بين القبائـل التـي اسـتبدت بـه المعقـل، وذوي عبيد الله، والهداج، والحراج، والمنبات، وإخوانهم ويطلق علـى هذه القبائـل بالأحلاف، فرضوا نفوذهم على مدن الناحية، وقبائلها البربرية[3].

1- استبدت القبائل الهلالية بهذه الناحية منذ عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، لمزيـد مـن المعلومات عن هذه الأحداث انظر ابن خلدون، بغية الرواد ج2 ص136/ج7ص273 وما بعدها.

2- عن الحشم أنظر: les Pinasse; Notice sous les Hachem de Mascara in R.A .PP 1411887, Tome 31.

3- السليماني: المصدر السابق ج3 ورقة 110 ، مرمول ج2 ص323.

ومن بين المدن التي أثروا عليها، وجدة، وندرومة، وهنين، ثم جبال بني زناسن، وبني يسنوس، حتى واد الملوية.

* عوامل ضعف الدولة الزيانية خلال هذه الفترة

- **التدخل الخارجي:** فالموقع الجغرافي للدولة الزيانية جعل منها وسطا بين دولتين هما الدولة الحفصية في الشرق والمرينية في الغرب وفي مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ظهر خطر أخر تمثل في الإسبان شمالا والعثمانيون شرقا فكانت في حالة حصار دائم فما أن تنتهي حربها مع أهل الشرق حتى تبدأ مع الغرب. ثم تفاقم الوضع بفقدان موانئ الدولة الزيانية (المرسى الكبير«911/ 1505» ووهران 1509/914) ثم أرزيو وهنين فاشتدّ الخناق على بني زيان. وفيما يتعلق بالوضع الداخلي نجد التنافس بين الأمراء.

- **التنافس بين الأمراء:**

وقبل أن نتعرض إلى هذه النقطة نذكر أن هذا الداء أصاب الدولة منذ عصرها الذهبي وظهر مفعوله أكثر بعد وفاة أبي حمو موسى الثاني «759/780-1360/1381».

وقد كتب الدكتور مولاي بلحميسي عن هذا التنافس فقال: «نشب الخلاف بينهم حول العرش، فانقسموا إلى طامع في الملك ومعارض له، ونتيجة ذلك الوضع لا تخفى فإنشغل القادة بهذه الوضعية، وانهمكوا في الدسائس ونصب الفخاخ وربط المؤامرات. قاتل القوي الضعيف، وثار العم على ابن أخيه،

والابن على أبيه، فأصبحت الحكومة المركزية بدون سلطة وبدون صلة مع الجهات الباقية منها»[1].

وتعتبر هذه المرحلة التي جاءت بعد وفاة السلطان أبي حمو موسى الثاني من أشد المراحل في التنافس على كرسي الحكم، وعلى الخصوص أبناء الأمير الواحد، كما وقع لأبناء أبي حمو موسى الثاني، وقد عمد بعضهم إلى الارتماء في أحضان الحفصيين والمرينيين وتنازلهم عن أملاك الدولة، وتخلّيهم عن سيادتها مقابل اعتلاء كرسي الحكم. ومن بين الذين تولوا الحكم بعد وفاة الثابتي ابنه أبو عبد الله.

- ولاية أبي عبد الله محمد[2] «911/1505 - 922/ 1516م»

خلال توليه الحكم، زار الحسن الوزان تلمسان وأعطانا أصدق صورة لما كان يجري في تلمسان من قلاقل ومؤمرات ومن جملة ما قاله أنه: « بعد وفاته ترك ثلاثة أبناء، أكبرهم عبد الله الذي بمجرد توليه الحكم توالت المؤامرات ضده، بمساعدة أفراد من المجتمع الزياني، الذين لا تهمهم إلاّ المصلحة الذاتية، فقتل الأمير، وتولى الحكم عمه السلطان أبو حمو موسى الثالث فألقى القبض على أبي زيان ووضعه في السجن»[3] أما الأخ الثاني يحى فقد فرّ إلى فاس محتميا بمالكها محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي فقدم إليه أهل تنس في فاس، وهذا ما يشير إليه أبوراس[4] الذي قال عنه: «استولى الأسبان على وهران مدّة ابن قلمون، وهو من متأخري ملوكهم، الذين لم يهيأ

1 - مولاي بلحميسي: نهاية دولة بني زيان، مقال بمجلة الأصالة، ع26،1975، ص 100-106.

2- الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ص 306.

3- ابن زرفة: الرحلة القمرية، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 2525، ورقة 90.

4- أبو راس: عجائب الأسفار، ورقة 138.

لهم في الملك قدر، ولا استقرت بهم في المملكة عمارة دار، فلم يكن للمسلميــن حينئذ عناء ولا دفاع ولم يبق لهم جمع باجتماع». الذي يستخلص من النـــص مايلي:

أولا: أن أبا راس الناصري يجعل أبا قلمون من أواخر أمراء الدولة الزيانية، لكن في الواقع هو من أول أمراء الدولة الذين بدأت بهم المرحلة النهائية لها أي بداية القرن10هـــ/16م.

كما أن أوضاع الدولة في عصره لم تكن مستقرة وهو ما أثّر في الدولة وسهل مهمة الإسبان في السيطرة على المرسى الكبير ويرجع عدم الاستقرار بالدرجة الأولى إلى سوء التفاهم الذي حدث في الدولة بعد وفاة الثابتي واختلاف ابنائه في من يتولى السلطة؟ فبعد وفاته تَولاّها السلطان أبو حمو موسى الثالث.

بعد أن قام بإنقلاب على أبناء أخيه الشيء الذي أدى بهم إلى مغادرة تلمسان حيث توجه أبو يحي إلى المغرب الأقصى طالبا يد المساعدة من أحمد الوطاسي، الذي قدّمها له لاستعادة ملك أبيه من أبي حمو موسى الثالث وعندما فشل في تحقيق ذلك، لجأ إلى تنس، واتخذها مقرا له وبقي في حكمها، وزاد ضعف الدولة بعد تولي أبو عبد الله وبشكل خاص بعد وفاته "وتعدد الحروب بين رؤساء القبائل على الرئاسة وسلك الظلم والجور، بين الحاضر والبادي، وبلغ من انحلال دولة هذا السلطان، منذ أن أقدم اليهود[1] لديوانه فاعتمدهم في شؤون الجبايات، وتحديد الضرائب ومدخولات البضائع بالموانئ، وكان أحد أغنياء اليهود قدم وهران يدير أحكامها، وجبايتها، فعقد هذا المتصرف

1- الصباغ، المصدر السابق ورقة 34.

اتفاقا تجاريا مع الإسبان، المترددين على مدن الساحل تمكنوا بسببه التصرف في الميناء» فماذا يمكننا أن نستخلص من نص السليماني:

- أولا: الوباء

هذا الوباء عرفته أراضي الدولة الزيانية، في جميع مراحلها، وعلى الخصوص في النصف الأخير من القرن «9هـ/15م»، وقد انتقل إليها من المغرب الأقصى وهو ما تؤكده إحدى الرسائل الإسبانية المؤرخة في 25 أفريل1494، ذكر فيها صاحبها: « أن الطاعون منتشر بها وفي كل يوم يموت نحو ألف ومائتي شخص وبلغ عدد القتلى حتى الآن عشرين ألفا، وانتشر هذا الداء في بعض جهات تلمسان وهذا من نعمة الله».

كما ذكر الصباغ[1] في كتابه البستان، عند تعرضه للملياني أن الزاوية الراشدية فتحت أبوابها للمرضى، وأشرف الملياني بنفسه على هؤلاء الذين توافدوا عليها، من قبائل الناحية، واعتبر السبب في ذلك هو انتشار مرض الزهري الذي جاء به أفراد من الجالية اليهودية.

- **ثانيا:** الصراع الذي عرفته أراضي الدولة بين رؤساء القبائل[2] على الرئاسة يعتبر من أكبر الويلات التي واجهتها الدولة الزيانية في هذه المرحلة، فالصراع هو الذي أفقد هذه الدولة قوتها، خاصة إذا علمنا أن ليس لها جيش نظامي بل تعتمد على مساعدة القبائل لها.

1- الصباغ، البستان، ورقة 36.

2- من أبرز القبائل التي دخلت في صراع مع الدولة الزيانية منذ تأسيسها، القبائل البربرية، المتمثلة في مغراوة وبني توجين، وهوارة، والقبائل العربية. لمزيد من المعلومات أنظر: ابن خلدون: العبر،مجلد 7، ص44 ، ويحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 246.

- **ثالثا:** إن ضعف سلاطين الدولة الزيانية خلال هذه المدّة قد أثّر في أحوال الرعية، فزاد الصراع بين القبائل، من عرب وبربر، وهو ما جعل صاحب النص يعلق عليه بقوله: « ووقع الضعف في شعوب المغرب الأوسط[1] وقبائله فيما تولد عليهم من الفتن وتعدد الحروب بين رؤساء القبائل على الرئاسة، لأن مضارب تلك القبائل لم تكن محددة، فكان الصراع بينهما من أجل السيطرة على الأراضي الخصبة التي يتوفر بها الماء والكلاء، وهو ما جعل القبائل العربية تزحزح القبائل البربرية من مضاربها وتهدد مدن الدولة، مثل مزونة، ومستغانم حسب ما أورده الحسن الوزان الذي زار الناحية خلال هذه المدة.

- **رابعا:** وقد تضررت الرعية بهذه الأوضاع السياسية، التي أصبحت تتخبط فيها الدولة، في عهد هذا السلطان، وعلى الخصوص التجار والحرفيون بتلمسان الذين فرضت عليهم الضرائب للإنفاق منها على رعايا السلطان وجنوده، وقد أدّى عمله هذا إلى مجموعة من الانتقادات وجّهها إليه علماء تلمسان لأنهم رأوا أن فرض هذه الضرائب، لا يتماشى مع الشريعة الإسلامية لأن جزءا منها كان يصرف في رفاهية السلطان[2].

يضاف إلى ما سبق أن البطانة المحيطة بهذا الأمير لم تكن من أعيان تلمسان، أو أفراد الأسرة الزيانية، كما كان حال الأمراء الذين سبقوه بل من الجالية الأندلسية[3] التي انتقلت إلى تلمسان، فأثرت في مجتمعها، بنشر الأمراض الاجتماعية التي كانت تتخبط فيها الأندلس، في مرحلتها الأخيرة

1- المغرب الأوسط: يقصد به الأراضي الممتدة ما بين مدينة دلس، أو تدلس، و وادي ملوية.

2- مرمول: المصدر السابق، ج2، ص 323.

3- عن هجرة لأندلسيين إلى تلمسان في عهد السلطان الثابتي. أنظر السليماني: الشماريخ، ج3، ورقة 101.

والتي اعتبرت من عوامل انهيارها[1]، فأكثر السلطان الزياني من الجواري، ومجالس اللهو.

فالذي يستنتج من النص: أن جور أمراء الدولة الزيانية لم يكن مقتصرا على الرعية فقط بل امتد إلى أمرائها، فكل أمير يتولّى السلطة يعمد إلى قتل المعارضين له أو الزج بهم في السجن، وعمد هذا السلطان إلى مصادرة ذوي اليسار من أهل تلمسان، وأهل الفضل منهم، وهو ما أدّى ببعضهم إلى الهجرة نحو المغربي الأدنى والأقصى، وحتى بلاد المشرق الإسلامي[2].

والظلم يؤكده صاحب النص بقوله: «واشتدت الوطأة على الناس، وضاقت مذاهبهم وتفرقت أعيانهم، بالنواحي».

وهو ما جعل هؤلاء يؤيدون التدخل العثماني فيما بعد في شؤون الدولة، وعلّق السليماني على ذلك بقوله: « امتد نفوذ عروج، وخير الدين، إلى بلاد آل زيان، فزاد هذا الأمر بأن سائر الرعية إعتنقت طاعة جيش العثمانيين، حفظا من ظلم الزيانيين »[3] زيادة على ما سبق أن هذا الأمير قد إغتصب الحكم من صاحبه وهو ابن أخيه الذي قتل سنة 915هـ/1510[4].

1- مرمول: المصدر السابق، ج2، ص324.
2- أنظر الباب الرابع.
3- السليماني: المصدر السابق، ج3، ورقة 101.
4- لمؤلف مجهول: تكملة بغية الرواد، ورقة 89، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 2117، ويري بروسلار توفي سنة 922 هـ، 1516م، أنظر: Brosselard (ch) : « Mémoire épigraphique et historique sur les tombeaux des émirs Beni Zeiyan et de Boabolil "découverts à Tlemcen" Journal Asiatique, 1876, tome 7, P37 à 136.

وقد علق عليه السليماني[1] بقوله: «قتل أبو قلمون سنة «915هـ/ 1510م» وتولى بعده الأمير أبو حمو بن محمد، وعلى عهده إنحلت رابطة بني زيان، وازدادت دولتهم ضعفا وارتباكا، وخضوعا للقوة الخارجية»·

لذا فهو من بين الذين خضعوا لمطالب إسبانيا (السلطان أبو قلمون)، الذي لم يستطع إنقاذ المرسى الكبير ووهران، من براثن الأحتلال الإسباني، ولم يستمع لصيحات علماء الدولة، الذين كانوا يطالبون بتوحيد الصفوف الإسلامية لتحرير المدينتين، إلا أن الأمير الزياني يفضل الإنبطاح بتعامله مع الإسبان، وأمضائه معاهدة معهم سنة917هـ/1512م وبذلك سبق السلطان أبا حمو موسى الثالث[2].

وقد ذكر ابن القاضي عائلة العقباني الذين كانوا يمثلون الامير الزياني، وهذا يوضح لنا أن العائلات التلمسانية التي كانت لها مكانة قبل القرن16/10 استمرت في هذا القرن، كما قام اليهود بدور بارز لأنهم شاركوا في الوفد الزياني، والإسباني، وفي هذا الصدد يقول ابن القاضي « وفي سنة917 هـ/1512م دخل النصارى مع أبي يحيى العقباني إلى تلمسان، لأجل الصلح، يوم الخميس آخر يوم من شهر ربيع الأول فانعقد الصلح بين الطرفين بخمسة أعوام ونودي يوم الأحد ثالث ربيع الثاني، وانتزع النصارى الأسارى من يد المسلمين أربابهم قهرا، أول يوم من جمادى الثاني يوم الثلاثاء وعددهم 87 أسيرا ».

1- أنظر رسالة عبد الرحمن بن هلال، و محمد بن مسعود، من اتباع مولاي ابو حمو موسى الثالث لحاكم وهران مؤرخة في 1519 ارشيف سيمانكاس ملف 234 ورقة 10 .

2- الونشريسي أبو العباس: وفيات الونشريسي، تحقيق محمد حجي، الرباط ، 1976،ص 36.

يعتبر هذا النص الوحيد الذي تعرض للمعاهدات التي أبرمت بين الدولتين بالنسبة إلى المصادر العربية بينما المصادر الإسبانية، أوردت مجموعة من هذه المعاهدات سواءا مع الدولة الزيانية أوالقبائل العربية والبربرية.

وذكر بأن أبو حمو موسى الثالث هو أول من أبرم معاهدة مع الدولة الإسبانية لكن النص يؤكد لنا بأن أبا قلمون سبق أبا حمو موسى الثالث، في إقامة العلاقات بين الدولة الزيانية والإسبان، بعد فترة قصيرة من احتلال وهران لا تتعدى ثلاث سنوات ومن أهم المواد الواردة في المعاهدة تقديم الأمير الزياني لحاكم وهران كل ما يحتاج إليه من الحبوب والمواشي بعد أن فشل هذا السلطان، في محاولة استعادة المدينة، نتيجة للتنافس الحاد بينه وبقية أمراء الدولة، وبذلك يكون الأمير الثاني، من الدولة الزيانية بعد أبي يحي أمير تنس، أمضى معاهدة مع الإسبان، سمحت لهم بإقامة حامية لهم في تنس.

ونجد أن الفترة الزمنية بين إمضاء المعاهدة، في تلمسان وتنفيذ بنودها، تقدّر بحوالي شهرين و لعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى أنّه بعد إمضاء الأمير الزياني نسخة المعاهدة، عاد الوفد الإسباني مع الوفد الزياني إلى إسبانيا فأمضى المعاهدة ملك إسبانيا فرديناند الكاثوليكي، وعندما عاد الوفد إلى تلمسان بدأ في تنفيذ بنود المعاهدة بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين الموجودين بأراضي الدولة سواء كانوا لدى الدولة أو لدى افراد المجتمع

الزياني وهو ما يؤكده صاحب النص[1] بقوله: « ونزع النصارى الأسرى من يد المسلمين أربابهم قهرا، يوم الثلاثاء وقدر عددهم بـــ:87 نصرانيا»[2].

كما يوضح النص دور عائلة أخرى تلمسانية لا تقل مكانة عن عائلة العقباني، وهي عائلة[3] العبادي، كان أحد أفرادها وهو محمد العبادي ضمن الوفد الزياني، ولم يوضح لنا صاحب النص هل كان قائدا للمدينة، لأن أمراء بن زيان كانوا يعيّنون إلى جانب الولاّة قادة أو في بعض الأحيان يعرفون باسم القائد، مثل قائد وطن بني راشد[4]، أو قائدا للجيش الزياني فصاحب النص اكتفى بالإشارة إلى أنّه كان يرأس الوفد الزياني الذي انتقل إلى إسبانيا، حاملا هدية من أبي قلمون إلى ملك إسبانيا، فرديناند الكاثوليكي، بعد أن تمّ الإتفاق مع الطرف الإسباني بحضور أفراد من الجالية اليهودية، وهو ما يؤكده ابـــن القاضي[5] بقوله « وخرج القائد محمد العبادي من تلمسان حاملا هدية صاحب تلمسان عشية يوم السبت، وتوجه إلى وادي الصفيصف. ومكث به يوم الأحد

1- الوانشريسي: نفس المصدر السابق، ص 37.

2- يلاحظ أن ابن القاضي لم يفرق بين إمضاء معاهدة 1511 وتجديدها في سنة 1512 لأن الوثائق الأسبانية تشير إلى الوفد الذي ذكره ابن القاضي والهدف من وجوده تجديد معاهدة 1511.

يبدو أن السفير وصل قبل 22،7،1511 وهو تاريخ موافقة السلطات الإسبانية على المعاهدة وإمضائها من قبل الملك الإسباني فرديناند الكاثوليكي أنظر A.G.S leg 319..

3- عن العبادي: أنظر ابن مريم: البستان: ص 124.

4- تعرض إلى قائد وطن بني راشد الصباغ عند تناوله هجرة الملياني من وطن بني راشد .إلى يلل فرارا من محاولة اضطهاد بني زيان له ،أنظر البستان: ورقة 17.

5- ابن القاضي: تكملة وفيات الونشريسي، تحقيق حجي الرباط: 1976،ص،37.

والاثنين حتى لحق به اليهود والنصارى الذين كانوا يعقدون الصلح مع النصارى، ثم رحل يوم الثلاثاء السّابع رجب »[1].

يطرح النص مجموعة استفسارات مما سبب خروج القائد محمد العبادي من تلمسان ومكوثه هو والوفد المرافق له مدة يومين بوادي الصفيصف، وعلى الرغم من أنه كان ينتظر اليهود والنصارى الذين كانوا يعقدون الصلح مع النصارى.

لعلّ المجتمع الزياني وعلى الخصوص البعض منه يرفض التعامل مع الإسبان، الذين اضطهدوا مسلمي الأندلس، ويرفض رؤية هؤلاء بداخل تلمسان، لذا فضّل السلطان أن يتم الاتصال بخارج المدينة، عند وادي الصفيصف.

يلاحظ من النص إحتواء الوفد الزياني على مجموعة من اليهود والنصارى وهذا أيضا يوضح لنا تعامل أمراء الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة مع أهل الذمة، وعلى الخصوص الجالية اليهودية التي لها علاقة بالإسبان، ومن بينها المهاجرون اليهود الذين انتقلوا إلى أراضي الدولة بعد سقوط غرناطة.

أما النصارى فان البلاط[2] عرف وجود النصارى كجنودا مرتزقة، منذ عهد يغمراسن واستمر وجودهم حتى هذه الفترة، ولعلّ البعض من هؤلاء كانوا ضمن الوفد الزياني. هذا من جهة ومن جهة أخرى تذكر الوثائق الإسبانية أن الوفد الزياني مكث في وهران أربعين يوما قبل أن يستقبل من طرف قائدها الذي أحضر أعضاء الوفد ونصوص بنود المعاهدة التى ستمضى من طرف

1- وادي الصفيصف غير بعيد عن مدينة تلمسان.

2- ابن خلدون يحي ، بغية الرواد ج1، ص207.

أمير زياني ثم الملك الأسباني الذي مثله فرنسيسكو فرقاس Frencesco de bergas.

- **ثانيا: العوامل الخارجية**

بعدما تطرقنا إلى الأسباب الداخلية التي أدت إلى إضمحلال الدولة الزيانية في هذه الفترة سنتطرق فيمايلي لدور العوامل الحارجية الني ساهمت في تكريس هذا الضعف والإضمحلال.

1- احتلال الإسبان المرسى الكبير و وهران

كانت أوضاع الدولة الزيانية خلال القرن الثامن الهجري الخامس عشر الميلادي سببا في تسهيل مهمة الإسبان في السيطرة على الموانئ التابعة[1] لها وقبل التعرض للتدخل الإسباني يجدر بنا أن نطرح على أنفسنا هذه الأسئلة: ماهي العوامل المساعدة لذلك التدخل؟ هل كانت نتيجة لقوة إسبانيا خلال هذه الفترة؟ أو لتشتت الدولة الزيانية، واحتدام الصراع بين مجموعة القبائل في مناطق نفوذها؟ أم هناك نظام عالمي جديد بدأ يتشكل في أوروبا يعتمد على القوة؟ فالإجابة عن هذه الأسئلة تجعلنا نؤكد في البداية أن ما وقع للدولة الزيانية وقع لغيرها من الدول الإسلامية نتيجة التنافس على كرسي الحكم والتحالف ولو مع الشيطان. فهذا التنافس أضعف الدولة الزيانية كما أضعف جيرانها في كل من المغرب الأقصى وتونس وقد عرفت إسبانيا هذه الأوضاع المزرية بفضل جواسيسها.

1- BTA VILAR, (JUAN -BAUPTISTA) Farti Ficacim y de Fens de t litoral en el surValencianoXVI-XVII-PP100.113.

- دور الجوسسة الاسبانية:

تمكنت الجوسسة الأسبانية من تحقيق نتائج مرضية في دراستها لوضعية الدولة الزيانية نتيجة لمجموعة من العوامل منها:

أن الاسبان كانت لهم معرفة بالسواحل الزيانية نتيجة العلاقة مع الدولة والتعرف على تحصيناتها فاستفادت منها القوة الاسبانية عند هجومها عليها سنة910هـ/1505م[1].

هذا من جهة ومن جهة أخرى تذكر الوثائق الاسبانية أن أحد جواسيسها توجّه من وهران إلى تلمسان ومكث بها مدّة ثم قدّم تقريرا مفصّلا عن أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

يضاف إلى ما سبق أن الدولة الزيانية، كغيرها من دول المغرب الإسلامي المعاصرة لها، كانت تعتمد على مرتزقة يعملون في قوتها من الاسبان، منذ عهد يغمراسن[2] واستمرّ وجودهم خلال المراحل التي مرت بها الدولة وحتى بعد الاحتلال الاسباني لموانئها، وهناك وثيقة إسبانية، تشير إلى أن شارل الخامس بعد فشله في حملته على مدينة الجزائر 1541م سحب الفرقة الاسبانية العاملة في البلاط الزياني دون علم حاكم وهران الكوديتي[3].

1- Berbugger. Oran Traduction des Rapports Officiels Espagnels sur la prise de O. R. S El Kebire en 1505 en RA 1869 PP 100-115.

2- ابن خلدون المصدر السابق ج1 ص206.

3- Legajas 130 F XIII.

- **ثالثا: مشروع الاحتلال الإسباني لأراضي الدولة الزيانية**

ما هي دوافع هذا المشروع؟ وماهي النقاط التي ركز عليها الساسة الاسبان للسيطرة على تلك السواحل؟.

- أ: إن المشروع المتعلق باحتلال المرسى الكبير برز إلى الوجود قبل قيام الدولة الزيانية، ففي15 ماي من سنة«616هـ/1219م» عمد HANRI III هنري الثالث إلى إرسال جواسيس للتعرف على الساحل المغربي حتى يمكن الهجوم عليه لأن الظروف مواتية، بعد الهزيمة التي تلقتها القوة الموحدية في معركة العقاب، «1212/609»[1] إلى أن المشروع لم يتم تنفيذه.

- **ب**: إن منتصف القرن التاسع الهجري/15م عرف بروز قوة إسلامية فتية تمكنت من تحطيم آخر قلاع الإمبراطورية البيزنطية بالسيطرة على القسطنطينية، ولها طموح في إعادة إحياء مجد الدولة الإسلامية[2]. فالصراع الذي سيعرفه البحر المتوسط سيكون بين قوتين بدأتا تسيطران على العالم وتفرضان إرادتهما، فالقوة الإسبانية توحّدت بإنضمام أرغون إلى قشتالة والقضاء على آخر قلاع الدولة الإسلامية، غرناطة «898هـ/1492م»، ثم التوسع خارج أوروبا، للسيطرة على طرق التجارة، والثروة التي كانت تزخر بها إفريقيا، وآسيا والعالم الجديد.

أما الدولة العثمانية فبعد القضاء على الأمبراطورية البيزنطية بدأت هي الأخرى تقوم بحركة توسّعية، على حساب الدول المجاورة لها، ومن

1- عن معركة العقاب انظر ابن خلدون العبر ج6 ص522.

2- عن موضوع الصراع أنظر: Christian (P): Histoire des pirates et corsaires de l'ocean et de la mediterranée, Rotaljer (ch): Histoires d'Alger et de la piraterie des turcs dans la mediterranee depuis leur Origine (ch) à nos jours, Paris, 1846-50 1850,4 Volumes

الدول المسيحية في شرق القارة الأوروبية[1] وإن وجود العثمانيين في حوض البحر الأبيض المتوسط وتوسعهم أحدث مشاكل للملك فرديناند الكاثوليكي لأن جزءا من المستعمرات الإسبانية في إيطالية ومدن الجنوب الإسباني تطل على البحر المتوسط.

- ج: عرفت الفترة الأخيرة من القرن(9هـ/15) زيادة النشاط البحري في حوض البحر المتوسط بين السفن المغربية المنطلقة من موانئ بادس، والمرسى الكبير ووهران، وأرزيو، ومستغانم والسفن الإسبانية المنطلقة من الموانئ الإسبانية، المرية وطرطوشة، وقرطاجنة، ومالقة.

- د: تحديد موقع الهجوم لمواجهة المسلمين في المغرب الإسلامي، ومنها الدولة الزيانية،عقد سكرتير المالكين فرناندو وإيزابيلا دي تام ويتش قسيس غرناطة وتوصل إلى قرار نصّ على أن تكون الهجومات البحرية الإسبانية على نطاق واسع تشمل ما بين مصب وادي كرت ووادي تافنا، وهذا التركيز له ما يبرره لأن المنطقة تعتبر الأولى التي استوعبت أكبر عدد من المهاجرين الأندلسيين وهم في طريقهم إلى فاس، وتلمسان.

كما كانت هذه المنطقة تعرف جو الإضطرابات نتيجة الصراع السياسي لتكون لقمة سائغة للإسبان.

ومنذ بداية 899هـ/1493م كانت السفن الاسبانية قبل انتقال أبـي عبـد الله إلـى المغرب تخوض عباب مياه المتوسط نحو الشرق، ما بين جبـال تـرارة، ومدينة تبحيرنت، وتاونت، لكن السكان كانوا يواجهون الغزاة الاسـبان، وممـا يؤكـد ذلك أنه لمّا حاولت السفن إنزال الرجال حدثت معارضة التلمسانيين،

1- عن هذه المناطق انظر الحسن الوزان، وصف إفريقيا ص116.

وشيوخ القبائل العربية، وفرسانها كما قامت البحرية الإسبانية بمحاولة ثانية للنزول في تاونت، تبحيرنت[1] ووردانية تنفيذا للمشروع الإسباني هذا في الجهة الغربية لأراضي الدولة الزيانية، أما الجهة الشرقية وعلى الخصوص وهران والمرسى الكبير، فقد كانت الحملات الإسلامية بمساعدة أفراد الجالية الأندلسية الذين استقروا بموانئ الدولة الزيانية توجه للموانئ الإسبانية كالمرية ومالقا.

والذي سهّل مهمة المهاجمين من الطرفين قرب المسافة بين الضفتين فالوثائق الإسبانية تذكر أن المرحلة بين موانئ إسبانية الجنوبية، والدولة الزيانية لا تتعدى أربعا وعشرين ساعة خلال قرن«10هــ/16م» كما توضح تلك الوثائق بأن الغارات على المدن وقرى العدّوتين الإسبانية والزيانية وقراهما لم تكن مقتصرة على سفن المسلمين بل حتى السفن المسيحية كانت تقوم بمهاجمة القرى المجاورة لكل من المرسى الكبير ووهران وغيرهما من موانئ الدولة الزيانية، وتتم تلك الغارات في الليل وهو ما أدى إلى أسر مجموعة من سكان تلك القرى من الطرفين ودفع بالدولتين إلى إمضاء معاهدات بينهما تتعلق بشراء العرب والمسحيين الذين وقعوا أسرى بيد المتحاربين، والتبادل يتم بموانئ الدولتين ويتم الدفع نقدا أوعينا.

في هذه الفترة كانت المنطقة الممتدة ما بين المرسى الكبير[2] ووهران تعاني من الهجومات المتواصلة وعلى الخصوص نقطتان أساسيتان كانتا تتعرّضان للغــارات من قبل المسيحيين وهما برج بن زواو Bordj Ben Zouaoue وحـــصن سـ ... جريجوار Sant Grigouar وأغلب تلك الهجومات تتم في الليل وكذلك شرق راس

1- تبحيرنت تقع على بعد ثلاثين كلم غرب ندرومة على ساحل المتوسط لمزيد من المعلومـــات عنها انظر الحسن الوزان، المصدر السابق، ص15 مرمول، المصدر السابق ج2 ص236.

2- Xl Menez (c) les Inscripcians Oran y Mazalquivix de san de val Madrid 1867 en revesla Metter en 1847 y 1848 p 5.

فلكون، حيث توجد مجموعة من القرى منها كراز Carraza وبوسفر والانز La Enza. ومن بينها التي قام بها دون مانوال Don Mannuele حاكم طنجة وسبتة وأصيلا البرتغالي على المرسى الكبير للقضاء على مجاهدي البحر من المسلمين في الحوض الغربي للبحر المتوسط. أما في سنة "910هـ/1504م" فكانت إحدى سفن فلامند Flamende تقوم بحمل السلع من المرسى الكبير إلى فلامند وبريطانيا فتعرضت لها مجموعة من الجنود الاسبان الذين كانوا يختفون وراء الصخور لمحاولة الهجوم على المرسى الكبير، وعلى الخصوص في الليل، وقائد الجند أحد الأسرى كان بميناء المرسى الكبير. وردّ على هذه الحملات كل من أهالي وهران والمرسى الكبير سنة 911هـ/1505م" بضرب شاطئ مالقة في الليل. وفي نفس المدّة هاجم فلامند والبريطانيون ساحل دولة غرناطة وماريسية Maricia وفالنسية Valencia مجموعة من قراصنة البرتغال، ولم يكن الأمر يقتصر على هؤلاء فقط، بل نجد أحد الأندلسيين من مواطني دولة بني الأحمر في السابق يقومون بمهاجمة فالنسية بمساعدة الموريسكيين الموجودين بتلك الناحية وعلى الخصوص ميناء سانتابولا Santa Bola فهذه الهجمات المتواصلة هي التي جعلت الاسبان يفكرون في احتلال وهران، والمرسى الكبير[1].

وللقيام بهذا العمل عمد الاسبان إلى عقد حلف مع بعض شيوخ القبائل، لكي يسهلوا عليهم الدخول إلى تلك المدن التي ورد ذكرها في المشروع الاسباني ومن بين الذين قدّموا خدمات لهذا المشروع شيخ تاونت الذي أخبر الاسبان

1- عن الهجوم البرتغالي على وهران انظر:
Loin fay Henri , Histoire d'Oran avant pendant et aprés la domination Espagnole Oran , 1858 p 230 à 422

بأنه سيقدم المساعدة لهم من أجل اقتحام مليلة[1] في نفس الوقت كان المغاربة يقومون بهجومات على الموانئ الإسبانية لتحرير إخوانهم المسلمين[2]، أما الموقف السلبي لسلاطين الدولة الزيانية يؤكده الونشريسي[3]، من خلال إحدى النوازل الفقهية، التي وردت في المعيار والتي جاء فيها مايلي: سئل بعض فقهاء تلمسان بما نصه: «سيدي جوابكم عما عمت به البلوى في بلدنا وعظم من أجله الخطب، واتسعت به المقالات، وذلك أن الخليفة أصلحه الله صالح هؤلاء النصارى الذين أخذوا سواحلنا لأجل معلوم، والمسلمون يرون أن جهادهم من أعظم القربات إلى الله فصاروا يغيرون على أطراف بلدهم، ويضيقون بهم، هل ذلك طاعة أومعصية؟ ولنفرض أن الخليفة لايوافق على ذلك، ويعاقب عليه أفدنا وأرشدنا، وفقكم الله» أجاب الونشريسي بمايلي: الصلح الواقع بين المسلمين وأعداء الدين على طريقين:

- **الأول:** حين يكون الجهاد فرض كفاية، والثاني حين يكون فرض عين، الأولى حين يكون المسلمون طالبين على الكافرين الحرب. فالصلح لمصلحة يراها الإمام بحسب اجتهاده جائز عند المالكية.

- **والثاني:** يمنع الصلح على كل حال ولاسيما إن كانت مدّته تفيد العدو أهلكه الله مصلحته، وعلى المسلمين مفسدته، وإن تخلت فيه مصلحة فهي للعدو أعظم من وجوه مكملة، بأن يتحصن في تلك المدة، ويكثر من آلات الحرب والعدة، فيتعذر على المسلمين الإستنفاذ ويصعب عليهم تحصيل الموارد، بعد تيسيره

1- مرمول وصف إفريقيا ج2، ص 233.
2- الحسن الوزان المصدر السابق ،ص 256.
3- أبو العباس الونشريسي المعيار ج،8ص 157

لــو ساعده التوفيق، فما وقع من الصلح فهو مصلحة للعدو، وهو مفسدة على الإسلام.

يمكن أن نتوصل من خلال هذه النازلة إلى مايلي:

- **أ**: إن سلاطين الدولة الزيانية، بدل تجنيد الامكانيات التي يملكونها لمواجهة الخطر الإسباني، الذي أصبح محدقا بسواحل الدولة، عمدوا إلى المهادنة بعقد صلح مع الإسبان، والوقوف أمام المجاهدين الذين يرفضون هذه الوضعية التي آلت إليها الدولة، وعلى الخصوص العلماء الذين راسلوا الونشريسي في هذا الأمر.

- **ب**: إن إجابة الونشريسي على النازلة أكّدتها الأحداث، فالصلح سمح لإسبانيا أن تستولي على موانئ أخرى بعد مليلة، المرسى الكبير، ووهران[1]، ثــم تحصينهما مما حال دون استعادتهما من الدولة الزيانة أوالعثمانيين.

- احتلال موانئ الدولة:

قبل التعرض لهذا الموضوع الخطير يجدر بنا طرح الإشكالية الآتية متى وقع الهجوم ولماذا؟.

- **أ**: تتفق أغلب المصادر على أن الدافع الذي كان له الدور البارز في سيطرة إسبانيا على موانئ الدولة الزيانية هو الدافع الديني لأن الصراع بين المسيحيين والمسلمين بالمغرب بدأ بانطلاق أول حملة إسلامية لفتح الأندلس

1- عن الاستيلاء على وهران أنظر رسالة الملك فرنادو الكاتوليكي الكردينال جسيمانس مؤرخ في 1510 C,Fernando Vde F,R Jimenz de cismeas , pedro marverro Aragon rex catolica Simmances secretaria de estado L, P la prim III , P 12 - 16-CXIX 69 - 73 et 1510 publm colection de documentes para la historia de Espana, t- XXXV, PP561 - 565.

بقيادة طارق ابن زياد، استمر خلال مراحل الدولة الإسلامية، وكان لسكان المغرب الإسلامي الدور الأساسي في الفتح والمحافظة على بقاء الدولة الإسلامية في الاندلس، لذلك كانت إسبانيا تخشى من استعادة هذه الدولة، مما جعلها تقيم خطا دفاعيا يشمل إمارة بني زيان حتى لايفكر المسلمون في استعادة مجدهم المنهار[1].

- ب: الجانب الاقتصادي فقد كان حوض البحر المتوسط شريان النشاط التجاري بين الدول المطلة عليه وحتى المناطق البعيدة منه مثل السودان الغربي، حيث كانت السلع تنقل إلى موانئه ومنها إلى البلدان الأوروبية[2]. فأراد الإسبان السيطرة على الضفة الجنوبية منه للمحافظة على تجارتهم، لأن بروز القوة العثمانية سيؤثر في مصالحهم التجارية، ولكي لا يصطدم بالبرتغاليين عقدوا معهم معاهدة حددت مناطق نفوذ كل دولة[3].

- **المرسى الكبير**:

أما أسباب اختيار المرسى الكبير بالذات فاننا نجدها ضمن الوثائق الإسبانية، التي توضح لنا أن هذا الإختيار يرجع الى مايلي:

- أ: إن المدينة تندرج ضمن الخطة الإسبانية التي تتمثل في احتلال المنطقة التي تربط مليلة بالمرسى الكبير وهذا يندرج ضمن المشروع

1- فتح المسلمون الأندلس في سنة 92 هـ،710م أنظر ابن خلدون،العبر ج7،ص175.

2 – عبد العزيز بن عبد الله البحرية المغربية والقرصنة مجلة قطوان ع43، 1958 ص 59.

3- عن هذه المعاهدة أنظر Guillen publs estudios sabra PP 56-70.

La domenacion de las espana les en berbiria les galaigodas is espana modena 1889T III PP

الاسباني، والاتفاق الموقّع مع البرتغال، لاقتسام مناطق النفوذ بالمغرب الإسلامي.

- **ب:** أنّ أراضي الدولة الزيانية تشكل خطرا في المستقبل على إسبانيا، لأن التقارير الإسبانية تعرضت للحملات التي كانت تقوم بها سفن من بين هؤلاء الكونت ليفيا lendilla الذي أصبح حاكما للمدن التي كانت من أملاك دولة بني الأحمر وكذلك الكردينال اخسيمانسXimens الذي لايتوقف عن حثّ ملك إسبانيا على السيطرة على المرسى الكبير[1].

- **ج:** أن تقرير فينالي‌Venelle بيّن أن تحصينات المرسى الكبير أضعف من تحصينات وهران، وبذلك سهولة السيطرة عليها وشلّ أي حركة للحامية الزيانية في وهران بقطع الطرق التي تربطها بتلمسان وبقية أقاليم الدولة.

- **د:** أن الحملة على المرسى الكبير تندرج في إطار الوصية التي تركتها إيزابلا قبل وفاتها والتي تنص على السلم مع الدول المسيحية، والتوسع على حساب الدول الإسلامية في الجنوب[2].

- **هـ:** أن المرسى الكبير يتميز بموقع استراتيجي وحصانة طبيعية من جهة ومن جهة أخرى فإن أمراء الدولة الزيانية عمدوا من قبل إلى تحصيناتها مما جعل[3] مرمول يقول: « وهي على صخرة يتعذر تحطيمها يحيط بها جبل عال شديد الإنحدار والوعورة بحيث لا يمكن الإرتقاء منه إلى المدينة إلاّ بصعوبة شديدة ماعدا عن طريق وهران، بحيث يمرّ بطريق غير مستوي

1- Ibid, P 15.

2- Ibid P 20.

3- الحسن الوزان المصدر السابق ص 30.

يسمّى كرسي. وأما من ناحية الشمال حيث تضربها أمواج البحر فيوجد برجان مربعان يدعمان المرسى وعلى طول إمتداد السور السميك نجد برجا آخر مستديرا وحتى ركن جدار السور برج مربع آخر يقدم الدفاع عن هذه الجهة، كما يوجد برج مربع بين الركن الثاني الذي يحرس المدينة من هذه الجهة والتحصينات الآنفة الذكر هي التي دفعت الإسبان لإحتلالها واتخاذها قاعدة انطلاق نحو بقية المدن الساحلية مثل تنس ووهران وهنين فيما بعد.

- و: أن المرسى الكبير، يعتبر من أهم مراسي الدولة الزيانية وفي هذا الصدد يذكر الحسن الوزان، فيقول «المرسى الكبير مدينة صغيرة، أسسها في عصرنا ملوك تلمسان، على ساحل البحر المتوسط، بعيدة ببضعة أميال عن وهران، ومعناها الميناء الكبير، لأنه لا يوجد ميناء على ما أظن في الدنيا أكبر منه، يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب في مأمن من كل عاصفة أو إعصار، وكان من عادة سفن البندقية أن تلجأ إلى المرسى الكبير عند إضطراب الجو وترسل بضائعها في قوارب إلى وهران».

ويؤكد مرمول نفس النص بقوله « مرساها أجمل من مراسي إفريقيا وأعظمها، يتسع لعدد كبير من السفن لا تناله الرياح والعواصف، من أي جهة من الجهات، كانت ترسو به كل عام السفن الضخمة القادمة من البندقية وغيرها من بلاد أوروبا حاملة البضائع التي تنقل بعد ذلك في قوارب لوهران» [1].

1- مرمول المصدر السابق ج2 ص 337 ولمزيد من المعلومات عن إحتلال المرسى الكبير أنظر أيضا : BERBRUGGER? (Adrien) : Traduction de rapports officiels espagnols sur la prise de Mers et Kebir et Oran 1505, in RA, 1869, Tome 13.p100 à115 CERVANTES Op.cit p 87

يستخلص من النصين أن المرسى الكبير قبل احتلاله، أعتبر من بين الموانئ الرئيسية للدولة الزيانية التي تقوم بالمبادلات التجارية بين أوروبا وهذه الدولة، فالسيطرة عليها معناه التحكم في النشاط التجاري، وهذا سيسبب خسارة كبرى للدولة الزيانية .

- مصاريف الحملة:

هناك أموال جمعت من الضرائب التي فرضت على العاملين في النشاط الفلاحي والحرفي[1] أمّا بقية المصاريف فقدّمها رجال الدين، فالكاردينال اخسمانس دفع أجور الجند مدة شهرين، وقدّم للحملة 11 مليون دينار Marc vedis من أموال الكنيسة التي يشرف عليها، لأن مصاريف الحملات في إيطاليا والعالم الجديد لا تسمح للملك الإسباني بتقديم أموال من خزينة الدولة[2].

- الأسطـول:

يتشكل الأسطول الذي كلّف بالحملة من37 سفينة تحمل على متنها 1595رجلا وكذلك31 سفينة أخرى مخصصة لنقل المواد الغذائية والأسلحة لتموين الجند[3].

- بداية الهجوم وتحديد تاريخه:

يذكر المؤرخ الإسبانيPellissces الذي اعتمد على مجموعة من الوثائق أن الإسبان بدأوا في الهجوم على المدينة يوم الإثنين13جويلية 912هـ/

1- CERVANTES Opcit P 87

2 BERBRUGGER? Oran p.p.100 - 112

3- عن الأسطول وتاريخ تحركه من مالقة أنظر رسالة فيرناندو كافرا Fernando de cafra far el Reg de velez fecha en le ciudad de maliza a 19 de agosto de 1505 3er le gage F 225-4

1505م وفي اليوم نفسه دخلوها وإحتلوا الأماكن ذات الأهمية الإستراتيجية، مثل منابع المياه التي تتزود منها[1] وعندما توقف الأسطول أمامها عمد الإسبان إلى نصب المدافع لمواجهة التحصينات وتطبيق الحصار عليها حتى لا تصلها الإمدادات.

قبل القيام بالهجوم، درست القيادة الإسبانية تقرير فينالي الذي نصح الإسبان بأن النزول لابد أن يتم في المكان المعروف بالأندلسيات[2]، كما درست أخطاء الحملة البرتغالية التي فشلت في السيطرة على الميناء، وفقدت عددا من سفنها[3] ثم شكلت قيادة الحملة من شخصيات عديدة[4].

1- Sandovall; les inscription d'Oran et de Mers el Kebir, RA, Tome 15 et 16

2- الأندلسيات توجد غرب مدينة وهران شيد بها مركب سياحي يعرف بالأندلسيات فيما بعد .

3- توجد في دور الوثائق سيمنكاس مجموعة من الرسائل تتعلق بالحملة وسيرتها أرسلت من طرف قادتها منها رسالة Gonzalo de Ayora 15، 9، 1505 - Contadurias generales 1 paginaligaojon n° 38.

4- تشكلت قيادة الحملة من الشخصيات الآتية دياجوا فرنانديز القرطبي Diego Fernandez de Cordoba والقائد دنكاوا وكذلك دون رومان Don Romàn. ويحتوي أرشيف سيمنكاس على مجموعة من الوثائق تتعلق بالحملة منها رسالة مؤرخة في 22 من شهر سبتمبر 1505، 912 أرسلها للملك الإسباني القائد غنزالوا Ganzal وهو من بين الذين تولوا قيادة الحملة. وهناك رسالة أخرى للقائد نفسه أرسلت إلى ملك إسبانيا ذكر فيها أن الأسطول اجتازا مالقة خلال شهر سبتمبر وكذلك المرية في اليوم الثاني من الشهر نفسه، ومنها على رأس فلكون، أما قادة الأسطول فهم ألمانزا Almanza و دنكاليس Dancales ودياجو دي فيرا و Pierr lapalz بيير لوبيز وريوداز دورونة Ruydiaz Deron وقائد الفرسان Juan Delayora جون عيورة، ومراقبة الأسطول من بيدور دومدريد توزع الجند كمايلي:
تولى القائد Avilles calans مراقبة البحر، حتى لا تصل السفن المسلمين لمساعدة المحاصرين.
القائد غنزالو دياجوا دي فيرا كلفا بمواجهة فرسان وهران، حين قدومهم إلى المرسى الكبير وكان عدد القوة التابعة لهما تقدر بثلاثة ألاف جندي ووجدو هذه القوة دليل على خوف الحملة من التفاف الحامية الزيانية عليها، قبل احتلالهم للمدينة، كما حدث للحملة البرتغالية.
كما تمكن الإسبان من السيطرة على كل الطرق المؤدية إلى الجبال المحيطة بالمرسى الكبير لمواجهة أية امدادات تصل للمحاصرين.

- **موقف سكان المرسى الكبير من الاحتلال:**

هذا فيما يتعلق بالعرض الموجز للخطط الإسبانية التي استعملت في السيطرة على المدينة. أما سكان المدينة وقائدها فتحملوا صعوبات كبيرة في الدفاع عنها لقلة عدد المدافعين الذين لا يزيد عددهم على أربعمائة، عكس القوة الإسبانية التي تتشكل من أكثر من خمسة آلف، مزودين بأسلحة أكثر تطورا مما كان لدى الحامية الزيانية بالمرسى الكبير[1].

وبعد مقاومة شديدة اعترفت بها الوثائق الإسبانية وجد قائد الحامية أنه لا يستطيع الصمود، ولكي يحفظ أرواح السكان رفع العلم الابيض من فوق الأسوار يوم1505/7/14[2] فتقدم الاسبان للمدينة فوجدوا بها حوالي35 من العبيد المسيحيين الذين أخذوا أسرى الحرب خلال الحملة البرتغالية على المرسى الكبير سنة1501م[3]. أما دخول الإسبان فكان على الساعة التاسعة صباحا واستمروا في التسرب إلى المدينة، حتى منتصف النهار، بعد أن خرج منها السكان وتركوا أموالهم وأموال الدولة الزيانية التي جمعها موظفي الديوانة[4].

كما استولى الإسبان على المسجد الكبير وحوّلوه الى كنيسة عرفت بكنيسة سان ميشال، أقيمت فيها إحتفالات دينية بمناسبة احتلال المرسى الكبير وامتدت

1- Ibid 197 P.

2- يذكر صاحب تكملة بغية الرواد أن إحتلال المرسى الكبير عام إثنى عشر وتسعمائة 1506 وهو يكاد يتفق مع الوثائق الإسبانية لأن السنة الهجرية تشمل سنة 1505- 1506 أنظر بغية الرواد ورقة 58.

3- عن هذا أنظر رسالة بيدرو دومدريد Pedro de madrid مؤرخة في سبتمر 1905 توجد بأرشيف سيمنكاس ملف الشؤون العسكرية رقم 26 ورقة 36 أنظر أيضا دياجو سيروز
Diego Suarez Traduction ha insertado en arzel en R.A. 1865 P 266

4- Ibid L: P 213.

تلك الاحتفالات لتعمّ التراب الإسباني، وقرعت أجراس الكنائس في ربوع إسبانيا ،هذا يتعلق بسير الحملة وسيطرة الاسبان على المدينة، أما عن النجاح الذي حققه رجال الحملة فقد تعرض أحد القادة الاسبان وهو عيورة ayara[1] من خلال مجموعة من الرسائل أرسلها إلى فرديناند الكاثوليكي بعد احتلال المدينة واعتبر بأن الدبلوماسية الإسبانية، كان لها دور مشرف لأنه قبل الحملة عقد الإسبان معاهدة مع فرنسا والبابا جوليان الثاني والملك رومانوس ملك المانيا وملك إيطاليا وتدخل البابا في المصالحة بين الدول المسيحية لمواجهة كفار المسلمين[2].

وأما الجانب الزياني، فان عوامل الفشل تتمثل فيما يلي:

أ: إن مدينة المرسى الكبير لم تكن بها قوة عسكرية كبيرة، فالوثائق الإسبانية تحدد القوة الزيانية بأربعمائة فارس أغلبهم من القبائل المجاورة لها، واجهوا قوة إسبانية تشكلت من خمس آلاف جندي، على رأسها أبرز القادة الذين كان لهم دورا كبير في سقوط غرناطة 1492م تسمح لها بمواجهة القوة الإسبانية التي عمدت إلى تفريق الحشود الزيانية المتقدمة، بواسطة سلاح المدفعية، مما حال دون تقدم فرسان الزيانيين الذين لايملكون غير السيوف والرماح والنبال، فعجزوا عن الإقتراب مما جعلهم ينسحبون من ميدان المعركة[3].

- المقاومة الشعبية:

فإذا كان الجيش النظامي قد فشل في استعادة المدينة، فإن الوثائق الاسبانية تشير في أغلبها إلى المقاومة التي انطلقت مع بداية الإحتلال، من الجبال

1- Ibid P 300

2- Ibid P 316

3- Exerenenz de Sandoval (Ximenés): Oran y Mazalquirir, P 7

المجاورة للمدينة، وتولى قيادة هؤلاء المجاهدين عالم من علماء المدينة عرف باسم سيدي ابن جاجوا الذي كان ضمن السكان الذين تركوا مدينتهم للإسبان[1] وشدّة المقاومة دفعت بقائد الحملة دون مرتين القرطبي deorgot martina أن يطلب من الملك الإسباني تزويد الحماية الإسبانية بالجند والسلاح، فوافق على طلبه وكلف قادته في كل من مالقا وقرطاجنة بتزويد المرسى الكبير بما تحتاج إليه من سلاح وجند ومؤونة[2].

- معركة مسغـرين:

بعد إحتلال المدينة عمد الإسبان إلى تنفيذ الجزء الثاني من مشروعهم الذي يتمثل في مدّ النفوذ الإسباني نحو داخل أراضي الدولة الزيانية، لأن بقاءهم داخل المدينة جعلهم يتعرضون لمجموعة من المشاكل، منها تموين المدينة بالمواد الغذائية والمياه وكثرة الهجومات المتواصلة عليهم من قبل قبائل الناحية، لذا حاولوا نقل المعركة إلى خارج المدينة[3] وبعد إجتماع القيادة بالمرسى الكبير بيّن لهم أن نقطة الضعف تتمثل في قرية مسغرين، لأن تقارير جواسيسهم، أكّدت بأن القرية غير مراقبة بالرغم من استراتجيتها، لأنها تتحكم في الطريق الذي يربط وهران بتلمسان. تولّى قيادة هذه الحملة فرنانديز هولكمين Fernandez malya Rey diaz الذي حدّد الهجوم بيوم 6 جوان 913هـ/1507م[4]، ولكن بعض الأندلسيين الذين انظموا إلى الإسبان حذروهم

1- Ibid P 8

2- Diego Suarez Opcit Mantaes. 350 et de retima luis Fernandese el cardinal lisnerosen la pelitica africana de les Reyes catelleas madrid, 1960, P 66

3- Diego suarez Opcit P 356

4- Ibid p 357

من اجتياز الجبال بخطرها على الجياد، لكن هؤلاء الإسبان لم يثقوا في أقوالهم واستمروا في تنفيذ مشروعهم فانتقلوا الى تلك القرية يرافقهم دليل من أفراد الجالية اليهودية لمعرفته بالطريق الذي كان قد سلكه عند قيامه بالنشاط التجاري[1]. وحتى لا يكتشف أمرهم قرروا أن يكون الهجوم في الليل ليلة الإثنين 7 جوان، فاجتازوا المنطقة الخاصة ووصلوا مسغرين قبل طلوع الفجر، فانقضّوا على السكان في حينهم فحدث اضطراب في صفوفهم، مما جعلهم فريسة للإسبان فؤخذ أغلبهم مع مواشيهم أسرى بيد الإسبان إلاّ أنّ عودة هؤلاء للمرسى الكبير جعلهم يتعرضون لمقاومة من طرف القبائل المجاورة لوهران والمرسى الكبير فأبيد أغلب الجند الذين شاركو في هذه الحملة ولم ينجو منهم إلاّ عدد قليل دخل المرسى الكبير بمشقة.

لكن ما يعاب على هؤلاء المقاومين أنهم لم يستفيدوا من هزيمة الإسبان في مسغرين والسبب في ذلك يرجع إلى مايلي:

أ: أن الإسبان عمدوا الى استراتجية محكمة تمثلت في توجيه ضرباتهم الأولى للحصون التي تحمي المدينة، فأثّروا عليها، بواسطة مدفعيتهم، لأن تلك الحصون لم توجه لها الدولة الزيانية أيّة عناية مما جعلها سهلة المنال، وغلق كل المنافذ والطرق المؤدية إلى تلمسان أووهران أوالجبال المجاورة للمرسى الكبير حتى لاتصل الإمدادات للمدينة، وعند دخولهم لها أعادوا تحصينات المدينة وتقوية التحصينات التي كانت بها.

ب: السيطرة على منابع المياه والطرق المتجهة إليها، لأن السكان كانوا يتزودون من منابع المياه التي تقع غرب المدينة، يضاف إلى المياه التي كانت

1- Ibid P 358

نتيجة لسقوط الأمطار، فكان لكل منزل مجموعة من الصهاريج تحفظ فيها تلك المياه حتى يحين وقت الجفاف أما فيما يتعلق بالدولة الزيانية فإن مــولاي عبــد الله عندما علم بسقوط المدينة، قاد حملة محاولا استعادتها، بلغ عدد القوة الزيانية اثني عشر ألف جندي وصلوا إلى وهران في اليوم نفسه الذي دخل فيه الإسبان المدينة، وهذا يؤكد لنا بأن الدولة الزيانية كانت على علم بتحركات القوة الاسبانية، لكنها تباطأت عن الوصول قبل وصول الحملة، ولو تمّ ذلك لما استطاع الإسبان احتلال المرسى الكبير، كما أن القوة الزيانية لم تكن مزوّدة بأسلحة ثقيلة. أما الذين بقوا على قيد الحياة فأخذوا الأسرى إلى المرسى الكبير مع مواشيهم وربطوا بالأغلال تجرهم الجياد، وعندما علم الناس بما حدث لهذه القرية أعلن الجهاد في ربوع الناحية وتواصلت الإمدادات من الجبال المجاورة للمرسى الكبير، وعين تيموشنت، وتسلموت. ثم خرجت قوة من وهران فسدّت المنافذ على الإسبان وقدرت الوثائق الإسبانية قوة أغلبيتهم، ولم ينج مــن المعركة إلاّ قائد الحملة مع بعض من فرسانه، فوصل إلى المرسى الكبير فــي ظروف سيئة جدا. هذا ما يتعلق بالمعركة والمراحل التي مرت بها، أما نجاح القوة الإسلامية فيرجع إلى مايلي:

- **أولا:** أن القبائل المجاورة للمرسى الكبير وقائد وهران حاولوا الاستفادة مــن الظروف الطبيعية، لأن تلك القبائل كانت تعتمد حروب العصابات والجبال مواتية لهذا النوع.

وأما عن عدم الإستفادة من هزيمة الإسبان في مسغرين فيمكن تلخيصها فيما يلي:

أ: أن الإسبان قبل هذه المعركة، تمكنوا من تسريب جواسيسهم، بين أوساط تلك القبائل، فشجعوا المبادلات التجارية، مع المرسى الكبير، فأصبحت القوافل

تنقل من مضاربهم، إلى السوق الذي أقيم بجوارها بضائع مختلفة، ولهذا فالمصلحة الذاتية تتطلب منهم عدم القضاء على الوجود الإسباني، ومن بين تلك القبائل قيزة[1] الذين كانوا يتاجرون مع الإسبان.

ب: إن الحملة التي أرسلت من وهران لم تكن تملك إمكانيات تسمح لهم بتحقيق الإنتصار على الإسبان لأنها ضعيفة وغير مسلحة تسليحا جيدا. بلغت تلك القوة حسب الوثائق الإسبانية ألفي فارس وأربعة وعشرين ألفا من المشاة، شارك فيها رجال الطرقية، فكانوا يحملون أعلامهم الملونة بالأحمر والأخضر والأبيض، وكان دور هؤلاء التأثير على السكان حتى يتمكنوا من الصمود، لكن قنبلة الإسبان من حصون المرسى الكبير للحشود المتقدمة تسبب في خسارة، مما أدى بالقوة الإسلامية إلى الانسحاب.

ج: أن المرسى الكبير لم يكن بعيدا عن القواعد الإسبانية في كل من مالقة، وقرطاجنة، مما سهل مهمة وصول القوة الإسبانية في أقصى سرعة، فارتفع عدد الجند بها إلى ستة ألاف وخمسمائة، كما توجهت سفن الأسطول الإسباني في كل من مالقة[2] وقرطاجنة إلى المرسى الكبير، لحمايتها، مما تسبب في فشل المسلمين في استعادة المدينة من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن معركة مسغرين، كانت ضربة قاضبة للإسبان وكادت تنسف مشاريعهم، وهو ما جعلهم يجنّدون كل إمكاناتهم لإتمام المشروع المتمثل في السيطرة على بقية

1- عن هذه القبائل أنظر: أبو راس ، عجائب الأسفار ، ورقة 37 محمد بن يوسف الزياني دليل الحيران وانيس السهران، الأخبار مدينة وهران الجزائر 1399 - 1979

2- الحسن الوزان ، المصدر السابق، ص 237.

موانئ الدولة الزيانية[1].

- **إحتـــلال وهـــران:**

وصف الإسبان وهران قبل احتلالها فقالوا: أن المدينة مرتبطة بالجبال المحيطة بها، وهي شبه مثلث بها فنادق خاصة بالتجار، تحيط بها مجموعة من الحصون والأسوار، خاصة بالدفاع عنها كما توجد بها منابع للمياه، وحولها مجموعة من الحدائق.

- **بداية التهيؤ للحملة:**

التفكير بالحملة بدأ بهزيمة الإسبان بمسغرين، التي كان لها رد فعل وعلى الخصوص عند رجال الكنيسة المسيحية، الذين جنّدوا كل إمكانياتهم لغسل الهزيمة التي ألحقت بقوتهم على يد المسلمين الذين كانوا يعتقدون بأنهم انتهوا بسقوط غرناطة.

أما الهجوم على وهران فقد أمر به الملك الإسباني في «1508 /08/02» وقد تم تعيين مجموعة من القادة العسكريين على رأس هؤلاء بيدروا نافاروا[2].

من بين الذين شاركوا في قيادة الحملة فرنانديز ديوراdoira Fernandez وكذلك انطونيو كوفا Antonio Cuva الذي كان على رأس المدفعية، وفينالي Venalle وغنزالو Ganzalo de ayara. الملك فرديناند أمر أن يتولّى

1- عن هذا الهجوم أنظر Carta del Rey don Ferdinado Dar Ordenes. A. la ciudad de malaga para el absteciment o de la piaza de Oran, A.M.M Fal 440، Originales tom II، Cazenave (Jean): les gouverneurs d'oran pendant l'occupation de cette ville، 1509-1791، en RA 1937 Tome 81, P 257 à 300.

2- Bisetta، Pedr Caytan ; historia de Oran y la sucerca a curadi en Rica 1989, P 66، el ilante que lizo sant pedro quando nega A. Ajesucrista sihena

القـــيادة نافارو الذي وصل إلى قرطاجنة في23 أفريل1508[1] ، ثم توجه منها إلى مالقة، على رأس سفن قرطاجنة وأعلن في خطبته للجند أنهم مسؤولون للدفاع عن مملكة قشتالة، وأن الهجوم سيتم بعد الإتفاق بينه وبين الكاردينال اخسيمانس الذي سيتولى القيادة العامة للحملة، فاجتمع به نافارو واتفقا معا على أن انطلاق الحملة يكون في1509/03/06 بعد تجميع كل القوى[2].

- احتـــلال وهران:

هذا فيما يتعلق بسير الحملة، أما احتلال المدينة فقد تعرضت له كتب الرحالة والوثائق الإسبانية، فمن بين هؤلاء الرحالة الحسن الوزان[3] الذي زار المنطقة خلال فترة الإحتلال الإسباني لوهران ومرمول[4]. الرحالة الإسباني الذي زار المغرب الإسلامي في الفترة الموالية لعصر الحسن الوزان، كما اعتمد عليه في وصفه لأراضي الدولة الزيانية.

فالحسن الوزان يرى بأن محاولة احتلال وهران مرت بمرحلتين: الأولى تمثلت في أن الملك الإسباني فرناندو أرسل أسطولا كبيرا لوهران لمحاولة احتلالها وإطلاق سراح الأسرى المسيحيين بها فانهزم بسبب خطإٍ في العمل.

لكن ما يعاب على هذا النص أنّه لم يحدد لنا تاريخ هذا الهجوم والأخطاء التي ارتكبها قائد الأسطول في مواجهة وهران ما عدا الإشارة بأن نفس الملك هو الذي أعاد الكرّة بعد شهور.

1- Ibid P 69

2- Ibid P 70

3- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص30.

4- مرمول، المصدر السابق ، ج2، ص337. أنظر أيضا Khell: Oran et L'Oranie avant l'occupation Française.

والوثائق الإسبانية التي تمكّنا الإطّلاع عليها لم تتعرض لهذا الهجوم ولعل ذلك يرجع إلى بعض الغارات التي كان يقوم بها الأسطول الإسباني على مدن الدولة الزيانية الساحلية منذ بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

وأما الهجوم الثاني فهو الذي قاده الكاردينال فرانسيسكو خسيمانس[1] XImenez بمساعدة بيدرو نافاروNAVARRO وقد تمكن من الاستيلاء على المدينة بسهولة، وهو ما يؤكده مرمول أيضا بقوله: « إن عملية الغزو أسهل مما كان متوقعا،ذلك لأن عامل المرسى الكبير كان قد اتفق مع يهودي ومسلمين كانوا قائمين على تحصيل وجبات الأبواب لحساب أمير تلمسان على أن يسلموا له المدينة في موعد مضروب، وبينما كانوا يدبّرون كيفية تنفيذ ذلك الاتفاق، إذ وصل الجيش الإسباني، وكان لكثرة عدده قد سلك الطريق البري من المرسى الكبير لوهران على الطريق الجبلي ولما رأى المسلمون نزول تلك الحشود الكثيرة خرجوا دفعة واحدة لقتالهم، ولم يخلّفوا داخلها سوى عدد قليل من الناس، وعندئذ سمحت الفرصة للمتآمرين ففتحوا أحد أبوابها ونصبوا على أحد الأبراج صليبا أحمر لكي تتأكد القيادة الإسبانية أن ذلك الباب مفتوح لها، وهو ما يراه أيضا الحسن الوزان[2] بقوله: « أن السكان خرجوا يقاتلون بغير

1- من هذه الهجومات أنظر Fernanda de zafra: coressponenica sobre la empreza espanola en el marte de africa en el perioda 1492-1494 أنظر أيضا Codgin t carta de ،PP 46-109 de Retana deocumen...enenditas . P. la hest.. de esp.. 47 ganzalo de ayara P 71 حدد عدد الجند بـــ 14000، والقتلى 4000، و الأسرى 5000.

2 – الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ص31. يقول محمد بن يوسف أن يهوديا يقال له الراوي ابن كيسة أتى بجيش النصارى للمدينة و أدخله بها سرا بالحيلة، فقدم الجيش لباب المدينة ففتحه وأخذ العباسيين الذين كانا يعملان وهما عيسى بن الغريب والغناش كبيرا. أنظر دليل الحيران، ص142.

نظام وتركوا المدينة خالية فعلم الإسبان ذلك وأرسلوا قسما من جيوشهم إلى الجانب الآخر من وهران، فلم يجدوا من خصومهم غير النساء وقد صعدن على الأسوار فدخلوا المدينة بسهولة، فيما كانت المعركة على أشدها في الخارج»، الذي يمكن التوصل إليه من النصين ما يلي:

أ: إن الإسبان قبل وصولهم إلى وهران درسوا كل السلبيات التي ارتكبت من قبل السفن التي هاجمتها قبل هذا التاريخ، وتبين لهم بأنهم لم يتمكنوا من احتلالها لأنها تتميز بتحصيناتها التي لا تسمح لهم بالدخول إليها بسهولة لأنها تحتوي على قلعة حصينة فوق الجبل، وقلعة أخرى ذات حواجز موازية للسور الذي دعّمه النصارى بعد احتلالهم لها.

كما تحتوي على أبراج وخنادق عميقة ومحاذية للمدينة، على الضفة الأخرى للنهر يوجد حصن آخر فوق جبل يشرف على المدينة وبإمكان الناظر من أعلاه أن يستشفّ الوادي كله إلى منبع النهر، وبهذا الحصن خندقان عظيمان وسور للخندقين مبلط تبليطا جيدا يتسع لأن تسير عليه عربات[1].

فهذه التحصينات تؤكد لنا صعوبة احتلالها، لهذا فكر حاكم المرسى الكبير في الاتصال بالأشخاص الذين يمكن أن يقدموا له خدمات في حل هذه المشكلة، وقد استطاع بواسطة عيونه المندسين بداخل وهران أن يضمن إبرام اتفاق مع اليهودي وموظفي الدولة الزيانية الذين كانوا يشرفون على أخذ الضريبة الجمركية .

وهذا كان من أبرز العوامل التي سهلت مهمة القوة الإسبانية لأنهم فتحوا لهم إحدى أبوابها.

1- مرمول ، المصدر السابق، ج2، ص325. أنظر أيضا Zavala (Francis): Bandera Espanola en Argelia del minacian espanole en Argella desde 1500-1792 Argel, 1885, P5

ب: انعدام الخطة العسكرية من قبل القوة الزيانية بداخل وهران وسكانها لأنهم تركوها خالية من المدافعين عليها خلال خروجهم لمواجهة القوة الإسبانية الزاحفة عليها حتى لا يتعرضون إلى تشديد الحصار عليها، كما حدث خلال المرسى الكبير، وهذا في رأينا من الأخطاء الفادحة لأنها لو بقيت حامية بداخلها لأمكنها التصدي للجند في حالة دخولهم إليها، وهذا لم يحدث، مما أدى إلى خسائر كبيرة في صفوف المسلمين وهو ما أكده الحسن الوزان بقوله: «ولما أخذ المغاربة يتراجعون نحو المدينة للدفاع عنها أبصروا الرايات المسيحية ترفرف على الأسوار وعند تقدمهم للمدينة وجدوا أنفسهم بين القوة الإسبانية التي دخلتها وبعض أفرادها الذين خرجوا منها لتطويق القوة الإسلامية والقوة التي دخلوا معها في مواجهة، فضيق الخناق عليهم فمات أغلبهم.

يضاف إلى ذلك الدور الذي قام به الكاردينال اخسيمانس في تحضير الجند[1] نفسيا وحثهم على الصمود، وقد خاطبهم قبل مواجهتهم المدينة بقوله: « تذهبون أيها الإخوة الأحبة، تذهبون إلى محاصرة مدينة تشرف على كل موريطانيا وتستولون عليها لأنها بوابة إفريقية وعندما تطيعون الأوامر كما يريدها الله وكل البلاد التي تكون في هذه المنطقة تسقط في يد النصارى الكاثوليك وتجدون داخل هذه الجدران أمتعة غالية و مدافع و أسلحة فتنزعون من الكفار السلاح الذي يوجه ضدكم وتصوّبونه لهدمهم وتدميريهم مقدّرين بالقدرة العليا.

1- عن الدور الذي قام به أنظر رسالته التي خطب بها الجنود قبل هجومهم على وهران والتي نشرها Juan Fues في كتابه Historia de Ximenez in bauche tome II AB P 442

ج. إن السيطرة على وهران سمحت لإسبانيا الحصول على ثروات المدينة لأنها من أغنى المدن التجارية في الدولة الزيانية وكذلك السيطرة على الأسلحة التي تستعمل من طرف سكانها لضرب المدن الساحلية في جنوب إسبانيا، ثم أعلن لهم كي يذهبوا إلى المدينة ودخلوها باسم الأب والابن والروح القدس.

وأما مرمول[1] فيقول: "أن الكاردينال قاد عددا من الجند ومعهم السلالم لتسلق أسوار المدينة من الطرف الآخر، بينما كان سكانها المسلمون يوجدون خارجها، ودخلها النصارى دون مقاومة كبيرة وهاجموا المسلمين من الخلف وهم يقاتلون النصارى، فكانت مذبحة عظيمة في المسلمين، ونجا منهم من نجا وفروا متشتتين في الحقوق بعد أن رأوا سقوط مدينتهم وهزيمة جيوشهم تاركين النساء والأطفال والمتاع لمشيئة أعدائهم". وأما أبو راس الناصري[2] فيؤكد ما جاء في الوثائق والمصادر الاسبانية فيقول: "إن احتلال وهران كان في صفر سنة 915هـ/ 509م بمداخلة أحد اليهود الذي خان المسلمين، وذلك أن اليهود الذين بوهران كانوا تحت ذمّة المسلمين ومن بين هؤلاء زاوي بن كبيسة المعروف بابن زهو الذي تحالف مع جيش النصارى فدخل المدينة غفلة بفتح بابها وهو باب المرسى ففتحه ليلا ومعه أحد العسّاسين وهو عيسى بن غريب العربي والعباس بن طاهر العبدلاوي، وصار الجيش بالداخل فانكبّ المسلمين قتلا وصار ذلك في وقت أبي قلمون الزياني.[28]

1- مرمول المصدر السابق ج2 ص337.

2- أبو راس الناصري: الحلل السندسية مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 2326 ورقة 256 وهو يتفق مع (تكملة بغية الرواد الذي يقول: احتلوا وهران عام خمسة عشرة مائة وتسعة 1509 ورقة 58)

- **عوامل الفشل في استعادة وهران والمرسى الكبير:**

من بين عوامل فشل المسلمين في المحافظة على وهران واستعادة المرسى الكبير مايلي:

أ: الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة الزيانية، ففي الوقت الذي استطاع فيه الاسبان أن يمدوا نفوذهم في أراضي الدولة الزيانية وجدوا مساعدة من أحد أمراء هذه الدولة وهو يحي الثاني الذي كان على رأس إمارة تنس[1] ومعارضا لأمير بني زيان في تلمسان أبي حمو موسى الثالث، فربط اتصالا سرّيا بالاسبان، عندما كانوا محاصرين للمرسى الكبير أوإثر دخولهم إليها، مقابل أن يقدموا له يد المساعدة للإطاحة بالسلطان المذكور والجلوس على كرسي الحكم[2].

وتعتبر هذه العملية الأولى من نوعها ضربة قاضية للزيانيين لأنّه بدلا من توحيد قوتهم لمواجهة الخطر الاسباني الذي لا يفرق بين يحي وأبي حمو موسى، بل هدفه القضاء النهائي على الدولة الزيانية.

وتماشيا مع سياسة تشجيع الفوضى في هذه الأرض اتفقوا مع الأمير يحي، وأنزلوا قوتهم، بعد أن تحالف معهم على أن يقدم يد المساعدة[3].

لم يبق الأمر مقتصرا على الأمير فقط، بل امتد إلى قيادة الجيش الزياني، فقد أحجم بعضهم عن مواجهة الإسبان مما جعل موقف أبي حمو ضعيفا أمام

1- السليماني، الشماريخ، ج6 ورقة 120.

2- نفس المصدر، ج3 ورقة 113.

3- نفس المصدر، ورقة 15.

القوة الاسبانية الموحّدة التي ترى بأن عملها هذا ضد أعداء الله الكفـرة مـن المسلمين.

ب: إن العدو الإسباني استطاع فيْ فترة زمنية أن يشعل الـصراع القبلـي الذي عرفته الدولة الزيانية لصالحه، فتحالف مع بني عامر[1]، وبعض القبائـل العربية والبربرية ضد الزيانيين، ثم الأتراك فيما بعد، كما تعـرف بواسـطة هؤلاء على المسالك المؤدية إلى تلمسان وبذلك تمكن الإسـبان مـن مراقبـة الطرق التجارية.

فالتعاون مع العدو الأجنبي يكون كارثة للأمة عكس التجمـع، لأن القـوة الإسبانية ليست القوة التي لا يمكن الإنتصار عليها، بل برهنت القوة الجزائرية في مسغرين أنها يمكن أن تنتصر إذا كانت الظروف مواتية، كوحدة المـصير بين جميع الناس والتخلي عن النزاعات القبلية.

ج: إن السيطرة الإسبانية على كل من المرسى الكبير ووهران، ثم التحالف مع أمير تنس، سببت للدولة الزيانية أزمة اقتصادية، وأن الإسبان تمكنوا من مراقبة الموانئ البحرية، هذه الموانئ تعتبر شريان الاقتصاد الزياني، والمتمثلة في كل من تنس ووهران والمرسى الكبير ثم هنين فيما بعد، وتمكنوا أيضا من مراقبة الطرق البرية التي تربط هذه الموانئ بعاصمة الدولة الزيانية تلمسان، لم تسمح للدولة بتجنيد القبائل التي لا تشارك في الجيش الزياني إلاّ بعد أن تقدم لهم أموالا، هناك وثيقة يرجع تاريخها إلى8 ديسمبر1526م[2] مرسلة من مدينة غـرناطة توضح لنا العلاقة بين رجال الكنيسة و الاحتلال الإسباني لسواحـل

1- عن التحالف بين الاسبان والقبائل العربية، أنظر بوراس المغرب، مخطوط بخزانة زاويـة وادي جمعة، غليزان، ورقة 17.

2- أرشيف بلدية مالقا Tome IIIFol 135L2-A.M.M

الدولة الزيانية فقد ذكر فيها صاحبها بأن الملك المعظم يصرح بنشر المسيحية والقيام بالوضع الكنائسي لسيدتنا أثيون من أجل مساعدتنا في المصاريف على حدودنا بإفريقيا وعلى أسطولنا للاستمرار في الحروب المقدسة[1].

توضح الرسالة بأن البلاط الإسباني قد استغل رجال الدين الذين كانوا يكنون عداوة للإسلام في مشروعه الإستعماري في أراضي الدولة الزيانية وغيرها من بلدان المغرب الإسلامي في تجنيد الناس، وجمع الأموال، واستغلال أموال لصالح الحملات الإسبانية.

وهناك رسالة موجهة أيضا إلى الامبراطور كارلوس القوي المعظم ملك ألمانيا ودون إخوانه من أمه والدوقين والكونتات والمركزيين والمبشرين ومجلس القساوسة المكلف بالأتاوة والضرائب والرجال القديسيين لغرناطة كمثل المدن والقرى الأخرى والأماكن التابعة للقسيس الأكبر بطليطلة والذين لهم علاقة برسالتنا التي نتمنى لهم الصحة والعافية أن يحافظوا ويدافعوا لإعانة الله لهم على مدينة وهران ومدينة بجاية والقرى التابعة لهما والحصون والمرسى الكبير والجزائر وطرابلس ومليلة وبقية الحصون الأخرى[2].

يستخلص من هذه الرسالة ما يلي:

أ: أن الدفاع عن الوجود الإسباني في أراضي المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية لا تخص السلطة السياسية الحاكمة في إسبانيا فقط أي جلالة الملك المعظم،بل كل القوى الحية وعلى رأسها الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا،لأن الصراع هو صراع بين الإسلام والمسيحية.

1- Tome III F 136.

2- الوثيقة تتعلق بالشؤون العسكرية توجد بأرشيف مالقا مؤرخة في 20 ماي 1510م Tome V Fol 216 AMM.

وبما أن الكنيسة هي التي كانت وراء اضطهاد المسلمين في الأندلس فيجب عليها أن تشرف على الاحتلال الاسباني للمراكز الاسلامية في العدوّة المغربية والدفاع عنها بجمع الأموال وإرسالها لتلك المراكز حتى تتمكن من مواجهة المحاولات الاسلامية لاستعادتها. ويضاف إلى رجال الكنيسة أعيان المجتمع الاسباني من دوقيين ومركزيين وهؤلاء هم الذين يتولون تسيير شؤون الدولة والجيوش في إسبانيا.

أما أهمية هذه المراكز فترجع حسب الوثيقة إلى مايلي:

1: إن تلك المدن والحصون تعتبر حدودا فاصلة بين إسبانيا ودول المغرب الإسلامي الأعداء الكلاسيكيون لإسبانيا منذ فترة زمنية طويلة، لأن الفتوحات الإسلامية انطلقت من العدوة المغربية والإمدادات التي تواصلت على الدولة الإسلامية في الأندلس من أراضي المغرب.

2: المحافظة على تلك المراكز تسمح لإسبانيا بالتحكّم في الحوض الغربي للبحر المتوسط وعدم السماح للسفن الأجنبية بضرب السواحل الإسبانية التي تعرضت لغارات من قبل المجاهدين البحريين إنطلاقا من مدن المغرب الإسلامي وعلى الخصوص من بجاية والجزائر ووهران وهنين بالنسبة إلى الدولة الزيانية، وكذلك من قبل الأخوين عروج وخير الدين منذ نزولهما في أراضي الدولة الحفصية، ثم الانتقال إلى جيجل وجزائر بني مزغنة فأصبحوا يمثلون مشكلة بالنسبة إلى استراتيجية الاسبان في المغرب الاسلامي.

3: الإشراف على البحر المتوسط سمح لإسبانيا بالدفاع عن غرناطة التي لها موانئ مقابلة للعدوة المغربية مثل مالقا والمرية وقرطاجنة تلك الموانئ التي كانت تواجه الغزوات. وبذلك نجد هذه الوثائق التي تحتويها

بلدية مالقا تلقى أضواء على الفترة التاريخية التي تهم العلاقة بين إسبانية والدولة الزيانية.

4: الانقسامات التي عرفتها أوروبا خلال هذه المدة والتي لـــم تكـــن تخـــدم المصالح الإسبانية فيها وتؤثر على مصالحها الخارجية وعلـــى الخـــصوص التحالف الذي حدث بين الدولة العثمانية وفرنسا وارتباط الجزائـــر بالخلافـــة منذ1518. ومما زاد الأمر خطورة أن البابا لم يستمر في تأييده للإسبان بـــل توجه إلى مساندة فرنسا ضد شارل الخامس الذي كان مناهـــضا للفرنـــسيين والإنجليز خلال هذه الفترة، هذا التوجه بالنسبة للكنيـــسة الكاثوليكيـــة دفـــع بالإسبان إلى الاعتماد على أنفسهم وعلى الخصوص رجال الكنيسة.

5: أن حكومة إسبانيا وملوكها أعطوا الأوامر بجمع الأموال اللازمة لاستمرار الحرب ضد الدولة الزيانية ولكن الخلاف بين السلطة الإسبانية ورجال البابوية لم يكن معروفا لدى العامة حتى لا يكون له تأثير في الحروب التي أعلنتها إسبانيا ضد الدولة الزيانية وغيرها من الدول المغربية، فالفرسان والرجالة الذين تطوعوا في هذه الحروب كانوا يدفعون بدوافع دينية.

6: أن المصادر الإسلامية، والإسبانية، تؤكد إحتكار اليهود للاقتصاد الزياني، وعلاقتهم الحسنة مع الدول المسيحية مما جعلهم يدبّرون مؤامرة سلمت بموجبها وهران ففتحوا إحدى أبوابها للجيش الإسباني[1] وهذا يعتبر مـــن أكبر أخطاء سلاطين الدولة الزيانية بوجه عام وقائد وهران بوجه خاص، الـــذي تخلّى عن مفاتيح المدينة لأفراد من الجالية اليهودية.

1- أبو راس، الحلل السندسية ، ورقة 48.

- **نتائج سقوط وهران على بقية موانئ الدولة**

كان سقوط وهران ضربة قاضية لبقية الموانئ الزيانية الأخرى، فاستولى الإسبان على الصخرة الوسطى لجزر جزائر بني مزغنة، وأقيم عليها حصن عرف بحصن البنيون[1]، ثم حدث ضغط على بقية الموانئ الأخرى مما جعلها تخضع للنفوذ الإسباني، مثل دلس وشرشال، وتدفع ضريبة سنوية مقابل عدم استيلاء الإسبان عليها لأن ما حدث في وهران من قتل وأسر كان له تأثير فـــي تلك الموانئ، لأن استيلاء النصارى على المرسى الكبير هالهم وأضرّ بهم لعلمهم أنهم لا محالة يستولون على وهران وأنهم إن فعلوا فالباقي من بلاد المغرب في خطر عظيم فصاروا يتوقعون ذلك وينتظرونه فقضى الله أن استولوا على وهران في محرم لسنة915هــ/ 1509م فاشتد حزن المسلمين واستولى البلاء عليهم[2] لأنهم يتوقعون إنتصاره على بقية البلاد واشتداد وقوعه عليهم فلما كان شهر رمضان استولوا على بجاية. كما يعتبر بعض المؤرخين أن سقوط وهران، هو نهاية للدولة الزيانية وفي هذا الصدد ذكر الجامعي أن أمر بني زيان حينئذ قد ولّى الأدبار، وضعف ملكهم وتقلص حكمهم، ولاسيما وقد أخذت من أعمالهم، وهران يومئذ[3]. أما أبوراس[4] فيقول لما تغلّب الإسبان على مدينة وهران واتخذوها دار قرار، واطمأنت بهم الدار ورغب الأعراب في عرضه الفاني فانحاز إليه كل قبائله، مثل كيسة وحميان وبني عامر، مــن

1- نفسه ، ورقة 50

2- نفسه ، ورقة 50.

3- الجامعي، فتح مدينة وهران ، ورقة 79.

4- أبو راس، الناصري، عجائب الأسفار، ورقة 48.

كل ضعيف الايمان، ولما صاروا وهم شيعة قويت بهم شوكة الإسبان وكانوا عيونه على المسلمين.

- تحصين المدينة:

بعد الاستيلاء على مدينة وهران من قبل الإسبان، وجهت الدولة الإسبانية عناية للمنطقة وهذا يرجع إلى عاملين أساسيين:

أ: أن منطقة المغرب الأوسط قريبة من الأندلس، وكانت تربطها بالدولة الزيانية علاقة سياسية واقتصادية وثقافية، منذ الفتح الإسلامي للأندلس (92هـ/710م) حتى نهاية الدولة الناصرية لم يتوقف الأمر عليها فقط، بل امتدت العلاقة لإمارة أرغون، وقشتالة[1].

ب: حاولت إسبانيا من خلال إحتلالها لوهران والمرسى الكبير إقامة الأسس واللّبنات الأولى، لكي تكون مستقبلا مرتبطة من الناحية الدينية والسياسية لإسبانيا، ولكي يتم هذا المشروع لابد من قيام حركة استطانية، كما فعلت فرنسا فيما بعد ولهذا أقدمت عائلات إسبانية خصيصا لوهران للاستقرار بها، ولتحلّ محلّ سكانها الأصليين الذين قتلوا في طرقاتها، أو أسروا بعد الاستيلاء عليها، وما بقي فيها من الأحياء هاجرها إلى المناطق المجاورة لها، وقد وصل البعض منهم إلى تلمسان أما العائلات الإسبانية التي توافدت على وهران، فبلغت ستة مائة عائلة، منحت لأفرادها أراضي خصبة، كانت ملكا للقبائل التي توجد مضاربها مجاورة لكل من وهران والمرسى الكبير لاستغلالها مقابل عدم بيعها، أو مغادرتها خلال السنتين الموالتين.

1- عن هذه العلاقة أنظر رسالتنا،الأحوال الإجتماعية والإقتصادية،رسالة دكتوراه الحلقة3، جامعة الجزائر،1987

ج: خصّص مائتا رجل لخدمة الحاكم العام لمدينة وهران، مزودين بالأسلحة، الخيول، وبقيّة الرجال فبقوا دائما في حالة تأهب لتلبية ما يطلب منهم عند الحاجة.

د: ارتبطتوهران بالمدن الإسبانية الجنوبية، بحيث أصبحت مسؤولية، المحافظة على وهران والمرسى الكبير من صلاحية هذه المدن، وعلى الخصوص مالقا التي خصصت إحدى جلسات مجلسها البلدي والذي شارك فيه أغلب أعيان المدينة، بوضع خطة متينة لمواجهة الأخطار التي يمكن أن تواجه الإسبان بالمدينتين.

هـ: تحويل مدينة وهران من مدينة تجارية إلى مدينة عسكرية وقد تمّ ذلك بعد خمس سنوات من احتلالها «914هـ/1509م» وذلك من خلال بناء الأبراج[1] القوية في مختلف المناطق الاستراتجية لحماية المدينة، والمياه التي تتزود بها، كما عمد الإسبان إلى توسيع القلاع والحصون التي كانت تحيط بالمدينة قبل احتلالها.

- التوسع في النواحي القريبة منها وموقف قبائلها من الإسبان:

بمجرد بسط النفوذ على المدينة لجأت القوة الإسبانية إلى محاولة التوسع خارجها، وفي هذه الأثناء عملت على التّفرقة واستغلّت انقسامها، لصالح الاحتلال، وقد نتج عن ذلك تحالف بعضهم مع قوة الاحتلال، فشاركوا إلى

1- من بين الأبراج برج مرجاجو شيد من قبل الإسبان سنة «979، 1567م» لحماية المدينة ثم البرج الأحمر يقع على الضفة الشرقية لوادي الرحي على هضبة عالية تشرف على البحر أسس من قبل المرينيين ووضع من طرف الإسبان،وبرج اليهودي الذي شيد فوق رأس بحري 915هـ،1509م أنظر المرازي ،ج1، ص62.

جانب الجيش الإسباني في قمع المواجهات والانتفاضات التي قامت في بعض المناطق.

ومن بين الذين وقفوا إلى جانب الإسبان الونازرة نسبة إلى جدهم ونزار، وقد قال المشرفي في شأنهم: "أنهم من أولاد عبد الله أحد بطون بني عامر ومن جملة جند النصارى الإسبانيين الذين بوهران من الأعراب، وهم فرقة ذات بأس شديد، وصل عددهم نحو الستة دواوير عظام، وأصل مسكنهم بوادي صاء بنواحي عين تموشنت، ثم بعد ذلك انتقلوا بنواحي تارقه، فسكنوا بجبالها مع إخوانهم قيزة العامريين، ثم انتقلوا معهم وسكنوا بالجبل المطلّ على وهران في الجهة القبلية منه بنواحي تمزوغة ثم استقروا بملاتة جبلا ووطأ، وتصرفوا فيها كما شاؤوا كان ذلك قبل احتلال الإسبان، لكل من وهران والمرسى الكبير". ويبدو أن هذه الحركة التوسّعية التي لم تحدّد المصادر تاريخها أنها تمّت في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بعد طرد القبائل التي كانت مضاربها بتلك النواحي مثل مغراوة[1] وازدجة، وبنويسقن. ومن أبرز عوامل تحالفهم مع الإسبان أنهم كانوا من أقرب القبائل التي توجد مضارها قرب وهران والمرسى الكبير، فكانوا بين أمرين، إما المواجهة العسكرية، وهذا لم يكن يتم لأن إمكانيات تلك القبائل ضعيفة إذا ما قورنت بإمكانيات إسبانيا، أو التعاون مع هؤلاء بعد أن سلكت إسبانيا سياسة رشوة شيوخهم والشخصيات التي لها تأثير على القبيلة، فخلق نوعا من التعاون بينهم وبين الإسبان، فأصبحوا من جملة جنودهم المعتمدين عليهم، كما شكّلوا منهم[29]

1- مغراوة: من أبرز القبائل الزناتية، لعبت دورا خلال عهد الدولة الزيانية، وعلى الخصوص في عصر قوتها، أنظر رسالتنا، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للدولة الزيانية ص24.
المشرفي، بهجة الناظر ورقة14.

فرقا من المخبرين يزودونهم بالمعلومات عن تحركات القبائل المعادية وقد علّق عليهم المزاري بقوله: «إن قيزة صاروا عند الإسبانيين لصوصا الونازرة صاروا لهم زمالة»[1] هذا ما يتعلق بالقبائل التي وقفت إلى جانب الإسبان، لكن هنالك قبائل وقفت ضد الاحتلال الإسباني، وكذلك العلماء الذين رفعوا شعار الكفاح ضد الغزو الأجنبي، وتولوا قيادة كتائب المجاهدين. ومن أبرز القبائل التي عارضت الإسبان قبيلة سويد، وعلى الخصوص قبيلة هبرة وكان ذلك بعد احتلال وهران مباشرة حيث عمد حاكمها الذي عرف بالقوة. وقد علّق عليه صاحب كتاب سعد السعود بقوله: « ولما استقلّ قدمه بها صار يشن الغارات على المسلمين، إلى أن دخل في طاعته كرشتل، وبنو زيان، والونازرة، وقيزة، وعمرة، وحميان، وشافع، وأولاد عبد الله، وأولاد علي، وغيرهم من بني عامر، ولم يخرج عن طاعتهم من المجاورين لهم غير بوحسون، الأمحبس، والرقاقة المستقرين بين البحر وجبل هيدور[2]، مع جبل قيزة[3].

وهذا ما يؤكد بأنهم إضافة إلى احتلالهم لوهران، والمرسى الكبير كانت استراتيجيتهم تتمثل في التوسّع نحو المناطق الداخلية، وهو ما جعلهم يشنّون الغارات على القبائل التي توجد مضاربها مجاورة لوهران، كما استطاع الكاتب أن يحدّد لنا القبائل العربية والبربرية أو بعض بطونها المجاورة لوهران، التي انقسمت بدورها إلى مؤيد ومعارض للإسبان.

1- المشرفي، بهجة الناظر، ورقة14.

2- هيدور، نسبة لشيخ هيدور تماما، وهو مغراوي على أي حال، انظر المزازي المصدر السابق ج1 ص68.

3- قيزة، نسبة لإحدى القبائل التي تعاونت مع الإسبان، مضاربها قريبة من مراكزهم، ولذا استمر هذا التعاون حتى تحريرها، انظر ابن زرفة، الرحلة القمرية ورقة19.

ومن المعارضين، بعض بطون قيزة بسفوح جبل هيدور في المرحلة الأولى وهو ما دفع بالإسبان إلى إقامة حصن مرجاجو الذي كان الهدف من بنائه مراقبة القبائل المحاذية، وحماية وهران في حالة الهجوم عليها من مرجاجو، وهيدور.

وقد رأينا فيما سبق أن القبائل التي فشلت في مواجهة الإسبان، انطوت تحت السيطرة الإسبانية، وهو ما جعل المشرفي يعلّق على ذلك بقوله: «وصار الداخلون في طاعته شيعة الذين ينصرونه، ويعتمد عليهم في جلب الأخبار والمسير بهم في الطرق في الليل والنهار، واتخذوا منهم الجواسيس الذين يقال لهم المغاطيس».

وهذه إشارة إلى أن الأسبان استطاعوا أن يخلقوا فجوة بين القبائل، بعضهم تحالفوا معهم واستعملوا في مواجهة القبائل المعارضة لهم، بل كانوا يغيرون معهم على القبائل البعيدة من وهران في الليل والنهار، وهم الأدلاّء لهم لمعرفتهم بالطرق الآمنة، في حالة الإغارة على القبائل، وأغلبها يتم في الليل.

فانضمام القبائل إلى جانب الاسبان سهّل لهم المهمة في الإغارة على القبائل وهو ما جعل هذا المؤرخ يعلّق على ذلك بقوله: «فقويت شوكته، واشتدت قوته، وتعددت غزواته على الأقربين والأبعدين والأنزلين والأصعدين»[1].

لذا فالإسبان عجزوا في البداية عن القيام بغارات خارج وهران، لكن عندما انضمت لهم تلك القبائل وبطونها أصبحوا يغيرون على أي فبيلة من القبائل،

1- أبو راس،عجائب الأسفار، ورقة 46، المزاري،المصدر السابق،ج1، ص136، الجامعي،فتح وهران، ورقة 11.

ومن بين الذين تأثروا بالغارات[1] الإسبانية على مضاربهم قبائل سهل ملاتة وسيرات، ولكثرة الهجومات عليها من قبل الإسبان أصبح نفوذهم يشمل كـل المناطق وهو ما جعل البعض يعلق على ذلك بقوله: " من جملة بلاده التي تحت يده وشداده يتردد بها في ليله ونهاره، ولا منازع له فيها باضطراره واختباره"[2].

- أهم المعارك خلال هذه الفترة:

من أبرز المعارك بين الاسبانيين وهبرة ما يلي:

*** غزوة يعلو:**

هذه الغزوة قام بها الإسبان ضد إحدى بطون قبيلة هبرة التي توجد مضاربها بيعلو، ولم تقتصر عملية مواجهة الإسبان على رجال هبرة، فقط، ولكنها شملت الطلبة الذين كانوا يزاولون دروسهم بالزوايا القريبة من ميدان المعركة فاستشهد منهم حوالي ثلاثين طالبا دفنوا بنفس المكان الذي وقعت فيه المعركة، وعرف ذلك المكان منذ ذلك التاريخ بمقبرة الطلبة، وهذا دليل ملموس على الدور الإيجابي للزوايا في ذلك الحين كون طلابها في مقدمة المدافعين عن مضارب القبائل أمام الغارات الاسبانية، كما قتل في هذه المعركة سبعون فارسا من هبرة وجرح أربعون.

أما الجيش الإسباني ففقد في هذه المعركة ثلاثمائة وجرح ثلاثون، ولشدة المواجهة من طرف الهبريين دفع بالإسبانيين إلى الفرار من ميدان المعر-

1- علق أبو راس على ذلك فقال: وعاث ذلك ببطحتها مجتليا: على الإيمان فلم يلب بمفترس ورج أرجاءها لما أحاط بها، فأبدلت ثم أعلا مها بالغطس وشحنت بخنزيرهم وصلباتهم: مواضع الإيمان بها ذو توس.

2- أنظر المزاري، المصدر السابق، ج1، ص212.

وترك الأثقال فاستفاد منها السكان، كما نتج عن هذه المعركة هجرة الهبريين من هذه المضارب حتى لا يتعرضوا لانتقام القوة الإسبانية فانتقلوا الى أحجار الروم بالجانب البحري[1] ولعل المقصود بها مدينة ارزيو حاليا التي كانت بها آثار رومانية في عهد الدولة الزيانية، وقد استغل البعض منها متاجر للملح[2] الذي كان ينقل من سبخة وادي جمعة، ومنها يصدّر إلى الدول الأوروبية. والبعض منهم انتقلوا لوادي سيق لأهميته وقربه من القبائل، مما يجعلهم يجدون المساعدة منهم في حالة الهجوم عليهم.

*** غزوة سيدي لخضر[3]:**

ومن بين المعارك التي خاضتها قبيلة هبرة ضد الاحتلال الإسباني هي معركة سيدي لخضر بمضارب قبيلة حميان والتي لا تزال تحتل نفس المكان، ويبدو أن القوة لم تكن متكافئة، إلا أن الهبريين صمدوا في المعركة على الرغم من الخسائر التي لحقت بهم والتي وصلت إلى استشهاد مائتي هبري وجرح ثلاثين، أما فيما يتعلق بالإسبان فقد فقدوا في المعركة أزيد من ستة وسبعين من رجالهم .

*** غزوة القصبة:**

وقعت هذه الغزوة بالقرب من قلعة بني راشد ويعتقد أنها وقعت تحديدا أسفل قصبتها وقت الضّحى وقد وصف صاحب كتاب سعد السعود المعركة

1- المزاري ، المصدر السابق، ج1، ص212.

2- استغلال الملح استمر حتى هذه الفترة موضوع البحث، وقد أورد المازوني فتوى تتعلق باستغلال هذا الملح. أنظر الفصل من هذه الراسلة.

3- يبدو أن هذه المعركة وقعت مضارب حميان التي تشكل الأن جزاء من ولاية غليزان ويبدو أن الإسبان نقلوا بعض بطونها لمجاورة مراكزهم.

بقوله " فلا ترى إلا رجال هبرة كأنها أسود هائجة في القتال يكبرون علـيهم الكبرة الهلالية مرة بعد أخرى"[1].

وهذا ما يفيد بأن المعركة بين الطرفين التحمت فيها القوتان واستعمل السلاح الأبيض، مما زاد في عدد الخسائر، كما وقف حلفاء كل طرف إلى جانب إحدى القوتين، فالهبريون تحالفوا مع بني شقرون مما جعل بعض فرسانهم يـشاركون فـي المعركة وحدث عكس ذلك لأولاد علي الذين وقفوا إلى جانـب الاسـبان، ولكن على الرغم من ذلك فالهزيمة كانت على الاسبان، فقتل منهم ومن حلفـائهم عددا كبيرا.

*** غزوة عوينة الزيتون**

فهذه المعركة كانت نتيجة المعركة الأولى، لأن الاسبان يريدون الإنتقام مما لحق بهم في المعركة الأولى، لذا فالتجنيد في صفوف الاسبان أكبر من الأول، ويبدو أن ميدان المعركة تم اختياره من القوة الإسبانية، فقد وقعت بين الهبريين والإسبان بعوينة الزيتون من بلد العبيد الشرقية وانطلاق القوة الإسبانية كان من مزغران خلال الليل، في الوقت الذي كان فيه سكان هبرة نائمين، مما سبب خسارة كبيرة وصلت إلى سبعمائة ما بين الرجال والنساء والأطفال كما نهب الإسبان مضارب القبيلة، فأخذت مواشيهم، ومن بين عوامل الهزيمة تحالف أولاد حمدان من المجاهر مع الإسبان لسوء التفاهم بينهم وبين هبرة.

*** غزوة سيدي مبارك**

وقعت هذه المعركة في المكان المعروف بسيدي مبارك ضمن مضارب أولاد هداج، لأن هبرة كانوا موزعين بين سيرات الشرقية والغربية والساحل

1- المزاري ، المصدر السابق، ج1، ص213.

والجبال، وأن هجوم الإسبان كان موجّها بالدرجة الأولى إلى مضارب أولاد هداج، وشارك إلى جانب الإسبان القبائل الموالية لهم أمثال قيزة والونازرة وأولاد علي، مما جعلهم يشدّدون الحصار على القبيلة ولم يتركوا لها مخرجا يمكن الفرار منه، مما أدى إلى أسرهم عن آخرهم.

وعندما وصل الخبر إلى إخوانهم الموجودين في مناطق أخرى من سيرات وساحل البحر، هاجموا الإسبان وحلفاءهم من القبائل العربية والبربرية وتمكنوا من تحرير الأسرى، وعلى الرغم من تحريرهم فإن خسائر الهبريين كانت كبيرة للغاية، حيث سقط أكثر فرسانها مما أضعفها.

*** غزوة سيدي عبد الرحمن العماش:**

أما الغزوة الأخيرة التي ورد ذكرها، هي أن الإسبان خرجوا من وهران واتخذوا الطريق الساحلي حتى لا يكتشف أمرهم، ولعل ذلك تمّ في الليل، ثم انتقلوا إلى سيدي عبد الرحمن العماش قبل أن يعلم أهل هبرة بخروجهم، مما جعلهم يقتربون من مضاربهم ولما علموا باقترابهم منهم اتجهوا إلى أحد الأولياء في المنطقة وهو عبد المؤمن بن علي.

وقد فصل بين القوتين وادي الحمام ووادي سيق، فسقطت الأمطار خلال تلك الفترة ووجد فيضان للواديين المذكورين فأدى إلى مقتل عدد كبير من الإسبان.

الــفــصــل الثــالــث

الأوضـــاع السياسيـــة

ما بين 925-942 هـ/1517-1535م.

إن إختيار سنة «1517/923م» كبداية للفصل الثاني من هذه الرسالة، يرجع إلى عاملين أساسيين:

أولهما: إن سنة «1517/923م» عرفت سقوط عروج شهيدا في ميدان المعركة، كنتيجة للتحالف الذي وقع بين السلطان أبي حمو موسى الثالث والإسبان، وإن استشهاده يعتبر ضربة قاضية لمشروعه، الذي كان يرمي من ورائه إقامة دولة جزائرية قوية، يمكنها الوقوف أمام المشاريع الأساسية، التي تهدف إلى ربط أراضي الدولة الزيانية، بإسبانيا، وتمسيح سكانها.

ثانيهما: أن هذه السنة عرفت إمضاء معاهدة الخزي والعار، التي أمضاها أبو حمو موسى الثالث مع الإسبان، فكانت سببا في إنهاء سيادة الدولة، وأصبح هذا الأمير من أتباع التاج الإسباني، ولقب حاكم وهران بعدها بالحاكم العام لوهران وإمارة تنس، وتلمسان.

- الصراع بين أمراء هذه الفترة واستغلاله من قبل الدولة الجزائرية والإسبان:

*** أمراء هذه الفترة أبو حمو موسى الثالث:**

سبق لنا في الفصل الأول التعرض للسلطان أبي حمو موسى الثالث الذي تولى شؤون الدولة، بعد مؤامرة لإزاحة السلطان الشرعي، أبو زيان.

كان أول خطر واجهه هذا السلطان هوعروج: فعندما وصلته معلومات تتعلق باقتراب عروج من تلمسان اتصل بحلفائه من القبائل العربية والبربرية ثم برح تلمسان نحو سهل اغبال، يرسم قطع خط عروج المتوجه إلى السهل المذكور، فهجم عليه لكن هذا الأخير هزمه شر هزيمة.

والسبب في الهزيمة ما يلي:

أولا: أن القوة الزيانية التي كانت تحت إشراف السلطان أبو حمو الثالث، كبيـرة لكنها لم توقف الهجوم، على الرغم من قلة عدد القوة التابعة لعروج، وهو ما يوضح لنا مرة أخرى أن القوة الزيانية كانت غير متماسكة لتشكلها مـن القبائل المتصارعة فيما بينها، التي لا يهمها قيام أو زوال الدولة الزيانيـة، لذلك أصيبت بهزيمة أخرى تضاف إلى الهزائم المتواليـة التي عرفتها هذه الدولة منذ مطلع القرن«10 هـ/16م».

- **سقوط الدولة الزيانية:**

يعتبر دخول عروج لتلمسان أول سقوط للدولة الزيانية في القرن10هـ/ 16م[1] بعد أن سقطت مرارا بيد الحفصيين[2] ثم المرينيين[3] خلال العصور السابقة فكان مصير أمرائها التحالف مع القوى الخارجية لاستعادة سلطانهم.

ولهذا توجه أبو حمو موسى الثالث، إلى فاس طالبا المساعدة من قبل سلاطين بني وطاس، إلاّ أن هؤلاء لم يقدمو له ما كان يرغب فيه، ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى الاتصالات التي تمت بين عروج وبني وطاس لخلق تحالف فيما بينها.

وعندما عجز في تحقيق هذا التحالف اتجه إلى وهران فاتصل بحاكمها الذي سهل له مهمة الإنتقال إلى إسبانيا للإتصال بشارل الخامس، وتذكر المصادر أنه إرتمى بين رجليه متضرعا ومستنجدا ضد عروج.

- **أبو زيان الثالث :** 923-1517

عندما دخل عروج تلمسان، أطلق سراح أبو زيان[4] وولاّه شؤون الدولة، لكن هذا الأخير لم يكن يثق في عروج، لأنه خشي أن يقع له ما وقع لسليم بـن التومي، لذا حاول كسب ود التلمسانيين لمناصرته ضد عروج وفي هذا

1- مرمول، وصف إفريقية،ج 2 ،ص 307،يعلق صاحب تكملة بغية الرواد على دخول عروج لتلمسان فيقول: بويع أبوحمو بعد موت أبيه أبو عبدالله فكانت مدة خلافته ثمانية عشر شهرا ثم خلعوه طائفة الأتراك بإغراء القاضي أبي يحيى العقباني و ابن يوسف الزياني بغية الرواد،ورقة 84.

2- سقطت في يد الدولة الحفصية سنة 639 هـ، 1240-1241.

3- أما الدولة المرينية فكانت سنوات 737 هـ، 1337 م و771-1370 أنظر ابن خلدون العبر،مجلد 7، ص:275 ابن خلدون يحيى بغية الرواد، ج2، ص:136.

4- لمؤلف مجهول غزوات عروج وخير الدين، ورقة 14ج أنظر : M.M Sander Rang and Ferdinand. op.Cit, P.174 .

الصدد يقول مرمول: «أن خير الدين لما دخل تلمسان استعمل عليها عروج، ثم بعد إنصرافه تعصب المسعود من ملوك تلمسان بجيش عظيم، وخطب على منبر الجامع الأعظم، وذكر شؤون ملوك الجزائر، ورغب الناس في مساعدة بني عبد الواد، فهجموا على عروج. ثم زحف إليهم بمن معه، وكان شديد البأس، فدخل تلمسان عنوة وقتل سبعمائة من المترشحين للملك من بني زيان، وستون من بني عمّهم، وأكثر من ألف من أهل البلد»[1]. أما ابن زرفة فيقول :«بعث أخاه عروج رايس لمحروسة تلمسان، فاستولى عليها بعد أن قتل سبعا من سلاطينها، ونحو السبعين من أكابر بني عبد الواد، وما يزيد عن الألف من كبرائها»[2].

نستخلص من النصين ما يلي:

أولا: أن هناك خطأ في النص الأول فيما يتعلق بخير الدين، فالمصادر تجمع على أنه لم يترك الجزائر خلال توجه عروج لتلمسان للدفاع عن المدينة في حالة الهجوم عليها.

ثانيا: يتفق النصان على أن أبا زيان قتل من طرف عروج، مع مجموعة من شيوخ بني عبد الواد، وافراد الأسرة الحاكمة، والموالين لهم من أعيان المجتمع التلمساني.

1- مرمول،المصدر السابق،ح 2،ص:307،أنظر أيضا لمؤلف مجهول غروات عروج و خير الدين ورقة 14جـ أنظر أيضا أبو راس،عجائب الأسفار،مخطوط المكتبة الوطنية تحت رقم 1634 ورقة 136

2- ابن زرفة، نفس المصدر، ورقة 23،أنظر أيضا : Bargrs : complément de histoire des béni zeyan, Rois de Tlemcen, Paris 1887 P.431

- **ولاية أبو حمو موسى الثالث للمرة الثانية ومواجهته لخير الدين**

يذكر السليماني الصراع بين خير الدين وأبي حمو موسى الثالث، لكنه لم يحدد لنا تاريخه، لكنه يبدو لي أن السلطان أبا حمو موسى الثالث اغتنم هو الآخر انشغال خير الدين بأحداث الجهة الشرقية، والتي تسبب فيها ابن القاضي، فحاول الهجوم على مدينة الجزائر، إلا أن خير الدين خرج إليه فهزمه شر هزيمة، وتوغلت جيوش الدولة الجزائرية في الأراضي التابعة لبني زيان، ولم يتمكن سلطانها إيقاف الهجومات المتواصلة من قبل خير الدين وهو ما جعل السليماني يعلق على ذلك بقوله: «وتوغلت جيوش خير الدين في الناحية الغربية، وقد اعترضها السلطان أبو حمو مرتين فانهزم فيهما وتلاشى مرة أخرى»[1] وأن سبب تلك الهزائم يرجع إلى عاملين أساسيين.

أ: أن المساعدة التي طلبها بنو زيان من حاكم وهران لم تصلهم و لعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى عدم تقديم الدعم، من قبل أبي حمو موسى الثالث للحملة التي وجهتها إسبانيا ضد مدينة الجزائر 924هـ/1519م[2]. حسب ما كان متفقا عليه[3].

1- السليماني،المصدر السابق،ج 3، ورقة 112. عن هذا انظر: carres Ponencia de don huzo de oncada, y otras, Personajes, son el Rey, catholico y el emperero, carlos V, Codoin XXIV PP 79-514

2- أنظر: Ximenez idandoval: C. las inscripciones de Oran y mazalquvir P .15

3- يذكر صاحب بغية الرواد أن السلطان مولاي أبو حمو موسى الثالث تولى عرش الدولة الزيانية للمرة الثانية سنة 935هـ،1528م و هذا غير صحيح:لأن عروج خرج من تلمسان سنة923هـ،1517-1518م أنظر بغية الرواد،ورقة84 و لمزيد من المعلومات أنظر رسائل مولاي أبي حمو موسى الثالث للإسبان أرشيف سيمنكاس،ص:67-65-F59 XXXIII le .zojo

ب: إن القبائل الحليفة التي وقفت إلى جانبه في مواجهة القوة الجزائرية في كل من قلعة بني راشد[1]، وتلمسان لم تستمر في موالاتها له، وهذا كان من بين عوامل فشله كما كان سببا في السيطرة على كرسي الحكم بتلمسان.

- أبو سرحان المسعود:

وقع إختلاف بين الباحثين في شخصية المسعود ومن بين هؤلاء السليماني[2] الذي يرى بأن مولاي أبا زيان هو الذي أصبح فيما بعد يعرف بالمسعود، وقد سبق له أن فرّ من تلمسان إلى المغرب الأقصى، خوفا من عروج بعد أن إكتشف المؤامرة التي دبرتها إسبانيا للتخلص منه. بمساعدة الأخوين أبي حمو موسى الثالث، وأبي زيان وهو ما يؤكده بقوله: «وجاء أخوه المسعود من المغرب الأقصى بعدما قام نازحا به مدة طويلة متطارحا على خير الدين طالبا عفوه ومؤملا الآلة بتلمسان». وقد وافق خيرالدين على ذلك لأنه كان يرغب في أن يكون أمير تلمسان مواليا لكي يقف أمام الخطر الإسباني الذي إزداد بعد استشهاد عروج[3]، وحتى يضمن استمرار هذا الولاء قيد المسعود بمجموعة من العهود مقابل الوقوف إلى جانبه ضد السلطان أبي حمو موسى الثالث منها:

1- قلعة بني راشد نسبة إلى قبيلة بني راشد، وهوارة نسبة إلى قبيلة هوارة توجد بولاية غليزان وكانت تحتل أهمية كبرى خلال فترة موضوع البحث تعرض جزءا منها إلى التدمير خلال سنة923 هـ،1517م لمزيد من المعلومات عنها أنظر الحسن الوزان، المصدر السابق ص:54، مرمول، المصدر السابق،ج 2، ص:223.

2- السليماني ،المصدر السابق،ج 3،ورقة 110،أنظر أيضا: Bargrs: (J.J) complément de l'histoire des Béni-zeyan P.448, loon Feg, histoire d'Oran P.136.

3- عن إستشهاد عروج يذكر محمد بن عسكر : :وحة الناشر لمحاسن من كان بالمعرب من مشايخ القرن العاشر تحقيق محمد حجي الرباط1397 هـ،1977 م،ص:135، أنظر ايضا M.M. Sander Rang et:
Ferdinand denis : histoire de Barberousse Fandotien de la régence d'Alger 2 Volin 8e Paris 1837. tome II. P 178.

الولاّء للدولة الجزائرية الحديثة، وصكّ النقود باسم السلطان العثماني سليمان الأول[1]، والخطبة له بجميع منابر الدولة الزيانية[2].

مقابل ما سبق كلّف خير الدين حلفائه من قبائل الناحية، لتقديم المساعدة له، ومن بين تلك القبائل الموالية لخير الدين الحشم، وبفضل تلك المساعدة تمكن من دخول تلمسان بعدما خرج منها السلطان أبو حمو موسى الثالث، لاجئا لدى الإسبان، في وهران.

أن رواية السليماني تؤكد بأن المسعود تولى الحكم بعد أبي حمو موسى الثالث، ويتأكد هذا أيضا من نص صاحب غزوات عروج وخير الدين حيث قال: « أن أبا حمو موسى الثالث طلب من صاحب فاس، أن يرسل إليه أخويه، وأنه ما أراد بهما إلا خيرا وأنه إشتاق للقائهما، فعند ذلك قال صاحب فاس للأخوين أنتما على الخيار، إن شئتما ذهبتما إليه وإن شئتما أقمتما عندي، فاختارا الذهاب إلى تلمسان وجمع لهما طائفة من العرب، فلما قرب من أحواز المدينة، توهما من أخيهما شرا ففرا أحدهما إلى وهران، أما الآخر فإنه دخل إلى عمالة خير الدين، وبعث إليه من يستعطفه ويستعين به على ملك تلمسان، فأحس خير الدين للأحقاد المتواصلة على صاحب تلمسان فبعث إلى شيوخ العرب كتابا يدعوهم فيه إلى خلع صاحب تلمسان، وبيعة أخيه هذا وكان اسمه المسعود.

هذا فيما يتعلق بالمصادر العربية، أما الوثائق الإسبانية فتذكر بأن أول إتصال بين المسعود وشارل الخامس ملك إسبانيا الذي كان قد تولى عرش

1- سليمان الأول تولى الحكم ما بين

2- لمؤلف مجهول،غزوات عروج و خير الدين،ورقة 50.

هذه الدولة في1519/06/28 م قد تمّ في نفس السنة بواسطة أحد اليهود وهو سلمون تورينو.

نستخلص من النصوص السابقة ما يلي:

أن صاحب غزوات عروج وخير الدين لم يحدد لنا تاريخ الأحداث على الرغم من أنه كان قريبا من الحدث، فالنص يجعلنا في حيرة في ترتيب الأمراء الذين أتوا بعد السلطان أبي حمو موسى الثالث[1]، وهل المسعود تول العرش بعده؟، لأن صاحب النص بين لنا هو أخ لأبي حمو موسى الثالث، وكان قد لجأ إلى فاس، هل كان ذلك قبل دخول عروج إلى المدينة أو بعد استشهاده؟، وأن الأخوين فرا خوفا من أخيهما وأن استدعائهما يرجع بالدرجة الأولى إلى خوف أبي حمو من تحالفهما مع الوطاسيين[2]، لتوليهما السلطة، وهذه الظاهرة أصبحت السّمة البارزة بالنسبة لأمراء الدولة الزيانية لأن كل واحد منهم يريد الوصول إلى السلطة لابد له من الإعتماد على قوة خارجية. كما أن انفصال الأخوين بعضهما عن البعض الآخر يدل أيضا على الضعف وعدم التفاهم فكل واحد يريد السلطة لنفسه، وهو ما جعل أحد الأخوين يتجه لوهران طالبا المساعدة من الإسبان بينما الآخر يميل لخير الدين، وقد لبّى طلبه للأحقاد المتواصلة بينه وبين السلطان الزياني أبي حمو موسى الثالث الذي كان مواليا للإسبان، لكن مرمول[3] يرى عكس ذلك فالذي تولّى الحكم بعد السلطان

1- يذكر أن السلطان أبا حمو موسى الثالث حكم بعد إستشهاد عروج للدولة الزيانية لمدة تسعة أشهر وخلافة المولى أبو سرحان المسعود فكانت مدة خلافته ثلاثة أعوام غير ثلاثة أشهر،أنظر بغية الرواد،ورقة 84.

2-الدولة الوطاسية نسبة إلى زيادة الله بن عمر الوطاسي

3- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 326، يرى جوج مارسي G.Marçais في : Encyclopédie de l'islam nouvelle édition, tome 1, P9.

أبــو حمو موسى الثالث هو الأمير عبد الله، وهذا يختلف عن ما ورد في النص السابق (غزوات عروج وخير الدين) إن الذي تولّى الحكم بعد أبيحمو موسى الثالث هو الأمير أبو محمد عبد الله الثاني بن محمد الثالث، وبهذا يختلف الذين يرون بأن نهاية أبيحمو موسى الثالث كانت سنة1518، بينما يرى البعض أنه استعاد العرش سنة1518 تؤكده الوثائق الإسبانية وأنه مال إلى جانب الدولة الجزائرية، وفي هذا الصدد يقول: « إن ملك تلمسان أبا حمو موسى الثالث الذي أعاده الإسبان إلى عرشه أدى طول حياته ما وعد به ملك قشتالة، من أتاوة، وبعد موته نقض أخوه عبد الله العهد رافضا أن يؤدي أي شيء، وذلك بالضغط من بعض الفقهاء ومن خير الدين الذي أمّن له حماية الخليفة الأعظم العثماني وحكم بضع سنين، لما مات لم يخلفه ابنه البكر المعتاد وإنما نصب بربوس مكانه الابن الأصغر أحمد أبو زيان »[1].

أما السليماني[2] فيرى أن أبا زيان هو الذي أصبح فيما بعد يعرف بالمسعود وقد سبق له أن فرّ من تلمسان إلى المغرب الأقصى خوفا من عروج، بعد أن إكتشف هذا الأخير المؤامرة التي دبرتها إسبانيا للتخلص منه بمساعدة الأخوين، أبي حمو موسى الثالث، وأبي زيان، وهو ما يؤكده بقوله: « وجاء أخوه المسعود من المغرب الأقصى، بعدما أقام به مدة طويلة، متطارحا علـــى خير الدين، طالبا عفوه ومؤملا الآلـــة بتلمسان».

1- يجعل جورج ماسي في مقالة عن بني عبد الواد ترتيب ملوك بني زيان كما يلي، بعد السلطان أبو حمو موسى الثالث 923-934 هـ،1517-1527 م أبو محمد عبد الله الثاني 934-947 هـ،1527-1540 م، أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة عبد الوادي، مجلد 1، ص 962.

2- السليماني، المصدر السابق، ج3، ورقة 111.

فالذي يمكن التوصل إليه مما سبق أن مرمول يجعل مولاي عبد الله بعد السلطان أبو حمو موسى الثالث، ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى أنّه تولى الحكم في فترتين أبعد في الأولى، ثم رجع بعد سوء التفاهم بين المسعود وخير الدين، لذا يجد الباحث صعوبات، إلاّ أن هذه الأخيرة تمّ حلها بحصولنا على أول مراسلة بين المسعود وشارل الخامس والتي ترجع إلى سنة 1519م ولذا نستنتج منها أن السطان أبا حمو الثالث قد انتهى حكمه في سنة1519م وهي السنة التي تولّى فيها الحكم المسعود[1] والأمير أبو عبد الله، الذي ورد ذكره في المصادر هل هو أخ لأبي حمو أو ابن له؟ وهل هو الذي وعد الإسبان بإرسال قوة لاستعادة الجزائر؟.

ومما يؤكد أيضا على أن المسعود هو الذي تولّى الحكم بعد السلطــان أبــو حمو الثالث ما ذكره الصباغ في معرض كلامه عن محمد بن يوسف الملياني، قال أنه:« لمّا دخل تلمسان سجنه السلطان أبو حمو موسى الثالث، وبقي عنده أياما، وأختبره بأن جعل له على الطعام دجاجتين، إحداهما مذكاة وأخرى ميتة، فقال الشيــخ حلال للمذكاة وهذه حرام ».

1- هناك روايتان تتعلقان بنهاية السلطان أبو حمو موسى الثالث الأولى تذكر أنه توفي بعد مقتل عروج بفترة زمنية قصيرة أي حوالي 924 هـ ، 1518 م و الثانية ترجع تاريخ الوفاة إلى 935 هـ ، 1528 م و لعل الأولى هي الأصح لأنه كان من المفروض أن يشارك إلى جانب الإسبان في حملة هيجود منكادا Hugo de mancodo على الجزائر 924 هـ ، 1518 م.

ويقال أنه بعث إليه رجل فقال له: سرحتك، فقال الشيخ للرسول: لا أخرج حتى يخرجوا جميعا. بعد أيام قدم الأمير المسعود[1]، خارجا على أخيه فهرب أبو حمو لوهران، ودخل المسعود تلمسان فأخرج الملياني من سجنه[2].

يتضح من النص أن الذي سجن الملياني هو السلطان أبو حمو موسى الثالث، وليس أبو عبد الله، وأن سجنه كان في المرحلة الأخيرة من حكم هذا الأمير، أي بعد سقوط وهران والمرسى الكبير، ولعل ذلك تمّ بعد معركة قلعة بني راشد، التي شارك فيها مجموعة من تلامذة الملياني، واستشهد بعضهم دفاعا عن الإسلام والمسلمين، كما تذكر المصادر تحالف محمد بن يوسف الملياني مع عروج، ثم خير الدين فيما بعد مما ألب عليه السلطان أبو حمو، الذي لم يكتف بسجنه بل حاول قتله، وحرقه[3]، وأن خروجه من السجن كان بعد ولاية المسعود الإمارة، ولعلّ إطلاق سراحه من هذا الأمير، هو محاولة منه لكسب المرينيين للزاوية الراشدية، ومحو ما قام به السلطان أبو حمو نحو الملياني من جهة، وتحالفه مع الإسبان في وهران من جهة أخرى[4].

لكن تولّي المسعود لم يضع حدّا للصّراع داخل البلاط الزياني أما السليماني يتفق مع صاحب غزوات عروج، وخير الدين على أنه كان بالمغرب الأقصى

1- ابن زرفة الرحلة القمرية ورقة 140، غزوات عروج و خير الدين و ورقة67 الصاغ، المصدر السابق. ورقة 15 12 حسب إحدى الوثائق هو ابن أبو عبد الله محمد الثابت حكم ما بين 817-911 هـ، 1473-1505م، أنظر: Berges OP Cit P 403. P 415-427.

2- الصباغ زهر البستان،ورقة 13 أنظر أيضا محمد بن عبد الجليل الإعتبار و جواهر الإختبار والتعريف بالنبي المختار،مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1647، ورقة 17.

3- للصاغ ، نفس المصدر، ورقة 14.

4- يذكر ليون فايي: léon Fey أن الضريبة التي فرضت على السلطان أبى حمو موسى الثالث لفائدة الإسبان قدرت بـ 12.000 دينار. Fey Henry léon OP.Cit P 233.

قبل توليه السلطة[1]، وأن المساعدة التي قدمت إليه جاءت من القبائل الموالية لخير الدين والذي كان يستغلها في بعض الظروف، لذا كلّفها بمبايعة السلطان الزياني وخلع السلطان الأسبق، لأن شيوخ القبائل العربية كان لهم دخل كبير في عزل وتعيين أمراء هذه الدولة، كما جمع له مجموعة من جنود الدولة الجزائرية تمكن في النهاية من دخول تلمسان وتولى عرشها.

- الولاء للإسبان:

رغم هذا النصر الذي حقّقه المسعود بالسيطرة على تلمسان بفضل إرتباطه بخير الدين، إلا أنه مال إلى جانب الإسبان وهكذا نرى بأن الدولة الزيانية بعد موت أبي حمو موسى الثالث، دخلت مرحلة جديدة في إنهيارها، نتيجة الصراع بين الأخوين أبي محمد عبد الله الثاني وأبي سرحان تجاه كل مــن الدولة، الجزائرية و الإسبانية.

فالإعتماد على الدولة الجزائرية، يرجع بالدرجة الأولى إلى الإمكانيات العسكرية، التي جندت من قبل هذه الدولة وقد بيّنت المعارك التي خاضتها بأن قوتها لا يمكن الاستهانة بها.

أما الإسبان فكان لهم نفوذ في المنطقة، للتحالفات التي أبرمت بينهم، وبين شيوخ قبائل الناحية، الذين يموّلون الجيش الزياني بالجند، وبدافع غرور المسعود، تخلّى عن خير الدين فاتصل بالإسبان مما جعل خير الدين يوجه إليه

1- السليماني،المصدر السابق،ج 3،ورقة لمؤلف مجهول غزوات عروج و خير الدين،ورقة 52.

كتابا يلومه فيه على ما فعل وقال فيه: «إنما تماديت على موالاة النصارى، والإنحياز لهم لابد أن أنتقم منك غاية الإنتقام وأجعلك حديثا بين الأنام »[1].

- علاقة مولاي عبد الله[2] بالدولة الجزائرية:

عندما علم مولاي عبد الله الذي ترك المسعود بضواحي تلمسان، سوء العلاقة بينه وبين خير الدين، اغتنم فرصة توسّعه على حساب أخيه المسعود، فاتصل به وفي هذا الصدد يقول صاحب غزوات عروج: «وكان السلطان أخلو المسعود، الذي فرّ إلى وهران عندما علم بما وقع بين خير الدين وأخيه المسعود طمع في تملك تلمسان مرة أخرى، فاتصل برجل صالح من أصحاب الوطن، يستشفع به إلى خير الدين وكان من جملة ما قاله صاحب تلمسان المستقر عند النصارى، إن خلّفني خير الدين وولآني ملكي، أكون عبدا مــن عبيده، يتصرف في كيف شاء فتوجه إليه، ذلك الرجل الصالح برسم الشفاعة في صاحب تلمسان المخلوع فكان من جملة ما قاله: « أيها الشيخ إن ذلك الرجل قد رسخ الكفر في صدره، وهذا القبيل من ملوك تلمسان لا يقرون للخير، ولا يشكرون على نعمه، فلا يقابلون عمل الجميل إلا بالقبيح، وأنت أيها الشيخ تعلم حاشا أهل الإسلام، أن يكون منهم هؤلاء القوم، ولكن لا أخالفك وأقبل هذا العذر»[3].

1- لمؤلف مجهول،غزوات عروج و خير الدين، ورقة 53.

2- يذكر صاحب بغية الرواد أن الذي تولى الحكم بعد المسعود هو أبو مناد عبد الله و كان ذلك سنة 927هـ، 1520 م بعد مقتل المسعود بغية الرواد،ورقة 84،و أن المسعود في رأيي صاحب هذا النص حكم ثلاثة أعوام غير ثلاثة أشهر.

3- لمؤلف مجهول : غزوات عروج و خير الدين، ورقة 53.

ثم أن خير الدين بعث إليه، ليقدم عليه بالجزائر ليتفاوض معه في أمر تلمسان، فأجابه بكتاب يقول فيه: أنا لا أقدر على القدوم إليك خوفا من أخي، فإنه جعل من يترصّدني في الطريق برسم إمساكي، وإذا أردت أن يحصل الفرض الذي أحلته منك فأعمل الحركة إلى مدينة مستغانم، فإن افتتحتها أقمت أنا بها وبذلك يقع الرأي عليه استخلاص تلمسان، لكن هذه الموالاة للدولة الجزائرية لم تستمر طويلا لأن المسعود دخل في حلف مع ابن القاضي[1]، والسلطان الحفصي، فاتفق الثلاثة على القيام بثورة ضد خير الدين الذي أصبح يشكل خطرا على بقاء نفوذهم بالمغرب الإسلامي، ويبدو أن هناك مراسلات تمت بين الأطراف الثلاثة وقد تعرض صاحب غزوات عروج وخير الدين لبعضها.

وقد اعتمد السليماني[2] هذا الموقف بقوله لم يلبث المسعود الزياني أن دخل في محالفة ابن القاضي والحفصي وجاهر بالعصيان، لكن هذا الأخير كان رده سريعا وقد استعمل في ذلك أسلوبين.

أ: الاتصال بالمسعود، ومطالبته بالوفاء بلاتفاق الذي تم معه، إلا أنه أساء للوفد الذي قدم من الجزائر لتلمسان، مما جعل خير الدين يلجأ إلى أسلوب المواجهة العسكرية، فجّهز الجند وإنطلق من الجزائر برا وبحرا، نحو تلمسان والمناطق الشرقية التابعة للدولة الزيانية.

1- Boulifa (S.A): la djurdjura a travers l'histoire depuis l'Antiquité jusqu'à 1830, Alger, 1925, P89

2- بني عبد الواد قبيلة زنانية إستقرت حول تلمسان في بداية القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي ويطلق على الدولة الزيانية دولة بني عبد الواد نسبة لهذه القبيلة وقد تعرض الأب Barges في مقاله المنشور بدائرة المعارف الإسلامية مادة الزيان بنو مجلد 10 ص 473 - 474. أنظر أيضا: Brosse lard (ch); Op cit P5 à 197.

في الوقت ذاته ظهر أمير زياني معارض للمسعود وهو السلطان مولاي عبد الله، إلاّ أن صاحب غزوات عروج وخير الدين يرى بأن السلطان أبا حمو موسى الثالث ظهر من جديد بعد سوء العلاقة بين المسعود وخير الدين، فاتصل بخير الدين معتذرا له عما سلف منه في حادثة عروج فعفا عنه، وأذن له بالإقامة عنده، ثم قدّم له يد المساعدة التي سمحت له بالتوجه إلى قلعة بـــنـــي راشد للاستيلاء عليها، وقد كانت بها حامية زيانية تابعة للأمير المسعود ففرت منها قبل وصول قوة السلطان أبي حمو وحلفائه من القبائل الموالية لخير الدين، ثم انتقل هذا الأخير إلى تلمسان فاعترضه المسعود بجيوشه وحلفائه من بني عامر وغيرهم، فوقعت الهزيمة على المسعود وتتبّع أبو حمو موسى الثالث أثرهم وفي نفس الوقت كان أتباعه بداخل تلمسان ففتحوا له الأبواب فدخلها وتولّى الحكم بها إلاّ أن خير الدين خلال هذه الفترة واجه ثورة ابن القاضي، وعندما عجز على القضاء عليه ترك الجزائر وتوجه إلى جيجل وفي تلك المدة أعلن السلطان أبو حمو الإنفصال على الدولة الجزائرية ودعى لنفسه.

- تحـــالف مولاي عبد الله مع ابن القاضي:

كانت الإتصالات التي أجريت بين السلطان الزياني وأحمد بن القاضي وصلت إلى خير الدين بواسطة أعوانه المندسّين في تلمسان لمراقبة تحركات السلطان الزياني، ولعلّ البعض منهم، كانوا من المقربين لهولاء الأمراء، لذلك عندما علم خير الدين بهذا الحلف أراد فكّه، لأنه لو تمّ سيكون له تأثير سلبي عليه، ولو حدث سيمنح قوة لابن القاضي في الشرق والغرب، مما دفع به إلى الإتصال بالسلطان الزياني، الذي سبق أن قدّم له يد المساعدة ومكّنه مـــن التخلص من الأمير المسعود والجلوس بدله على عرش الدولة الزيانية، وهو

ما يوضحه مؤلف غزوات عروج وخير الدين بقوله: "ولما سمع خير الدين بما دار بين صاحب تلمسان، وبين ابن القاضي من المراسلة في شأنه، وجّه كتابا إلى صاحب تلمسان يلومه فيه على ذلك ويحذره[1]، ولم يتوقف الأمير الزياني مولاي عبد الله عن التحالف مع ابن القاضي فقط، بل تخلّى عن الإتفاق الذي تمّ بينه وبين خير الدين قبل توليه السلطة والمتمثل في تقديم ضريبة للدولة الجزائرية تقدر بـ 10000 دينار سنويا وصرف الخطبة والسكة إليه ومن جملة ما قاله له خير الدين: "أنك جعلتني في مقام الأب وأنا جعلتك في مقام الابن، أما أنا فقد أعطيت البنوّة حقّها أما أنت فلم تف الأبوة حقّها فأني أدعو الله أن يسلّط عليك أحد من أبنائك يعصيك وتشقى بسبب ذلك.

وهكذا نلاحظ أن خير الدين كان مع استمرار تأييد الأمير الزياني له، لأنه لا يستطيع فتح جبهات متعددة مع الإسبان من جهة، وابن القاضي وغيره من الأمراء الذين ثاروا عليه لأن مصالحهم أصبحت مهددة فأراد خير الدين أن يضمن الناحية الغربية له في الوقت الذي سيواجه فيه ابن القاضي إلاّ أن السلطان الزياني أراد هو الأخر أن يجرّب حظه في التخلص من التبعية للدولة الجزائرية، ومما دفعه إلى ذلك الموالون للأسبان بداخل تلمسان وقد انتبه خير الدين إلى ذلك فأورد في رسالته قوله ومن جملة ما حذره منه في هذا الكتاب موالاة أهل وهران من النصارى مما يجعلنا نتأكد من اطلاع خير الدين على أوضاع الدولة الزيانية وخاصة علاقتها بالأسبان.

ولم يتوقف عند هذا الحد فقط (الأمير عبد الله) بل أجاب رسول خير الدين بقوله: قل لصاحبك أنه لم يكن أسلفني مالا حتى يستوجب عليا رده وإن كانت

1- لمؤلف مجهول: غزوات عوج وخير الدني، ورقة 14،
أنظر أيضا: Brosse lard (ch): OP cit, P 5 à 197

له قدرة على نزع المملكة من يدي فليبادر إلى ذلك، فإن هذه البلاد بلاد أبائنا وأجدادنا من بني زيان[1] لا يعرفون الأتراك ولا سبيل لهم علينا. فهذه الإجابة إذا كانت مؤكدة فإنها توضح لنا أن السلطان الزياني لم يكن على درايه بقوة خير الدين وإمكانياته التي تسمح له بالتخلص منه، وفي هذا الصـــدد يقــول: « ولما إنفصل الرسول متوجها إلى خير الدين، رجع أرباب دولته وأعيان حضرته من بني عبد الواد، فاجتمعوا لديه بالمشور[2] فقال لهم يا أهل تلمسان ألم تعلموا أن هذه البلاد بلاد أبائي وأجدادي من عهد يغمراسن إلى زمننا ورثناها كابرا عن كابر، فأي سبيل لخير الدين علينا حتى يبعث لنا ليهددنا وتحمل أموالنا له كل سنة وأن عمالة الجزائر كانت بين أيدينا وإمتدت طاعتنا إلى ناحية المسيلة[3] [4].

كما يؤكد صاحب النص الصراع بين أفراد الأسرة الزيانية التي كانت وراء تدخل القوة الخارجية فيقول: «فغاية ماله على من الجميل أنه وقع بيني وبين

1- بني عبد الواد قبيلة زناتية، إستقرت حول تلمسان بعد هزيمة العقاب 609 هـ، 1212م ويطلق على الدولة الزيانية دولة بني عبد الواد، نسبة إلى هذه القبيلة، وقد تعرض الأب برجيس Barges في مقالة المنشور بدائرة المعارف الإسلامية مادة زيان بنوم، مجلد 10، ص473-174.

2- المشور يعتبر من أهم القلاع في عهد الدولة الزيانية، يقع في الجهة الجنوبية من تلمسان وكان المقر الرئيسي لسلاطنها، تعرض لتهديم خلال الهجومات المرينية المتواصلة عليه قبل فترة موضوع بحثنا هذا لمزيد من المعلومات عنه أنظر Barges (J.J) Tlemcen, ancienne 1 capitale du Royaume de ce nom, PP186-358

3- توسع نفوذ الدولة إلى مدينة المسيلة قد تم في عهد السلطان أبي تشفين الأول 718 ، 737 هـ - 1318، 1337 أنظر يحي ابن خلدون بغية الرواد جزء الأول ص 218.

4- المسيلة عرفت عند تأسيسها بإسم المحمدية نسبة إلى أبي محمد القائم بأمر الله وقد وقع إختلاف في تاريخ تأسيس المدينة إلى أن الأغلبية ترى أن ذلك تم سنة 315 ، 927 م أنظر: البكري المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب من كتاب المسالك والممالك نشر دوسلان Douslin الجزائر 1913. ص 569.، ابن عذاري البيان المغرب الجزء الأول ص 190،215.

إخوتي ما يقع بين الملوك وإخوانهم، فأعانني هذا الرجل، وحين خلصت لـــي مملكة تلمسان، أضعفت له الجائزة وأكرمت جماعته الذين وجههم إلي برسم الإعانة، فطمع بسبب ذلك تملّك هذه البلاد، ونزعها من يدي عبد الواد مرة واحدة»[1] .

ويستنتج من النص مايلي:

أ- أن أمراء الدولة الزيانية، يطمحون إلى استعادة قوة الدولة وسيادتها، إلا أن ضعفهم وصراعهم فيما بينهم واستغلال ذلك من قبل القوى الخارجية المتمثلة في الدولة الجزائرية، والإسبان حال دون ذلك.

ب- إنقسام المجتمع الزياني، على نفسه وعلى الخصوص البطانة المحيطة بهؤلاء السلاطين، ومما يوضح ذلك أنه عندما استشارهم مولاي عبد الله في مواجهة خير الدين، أجابوه قائلين: السلطان أعلم بما يفعله، إن أراد الحرب أوالسلم، فنحن تبعا له فيما يريد كما يؤكد صاحب النص، بأن خير الدين وظّف هذا الصراع بين أفراد الأسرة لصالحهة مما جعله يرحب بالمعارضين لهؤلاء الأمراء ويغدق عليهم الأموال، وفي هذا الصدد ذكر صاحب غزوات عروج وخير الدين: «كان في إثر ذلك قد فرّ ابن مولاي عبد الله إلى الجزائر خوفا من عاقبة حرب أبيه، لخير الدين فاستقبله وأفاض عليه»[2]. أما مولاي عبد الله فإنه جند الجند، وانتقل إلى المناطق المجاورة لحكم خير الدين، وعندما علم بـــه هذا الأخير وجّه جيشه له فالتقى الفريقان، وكان النصر لصالح خير الدين نتيجة للإمكانيات التي يملكها عكس السلطان الزياني، الذي فشل في مواجهته مما جعله يكلف أعيان دولته وشيوخها للإتصال بخير الدين لالتماس الصلح

1- لمؤلف مجهول، غزوات عروج وخير الدين ، ورقة 27.

2- لمؤلف مجهول: المصدر السابق ، ورقة 54.

والعفو مقابل موافقته على شروطه من أموال والزيادة، فالفشل الذي واجهه هذا السلطان، وموافقته على شروط خير الدين مقابل بقائه على كرسي الحكم في تلمسان، جعل الإسبان يغتنمون هذه الفرصة، ويتصلون به لحثه على الإنفصال عن خير الدين والإرتباط بالإسبان، وفي هذا الصدد يقول صاحب غزوات عروج: «كان الطاغية الإسباني، قد أرسل إليه مالا عظيما وأغراه بالإنتفاض على خير الدين، والأجلاب على الجزائر مع أجلاب أجفان الطاغية، عليها بحرا والتزم أنه إن استولى عليها يردها إليه، كما كانت في إيالة إبانه من قبل»[1].

هذا العرض من قبل الإسبان تشير إليه رسالة كان قد بعث بها مولاي عبد الله إلى ملك اسبانيا، يطلب منها تقديم يد المساعدة له، لأجل استعادة الجزائر، ولعل ما ذكره صاحب غزوات عروج وخير الدين، هو الرد الذي وصل مولاي عبد الله من قبل الملكة نيابة عن زوجها شارل الخامس، الذي كان خارج إسبانيا وقد نصّ على أن إسبانيا سترسل له مجموعة من السفن لمساعدته[2].

وبذلك يكون الإتفاق الذي تم بين الطرفين الإسباني والزياني يتفق مع ما أوردته المصادر العربية، فالإسبان سيسلمون لمولاى عبد الله، الجزائر بعد نزعها من خير الدين، ولذلك أرسلوا أربع عشر سفينة أرست أرشقول[3]، وقد

1- المؤلف مجهول ، غزوات عروج وخير الدين، ورقة 28.

2- أرشيف سيمنكاس PRILAUDAIE 'clie de la) R.A, 1869 toms 13, P 39 à 42G.P La prim XIII- F 38-42

3- أرشقول أو أرشقون: مدينة على الساحل الجزائري، عند مصب وادي تافنة، في مواجهة جزيرة أرشعون، التي لا تزال تحتفظ بنفس الإسم، أنظر البكري: المغرب ، في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، ص97.

ورد ذلك في رسالة ذكر صاحبها، أن الإسبان تعاهدوا أن يردوها للأمير الزياني بعد أن يستولوا عليها.

أما مولاي عبد الله، فقد تحرك بجيشه من العرب ورجاله من زناتة، فنزل على الحد الفاصل بينه وبين الدولة الجزائرية، وعندما وصلت أخبار تحركاته لخير الدين جهزّ جيشه، وتوجه إليه فوقع بينهما قتال كان النصر فيه لصالح خير الدين، لأن العرب والبربر الذين كانوا إلى جانبه، تخلوا عليه وانسحبوا عندما اشتدت المعركة، وهو ما يشير إليه صاحب غزوات عروج وخير الدين بقوله: «فلما رأى العرب أنهم لا طاقة لهم لقتال عسكره، انهزموا كما جرت عادتهم في تلك المواطن»[1].

يضاف إلى ذلك أن السفن الإسبانية التي كان من المفروض أن تقوم بحصار مدينة الجزائر بحرا خلال هجوم مولاي عبد الله عليها، توقفت بأرشقول ولعل السبب في ذلك أن عددها لا يسمح لها بمواجهة الجزائر، وهذا كان عاملا من عوامل هذه الهزيمة، التي جعلت مولاي عبد الله، يعود إلى تلمسان مطاردا من قبل قوات خير الدين، وبمجرد دخوله إليها اتصل بهذا الأخير بواسطة أعيان دولية، كعادته طالبا منه الصلح للمرة الثانية، وبعث مع الوفد ثلاثين ألف دينار ولم يقبلها منه، وقال: «إن هذا الرجل لا دين له ولا إيمان ينقض عهد المرة تارة، بما تسوّل له نفسه، وتارة بإغراء النصارى، وعندما أخبروه برده لماله خرج بنفسه إليه، وارتمى بين يديه يتضرع له

1- المؤلف مجهول: المصدر السابق ، ورقة 29.

بالإبقاء على حكمه، فوافقه على الإبقاء مقابل دفع ما حق عليه من ضريبة لصالح الدولة الجزائرية»[1].

وهناك بعض الوثائق الإسبانية، التي ترجع لهذه الفترة يتراوح، تاريخها مابين «1527/933 و1529/936»[2].

فالوثيقة الأولى تناول فيها صاحبها وضعية الدولة الزيانية التي يظهر من خلالها، أن أمراءها قد تحالفوا مع الإيالة الجزائرية بعد النجاح الذي حققه خير الدين في القضاء على ثورة ابن القاضي وكل المعارضين، وهذا ما جعله يفكر في استعادة وهران، والمرسى الكبير، وهو ما دفع لويس فرديناند القرطبي de Cordoba Diego Fernandez القائد العام لوهران والمرسى الكبير وتنس وتلمسان يؤكد للإمبراطور الإسباني، أن وهران والمرسى أصبحتا مهددتين من طرف القوة الجزائرية بمساعدة الزيانيين والقبائل الموالية لهم، وهذا في الوقت الذي كان فيه شارل الخامس منشغلا بالصراع الذي اشتدّ بين فرنسا، واسبانيا على الأراضي الإيطاليه، في الوقت الذي وقفت فيه الخلافة العثمانية إلى جانب فرنسا في حربها ضد إسبانيا.

وبالنسبة للدولة الزيانية فإن الإسبان استغلوا علاقتهم بالقبائل التابعة لها لضرب التحالف[3] بين بني زيان وبايلاربيات الجزائر قد عدّ بشيخ بين عقبة

1- عن إحتلال الإسبان لأرشقول: أنظر الرسالة المرسلة من طرف الأهالي، واليهود، المتعلة بالحروب بين مولاي محمد، وبعض قبائل نواحي تلمسان، أرشيف سيمنكاس PRIMAUDAIE, P.A, 1868, tome 12, P36. à 41 G.P la prim XII F 36.41.

2- رسالة ، بيدردوغوداي Pedre de Gedoys إلى الأمبراطور شارل الخامس والمؤرخة في 1529 أرشيف سيمنكس 44 AF 4 ꞆC P.

3- السفير الدي ذهب للجزائر هو أبو زيان بن زحاف A.G.S ESTADO leg jar 461 Fol .40

وفارس أولاد موسى، لكن هناك حملة توعية قام بها علماء الملة ضد امتداد النفود الإسباني مما جعلهم يصدرون فتوى، أهم ما جاء بها أن أي أمير أوشيخ قبيلة يرتبط بالمسيحيين يعتبر غير مسلم، وهذا حال دون انضمام شيوخ القبائل لهم وهنا شعر الإسبان بالخطر مما جعلهم يعمدون إلى تحصين مراكزهم في كل من وهران والمرسى الكبير وتزويدهم بالجيش.

كما وافق الملك الإسباني شارل الخامس باستعمال الأسطول الاسباني في مواجهة خير الدين في حالة الهجوم على وهران[1].

ولتقوية القوة الدفاعية لوهران، جندت إسبانيا ستة ألاف جندي وزودتها بما تحتاج إليه من الأموال المقدرة بـ 2500 دينار.

كما قرر المجلس الملكي في 1529/11/14 المحافظة على وهران مهما كانت الظروف وأرسال 2200 فارسا بأقصى سرعة وتزويدهم بـ: 30,000 فينغوسا.

يضاف إلى ذلك تزويد الحصون بعدد من المدافع لمواجهة الهاجمين ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كلّف شيخ بلدية مالقة بمراقبة تطورات الوضع في وهران والمرسى الكبير وتزويدهما بما تحتاج إليهما المدينتين بأقصى سرعة.

ومما زاد الأمر خطورة، أن العلاقة بين وهران وتلمسان تأثرت بعد استعادة البنيون فتوقفت القوافل التجارية التي كانت تربط وهران بتلمسان بطلب من قبل مولاي عبد الله كما اغتنمت إسبانيا فرصة قيام ثورة مولاي محمد ضد أبيه مولاي عبد الله فتعاونت معه ودفعت ببني عامر إلى الوقوف

1- IBID Fal 43.

إلى جانبه. ولمواجهة هذا الوضع أرسل مولاي عبد الله فرقة عسكرية إلى أغبال لتوجيه ضرباتها ضد القبائل الموالية للاسبان وخاصة قبيلة بني عامر، إلا أن الإسبان أرسلوا فرقة عسكرية لإغبال تتألف من300 جنديا من القبال الموالية لهم و800 جنديا إسبانيا والتعليمات تنص على طرف المعرفة الزيانية وتهديم حصون أغبال حتى لا تستعمل في المستقبل.

لم تتوقف القبائل العربية مثل قبيلة بنو عامر في تقديم فرسانها لصالح الإسبان بل زوّدتهم بكل ما يحتاجون إليه من مؤنة.

ففي شهر فيفري936هـ/1529م قدموا لحاكم وهران خمسمائة بقرة وألف رأس من الأغنام وكمية هامة من الحبوب.

وهناك وثائق إسبانية ترجع لهـذه الفـترة يتـراوح تاريخـها مابين 933-936هـ/1527-1529 تعالج هذه المدة .

- علاقة مولاي عبد الله بالدولة الجزائرية:

من بين الرسائل، رسالة من الدكتور أوبرنجا I Berja للإمبراطور الإسباني، وأهم ما ورد فيها فيما يخص الدولة الزيانية «أن مولاي عبد الله، قـد استقبل وفدا من خير الدين، يقوده أحد أفراد الجالية اليهودية، لم يرد ذكره واسمه في الرسالة» وقد تمكن مولاي عبد الله محمد من استعادة عرشه، فأبعد مولاي أبو عبد الله، وهو ما دفع به لترك تلمسان والتوجه نحو وهران مع بعض أولاده وزوجته[1] .

---

[1]- هنين: تعتبر من أهم الموانئ القريبة من تلمسان ،توجد في سفح جبل طرارة تضم مضارب قبيلة كومية، لمزيد من المعلومات، عنها انظر الحسن الوزان، وصف افريقية، ص: 18، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص: 297، أنظر (PRIMAUDAIE (Elie de la ..Op.cit , P188

ولعل ارتباط مولاي عبد الله محمد بالدولة الجزائرية هو الذي دفع شارل الخامس إلى السيطرة على هنين القريبة من عاصمة الدولة الزيانية، حتى تصبح قاعدة للإنطلاق نحو تلمسان، والضغط على أمرائها الذين يرفضون التبعية للدولة الإسبانية ويتضح ذلك من رسالة أوبرنيجا التي يقول فيها أن هنين لها أهمية كبرى لقربها من تلمسان، وهو ما صرّح به أيضا أسقف طليطلة archeveque d toled في رسالة سبق وأن أرسلها إلى شارل الخامس أخبره فيها أنه يزد وهران بمائتن وخمسين جنديا، نزولا عند رغبة حاكم وهران، كما بارك احتلال هنين، وأعلن له بأنه سيرسل سفينتين من مالقا إلى هنين لتزويدها بما تحتاج إليه من الحبوب والأسلحة التي هي في حاجة إليها وفرقة من الجند تقدر بأربعمائة جنديا.

والذي يمكن التوصل إليه من خلال هذه الرسالة أن القوة الإسبانية التي توجد بالمراكز الإسبانية في المغرب الإسلامي، أغلبها تتشكل من المتطوعين الذين يتم جمعهم بواسطة رجال الكنيسة، لأن هؤلاء حوّلوا الصراع إلى صراع ديني، وأن سياستهم تهدف إلى تمسيح المغرب الإسلامي، لذا لعبوا دورا هاما في احتلال المدن الساحلية منذ عهد اخسيمانس.

واستمر دعمهم في السنوات الموالية، لهذا نجد بأن ما قام به أسقف طليطلة يندرج ضمن ذلك، وأن إسبانيا كانت تدعم أي ثورة ضد الأمراء الموالين للدولة الجزائرية، لذا قدّمت المساعدة لمولاي محمد، وجندت القبائل الموالية لها لكي تتم إزاحة مولاي عبد الله محمد الذي أصبح يشكل خطرا على مصالحهم في

المنطقة وقد حققوا ما كانوا يصبون إليه من خروجه من تلمسان والانتقال إلى فاس ومنها إلى مدينة الجزائر[1].

- عودتـــه إلى الجزائر:

عندما وصل مولاي عبد الله إلى مدينة الجزائر، وجد التأييد والمساعدة من قبل خير الدين الذي رأى في توافد الأمير الزياني، فرصة يمكن لـــه اســتغلالها لمواجهة الاسبان وحلفائهم من القبائل الموالية، فزود مولاي عبد الله بالجند وكلّف هؤلاء بتقديم يد المساعدة له، مما جعله يتمكن من إزاحة مولاي عبد الله عن حكم تلمسان، وتنصيب نفسه عليها.

- توليه الحكم للمرة الثانية:

وبعد ما تمكن من الجلوس على عرش دولته، فكر في مواجهـــة الإســـبان، واتخذ مركزا له هي مدينة هنين[2]، وحتى يتضمت النجاح، جنّد القبائل الموالية لـــه، وللدولة الجزائرية وهو ما تشير إليه الرسالة التي بعث بها حاكم وهران إلى الأمبراطور شارل الخامس، وأهم ما ورد فيها أنه اخبره "بأن الدولتين الجزائرية والزيانية اتفقتا على استعادة هنين، وأن هناك امدادات وصـــلت مـــن الخلافـــة العثمانية للجزائر، سيتجه البعض منها إلى تلمسان للمشاركة في استعادة هنين".

1- أنظر:

Lettre du Licencę Melgarji, Correcidor d' Oran 24. 05. 1534

2- يذكر صاحب بغية الرواد أن المولى أبا عبد الله محمد والد المولى عبد الله قدم من الجزائـــر مع وزيره الأنجد أبي علي منصور بن أبي غانم وتولى الخلافة فكانت مدة خلافته عشرة أعوام وشهرين، أنظر المصدر نفسه ورقة 84.

كما زودت الدولة الجزائرية السلطان الزياني بمدافع، وهناك رسالة اخرى لحاكم هنين[1]، تؤكد ما سبق وأنه قد توصل إلى هذه المعلومات، بواسطة جاسوس عربي سبق له أن زار تلمسان، ثم عاد إلى هنين، وقد أخبره بأن مولاي عبد الله، جمع قوة لاستعادة هنين، وأن الإتفاق الذي تم بينه وبين خير الدين، نص على انطلاق الحملة نحو هنين، كان من المفروض أن يتم في العشرين من شهر أفريل لكن انشغال خير الدين، حال دون تنفيذ ما تمّ الإتفاق عليه، وأن السلطان الزياني لا يستطيع بجنده وحلفائه من استعادة هنين، لأنه يجب أن يكون الحصار برا وبحرا، وبما أن الأ سطول الجزائري يوجد خارج الجزائر فإن السلطان الزياني لا يمكن له الحصول على الدعم من قبل الدولة الجزائرية.

وفي هذا الصدد يذكر صاحب الرسالة، أن مولاي عبد الله وصلته رسالة ثانية من الجزائر، تتعلق بالهجوم على تونس، وإن الدولة الجزائرية، لا يمكنها أن تقدم له الدعم في هذه الظروف.

بعد أن عجز السلطان الزياني في الحصول على الإمدادات قام بتغيير سياسته باتصاله ببيدرو غولي وأعلن له أنه سينفذ السياسة بإعلان الولاء للإمبراطور الإسباني، وتنص على ذلك هذه الرسالة التي بعث بها أثونيوسوا ميكارخو أحد موظفي وهران.

وأهم ما جاء فيها "أن مولاي محمد كلّف مزواره للاتصال بحاكم وهران الذي سبق لأبيه القيام بهذه المهمة تجاه شارل الخامس، ولكنه في نفس الوقت أرسل وفدا آخر إلى فاس والجزائر، يطلب يد المساعدة مما جعل صاحب الرسالة يصفه بقوله: "أن هذا الأمير يريد الاستفادة من كل أطراف الصراع".

1- أنظر رسالة: حاكم هنين المؤرخة في 26. 4. 1534م.
Don Iniga De Vallejo Pacheco

وفي سنة 1533 تقدّم مولاي أبو عبد الله وتوجّه إلى تلمسان بمساعدة بعض القبائل العربية ورجال الطرقية، وإثر دخوله إليها أرسل مبعوثا إليه وهو أبوعبد الله بن غانم الراشدي شيخ بني راشد، الذي كانوا إلى جانبه[1] بينما مولاي محمد اتّجه نحو الجزائر يطلب يد المساعدة وإلى جانبه بعض القبائل، فأدى هذا إلى الإنقسام بين قبائل دولة بني زيان واشتداد الحرب بينهما خلال نهاية 1534م، وخاصة الحرب بين بني عامر وبني راشد القبيلتان اللتان لهما تأثير على سياسة أمراء بني زيان.

- أبو عبد الله محمد:

في خضمّ هذا الصراع بين قبائل الدولة الزيانية، توفي الأمير أبو عبد الله تاركا وراءه ثلاثة أبناء هم: أبو عبد الله محمد الذي سبق له أن قام بثورة ضد أبيه وتمكّن من إزاحته وتولّى شؤون الدولة بعد ارتباطه بالقوة المتنافسة على ملك بني زيان، فكان يقف مع الطرف الأقوى عندما يرى بأن الدولة الجزائرية حققت انتصارات يطلب يد المساعدة منها، وخاصة أن أغلب رجال الطرقية الذين لهم تأثير على سكان بني زيان وشيوخ قبائلها كانوا معها، لكن عندما تتعرض هذه الأخيرة لمشاكل داخلية، يتجه نحو الإسبان لذا كانت سياسته متذبذبة، والا بن الثاني هو أحمد حفيد شيخ قبيلة بني راشد، بينما الثالث هو حفيد لعبد الرحمن بن رضوان شيخ بني عامر.

مما يجعل الصراع يشتدّ بين الأميرين ومولاي محمد السابق من جهة بني راشد وبني عامر من جهة أخرى.

1- A. G.GS. Leg 1317 Fol 114

فبنو راشد يريدون أن يكون الأمير هو مولاي أحمد بينما بنو عامر يفضلون مولاي أبو عبد الله محمد على الرغم من صغرهما لأن الأول لايتعدّى عمره أحد عشر عاما بينما الثاني تسع سنوات[1].

فعمرهما لا يسمح لهما بتولي شؤون الدولة ولذا فالذي سيحكم هو إمّا شيخ بنو راشد أو بنو عامر وهذا عامل من عوامل ضعف أمراء الدولة الزيانية في مرحلتها الآخيرة.

ولكي ينصّب ابن رضوان مولاي أبو عبد الله محمد تقدم إلى المشور مع الولدين مولاي أحمد ومولاي عبد الله وقبل الإعلان عن تسمية حفيده على رأس الدولة وضع يده على خزينتها التي كانت تحت إشراف أبي زيان والقائد علي التركي.

أما مولاي مغني فكان يدير شؤون الدولة وهو أخ لأبي عبد الله وابن فراد وفي سيرء للأربعاء قتل بعض موظفي الدولة من طرف رجال مسلّحين يبدو أنهم من أتباع بن رضوان وقد نجا من المذبحة المزوار وهو من عائلة آل النجار وهي عائلة علم بتلمسان[2].

وفي صبيحة يوم الخميس دخل بن رضوان المشور وأعلن عن تنصيب حفيده أبي عبد الله على رأس الدولة، مما كان له رد فعل من قبل بعض موظفي هذه الدولة وعلى رأسهم النجار الذي ترك تلمسان نحو قلب بني راشد للإتصال بشيخ القبيلة ودعوته للوقوف إلى جانب حفيده مولاي أحمد ومواجهة بنو عامر الذين فرضوا حفيدهم بالقوة.

1- Marmol, ( ), Op.cit, Vol II, Fol, 177.

2- A.G.S (GA) Leg 5 Fol, .

وهنا يتأكد للباحث أن تنصيب أمراء مرحلة الإنهيار لم يكن يتم عن طريق المبايعة مثل ما كان عليه الحال في مرحلة قوة الدولة، بل شيوخ القبائل هم الذين بيدهم الحل والعقد.

ولمواجهة ابن رضوان توجّه المنصور بن غانم الراشدي إلى الجزائر طالبـا يد المساعدة لصالح ابن اخته مولاي أحمد كما اتصل بمزوار مولاي أبـو عـبد الله المتوفى وبعض القبائل المعارضة لبني عامر لخلق جبهة معارضة لابـن رضوان وحفيده مولاي عبد الله محمد[1] الذي ارتبط هو الآخر بالإسبان وحتى يضمن يد المساعدة منهم، عمد إلى إطلاق سراح أربعة تجار مسيحيين حوّلوا إلى عبيد من قبل أبي زيان في عهد الأمير أبي عبد الله المتوفي، كما كتب حاكم وهران معلنا له إطلاق سراح هؤلاء وأن سياسته تجاه إسبانيا لا تختلف عن ما سبقه من بني زيان[2]

وهنا سيشتدّ الصراع بين الأميرين الزيانين وبين القبيلتين بني راشد وبني عامر وبين الإسبان وحكّام الجزائر الذين أعلنوا تأييدهم لمولاي أحمد بمكافأة القبائل الموالية لهم ورجال الطرقية، وعلى رأسهم سيدي محمد أفوغال وأخيه سيدي عامر مما أدى بالمريدين إلى الإلتحاق بالقوة التركية التي رافقت مولاي أحمد وقوة بني راشد بزعامة المنصور بن غانم فاتجهت كل هذه القوات إلى تلمسان فدخلتها يوم 16 فيفري 1534 وخص مولاي أحمد المعروف بمولاي

1- رسالة Melgarege اسقف سنتياقو SANTIAGO وهران1534،1،26. A.G.S (GA) leg 5 fol 93

2- هؤلاء التجار الذين ورد ذكرهم من تجار ايطاليا قدموا لتلمسان لأجل شراء الجياد منها Ibid leg 5122 et 124

محمد علي راس الدولة، في الوقت نفسه ترك ابن رضوان وحفيده تلمسان واتجها نحو الواحات الصحراوية بعدما حملا معهما خزينة الدولة[1] .

- أثر الصـــراع بين خيـــر الدين وشارل الخامس:

كما نصّت الرسالة المؤرخة في شهر فيفري941هـ/1534م بأن مولاي محمد قد وصلته بالفعل مساعدة من خير الدين، تألفت من أربعمائة(رماة) ومائة انكشاري، بالإضافة إلى ذلك، أن هناك فرقة أخرى في طريقها إليه في الأيام القادمة.

- احتكـــاك العثمـــانيين بالزيـــانيين:

* تدخـــل الأخويـــن عـــروج وخيـــر الدين:

إذا كانت إسبانيا قد قامت بدور لا يستهان به في تقلص نفوذ الدولة الزيانية باحتلال أهم مدنها الساحلية، فإن الأخوين عروج وخير الدين قاما بالدور نفسه ولذا فالأسئلة التي يمكن طرحها في موضوع العلاقة بين الدولة الجزائرية وبين الدولة الزيانية وأن الأولى نشأت على بعض أجزاء الدولة الزيانية.

ماهي أهداف الأخوين في هذا التوسع نحو الجهة الغربية من مدينة الجزائر؟، هل الزيانيون هم الذين أصبحوا يشكلون خطرا على هذه الدولة؟.

أما طموح عروج وخير الدين في إقامة دولة قوية يمكنها مواجهة الخطرالإسباني لا تتم إلاّ بالقضاء على هذا التشتت الذي سهل مهمة الإسبان في السيطرة على موانىء الدولة الزيانية، وقبل التطرق إلى هذه النقطة يجب علينا التعرض لأسباب دخول الأخوين عروج وخير الدين لمدينة الجزائر سنة1516م .

1- Ibid Fol 94.

يعتبر بعض المؤرخين أنّ الاستنجاد بالأخوين يرجع بالدرجة الأولى إلى الخطر الإسباني، وفي هذا الصدد يقول السليماني: «كتب سليم بن إبراهيم ابن التومي أمير متيجة ومدينة الجزائر ومايليها من جبال صنهاجه إلى سليم سلطان التّرك ينهي إليه حال وطن المغرب الأوسط وما تكبده أهله من عسف الإسبان المتغلبين على سواحله وما آل إليه الإسلام والمسلمين وأمراء بني زيان من الضعف والشدة والإنحلال[1]. يتوصل الباحث من خلال هذا النص إلى مايلي:

1: أن الإسبان عندما استولوا على هذه السواحل مارسوا ضغطا على الإمارات المستقلة عن الدولة الزيانية مثل إمارة سليم التومي.

2: أن الأخوين عروج وخير الدين لم يأتيا لهذه البلاد كغزاة كما تصفهم الدراسات الغربية، بل وجودهم كان رغبة في الجهاد[2] ورحمة للضعفاء من المسلمين وهو ما يؤكده أيضا الجامعي في نص آخر بقوله (رغبة في جهاد الكافرين ورحمة بضعفاء من المسلمين) لذا فالمعركة هي معركة توحيد البلاد من جهة ومحاربة الإسبان ومن استنجد بهم من جهة أخرى وهو ما يوضحه نفس المؤلف بقوله: «كانت للأتراك يدان إحداهما تمهّد التلول والإنجاد من بغاة البربر والعرب والأخرى تدفع الكفر عن أهل الإيمان، بينما تظاهر عليهم المشركون وبنو زيان[3].

1- السليماني الشماريخ جزء ثالث ورقة 100.

2- الجامعي فتح وهران (وهو شرح للأرجوزة الحفناوي) مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 2521 ورقة 20 .

3- الجامعي المصدر السابق الورقة 9 ب.

يتضح من هذه النصوص أن هدف عروج وخير الدين من سيطرتهما على الجزائر هو القضاء على التفرقة التي عرفتها بلاد المغرب الأوسط[1] هذا فيما يتعلق بالدوافع، أما التوسع على حساب دولة بني زيان فقد بدأ مع سنة1517م بتوجه خير الدين نحو تنس وعروج إلى تلمسان وقبل التعرض لموضوع التوسع، يجدر بنا الرجوع إلى المصادر والوثائق التي تناولته فالمصادر العربية تختلف فيما بينها أما الوثائق الإسبانيا التي أعطت لهذه الفترة أهمية كبرى من خلال تقارير جواسسها ورسائل قاداتها في كل من وهران والمرسى الكبير وبجاية تتفق على أن أمراء بني زيان وبعض حلفائهم قدّموا مساعداتهم للإسبان خلال الهجوم الأول على مدينة الجزائر1516م[2] بقيادة دياغو ديفيرا، ولذى فالتوجه نحو الغرب سببه الرئيسي هو القضاء على هذا التحالف وهو ما أكده ابن زرفة بقوله: «تظاهر على عروج وخير الدين المشركون والإسبان»[3] أما أحمد بن سحنون الراشدي فيقول: « أن مولاى أبا عبد الله سلطان تلمسان عاد إلى أحد قرابته فانتزع ملكه من يده، لم ير من الرأي إلاّ أن يقصد حضرة الجزائر فقدم إليها واتّصل بعروج مستنصرا به فقدم لنصرته[4] .

لا يمكن الأخذ بهذا النص لسببين أساسيين:

أ: أن صاحب النص لم يحدد لنا تاريخ إنتقال هذا السلطان إلى مدينة الجزائر، ولم نعرف أيضا تاريخ توليه إمارة الدولة الزيانية، لأن ماهو

1- لمؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، ورقة 13 ب

2- لمؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، ورقة 13 أ.

3- ابن زرفة المصدر السابق ورقة 137.

4- محمد ابن رقية؛ الزهرة النيرة، فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرى، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1626 ورقة 2أ.، غزوات عروج وخير الدين ورقة 13.

معروف لدينا من خلال المصادر أنّه بعد وفاة أبو قلمون كان من المفروض أن يتولى شؤون الدولة السلطان أبو زيان، لكن عمه أبو حمو قاد إنقلابا ضده ووضعه في السجن مما جعل أتباعه يتصلون بعروج ويطلبون منه يـد المساعدة.

ب: أن صاحب غزوات عروج وخير الدين القريب من الأحداث لم يشر إلى قدوم أي أمير من أمراء هذه الدولة إلى الجزائر، وحتى الوثائق الإسبانية لم تتعرض لذلك، ولو حدث فإنه لا يمكن إغفالها لأنها تناولت أحداثا واجهها خير الدين بتنس.

- السيطـرة عـلى تنس:

قبل التعرض إلى السيطرة على تنس من قبل الأخوين عروج وخير الدين يجدر بنا التعرض إلى تدخل الإسبان في شؤون هذه الإمارة (إمارة تنس) التي انتزعها الأمير يحي من أملاك الدولة وتحالف مع الإسبان حتى يسمح له بالسيطرة عليها وعلى المناطق القريبة منها ونتيجة لهذا التحالف أرسلت أسبانيا قوة عسكرية إلى مدينة تنس وعددها 500 رجل وعندما علم بذلك خير الدين توجه إلى تنس لتحريرها من السيطرة الإسبانية وإبعاد الأمير يحيى منها[1] وأن سيطرة خير الدين على تنس يعتبر أول مواجهة بينه وبين أمراء هذه الدولة لأن محاصرة تنس وفرار أميرها منها ودخول خير الدين إليها بعد إتفاق أبرمه مع سكانها حفّز أعيان تلمسان على الإتصال به.

أما الحملة الثانية على تنس فقد قام بها عروج وهذا ما يتضح من كتاب صاحب الزهرة النيرة الذي يرى في توجه عروج لتنس كرد فعـل لاستمرار

1- لمؤلف مجهول : غزوات عروج وخير الدين ورقة 18.

يحيى في مواجهة الوجود العثماني وفي هذا الصدد يقول: «جمع عروج عسكرا برسم الخروج إلى الناحية الغربية لتفقد أحوالها ومواجهة القائد المنحوس الذي بتنس واستفتاء علماء الجزائر في ذلك فأفتوه بإباحة دمه ودم من معه من المفسدين».

يستنتج من النص أن خروج عروج لم يكن الهدف من ورائه الإنتقال إلى تلمسان كما يعتقد مرمول[1] بل مواجهة الإضطربات التي عرفتها النواحي الغربية من أراضي الدولة الزيانية التي نزعها منها أمير تنس، واستعادها منه عروج فيما بعد، بعد هزيمة قوته بواد جر[2] واستلاء خير الدين على تنس.

وعندما وقع تقسيم المملكة (الجزائرية) بين الأخوين عروج وخير الدين فإن هذه الناحية أصبحت تحت إشراف عروج مباشرة .

أما الإضطرابات التي كان وراءها يحي المعروف بحميد العبد فحدثت بعد عودة خير الدين إلى الجزائر، مما جعل عروج يعود إلى تنس بمساعدة بعض أعيانها وهو ما جعله يأخذ هذا القرار بعد مشاورة علماء الجزائر بقطع دابر هذا الأمير للعلاقة التي تربطه بالإسبان أما فيما يتعلق بتلمسان فإن المؤلف ذكر لنا بأنه قد أبلغه أن سلطانها أضرّ بأهلها وعمّه جرّه فثنى عزمه إليها، فهذا الجور وهذا الضرر يبدو أنهما كان وراء عملية إلتفاف عروج عليها.

1- مرمول المصدر السابق جزء 2 ص 363.

2- واد جر يقع بالقرب من مدينة العفرون على الطريق الوطني الذي يربط وهران بالجزائر وعن هذه المعركة أنظر غزوات عروج وخير الدين ورقة 13 السليماني، الشماريخ، الجزء الثالث ورقة 112.

- سيطرة عـروج على تلمسان:

أما فيما يتعلق بدوافع حملة عروج على تلمسان نجد روايات متضاربة فالرّحالة الإسباني مرمول[1] الذي كان قريبا من الأحداث، ذكر بأن عروج كان يعرف نوايا أهل تلمسان، فكتب لهم قائلا: «إنه يستغرب من كونهم مسلمين خاضعين للأمير أبي حمو موسى الثالث التابع للمسيحيين، يغلبهم ببسط استبداده، ويرفض إرجاع الحرية للأمير الشرعي أبي زيان وإعادة تنصيبه على العرش».

فالشيء الذي يمكن استنتاجه من النص يتمثل فيمايلي:

أ: أن عروج الذي استقرّ بالجزائر كان له أتباع يطلعونه على أحوال الدولة الزيانية من خلال المعلومات التي كانت تأتيه عن طريق عيونه، الذين كانوا مندسين داخل المجتمع التلمساني ويبدو لي أن أغلبيتهم من أفراد الجالية الأندلسية الذين ندّدوا بسياسة أبي حمو اتجاه الدولة الإسبانية، التي أساءت إليهم وإلى المقدسات الإسلامية، فتعاونه مع هؤلاء الإسبان يعتبر ضربة قاضية للإسلام والمسلمين، لهذا كتب عروج لأهل تلمسان قائلا لهم «أنّه يستغرب من كونهم مسلمين خاضعين لأمير تابع للمسيحيين».

ب: أن هذا السلطان لم يصل إلى السلطة بطريقة شرعية بل كان نتيجة لمؤمرات دبرت ضد الأمير الشرعي أبو زيان الذي ألقي به في غياهب السجن[2].

1- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص307، أنظر أيضا brunel (camille) guerre de teemcen an 1895 in B. S. G . O p233

2- لمؤلف مجهول، غزوات عروج، ورقة 14 ج

أما المصادر الإسلامية فتناولت أيضا الموضوع ومن بينها ابن القاضي الذي قال: « في سنة 923هـ/1517م دخل عروج تلمسان بعد صلاة الظهر من يوم السبت أول يوم من شوال» « جيشه يومئذ ستمائة مقاتل، مائة وعشرون من الأتراك، وما بقي من العرب أربعمائة فارس، وما بقي من جيشه من الراجلين والرماة»[1].

يستفاد من النص:

أ: أن القوة التركية التي دخلت تلمسان لم تكن كبيرة فهي لا تزيد عن ستمائة جندي، تتكون من الإنكشاريين والأندلسيين والعرب والبربر، ومن انضم إليها أثناء المسيرة.

وعندما اجتازت قلعة بني راشد ترك بها قوة تحت قيادة الأخوين اسكندر[2] وإسحاق[3] لكي يحافظ على خط الرجعة، « أما أبو حمو موسى الثالث، فإنّه عندما وصلت معلومات تتعلق بإقتراب عروج من تلمسان، اتصل بحلفائه من القبائل العربية والبربرية، وخرج بقوته إلى سهل أغبال، برسم قطع خط عروج المتوجه إلى السهل المذكور، فهجم عليه عروج وهزمه شرّ هزيمة».

ب: أن القوة الزيانية التي واجهت عروج اتّفقت أغلب المصادر على كثرتها، لكنها لم تقفها على الرغم من قلة عدد القوة التابعة لعروج.

1- ابن القاضي، درة الحجال، في عرر السماء للرجال نشر علوش جزءان الرباط 1934-1936، ج1 ص136

2- لمؤلف مجهول، غزوات عروج و خير الدين، ورقة 77 .

3- أحمد بن بزاز،ربح التجارة و منعم السعادة، مخطوط رقم 928 بالمكتبة الوطنية، ورقة 84.

ج: وقع اختلاف بين المصادر فيما يخص موقف سكان تلمسان من عروج، فالنص الذي أورده ابن القاضي يؤكد أن التلمسانيين وقفوا موقفا مؤيدا لعروج لأنهم فتحوا له أبواب مدينتهم دون مقاومة تذكر[1].

أما الوثائق الإسبانية فتؤكد ردود فعل قوية لدى بعض الجهات، خصوصا عند التلمسانيين الذين قادهم علماؤهم لاستنكار الوجود التركي، بعد أن جرت مذابح رهيبة على يد عروج غادر على إثرها عددا هائلا من علماء المدينة ليستقروا نهائيا في فاس[2] ومراكش[3] وتارودنت.

- **إنتصار عروج على أبي حمو موسى الثالث وموقف المجتمع التلمساني:**

«يعتبر دخول عروج إلى تلمسان أول سقوط للدولة الزيانية في القرن 10هـ/16م[4] بعد أن سقطت مرارا في يد الحفصيين والمرينيين.

أما ابن زرفة يقول: «بعث أخاه عروج رايس للمحروسة تلمسان فاستولى عليها، بعد أن قتل سبعا من سلاطينها ونحو السبعين من أكابر عبد الواد، وما يزيد عن ألف من كبرائها[5]».

فالشيء الذي يمكن التوصل إليه مايلي:

أ: أن سلاطين الدولة الزيانية وأمرائها الذين بقوا في تلمسان، لم يستريحوا للوجود العثماني في عاصمتهم، لأن بعض الجنود قد أساؤوا للسكان ونستدل

1- ابن القاضي، المصدر السابق، ج2 ، ص 136

2- السلماني، كتاب الشمارخ، ج3، ورقة 107

3- عن هجرة تلمساني إلى المغرب الأقصى، أنظر وفيات أبو العباس الونشريسي ،تحقيق حجي، الرباط1980،ج1 ،ص260

4- السليماني، المصدر السابق ، ج3 ، ورقة 102

5- ابن زرفة، الرحلة القمرية ،ورقة 37ج

على ذلك من خلال ترجمة ابن ملوكة حيث أشار ابن مـــريم إلـــى اتـــصال السكان به وتقديم الشكوى له عن هؤلاء الجند[1].

ب: أن هدف عروج هو تنفيذ مشروعه الذي يتمثل في توحيد البلاد، لـــذلك كان عنيفا أمام هؤلاء الأمراء الذين لا تهمهم مصلحة الدول أكثر من المـــصالح الذاتية، وبذلك لا نستعجب من تدبير المؤامرات.

وأن جواسيس الإسبان الذين كانوا بداخل تلمسان، على علم بهـــذه الأحـــداث وهو ما تؤكده إحدى الرسائل التي أرسلت إلى حاكم وهران، من قبـــل أنطونيـــو الذي ذكر له بأن أمير تلمسان أبي حمو موسى الثالث مع القائد أحمـــد العربـــي مازالوا في قلعة بني راشد[2].

كما جاء في نفس الرسالة أن عروج لم يسمح للسكان بالخروج من تلمـــسان، حتى لا يمكن لأتباعهم تزويدهم بالمعلومات، وقد قتل كل أمراء الدولـــة وســـمح ببقاء المهاجرين الأندلسيين كما يذكر"أن أبا حمو قد أرسل إلى مـــستغانم القائـــد سيدي عامر، وقد سبق لهذا أن تحالف مع عروج[3] وشيخ بني راشد على محاربة الإسبان في وهران[4]".

1- عن الشيخ ابن ملوكة ، أنظر ابن مريم البستان ص116

2- d'antonio rica au très bel seigneur lope hurtode de mendoza oran lettre , 27 fèvrier 1518, arch de simances estade , lozages 461f 22 primandaie de la op cit 148 ra 1875

3- primandaie OP cit P 149 en ra 1875 n 18

4- Ibid p 150 لم يذكر اسم الشيخ لكن يبدو أنه من عائلة آل غانم.

فهذا العمل من قبل عروج يبدو أنه سهّل مهمة أبي حمو موسى الثالث بإنجاز مجموعة من أعيان تلمسان إلى جانبه خلال محاصرته لقلعة بني راشد وتلمسان[1].

كما نشر ابن زرفة في نص يتعلق بمحالفة أبي حمو للإسبان وأهمية قلعة بني راشد ونهاية الحامية التركية بها.

فيقول: بعث أخاه إسحاق لقلعة بني راشد، وكانت ميرة النصار بواهرن، إذ هي أغني بلاد الله زرعا وضرعا في ذلك الوقت حرسها الله، وقطع عنهم المتاع، فأنشأ ملوك بني زيان في مداخلة النصارى بالخدع ونصب الأشراك، وتظاهروا على جلاء ليوث بني ادم الأتراك، ووعدوهم أن يردّوا لهم ميرة الطعام، التي تأتيهم من القلعة إن أعانوهم على كنس الأتراك من تلك البقعة فخرجوا مع النصارى، وحاصروا إسحاق التركماني، بالقلعة وصالحهم لما طال بهم الحصار، على أن ينجو بنفسه ومن معه ويسلم لهم القلعة، لكن غدروه[2] بعد إنفصاله وكشفوا أتباعه[3] لإسبانيا في كل من وهران والمرسى الكبير ومما زاد الأمر خطورة قطع الطريق المؤدية لتلك المراكز بعد التحكم في إقليم بني راشد والسيطرة على قلعتها، وهو ما يوضح لنا بأن عروج كانت له استراتجية خلال حملته على تلمسان تتمثل فيمايلي:

1- berges L.J.J OP cit 432

2- ابن رزفة ، الرحلة القمرية ، ورقة 137

3- نفسه ، ورقة 37ج

حفظ خط الرجعة في حالة الإنسحاب من تلمسان لذلك عرج على قلعة بني راشد التي تحتل أهمية استراتجية واقتصادية[1] وهو ما يؤكد صاحب غزوات عروج وخير الدين على لسان السلطان أبي حمو موسى الثالث من خلال رسالة أرسلها من فاس إلى وهران أهم ما جاء فيها: « أنظروا ما حل بكم عندما إنقطعت دولتنا عنكم وتمكن منها الأتراك كيف قطعوا عنكم الميرة من القلعة وغيرها، فلو كنتم أنتم أعنتموني على قتال عروج، وأمددتم موانئ بالمال والرجال ما صار أمركم إلى هذا فانظروا الآن في هذا الأمر وتداركوا الحال قبل أن يمتدّ هذا الرجل إلى أخذ المدينة» فالذي يستنتج من النص مايلي:

أ: أن الإسبان عندما استولوا على المرسى الكبيرو وهران كانوا يتزوّدون بما يحاتجون إليه من قلعة بني راشد والنواحي المجاورة لها، لأن القلعة يوجد بها سوق يعتبر من أهم أسواق الدولة الزيانية تعرض له الوزان في رحلته وعرّفه بسوق الخميس ويبدو أن القوافل التجارية كانت تنتقل بين القلعة ووهران والمرسى الكبير، وبعد نزول الأتراك بها عمدوا إلى مضايقة المراكز الإسبانية بقطع المؤونة عنهم وهو ما تؤكده الوثائق الإسبانية خلال هذه الفترة[2].

وقد استغل السلطان أبو حمو موسى الثالث هذه الضائقة الإقتصادية لصالحه ليتمكن من الاستفادة من المساعدة الإنسانية بعد أن رفض شيوخ[3] القبائل له،

1- المؤلف مجهول، غزوات عروج و خير الدين ورقة 14 و عن الأهمية الإقتصادية للمنطقة أنظر لحسن الوزان، المصدر الصابق، ج2، ص9، مرمول، المصدر السابق، ص307، الحسن الوزان، المصدر السابق، ص522

2- اعتمادا على نص سيرو Mazarquivir et Oran, suarez, en R. A .M P52-56

3- شيوخ القبائل كانو يقدمون مساعدتهم العسكرية للدولة مقابل أموال تسسددها لهم من الضرائب التي كانت تحصّل من موانئها وعلى المرسى الكبير و وهران، أنظر، الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص10، أنظر أيضا du faurqui sur le sol l'an

كان لضعف اقتصاد الدولة نتيجة لسيطرة الإسبان على موانئها ومعارضة العلماء له في فرض ضرائب جديدة على الرعية وبذلك هو في أشد الحاجة إلى أموال لتجنيد القبائل وهو ما دفع به إلى طلب العون من إسبانيا وهو ما يتضح من النص فقال: أما كتاب الخبيث إلى النصارى (أمدوني بكذا من المال لأنفقه على الجيش وتخليص المدينة من يد الأتراك، فحين ترجع العمالة إلي أمدّكم بما كنت أمدّكم به من زرع وأغنام وسائر ما تحتاجون إليه.

ب: إن السلطان أبو حمو موسى الثالث قد استغل إطعام الأتراك في المنطقة وبيّن لحلفائه من الإسبان أن الهدف ليس تلمسان فحسب بل هو المرسى الكبير و وهران[1].

هذه الصيحة من قبل أبي حمو موسى الثالث وجدت تأييدا من قبل الإسبان، لأنهم كانوا يدركون ما يمثله عروج من خطر على مصالحهم في المنطقة لذلك طلب أبو حمو بإرسال سبعة ألآف دينار مقابل أخذ رهن من القبائل الموالية له وأغلب تلك الأموال صرفها على شيوخ القبائل مقابل تجنيدهم المتطوعين للعمل في وحداته العسكرية التي قدّرت بحوالي خمسة عشرة ألف من الفرسان وألف وأربعمائة جندي إسباني، بواسطة هذه القوة توجه إلى قلعة بني راشد لمحاولة قطع خط الرجعة على عروج عند محاصرته في تلمسان أما خير الدين فإنه كان يتابع تحرك القوة المعادية بواسطة عيونه في الناحية، لذلك عندما علم بتقدّم قوة الإسبان وأبي حمو إلى القلعة، أرسل امدادات، وهو يؤكده صاحب الزهرة النايرة[2] بقوله: فلما سمع خير الدين بتوجه النصارى إلى القلعة، وجه جيشا بقيادة إسحاق، فلما وصل إلى القلعة وجد بها جيشا من

1- لمؤلف مجهول غزوات عروج و خير الدين ورقة 14
2- الزهرة النايرة ، ورقة 3 أ

النصارى يحاولون أخذها، فوقع بينهم قتال عظيم، وكان النصر لطائفة المسلمين وقتل من النصارى حوالي سبعمائة وأسر حوالي ثلاثمائة، ودخل المسلمون القلعة، ثم ورد عليهم السلطان الزياني بجيش من العرب وأتباعه من النصارى وأحاطوا بها من جميع جهاتها وشرعوا في قتالها فخرج إليهم المسلمون يوما فاستولوا على مائة وعشرون من النصارى فدخلوا بهم إلى القلعة فبقوا أياما وأرغموا على الخروج مرة أخرى للقتال فأخبر بعضهم جواسيس سلطان تلمسان ،فنصب للنصارى للقائهم المدافع ،في حين خرج إليهم المسلمون رموا عليهم بجملة من المدافع فاستشهدت جماعة كثيرة منهم ،ورجع بقية الجيش إلى القلعة فبقوا محاصرين بها ستة أشهر، فجعل النصارى بها نفقا تحت الأرض وملؤوه بالبارود ثم أحدثوا نارا، فتحطم جزء من القلعة وبعدها وقع إتفاقا بين الطرفين على الخروج من القلعة وإعطاء الأمان لهم ولسكانها، ولكن الإسبان قتلوهم بعد الخروج ويجعل مرمول[1] كعادته أن السبب في ذلك القبائل العربية، لأنهم حاولوا أن يقلّصوا من دورهم في نقض الصلح الذي تمّ مع المحاصرين وهو ما يؤكده مرمول بقوله: أن أحد أفراد القوة العربية كان الأتراك قد اغتصبوا بناته فانقض عليهم عند خروجهم من فرقته[2].

- تأثير القوة المعارضة لعروج في تلمسان

يقول ابن زرفة في السيطرة على تلمسان (ثم شنّوا عنان الحصار لعروج بتلمسان فحصاروه بمالا طاقة له وعساكر المشركين وبني زيان فخرج ناجيا

1- مرمول ، مصدر السابق ، جزء 2 ص 223 و قد لعب علماء قلعة بني راشد دورا مشرفا في المعركة ، واستشهد بعضهم ، أنظر الصباغ ، البستان ، ورقة 14،أبوراس النصاري،عجائب الأسفار،ورقة 50 أنظر أيضا rigg o rartada de mendaza ،p149 lettre d'antoni tomexx AN،1518 en ra ،02،27،

2- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص223

بنفسه من جملة عسكره وذلك يوم العيد من السنة المذكورة فنهضوا في إثره فقتلوه بجبل بني موسى واستأصلوا عسكره، و محوا من المغرب الأوسط أثره[1].

وهناك نص لابن عساكر يقول فيه: أن عروج رايس عاش بتلمسان لمّا افتتحها، وثار به أهل تلمسان وخافوا من رجوعه فلجئوا إلى الشيخ ابن ملوكة وشكوه خوفهم منه فانقبض الشيخ ثم ضرب الأرض وقال: والله لايرجع أبدا فحقق الله رجاءه[2].

فالذي يمكن استخلاصه من النصين يتمثل فيمايلي:

أ: أن عروج عندما دخل إلى تلمسان عمد إلى إطلاق سراح أبي زيان من سجنه و جعله على عرش آبائه، بعد أن أبعد من كرسي الحكم نتيجة لسؤامرات دبرت من قبل أبي حمو موسى الثالث، لكن دسائس السلطان زياني مثل ما كانت عليه قبل دخول العثمانين تلمسان، وقد حاول عروج في البداية أن يتغاضى عليها إلا أنها استمرت بمساعة أتباع أبي موسى حمو الثالث[3] والإسبان.

ولعل بعض أعيان تلمسان الذين رأوا بأنّ دخول الأتراك إلى تلمسان عاصمة الدولة من الحماية الإسبانية إلى العثمانية، لأن وجود عروج سيؤدّي

1- ابن زرفة ، المصدر السابق ، ورقة 18

2- يعلق ابن زهرة النايرة على مقتل عروج ، فيقول توجه أبو حمو إلى تلمسان هو ومن معه من العرب والنصارى فحصاروها ستة وعشرون يوما ،ورقة 9، مخطوطة بمكتبة الوطنية ، ورقة 1523 22أ

3- محمد الصغير بن حاج الوهراني نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي ، ط:1988 ، ص16 . محمد بن يوسف الزياني ، دليل الجران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران ، ص 142-143 .

لامحالة إلى القضاء النهائي على الدولة الزيانية، وربط تلمسان بالجزائر فيؤثر في المصالح الذاتية لهذه الجماعة.

ب: إن القوة التابعة لعروج قليلة على عكس القوة التي جندها أبو حمو موسى الثالث، من القبائل الموالية له، والموالية للإسبان[1]، وحتى أتباع حميد العبد، لأن إحدى الرسائل الإسبانية تشير إلى ذلك .

تضاف إلى القوة التي كانت بوهران والمرسى الكبير، هناك قوة أرسلت من قبل شارل الخامس نزلت بأرشقول قادمة من إسبانيا يقدر عددها حسب مصادر إسبانية بعشرة ألاف بينما لم تتجاوز قوة عروج الألف، لهذا المعركة غير متكافئة بين الطرفين مما جعل أبا حمو يتخلص من الحامية التركية في قلعة بني راشد، حتى لا تغطي إنسحاب عروج من تلمسان إلى الجزائر[2].

لذلك فإن الهجوم على تلمسان جاء بعد القضاء على حامية بني راشد، وحاصر أبو حمو المدينة تلمسان لمدة ستة وعشرون يوما بعد وصول الجيش الإسباني الذي قدم من أرشقول وخلالها إتصل ببني وطاس في فاس طالبا منهم النجدة، فوعدوه بإرسال القوة العسكرية لكن الظروف حالت دون وصول قوتهم له[3].

1- يعلق محمد بن يوسف الزياني فيذكر من بين هؤلاء القبائل: الوكازرة وقيزة وشافع وحميان و أولاد عنيو عبد الله ، نفس المصدر ، ص112

2- عن هذه الرسالة: أنظر توفيق المدنى، حرب ثلاثمائة سنة ، الجزائر ص154

3- السنوني، ملامح من تطور العربي في بداية العصور الحديثة، مقال في مجلة مجمع اللغة العربية دمشق 1965، ص841

ولكن التواجد الإسباني في مليلة سيحول دون وصول هذه القوة لأن جواسيس الإسبان منتشرين في أغلب أرجاء دولة بني وطاس سيعلمون القوة الإسبانية بعد خروج القوة الوطاسية من فاس، وبذلك سترسل تلك الحامية قوّاتها لإعتراض الوطاسيين قبل إنضمامهم إلى عرّوج[1] وحتى لا يتمّ هذا التحالف عمدت إسبانيا إلى إبرام معاهدة مع الوطاسيين حتى لا تنظم قوتهم إلى عرّوج[2].

وعندما تبين لعروج أن القوة القادمة من فاس لا يمكن أن تصل إلى تلمسان، ترك هذه الأخيرة، وتوجّه نحو الغرب حسب بعض المصادر فاستشهد بجبال بني بزناس بالقرب من الحدود الجزائرية المغربية[3]

- إعـلان ولاء الجـزائر للخـلافة العثمانية

بعد مقتل عروج من قبل الإسبان، دخلت الدولة الزيانية مرحلة جديدة في علاقتها بالعثمانيين في الجزائر وهو ما جعل خير الدين يربط مصير الجزائر بالخلافة العثمانية.

1- عن علاقة المراكز الإسبانيا في المغرب الأقصى بوهران و بالمرسى الكبير، اورد دولا كاستري مجموعة من الرسائل ثم تبادها بين وهران ومليلة تتعلق بتحرك القوة المعادية للإسبان أنظر les sources inesdites l'histiors du maroc , premiere serie a ynestrie saadienne espagna، 1 p 46

2- Ibid، p 56

3- ابن عساكر، دوحة الناشر، ص 97

- **ثانيـــا: التدخـــل الإسبـــاني**

<u>الهـــــدف:</u>

لعل من أبرز الأهداف التي كانت تصبو إليها إسبانيا بعد سيطرتها على موانئ الدولة الزيانية.

أولا: ضمان ولاء أمرائها لها والمحافظة على هذه الدولة رغم ضعفها[1].

ثانيا: إن إسبانيا بعد نجاح الأخوين عروج و خيرالدين في إقامة دولة لهم بجزائر بني مزغنة،رأت أنهما أصبحا يشكلان خطرا على المشاريع الإسبانية التي تهدف إلى ابتلاع المنطقة تمشيا مع وصية الملكة إيزابيلا[2] وعلى الرغم من استشهاد عروج في 1517، لمْيضع حدا لهذا الخطر، لأن خير الدين الذي خلفه كان في مستوى المسؤولية المنوطة به، لذلك أفشل كل المؤامرات التي كانت إسبانيا من ورائها بتحالفها مع القوى المعارضة له كابن القاضي و أبناء سالم ابن التومي.

ثالثا: المحافظة على تلك المراكز يسمح لإسبانيا التحكم في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وعدم السماح للسفن الأجنبية بضرب السواحل الإسبانية التي تعرضت لغارات من قبل المجاهدين البحريين إنطلاقا من مدن المغرب الإسلامي، وعلى الخصوص الأخوين عروج وخيرالدين منذ نزولهما في أراضي الدولة الحفصية، ثم الإنتقال إلى جيجل و جزائر بني مزغنة، فأصبحوا يمثلون مشكلة بالنسبة لاستراتيجية الإسبان في المغرب الإسلامي.

1- لمزيد من المعلومات انظر: ded Cayetma Roseli(discurse enReal Academia de la historia Madrid 18-58 p 450-477

2- hipolite sancha de Sapramis، Gadizy la piraberia Turra Berberisca en el siecle XVI

رابعا: الإشراف على البحر المتوسط سمح الإسبانيا بالدفاع عن مملكتي غرناطة التي لها موانئ مقابلة للعدوة المغربية مثل مالقا والسربة وقرطجنة، تلك الموانئ التي كانت تواجه الغزوات.

الأســاليب:

سلك الإسبان أساليب متعددة للمحافظة على مراكزهم وقطع الطريق على الزيانيين والدولة الجزائرية الحديثة، إذ حاولوا تحرير تلك المراكز وتوحيد القوى الإسلامية لمواجهة الخطر الإسباني، ومن بين تلك الأساليب نذكر:

- أولا: التــأثير عــلى القبــائل

سلك قادة الإسبان-فيما يتعلق بالتأثير في القبائل العربية والبربرية-أسلوبين:

أولهما: التقرب من القبائل المجاورة لحصونهم واستغلالها لصالحهم عن طريق التجسس[1] على القبائل المعادية لهم والتي تشكل خطرا على المراكز الإسبانية، وقد انتبه العلماء إلى خطورة هذه السياسة لأن تحالف هؤلاء مع القوى المسيحية وتخلّيهم عن نصرة الإسلام سيكون له نتائج سلبية على الدولة الزيانية في البداية ثم الجزائرية فيما بعد[2] وقد عطّل هذا التحالف تحرير وهران والمرسى الكبير مدة زمنية طويلة.

1- الجامعي، فتح وهران،ورقة 17،ابن زرفة،الرحلة القمرية ورقة 37 جـــ،محمد بن يوسف الزياني،دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران،ص:142،و قد خص المشرفين هؤلاء المتعاونين مع الإسبان بتأليف سماه بهجة الناظرين في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر،مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1346،ورقات 12-19 .

2- وقد هاجم الأدباء شيخ لقبيلة حميان لمساعدتهم الإسبان في بناء حصن مرجاج: لا تكب الماء من قربة لمن يقول أنا حمياني ...أدفع الكلب مع ريبة وقل قلبه مازال نصراني أنظر دليل الحيران ص:146 .

واعتبر أبوراس سبب استمرار هؤلاء في مولاتهم للإسبان ضعفا في الإيمان وهو ما يؤكده بقوله: «الأعراب الموالين للإسبان مثل حيذرة وشافع وحميان وأولاد علي و كل ذلـــك من ضعف الإيمان»[1].

فهؤلاء الذين ورد ذكرهم عند أبي راس هم الذين وصفهم المشرقي[2] بضعف الإيمان، لكن الواقع عكس ذلك لأن سوء أحوالهم الإقتصادية والاجتماعية هو الذي جعلهم يتعاطون أموالا من الإسبان مقابل الخدمات التي يقدمونها لهم و تتمثل على الخصوص في الجوسسة.

وقد حدّد أبوراس[3] الكيفية فقال: «دسّ لهم الجواسيس المعروفين بالمغطيس حتى يرصدوا له الأماكن التي تمكنه الإغارة منها.

فكانوا يقومون بالمبادلات التجاربية في القرى والمداشر وعندما تبين لهم ضعف بعض القبائل وعدم استعدادها لمواجهة الإسبان، يتصلون بهؤلاء فيقومون بالغارة عليهم وهو ما يؤكده أبوراس[4] بقوله: « فيصكهم هنالك بخيله ورجاله فيقتل المقاتل ويسبي النساء والذراري».

- ثانيهمـــا الإغارة:

فالغارات حسب ما أوردته المصادر الإسلامية كانت كارثة بالنسبة للقبائل التي لم تستطع الدفاع عن مضاربها، مما دفع بالبعض إلى ترك قراهم والانتقال إلى المرتفعات الجبلية للتحصّن بها، وتجنيد حراس يحرسون مضاربها ليلا ونهارا، وعندما يشعرون باقتراب الإسبان وحلفائهم يخبرون

1- أبوراس،عجائب الأسفار، ورقة 13-14.

2- عبد القادر بن عبد الله المشرفي،المصدر السابق،ورقة 12.

3- أبوراس، نفس المصدر،ورقة 13؛الجامعي،المصدر السابق،ورقة 10.

4- أبوراس،نفس المصدر،ورقة 50.

السكان لترك مضاربهم والهروب إلى المرتفعات الجبلية المحيطة بقـراهـم أو مداشرهم، ومن بين النواحي التي تعرضت لغارة الإسبان نواحي الرابطة والكرط التي لا تبعد كثيرا عن معسكر[1].

يضاف إليها الأراضي الواقعة بين وهران ومستغانم وغليزان وعين تموشنت وسيدي بلعباس أي مضارب الأمحال ومجاهر وبني راشد وبعض بطون بني هلال كسويد وفليتة وحتى بنو عامر أنفسهم عندما يتوقفون عن مناصرة الإسبان.

وهذه القبائل عندما تعجز عن مقاومة الغارات الإسبانية على مضاربها تلجأ إلى الخضوع لشروط الإسبان فتقوم معاهدات بين الطرفين تحدد العلاقة بين الجانبين.

- ثالثهمـا: المعـاهـدات

من أبرز تلك المعاهدات، المعاهدة التي ورد ذكرها لدا دياجو سزور بين بني راشد والإسبان في وهران والتي تنص إحدى بنودها على أن يقدم بنو راشد أجورا بحوالي خمسة أو ستة آلاف جندي ويكون الدفع بالعملة الزيانية التي كانت لا تزال متداولة والعملة الإسبانية المعروفة باسم ايكوسو والأجرة تختلف بين المشاة والفرسان وبقية الرتب العسكرية.

نصت المعاهدة على أن بني راشد لابد أن يوفرّوا وسائل النقل للقوة الإسبانية في تنقلاتها ضد القبائل المعارضة لهم وتصدير المواشي لوهران.

1- قرية الكرط غير بعيدة عن مدينة معسكر تحتل مركزا استراتيجيا هاما لذا تعرضت لهجوم من قبل القوة الإسبانية أدى إلى تهديمها، ولا زالت أسوارها ماثلة للعيان و بعض الانفاق ، لأن قرية الكرط حاليا تقع إلى الجنوب منها، و قد قيل لنا خلال زيارتنا لولاية معسكر إن إمام مسجدها المشرفي يحتفظ بوثائق عن تلك المعركة لكننا لم نتمكن من استجوابه لمرضه ،أنظر المصدر السابق،ورقات 51 و ما بعدها.

كما نصت على تزويد بني راشد للإسبان بحوالي خمسة آلاف فنجوس Fangus من القمح و10.00 من الشعير وبقية المواد الغذائية الأخرى.

ومن بين القبائن التي ورد ذكرها في هذه المعاهدة أولاد موسى وأولاد ابراهيم وأولاد طلحة والقبائل المرتبطة بالإسبان في وهران والدولة الزيانية بتلمسان.

ونصت على التحالف مع الإسبان ضد الأتراك الذين تحالفوا مع الدولة الزيانية.

ومن بين القبائل التي ارتبطت بالإسبان بواسطة هذه المعاهدات قبائل ناحية مستغانم ومزغران زيادة على المدنيين فقد أبرم معهما الإسبان معاهدة قدرت مدتها بخمس سنوات قد أعيد تجديدها سنة1520م وسمحت للتجار المدنيين القيام بالمبادلات التجارية مع وهران مقابل تقديم ضرائب لفائدة الإسبان.

- التحـــالفـــات:

من أهم القبائل التي تحالف معها الإسبان بنو عامر، وقد لعب هؤلاء دورا كبيرا في الصراع الذي عرفته الدولة الزيانية في جميع مراحلها وتحالفوا مع القوى الخارجية كالمرينيين مما جعل «أبو عنان» يعمد لنقلهم إلى تسالة فاتصلت مجالاتهم منها إلى جبل هيدور وملاتة بضواحي وهران مما سهل للإسبان الاعتماد عليهم لقوتهم وانتشار نفوذهم.

- بطـونهـم:

من أبرز بطونهم أولاد عبد الله الذين كانت مضاربهم بوادي الثلاثاء من ملاقة يتميزون بالرّحلة وهو ما جعل المشرفي يعلق عليهم بقوله: «لهم جولات

عظيمة بالأرض عرفوا بتعاونهم مع الإسبان وخضوعهم لهم حيث كانوا يدفعون لهم الضرائب[1].

ومن بين بطون بني عامر أولاد علي[2] الذين لا تختلف سياستهم نحو الإسبان عن بقية القبائل المجاورة لتلك المراكز وكان دورهم يتمثل في حركة الجوسسة عكس القبائل الأخرى التي شاركت بفرقها في الجيش الإسباني حسب قول المشرفي[3]: « فكان منهم من تطلع على عورات الإسلام والإخبار بهم للكفرة ولهم غارة على المسلمين، فكان من بينهم المنحشون والمغطسون والرقاقصة وسائر ما فيه الضرر للمسلمين والنفع للإسبان.

أما أبو راس[4] فيحدد لنا كيفية التعامل مع الإسبان بقوله: « فكانوا عيونه التي يتطلع بها على عورات المسلمين ودورهم فيأخذ مالهم وينتهك حريمهم».

وما جاء به هذا النص تؤكده الوثائق الإسبانية لأن دورهم يتمثل في دور الجوسسة على القبائل والقوى المعادية للدولة الإسبانية من قبائل عربية وبربرية.

وقد حدد أبو راس[5] الكيفية فقال: « دس الجواسيس المعروفين بالمغطيس يرصدون له الأماكن التي تمكنه الإغارة منها».

1- المشرفي، بهجة الناظر، ورقة 13، أبو راس، المصدر السابق، ورقة 13.
2- أبو راس، نفس المصدر، ورقة 13.
3- المشرفي، المصدر السابق، ورقة 12.
4- أبو راس، المصدر السابق، ورقة 14، الجامعي، فتح وهران، ورقة10.
5- نفسه، ورقة 10.

وكانوا يزاولون التجارة العطرية حسب ما ذكره المشرفي[1] وعندما يتبين لهم ضعف القبائل وعدم تحضيرها يتصلون بالإسبان، فيقوم هؤلاء بالإغارة على تلك القبائل، وهو ما يؤكده أبو راس بقوله: «فيصكهم هنالك بخيله ورجله فيقتل المقاتلة ويسبي النساء والذراري».

يضاف إلى هؤلاء قبيلة حميان وهي من القبائل العربية مسكنهم ملاتة بأرض الحفرة وما والاها وعددهم يزيد عن ثلاثين دوارا كانوا يقدمون النصائح للإسبان وهو ما جعل المشرفي يعلق عليهم بقوله: «أن شيخ حميان هو الذي دبّر على الإسبان بناء حصن مرجاجو ولكنه قتل ووضعت جثته في أساس الحصن.

ومن هؤلاء القبائل بنو شافع[2] الذين كانت مضاربهم بالعين البيضاء المجاورة لسهل ملاتة و بني بوسعيد[3].

عرفوا بالشدة مما جعل الإسبان يتقربون منهم ويستعملونهم ضد القبائل المعارضة لهم وهو ما جعل المشرفي[4] يقول عنهم أهل مجد وبأس شديد وقتال عنيد فتقوّى بهم الإسبان وأن خدمتهم لهؤلاء تمثلت فيما يلي:

أ: عملية الجوسسة إذ كانوا ينقلون معلومات عن تلك القبائل للمراكز الإسبانية وهو ما دفع المشرفي للتعليق عليهم بقوله: «كانوا عيونهم البصيرة».

1- المشرفي، نفس المصدر، ورقة 14.

2- يقول محمد بن يوسف الزياني: وقعت للإسبانيين العناية بقلعة مرجاجوو دبروا في إقامتهم وصعب عليهم الماء فكان أول من أتاهم بقرب الماء لأجل إقامته شيخ حميان وقبيلته، دليل الحيران، ص 146. انظر أيضا الجامعي، المصدر السابق، ص 102.

3- أبو راس، المصدر السابق، ورقة50، المشرفي، نفس المصدر، ورقة13، قيزة وشافع وحميان: جارهم ما يتهنى و منهم ما يدخل جنّه ، دليل الحيران ، ص 146.

4- المشرفي ، نفس المصدر ، ورقة 13.

ب: استعمالهم في شن الغارات على تلك القبائل وبني وفي هذا الصدد يقول المشرفي: « اعتدوا بهم وأكثـــروا من شـــن الغـــارات على الأقدميـــن والأبعدين».

ومن بين تلك القبائل قيزة وقد ورد ذكرهم في بعض المصادر باسم حيذرة نسبوا إلى بني عامر ومساكنهم بنواحي فارقة وعند التحاق الونارة بهم انتقلوا إلى ملاتة وسكنوا ضواحي تمزغرت ووادي العسول[1]. أغلب هذه النواحي قريبة من الأبراج المحيطة بوهران.

- تجنيد رجـــال الديـــن المسيحي:

من بين الأساليب التي استعملها ملوك إسبانيا لمواجهة الدولة الزيانية، ثم الدولة الجزائرية فيما بعد، استغلال رجال من الكنيسة كانوا يكنون عداوة للإسلام والمسلمين في تجنيدهم واستغلال أموالهم لصالح الحمالات الإسبانية.

«ومما يؤكد ذلك أن هناك رسالة موجهة من الإمبراطور كارلوس القوي المعظم ملك ألمانيا ودون خوانة والدوقين والكونتات والمركزيين والمبشرين ومجالس القساوسة المكلفين بالأتاوة والضرائب والرجال القديسون لغرناطة وممثل المدن والقرى الأخرى والأماكن التابعة للقسيس الأكبر بطليطلة والذين لهم علاقة برسالتنا التي نتمنى لهم الصحة والعافية أن يحافظوا ويدفعوا الإعانة لمدينة وهران ومدينة بجاية والقرى التابعة لهما والحصون والمرسى الكبير»[2].

1- المشرفي، المصدر السابق، ورقة 13، أبوراس، المصدر السابق، ورقة 56.

2- 1529 ،6،amxille de Plazas Peticien de zente Para aren y mezalquivir 8
malaza af Co Rel no129 Co 7064-129.

يستخلص من هذه الرسالة ما يلي:

أن الدفاع عن الوجود الإسباني في أراضي المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية لا تخص السلطة الملكية الحاكمة في إسبانيا فقط أي جلالة الملك المعظم بل كل القوى الحية وعلى رأسها الكنيسة الكاثوليكية لأن الصراع هو صراع بين الإسلام والمسيحية لكن الانقسامات التي عرفتها أوربا خلال هذه المدة والتي لم تكن تخدم المصالح الإسبانية في أوروبا وتؤثر في مصالحها خارج أوروبا وعلى الخصوص التحالف الذي حدث بين الدولة العثمانية وفرنسا وارتباط الجزائر بالدولة العثمانية924هـ/1518م[1].

ومما زاد الأمر خطورة أن البابا الذي كان عليه أن يستمر في تأييده للإسبان وقف إلى جانب فرنسا ضد شارل الخامس الذي كان مناهضا للفرنسيين والإنجليز خلال هذه الفترة.

- الصـــراع بين الإسبـــان والعثمـــانيين:

« ولعل مما زاد في خطورة الوضع الذي عرفته أراضي الدولة الزيانية وعلى الخصوص بعد سقوط موانئها الرئيسية وخضوع الأخرى إلى فرض ضرائب عليها من قبل الإسبان، تأثير رجال الدين في إسبانيا في قرارات الدولة بل أصبح بعضهم حكّاما فعليين للمدن الإسبانية الجنوبية التي كانت من

1- عن ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية يعلق صاحب غزوات عروج و خير الدين على ذلك بقوله : « وقد ظهر لي من الرأي أن نعتمد في حماية هذه المدينة على الله سبحانه و نصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا السلطان سليم نصره الله فيمدنا بالمال و الرجال و جميع ما يحتاج إليه من آلات الجهاد و لا يكون ذلك إلا بصرف الخطبة إليه و ضرب السكة عليه فرضى أهل المدينة و صوبوا رأيه في ذلك فأمرهم أن يكاتبوا على لسانهم كتاب إلى حضرة السلطان، أنظر غزوات عروج و خير الدين، ورقة 32.

قبل ضمن أملاك دولة بني الأحمر والعداوة التي يكنّها هؤلاء للإسلام وللمسلمين»[1].

«فالوثيقة التي ترجع إلى سنة 1529م توضح لنا بأن رجال الدين هم الذين كانوا يشرفون على شؤون المدن التي كانت تابعة لمملكة غرناطة قبل سقوطها سنة 1492م وأن تعيينهم يتم من قبل مجلس القساوسة».

ومما يؤكد ذلك أن المجلس خلال انعقاده في 1529/5/24م كلف "ريكو" لكي يكون رئيسا لبلدية مالقة والإشراف على الحرب بأراضي الدولة الزيانية وعلى الخصوص سواحلها التي اعتبرت في نظر السّاسة الإسبان الحدود الفاصلة مع الامبراطورية الإسبانية كما يحافظ على الأسطول الإسباني بمالقة ويجعله في أتم الاستعداد لمواجهة الأخطار المحدقة بالمدينة من قبل خير الدين وتزويد وهران والمرسى الكبير بالمؤونة والعتاد العسكري والمتطوعة.

كما تشير هذه الوثيقة إلى العلاقة الحميمية بين قائد وهران والمرسى الكبير ماركيس دوغماريس marges de Gomares الذي أطلق عليه لقب قائد وهران والمرسى الكبير ومملكة تنس وتلمسان والكالدي شيخ بلدية مالقة الذي يشرف على تقديم المساعدة المالية وتجنيد الفرسان والمشاة من مالقا والقرى المجاورة لها لمساعدة الحامية الإسبانية المتواجدة في كل من وهران والمرسى الكبير وتوضح الوثيقة ما يلي:

1- فالوثيقة المؤرخة في 1529،6،8 م ذكرت إن هناك لجنة تشكلت في مالقا malaza لمساعدة وهران والمرسى الكبير بقيادة رال كديلا Real cedula الذي تربطه بحاكم وهران و المرسى الكبير علاقات حميمة لإيقاف الخطر الذي يشكله خير الدين عليها واستمر عملها ما بين1527 م و 1529م، أنظر المؤرخة في1529،6،8 م، P 235.

أن الحامية الآنفة الذّكر تشتكي من قلة أفرادها، وأن الخطر محدق بها من خير الدين والقبائل المعارضة للوجود الإسباني التي تحالفت مع القوة التركية»[1].

أما الهزيمة التي ألحقها الأسطول الجزائري بالسفن الإسبانية التي تحت قيادة رامون برقويد عند خروجها من ميورقة لمحاولة إعتراض السفن الجزائرية عند اقترابها من الجزر الإسبانية[2].

كما أن الهزيمة التي ألحقت بالإسبان بعد سيطرة خيرالدين على حصن البنيون المقابل لمدينة الجزائر سنة 936هـ/1529م، مما سهل لخيرالدين إقامة مبنى يقي سفنه من الاضطرابات البحرية وتحركاتها السريعة نحو سواحل الإسبان.

يضاف إلى ذلك التحالف التركي الزياني الذي أثر في المراكز الإسبانية والقبائل الموالية لهم، مما دفع بشارل الخامس إلى احتلال هنين[3] القريبة من تلمسان لتضييق الحصار عليها.

كما تشير هذه الوثيقة إلى تلك المضايقات التي كان يتعرض لها الأسطول الإسباني من طرف خيرالدين.

وهناك رسالة من قبل بيدروPoder[4] الملازم أرسلها إلى الإمبراطور شارل الخامس بواسطة شيخ بلدية مالقة، ذكر فيها بأن خيرالدين بمساعدة الزيانيين تحرك بأسطوله البحري وبمسلميه وأعرابه المقيمين والمعسكرين

1- الوثيقة المؤرخة في 8،6،1529 م ، نفس المصدر، ص24.

2- لمؤلف مجهول، غزوات عروج و خيرالدين، ورقة 36-37.

3- احتلال هنين من قبل الاسبان كان سنة 938، 1531. انظر مرمول، المصدر السابق، ج2، ص:326.

4 - Fetion de zente Para Oren yMezalquivir Maliya، 8، 6، M. M. A. 129 F .

بتلك الناحية من الأرض القريبة من وهران، وإنهم عازمون على الإقتراب من حصون المدينة، وقد بدأ الإقتراب خلال الأربعة أيام الماضية .

كما قدّم هذا القائد الذي يشرف على وهران تقريرا عن وضعية المدينة، وعلى الخصوص ما يتعلق بالجانب العسكري، لأنها اعتبرت ضمن المدن التي كانت إسبانيا تخصص لها ميزانية تتعلق بصيانة تحصيناتها كالقصبة والحصون المحيطة بها[1].

أما الرد على الرسالة من قبل الامبراطور، فقد نص على ما يلي:

أ: يجب على قائد وهران إرسال قائمة بكل احتياجات المدينة من مساعدة مادية و معنوية، يكون ذلك عن طريق شيخ بلدية مالقة.

ب: إن الإمبراطور شعر بالسعادة بعدما وصلته هذه الرسالة من أحد قادته الذي أدرك خطورة الوضع في وهران، وإن الامبراطور سيرسل المتطوعة التي تحتاج إليهم المدينة والمؤونة، وإن البلاط سيتحمل تكاليف نقل هذه المساعدة من اسبانيا إلى وهران، والرسالة ستوضح لكم ما نحن عازمون عليه[2].

ج: إن الإمبراطور يؤكد بأن وهران والمرسى الكبير لهما أهمية بالنسبة إليه، ولذا فالمطلوب من قائد المدينة المحافظة عليها ومراسلة الإمبراطور مباشرة. فيما يخص احتياجات المدينة من مؤونة ومتطوعة، وإنه سيخزن كثيرا في حالة عدم تنفيذ طلب وهران من قبل المراكز السالفة الذكر بمالق

1- Ibid p.136

2- Maliya Fetion de zente Para Oren yMezalquivir، 8، 6، . M .M .A .F 129 .P 137

د: إن القانون الإسباني سيكون حازما فيما يخص المتهاونين من موظفي الدولة عن القيام بواجبهم تجاه وهران والمرسى الكبير في تقديم المواد الغذائية والأسلحة والمتطوعة.

وهناك وثيقة في شكل تقرير يتعلق بمجلس بلدية مالقا الذي خصص إحدى جلساته لإرسال المساعدة لوهران[1] .

من أبرز ما ورد في التقرير أن المساعدة التي تقدم لوهران هي عمل ديني بالدرجة الأولى، ورغبة من صاحب الجلالة الامبراطور والشعب الاسباني الذي سيبذل جهوده لإنقاذ وهران في حالة الهجوم عليها، لأن أي تخاذل في حقها يعتبر خيانة[2] .

وهناك رسالة[3] من الإمبراطور دون كارلوس، إمبراطور وملك إسبانيا والسيدة «اخوانة» أمه، وهي موجهة للنواب ورجال العدالة والفرسان بمالقة تتعلق بالرسائل التي كان قد أرسلها إليهم قومارس Gomares المشرف على مملكتي تنس وتلمسان والقائد العام لكل من وهران والمرسى الكبير. والرسائل يبدو أنها كانت ترسل من وهران إلى مالقة ومنها إلى الإمبراطور، لذلك أشار هذا الأخير بأنه قرأ الرسائل التي وصلته وأمضاها، وأن بيدرو دركو الملازم قد قال في رسائلة بأن خيرالدين قد قام بتحركات فعلية لمحاربة واستعادة وهران والمرسى الكبير بمساعدة الزيانيين والقبائل العربية الموالية لهم. وكانوا

1- Ibid p.138

2- Ibid p.139

3- الرسالة مرسلة من مدينة بلاد الوليد Vallodalid مؤرخة في 23 أوت 1527،934.

يهدفون إلى تطويق وهران والمرسى الكبير برا وبحرا، ولعل العملية قام بها خيرالدين بعد تحرير البنيون[1].

وأن الإسبان المتواجدين بالمدينة يشتكون من قلة الإمدادات والمؤونة لأن حلفاءهم من القبائل رفضوا تزويدهم بما يحتاجون إليه من المواد الغذائية وهو ما جعل الامبراطور يأمر قوته بالوقوف أمام الأتراك والعرب والزيانيين الذين ولّوا وجوههم نحو إيالة الجزائر[2].

ب: وأن أوامر جلالته لابد أن تنفذ حتى لايقع ضرر يصيب المدينتين نتيجة لهذه المغامرة التي يقوم بها خيرالدين بمساعدة الدولة الزيانية، والتي ستؤدي إلى السيطرة على كل من وهران والمرسى الكبير.

ج: المحافظة على رجال الحامية في كل من وهران والمرسى الكبير حتى لا يقع لهم ما وقع لحامية حصن البنيون الذين قتل بعضهم وأسر البعض الآخر في يد المسلمين[3].

د: إيجاد العلاج الأنسب الذي يحول دون سقوط وهران التي تعتبر من أكبر المدن وأحصنها، وفي حالة سقوطها سيكون لها أثر في الوجود الإسباني في بلدان المغرب الإسلامي بسقوط المراكز الأخرى كبجاية ومليلة وسبتة، لأن أي نجاح سيحقق من قبل القوة الإسلامية سيكون حافزا للآخرين، لاستغلال ذلك النصر والزحف على أغلبية المراكز الإسبانية، لذلك يقترح الإمبراطور مايلي:

1- يذكر التقرير الذي يبدو أنه مرسل من قائد وهران الى مالقا، أن خيرالدين سيصل وهران بعد ثمانية أو عشرة أيام، و لذا فهو يحتاج الى المساعدة بأقصى سرعة(Ibid p.139).

2- Maliya Fetion de zente Para Oren yMezalquivir،8،6، P . M. A.M.F129 137. P.139

3- Ibid p.241

- الإسراع بإتمام التحصينات[1] اللازمة في أقصى سرعة لكي تحول دون إنجاح الهجوم على وهران والمرسى الكبير من الأتراك والزيانيين والمواليين لهم.

- إرسال الإحتياجات التي تتطلبها الحامية بأقصى سرعة، والمشرف على ذلك هو شيخ بلدية مالقا، الذي سيحدد تلك الاحتياجات، التي تتمثل في المواد الغذائية، والمقاتلة التي تحتاج إليهم وهران والمرسى الكبير.

- الإمبراطور الإسباني سيشرف شخصيا على إرسال هذه القوة والمساعدة المادية، لكي تحول دون سقوط وهران كما يسدد المصاريف المتعلقة بنقل هذه المساعدة، وتجنيد الجواسيس الذين سيتسربون داخل القوى المعادية، حتى تصل المعلومات للقوة الاسبانية في الوقت المناسب، مما يجعلها تضع خططا عسكرية لمواجهة الوضعية الصعبة.

- إن الملك الإسباني يصرّ بأنه في حالة عدم وصول هذه المؤونة من مالقة والنواحي المجاورة لها أنّه سيحضرها من نواحي أخرى، كما سيوفر البواخر التي تقوم بنقلها إلى وهران، وكل ذلك يندرج في إطار السيادة الإسبانية على هذه المدينة وغيرها من المراكز الأخرى في أراضي الدولة الزيـــانيـــة أوخارجها، وتحت رغبة الشعب الإسباني الذي يضع في يدي المكلفين بتموين وهران كل الاحتياجات المادية والمعنوية من سلاح ومتطوعة ومواد غذائية.

1- Ibid p.241 ذكر في الوثيقة ، الأعضاء الذين شاركوا في الاجتماع الخاص بمساعده وهران و المرسى الكبيروهم: Juan de tarres -Juradas lias pisa-la pe de mescasa varez-juan diaz chinchlla-Ganzalo Fernande de plazencia-Francisc al madrid cardale-luis de rivas-Ganzalo Fernando de ggalla -luis de.

كما تشير هذه الوثيقة إلى أن السلطة الإسبانية كانت تخشى أيضا من حركة تمردية قد يقوم بها الجنود الإسبان داخل وهران أو المرسى الكبير والتي ربما ستؤثر في الحامية في الدفاع عن المينائين.

- إن الاحتياجات التي طلبها قائد وهران قد أرسلت كلها إليه وإن الدولة مستعدة لتلبية حاجيات المركزين في المستقبل عند تعرضهما للخطر.

وهناك وثيقة أخرى تتعرض أيضا إلى الموضوع نفسه وهي عبارة عن رسالة أرسلت إلى رجال القضاء والنواب المنفذين بمالقا والمركيز غمارس القائد العام لتلمسان وتنس.

كما تعرضت إلى توغل خير الدين الذي وصف بالصعلوك في الأراضي القريبة من وهران والمرسى الكبير، كما وصلت معلومات إلى الدولة الإسبانية نصت على أن خير الدين دخل إلى مملكة تلمسان وبالتحديد من مدينة مسينة القريبة من وهران على بعد عشرة فراسخ من وهران، كما نصت الوثيقة بأن القيادة الإسبانية قد وصلتها.

الفصل الرابع

الأوضـــاع السيـــاسيـــة
(1534-1554م)

عرفت هذه المرحلة من حياة الدولة الزيانية أحداثا خطيرة فبالإضافة إلى تنافس القوة الخارجية على أملاكها ومقدرتها ازدادت الأوضاع الداخلية تدهورا من جراء مؤامرات شيوخ القبائل الّذين أرتبط بعضهم بمصالح القوة المتصارعة.

استمرار الصراع بين أمراء الدولة:

عرفت هذه الفترة صراعا مريرا ومتصلا بين أفراد الأسرة الحاكمة حيت تولى السلطة في هذه الفترة القصيرة نسبيا خمسة أمراء وهم على التوالي:

(1) أبو محمد عبد الله:947 ـ 950 هـ / 1528 ـ 1540

(2) أبو عبد الله محمد: 947 ـ 1540

(3) أبو زيان أحمد: 947 ـ 950هـ / 1540 ـ 1543

(4) أبو زيان أحمد للمرة الثانية : 950 ـ 957 / 1544 ـ 1550

(5) مولاي الحسن : 957 ـ 1550

وقد اشتد الحلاف بينهم أكثر مما كان عليه من قبل، فأبرزت التقارير الإسبانية المنافسة بين أمراء الدولة ومن بينها تقرير الكونت الكوديتي إلى شارل الخامس[1] أبرز فيه الصراع بين مولاي محمد عبد الله الملقب بالسابع934ـ1540/947 وأبيه وأنه سيستغل الصراع بين الأمراء لفائدة الاسبان، حيث أن شارل الخامس أرسل قوة عسكرية استطاعت أن تسيطر

1- يوجد ضمن مجموعة من الرسائل، إلى الإمبراطور شارل الخامس، تتعلق بالدولة الزيانية، والأسطول الاسباني الذي وجه ضد خير الدين، قد قاده اندرية دورية Primaudaie,(Elie de la) XX 51-53, XIX,181- 183.

على هنين سنة938 هـ/1531 كما أسلفنا من قبل لأن الدولة الزيانية لاتستطيع إرسال قوتها لإنقاذ المدينة، على الرغـم من قرب المسافة بين تلمسان وهنين، خوفا من اغتنام فرصة خروج القوة من تلمسان للاستلاء على المطالبين بالعرش، وهو ما يجعلنا نؤكد بأن المنافسة على من يحكم في تلمسان، من أبرز الأسباب التي سهلت للقوة الخارجية الإنقضاض على أملاك هذه الدولة وهو مالم يحدث في عصرها الذهبي[1] ومما زاد الطين بلة تدخل شيوخ القبائل في سياسة أمراء بني زيان ومن أبرز هؤلاء الشيوخ، عبد الرحمان بن رضوان شيخ قبيلة بني عامر، الذي كانت له علاقة بالسلطان الزياني، المطالب بالعرش، وهو مولاي أبوعبد الله احمد (ابن حفيد عبد الرحمان بن رضوان)[2] لأن من بين الوسائل التي استعملها شيوخ القبائل، للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة، مصاهرة أمرائها، وهذا لم يحدث قبل ذلك حيث كان، فعلا أمراء الدولة الذين تزوجوا بنات شيوخ القبائل هم الذين أثّروا في شيوخ القبائل، وفرضوا تعاونهم معهم، عكس هذه الفترة ألتي أصبح فيها الأمير ألعوبة في يد جده، وأخواله وهو ما حدث لمولاي أحمد الذي خضع لجده عبد الرحمان بن رضوان، المعروف بموالاته للاسبان. أما مولاي محمد الذي لازال يثق في القوة الإسبانية لتقديم يد المساعدة له، رسالة بعثها لشارل

1- لأن وجود حكام ذوي كفاءة أمثال يغمراسن و أبي تاشفين الأول ، اللذين حافظا على وحدة القوى الداخلية، بقمع بعض شيوخ القبائل، و التعامل مع البعض الآخر عن طريق توليهم مناصب في الدولة، كقيادة الولايات، لكن في هذه الفترة لم تتكتل تلك القبائل لمواجهة الخطر الخارجي، نتيجة للانقسامات التي عرفتها الرعية، لأن كل قبيلة كانت تتحالف مع طرف من أطراف الصراع، في تلمسان حسب مصالحها.

2- رسالة: عبد الرحمن بن رضوان، مؤرخة، في 7 أكتوبر، 943،1535هـ ربما اجابة الكوديتي، و الرسالة الأصلية باللغة العربية، في 943 هـ رقم 183 ضمن مجموعة Secritaria de estado, Lig 461. n 117:

الخامس سنة1535/943 يطلب فيها منه يد المساعدة، فإن الأمبراطور مال إلى مولاي أحمد، لأنه رأى بأن قبائل بني عامر، التي يحسب لها ألف حساب مؤيدة له لقرابته من شيخها عبد الرحمان بن رضوان[1] .

أما مولاي محمد فقد رأى أنه من الأفضل تغيير سياسته بالتحالف مع الدولة الجزائرية فاتصل بالأتراك، وأعلن الولاء، وأمضى معهم معاهدة تبرز ارتباطه بهم، وهكذا نجد بأن هؤلاء الأمراء بدل أن يحافظوا على سيادة الدولة أصبحوا ألعوبة بيد القوى المتصارعة على أملاكهم.

وهذا ما جعل مولاي عبد الله، يعود إلى وهران مع ما بقي من الجند الإسباني، والقبائل العربية، و لم يكتف، بطلب النجدة من الكوديتي، بل انتقل إلى اسبانيا ملتمسا المساعدة من شارل الخامس، مما جعل الصراع يشتد بين الجزائر واسبانيا.

- أثر الصراع بين ولاة الجزائر وشارل الخامس على الدولة الزيانية:

يبدو من خلال الوثائق التي استطعنا الإطلاع عليها و المتمثلة في التقارير والرسائل المتعلقة بعهد السلطان مولاي محمد وعلى الخصوص الفترة الممتدة بين حكم خير الدين على تونس941هـ/1534م[2] واحتلالها من طرف شارل الخامس1535/942م أثرت على سياسة أمراء الدولة الزيانية لأن أحداث المغرب الإسلامي يؤثر بعضها على البعض الأخر.

فالتنافس بين الخلافة العثمانية والإمبراطورية الأسبانية لم يكن مقتصرا على الجزائر فقط بل شمل تونس أيضا ولذا فإن السيطرة على تونس من قبل

1- الرسالة المؤرخة، في 1535،9،5، p21-140.

2- MEMORIAL historico Gamra Cronica, Francisco de Barbarrajo, en Espagnol, Madrid 1851, P 516

خير الدين أثر في علاقة الدولة الزيانية بأطراف الصراع والرسالة من قبل حاكم وهران إلى الإمبراطور شارل الخامس[1] Charles V تنص على أن مولاي محمد كلف أحد قادته وهو شيخ حميان (كذا)[2] بالإتصال بالإسبان ولكي يتعرف على نواياهم تجاه الدولة الزيانية وقد أخبر صاحب الرسالة أن مولاي محمد لا يريد الإرتباط بإسبانيا وأن العمل الذي قام به والمتمثل في إرسال وفد إلى وهران الهدف منه ربح الوقت في انتظار مساعدة ستصله من مدينة الجزائر. فهو من جهة يتصل بحاكم وهران ومن جهة أخرى ينتظر وصول المساعدة من قبل خير الدين الذي كان خلال هذه الفترة مشتغلا باحتلال تونس ولعلّ هذا ما دفع بمولاي محمد إلى الإتصال بالإسبان في وهران حتى يضمن عدم محاربتهم له، لتعاونه مع الدولة الجزائرية.

إلا أن النصارى استغلوا فرصة تواجد خير الدين في تونس ثم ذهابه والانتقال إلىالقسطنطينية فقاموا بحملة ضد تلمسان سنة942هـ/ 1535م.

1- أنظر رسالة 943 هـ،1534 de licenc Amelorejo Correjidor d'Oran a sa majest I, Emperador,

2- ولعل المقصود به حميان وهؤلاء من بني يزيد بن عبس بن زغبة، كانوا يقطنون أرض الحفرة، لمزيد من المعلومات عنهم أنظر أبو راس عجائب الأسفار ورقة 15.

- الحملات التوسيعة الإسبانية على تلمسان ومستغانم:

1- الحملة الأولى عــلى تلمسان:1535/942.

تندرج هذه الحملة ضمن الحملات التي ستقوم بها إسبانية ضد عاصمة الدولة الزيانية، والهدف الأساسي من تسييرها هو إبعاد السلطان مولاي أحمد أبو زيان الثالث عن تلمسان، الذي كان مواليا للدولة الجزائرية، وتنصيب منافسه مولاي عبد الله الذي أعلن ارتباطه بالإسبان، مما جعلهم يقدمون له يد المساعدة التي تمثلت في فرقة عسكرية وأربع مدافع، في انتظار توافد القبائل الموالية للإسبان، بفرسانها لتقوية الحملة بعد أن اتصل بهم حاكم وهران الكوديتي الذي جعل قيادة الحملة لأحد القادة الإسبان مارتيناز[1].

وعندما وصلت الأخبار لمولاي أحمد عن تحركات الأسبان، واتجاههم نحو تلمسان، عمل من أجل إيقاف الحملة، قبل وصولها لعاصمة الدولة، فأرسل مزوره المنصور بن غانم الراشدي، لمضارب بني راشد من أجل تجنيدهم، ضد الأسبان وإغداق الأموال على أعيانهم، وكبار شيوخهم، كما فعل أيضا مع القبائل التي كان يخشى موالاتها للأسبان بعد أن علم بوصول رسائل لهم من قبل الكوديتي، طالبا منهم مساعدة مولاي عبد الله، وقد استطاع المزوار أن يحقق نتائج إيجابية، وعلى الخصوص عدم ضمان مشاركة القبائل في القوة الإسبانية، فاعتبر ذلك أول ضربة قاضية توجه لهذه الحملة[2].

1- قرار تعين الكوديتي مرتين فرناند يزالقرطبي بدون اليوم والشهر El Caudete Marten S imam Cas Secritaria est . de Le gajo n 234- . 2 Fernandez de Cordoba 1535 ،943 P .237

2- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص316 . انظر أيضا «Brunel (Camille) Guerra de Tlemcen», BSGO, 1891 P 227

أما قائد القوة الإسبانية، فقد اتضح له الخطر المحدق به وعلى الخصوص أنه لم تصل إليه الإمدادات التي كان يأمل في وصولها إليه بين الحين والآخر، وقد قطع المسافة بين وهران ونهر زير الذي يخترق سهل سيرات، ولم تصله خلال هذه الرحلة أي إمدادت، ومما تبين له بأن القبائل الموالية للأسبان نقضت العهد الذي ينص على إمداد هؤلاء بالرجال وما يحتاجون إليه من المؤونة، عند تحركاتهم وعلى الرغم من ذلك فان قائد الحملة[1]، كان مصرا على الوصول إلى تلمسان، مهما كانت الخسائر، لأن حسب ما أورده مرمول بأنه سرح للقادة الذين طلبوا منه التريث حتى يتضح الأمر، أجابهم بأن قومه لايولّون الأدبار أبدا[2] لكن هذا غير صحيح، لأن الظروف السياسية في المغرب الإسلامي هي التي جعلت هؤلاء لا يولّون الأدبار، لأن سلاطين الدول المغربية في أعزّ قوتها مثل ماكان عليه الحال، في عهد السلطان يوسف[3] بن تاشفين وأبو يعقوب المنصور، فإن الذين يولّون الأدبار هم الإسبان، وعندما دخلت هذه الدول عصر الإنبطاح أصبح الذين لا يولون الأدبار هم الإسبان وحتى في هذه المرحلة عندما تكون القيادة في مستوى الحدث يكون النصر لصالح القوة الإسلامية.

1– عن هذه الحملة: أنظر: رسالة الكودتي، الأمير تلمسان، مولاى بن محمد مؤرخة في934هـ،1535. Loz 29 F 107

2– مرمول، المصدر السابق، ج2 ، ص324.

3– من اشهر المعارك التي خاضها السلطان يوسف بن تاشفين معركة الزلاقة 1479أنظر ابن الاثير الكامل، 13ج بيروت1965، ص 151، من أبرز انتصارت أبويعقوب المنصورالموجود معركة الارك591، لمزيد من المعلومات عنهاأنظر بن عذاري البيان ج 5 ص.136.

- **مراحل الحملة: حملة 943هـ/1535.**

تقدّم مارتناز إلى نهر ستان حيث قضى الليلة وفي الصباح استمر في سيره حتى وصل إلى تفيدا التي تقع ضمن مضارب بنى راشد غير بعيدة عن القلعة، وفي محيطها وقعت المعركة الحاسمة بين الأسبان والقوة الزيانية بمساعدة قبائل الناحية، وبما أن قوة المغاربة حسب ما ذكر مرمول[1] كانت كبيرة، بينما القوة الإسبانية لا تزيد عن ستمائة جندي عمد القائد إلى التحصن بخرائب[2] المدينة لكي يضمن عدم ضربات فرسان القبائل، وحتى الفرقة الزيانية التي رافقت مولاي عبد الله، فضلت هي الأخرى التخلي عنه والانضمام لاخوانهم من المجاهدين، وهذا رأي مرمول كان من بين عوامل الهزيمة التي ألحقت بالأسبان.

أسباب فشلها: ويعتبر مرمول كعادته « أن عوامل الفشل لا تعود لقوة المسلمين الذين واجهوا الأسبان، بل لأخطاء القيادة الإسبانية، لأنه كان في إمكانها التحصن، وأن لا تدخل في مواجهة حتى تصل الإمدادات من مدينة وهران»، لكن من يضمن وصول الإمدادات؟، لأن وهران والمرسى الكبير كانتا تعانيان من قلة الإمكانيات المادية، والبشرية، ويتجلى دلك في التقارير المرسلة لملوك إسبانيا، وأنه لا يمكنهم القيام بأي عمل إلاّ بمساعدة الجند، والمتطوعين الذين يقبلون من إسبانيا، وعلى الخصوص المدن الجنوبية، كمالقة، والمرية، ومما يؤكد ذلك أن الكودتي قبل قيامه بحملة 950هـ/1543م على تلمسان ذهب لإسبانيا لتجنيد الجند.

1- مرمول، المصدر السابق، ج 2، ص307 .

2- هذه المدينة ورد ذكرها في الوثائق الإسبانية باسم تبيدة ،كانت موجدة على ضفاف وادي يسر ، بالقرب من تلمسان أنظر (Brunel (Camille Op. cit 296.

أما من حيث الجانب الإسلامي، فإنه في إمكانهم الحصول على إمدادات أخرى، وبذلك يمكنهم القضاء على الأسبان في مكان تحصينهم، يكون كلام مرمول غير صحيح بالنسبة للجانب العسكري بل محاولة منه للتقليل من قوة المسلمين كما فعل عندما تعرض للهجمات الإسبانية على الجزائر.

وهذه المعركة أكدّت أيضا بأن الصراع لم يكن مقتصرا على أمراء الدولة من جهة، والقوة المتنافسة على عرش بني زيان من جهة أخرى بل امتدّ إلى قبائل الناحية، ففي الوقت الذي وقفت فيه بطون بنى عامر، إلى جانب شيخها عبد الرحمن بن رضوان في معركة تيفاد سنة **943هـ/1535** فإن المنصور بن غانم الراشدي جمع هو الآخر قوة من بنى راشد، لمواجهة ابن رضوان وحلفائه من الأسبان الذين بلغ عددهم حولي ستمائة بعضهم قتل في المعركة بينما فرّ ما تبقي، و يتجلى لنا ذلك، من الرسالة التى بعث بها الكودتي إلى الإمبراطور شارل الخامس[1] لإطلاعه على الخسائر التي لحقت بالقوة الإسبانية في هذه المعركة، وقد أخبره أيضا بأنه وصلته معلومات من تلمسان، عن طريق أحد اليهود تتعلق بالإمدادات التي وصلت عاصمة الدولة من بنى راشد، كما زوده بقائمة الأسرى الأسبان وقلعة بنى راشد تجمع بها حوالي ألفي شخص من الرجالة والفرسان، لوقف أي هجوم قد يشنه الإسبان وحلفاؤهم على مضاربهم وعلى الخصوص من طرف بنى عامر.

وتحسّبا لتأثير هذه المعركة على نفوذ الأسبان عمد الكوديتي إلى الاتصال بشيوخ القبائل ،وفي نفس المدة رحل خير الدين إلى الأستانا وتذبذبت سياسة

1- CCes .P.R, Vereuil, de la Can Perence qui a eu lieur. Lettre de Comte d'Alcaudet au cheikhs arabes du parti de Ben Redouan, Pour la reddiation des Otages, Arch. de simancas, et de legajo 463 14، P 95.4، 1536.

أصحاب تلمسان والبايلاربيات كما عرفت هذه السنة «1535/941» تطورات كبيرة بنسبة للقوتين المتنافستين على ملك بني زيان والصراع بين مولاي محمد ومولاي عبد الله على العرش وعلى الخصوص بعد فشل الأسبان في إزاحة مولاي محمد أو ربطه بالإمبراطورية الأسبانية لأن هذا الأخير أصبح يلعب على الحبلين باستغلال أوضاع الدولتين الأسبانية والجزائرية ومما يؤكد ذلك أنه عندما علم بنجاح الحملة الأسبانية على تونس سنة «1535/942» خشي أن يؤثر ذلك عليه لعلاقته بالدولة الجزائرية فاتجه نحو الأسبان ووافق على معاهدة أغلب بنودها لصالحهم لأنه لا يوجد لديه حل آخر فخير الدين استدعي من طرف سلطان الخلافة العثمانية لتولي قيادة أسطولها، وأن خليفته لم تتضح بعد سياسته، لذا فإن الموافقة على المعاهدة هي ربح للوقت لا غير، وبالفعل وصل نص المعاهدة إلى تلمسان يوم 25 سبتمبر 1535م فأمضي من قبله، ومن أهم بنودها أن مولاي محمد سيقطـــع علاقاته بالدولة الجزائرية، وأن لا يشارك في أي مشروع خاص باستعادة وهران وحتى يتأكد البند، اشترط الأسبان على مولاي محمد أن يكون أحد أبناء المنصور ابن غانم مزواره ضمن رهائن قبيلة بني راشد لدى الكوديتي حتى لا يشارك في حالة هجوم الجزائر على وهران.

كما نص الإتفاق على إطلاق سراح الأسرى الذين أسروا في معركة كيفدا سنة«1535/941م» وأن ذلك سيتم بعد ثمانية أيام من إمضاء المعاهدة لكن عندما تولى حسن بن خير الدين شؤون الدولة الجزائرية استمر في نفس السياسة التي سلكها خير الدين تجاه الأسبان، وأول عمل قام به الهجوم على مدينة أرزيو قريبا من وهران محاولا منه تجهيز حملة كبيرة لاستعادة وهران والمرسى الكبير بعد حصارهما برا وبحرا مما جعله يكاتب مولاي محمد طالبا

منه يد المساعدة وكذالك بنى راشد والحشم وبقية القبائل الموالية لمولاي محمد[1]، والدولة الجزائرية.

فهذه التحركات كان لها رد فعل من طرف شارل الخامس، الذي أدرك خطورة الوضع، بالنسبة للمراكز الإسبانية، فأمر مجلس الإمبراطور، بعقد جلسة خاصة، خلال شهر نوفمبر وديسمبر، خصصها لشؤون الدولة الزيانية، التي أصبح أميرها من أتباع الدولة الجزائريـــة، وأنّ تحالف الدولتان يشكل خطرا على اسبانيا ومصالحها في المغرب الإسلامي وعلى الخصوص المغرب الأوسط، لذلك اتخذ هذ المجلس قرارت ينص بعضها على مايلى:

أ: تقديم يد المساعدة لعبد الرحمن بن رضوان، وحفيده مولاي عبد الله لإزحة مولاي محمد عن عرش الدولة الزيانية.

ب: تزويد مدينة وهران بحولي ثلاثة آلف جندي وتحصين قصبتها، والحصون المحيطة بها وبالمرسى الكبير.

ج: تزويد الحصون بمدافع جديدة بعيدة المدى من المدن الإسبانية الجنوبية، لذا أصدر شارل الخامس أمرا لحاكم مالقا بارسال السلاح بأقصى سرعة مع مجموعة من الجند يكون تحت قيادة الكوديتي مباشرة، لأن وهران والمرسى الكبير عرفتا مضايقات من الأسطول الجزائري، الذي أصبح يراقب تحركات القوة الاسبانية، مما سيشكل خطرا عليها وعلى الخصوص ما يتعلق بالإمدادات التي كانت تصلها من المدن الجنوبية الإسبانية[2].

---

1 -lettere‹de chatelain‹au Comte d'El Caudete‹Tlemcen‹ 26janvier1536 estada Legajo‹463Primaudaie ‹Op.cit‹p.33.

2 -letter de d ALONSO de Cordoba a son pere le Comte d'Elcaudete ‹ estodo , Legajo 463 Oran ‹ 25 ‹12 ‹1536 P943.

أما ابن رضوان فقد تشجع لوقوف الأسبان إلى جانبه ولكي يضمن استمرار مساعدتهم له ولحفيده مولاي عبد الله، أرسل للإمبراطور رسالة ضمّنها قوله: أن مولاي عبد الله زار أتباعه بداخل تلمسان وخارجها، وأنّه تلقى مجموعة من الرسائل من أعيان المجتمع التلمساني وشيوخ القبائل الموالية لهذه الدولة، وكذ لك من بقية المدن الزيانية الأخرى، وأنهم سيقفون إلى جانبه لإزاحة مولاي محمد، لكن هذا الأخير استمر في موالاته للدولة الجزائرية، وهو ما تشير إليه الرسالة التي بعث بها الكوديتي للإمبراطور، بعد المعلومات التي تحصل عليها من جواسيسه المندسين في الجزائر، وقد ذكروا له بأن هناك اتصالات بين حسن آغا من جهة، والدولة الزيانية من جهة أخرى، فمولاي محمد كتب إلى حسن آغا طالبا منه يد المساعدة، للوقوف أمام مولاي عبد الله وحلفائه، من بنى عامر واستعادة وهران والمرسى الكبير، وقد تمّ ذلك خلال محاصرة عبـــد الرحمن بن رضوان لتلمسان، وكان يهدف من وراء ذلك الدخول إليها وتنصيب مولاي عبد الله، وخلال تلك المدة راسل شارل الخامس طالبا منه القيام بحملة على مدينة الجزائر، وأنه سيزوده بثلاثة آلاف من الرماة[1]، لكي يتمكن من القضاء على حلفاء مولاي محمد.

لكن يبدو ان الأمور تغيرت لصالح بن رضوان، وحفيده مولاي عبد الله لعدم وصول الإمدادات له من قبل حسن آغا، وحتى لا يفقد عرشه تظاهر بمولاة الأسبان، لكن الكوديتي أصبح لا يثق به فزاد في تدعيـــم مولاي عبـ . الله، وهو ما دفع به إلى الاتصال من جديد بالجزائر، مقترحا معاهدة عـى حسن آغا لكن هذا الأخير اشترط عليه إلغاء المعاهدة التي أبرمت بينه وبين

1- lettre du Comte d' El Caudete a sa majeste ، Oran ، 5 ، 6 ، 1536 ، ... arch de simancas estado legajo ، ...463

الأسبان «943 هـ/1535م»، مقابل تزويده بالجند وبعض المدافع، ولم تكن معاهدة سنة «1535/943» قد دخلت حيّز التنفيذ، مما جعل مولاي محمد يطلب من الأسبان تأجيل تنفيذها لمدة عشرين يوما لكي يتمكن من الحصول على الإمدادات من الجزائر أما مولاي عبد الله فكاتب هو الآخر للأسبان وطلب منهم مساعدته بخمسة عشر ألف رجل من أتباعهم، ومدافع لكي يتمكن من استعادة عرش الدولة الزيانية، وقد وافق شارل الخامس على مطلبه بعد أن زوّد الكوديتي بقوة عسكرية تقدّر بألفي جندي، كما أخبره بأنه سيقوم بهجوم على مدينة الجزائر، وطلب منه أن يتّصل بمولاي عبد لله وحلفائه من بني عامر لكي يتجندوا لمحاصرة الجزائر برا في الوقت الذي سيحاصرها هو بحرا.

بوصول هذه الإمدادات للكوديتي زاد الضغط على مولاي محمد، مما جعله يتقرب من الكوديتي ويوافق على إطلاق سراح الأسرى الأسبان وتقديم ما عليه من ضريبة الإمبراطور الإسباني، إلا أن الكودتي يريد إزاحته مغتنما فرصة سوء أوضاع الدولة، لأنها في هذه السنة عرفت أزمة اقتصادية نتيجة للجفاف الذي أصاب أراضي الدولة مما أدى إلى هلاك المواشي ونقص في الإنتاج الزراعي، زيادة على ماسبق أن مولاي عبد الله، اقترح على الكوديتي، في حالة تنصيبه على رأس الدولة الزيانية بعد إبعاد مولاي محمد أنّه سيقدم للدولة الإسبانية ثمانية عشر ألف دينارا بمجرد دخوله تلمسان وخمس عشر فيقية Fangues من القمح وخمسة آلاف فيقية شعير وخمسمائة ثور، زيادة على المساعدة التي ستقدم من القبائل الموالية له:

كما يضمن تقديم المواد الأولية والعمال لبناء حصنين في كل من أرزيو، وأرشقول وإمضاء معاهدة تقترح اسبانيا بنودها.

أما الدولة الجزائرية فكانت هي الأخرى على علم بهذه الاتصالات بين مولاي عبد الله والأسبان بواسطة عيونها، مما دفع بحسن آغا أن يحضّر هو الأخر سنة1540 لمشروع جديد يتعلق باستعادة وهران من الإسبان، وجنّد كل الإمكانيات المتوفرة لديه والمتمثلة في الأسطول الجزائري وأتصل بخير الدين لكي يقدم له الدعم حتى تتم محاصرة وهران والمرسى الكبير بحرا وبرا بواسطة القوة الجزائرية والزيانية مع حلفائهما في المنطقة.

وحتى يضمن نجاح المشروع عمد حسن آغا إلى احتلال برشك[1] واتخاذها قاعدة بحرية إلى جانب تنس ومستغانم لإيصال الإمدادات للقوة المهاجمة بأقصى سرعة، ولضمان استقرار الأوضاع الداخلية وتعاون الأمراء معهم أتصل بابن القاضي شيخ إمارة كوكو فأخبره بالمشروع وحثه على المشاركة وفعل ذلك مع مولاي محمد فأتصل به بواسطة محمد رايس واقترح عليه عدم السماح للقوافل التجارية المتجهة من تلمسان إلى وهران وإقليم بني راشد نحو وهران، أيضا في نفس الوقت تقوم السفن الجزائرية بمراقبة تحركات الأسطول الإسباني ولكن على الرغم من المساعدة المقدّمة من قبل بني زيان للدولة الجزائرية، فإن مولاي محمد أصبح يشعر بنهاية دولته لكثرة الطامعين فيها، فالوطسيون يريدون ضمها لدولتهم، وعلى الخصوص الأراضي الواقعة غرب تلمسان، وحتى حسن آغا يريد التخلص من بني زيان لكي يتم له توحيد

1- برشك من المدن الهامة على الساحل الجزائري بين تنس وشرشال لعبت دورا هاما في المبادلات التجارية بين الدولة الزيانية والدول الأوروبية وهي من مراكز مغراوة ويعتقد بعض الباحثين بأنها غير بعيدة عن جورايا حاليا.

الجزائر، لكن أكبر المشاكل التي سيواجهها هم الأسبان الذين رأوا في استلاء الدولة الجزائرية على تلمسان خسارة مادية تقدر بمائتي دينار ذهبية، وهي الأموال التي كان من المفروض أن يسدّدها مولاي محمد لصالح الأسبان في شهر جويلية1541.

2- حملة1541 على الجزائر وتأثيرها على إمارة بني زيان:

في الوقت الذي كان فيه حسن آغا يتهيأ للاستيلاء على دولة بني زيان كان الإسبان من جهتهم يحضّرون لحملة ضد الجزائر وقد علم بذلك حسن أغا فاتصل هو الأخر بمولاي محمد[1] طالبا منه أن يأخذ حذره من القوة الأسبانية.

في تلك الأثناء كان شارل الخامس يهيء نفسه للقيام بالضربة القاضية ضد مدينة الجزائر التي تعتبر من أكبر القواعد الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي المسيحي، ولذا عرفت في أغلب الوثائق بدار الجهاد منذ تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة 924هـ/1518م إلى الاحتلال الفرنسي 1830/1246، أن هذه القلعة سيكون لها تأثير سلبي في مشاريع شارل الخامس الذي يريد تنصير سكان المغرب الإسلامي تماشيا مع وصية الملكة إيزبيلا، لكن الجزائر وقفت موقفا شجاعا حيث تحطمت على صخرتها أحلام الإسبان وأصيب شارل الخامس بأكبر هزيمة لحقت بالتّاج الإسباني بصفة عامة وشارل الخامس بصفة

1- رسالة الكوديتي إلى شارل الخامس مؤرخة في 24،12،1540 أنظر A.G.S Estado leg 468. أنظر أيضا: مولاي بلحميسي ،غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر 948هـ،1541. بين المصائر الاسلامية و المصائر العربية مقال بمجلة تاريخ و حضارة المغرب ع 6-7- 1969. ص ص 34-56.

خاصة، حيث فقد في معركة الجزائر«948هـ/1541»[1]، أكبر قادته العسكريين وأسطوله البحري.

رفعت الهزيمة مكانة الدولة الجزائرية داخليا وخارجيا ففي الداخل تعهد السلطان الزياني إلى الارتباط بالدولة الجزائرية، وتسليم قلعة المشور لحسن آغا[2] قائد النصر على الجيوش الإسبانية، إلا أن هذ الأخير لم يكن يثق فيه لأنه سبق له أن وقف مع الأسبان ضده، وأن هزيمة هؤلاء هي التي أجبرته لموالاته، وهو ما دفع به إلى الاتصال بمنافسه ابو زيان أحمد الذي كان في البداية مواليا للقوى الإسلامية، إلا أن ضغط جدّه عليه جعله يتجه إلى الإسبان لكن حسن آغا رأى بأنه هو الأفضل فارتبط به.

3- الحملة الثـــانية على تلمسان:950 -1543

هذا فيما يخص الفترة التي سبقت حملة 1543، أما الحملة فإنّها تعتبر من أبرز الحمالات التي أدت إلى احتلال تلمسان من طرف الكوديتي، والقيام بها يرجع إلى عاملين أساسين:

1: استمرار الصراع بين أمراء الدولة، مولاي عبد الله، ومولاي أحمد، فعندما فشل الأول في استعادة كرسي الحكم بتلمسان فضل الانتقال إلى وهران طالبا يد المساعدة فقدّم له الكوديتي فرقة من الجيش، كما طالب من شيوخ القبائل المتحالفة معه الالتحاق به، ثم تقدم على رأس هذه القوة إلاّ أنّه فشل في الوصول إلى تلمسان فتعرض له المنصور ابن غانم، وتمكن من تشتيت قوته

1- Primaudaie Documents inédits sur l'histoire de l'occupation Espagnole en Afrique 1506 1574 R.A 1875 PP 169-175.

2- Bargest (J-J-L .) Complement de histoire des beni zeiyan p.

بوادي سنان، فعاد أدراجه إلى وهران، لكنه لم يجد الترحيب من الكوديتي الذي يبدو أنّه اتّهمه بأنه وراء الهزيمة التي ألحقت بالقوة الإسبانية (1535م)، مما جعله يتجه مباشرة لإسبانيا طالبا يد المساعدة من شارل الخامس الذي كان يعمل من أجل الثأر لهزيمته أمام مدينة الجزائر، فاستغل وصول هذا الأمير، لكي يحاول من خلاله القضاء على نفوذ الدولة الجزائرية بتلمسان واستعادة النفوذ الإسباني في أراضي الدولة الزيانية، بعد أن تأثر نتيجة الحملة949هـ/ 1541م، لذا كاتب الكوديتي في وهران طالبا منه تسخير كل إمكانياته لصالح مولاي عبد لله.

2: إن الهزيمة التي لحقت بالقوة الإسبانية بوادي سنان كان لها تأثير في الكوديتي، فرأى بأن إرسال القوة الإسبانية وتولي قيادتها بنفسه سيكون لها أثر في محو الهزيمة، وحتى لا يقع في الأخطاء السابقة عمد إلى تحضير هذه الحملة فاتصل بملك إسبانيا وطلب منه تزويده بأربعة ألآف جندي، منهم أربعمائة فارس لكي يتمكن من الاستيلاء على عاصمة الدولة الزيانية تلمسان.

ولمواجهة هذه الأخيرة، عمد الكوديتي إلى اتباع الوسائل الآتية:

1: إحداث الفتن بداخل البلاط الزياني، وبين القبائل الموالية لمولاي أبي زيان، حتي يؤدي إلى إضعاف قواته.

2: تحصين حصن أرزيو وارشقول، لكي لا يستغلا من قبل القوة الجزائرية إثر فترة خروجه من وهران.

3: تزويد الجيش بالآلات الضرورية التي تستعمل في تهديم الأسوار والتحصينات.

- **تحديد تاريــخ انطلاق الحملة**

خرجت الحملة من وهران في 27 جانفي بقيادة الكوديتي ثم توقفت بمسرغين انتظارا لوصول الموالين للإسبان من شيوخ القبائل المجاورة لوهران، وفي 31 جانفي وصل الجيش إلى عين تموشننت فتوقف بالقرب من شعبة اللحم، في نفس الوقت الذي كان سوق الخميس منعقدا، مما جعل الجند يشترون ما يحتاجون إليه من الأحذية[1].

وقد التحق بنفس المكان قائد الجيش الزياني إبراهيم الزياني، فهاجم القوة الإسبانية بالليل، على إثرها تحركت القبائل القاطنة بالجبال المجاورة لعين تموشننت.وأعلنت الجهاد ضد الإسبان[2].

كما وصلت معلومات لقائد وهران بأن المنصور بن غانم في انتظار الإسبان مع قوته[3] وعندما وصل الجيش الإسباني إليه بدأت المعركة بين الطرفين على الساعة الثامنة من نفس اليوم، وقد دخل الإسبان المعركة بقوة تتألف من ألف وخمسمائة جندي، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية تعتبر شعبة اللحم الخط الدفاعي الأول للقوة الزيانية على طريق تلمسان وهران وهذا منذ «924هـ/1535م» حيث عمد المنصور بن غانم بتكوين حاميات متواجدة في كل من البطحاء[4] تيفادة لتوقف تقدم الأسبان.

1- Cueva, Op cit . P .243

2- Ibid، P 244

3- Cueva.Ibid , P 245،

4- البطحاء فضاء واسع عرفها أبوراس ببطحاء سيرات لا نعرف موقعها ولا تاريخ تهديمها لكن يبدو أنه كان خلال حكم الإسبان لمدينة وهران ،أنظر أبوراس عجائب الاسفار ورقة 93.

في "950هـ/2،2،1543م" وقعت أيضا معركة بين الإسبان والمنصور بن غانم في تيفادة[1]، وبعدها استمرّ تقدم الإسبان بالرغم من الإصابات التي لحقت بهم في هذه المعركة.

وبعد يوم من انتقالهم من البطحاء هاجمتهم القبائل العربية التي جندت ثمانمائة رجل، واستمرت المعركة طوال الليل، ثم تقدم الجيش الإسباني إلى وادي يسر[2]، خلالها عمد الإسبان إلى ترك قوة في سفوح تلك الجبال لحماية قوتهم الإسبانية عند اجتيازها النهر حتى لا تباغتهم من المؤخرة.

وفي ذلك المكان وقعت معركة بين القوة الزيانية والإسبانية، أما فيما يتعلق بتلمسان فإن سكانها قد خرجوا عنها يومي4 و5 فيفري مع أطفالهم ونسائهم واستقروا بالجبال المجاورة لها[3] ولم يبق بالمدينة إلاّ حوالي ألفي شخص بين الأهالي وأفراد الجالية اليهودية كما ترك مولاي محمد تلمسان يوم الثلاثاء1543/2/6 قبل وصول الجيش الإسباني لها، مما سهّل مهمة الكوديتي في الاستلاء عليها وبعد دخولها استقر بالمشور إلى جانب مولاي أبو عبد الله الذي تولّى حكم الدولة الزيانية للمرة الثانية وقد إحتفل باستعادة عرشه فتزوج من بنات أكابر تلمسان والسبب في ذلك هو محاولة منه التقرب من أعيان المدينة الذين لهم تأثير في المجتمع التلمساني، لأن ما قام به سيؤثر في علاقته بهم وهو ما حدث بالفعل، لأنه بمجرد خروجه من تلمسان لمحاربة أخيه مولاي أحمد الذي كان بجوار تلمسان، غلق السكان أبوب مدينتهم حتي لايرجع

1- عرفت أيضا بمعركة وادي الضعيف تيفاد تتع بالقرب من هذا الواد، أنظر، مرمول المصدر السابق، ج2، ص 316 .

2- وادي يسر يقع على الطريق الذي يربط بلعباس بتلمسان عن هذا انظر Ruff (P)، OP cit P .88

3- Ibid، P 88.

إليها، وهو ما يؤكده صاحب النص بقوله: « ولما خرج أبو عبد الله لقتاله ورام الرجوع منعه أهل البلد من الدخول وأعلنوا عليه التحالف مع القوة الأسبانية»[1] لأن هؤلاء عندما دخلوا المدينة أساءوا لها ولسكانها، ولمقدساتها الإسلامية، ولذا اعتقد بأن الذين كانوا وراء هذه الحملة أنصار الدولة الجزائرية، وعلماء تلمسان الذين سبق لهم أن تحالفوا مع قبائل الناحية للوقوف أمام الأسبان، وعندما خرج منها الأسبان، عادوا لتلمسان وعارضوا أميرها، وهوما جعلهم يصرحون له ويقولون "يا خادم الروم إذهب عندهم"، ثم فتحوا الأبواب لمولاي أحمد بعد ابتعاد مولاي عبد الله عنها نحو قبائل أنجاد الذي سبق له أن تحالف معهما وكان يعتقد استمرار موالاتهم له، وعندما وصل إلى مضاربهم ألقوا القبض عليه وقتلوه ثم بعثوا برأسه إلى الأمير الزياني.

ويبدو لي أن حركة سيدي يعقوب شيخ زاوية ندرومة لعبت دورا بارزا في القضاء عليه، لأنه تمكن من خلق تحالف بين قبائل، طرارة، ووجدة وأنجاد، لمواجهة القوة الإسبانية التي بها مولاي عبد الله لاحتلال عاصمة دولته، ولعل هؤلاء قد أصدروا فتوى في شأنه اتهموه فيها بالإرتداد عن الإسلام لتعاونه مع النصارى ضد المسلمين هذا فيما يتعلق بالسلطان الزياني.

أما الأسبان فإنهم قد واجهوا مقاومة شديدة قد حققت نتائج مرضية حالت دون خروجهم من تلمسان لأن مشروعالكوديتي ينص على احتلال كل أراضي هذه الدولة ،وربط تلمسان بالمراكز الإسبانية في كل من وهران والمرسى

1- ابن زرفة المصدر السابق76.

الكبير ومليلة[1] إلا أن تزعّم رجال الطرقية المقاومة أدى إلى تجنيد كل القبائل المجاورة لتلمسان وتحقيق بعض الانتصارات على القوة الإسبانية التي حاولت أن تتوسع خارج عاصمة الدولة، وهو ما دفع بالكوديتي أن يأمر قوته بالانسحاب يوم **1543/02/26** بعد أن كبّله أبوعبد الله بمعاهدة تنص على أن يكون الأمير من أتباع الإسبان مع دفع ضريبة سنوية تقدر بأربعة آلاف دينار ذهبية.

أما الخروج من تلمسان فكان يوم الثلاثاء **1543/02/28**، رفقة المرضى والمعطوبين من جنده الذين أصيبوا خلال المعارك السابقة، وعند عودته واجه صعوبات منها الغارات المتواصلة على مؤخرة جنده مثلما حدث عند واد الصفيصف.

نتائج المعركة تتمثل فيما يلي:

أولا: أن السيطرة على تلمسان سمحت لمولاي محمد باستعادة عرشه مقابل الخضوع للشروط الإسبانية التي أقرّتها المعاهدة التي أبرمت بين مولاي محمد والكوديتي منها تمويل وهران بالمواد الغذائية وإعادة دفع الضريبة التي كانت تقدم من أمراء الدولة للأسبان[2].

ثانيا: أن هذا الإنتصار سمح لحاكم وهران أن يحضّر الضربة الثانية، والتي حّدد ميدانها مستغانم لأهميتها[3].

1- توجد لدينا رسالة للكوديتي تتعلق بهذه الحملة أرسلها من تلمسان لشارل الخامس مؤرخة في 08،02،1543 ذكر فيها خروج مولاي محمد من تلمسان بالتدقيق أنظر: A.G.S . Guerra Antigua leg 26 Fol 93.

2- uff (F), Op.Cit. p 106

3- Cueva , la guerre de tlemcen, P P 350 - 353 .

4- الحملة الأولى:

* حملة مستغــانم950 هـ/1543م

أعطى الكوديتي هذه الحملة أهمية كبرى، فقد أرسل تقارير إلى دولته تؤكد خطر مستغانم على وهران وقال بالحرف الواحد: «لو بقيت مستغانم بيد القوة الجزائرية فإننا سنتحول إلى عبيد لهم لقربها من المراكز الإسبانية».

تعرضت الوثائق الإسبانية لهذه الحملة وحددت تاريخ انطلاقها بيوم15 مارس 1543 أي بعد 15 يوما من عودة الكوديتي من تلمسان والقوة المشاركة فيها تتألف من7 آلاف من المشاة و160 من الفرسان وأن هناك قوة لحلفاء إسبانية كان من المفروض أن تنضم إليهم حسب الاتفاق مع شيوخ قبائل الناحية وخاصة قبيلة مديونــة التي شاركــت بــ: 300 فارس بينما المنصور ابن غانم و حميد العبد رأى في وقوفهما إلى جانب الأسبان تأثيرا سلبيا عليهما، مما جعلهما ينضمان إلى المسلمين[1].

وفي اليوم الموالي سار الجند حسب الأوامر التي أعطيت لهم مما جعلهم يبتعدون عن مطاردة سكانها، وفي اليوم الثالث اجتازت القوة وادي تبد، ولم تصطدم بالقبائل العربية، لكن في اليوم الرابع غيّروا طريقهم فاصطدموا بالسكان، فوقعت معركة بينهم وبين تلك القبائل، قتل فيها أكثرمن ثمانين فارسا من الأسبان.

1- عن حملة مستغانم أنظر Gueva op.cit pp125-147 وقد ورد في رسالة لأحد قادة الجيش الأسباني مايلي بعد المعركة: «وقطعنا القنطرة الواقعة على أحد الوديان القريبة من المدينة، ثم وصلنا إلى مكان تمركز القوة الإسبانية» Leon l'African, Description de l'Afrique, ed Epaulard تعرض للأهمية الإستراتيجية والإقتصادية لمستغانم في بداية القرن 16 p343 et Ch de La Verenne memorial de liego del costelle salire la costa de berleria en 1532 dans romera je p 509.

وإن الجيش كان بطيء الحركة لوجود معطوبين بين صفوفه[1]. كما ذكر صاحب الرسالة من المرسل إليه أن يقوم بتجنيد الجند لمساعدتهم، وأن الظروف صعبة للغاية، لأنه لم يبق للأسبان سوى ثلاث عشرة سفينة، واحدة بالمرسى الكبير وبعض السفن معطلة للعطب الذي أصابها وأن عدم تصليحها من قبل البحريين الذين لم يوجّهوا لتلك السفن عناية، والإسبان كعادتهم يتعرضون إلى عوامل فشلهم لكنهم لم يكونوا موضوعيين ويحاولون التقليل من دور الفرد الجزائري، لذلك جعلوا من فشلهم الذي أصابهم بمستغانم، أنه ناتج عن ظروف الطبيعة لأن صاحب الرسالة تعرض إلى الأمطار والثلوج التي أثرت في تحركات الجند، وكذلك الهجمات المتواصلة من قبل القبائل، الذين كانوا يعمدون إلى حرب العصابات لضرب القوة الإسبانية من الخلف[2].

كما أرجعوا أسباب الهزيمة إلى الخطة التي سلكها قائد الحملة، في تنقلها إلى مستغانم بعد نجاح الحملة الإسبانية على تلمسان، دون تحضير الجند للقيام بالحملة كما حدث بالنسبة لتلمسان، فالقوات منعدمة، والأسلحة الثقيلة غير موجودة، وبذلك لا يمكن السيطرة على مستغانم، ومما زاد الطين بلة عدم وصول السفن المحملة بالمؤونة[3].

يضاف إلى ذلك دور السلطان أبي زيان الذي أعلن الجهاد في الأراضي التي تمتد ما بين فاس ومستغانم وهذا نوع من المبالغة، لجأت إليه إسبانيا وحتى القوة الزيانية، التي قدرتها بخمسة وعشرين ألف فارس وأكثر من مائة

1- نفس التقرير Legajo,30F36 أنظر: Moulai Bel Hmissi. Histoire de Mestaganem 1982. pp 71-74.

2- نفس التقرير ورقة 37.

3- نفسه ورقة 39.

وعشرة ألآف من المشاة، زيادة على ثلاثين ألف من بني راشد تحت قيادة المنصور بن غانم[1].

لكن الباحث يرى أن من بين عوامل انتصار القوة الزيانية أن المعركة كانت مصيرية بالنسبة للجزائر فلو سقطت مستغانم لما كانت هناك دولة جزائرية استمرت ثلاثة قرون، ولذا فهذا النصر بيّن بأن وحدة الأمة سيؤدي إلى النصر، أما الأسبان فقد وجدوا صعوبات في الاستيلاء عليها على الرغم من أن تحصيناتها أقل من تلمسان[2].

هذا فيما يتعلق بالزيانيين أما شيوخ القبائل الذين كانوا وراء انتصارات مستغانم فقد عادوا لسياستهم القديمة المعتمدة على الخيانة، فالمنصور بن غانم الراشيدي رفض من قبل السكان، لأنّه كان من بين عملاء إسابنيا، على الرغم من الدور الذي قام به في معركة مستغانم وهو ما جعله يتّصل بالإسبان في وهران، كما أتصل حميد العبد بهم، وبذلك نجد الشيوخ الذين كان لهم تأثير في المنطقة مثل حميد العبد، والمنصور بن غانم، وعبد الرحمن بن رضوان، لم يستفيدوا من انتصار مستغانم بل عادوا لسياسة الانبطاح، لأن المصالح الذاتية تتعارض مع قيام وحدة وطنية تقودها دولة قوية، تستطيع أن تلحق ضررا

1- إن الأراضي التي تمتد مابين فاس وتلمسان كانت تابعة للدولة الوطاسية و لعل بعض رجال الزويا شاركوا في هذه المعركة لإنها كانت رد فعل لما قام به الإسبان في تلمسان بالإساءة إلى الأماكن المقدسة ودور زاوية سيدي يعقوب في نواحي ندرومة في تجنيداها لإنجاد وطرارة وبني بزناس ضد الإسبان.أنظر:, Zavala (Francisco) e Bandera espanola en Argel Analisis historico de la dominacion espanol en Argelia desde 1500 a 1791.don Francisco Zavala Bandera es panida en Argel .

2- أنظر الرسالة السابقة المؤرخة في شهر فيفري 953هـ،1546 G .A .leze. F 30

بالأسبان، وهو ما سهل مهمة الكوديتي في الانتقام من القبائل التي كان لها دور في الحملة على مستغانم.

ففي شهر جوان من نفس السنة قام الكوديتي بحملة تتألف من عشرة آلاف جندي خرجت من وهران إلى وادي تليلات، ومنها إلى سهل الهبرة، لضرب بنى عروج (راشد) ناحية معسكر.

وخلال نفس السنة «1544/951» بدأت شخصية مولاي أحمد تظهر كطرف في الصراع.

ففي البداية وقف إلى جانب مولاي عبد الله واتجه معه نحو جنوب تلمسان بعد دخول مولاي محمد لها، وقد سبق لهذا الأخير أن أمضى معاهدة مع الأسبان ولعب اليهوديان عكسو وأكاكس (Acax et Axo) دورا بارزا في التقارب بين مولاي محمد والكوديتي وتحضير المعاهدة التي أمضاها السلطان الزياني في 1544/10/28 وأهم ما ورد فيها إبعاد المنصور ابن غانم عن الأتراك لكي يضمن ولاء بني راشد للأسبان لأهمية مضاربهم من الناحية الإقتصادية والإستراتيجية وأن مولاي محمد سيدفع لشارل الخامس ما قيمته خمسة آلاف دينار خلال سنة 1544.

وفي السنة الموالية ستكون قيمة الضريبة ثلاثة آلاف دينار بينما شارل الخامس سيقدم فرقة عسكرية لبني زيان يتراوح عددها ما بين ثمانمائة وألف شخص تستقر بالمشور لحراسة الأمير الزياني، وخلال تلك المدة كان شارل الخامس يفكر في حملة ثانية ضد مدينة الجزائر مما جعله يقترح على السلطان الزياني أن يقدم له أربعة آلاف جندي يحاصر بهم الجزائر برّا فأجابه بالموافقة وأنه لا يكتفي بإرسال جنوده بل سيقودهم بنفسه.

- **وفـــاة مـــولاي محمـــد 951هـــ/1544م.**

لم يتوقف الصراع بين أمراء بني زيان بعد وفاة مولاي محمد في ديسمبر 1544 بل زاد عمّا كان عليه نتيجة لتكالب هؤلاء على العرش.

وهناك شخصيتان سيكون لها دور في الصراع هما مولاي منغين الذي سبق له أن تولى قيادة الجيش الزياني في معركة تيفادة 1535 والتي حقق فيها انتصارا على الأسبان وحلفائهم من بني عامر، ثم الأمير الثاني هو مولاي محمد.

وقبل التعرض لهذا الصراع بين الأميرين، يجدر بنا تناول موقف باشوات الجزائر من حكام الدولة الزيانية، فقد استغل حسن آغا غياب الكوديتي في إسبانيا لتضييق الحصار على وهران وإنزال قوة بمستغانم مع قطع مدفعية لمساعدة أمراء بني زيان الذين أعلنوا معارضتهم للإسبان وغير بعيد على مضارب قبيلة مديونة يتواجد مولاي مغنين على رأس قوة عسكرية زيانية تابعة لمولاي محمد المتوفى سابقا وهذه القوة كانت لها علاقة جيّدة مع القوة الجرائرية في مستغانم، وقد سبق لباشوات الجزائر أن اقترحوا على مولاي محمد أن يتنازل له على مستغانم مقابل دفع ضريبة تقدر بحوالي سبعة آلاف دينار.

لم يكن بنو زيان هم الذين أعلنوا الولاء للدولة الجزائرية، بـــل نجـــد كبـــار شـــيوخ القبائل أمثال حميد العبد والمنصور بن غانم الراشدي، وخارج أراضـ الدولـــة الزيانية، عرفت هذه الفترة تحالفا بـــين الخلافـــة العثمانيـــة والفرنـــسيه واستمرار خير الدين في قيادة الأسطول العثماني مما منح دافعا قويا لحسن آغـــا في مواجهة الإسبان وبعض الأمراء الموالين لهم، وحتى يتمكّن هـــذا الأخيـــــر فـــي تنفيذ مشروعه المتعلق باستعادة وهران والمرسى الكبيـــر، رأى أنـــه مـــن

الأفضل الاتصال بخير الدين طالبا منه يد المساعدة، وفي نفس الوقت زوّد موانئ برشق وتنس ومستغانم بالمؤونة وبالأسلاحة لكي يضمن وصولها بسرعة خلال حصار المراكز الأسبانية.

هذا فيما يتعلق بحسن آغا أما بنو زيان فقد وقف أميرهم إلى جانبه وأعلن على تسخير كل الإمكانيات المادية والبشرية من أجل تحرير وهران، وهذا يوضح لنا تذبذب سياسة أمراء هذه الدولة تجاه القوتين المتصارعتين، ولم يكن هذا الأمر مقتصرا على بني زيان فقط، بل امتدّ إلى شيوخ قبائل الدولة حيث أعلن حميد العبد شيخ سويد والمنصور ابن غانم شيخ بنو راشد بأنهما سيشاركان إلى جانب قوتهما مع جيوش الجزائر وبني زيان عند محاصرة وهران والمرسى الكبير.

يضاف إلى ما سبق أن المناطق المجاورة لوهران أصبحت تحت مراقبة بني زيان حيث كانت قوة أبو الحرز تتمركز في تلك الناحية وقطعت كل المسالك المؤدية إلى وهران والمرسى الكبير وأن القبائل الموالية للأسبان كأولاد موسى توجهت نحو الواحات الصحراوية مما سهل مهمة القوة الزيانية في غلق الطرق المؤدية إلى وهران وعدم تمويل المدينة بالحبوب والمواشي التي كانت تحصل عليها من هذه القبائل.

من جهة أخرى قام الأسطول الجزائري بمراقبة تحركات السفن الإسبانية في حوض البحر الأبيض المتوسط وعدم السماح لها من الاقتراب من وهران والمرسى الكبير لإيصال الإمدادات لهما، وفي بعض الحالات حاولت هذه السفن الاقتراب من الساحل فواجهتها السفن الجزائرية التي انطلقت من ميناء أرزيو، فوقعت معركة بالقرب من وهران في نوفمبر «950 هـ /1543م».

كما عمد حسن آغا إلى ترك الجزائر والتوجه نحو أراضي بني زيان على رأس فرقة عسكرية شارك فيها الزواويون وعند وصوله إلى مضارب قبيلة سويد أنضم إلى هذه القوة أحد أبناء حميد العبد وهو عمر ابن حميد، كما ارتبطت به قوة بني راشد بعد اجتياز مضارب القبيلة.

وبالموازاة مع هذه القوات البرية أرسلت أيضا من الجزائر خمسة وأربعون سفينة من الأسطول الجزائري تحت قيادة صالح رايس ،أما الأسبان فعندما عجزوا في مواجهة هذه القوات دخلوا في مراسلة مع حسن آغا لعنهم يؤثرون عليه، كما كانوا يفعلون مع أمراء بني زيان، ومن بين تلك المراسلات رسالة جون مرتين Juan Martin مؤرخة في6 أوت «951هـ/1544م» والتي اقترح فيها على حسن آغا التخلي على الجزائر لصالح شارل الخامس مقابل تعيينه على رأس الجزائر وضمان استقلاليته عن الخلافة العثمانية ،إلاّ أن هذا الأخير أجابهم بأنه مسلم ولم يكن له التخلي عن إخوانه المسلمين.

- الاتفاق بين بني زيـــان و الأسبان لمواجهة حســـن آغا:

بعدما فشل الأسبان في التأثير على حسن أغا و كسبه لصفهم توجهوا نحو أمراء بني زيان محاولين بذلك فصل حسن آغا عن خلافته من بني زيان وكبار شيوخ قبائل هذه الدولة، ومما سهل مهمتهم أن سياسة حسن آغا تمثلت أيضا في محاولة جعل أراضي بني زيان تابعة للجزائر مباشرة، ولتنفيذ هذه السياسة الأسبانية أرسل مبعوثان يهوديان لتلمسان من طرف إسبانيا هم' أغوس واكسل فوصلا إلى تلمسان واتصلا بالأمير مولاي محمد واستطاع ن يتحصلا على اتفاق معه أمضي من طرف أمير بني زيان في 28 أكتوبر «951هـ/1544م» وبمقتضى هذا الاتفاق يدفع مولاي محمد لصالح الأسبان ما قيمته خمسة آلاف دينار كما أسلفنا من قبل.

وبعد نجاح الأسبان في فصل مولاي محمد على حسن أغا بدأ التركيز على انضمام شيوخ القبائل لهم وقد اغتنموا وصول وفد من تلمسان إلى وهران أرسله مولاي محمد للكوديتي طالبا منه مساعدته في الضغط على المنصور بن غانم كي ينفصل عن الأتراك،وبالفعل استطاع الكوديتي بوسائله المختلفة منها الإغراءات المادية تحويل المنصور ابن غانم وحميد العبد إلى جانبه والوقوف معه ضد حسن آغا.

ومما زاد الأمر سوءا أن حسن آغا توفي في «951هـ/12/02/ 1544م» وبعد أربعة أيام من هذا التاريخ دخل مولاي محمد إلى تلمسان معلنا توليه شؤون دولة بني زيان،أما مولاي أحمد وعمّ المنصور غانم فقد اجتمعوا ببطون بني راشد في مدينة معسكر وقد أنضم إليهم من كان موليا لهذا الأمير وبذلك استطاع شيخ بني راشد أن يحوّل كل بطون قبيلته لصالح مولاي محمد.

كما تمكن هذا الأخير أن يضمن ولاء السويد إلى جانبه وبعض القبائل الأخرى حيث اجتمع بهم سنة «952هـ/1545/02/22م» من القرب من تلمسان وبذلك ضمن موالاة أكبر القبائل، فزاد نفوذه و اشتد الصراع بينه وبين أمير تلمسان كما التحق به بعض أمراء بني زيان ومن بينهم مولاي أبو عبد الله الثابتي «952هـ/1545/04/28م».

أما المنصور ابن غانم فقد أعلن الحرب ضد مولاي أحمد، مما جعل هذا الأخير يتجه إلى الجزائر، طالبا يد المساعدة لمواجهة المنصور ابن غانم الذي استطاع دخول عاصمة الدولة، إلاّ أن دخوله تلمسان أدى إلى مواجهة بينه وبين التلمسانيين المولين لمولاي أحمد الذي تمكن في النهاية دخول تلمسان في 1545/07/02م بعد أن تركها مولاي مغنين المعروف بمولاي الحسن

وهـــو أحد أبناء المنتصر كما فرّ قائده إبراهيم المنتصر لمضارب أولاد طلحة طالبا منهم الحماية.

ومن خلال اطلاعنا على مجموعة من الوثائق توصلنا إلى أن المجتمع التلمساني عرف هو الآخر انقسامات مثل ما حدث بين أمراء هذه الدولة، ففي الوقت الذي وقف البعض إلى جانب مولاي أحمد عند دخوله المدينة تلمسان نجد البعض الآخر بزعامة رجال بالمدينة يعلنون عدم الاعتراف بسلطـــة بـــني زيان، والعمل من أجل ربط تلمسان بالدولة الجزائرية وقد انضم إلى هؤلاء الموظفين السامين في عهد مولاي المنتصر الذي أبعد عن الحكم.

- حكم مـــولاي أحمد ابن عبـــد الله:

في شهر جويلية من سنة 1545م دخل مولاي أحمد لتلمسان وأعلن الولاء للإسبان مما جعل هؤلاء يحضّرون له معاهدة لإمضائها، أهم بنودها أن يدفع لهم أربعة آلاف دينار كضريبة وثلاثة آلاف دينار أجورا للجند العاملين في بلاط بني زيان، وتجنيد عشرة آلاف لمساعدة الإسبان لاحتلال مستغانم .

أما الجانب الاقتصادي فكان التركيز فيه على حرية المبادلات التجارية وتزويد مدينة وهران بما تحتاج إليه من حبوب.

إلاّ أن هذا الاتجاه نحو إسبانيا دفع برجال الطرقية برئاسة السيد محمد أفوغال مقاومة مولاي أحمد لأنهم رؤوا في المعاهدة المبرمة بينه وبين الإسبان خطرا على القوة الإسلامية، وعلى الخصوص ما يتعلق بالجانب العسكري فأعلنوا الحرب ضد مولاي أحمد.

وهكذا تتشابك أطراف الصراع فبالإضافة إلى رجال الطرقية القوتين المتنافستين(الأتراك والإسبان).

لكن السؤال المطروح كيف واجه مولاي أحمد هذه القوة، وللإجابة على هذا السؤال رجعنا إلى مجموعة من الوثائق، وقد تبين لنا بأنه لم يقم بأي عمل لإيقاف هذا الزحف نحو تلمسان، بل ترك عاصمته وتوجّه نحو الوحات الصحراوية لأن الإمكانيات المتاحة له لم تسمح له بالمواجهة، كما فرّ مزواره إلى فاس.

أما رجال الطرقية الذين توجد لهم زوايا على الطريق الذي سلكته الحملة فإنهم أيّدوها ماديا ومعنويا، وحتى الزوايا المتواجدة في الجبال نزل شيوخها وانضموا إلى الحملة ودخلوا مدينة تلمسان مع حسن باشا في نهاية أكتوبر سنة1545م وبعد دخول المدينة نصّب مولاي عبد الله علـــى رأس دولـــة بنـــي زيان وقد تمّت مبايعته بالمسجد الأعظم، وبعد المبايعة فرضت عليه ضريبة جديدة يقدمها للدولة الجزائرية.

إن دخول الأتراك لتلمسان جعل الإسبان يشعرون بخطر على تواجدهم بالمنطقة لذا قبلوا مساعدة مولاي أحمد الذي سبق له أن اتصل بالوطاسيين طالبا منهم يد المساعدة، إلاّ أنهم اشترطوا عليه أن يقدم لهم أكثر مما كان يقدمه للأسبان.

ولتنفيذ طلب السلطان الزياني توجه الكوديتي إلى إسبانيا وأعلن لمسؤليه أن الستة آلآف وستة مائة جندي الموجودة في وهران غير كافية لتحقيق مشروعه المتمثل في احتلال الدولة الزيانية ومستغانم ولذا لا بد من تجنيد قوى عسكرية أخرى وتجميعها في كل من مالقا وطجنة وتنطلق منهما نحو هنين لاحتلالها للمرة الثانية.

أما نائب الكوديتي دون مرتين القرطبي الذي تولّى الإشراف على وهران والمرسى الكبير في فترة غياب الكوديتي استغل الصراع القبلي واتصل ببعض الشيوخ كالشيخ المسعود من أولاد بن توسمار ومحمد العربي شيخ بني عقبة وأولاد ميمون وأبو عزنار من تسالة وهي القبائل المعارضة للأتراك.

- عـودة مـولاي أحمـد:

عاد مولاي أحمد من الوحات الصحراوية نحو المناطق الشمالية فوصل إلى أراضي دبدو وعندما علم به حاكمها ألقى عليه القبض ونهبت الأموال التي كانت معه ثم أطلق صراحه «953هـ/1546/01/22م» وخلالها اتصل بـه المنصور ابن غانم وتوجها معا نحو مضارب أولاد سيدي إسماعيل وبها تلقى رسالة من الكوديتي أخبره فيها بأن أحد إخوان المنصور وهو محمد شيخ بني راشد والشيخ سويد وعمران من بني عامر إتفقا على تقديم المساعدة له وهذا ما دفع بمولاي أحمد أن يبعث برسولان لإسبانيا هما رزيق وزحاف لطلب المساعدة له من مالكها مقابل إرتباطه بهذه الدولة، ولكي يضمن هذا الارتباط أنه سيرسل أبناء شيوخ القبائل وأعيان الدولة التابعين له رهائن لدى الكوديتي.

إذا كان الجانب الإسباني قد تحرك لصالح مولاي أحمد فما هو موقف الجزائر؟.

يلاحظ عن موقف الجزائر أنه تجلى في مشروع استعادة وهران وإرسال قوة عسكرية لمواجهة حلفاء الإسبان بالناحية، وهذه القوة تصدى لها المنصور ابن غانم الراشدي، وقد استعمل في مواجهته لها ألفي جمل وأن النزال كان من فوق الجمال ولأول مرة في دراستنا للدولة الزيانية نجد معركة تشارك فيها الجمال إلى جانب الجياد وانتهت هذه المعركة لصالح المنصور ابن غانم، وقد

سقط في ميدنها ابن حاكم تلمسان الحاج والي والمزوار ابن العورة والقائد يوسف وأحمد زيان الكبير وابن العسكري وأحمد بن رضوان وأحمد بن طراد وابن عبد الله بن منصور شيخ زاوية عين الحوت وابن حدوش العبد الوادي وابن الملاح.

في آخر زيارة لنا لإسبانيا وجدنا رسالتين لهذا السلطان ترجع إلـــى هـــذه الفترة.

أولهما رسالة أرسلت مع وفد من موظفي الدولة الزيانية وهما أحمد بن صعد ويعقوب بن يفار اللذان كلفا بتقديم هدية من السلطان الزياني للإمبراطور الإسباني[1] جاء في هذه الرسالة «وعندنا سعادة كبيرة في مقامك العلي، فرحنا بمجيئنا وما هو يأمرنا مقامكم العلي أن نبقى هنا حتي اليوم الذي تأمرنا أن نمشوا نعرفه برسالتنا ونعطوه الهدية التي جئنا بها من عند مولانا السلطان»[2] نحن جئنا نخدم ولا نغير والمسألة هي خدمة مقامكم، فهذه الرسالة توضح لنا بأن الأمير الزياني قطع كل علاقاته بالأتراك وارتبط بالأسبان، ولكي يؤكد هذه التبعية أرسل وفدا إلى إسبانيا للاتصال بالإمبراطور، وتقديم يمين الولاء له.

أما رد السلطان الإسباني فيليب الثاني[3]، فتمثل فيمايلي: «نحن ملزمون بخدمة مقامكم، في جميع المقاصد وأشار بأنه يسهل مع مقامكم السيد دون مارتن القرطبي، والقائد رجاف» كما أرسل السلطان الزياني رسالة أخرى[4]،

1- أبو زيان حكم مابين 950-1544،951-1545 أنظر : Barges, opcit p455

2- الرسالة توجد بسيمنكاس ضمن ملف العلاقة مع شمالى إفريقية تحت رقم E. 664 المرسلين هم أحمد حد ويعقوب بن يقار .

3- نفس الرسالة .

4- الرسالة توجد ضمن ملف العلاقات تحت رقم 49- E 466

أهم ما جاء فيها من عند مولانا أمير المسلمين أبي عبد الله أن جميع ما أمر به عملناه، وما تواعدنا به أمضيناه، على نحن ما عقدناه معكم ولاعندنا إلا اعتقادكم، و قد وجّهنا إليكم جميع ما تحصل عندنا من النصارى، كما أمرتم، ومنعنا من المبادرة بإصرافهم إليكم، إلا مغيب محلتنا في حركة لبعض جبال الغرب، مع جميع جندنا، لأجل أن يصرفوا في الأمان التام صحبة الفرسان والأجناد، وأشفقنا عليهم من خوف الطريق فاقبلوا العذر في ذلك، ثم قال له لابد أن يصدر من مقامكم كتاب للقوطيط بالوصية على جمع أمورنا، وحفظ ما عقدناه من شروطنا هذه الرسالة نستخلص منها مايلي:

أولا: أن هناك معاهدة أبرمت بين السلطان الزياني وفليب الثاني، ولعل الوفد الذي ذهب إلى أسبانيا حمل نسخة من المعاهدة، ومن بين بنودها إطلاق سراح الأسرى المسيحيين، الذين كانوا بتلمسان، وأغلب المعاهدات التي أبرمت بين أمراء الدولة الزيانية والأسبان نصت على إطلاق سراح الأسرى المسيحيين، بينما سكتت عن الأسرى المسلمين المتواجدين في مدن اسبانيا، والذين كانوا يعيشون ظروفا سيئة للغاية، وهذا يؤكد ضعف هؤلاء الأمراء لأنهم لم يفرضوا التعامل بالمثل، كما هو الحال في أغلب العلاقات بين الدول ولذا اعتبرنا هذه المعاهدة تؤكد على عدم وجود السيادة للدولة الزيانية[1].

ثانيا: أن الإمبراطور وافق على تقديم خدمات لهذا لسلطان لاستعادة ملكه، والذي سيتكلف بذلك هو حاكم وهران، لذ طلب منه الإسراع في مكاتبته، وأنه سيطبق بنود المعاهدة[2].

1- نفس الرسالة السابقة، Ruff (Paul): E466-49

2- Ruff, opcit, p 102

5- الحملة الثـــالثة: على تلمســـان 953 هــ/1546م.

هذا من جانب الزيانيين أما الكوديتي، لكي يضمن الانتصار على القوة الموالية للدولة الجزائرية وحاميتها بتلمسان، انتقل إلى اسبانيا للاتصال بالإمبراطور والقيادة العسكرية حتى يبين لهم خطورة الوضع، والحصول على الإمدادات المادية والبشرية، وبعد اتصالاته بهؤلاء سمح له بجمع المتطوعة، الذين وصل عددهم إلى ألفي متطوع من المدن الجنوبية الإسبانية على الخصوص.

ثم عاد إلى وهران ومعه نصف العدد، بينما ترك النصف الآخر بمدينة مالقا، لكي ينتقلون على ثلاثة سفن متعددة السطوح وبعض الغليوطات.

لم يكتف الكوديتي بهذا العدد الذي جاء به من اسبانيا بل أضاف إليه ما كان بوهران والمرسى الكبير من جنود بلغ عددهم ثمانية آلاف من الفرسان والمشاة، بجمع هذه القـــوة بحصن كانسطيل وهنا اتصل بحلفائه من القبائل العربية والبربرية الذين سبق له أن زوّدهم بالسلاح ليواجهوا به المعارضين للأسبان، لكنهم سلموه ،فقبض على ما تبقىّ منهم وحوّلوهم إلى عبيد، أما شيوخهم وأعيانهم فقتلوا حتى يكونوا عبرة للآخرين.

وبعدها توجه إلى إحدى المدن القريبة من وهران عرفت في الوثائق الإسبانية باسم كوبيل[1]، توجد بين مضارب القبائل الموالية له مما جعلهم يتوافدون عليه، بمجرد توقفه بها يعرضون عليه خدماتهم.

1- لم نتعرف على مكان المدينة ولكننا سنحددها على الخريطة وأغلب الضن أنها توجد ضمن مضارب اولاد عبد الله الموالية للإسبان وبالتحديد بين عين تموشنت وسيد بلعباس من حيث توجد مضارب بنى عامر.

أما المنصور بن غانم فقد نزل باغبال وهناك توافدت عليه الإمدادات من القبائل الموالية للإسبان وحلفاء بني راشد، وهو ما جعل المزاري[1]، يعلق على ذلك بقوله: « واتتهم العرب بالخيول المسوّمة والهدايا المقوّمة ومن بين الذين انضموا للمنصور بن غانم الفارس برخون».

وقد بلغ عدد الجند الذين يوجدون تحت قيادته خمسة آلاف فارس من أتباع السلطان مولاي عبد الله ولم يقم بأي تحريك لقوته، حتى وصله الكوديتي، انتقلا معا إلى موقع أطلال مدينة سنان، ومنهما إلى رابطة الزاوش، فمكث بها نحو ستة عشر يوما ومنها تقدم إلى وادي سنان، وهناك حلّ وفد من التلمسانيين للاتصال بالأمير الزياني مولاي عبد الله يقترح عليه إخراج الأتراك من تلمسان شريطة أن لا يصحب معه الإسبان، ولكنه أجابهم بأن الذين طردوا أميرهم لا يستحقون الحياة، وأنه صحب معه الإسبان لذبحهم، ثم انتقلت القوة الإسبانية إلى نهر زير[2]، هذا فيما يتعلق بالقوة الإسبانية وحلفائها، أما القوة الجزائرية فيبدو أنها تحصّلت على معلومات تتعلق بتحريك الإسبان، مما جعلها تنطلق من الجزائر بمجرد حصولها على هذه المعلومـــات، حتـــي لا تسمح للإسبان وحلفائهم من احتلال تلمسان، وتنصيب عبد الله، كما يبدو أن القوة كانت كبيرة مما جعل الإسبان وحلفاءهم بعد أن تحصلوا على معلومات تتعلق بتحريك هذه القوة، وهو ما يؤكده المزاري بقوله: «ولما عبرت وادي

1- المرأي ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص301.

2- وادي زير لعل المقصود به وادي مقره ضمن مضارب بني عامر لأنه ذكر بأنه يجتاز سهل سيرات الذي يشمل سهل الهبرة – وسيق .

سنان[1] جاءها الخبر، بأن الأتراك خرجوا من الجزائر في جيش عظيم، فتحولت القوة الإسبانية إلى مضارب أولاد عبد الله[2] ثم اغبال[3]، ومنه إلى وادي تيليلات وعندما وصلت إليه جاءه رسول من الأتراك يطلب من المزوار المنصور بن غانم السماح لقائد الحامية بتلمسان من التوجه إلى الجزائر دون التعرض له خلال اجتيازه لمضارب بني راشد، مقابل أن يقدم له ما يشاء من المال، وهوما أكده مرمول أيضا فقال: «أرسلوا وفدا إلى الكوديتي يتألف من القائد جعفر، وأحد المرابطين يطلبون منه ومن المزوار السماح للحامية التركية من مبارحة تلمسان»، فالنصان تؤكدهما الوثائق الإسبانية فيما يتعلق بانسحاب القوة الجزائرية، وعدم الإصطدام بالقوة الإسبانية التي تراجعت عن احتلال تلمسان، لأن حسن بن خير الدين عندما وصل بالقرب من وادي تليلات، جاءه رسول من الجزائر يخبره بوفاة أبيه خير الدين، ففضل الانسحاب عن المواجهة.

أما الكوديتي فعندما وصلته الأخبار بخروج الفرقة التركية من تلمسان أعاد حليفه إليها، ثم فكر في استغلال فرصة اهتمام حسن بن خير الدين بوفاة أبيه للقيام بالهجوم على مدينة مستغانم.

1- وادي سنان نسبة إلى قصر سنان الوارد ذكره عند البكري والذي يوجد بنفس المنطقة ولعل الوادبقي يحمل اسم هذه الشخصية أنظر البكري المعرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص:184.

2-أولاد عبد الله احد بطون قبيلة بني عامر لمزيد من المعلومات عنها أنظر المرازي سعد السعود، 2ص163.

3- عن اغبال، أنظر، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص326.

6- الحملة الثــانية على مستغــانم: «952هــ/1546م».

وحتي يسرع في الهجوم على مستغانم اتجه مباشرة لوهران لكي يحمل منها بعض المدافع، والهدف من هذه السرعة أنه يريد اغتنام فرصة عودة القوة الجزائرية للجزائر، وانشغال حسن بن خير الدين بوفاة أبيه، أراد أن يضرب ضربته المتمثلة في الاستيلاء على مستغانم، التي تعتبر قاعدة أمامية لمدينة الجزائر، تحميها من الهجمات الإسبانية لمواجهة المراكز الإسبانية، التي لاتبعد عنها كثيرا.

فأدرك الكوديتي الأهمية الاستراتيجية لها، ولذا بعد وصوله إلى وهران أخذ ما يحتاج إليه ثم انطلق نحوها سالكا طريقا غير مألوف، حتي لا تصل إلى المدينة معلومات تتعلق بتحركاته، فانتقل من نهر قوبلت الذي عسكر فيه قبل دخوله وهران، ويبدو أنه في جوار المدينة، ومنها إلى سيفاتي، وما وراءه إلى واد هبرة ونهر قسناق و مزغران، ومنها انطلق إلى مستغانم، حيث تحدّد الوثائق الإسبانية تاريخ وصــول الكوديتــي لضواحــي مستغــانم بيوم 1546/09/23م فعسكر فوق ربوة بجنده، وبدأ في قنبلة المدينة يوم الجمعة1546/09/27 فانطلقت منها أزيد من مائة طلقة في يوم وصوله إليها.

لم يكن لدى الحامية بداخل المدينة سوى مدفعيتين صغيرتين، ولم يكتف الكوديتي بقنبلة المدينة فقط، بل لجأ إلى الطواف حولها لمعرفة نقاط الضعف بها، وخلالها استطاع إلقاء القبض على اثنين بسبب غارة قامت بها فرقة إسبانية.

وقد أمر الكوديتي بإحضارهما إليه، لكي يحصل منهما على معلومات، تمكنه من التعرف على خبايا المدينة، وقد أخبراه بأن المدينة تحتوي على ثروة

كبيرة، لأن المدن والقرى المجاورة لها كانت تقوم بجمع أموالها بداخلها لحصانتها وحتى الدولة الجزائرية وضعت بداخلها ثروة جمعتها من القبائل الموالية لها، وفي هذا الصدد يقول مرمول: «إنها من أغنى مدن بلاد البربر، لأن المدن والقرى المجاورة لها جمعوا بها ثرواتهم، ونفس الشيء بالنسبة للدولة الجزائرية» لكن ما يعاب عليها أنها لم توجد بها حامية كبيرة، على الرغم من الأهمية الاستراتيجية، حيث صرح هذا الأسير للكوديتي أن عدد أفراد الحامية لا يزيد عن أثنين وأربعين رجلا، كانوا يرغمون سكان مستغانم للدفاع على أنفسهم، وقدر عدد سكانها بأنه يزيد على أثنى عشر ألف[1].

- مراحـــل المعـــركـــة:

هذه المعلومات التي تحصل عليها الكوديتي جعلته يستعد للهجوم على المدينة بأقصى سرعة قبل وصول الإمدادات من الجزائر، فقام بقصف المدينة ثلاثة أيام متواصلة إلاّ أنه لم يستطع أن يؤثر في تحصيناتها، ويفقد جزءا كبيرا من البارود، مما دفع به إلى إرسال سفينة شراعية لوهران لكي تعود بالمؤونة والسلاح[2] الذي يحتاج إليه.

لكن السفينة لم تعد إلاّ بعد يومين على الرغم من قرب المسافة بين مستغانم ووهران، مما أتاح للقوة الجزائرية بإيصال الإمدادات إلى المدينة، كما تمكنت الحامية التي تركت تلمسان من الوصول إلى مستغانم، والدخول إليها يضاف إلى هؤلاء وصول القبائل الموالية للدولة الجزائرية، كما تجند علماء الناحية

1- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 353، ومن بين الذين تعرضو السكان مدينة مستغانم خلال هذه المدن الحسن الوزان الذي ذكربأن سكانها نزحوا منها نتيجة للضغط الذي مورس عليهم من قبل القبائل البدوية المجاورة لهم ، أنظر وصف إفريقيا ، ص: 53.

2- RUFF, op.cit. p107.

للدفاع عن مستغانم، وقد استطاعوا أن يجندوا عددا من الناس، قدر مرمول عددهم بخمسة وعشرين ألف مغربي، وعلى الرغم من أن الرقم ربما مبالغ فيه لكي يقلل من خسارة جنده، لكن ذلك لم يضع حدا للهجومات التي تشن من قبل القوة الإسبانية على المدينة، وقد تمكن الكوديتي من إحداث ثلمة بأحد الجدران، مما جعله يأمر جنده بالصعود إليها، لكن شجاعة الحامية حالت دون استغلالها لصالح الأسبان، وعلّق على ذلك مرمول[1] بقوله: « أن الواحد منهم كاف لحمايتها وما كان يسقط منها أحد حتى يخلفه الآخر» وبذلك فاستمرار القتال تحوّل لصالح القوة الجزائرية، لأن الإسبان تعرضوا لخسائر بشرية لأنهم يحاربون مكشوفون، مما جعلهم يتقهقرون في الفوضى، وقد سمح للقوة الجزائرية بشن هجمات متواصلة، وحاول الكوديتي وقف هذه الهجمات لكنّه فشل بعد أن خرجت القوة الموجودة بداخل المدينة فانضمت إلى الفرق الأخرى، فأحدثت فوضى في صفوف الأسبان، الذين تقهقـروا من جديد وقد حاول ابن الكوديتي ولويس دي رويدة، إعادة تنظيم القـوة إلاّ أنهما فشلا أيضا مما دفع بالكوديتي إلى اتخاذ قرار الانسحاب يوم1546/09/30م والعودة لوهران.

هكذا فشل الكوديتي في تنفيذ مشروعه المتمثل في احتلال مـستغانم للمـرة الثانية، مما جعله يصب غضبه على القبائل النائية ويـسلك إتجاههـا سياسـة الأرض المحروقة سلبا ونهبا وقتلا وأسرا وهو ما دفع بالقبائل التي لم يمسها

1- مرمول المصدر السابق، ج2 ص354.

الهجوم بالاتصال به، ومن بين هؤلاء القبائل شيخ قيزا وبوصفر وأحمد الفشتاني، شيخ مصغرين [1].

وقد وقع الاتفاق بينهم وبين الكوديتي على عدم مواجهة مضاربهم بحضور كبار ضباطه وبعض أفراد من الجالية اليهودية يتقدمهم موسى زطورا.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الكوديتي ركز في سياسته خلال هذه الفترة على ضرب القبائل بعضها ببعض، مما جعله يرسل الموالين له من تلك القبائل لمراقبة تحركات القوة الجزائرية والقبائل الموالية لها، ومن أبرز هذه القبائل التي اعتمد عليها أولاد موسى وأولاد عبد الله وأولاد علي وأولاد خيرة وأولاد عزي، كما دخلت هذه القبائل في صراع مع القبائل الموالية للجزائر.

- التدخـــل التـــركـــي:

في الوقت الذي كان الكوديتي وحلفائه يحضّرون لهجوم على القبائل الموالية للدولة الجزائرية، وصلت معلومات من عيون الكوديتي في الجزائر تذكر بأن الحاج علي باشا استقبل وفدا من تلمسان يقوده قاض الجماعة يطلب منه المساعدة فوافق على طلبه وصرح له بأنه سيتوجه إلى تلمسان، وأن القبائل المتواجدة بالقرب من وهران ستقدم لهم يد المساعدة، لأن تلك القبائل استغلت من قبل أطراف الصراع مما حال دون خلق وحدة وطنية، ومما يؤكد ذلك أن الكوديتي نفسه اتصل بالقبائل الموالية له التي سبق لنا ذكرها.

1- أنظر رسالة الكوديتي للمزوار المنصور بن غانم المؤرخة في 11،01،1547. A.G.S. estada leg 472

ومما زاد الأمر خطورة بالنسبة للإسبان، تعرض وهران لضائقة اقتصادية نتيجة لعدم تزويدها بالحبوب مما دفع بالكوديتي أن يأمر بإخراج السكان المدنيين منها لأن ما بقي من الحبوب لا يسد رمق الجنود[1].

وللتقليل من أثر الضائقة عمد حاكم وهران إلى الهجوم على القبائل الآمنة لنهب طعامها وقد تمّ ذلك في1547/06/08م والقبائل التي تعرضت لهجومه هي زفانة ودوار ولاد تميم والأراضي المحصورة بين مضارب حميان وأولاد سيلان وعقبة، لكن هذه الهجومات لم تحل مشكلة انعدام الحبوب في وهران، وهو ما جعل الأسبان يطلبون من قرطجنة تزويدهم بما يحتاجون إليه من حبوب، فوافق على طلبهم إلاّ أن الحمولة القادمة من قرطجنة إلى وهران استولت عليها البحرية الجزائرية قبل وصولها لوهران.

- استيلاء الأتراك على تلمسان في آخر فترة مولاي أبو عبد الله:

يلاحظ الباحث أن مولاي أحمد بعد دخوله إلى تلمسان عمد على ربط علاقاته بالإسبان في الوقت الذي أرتبط فيه المزوار المنصور ابن غانم بالأتراك نتيجة لتأثير الوالي الصالح سيدي أمحمد أفوغال الذي لعب دورا هاما في التأثير على سياسة ملوك بني زيان ووسكان دولتهم خاصة الموردين التابعين له.

كما وقع أيضا تغيير حاكم تنس حميد العبد شيخ سويد وحل محله القائد محمد، ولعل السبب في ذلك يندرج ضمن محاولة الدولة الجزائرية التحكم ي المدن الاستراتيجية وأن لا تتركها بيد شيوخ القبائل التي كانت سياستهم متذبذبة

1- رسالة الكوديتي إلى الأمير فيلب الثاني مؤرخة في1547،12،17.A،G، S Guerra antigua leg 32 F 91.

بين أطراف الصراع، وفي نفس السنة غيرت القبائل الموالية لموالاة أحمد تأييدها له، وأرتبط بعدوها اللدود مولاي عبد الله، وقد حدث ذلك بالنسبة لبني راشد الذين كانوا موالين مع شيخهم المنصور ابن غانم للأتراك[1]، فثاروا ضد هؤلاء بعد دخولهم لقلعة بني راشد فلجأ هؤلاء إلى جبل روميلا لمواجهة القوة الجزائرية التي كانت بقيادة محمد قائد تنس، وأول هجوم شنته هذه القوة كان على مضارب بني راشد مما أدى بالمنصور ابن غانم إلى طلب المساعدة من الأسبان، وأن هذه القوة الجزائرية كانت تؤيد مولاي عبد الله، وبعد انتصارها على أتباع مولاي أحمد دخلت تلمسان يوم 1548/04/19م[2]، وفي نفس اليوم خرج مولاي أحمد ومزواره المنصور ابن غانم من عاصمة الدولة واتجها مع أنصارهما نحو فيقيق برفقة أولاد طلحة، والاتجاه نحو الواحات الصحراوية هي سياسة اتبعها أمراء بني زيان منذ عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني كما توضح أيضا بأن هؤلاء الأمراء قوتهم مرتبطة بقوة القوى الخارجية التي تتصارع على أرضهم من إسبان وأتراك.

وفي بعض الحالات كان الحكم بيد أسيادهم، فمولاي أبو عبد الله عندما نصّب أميرا من قبل الأتراك على تلمسان كانت أمور الدولة كلها بيد القائد التركي.

أما خارج تلمسان فقد سيطر الأتراك على سهل هبرة وسراط وقلعة هوارة، مما سمح لهم التحكم في الأنشطة الاقتصادية المتمثلة في الزراعة والمسالك التجارية وجبي الضرائب من القبائل التي خضعت لهم.

1- رسالة أندري للأمير فيلب الثاني مؤرخة في 1548. Ibid F 20 a 115.

2- وثيقة ممضاة من قبل جون A.G S estado leg 473 Juhun

هذا فيما يتعلق بالصراع بين القوة الجزائرية والإسبانية والزيانية، أما مواجهة القبائل من طرف الأسبان ترتكز بالدرجة الأولى على القبائل التي سبق لها أن وقفت ضدهم ومنها التي توجد مضاربها بأم العسكر (معسكر) والنواحي المجاورة لها حيث مضارب بني راشد وهوارة وبعض بقايا القبائل البربرية الأخر أمثال بني ومانو وبني يلومي أما القبائل المتحالفة مع الإسبان والتي استعملت من قبلهم لضرب القبائل الآنفة الذكر، فهي قبائل بني هلال والأماكن المستهدفة، الرابطة، والكرط المجاورة لأم العسكر، وقائد الجيش العامري هو رابح بن صولة، أحد فرسان أولاد علي بطن من بني عامر، وأولاده يقال لهم الصواله إحدى دواوير أولاد علي، وقد استعمل مرارا لضرب القبائل المعادية لهم.

انطلقت الحملة من وهران فاجتازت الكرمة وتيارت ثم وادي التفراوي ثم جبل عبد الله لبلد ما خوخ ومنها القطارة ثم زبوجة المطلة على وادي الحمام، وقد استراحت بها القوة الغازية وبعدها انطلقت القوة نحو تيطروة، بينما اتجه البعض الآخر نحو الكرط[1] ففعل بهاتين القريتين ما أراد له فعله، ثم كرروا غزوهم على الكرط إلى أن استحلوا ما كان به وفرّ من بقي به وهم سبب خرابه.

1- قرية الكرط توجد على بعد حوالي خمس كلم من مدينة معسكر، والقرية القديمة لاتزال آثارها ماثلة للعيان ومنها السور وقد تحدثنا مع سكانها فذكروا لنا بأنها تحتوي على مجموعة من الأنصاب تم ردمها لأن أراضي القرية أصبحت تزرع.

فالذي يستخلص من النص مايلي:

أ: أن صاحب النص استطاع أن يبين لنا الأمكنة التي مرت بها هذه الحملة انطلاقا من وهران، وأغلبها مضارب لقبائل بربرية وعلى الخصوص هوراة، بنى راشد وهي اليوم تندرج ضمن ولاية غليزان، ومعسكر وأما قبائل بني عامر فكانت مضاربها بعين تموشنت وسيد بلعباس.

ب: أن الحملة تندرج ضمن الصراع القبلي الذي عرفته أراضي الدولة الزيانية وعلى الخصوص بين القبائل الكبرى كبني عامر وبني راشد .

فالأولى موالية للدولة الجزائرية، لأن المصادر تذكر بأن الحشم الاسم الحديث لبني راشد من أنصار الدولة الجزائرية منذ عهد الأخوين عروج وخير الدين. الأماكن التي هاجمها أولاد علي من بين المراكز الاستراتيجية فقرية الكرط غير بعيدة عن معسكر.

ج: أن قرية الكرط التي قمنا بزيارتها في صائفة 1993 رأينا أثار الدمار الذي أصابها من الحملات الإسبانية وحلفائها من القبائل العربية التي وجهت لها، ولا تزال الأساطير المتداولة بين سكانها تتعرض لهذه الحروب وأن أحفادهم أعادوا بناء قريتهم إلى الجنوب من القرية التي دمرت خلال هذه الحروب بين بني راشد وبني عامر.

وأن رابح بن صولة كان من أخطر شيوخ بني عامر الموالين للأسبان على بني راشد وهو ما يؤكده الكاتب بقولـــه: «ولما كبر رابح بن صولـــة وعمي قعد عن الغزو، فأغار الحشم على أولاد علي فألقوه بالمراح فقتلوه»[1].

1- ارشيف سمينكاس من مجموعة الشؤون العسكرية .Legajo XL F 184

يستفاد من هذا النص مايلي:

أن شيوخ القبائل لعبوا دورا هاما في الصراع الذي عرفته الدولة الزيانية في هذه الفترة، فبدل أن تتوحد هذه القبائل مع الدولة الجزائرية الحديثة للتخلص من المراكز الإسبانية، نجد البعض منهم يحثّ هؤلاء على الإنقضاض على مدينة الجزائر و مواجهة القبائل التي ترفض السيطرة الإسبانية وتعمل من أجل خلق وحدة وطنية لتحرير وهران والمرسى الكبير، هاهو أحد الشيوخ يخاطب الكوديتي بقوله: «احنا معك وعلى حبك وجاءنا كتابك وعرفنا مافيه ومحبك من عند السلطان على خير فرحنا بهمتك ونعرفك الترك قضاء الله فيهم الحاجة ونحن على خدمتك وحب القائد منصور بن غانم»، هذه الرسالة تشمل ثلاث نقاط أساسية:

أ: استمرار التحالف بين الأسبان وأولاد سليمان لخدمة مصالح إسبانيا وقد تحالف هؤلاء مع السلطان الزياني مولاي أحمد للعلاقة التي تربطه ببني عامر لأن أمه عامرية بنت عبد الرحمن بن رضوان شيخ بني عامر.

ب: أن سلطان الزياني لا يزال في موالاته للإسبان، ويبدو أن صاحب الرسالة من بين موظفي الدولة الزيانية، أو من الذين تربطهم علاقة خاصة بالأمير الزياني.

ج: أن تلك القيادة القبلية كانت تتجه إلى وهران وتستقبل من طرف قادة الاسبان في كل من وهران والمرسى الكبير وتحدث المشاكل للدولة الجزائرية الحديثة وبني زيان عندما يتحالفون معها.

وهناك بعض الأمثلة عن شيوخ القبائل الذين قدّموا خدماتهم للأسبان، لكن بالنسبة للبربر نجد من أبرزهم بني راشد[1]، بقيادة شيخهم المنصور بن غانم .

فالدّارس للدولة الزيانية يلاحظ بأن هذه العائلة من العائلات التي كان لها تأثير في سلاطين الدولة الزيانية، فالصباغ في كتابه (البستان) يذكر بأن الذي كان قائدا لقلعة بني راشد عندما اشتد الصراع بين أحمد بن يوسف الملياني والدولة الزيانية هو غانم الراشدي الذي يبدو أنه لم يتقيد بمطالب بني زيان الخاصة بالقبض على الملياني، ولم يرسله إلى تلمسان بل طالبه بالانتقال إلى يلل عند بني وغد.

وهنا مجموعة من أفراد هذه القبيلة تولوا وظيفة المزوا ر في تلمسان لأن في مرحلة ضعف الدولة كانت الوظائف الأساسية تعطى للقبائل القوية.

ومما يؤكد تأثير هذه القبائل على سياسة أمراء بني زيان، فإن الأمير مولاي أحمد كان قد تخلى عن التبعية للعثمانيين في الجزائر مما جعل هؤلاء يكلفون حامية تركية لمحاربته هو وحلفائه من أولاد سليمان[2] وبني راشد، لأن المنصور ابن غانم كان قد ربط علاقاته بالأسبان خلال هذه المدة، وأن هناك تحالفا بين بني راشد و أولاد سليمان، ولتوضيح هذا الدور الخطير نذكر على سبيل المثال الرسالة التي بعثها الوحش رسالة إلى الكوديتي وقد جاء فيها «راحتنا على حبك وخدمتك لا نبدل ولا نغيّر ونعرفك الله يجزيك حين نتجه للصحراء نحن وجميع العربان على خدمتك، نزلنا على باب وهران واجتمعنا

---

1 -عن دور بن راشد أنظر :

Bodor (Francis) : Notice historique sur Nemours et Trara depuis l'antiquité jusqu'à l'arrivée des Français in B.S.G.O.1935 Cazenave (J).
Les Gouverneurs d'Oran pendant l'occupation Espagnole de cette Ville p 51 et p 56 ,1509-1782 in R.A.1937.tome 81

2- Cazenave (J) Op Cit P

نحن والسيد ابنكم دون مارتين واستعمل معنا الجود الله يبارك فيه ويجزيه خيرا[1] ».

نستنتج من هذه الرسالة مايلي:

أ: استمرار التحالف بين أولاد سليمان والكوديتي في وهران خدمة المصالح الإسبانية بالناحية.

ب: أن هذه القبائل كانت تقصد الواحات الصحراوية في فصل الخريف للقيام بالنشاط التجاري وخلال غيابها يضعف نفوذ الإسبان بتلك الناحية وهو ما جعل صاحب الرسالة يقول: للكوديتي الله يجزيك حين نتجه للصحراء[2]، ومن شيوخ بني راشد الذين لهم دور في أحداث هذه الفترة عبد المنصور بن عبد الله بن غانم الذي تحالف مع الكوديتي فقد جاء في رسالة وجهها لهذا الأخير قوله: « وان نقبّل يديك على ما أنتم توعدوني وأنت أعزّك الله عملت عمل الفرسان بالجود والخير أنت موضعه ونعرفك أعزّك الله كيف يا سيدي أتلاقينا مع محلة الترك وفسادهم فساد الحق ولا خوف من الترك ولا أرى فيه وكبار أهل البلد الذين كانوا عاملين على الترك تخلصوا لكل وإن مابقي في تلمسان من الأتراك غير خمسين كما يذكر أيضا أن المسعود وكافة المراهين مسلّمين عليك ومقبّلين أيديك على ما وعدتهم وقالوا هذا هو الواجب عليك لأنهم أولادك»[3].

1- رسالة الوحش إلى الكوديتي أرشيف سيمنكاس من الشؤون العسكرية .- Legajo 30 F 30 31

2- نفس الرسالة ورقة 30

3- رسالة المزور والمنصور بن غانم الراشيدي مؤرخة في فيفري Legajo 29 F 301546

الشيء الذي يمكن التوصل إليه من الرسالة يتمثل فيما يلي:

أ: ضعف الأسلوب الذي كتب به مما جعلنا نجد صعوبة في التعرّف على محتواها.

ب: أن المنصور بن غانم أصبح من المؤيدين للأسبان منذ سنة 953هـ/1546م وأنه قاد حملة ضد الأتراك في تلمسان وحلفائهم المعارضين لمولاي أحمد وأن الحامية التركية في المدينة لا يمكنها المقاومة لأن عدد أفرادها لايزيد عن خمسين محاصرين بداخل المشور.

ج: أن الكوديتي لايزال يحتفظ ببعض الرهائن من أبناء بني راشد لكي يحافظوا على موالاتهم له، لأن بني راشد كانواغيرمتمسكين بموالاتهم له.

أما الرسالة الثانية فأهم ما جاء فيها «كتبنا لكم من فحص دبدو وقدم علينا عربنا وأولاد حرج و بني عامر وبني راشد وسويد وجابونا ودخلنا معهم، وكتبنا لكم كتابا هذا من ملاتة فحص وهران على خير وعافية»[1].

فالذي يستخلصه الباحث من هذه الرسالة يتمثل فيما يلي:

أ: أن هذه الرسالة كتبها المنصور ووضح فيها خروجه مع السلطان الزياني وبعض أعوانه متوجهين إلى فاس بعدما أصبح به خلال الحملة التي قادها حسن باشا ضد تلمسان سنة942هـ/1545م وتؤكد الرسالة المصادر الإسلامية فتقول بأن مولاي أحمد بارح تلمسان وعندما وصل إلى دبدو قبض عليه أمير دبدو وأخد أموله.

1- رسالة المزور الأنفة الذكر المؤرخة في فيفري 1546 Legajo 29 F 30

ويبدو من الرسالة أيضا أن القبائل الحليفة له تقدمت إلى دبـدو لتخليصه ونقله إلى فحص ملاته المجاورة لوهران لكي يكون تحت الحماية الإسبانية.

لم تكن مراسلات المنصور بن غانم مقتصرة على الكوديتي بـل الـبعض منها وجه لملك إسبانيا وأن المنصور يتكلم باسم السلطان الزياني. هـذا فيما يتعلق بالقبائل، وهناك خطر آخر يتمثل في التدخل السعدي.

7- التدخــل السعــدي:

قبل التعرض إلى الصراع بين باشاوات الدولة الجزائرية وملـوك الدولـة السعدية، يجدر بنا أن نذكر بأن تلمسان كانت محل أطماع الدول التي نـشأت في المغرب الأقصى، وعلى الخصوص في عهد الدولة المرينية، حيـث قـام سلاطينها بالهجوم على تلمسان[1] .

ولهذا لا نستغرب إذا كان السعديون قد فكروا في السيطرة على تلمسان بعد سقوط الدولة الوطاسية، والاستيلاء على فاس، بعد أن وجدوا معارضة من قبل رجال الفكر في المدينة، وقد أدى دخولهم فاس إلى مقتل مجموعة من علمائهم من بينهم العالم الجزائري عبد الواحد بن الشيخ أبي العباس الونشريسي[2]، الذي قتل عند خروجه من مسجد القرويين بعد انتهائه من إلقاء درسه، والسؤال الذي يطرح: ما هي دوافع الأزمة وانعكاسها على العلاقة بين الدولة الجزائرية والسعدية وحتى الزيانيين وحلفائهم.

1- الهجوم الأول قاده يوسف بن يعقوب المريني(695-706،1286-1307)، فحاصر تلمسان أكثر من ثمان سنين، انظر: يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1 ص118-120، ابن خلـدون عبد الرحمن، العبر، مجلد7 ص 196-441.

2- أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أحمد بن يحي الونشريسي قتل في آخـر955هـ،1548، لمزيد من المعلومات عنه، ابن عسكر، دوحة الناشر، ص52-54.

- **العلاقـــة بين الزيـــانيين والسعـــديين**

لكن لماذا هذه العلاقة السيئة بين الدولتين اللتين قامتا على أساس محاربة القوة المسيحية المسيطرة على موانئ المغرب الإسلامي، فمن المفروض أن لايكون هناك تعارض بين الدولتين، بل على العكس، كان لابد أن يتحالفا معا لمواجهة البرتغاليين، والاسبانيين، الذين يحتلون مراكز استراتيجية هامة على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط. إن سوء التفاهم بين الدولتين يرجع إلى ما يلي:

أ: إن رؤساء الدولة الجزائرية الحديثة كانوا يريدون ضمّ المغرب الأقصى بدعوة توحيد المغرب الإسلامي لمواجهة القوة المسيحية، فهم حماة الدولة الإسلامية، وقد عانوا الشيء الكثير من أمراء الدولة الزيانية، الذين أخروا حركة تحرير وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الإسباني، ولعل هذا التحالف مع القوة المسيحية سيعمد إليه السعديون، بعد قيام دولتهم، ولذلك فهم لا يسمحون لهم بتجاوز الدور الذي يمكنهم القيام به، بعد الاتفاق مع الدولة الجزائرية التي تمثل إحدى ولايات الخلافة الاسلامية، المسؤولة عن العالم الإسلامي.

وقد أشهر السعديون نسبهم الشريف[1] الذي يؤهلهم أكثر من غيرهم لقيادة العالم الإسلامي، أو قسم منه، وعلى الأقل المنطقة الشمالية للقارة الإفريقية الممتدة من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي والمغرب الإسلامي، الذي يدخل ضمن استراتيجية السعديين و قبلهم المرينيون.

1- قيل أنهم من بني سعد بن بكر بن هوزان الذين تنتمي إليهم حليمة السعدية و قيل أنما لقبهم العامة بالسعديين لأنهم سعدوا بدولتهم و قيل أنهم من ولد النفس الزاكية ، أنظر الافراني محمد ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، المطبعة الحجرية بفاس ، بدون تاريخ ، ص 14.

ب: الصراع بين الطرقية وعلى الخصوص بين القادرية والشاذلية، فقد لعب أتباع محمد بن يوسف الملياني دورا بارزا في نجاح عروج، وخير الدين ضد أمراء الدولة الزيانية وهو ما تؤكده النصوص التاريخية، التي أبرزت لنا دور الملياني وطلاّبه، وهم من أتباع الشيخ زروق[1] في مواجهة الأسبان، حيث كانوا يهيئون الناس نفسيا قبل المواجهة، وهم الذين اتّهموا الدولة الزيانية بأن سلطتها لا تختلف عن السلطة اليهودية.

كما يذكر النص أن محمد الخروبي[2] الذي كان من أتباع الطريقة الزروقية قام بدور مهم في ربط مملكة تلمسان بالدولة الجزائرية في الفترة الممتدة ما بين سنة1542/942 و1549/956.

ج: الصراع القبلي الذي عرفته المنطقة، إذ نجد بعض القبائل التي كانت معارضة لكل من الأسبان والزيانيين، قد ارتبطت بالقوة الجديدة المتمثلة في السعديين، ومن بين هؤلاء قبائل ترارة[3]، وأولاد علي، وأولاد طلحة، الذين توجد مضاربهم في أنجاد[4] وضواحي هنين، وندرومة ووجدة[5]، وبعض قبائل الناحية المتحالفة مع بني راشد الذين كانوا تحت قيادة المنصور ابن غانم،

1- هو أبو العباس أحمد بن عيسى البرفوصي الفاسي عرف بزروق ، توفي بمسراتة عام 899 هـ ، 1493م انظر ابن عسكر ، المصدر السابق ، ص 48-50.

2- أبو عبد الله محمد الخروبي السفاقسي : ورد على فاس مرتين، الأولى أيام السلطان أبي عبد الله الشريف 959هـ ، 1554م توفي سنة . 963 هـ ، 1555م ابن عسكر ، ص 126-127.

3-عن طرارة ، انظر: مرمول، المصدر السابق، ج2 ، ص:

4- الكاد أو أنجاد : منطقة متكونة من سهول تقع بين مدينة وجدة و نهر الملوية ، و يخترقها نهر إيسلي. ولمزيد من المعلومات عنها، انظر: الحسن الوزان،المصدر السابق، ص: ــ مرمول، المصدر السابق،ج2،ص: .

5- وجدة : تقع على بعد ثمانين كلم من تلمسان، كانت تابعة للدولة الزيانية.

والقبائل العربية، والبربرية، الذين كانوا من أنصار إمارة دبدوا، وهي من مخلّفات الدولة الوطاسية، ثار هؤلاء ضد القوة السعدية بعد انهزامهم في تلمسان.

وما يقال عن هذه القبائل ينطبق أيضا على أعيان تلمسان، حيث وجد من بينهم من كاتب محمد الشيخ، يطلب منه إنقاذهم من الأتراك في الجزائر.

- الحملة السعــدية على تلمســـان:

بعد سيطرة محمد الشيخ على فاس[1] بدأ في تحضير نفسه للمواجهة مع الدولة الجزائرية الحديثة، وقبل هذه المدة عمد الوطاسيون إلى إقامة مجموعة من التحالفات مع الحامية الإسبانية في مليلة والكونت الكوديتي في وهران، الذي كان يعمل من أجل القضاء على الدول الإسلامية في المغرب الإسلامي، وإقامة امبراطورية إسبانية تشمل كل المنطقة، وهو ما جعله يقوم بمراسلة الوطاسيين وحثهم على مواجهة القوة الجديدة المتمثلة في السعديين، التي ربما ستعمد إلى خلق تحالف مع الدولة الجزائرية[2]، مما سيجعل المصالح المسيحية أمام أخطار لايمكنها التخلص منها.

كما تعاون الوطاسيون مع أمراء الدولة الزيانية، وعلى الخصوص مولاي أحمد، الذي كان من أنصار الدولة الجزائرية، ثم تحالف مع القوة الإسبانية في وهران[3].

1- الاستيلاء على فاس سنة 956، 1549 : انظر، الأفراني، المصدر السابق، ص:116.

2- Lettre du comte d'Alcaudete a Maximilles et la Maxie d'Autriche وهران 26،4،1549، تناول فيها خطر تحالف القوى الإسلامية على اسبانيا.

3- Instruction du comte d' Alcaudete pour don Martin et pour Pedre de castra 3،7،1549.

وأن هذه التحالفات وتأثيرها في المستقبل في الدولة السعدية وطموح محمد الشيخ جعلته يندفع نحو تلمسان، التي كانت تتميز بشدة الانقلابات، فكان أمراؤها يتحالفون تارة مع الأتراك وتارة مع الإسبان حسب الظروف والمصالح، وقبل التحرك السعدي في اتجاه تلمسان تمكن الأتراك من تنصيب مولاي محمد بدلا من أخيه المدعم من قبل الإسبان، وأقاموا حامية عسكرية بالمدينة، وكان ذلك سنة 955هـ/1548، لكن تعيين مولاي محمد أدى بالكوديتي إلى دفع الموالين له إلى خلق مشاكل لمولاي محمد والحامية التركية بداخل المدينة، ويبدو أن محمد الشيخ كان على اطلاع بواسطة عيونه في تلمسان، وبعض أعيان المدينة الذين بدأوا يرغبون في ضمّ تلمسان للدولة السعدية.

تذكر بعض المصادر أن هناك اتصالات بين محمد الشيخ ومولاي أحمد الذي كان أميرا على تلمسان، وهو ما جعله يحاول اللجوء إلى فاس، وخرج فعلا من تلمسان متوجها إليها مع بعض الموالين له، ومن بينهم مزواره المنصور بن غانم، إلا أن أمير دبدوا[1] اعترضه وسلب ما كان معه ومع اتباعه من الأموال كما أسلفنا من قبل.

كما اتصل محمد الشيخ بأعيان تلمسان وعرضوا عليه تسليم مدينتهم له، ونستدل على ذلك من خلال الوثائق الاسبانية التي تمكنا الإطلاع عليها وعلى

1- رسالة مولاي احمد للملك الاسباني فيليب الثاني المؤرخة في 14،2،539 هـ ، 1546.
انظر أيضا: Elmaudden Abderrahmane، The charif and the podishah some remarks on marrocan ottoman relations in the 16 th century en hesaueris tamuda . Vol XXVIII fasc unique 1990 p. 7-1

الخصوص التقارير التي كانت ترسل من قبل الكوديتي، وقائد الحامية الإسبانية في مدينة مليلة.

ومن بين تلك الرسائل رسالة من الكوديتي[1] إلى ملك اسبانيا يذكر له بأن المزوار ومولاي محمد أبرما معاهدة مع أتراك الجزائر ولا تزال سائرة المفعول، وأن مولاي محمد والمنصور بن غانم وشريف مغرب يؤيدون التحالف ضد الإسبان، وأنهم يحضرون حملة على وهران، وطلب الكوديتي إرسال إمدادات له على وجه السرعة، وأقترح ألف جندي، في البداية وما بين ألفي وثلاثة في المرحلة الموالية.

ونلاحظ أيضا إلتحاق عدد من الأتراك بالمغرب الأقصى للدخول في خدمة محمد الشيخ والهدف من ورائها التخلص منه للخطر الذي أصبح يمثّله بالنسبة للإيالة الجزائرية بوجه خاص والخلافة العثمانية بوجه عام.

- الحملة عــلى تلمســان

المرحلة الأولى:

أما الحملة السعدية على تلمسان فيبدو من خلال الوثائق الإسبانية والمصادر المغربية[2] أنها مرت بمرحلتين وقبل القيام بها عمد محمد الشيخ إلى عقد تحالفات مع القوى المغربية المتمثلة في أمراء بني وطاس وهم مولاي عمار الذي كان حاكما لمدينة دبدو وأبو حسون[3] الوطاسي، وهدفه من وراء ذلك

1- انظر Lettre du comte d'alcaudette A maximilien et a Muree d'Autriche، Archive generale Legajo 474 estada de simancas.

2- الافراني ، المصدر السابق ، مخطوط بالمكتبة الوطنية ، رقم ، ورقة .

3- Lettre des aulad Ahmed ben yasin Abou hassen، archive G, de Simancas estada انظر Legajo 475.

ضمان الحماية لقوته في حالة انسحابها من تلمسان أو ايصال إمدادات لها في حالة اشتداد الحصار عليها من قبل الدولة الجزائرية.

كان تحرك القوة السعدية من فاس1549 وكان أتباعها في تلمسان على علم بتحرك هذه القوة لوجود قوافل كانت تربط بين المدينتين، وبعد فترة قليلة تبين لهم أن القوة غيرت اتجاهها نحو المراكز البرتغالية في شمال المغرب الأقصى[1] في اتجاه مدينة أصيلا التي قررت السلطة البرتغالية التخلي عنها، ولكي لا يستولي عليها أبو حسون الوطاسي لا بد من تجنيد القوة السعدية للسيطرة عليها واتخاذها منطلقا واستعادة مدينة طنجة التي كانت هي الأخرى محتلة وهو ما جعل مشروع السيطرة على تلمسان يتأخر.

- المرحلة الثـانية957هـ/1550 م.

أما الحملة الفعلية على تلمسان فتحدد المصادر تاريخها بأنها كانت في957هـ مايو1550م، وكان الجيش السعدي يتشكل من فرسان ومشاة بلغ عددهم ما بين سبعة آلاف وثمانية آلاف، تولى القيادة أبناء محمد الشيخ، وهم محمد الحران ومولاي عبد الله ومولاي عبد القادر، وفي شهر جوان دخل السعديون تلمسان بدون مقاومة، وأقاموا بها حامية سعدية تتشكل من ألف جندي.

ثم انسحب القائد السعدي مولاي الحران، لقمع الثورة التي قام بها عمه مولاي أحمد، في سجلماسة مغتنما فرصة توجه القوة السعدية لمدينة تلمسان، وعلى الخصوص قوة الحران الذي كان مقيما بالسوس.

1- لم يتمكن أمراء بني وطاس و على الخصوص أبي العباس الأعرج من مطاولة البرتغال حتى النهاية فظل هؤلاء يشكلون خطرا محققا على منطقة السوس وشمال المغرب الأقصى.

- موقف الدولــة الجزائريــة

وعندما علم حسن باشا بسيطرة السعديين على تلمسان جنّد قوة تضمّ أزيد من عشرة آلاف[1] حسب الرواية المغربية التي تقلل من القوة السعدية، وتضخمّ القوة الجزائرية، لكن الوثائق الإسبانية تقدر العدد بخمسة آلاف جندي من بينهم الأندلسيون، وأهل الجزائر وبعض القبائل الموالية لهم، وعلى الخصوص قبيلة سويد العربية والقبائل الموالية للدولة الزيانية. وعندما علم محمد الشيخ بوصول هذه الامدادات أرسل قوة جديدة تتألف من حوالي عشرين ألف جنديا.

وبهذه القوة تحرك السعديون نحو شرق تلمسان من أجل السيطرة على مدينة مستغانم، التي أصبحت محلّ تنافس بين القوى المتصارعة، إلاّ أنّهم فشلوا في الوصول إليها، لكثرة الضربات التي تلقوها من قبل القبائل الموالية للدولة الجزائرية والزيانية، فانسحبوا إلى تلمسان في الوقت الذي كانت فيه القوة الجزائرية تتقدم من الجزائر في اتجاه تلمسان، بقيادة حسن قورصو957هـ/1550.

وفي تقرير أرسل من وهران مؤرخ في26 أوت 1550، ذكر فيه الكوديتي أن حسن قورصو اجتمع في الشلف مع كل القوى التابعة للدولة الجزائرية، ومعه ثلاثون مدفعا، وقد اتّخذ طريقه نحو سهل سيرات، وهناك انضمت إليه قوة من بني راشد تحت قيادة المنصور بن غانم[2].

1- الأفراني، المصدر السابق، ورقة 16. انظر أيضا Lettre de Miguel de perea a maximilien et Marie d'autriche, Melila, 14-03-1550, arch. G. de Simancas estado Legajo 83. عبد الجليل التميمي، رواية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية المغربية في القرن16، المجلة التاريخية المغربية، ع 29-30 تونس 1983.

2- Ibid, de don Martin, don Phillippe Oran 14، 11، 1551, Ibid, don Martin, A. Maximillien et A. Marie d' Autriche, Oran 26، 8، 1550 . Archive G. de simancas estado Legajo 475.

وعندما علم محمد الشيخ بتحركات القوة الجزائرية أرسل تعليمات لابنائه يحثهم عن التخلي عن تلمسان قبل وصول القوة الجزائرية، لكن هذه القوة لم تتمكن من الانسحاب، فاصطدمت بالقوة الجزائرية، بالقرب من وادي بوغرون شرق تلمسان، فتحطمت القوة السعدية، و قتل الحران مع مجموعة من قادة الجيش، وعند الانسحاب من المعركة تمت عملية المطاردة، فأدت إلى هلاك نسبة كبيرة من الجيش، الذين تخلوا عن عتادهم ومؤونتهم، وبذلك حقق القائد التركي انتصارا كبيرا على القوة السعدية ودخل تلمسان منتصرا، ثم عاد إلى الجزائر بعد أن ترك بها ألفا وخمسمائة جندي لحمايتها.

نتائج هذه المواجهة تمثلت فيما يلي:

أ: أنها وضعت حدا لطموح محمد الشيخ الذي لم يعد يفكر في القيام بهجوم على تلمسان، لأنه واجه أكثر من تمرد ضد سلطته بعد الهزيمة التي لحقت بقوته، فقد ثار ضد ملك دبدو، وبادس الذين كانت لهما علاقات وطيدة مع شيوخ قبائل الجهة الشرقية المجاورة للدولة الجزائرية.

ب: أنها وضعت حدا لطموح هؤلاء السلاطين، ووضعت الحدود بين الجزائر والمغرب الأقصى، في المستقبل لأن تلك الحدود لم تتغير لحد الآن.

- الـــجيـــش:

الدارس للجيش في دول المغرب خلال العصور الوسطى يجد صعوبات كبيرة لقلة المصادر التي تؤرخ التاريخ العسكري ماعدا بعض الإشا[1] الخفيفة في بعض المصادر.

ولعل هذه المعضلة ترجعنا إلى كتاب أبي حمو موسى الثاني واسطة السلوك الذي تناول فيه الجيش الزياني في عصره الذي تميز بكثرة الحروب

ضد القوى الخارجية ،المتمثلة في الحفصيين والمرينيين وكذلك القبائل كمغرواة وبني توجين وبني عامر وسويد وحتى مع أقرب المقرّبين له وهو ابنه أبوتاشفين الثاني فبعض المعلومات الواردة في الكتاب هي[1] تجارب واقعية عاشها هذا السلطان مع سلبياتها وإيجابياتها وقد تركها لابنه ولمن يأتي بعده للاستفادة منها، إلا أنه يبدو لي أنّ ما ورد في الكتاب من نصائح لم يطبق في الميدان حتى من قبل أبي حمو موسى الثاني نفسه، ولو طبقت بعض تلك النصائح لما وصلت الدولة الزيانية إلى تلك الوضعية خلال فترة موضوع البحث.

أما فترة البحث فإنّ اعتمادنا كان منصباً على الوثائق الإسبانية خاصة التقارير التي تناول فيها أصحابها بعض المعارك.

- عنـــاصر الجيـــش:

لعل أول سؤال يتبادر إلى ذهن الباحث ماهي العناصر التي يتشكل منها الجيش الزياني وقد أجاب على السؤال السلطان أبو حمو موسى الثاني بقوله (ينقسم الجيش إلى أربعة أقسام خاصتك وقبيلك وانصارك ومماليكك)

- **أولا الخاصة:** أي أقرب المقربين للأمير ويتشكلون من أخلص شيوخ القبائل وعشائرها للدولة، والدور المنوط بهؤلاء استشارتهم والتعرف على أسرار القبائل التي ينتمون إليها ويقومون أيضا بدور تجنيد أفرادها حين تتعرض الدولة لأخطار خارجية، ولكي تستمر موالتهم للدولة لابد من إنزال كل واحد منهم في منزلته وترتيبه على قدر ما يليق به، ولعل أول من سلك هذه الطريقة

1- أبو حموموسى الزياني: وسطة السلوك مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم1374.

السلطان يغمراسن بن زيان عندما استقدم القبائل العربية واستغلّها في مواجهة أعدائه من المرنيين والحفصيين والقبائل الزيانية1.

أما في فترة موضوع البحث نجد ضعف الموالاة من طرف القبائل البربرية والعربية ولأنها استقلت عن الدولة واستولت على ما كانت في حاجة إليه مــن أراضي بفضل قواتها ولذا فهي ليست في حاجة إلى إقطاعيات من قبل أمراء بني زيان.

يضاف إلى ذلك أن المجتمع الزياني لم يكن متماسكا مثل ماكان عليه الحال في عصر قوة الدولة، فالقبائل التي كانت تموّل الدولة بالجند أصبحت تزود بــه أعداءها ومن الأمثلة على ذلك ماحدث لقبيلة بني عامر التي جندت قوتها لصالح أعداء بني زيان من الأسبان[2] وكذلك قبيلة سويد بزعامة شيخها حميد العبد حاكم تنس، لكن هذا لايمنع أنه في بعض الأحيان تتجند تلك القبائل وتتوحد لمواجهة القوى الخارجية مثل ماحدث خلال الهجومات الإسبانية على مستغانم ومزغران1543/1547[3] 1553

- **ثانيا:** قبيل الملك ،المقصود به قبيلة بني عبد الواد[4] وخاصة البطش الذي تنسب إليه الأسرة الحاكمة وحتى يمكن المحافظة على عصبية القبيلة وقوتها يجب أن لايوجّهه الأمير لغيره ولا يمنعهم من خيره ويختص منهم من يكون محبا ناصحا مخدوما وتقديم الأشياخ على المجموع:

1- ابن خلدون العبر مجا7 ص222-213 يحي بن خلدون بقية الرواد،ج 1، ص 39 .
2- الفصل الأول من هذه الرسالة ص 97.
3- الفصل الثاني من الباب الأول ص92 و ما بعدها.
4- ابن خلدون العبر ص 165

لكن من خلال دراستنا لهذه الدولة منذ تأسيسها إلى تاريخ سقوطها لاحظنا أن العصبية القبلية بدأت تضعف منذ تأسيسها نتيجة للصراع بين بطون القبيلة، مما أدى ببعضها إلى التحادف مع أعدائها والهجرة إلى الخارج (مضارب القبيلة).

وخلال فترة موضوع البحث زاد الضعف أكثر مما كان عليه من قبل نتيجة لموقف الأمراء من شيوخ القبيلة ،فتنصيب الأمراء لم يستشر فيه شيوخ بني عبد الوادي مثل ماكان عليه في العصر الذهبي للدولة كما أن الصراع المستمر بين أمراء الفترة الأخيرة من عمر الدولة الزيانية جعل بني عبد الوادي ينقسمون على أنفسهم، مما حال دون تجنيد أفرادهم لصالح الدولة فقل الجيش، لكن هذا لايمنع من استمرار وجود قادة ينسبون إلى بني عبد الوادي[1] هذا فيما يتعلق بالمتطوعين، أما الجيش النظامي فيتشكل مما يلي:

أولا: ويكون تواجدهم باستمرار إلى جانب الملك إلى الإقامة بعاصمة الدولة تلمسان وإما تنظيم هذه المجموعة فهو لا يختلف عن ما هو مألوف في الجيوش الإسلامية ميمنة وميسرة ومقدمه وسياقة بحيث تكون صورة الجيش مثل الطير يمثل الملك فيه القلب النابض.

الميمنة تتشكل من أشجع الجند وأقواهم لأنهم هم الذين سيصطدمون بقوة العدو في حالة الهجوم أوالدفاع.

والميسرة يكونون من مشاهير الفرسان وبما أن الجيش الزياني في العصر الذهبي كان الجزء الأكبر منه من قبيلة بني عبد الوادي[2] الزيانية وزناته تشتهر

1- أنظر رسالة المنصور بن غانم حاكم وهران الكونت دون الكوديني الموجودة بأرشيف سيمتكاس مجموعة الشؤون العسكرية الملف رقم 6 ورقة 37

2- أبو حمو موسى الزياني المصدر السابق ورقة 44.

بالفروسية، وأن قائد هذه الفرقة لابد أن تتوفر فيه شروط منها أن يكون عالما بأساليب الحرب، قد مارسها المرة بعد المرة.

وأما المسافة فهم الذين يتصلون بالأمير مباشرة لذا يجب أن يكونوا من الحماة، يبدو لي أن الدولة الزيانية قد حافظت على هذا التنظيم حتى نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي لأن القوة التي واجهتها خلال تلك المدة، أسلحتها لا تختلف عن أماكن لدى بني زيان إلاّ أنه خلال النصف الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وقع تطور كبير في تنظيم الجيش والأسلحة المستعملة التي لم يواكبها التطور بالنسبة لبني زيان وبقية بلدان المغرب الإسلامي والأمثلة على ذلك كثيرة منها ، أنّ القوة الإسبانية المحتلة للمرسي الكبير والتي لا يزيد عددهاعن الستة آلاف جندي استطاعت أن تواجه قوة زيانية تتشكل من عشرين ألف جندي قدمت لاستعادة المرسى الكبير ومنعتها من التقدم إلى أسوار المدنية باستعمالها المدفعية المرابطة بحصون المدنية[1]. وحتى الوثائق الإسبانية تشير لشجاعة جند بني زيان بل التفوق يرجع بالدرجة الأولى إلى نوع السلاح، لهذا نلاحظ أن قوة بني زيان في بعض الأحيان لجأت لما يعرف بحرب العصابات وأحسن مثال على ذلك أن الكونت الكوديتي عندما كان عائدا من تلمسان، اعترضته فرق من الجيش الزياني استعملوا في مواجهاتهم المباغتة[2] ثم الانتقال إلى الجبال الصعبة وإسقاط الحجارة على الجيش خلال اجتيازه المناطق الجبلية الصعبة.

1- أنظر الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة ص 28.

2- الفصل الأول من الباب الأول من هذه الرسالة ص 83.

وعندما كان يحصل على السلاح الذي يأتيه من الجزائر يكون النصر لصالحة مثل ماحدث في معركة تيفادا.1536 التي أسر فيها أكثر من ستمائة جندي إسباني زيادة على حلفائهم من بني عامر.

وأما القسم الرابع من أقسام الجيش فهو يتكون من العناصر الأجنبية وهم الأعلاج والنصارى والأغزاز والوصفان ويكون قدر هؤلاء قدر الحماة والأنصار[1] والهدف من وراء ذلك خلق توازن بين عناصر الجند وعند خروج عنصر من العناصر ضد الأمير يمكن أن يشغل العناصر الأخرى في قيمته.

استعملت الدولة الزيانية العناصر الآنفة الذكر في عصرها الذهبي خاصة منذ عهد يغمراسن إلى نهاية السلطان أبي تاشفين الأول.

فالأعلاج هم العبيد القادمون من البلدان الأوروبية وقد سبق للدول الإسلامية استعمال هؤلاء الذين عرفوا بالصقالبة وخلال عهد السلطان أبوحموموسى الأول تولىّ أحدهم وهو مفتاح قيادة الجيش الزياني وأن تواجدهم بكثرة يرجع في رأينا إلى ازدهار المبادلات التجارية بين بني زيان والدول الأوروبية وما يقال على هؤلاء ينطبق أيضا على الأفواج الذين قدموا من إفريقية بواسطة القوافل ،لأن تجارة العبيد عرفت مرحلة الإزدهار خلال العصر الذهبي للدولة. وأما الأغزاز فهم مهاجرون من أصل كردي قدموا من المشرق بعد سقوط بغداد تحت ضربات المغول سنة 655هـ/ استخدموا في جيوش دول المغرب الإسلامي ومنها الدولة الزيانية وخاصة في عهد السلطان أبي تاشفين الأول حيث تولىّ موسى الكردي قيادة الجيش وحقق انتصارات كبيرة لصالح بني زيان ثم نكبه ولعل ذلك أثرّ على هؤلاء.

1- الباب الأول: الفصل الثالث من الرسالة ص23

وأخيرا النصارى، بدأ استعمالهم منذ عهد يغمراسن بن زيان واستمر تواجدهم حتى هذه المرحلة من حياة الدولة الزيانية.

فرقة مماليك الملك، ضعفت هي الأخرى خلال فترة موضوع البحث بسبب العوامل التالية منها ضعف الحالة الاقتصادية لأن الوصفان والعلوج كانوا يشرون من أسواق العبيد فضعف التجارة الخارجية بسيطرة الأوروبيين على أسواق العبيد في إفريقية، وانعدام الأمن في الطرقات حال دون وصول الأعداد التي يحتاج إليها الجيش الزياني.

وما يقال عن الزنوج ينطبق على العبيد الأوروبيين، لأن أوضاع أوروبا خلال فترة موضوع البحث تغيرت كما كانت عليه في العصور الوسطى مما قلل من استغلال رجالها كعبيد.

كما كان للصراع بين أمراء بني زيان دور في التخلص من عنصر الأغزاز الديني لم يرد ذكره خلال النصف الأول من القرن10 هـ/16م.

أما التفرقة وخاصة من إسبانيا قلّ استعمالهم عما كان عليه في الماضي لعدم الثقة فيهم لأن أمراء بني زيان دخلوا في حرب مع الإسبان الذين يحتلون أراضيهم زيادة على ما سبق فإن تجنيدهم يحتاج إلى أموال أكثر مما كان يدفع لغيرهم من عناصر الجند.

- قيـــادة الجيـــش:

فيما يخص القيادة، يرمي السلطان أبوحموموسى الثاني أن يكونوا من أنجاد جندك صادقين في محبتك، وافين بوعودك ذوحزم وكفاية ومعرفة ودراية لايصلون إلى الرغبة بمضرّة بل يسدون الثغور ويصدّون العدو اللّدود،

ويحطّون البلاد ويمنعونها من كل باغ وعاد[1]. يستنتج من النص أن هناك شروطا في تولي قيادة الجيش الزياني إلاّ أنها لم تحترم في جميع المراحل التي مرّت بها الدولة الزيانية فالكفاءة إذا وجدت يكون التصدي لها من خلال المؤآمرات التي تحدث بداخل قصور بني زيان فقد تمت تصفية موسى الكردي بعد انتصاراته.

وعن علاقة الجيش بالرعية ،فالمصادر التي بين أيدينا تعرضت إلى عملية النهب والسلب التي عرفتها أرياف الدولة الزيانية. وقد أورد المازوني مجموعة من النوازل لها علاقة بهذا الموضوع وخاصة في مرحلة انحطاط الدولة. أما فترة موضوع البحث فإن أهم مصدر تناول موضوع القيادة هي الوثائق الإسبانية ومن خلالها تستنتج بأن القائد العام للجيش هو المزوار الرجل الثاني في الدولة[2].

وخلال وفاة مولاي أبو عبد الله 1534[3] كان قائد حرس الأمير أحد أفراد الأسرة الزيانية أبو زيان إلى جانبه القائد على التركي يضاف اليهما مولاي مغنى وابن طرد من الأسرة الحاكمة.

كما ورد اسم قادة آخرين وهم ابن حدوش العبد الوادي وابن المـــلاح وأبـــو شيمة الملياني وابن هلال وابن عمور.

وتنظيماتها وهي المتمثلة في استعمال الجوسسة ضد العدو وفي هذا الصدد يقول: يجب أن يكون لك جواسيس في بلاد العدو يراقبون أفعاله وعيون تلاحظ

1- أبو حموموسى الزياني المصدر السابق ورقة 35

2- من أبرز العائلات الراشدية الذين تولوا هذا المنصب خلال فترة موضوع البحث آل غانم الراشدي ومن أبرزهم المنصور ابن غانم انظر الباب الأول الفصل الثالث من هذه الرسالة ص 82.

3- نفس الباب والفصل ص 83.

أعماله وتشاهد أحواله لإظهار قوته ليلا ونهارا يسألون عن أحوال العدو سرا وجهارا، فكلما زعم هذا العدو خداما وأظهر فيك أطماعا جاءت الجواسيس باخباره[1].

وظّف بنو زيان هذا السلاح في العصر الذهبي واستعملوا وسائل الجوسسة للحصول على معلومات تتعلق بقوة العدو وقد تعرضت المصادر إلى الموضوع إلاّ أنها لم تعطه ما يستحق، فقد ذكر أن السلطان أبا سعيد عثمان بـــن يغمراسن أرسل جارية مخبرة إلى قصر السلطان المذكور وكلّفها بإيصال المعلومات عنه إليه، وبالفعل كانت تراسل أبو عثمان عن قوة بني مرين وعلى الخصوص ما يتعلق بخططهم المتمثلة في احتلال أراضي بني زيان.

أما فترة موضوع البحث فإن الدولة الزيانية قد تخلت عن استعمال الجوسسة عكس القوى المعادية لها وعلى الخصوص الأسبان الذين تمكنوا بفضل جواسيسهم المندسين في تلمسان وغيرها من المدن الدولة الزيانية للتعرف على نقاط الضعف، كما لعبوا دورا هاما في كثرة المؤامرات التي عرفتها بلاد بني زيان ومن بين العناصر التي جندتهم إسبانيا لصالحها أفراد من الجالية اليهودية وفي بعض الحالات بعض أنصار الملك، يضاف إلى هؤلاء أفراد من الأسرة الحاكمة وشيوخ القبائل الذين كانت سياستهم متذبذة في موالتها لأطراف الصراع.

وخلاصة القول أن المؤسسة العسكرية الزيانية عرفت هي الأخرى انحطاطا كان من أبرز العوامل التي حالت دون مواجهة القوى الخارجية التي تكالبت عليها الحصون.

1- حمو موسى الزياني المصدر السابق ورقة 56 ب

عرفت الدولة الزيانية منذ تأسيسها حتى نهاية عصرها الذهبي إعطاء أهمية كبرى لتحصين مدنها وعلى الخصوص عاصمتها تلمسان وبناء حصون وقلاع بالقرب منها أوفي المناطق المجاورة للدولة المرينية والحفصية ،وقد تعرض السلطان أبوحموموسى الثاني إلى الموضوع فقال: وصفة المعقل أن يكون حصنا حصينا قد يشتمل على الماء والمختزن تجعل فيه ذخائرك وأموالك وأثاثك وأمتعتك وأثقالك يسكن فيه أجود أجنادك وحماتك وقوادك تشحنه بالرجال المرتجلة وأثر عداء من الرجال المخصصة وتسكن فيه أهل الصناعات وأرباب التجارات والبضاعات حتى لا يحتاج الحصن لغيرهم وليكن غرس ذلك الحصن ما يكون فيه الانتفاع مثل التين والزيتون[1].

أما ما جاء في هذا النص ينطبق على الحصون والقلاع التي أسستها الدولة الزيانية، ومن بينها حصن تمزيز دكت بولاية بجاية حاليا. وقد توصل الأثريون في بجاية إلى تحديد موقعه ومساحته ووضعوا له مخططا، هـذا الحصن ساد في فترة زمنية قصيرة كان الغرض منه التضييق على مدينة بجاية، كان يحتوي أيضا على المؤونة التي تسمح للجند البقاء بداخله فترة زمنية طويلة.

خلال فترة موضوع البحث لم تتعرض المصادر إلى قلاع أو حصون شيّدت من قبل أمراء بني زيان في هذه المرحلة من حياة الدولة بل كل ما ذكر انهم شاركوا في بناء حصن الأسبان في كل من أرزيو وارشقول، وقلعة العناية

1- ابو حمو موسى الزياني واسطة السلوك ورقة 49 ب
خلال الملتقي الخاص بذكرى مرور ألفي سنة على تأسيس مدينة سطيف أطلعت على مخطط تمزيز دكب في المعرض المقام بهذه المناسبة وكان منعقان الملتقى في أواخر أفريل 1997 بمتحف سطيف.

بالقلاع والحصون وإعادة تحصين مدينة تلمسان كان عاملا من العوامل التي ساعدت القوى الخارجية في السيطرة على أراضي للدولة واحتلال عاصمتها مرارا، كما حدث من قبل عروج سنة1517 والكوديتي 1543 .

- الجوســة:

يتعرض السلطان الزياني إلى نقطة حساسة في تاريخ الجيوش، هذا فيما يتعلق بالجيش، أما الأمن فإن الدولة الزيانية في عصرها الذهبي أعطت أهمية للشرطة وحدّدت لنا جوانب تدخلها وفي هذا الصدد يقول أبو حمو موسى الثاني:

«ويدخل عليك صاحب شرطتك وحاكم بلد حضرتك ليخبرك بما تزايد في ليلتك ثم لا تخفى عليك شيئا من أحوال رعيتك وبلدك ومع ضبط مملكتك عن القليل والكثير والجليل والحقير».

فالذي يستفاد من النص أن بني زيان كانوا يملكون جهازا للأمن يتواجد بعاصمة الدولة الزيانية وبقية مدنها إلاّ أنه تعرض هوالأخر للضعف مما أدى إلى إنعدام الأمن بداخل المدن وبالأسواق والممالك التجارية خلال فترة موضوع البحث.

- الأجــور:

بنسبة لأجور الجند يقول السلطان أبو حمو موسى الثاني:

« ترتيب الجيش في العطاء يكون على قدر شجاعتهم واسبقيهم في الخدمة واصطناعهم ومحبتهم وانتقادهم واجتهادهم وهؤلاء أهل الطاعات والمجابي.

أما المماليك المنقطعين إليك المتطرفين في الخدمة بين يديك فإن جرايتهم في المرتب مشهور وأرزاقهم من بيت المال مباشرة جريا على توالي الشهور»

المصادر والمراجع

*** المخطوطـــات**

- التنسي: نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان مخطوط بالخزانـــة العامـــة بالرباط تحت رقم444

- ابوسعيد العقباني: تحفة الناظر وغنية الذكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر.

- مؤلف مجهول: زهر البستان مخطوط بمانشتر ببريطانيا

- مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين مخطوط بالمكتبة الوطنية.

- المازوني: الذرر المكنونة في نوازل مازونة مخطوط بالمكتبة الوطنيـــة تحـــت رقم1335/ 1336

- الياكوتي: تلخيص الاثار وعجائب المسالك والامصار مخطـــوط ومـــصور على ميكروا فيلم بمعهد المخطوطات القاهرة.

*** المصـــادر**

- ابن ادم ابوعبيد قاسم: الخراج تحقيق محمد شاكر الطبعة الثانيـــة القـــاهرة 1384.

- ابن الابار ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي ت سنة658: كتاب الحلة السيراء ط1 تحقيق حسن مؤنس الشركة العربية للطباعة والنـــشر القاهرة1963.

كتاب التكملة لكتاب الصلة تحقيق محمد بن ابي شنب والفريـــد بـــل المطبعـــة الشرقية الجزائر.

- ابن الاثير ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت630: الكامل في التاريخ8 اجزاء نشر دار الكتاب العربي بيروت1967/1387

- ابن بشكوال ابي القاسم خلف بن عبد الملك: كتاب الصلة مراجعة عزت العطار الحسيني مكتبة المثنى بغداد1955/1374

- ابن بطوطة شمس الدين ابو عبد الله بن ابراهيم ت703: رحلة ابن بطوطة دار صادر بيروت للطباعة والنشر بيروت1964/1384

- ابن حزم ابو محمد بن سعيد456: جمهرة انساب العرب تشر ليفي بروفنسال القاهرة1948

- ابن حوقل ابو القاسم ابن حوقل النصيبي ت367: كتاب صورة الارض ط2 مطبعة بريل ليدن1938

- ابن خردادبة ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله في حدود300هـ: المسالك والممالك بريل ليدن1889

- ابن الخطيب لسان الدين بن عبد الله ت776: اعمال الاعمال فيمن بويع قبل الاحتلام تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني دار الكتاب الدار البيضاء 1964.

الاحاطة في اخبار غرناطة نشر محمد عنان رقم الحلل في نظم الدول تونس1899/1316.

نفاضة الجراب تحقيق محمد العبادي بدون تاريخ

اللمحة البدرية في الدولة الناصرية القاهرة1947

معيار الاختبار في ذكر المعاهد والاثار الرسالة الثالثة من مشاهدة لسان الدين ابن الخطيب ببلاد المغرب جامعة الاسكندرية1958

- ابن خلدون عبد الرحمان ت808: العبر وديوان المبتدا والخبــر فــي ايــام العرب والعجم ومن عاصرهم من دوي السلطان الاكبر دار الكتــاب اللبنــاني للطباعة والنشر بيروت1968
المقدمة دار الكتاب اللبناني1968
التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا تحقيق ابن تاويــت القــاهرة لجنــة التاليف والنشر 1951
- ابن خلدون يحيى: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد نشر الفريد بل مع ترجمة الى الفرنسية جزءان ج1904/1 والثاني في قسمين1913 وقــد حقق الدكتور حاجيات الجزء الاول سنة1980
- ابن خلكان ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ت681: وفيات الاعيــان وانباء ابناء اهل الزمان تحقيق احسان عباس دار الثقافة بيروت1971
- ابن ابي زرع ابو الحسن علي بن عبد الله الفاســي ت ق8هـــ: الانــيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس
- ابن ابي دينار ابو عبد الله محمد بن ابي القاســم الرعينــي القيروانــي ت 1681/1092: المؤنس في اخبار افريقية وتونس تحقيق محمــد شــمام طبــع المكتبة العتيقة ط 3 تونس 1967 ونشر مطبعة النهضة تونس 1950
- ابن صاحب الصلاة المن بالامامة تحقيق ممد التازي الدار البيضاء
ابن ابي الضياف احمد ت1874/1291؛1875
اتحاف اهل الزمان باخبار تونس وعهد الامان ج 1 ط تونس 1963
- ابن سعيد علي بن موسىالمغربي: كتاب الجغرافيــا ط2 تحقيــق العربــي اسماعيل ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982
- ابن الصغير حي في النصف الثاني من القرن الثالث الهيجري

تايخ ائمة الرستميين 1908

- ابن عبد الحكم عبد الرحمان بن عبد الله ت 257: فتوح افريقية والانـــدلس تحقيق انيس الطباع مكتبة دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 19

- ابن عذارى المراكشي ابو عبد الله محمد ت في القرن السابع الهيجري البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب تحقيق ج ؛ س؛ كولان وليفي

- بروفنسال دا الثقافة بيروت1384/1965

ابن فرحون ابو الفداء ابراهيم علي بن محمد توفي799/1397

الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ط 1 دار السعادة القاهرة1329

- ابن قنفد القسنطيني: الفارسية في مباديء الدولة الحفصية

الوافيات نحقيق عادل نويهض.

- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي الانـــصاري ت711: لـــسان العـــرب المحيط اعداد يوسف الخياط دار لسان العرب بيروت1970.

ابن مريم ابو عبد الله محمد بن احمد الشريف المليتي المديوني التلمساني البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان تحقيق محمد بن ابي شنب الطبعـــة الثعالبية الجزائر 1326/1908.

- ابو الفداء عماد الدين بن اسماعيل بن محمد بن عمر ت732: تقويم البلـــدان تصحيح رينود ديسلان باريس1840

المختصر فيأخبار البشر جزءان المطبعة الحسينية القاهرة

- البغدادي ابن عبد المؤمن ت839/1438: مراصد الاطـــلاع علـــى اســـماء الاماكن والبقاع طبعة حديثة في 3 اجزاء

- البكري ابو عبد الله ت487: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك مكتبة المثنى بغداد ومطبعة الحكومة الجزائرية 1857
- التيجاني ابو محمد عبد الله بن محمد التيجاني كان حيا سنة 13/702 رحلة التيجاني المطبعة الرسمية تونس 1958
- التنسي ابومحمد عبد الجليل التنسي: نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان حقق جزء منه محمود بو عياد 1977
التمبكتي ابو العباس احمد بابا بن احمد الصنهاجي السوداني 963 / 1555 نيل الابتهاج بتطريز الديباج وهو على هامش المذهب لابن فرحون ط 1 القاهرة 1329
- الدباغ ابو زيد عبد الرحمان الانصاري ت696: معالم الايمان في معرفة اهل القيروان ط2 اكمله وعلق عليه ابو الفضل القاسم بن عيسى بن يحيى التنوخي ت839 تحقيق محمد الاحمي ابو الانوار واخروون مكتبة الخانجي 1968
- الدرجيني ابو العباس احمد بن سعيد ت670: كتاب طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق ابراهيم طلاي مطبعة البعث قسنطينة 1974/1394.
- الزركلي خير الدين: الاعلام 11 جزء ط 3 بيروت 196
الزاركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تحقيق محمد ماضور تونس المكتبة العتيقة 1966
- الزهري: كتاب الجغرافيا نشر محمد الحاج صادق مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي دمشق 1967 ؛1968

- الضبي ت 459: بغية الملتمس في تاريخ اخبار الاندلس علمائها وامرائهـا وشعرائها ودوي النباة ومن دخل اليها واخرج منها ط مجريد1884.
- الشيرازي عبد الرحمان بن ناصر بن عبد الله الشافعي ت1193/589. نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيق ونشر باز العريني القاهرة1946.
- العمري ابن فضل الله ت1349/749: مسالك الابصار في ممالك الامصار نشر وتحقيق احمد زاكي القاهرة1924.
- العبدري ابو محمد عبد الله بن محمد العبذري القـرن8 : رحلـة العبـذري المسماة بالرحلة المغربية تحقيق محمد الفا سي الرباط.

الفهرس

الصفحة

الفصل الأول

الــــفــــصــــل الثاني

الـــفــصـــل الثالث

الــفــصــل الرابع

Achevé d'imprimer sur les presses
de l'imprimerie HASNAOUI M.
09, Rue Med BOUCHAKOUR. Alger. - Tél. : 021 74 70 83
Juin 2009

هذا الكتاب

دراسة تارخية، سياسية، اقتصادية، ثقافية واجتماعية..
تعد مرآة صادقة لأحوال الدولة الزيانية، التي تعتبر من أهم الدول التي نشأت على أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون..

وقد مرّت الدولة الزيانية بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلدون حيث كان شاهدا هو وأخوه يحى بن خلدون على أهم مراحل هذه الدولة.

منشورات الحضارة
ص.ب 04 بئرالتوتة -الجزائر
هاتف فاكس: 021.44.34.41

الإيداع القانوني 759-2009
ردمك 978-9961-767-67-2

صدرهذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

الدكتور مختار حساني

تاريخ الدولة الزيّانية

الجزء الثاني

الأحوال الاقتصادية والثقافية

منشورات الحضارة

تاريخ الدولة الزيانية

الجزء الثاني

الأحوال الاقتصادية والثقافية

الدكتور: مختار حساني



منشورات الحضارة

طبعة 2009

الإيداع القانوني: 760-2009
ردمك:2-67-767-9961-978

منشورات الحضارة
ص ب 04 بئر التوتة 16045 الجزائر
هاتف/فاكس، 41 .34 .44 (021)

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

المقدمة

تعتبر الدولة الزيانية من أهم الدول التي نشأت على أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون 1232- 1562. وقد مرّت بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلدون حيث كان شاهدا على مرحلة هامّة من حياة هذه الدولة، هو وأخوه يحي ابن خلدون صاحب كتاب بغية الرواد.

وتميّزت هذه المرحلة بحروب متواصلة مع القوى الخارجية التي كانت تعمل من أجل السيطرة على أراضيها لأهميتها من الناحية الاقتصادية اذ تعتبر الدولة الزيانية من بين الدول التي أعطت أهمية كبيرة للتجارة الداخلية والخارجية مع محيطها (البحر المتوسط، السودان الغربي والمشرق العربي) فالوثائق التي تحصّلنا عليها في دور الارشيف بالدول الغربية وكذلك ما بقي من التراث المخطوط الذي يعود لعصر هذه الدولة يؤكد عظمتها في هذا الميدان.

أما في الجانب الثقافي فكانت عاصمتها تلمسان من بين المراكز الهامة، حيث كان لعلمائها أثر كبير في الحواضر الاسلامية في بلاد المشرق وبلاد المغرب الاسلامي. فالتراجم المتوفرة لدينا تؤكد هذا الدور الهام الذي قام به علماء الدولة الزيانية ونذكر منهم على الخصوص: أبو زكريا ويحي المغيلي المزوني الذي ألّف الدرر

المكنون في نوازل مازونه وتعرض فيــه إلــى الاحــوال الــسياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال مجموعة مــن النــوازل لعلمــاء الجزائر، وكذلك محمد بن عبد الكريم المغيلــي التلمــساني، رجــل الاصلاح في عصره...

وهذا العمل إلذي نقدّمه للمكتبة الجزائرية يعدّ مرآة صادقة لاحوال هذه الدولة انطلاقا من دراسة تاريخية اقتصادية، اجتماعية وسياسية.

د. مختار حساني

برج الكيفان في 8. 10. 2007

البـــاب الأول

الأحـــوال الاقتصاديـــة

الــفــصــــــــل الأ و ل

الأوضـــاع الاقتـــصـــاديـــة

- المــدخـــــل:

الاقتصاد هو عصب الحياة بالنسبة إلى أي نظام سياسي ذلك أنـــه هـــو الذي يحدّد مدى ثراء الدولة أو فقرها ولا شك أن الحياة الاقتـصادية تـستمد وجودها من امكانيات اقتصادية تتماشى بها المؤسسات المختلفة فـي الدولـة سواء فيما يتصل بالزراعة أو التجارة أو الصناعة.

وإذا كانت موارد الدولة تحدد من خلال هذه المجالات فإنها تتأثر إيجابيا بالوضعية السياسية وما يقوم بين الدولة وجيرانها من حـروب كمـا تتـأثر بالوضع الاجتماعي وخصوصا ما يتصل بالأمن، وكلما كانت الدولة مستقرة أصبح نظامها الاقتصادي أكثر تطورا ورقيا والحال بالنسبة للدولة الزيانيـة يبدو في وضع متواز بين التحكم في مقدرة الدولـة الاقتـصادية ومواجهـة الضغط العسكري والسياسي من خارجها واضطراب الأمن داخلها وتبدو هذه الوضعية نصف مستقرة لم تصل إلى حد الانهيار أوالاستقرار الكامل الـذي يؤدي إلى الرقي المنشود والتقدم في المجال الاقتصادي وأول ما نتعـرض له في هذا الباب الملكية.

- الملكية:

بالرغم من تزايد العناية خلال السنوات الأخيرة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية فإن كثيرا من القضايا لا تزال مطروحة ولا يعرف منها الباحث إلا القليل، منها البنية الاقتصادية والاجتماعية فيما نعلمه عن الحياة الزراعية ما يزال قليلا لا يسمح

لنا بالتعمق في تحليل النصوص الدقيقة ولاسيما خلال القرون الخمسة الأولى[1] لناريخ المغرب الإسلامي قبل بروز ظاهرة الفتاوى والرحالات.

ولكن من أكبر المشاكل التي تعترض سبيلنا في محاولة التعرف على الهياكل الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الزراعي الزياني هي نظام الملكية للأرض وهذه الأخيرة لا يمكن فصلها عن بقية بلدان المغرب الإسلامي لأنها تشكل جزءا منها.

من ناحية أخرى فاذا كانت كتب الرحالة العرب تمدنا ببعض المعلومات عن المناخ والموارد المائية وعن زراعة البستنة في ضواحي المدن وعن أنواع الزراعة وتربية المواشي فإنها لا تفيدنا بشيء ذا شأن عن نوع الملكية وأوجه انتقالها وأساليب استغلالها.

فالمصادر الإسلامية أمدتنا بمعلومات دقيقة عن ملكية الأرض في العراق ولاسيما أراضي السواد وكذلك مصر وبلاد الشام.

أما بالنسبة للمغرب الإسلامي، فيرى الجنحاني أنّ المفاهيم المتصلة بالملكية الزراعية في البلاد المفتوحة مثل الفيء والغنيمة والجزية والخراج والضياع والإقطاع والحماية ونظام الجباية الموظفة على إنتاج الأرض لاتزال مطروحة بالرغم ما كتب عنها قديما وحديثا وأنها قد تطورت حسب الواقع الاقتصادي والاجتماعي واختلفت من منطقة جغرافية إلى أخرى لأسباب متنوعة، وما نعرفه عن التنظيم لشؤون الجزية والخراج في صدر الإسلام في مناطق مثل

1- عن ملكية الأرض في العراق ولاسيما في أراضي السودان وفي بلاد الشام ومصر انظر تطور الأراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الأموي ،مخطوطة رسالة ماجستير قدمها محمد على نصر الدين إلى قسم التاريخ جامعة بغداد وانظر عن بلاد الشام صالح حسين الحياة الزراعية في الشام في العصر الأموي عمان1978 ص43 انظر جاسم صلبان علي الحياة الزراعية في القرن الأول.

العراق ومصر يبقى غامضا في بلاد المغرب الإسلامي وأنواع الإقطاع الذي عرفته الخلافة العباسية ابتداء من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.

إلاّ أنه يبدو لي أن العرب المسلمين الفاتحين الأوائل قد انتهجوا نفس السياسة التي سلكوها في العراق وبلاد الشام وخاصة في مصر، حيث كان المغرب الإسلامي تابعا لها في المراحل الأولى للفتح، كما نجد صعوبات في معرفة كيفية فتح المغرب هل أراضيه فتحت عنوة أو صلح، وقد نقل عبد الله بن أبي زيد في كتابه النوادر والزيادات على المدونة عن سحنون قال: " كشفت عن أرض إفريقية فلم أقف عنها على حقيقة هل هي فتحت عنوة أوصلح؟، وسألت عن ذلك علي بن زياد فقال: " لم يصح عندي فيها شيء"[1].

أما الونشريسي[2] فقد تعرض في كتابه المعيار لهذه النقطة، فقال: " أنها عنوية وقيل فتحت صلحا، وقيل بالتفصيل بين السهل والجبل وقيل بالوصف".

أما بلاد المصامدة وأراضي مراكش فقد أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولاعنوة[3].

فالنصوص الثلاثة لم توضّح لنا وضعية الأراضي في بلاد المغرب الإسلامي، وهذا جعل بعض الباحثين كالجنحاني يرى أنه يمكن قياس ملكية الأرض وتنظيم شؤون الخراج بالقياس إلى مصر وهو قياس مع الفارق لأن الخراج وضع على أرض مصر من أول لحظة أما أراضي المغرب الإسلامي فقد أسلم عنها أهلها فيما عدا أراضي الفئة الحاكمة وفئة النبلاء

1- الجنحاني نفس المقالص 175.

2- الونشريسي المعيار ج 6 ص 133 ؛134.

3- المازوني المصدر السابق ج 2 ورقة 45.

البيزنطيين فقد أصبحت ملكا عاما يتصرف فيها الأمير باسم الخليفة ويقطع منها، وهذه يستوي فيها جميع الولايات الإسلامية في المشرق والمغرب[1].

وخلال القرن التاسع الهجري الخامس عاشر الميلادي نجد من بين الذين تعرضوا لنظام الملكية العقباني[2]، فإنه أثناء حديثه عن الحكم في أرض الصلح[3] والعنوة[4]، قال قلت: " وأما الأرض التي تخلّى عنها أهلها بغير قتال فهي للمسلمين يقطعها الامام اقطاع تمليك إن ظهر له وجه المصلحة في ذلك وأما الأرض التي أسلم عليها أهلها بغير قتال ولا أخذت عنوة فهم يبيعون ويتصرفون بما شاؤوا وليس لأئمة المسلمين نظر فيها"[5].

وأغلب الظن أن معظم الأراضي في المغرب الإسلامي ومن بينها أراضي الدولة الزيانية كانت قد تركت لأصحابها إبّان الفتح الإسلامي فيما عدا الخطط التي وضعها حسان بن النعمان لبعض بطون زناتة بغرض تحديد أماكن خاصة بكل بطن من بطونها وكان الهدف الأساسي العمل على استقرارها ولهذا نرى أن الملكية انتقلت عن طريق البيع والشراء والتوريث، لأن الفاتحين للمغرب

1- الماوردي الأحكام السلطانية القاهرة 1909 ص 256

2- بو يعلى الحنبلي الأحكام السلطانية القاهرة 1966

3- الصلح معنى الصلح من الصلاح ضد إلفساد والصلح هنا معناه أن المسلمين إذا نزلوا على حصن أو مدينة خانهم أهلها فخرجوا إلى المسلمين وبدلوهم عن ناحيتهم مالا أو خراجا انظر ياقوت الحموي معجم البلدان ج 1 ص 39 دار صادر بيروت 195/1374.
أبوعبيد كتاب الأموال القاهرة1352 ص136؛ أبو يوسف كتاب الخراج القاهرة1352 انظر أيضا عبد الواحد محم ملكية الارض في الاسلام القاهرة1319 ص171.

4- العنوة هو ضد الصلح العنوة أخذ الشيء بالغلبة

5- ياقوت الحموي نفس المصدر ج1 ص40؛ المازوني المصدر السابق ج2 ورقة43 العقباني تحفة الناضر ص189

لـــم يتركوا عناصر عربية على الخصوص في الأرياف ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى عاملين أساسين:

أولا أن الأراضي المغربية بعد الفتح الإسلامي بقيت لأصحابها ولم تنزع منهم مثل ما حدث في المشرق الإسلامي خلال العهد الأموي.

- ثانيا استمرار الاضطرابات وعلى الخصوص ثورات الخوارج:

*** أنـــواع الملكيـــة:**

تنقسم الملكية في المغرب الإسلامي إلى ملكية عامة وخاصة فالأولى تخص البادية حيث وجدنا بعض الأراضي امتلكت من طرف قبائل قام أفرادها بالعمل فيها بطريقة جماعية، وتسمىّ بأراضي العروش أي الملكية المشاعة وكذلك الحمي[1] وهو ما تحميه القبائل الرعوية من البدو الرحل واستغلالها جماعيا في تربية المواشي ويدخل في هذا الإطار ما يعرف بنظام الحبوس الذي يخص قطاعا من الأرض انتقل من الملكية الخاصة إلى الملكية العامة وذلك بزيادة التأثير الديني على المجتمع الزياني علما أن هذا النظام صار يمثل نسبة كبيرة من مجموع الأراضي الزراعية التي آلت بعد حبسها للانفاق من عائداتها علـــى المرافق العامة مثل المساجد والمدارس والزوايا وما إلى ذلك، وقد زادت أهمية هذا الاتجاه منذ القرن السابع الهجري الثالث عاشر الميلـــادي وأدى إلى انتشار الزوايا والمدارس في ربوع البلاد حتى أصبحت المؤسسة الواحدة من المساجد والمدارس والزوايا تملك مقاطعة بكاملها مثل زاوية سنا[2]

1- الحمي يعني في الأرض الكلأ والماء وذلك بتعدي مساحة الأرض لرعي الماشية. انظر الأحكام السلطانية الطبعة الأولى القاهرة 1884 ص 256 انظر أيضا عواد مجيد الأعظمي الزراعة والاصلاح الزراعي في صدر الاسلام ص35 .

2- المازوني الدرر المكنونة ج 2 ورقة 44.

في ولاية غليزان التي كانت تستغل تلك الأراضي بأكملها ويؤيد ما ذهبنا إليه أن الأراضي التي كانت تابعة للحبوس قد دخلت في الدورالاقتصادية العامة رغم الفتـــاوى الفقهية التي تمنع بيعها وانتقالها.[1] ويبدو ذلك من شكوى الفقهاء من اعتداءات الحكومة على أراضي الحبوس، حيث استثمروها وزرعوها اقطاعات بغير سبب وقد عالج فقهاء الدولة الزيانية فأجازوا اقتسامها بغرض المغارسة وصدرت في ذلك فتاوى من شيوخ تلمسان في الأراضي المحبوسة على المدرسة اليعقوبية.

ويدخل في هذا الإطار أراضي الدولة التي تخضع مباشرة للسلاطين حيث كانوا يتصرفون فيها كيفما شاؤوا وذلك بمنحها إقطاعيات لبعض الأشخاص المقربين من رؤساء القبائل ليستغلونها، وفي هذا الصدد يقول المازوني[2]: "سئل العقباني عن قوم بأيديهم أراضي بأوامر السلاطين المتقدمين ومن بعدهم يغتالونها بأنواع الغلل زمن الحرث وغيره والأرض التي للأئمة إنما يعطونها في العادة اقطاعا لا تمليكا وهي جماعية للمسلمين".

وأن الفرد الذي يمنح هذه الأراضي له الحرية الكاملة في استثمارها والحصول على انتاجها، لكنه لا يملك حق بيعها، ومن هنا ندرك أن هذه الأراضي المقتطعة إنما تقدم مقابل خدمات يؤدونها للدولة، وهنا جاز للسلاطين حق نزعها في أي وقت، من ذلك ما روي أن رجلا عمد إلى تلك الأرض فباعها وتصرف فيها وتداولها الملاك إلا أن السلطان انتزعها من يد مالكها.

من كل ما أوردناه يتبين لنا أن اعتداءات كانت تقع على مثل هذه الملكيات العامة المقتطعة لبعض الأشخاص بغرض الانتفاع بها وأن ملوك الدولة كانوا

1- نفسه ج 2 ورقة 44

2- الونشريسي المعيار ج 5 ص126

يتدخلون في بعض الأحيان لإزالة هذه الملكية وإعادة الأرض إلى الملكية العامة، وفي ذلك يقول الونشريسي: " سئل العقباني عمن كان مواليا لبعض الملوك وله تدخل لعمالة وجباية ثم قام قائم في ذلك الملك فقتله ثم سلبه جميع أملاكه قديما وحديثا".

هذا النص يبين لنا نوع جديدا مما يؤول إلى الملكية العامة بالاضافة إلى مصادرة أراضي عمال الدولة الذين يستغلون نفوذهم بالكسب غير المشروع، وهذه الظاهرة عرفت في التاريخ الإسلامي و خاصة في فترات الضعف والصراع الذي يقوم بين أفراد الأسرة الحاكمة، ما كان له تأثير كبير على وضعية ملكية الأراضي وانتقالها من الملكية الخاصة إلى الملكية العامة، والثانية الملكية الفردية و هي بدورها تنقسم إلى قسمين:

- الأراضي الواسعة التي بأيدي الملاك الكبار في الأرياف الذين يفلحونها بواسطة العبيد.

- الأراضي المجزأة إلى قطع صغيرة لكثرة التصرف فيها بالإرث والبيع أو الشراء.

*** الاقطـــاع:**

تعرضنا لنوعين من الملكية هما الملكية العامة والخاصة، ونتعرف هنا على نوع من الملكية لا تدخل في هذا الإطار أو ذاك لاهي ملكية خاصة أوعامة وهو نظام الاقطاع[1]. حدد أبو يوسف هذا النظام فقال: " أن الأرض التي تكون لحاكم البلاد قبل فتحها أوتكون لرجل قتل في الحرب أو أن تكون من معين

1- الإقطاع أو القطائع تعني عملية منح أو إعطاء السلطة قطعة من الأرض لرجل يتصرف فيها باحيائها وزرعها ومفردها قطيعة انظر الخوارزمي المفاتيح القاهرة1341 ص40 أبو يوسف المصدر السابق ص 25 ؛26 ؛28 ؛235

مـــاء أو نحو ذلك، فهذه الأصناف من الأرض كان الخلفاء الراشدون يجيزون اقطاعها لمن شاءوا على أن يؤدي عشر مالها لبيت المال أو كثر أوأقل[1].

ويظهر أن قطع الأرض في عهد الرسول(ص) وما تلاه من الخلفاء الراشدين قد تركزت على الأراضي التي يجوز إقطاعها من قبل الإمام في قوله: "وكل أرض من أرض العراق والحجاز واليمن والطائف وأرض العرب وهي غير عامرة وليست لأحد ولا ملك لأحد ولا ورثته ولا عليها عمارة، أن يقطعها الإمام رجلا يعمّرها من ذلك أنه بعد هزيمة السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني في معركة بجاية سنة767/ 1366/[2] ثم التفّ العرب حول عدوه أبي زيان[3] الذي قام ينافسه على عرش الدولة فاندفع العرب إلى أرض التل الواقعة شمال أراضيهم فاحتلوها وعند ذلك أدرك أبو حمو موسى أن حلفاء أبي زيان لم يجتمعوا حوله إلا طمعا في الإقطاعات والأموال، فبعث في طلبهم وبدل لهم وأقطعهم الأرض التي أخذت عنوة من أيدي أصحابها[4] مثل ذلك أن السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني أقطع قلعة بني سلامة لأولاد عريف[5] وكذلك منداس وما جاورها، وقد علّق ابن خلدون على هذه الوضعية بقولـــه: " أصبحت بطون توجين كلها خولا لسويد وعبيدا لجبايتهم إلاّ جبل الونشريس فلم يزل لبني تغرين، وفي نص آخر يقول عن كثيرها ولجأوا إلى سيف البحر وحصل كل منهم على مايلي: موطنه من بلاد القفر فاستولى بنـــو يزيـــد

1- ابن ادنم أبي عبيد القاسم الأموال تحقيق محمد ص39 القاهرة1384 البلادري المصدر السابق القسم الرابع ص171.

2- ابن خلدون العبر مجا 6 ص 101

3- نفسه ج 6 ص 19

4- العبر مجا 6 ص 102 بغية الرواد ج 2 ص 198

5- ابن خلدون العبر مجا 6 ص 101

عــلى حمزة وبني حسن[1] كما كانوا من قبل واستولى بنو حسين على نواحي روينة والسويد على بلاد توجين كلها ما عدا جبل الونشريس وبني عامر على تسالة ومليانة إلى كدرة ومازونة لمحمد بن عريف ونزلوا لهم على سائر النواحي فاستولوا عليها وأوشكوا على الأمصار[2].

إن سياسة التنازل على الأرض لفــائدة القبائل العربية بدأت مع قيام الدولة، حيث جلب يغمراسن السويد وبني عامر إلى تلمسان وأقطعهم الأراضي المحيطة بالبطحاء وسيرات، فتوزيع الأرض على هذه القبائل كان بعد أخذ العهد عليها والميثاق أن تكون حليفه في الحرب والسلم، فإن حدث أن نكثوا العهد نزعت منهم من جديد وسلمت لقبائل أخرى موالية للدولة[3].

ومن هنا يتبين لنا أن هذه الأراضي بهذه الصفة التي أعطيت عليها لم تكن سوى أسلوب أنتهجه الزيانيون تبعا لمن سبقهم أوعاصرهم من الدول الإسلامية.

أما الآثار التي ترتّبت على ذلك فلا شك أنها كانت ضارة بالمجتمع حيث شكل هذا الإجراء الإقطاعي طبقة مستغلة لعمال الأرض وبذلك انتقلت الدولة من الملكية الخاصة والعامة إلى ما يعرف في العصر الحديث بإقطاعية الدولة التي أصبحت تملك الأرض وتملك حتى التصرف فيها[4] ثم انتقلت هذه الوضعية

1- وعن منداس انظر ابن خلدون نفس المصدر مجا6ص245 الحسن الوزان ص63 ابن خلدون العبر ج7ص358 نفسه مجا 6 ص 101 ؛102

2- وعن منداس انظر ابن خلدون نفس المصدر مجــا6 ص245 الحســن الــوزان ص63 ابــن خلدون العبر ج7 ص358 .نفسه مجا 6 ص 101 ؛102

3- الونشريسي المعيار ج5 ص44 وفيما يتعلق بانتقال الأرض من قبيلة إلى أخرى انظر ابــن خلدون

4- العبر ج7 ص315 المازوني المصدر السابق ج 2 ورقة 44

السيئة إلى القبيلة، فأصبح شيخ القبيلة يعطي كل ما ينتمي إلى قبيلته أي يسندها نوعا من الإمتيازات.

ولعل من أدق الأمثلة على ذلك، موقف بعض القبائل التي استعملها الزيانيون في مواجهة المعارضين لهم مثل مغراوة وبني توجين والثعالبة وحصين وذوي عبيد الله[1] ومن المستفدين من هذا النظام، يوسف بن مهدي من مشائخ قبيلة سويد وعنتر بن طراد من نفس القبيلة وداود بن هلال بن عطاف من بني عامر والحارث بن مالك من العطاف أيضا وشيوخ من الديلم والمنبات ومن ذوي منصور.

وقد انتهج نفس الأسلوب بني مرين خلال عهد السلطان أبي عنان، فاقطع شيخهم ونزمار بن عريف، جزء كبيرا من الأراضي التابعة لبني توجين كالسرسو والنواحي المجاورة له.

وفي عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني أصبحت البلاد تقريبا كلها إقطاعات للقبائل والأشخاص سواء في ذلك من كانوا من الأسرة الحاكمة أو من أنصارها، فقد أدى الخوف من بني مرين بالإضافة إلى الصراعات الداخلية إلى تدهور الملكية الخاصة[2].

فإذا علمنا أن هؤلاء إنما كانوا يمنحون الأراضي الجيدة الإنتاج تبين لنا أن هذه السياسة إنما قامت على حساب الملاك الأصليين فيما يشبه المصادرة رغم أنهم كانوا يدفعون عنها الضرائب، وفي ذلك يقول المازوني: أن أرضا معروفة لأناس ومنسوبة إليهم قديما وحديثا ينتفعون بها بالحراثة وغيرها ويؤدون

1- المعيار ج4 ص 251

2- كان سلاطين الدولة يعيّنون أحد أبنائهم على بعض المقاطعات ويتركون لهم حرية التصرف فيها وكأنها اقطاع لهم انظر العبر ج7 ص29 العبر ج7 ص228 بغية الرواد ج1 ص167

خراجها للإمام الخليفة ثم أن الإمام ملكها لرجل من شيوخ العرب لما رأى فيه من المصلحة تمليكا مطلقا والأرض مشتملة على محروث ومعطول.

وقد ازدادت هذه الوضعية مع ضعف الدولة الزيانية التي فشلت في مواجهة أطماع شيوخ القبائل.

أما رؤساء الطوائف الصوفية فقد توصلوا بسبب نفوذهم الروحي إلى امتلاك الأرض الواسعة، فقد روي أن جماعة من المرابطين أنعم السلطان عليهم بأزواج من الحراثة وعليها عيون ماء فاقتسموا الأزواج والعيون، فصار كل منها يشغل ما منح له بالقسمة من الأرض والماء[1].

ومن الذين استفادوا من هذا الاقطاع، فقهاء تلمسان أمثال التنسي والعقبانيين فالتنسي، أقطعه يغمراسن أرضا للانتفاع بها بعد قدومه من تنس، ثم بعد وفاته انتقلت إلى أبناء الإمام وهم من مدينة برشك في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول[2].

وخلاصة القول أنه إذا كان إقطاع شيوخ القبائل يستدعي المقاومة من طرف السكان فإن الطرق الصوفية كان لهم تأثيرهم على السكان نظرا لما تأديه الزوايا من خدمات، مثل التعليم والتربية الروحية وإطعام المسافرين.

وهناك نصوص أوردها بروسلار في المجلة الإفريقية[3] تتعلق بالوقف في تلمسان حيث كان السلاطين يعمدون إلى شراء الأراضي الزراعية والبساتين[4]

1- الدرر المكنونة ج2 ورقة56

2- المازوني الدرز المكنونة ج 2 ورقة 32

3- نفسه ج 2 ورقة36

4- ابن مريم البستان ص 28 29؛ 4 المازوني الدرر المكنونة ج 2 ورقة

يحرثوا في أرض اغتصبها ويكلف العمل فيها للخماسين وأرباب البقر فإن حان حصاده كلفهم أيضا بحصاده ونقله بعد درسه إلى مخازنه في أوعيتهم[1]".

- نوعية الأرض:

إن الأراضي التابعة للدولة الزيانية تختلف باختلاف الضروف المناخية[2] والتضاريسية، فهناك أراضي السهول الساحلية التي تسقط بها كمية وافرة من الأمطار، وهناك أراضي الهضاب العليا التي تتميز بقلة الأمطار، كما نجد أراضي تقع على ضفاف الأنهار تستغل مياهها في الأرض مثل سهل شلف الذي يسقى من هذا النهر وقد شاهدت منطقة عاصمة الدولة والأراضي المجاورة لها نشاطا مكثفا يتفق أغلب الجغرافيين على التنويه بأثاره مع زيادة الإنتاج[3].

فالإدريسي يقول عن هذه المنطقة بأراضيها مزارع وضياع جمة[4] وهـو ما يتفق مع ما ذهب إليه العبدري[5] حيث قال: " إن الدائرة بالبلد كله مغروس بالكروم وأنواع الثمار" ويقول عنها الزهري: " كثيرة الفواكه والزرع[6]".

أما يحي بن خلدون فيقول عنها: "وبخارجها الخمائل الادفان والادواج والحدائق الغلب بما تشتهيه الأنفس وتلذ الاعين من فواكه الرمان والزيتون

1- المازوني المصدر السابق ج2 ورقة 38
2- ابن حوقل صورة الارض 87
3- الادريسي المصدر السابق ص 89
4- الادريسي نفس المصدر ص 87
5- العبدري الرحلة المغربية ص14
6- يحي ابن خلدون بغية الرواد ج1 ص90

والتين وتنصب إليها من أعلى جبالها أنهار من ماء غير أسن يسقى بساتينها خارجها ومغارس الشجر زمن نبت الحب".

وفي موضع آخر، يصف قطر تلمسان بقوله: " توسطت قطرا داكـــور عديـــدة يعمرها أمشاج البربر والعرب مربعة الجنابات منجبة الحيوان والنبـــات كريمة الفلاحة، زاكية الإصابة، ربما انتهت في الزوج الواحد منـــها أربعمائة مد كبير"[1] وهو ستـــون برشالـــة[2] زنتـــها ثلاثـــة عشر رطلا حسبما تضمّـــن ذلك رسم سنة758[3] .

وإذا كانت هذه الأراضى الأنفة الذكر غنية من حيث الإنتاج فهناك أراضي تندرج ضمن هذه المنطقة فقيرة نتيجة لعدم صلاحياتها وهو ما يؤكده الحسن الوزان بقوله: "أما الأراضي القريبة من تبحريت فهي حصرية وهزيلة لا ينبت فيها إلاّ قليلا من الشعير والذرة والاشتغال بها"، مما دفع بالفلاحين إلى أحياء الموات فقد تطورت تلك الأراضي منذ عهد الرستميين حيث يتفق كـــل الجغرافيين تقريبا على أهمية تلك المنطقة، فيذكر الاصطخري أن كـــورة تيهرت خصبة، واسعة البرية والمزارع والمياه.

ويصفها الإدريسي فيقول: "إن تيهرت بلخ المغرب قد أحدقت بها الانهار وغابت في البساتين ونبعت حولها الأعين"[4]، وإلى الشرق منها سهل البطحاء الذي يتميز بجودة أراضيه، لكن كثرة الصراعات التي عاشتها المنطقة خاصة بين بني عبد الوادي والحفصيين وبينهم وبين القبائل البربرية مثل مغراوة

1- المد هو مكيال ومقداره رطلان أو رطل وثلث أوملء كف الانسان المعتدل انظر البخاري الجامع1 الصحيح ج 2 ص 23.

2- البرشالة تساوي اثناعشر أوقية انظر الوزان ص 104، 414.

3- مسالك الابصار ليدن 1967 ص39.

4- احسن التقاسيم ص228 ابن خلدون العبر ج7 ص186 1

وبني توجين لها تأثير سلبي على الإنتاج، حيث أن مدينة البطحاء تعرضت إلى انهيار، فهجرها السكان مما جعل أراضيها تبقى غير مستغلة لفترة من الزمن[1].

إن سهل البطحاء[2] يعتبر من المناطق الجيدة، حيث كانت تمول مدينة وهران بالمواد الغذائية عند احتلال الاسبان لها وأن الهجوم على قلعة بني راشد كان يندرج في إطار رفع الحصار على تمويل وهران لأن التواجد العثماني بالقلعة حال دون وصول المواد الغذائية لوهران والمرسى الكبير[3].

والأراضي التي تندرج ضمن سهل الشلف تعتبر في رأينا من أجود الأراضي[4] خلال عهد الدولة الزيانية لأن جزءا منها كان مستغلا وحتى في فصل الجفاف لوفرة المياه بنهر الشلف والمازوني يشير إلى الري من مياه الشلف خلال فصل الجفاف، وكذلك أراضي سهل متيجة كانت هي الأخرى مستغلة خلال عصر الدولة الزيانية. حسب ما يذكره العبدري.

أما الحسن الوزان، فقد تعرض هو الآخر إلى سهل تسالة[6] فذكر أنه كان يمدّ تلمسان بالحبوب خلال فترة الدّراسة، وحتى سفوح الجبال كانت تستغل هي الأخرى في إنتاج الحبوب إلا أنها تتميز بقلة الإنتاج

1- الحسن الوزان، المصدر السابق ص401.

2- توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة 1492-1772 ص236.

3- صورة الأرض ص78، الادريسي المصدر السابق ص105.

4- وصف افريقيا ص405، عن أراضي متيجة انظر المقديسي المصدر السابق ص20

5- العبدري الرحلة ص16.

6- كانت هناك قرية تعرف بتسالة توجد على بعد مائة وعشرين كلم على تلمسان وكانت خلال عهد الدولة الزيانية مهمة ثم انهارت.

ويذكر الوزان بالنسبة لجبل متغارة[1] أنه: "لا ينبت فيه من الحبوب سوى الشعير وكذلك جبل ولهاصة[2] الذي ينمو فيه الشعير بكمية قليلة، أما منطقة تيهرت فقد اشتهرت بزراعة الحبوب لكثرة مياهها وبرودة مناخها ووقوعها ضمن التلول الصالحة للزراعة ويسوق لنا أبوزكرياء عن أبي مرداس أحد شيوخ جبل نفوسة والذي كان قد تعوّد الذهاب إلى تيهرت في فصل الحصاد وكانت عادته فيها أنه إذا حصد الناس زرعهم، ولقّط اللقاطون السنابل الساقطة ورعوا مواشيهم فيها، لقط عولة السنة فيها".

وهذا النص بالرغم من أن صاحبه قد عاش قبل قيام الدولة الزيانية فإنه يمكن أن ينطبق على عصرها، كما يوضح لنا كثرة الاهتمام بزراعة الحبوب في منطقة تيهرت لدرجة أن الحصّادين واللقاطين والرّعاة بمواشيهم يتركون في الحقول ما يكفي عولة الناس لمن تبقى من اللقاطين فلا معنى لهذه الرواية غير كثرة الحقول المزروعة بالحبوب مثل القمح.

أما حوض شلف فيتميز بوجود مجموعة من المحاصيل منها القمح والشعير والحنطة فمليانة والأراضي المحيطة بها مثل سهول عين الدفلى وسوق الخميس، كانت تنتج هذه المحاصيل.

يضاف إلى هذا، سهول صغيرة غنيّة بالحبوب تتمثل تلك المناطق في أراضي مزغران ومستغانم وساحل برشك[3].

1- متغارة هي الكتلة الجبلية فيلاوست حاليا والتي ترتفع على مستوى سطح البحر بـــ1156 وتقع مدينة ندرومة في سفوحها، انظر وصف افريقيا ص414.

2- جبل ولهاصة يقع جنوب ارشقول، انظر الوزان ص 415.

3- البكري صفة المغرب ص89،86.

وفي المناطق الجبلية مثل جبل بني بوسعيد[1] ومغراوة فقد ذكرهما الوزان بقوله وبيّن دورهما في إنتاج الحبوب وكذلك أراضي متيجة التي قال عنها الوزان[2]: " ينتج بها كمية هامة من الحبوب".

- الــفــواكــه:

ازدهرت غراسة الأشجار بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني بفضــل مــا لقيته من عناية واهتمام فقد كان السكان يعتنون بالبساتين ويغرسون فيها أنواعا مختلفة من الفواكه[3].

فمنطقة تلمسان فيها الأعناب من كل الأنواع وكذلك بقية الثمار[4] وهي كثيرة الفواكه الزروع ومن فواكهها الرمّان والتين والزّيتون، وصفها الحسن الوزان بقوله [تنتج أعنابا من كل الأنواع ذات نكهة رائعة وكرز من كل نوع،وتين شديد الحلاوة أسود اللون، كبير الحجم، طويل جدا يجفف ليؤكل، وأغلب أشجار التّين بالأرياف القريبة منها فقد كانت بها بساتين كثيرة، كان السكان يجففون التين ويصدرونها إلى مختلف المناطق وهو ما يؤكد. القلقشندي[5] بقوله: "الذي ينقل من مسالك الأبصار للعمري فقد ذكر من بين فواكه الدولة الزيانية، التين والعنب والرمان والتفاح على أصنافه والكمثري والمشمش

1- جبل بني بوسعيد هو الجبل المطل على مدينة تنس ولا يزال لحد الآن مسكون من قبل المغراويين الوزان ص 400.

2- وصف افريقية ص 404 ؛405

3- الرحلة ص 16

4- الزهري كتاب الجغرافية ص 96

يحيى بن خلدون بغية الرواد ج 1 ص 198

الوزان-وصف افريقيا ص 397

5- صبح الاعشى ج 5 ص 176

والبرقوق والخوخ والجوز واللوز والليمون والنارنج والبطيخ الأصفر والأخضر كما تعرض السلاوي إلى فواكه الدولة الزيانية خلال تناوله حصار تلمسان سنة698؛1298/707؛1307 فقال: " الواحدة من الفاء والفقوس بأربعين درهما والحبة من التين والإجاص بدرهمين[1]".

يتجلى من النصوص السابقة أن الفواكه الموجودة بالأراضي المحيطة بمدينة تلمسان لا تختلف عن ما هو موجود الآن.

أما الناحية الممتدة ما بين هنين وتلمسان فكانت هي الأخرى تنتج كمية هامة من الفواكه فقد ذكر الحسن الوزان من بينها الكروم والمشمش والتفاح والكمثري والدراق ومقادير لاتحصى من التين ولكن ليس هنالك من يقطفها[2].

وأما تيهرت فيشير ابن حوقل[3] إلى فواكهها فيقول: "تنتج ضروبا من الغلات ويصفها المقدسي فيقول: إن تيهرت بلخ المغرب، قد أحدقت بها الأنهار والنفت حولها الأشجار وغابات في البساتين ونبعت حولها الأعين ولكن البكري هو أدقّ من وصف فواكه تيهرت وأحوازها إذ يقول: "بها من الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الأفاق حسنا وطعما ومشما وهو يسمّى بالقارس.

من بين الأراضي المنتجة للفواكه تنس التي أشار إليها البكري فقال عنها: "بها السفرجل المعنق ما أزال أحكيه لحسنه ونعمته وحلاوته وطيب رائحته".

كما توجد الفواكه بالأراضي المحيطة بسوق ابراهيم وقلعة هوارة المعروفة اليوم بقلعة بني راشد التي تحتوي على الكثير من الأشجار المثمرة وكذلك العنب.

1- ابن خلدون، العبر ج 7 ص 198 يحيى بن خلدون بغية الرواد ج1 ص 10

2- الاستقصاء ج 3 ص 216 نقلا عن ابن خلدون العبر ج 7 ص 198

3- المازوني المصدر السابق ج 2 ص 27 انظر حاجيات المرجع السابق ص 57

وأما تنس وشرشال وبرشك فكانت بها فواكه حسنة منها السفرجل المعنق كالقرع والأعناب وأشجار الزيتون كانت تغطي جزءا هاما من أراضي الدولة الزيانية والدليل على ذلك ازدهار تجارة الزيت مع البلدان الأوروبية حسب مـــا أوردته وثائقها ومصادرها ومن بين الذين كتبوا عن هذه الأشجار بسلاز [1] من خلال بحثه في وثائق أوقاف بني زيان حيث اورد بساتين الزيتون كانت أوقاف على المساجد والمدارس والأضرحة وقد تعرض القلقشندي [2] هو الآخر لأشجار الزيتون بالمناطق القريبة من تلمسان كما توجد أشجار اللوز والجوز بالجبل المطل على مدينة مليانة وهو جبل زكار فخلال عهد الوزان لم تجد تلك الأشجار من يقطف ثمارها ولعلّ السبب، هجرة السكان نتيجة لانعدام الأمن كما حدث خلال العشرية السوداء، والكروم المحيطة بأراضي مدينة الخضراء وبني وريفن وهو ما يعرف اليوم بولايه عين الدفلة، فالمنطقتان المذكورتان تقعان على نهر شلف الذي لا يزال لحد الآن يشتهر بهذا النوع من الزراعة وعلى الخصوص التطور الذي عرفه بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر وإقبال المعمرين على زراعة الكروم لكثرة طلب الأسواق.

ومن بين المناطق التي تزرع بالكروم، ناحية وجدة وهنين التي كان سكانها يزيّنون بها بيوتهم وهو ما يؤكده الوزان بقوله: "كان لكل بيت بئر من الماء وصحن مزين بحاملات الكروم كما كان يغرس الكروم بالعزيزة القريبة من المسيلة التي بلغ القنطار الواحد من العنب بدرهم400 [3].

1- صبح الاعشى ج 5 ص 150.
2- وصف افريقيا ص الادريسي المصدر السابق ص 86.
3- وصف افريقية ص 400

وفي الواحات الجنوبية نجد إنتاج التمور التي تصدر نحو المناطق الشمالية وخاصة موانيء الدولة الزيانية ومن هناك يتم تصديره إلى أوروبا.

- الخـضـــر :

تتوفر زراعة الخضر في أغلب المناطق التابعة للدولة الزيانية وخاصة على ضفاف الأودية فقد ذكر القلقشندي[1] من أنواع الخضر الجزر واللوبية والكرنب والخيار والقثاء واللفت والبادنجان والقرع وقصب السكر ويذكر المازوني[2] البصل الذي يغرس في أحواض.

- القـطـن :

يعتبر القطن من بين المحاصيل الزراعية الهامة التي أدخلها العرب لبلاد المغرب ومنها انتقلت زراعته لأغلب مناطق الدولة الزيانية لما له من أهمية خاصة في صناعة النسيج[3] وهو ما يؤكده الحسن الوزان بقوله فيما يتعلق بمدينة ندرومة فيقول عنها: " تبدو ندروسة الآن مزدهرة بانتاج القطن لأن الصناع كثيرون بها وتصنع بها على الخصوص أقمشة القطن الذي ينبت بالمنطقة وكذلك الأراضي المحيطة بمدينة مستغانم التي كان يبذر في أراضيها فيجود[4]".

1- صبح الاعشى ص 118 ج5

2- وصف افريقية ص 386

3- عن القطن وانتقاله إلى الاندلس انظر عثمان الكعاك الحضارة العربية في حوض البحر الابيض المتوسط ص74

المازوني المصدر السابق ص ورقة 46

4- وصف افريقية ص 386

ومن بين المحاصيل الصناعية الكتان الذي وجهت له العناية فكان يزرع بكثرة حول مدينة تيهرت،وعلى وادي شلف وناحية برشك بين الداموس وشرشال حاليا.

ومن المحاصيل الزراعية الحنة والكمون وقد انتشرت زراعتها في مناطق مختلفة من أراضي الدولة نذكر منها على الخصوص قرية بني وريفن التي تبعد عن مدينة تنس بمرحلة فسكانها يزرعون الحنة والكمون على نهر شلف.

- الثــروة الحيــوانــية

كانت تربية المواشي في بلاد المغرب الاوسط تقوم جنبا إلى جنب مع الزراعة فلا داعي إلى القول ان المناطق الزراعية التي سبق لنا التعرض لها من قبل كانت مناطق رعوية إضافة إلى كونها زراعية فالمزارع غالبا مــا يعتمد على المحصول الزراعي مقرون بالمنتوج الحيواني اذ يعتبر كله مــن انشطته واهتمامته.

وتشير الدراسات الحديثة إلى أن أراضي الدولة الزيانية كانت في فترة مــن فترات تاريخها مرتعا ومرعى لمختلف الحيوانات وخاصة الغنم والحمير والخيل وتزاول من طرف القبائل التي توجد مضاربها ضمن محيط الدولة مثــل بني توجين الذين كانوا يتنقلون مع مواشيهم في المنطقة المحصورة مابين جبل السرسو ومنطقة الزاب[1].

وبنو راشد بجبل عمور يهتمون بتربية المواشي ومنه انتقلوا إلى المناطق الشمالية حيث يتوفر الماء والكلاء لمواشيهم[2] على الخصوص القلعة الآن ومــا جاورها من أراضي ولاية غليزان ومغراوة. ذكرت المصادر التاريخية أنهــم

1- ابن خلدون اعبر ج7 ص

2- نفسه مجا7 ص 321

كانوا يهتمون بتربية المواشي وأشار إلى ذلك ابن خلدون عند تعرضه لهجوم أبي ثابت الزياني على مضاربهم وقال عنهم: " انهم تركوا زعيمهم وفروا بمواشيهم إلى الجبال المجاورة لتنس وهي جبال الضهرة حاليا"[1].

وأمّا بنو النضير بن عروة فقد كانوا يتنقلون مع مواشيهم بين مناطق التل والواحات ونفس الشيء بالنسبة لبني عامر[2] الذين كانوا يتمركزون في قرى نهر واصل وفي فصل الخريف يتوجهون إلى وادي ميزاب واستمروا على هذه الرحلة حتى عهد الحسن الوزان الذي قال عنهم: " أنهم يتوجهون نحو المناطق الصحراوية".

وكذلك ذوي عبيد الله الذين يقومون بالرحلة مع مواشيهم بين قصور توات وغرب تلمسان وربما توغلوا حتى وصلوا إلى تيكرارين[3].

هذا فيما يتعلق بالقبائل التي تهتم بتربية المواشي وإذا حاول الباحث توزيع مناطق تربية المواشي نجد أن المنطقة المحصورة بين تيهرت والمسيلة كانت غنية بتربية المواشي خلال عهد الادريسي وأن الذين كانوا يقومون بهذا العمل هم قبائل زناتة مغراوة وبني راشد وبني عبد الوادي وبني مرين وهو ما يؤكده ابن خلدون بقوله هذه القبائل ضواعن ينتجعون من مكان إلى آخر وأكثرهم فرسان يركبون الخيل وهؤلاء الذين ذكرهم الادريسي هم الذين أسّسوا دول المغرب الإسلامي بعد سقوط دولة الموحدين ولم يتخلوا عن تربية المواشي وأن أشهر الأغنام هو ما يعرف بالمريني نسبة لهذه القبيلة.

1- نفس المصدر ص251
2- نفسه مجا6 ص 116
3- نفسه مجا6 ص 105

وعن جبل بني راشد يقول الاصطخري والادريسي يذكر تيهرت فيقول عنها: "تشتهر بإنتاج البرادين والخيل من كل حسن وأما البقر والغنم كثيرة جـدا والعسل والسمن فلا غرابة أن تتبوأ تيهرت هذا الدور في النشاط الرعوي إلـى جانب دورها الزراعي.

ولعل ازدهار تربية المواشي ترجع بالدرجة الأولى إلى أن موقعها كـان ملتقى القبائل الرحل في فصول معينة من السنة.

فابن الصغير يخبرنا على أن قبائل مزاتة[1] وسدراتة[2] وغيرهم كانوا يتجمعون في أشهر الربيع بتيهرت وأحوازها لما فيـها من الكـلأ وغيـره، ولا شك أن هذه هي الصفة الرعوية لتيهرت.

بلد أغلب منتوج أهله تربية المواشي كالخيول وقد حافظوا على ذلك بعد انتقالهم إلى قلعة بني راشد في القرن السابع الهجري الثالث عاشر الميلادي.

وما يقال على هذه المنطقة ينطبق على حوض شلف لأن بني توجين قـد انتقلوا إليه واستولوا على أغلب أراضيه وظلوا محافظين على تربية المواشي شأن أهل النجعة منهم شأن العرب.

أما اليعقوبي فيقول عن تيهرت: "هو بلد زرع وضرع"، وابن حوقل[3] يؤكد ذلك فيقول عن تيهرت وأحوازها:" هي معادن الدواب والماشية والغنم والبرادين الفارعة".

1- عن مزاتة ابن خلدون العبر مجا 6 ص 235

2- وعن سدراته نفس المصدر مجا 7 ص 296

3- نفسه مجا 6 ص 105

والادريسي يذكر تيهرت، فيقول عنها:" تشتهر بإنتاج البرادين والخيل من كل حسن"، وأمّا البقر والغنم كثيرة جدا والعسل والسمن فلا غرابة أن تتبوأ تيهرت هذا الدور في النشاط الرعوي إلى جانب دورها الزراعي.

ولعل إزدهار تربية المواشي ترجع بالدرجة الأولى إلى أن موقعها كان ملتقى القبائل الرحل في فصول معينة من السنة.

استمرت بعد ذلك فقد وصف صاحب كتاب الاستبصار بقوله: "تيهرت كثيرة الغنم طيبة المرعى ومنها تجلب الأغنام إلى بلاد المغرب وبلاد الاندلس لرخصها وطيب لحمها".

وأن انخفاض أسعار اللحوم راجع بالدرجة الأولى إلى تربية المواشي خلال العهد الموحدي والعهد الزياني فيما بعد، حيث أصبحت القبائل تقوم بتربية السلالات الممتازة من الخيول العربية الأصيلة والمغربية الرشيقة الخفيفة.

وما زاد في تربية المواشي بها أنها خلال عهد الدولة الزيانية أصبحت مواطن لبني هلال الذين أعطوا أهمية كبيرة لتربية المواشي لحد الآن وعلى الخصوص الأبقار والخيول وكذلك الحال بقلعة بني راشد التي لاتبعد كثيرا عن تيهرت ووهران التي يقول عنها الادريسي[1]: " وهران السمن فيها موجود والزبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير"، وقد كانت مركز تصدير المواشي ومشتقاتها كالجلود والصوف ونعتقد أنها بقيت محافظة على إنتاج المواشي وعلى الخصوص عندما استولت القبائل العربية على المناطق المجاورة لها مثل بني عامر وسويد.

1- الوزان المصدر السابق ص 400

وما يقال على هذه المنطقة التي تقطنها قبائل بني توجين أيضا مضارب مغراوة التي تمتد من ضواحي الجزائر ولا تزال إحدى المناطق بها تعرف ببني منديل نسبة إلى شيخ مغراوة إلى شرشال ومازونة فهناك إشارات كثيـرة من قبل الرحالة تعرض لاهتمام السكان بتربية المواشي فالادريسي يقول عـن شرشال: "بادية لأهلها مواشي وأغنام كثيرة يصدر منها، وعـن برشك المجاورة لها أشار ابن حوقل فقال: " برشك يهتم أهلها بتربية المـواشي"[2].

وأما المنطقة المحصورة بين برشك ومازونة فكانت هي الأخرى من بين المناطق التي يعتمد سكانها على تربية المواشي ودليلنا على ذلك أنها كانت غنية بإنتاج الصوف وعلى الخصوص صوف مستغانم ومزغران وسكان جزائر بني مزغنة[3] والأراضي المجاورة لها فكانوا يهتمون بتربية الأغنام والأبقار لوفرة الكلأ والماء بسهل متيجة.

لما كانت القبائل الزناتية والعربية يتعشقون الفروسية فقد ربطت هذه العلاقة الحيوية بينهم وبين خيولهم برباط من التآلف والتعاطف حتى نجد عمر بن العاص في مصر يستعرض الخيل كما يستعرض الجيش وحتى سلاطين الدولة الزيانية كانوا يوجهون عناية كبرى لتربية الخيول حيث كان الفرسان

1- صفة المغرب ص 89

2- ابن حوقل صورة الارض ص 78

5- الادريسي نفس المصدر ص 83

3- الادريسي المصدر السابق ص 89

ضاربيستعرضون خيولهم أمامهم مثل ماحدث في عهد السلطان يغمراسن بن زيان

تعرفوابي حموا موسى الثاني[1].

إشارات وقد تطورت تربية الخيول بالمغرب الأوسط على النحو التالي:وأول من

ريسي[1]أظهر الاهتمام بها عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية الذي أمر

وعـن باستجلاب الخيل له من جميع المناطق بالعدوتين الافريقية والاندلسية[2]، فقـد

بتربية أمدت افريقيا في سنة1170/566 ابنه يوسف بأربعة آلاف فرس.

أما تلمسان فأمدته بألف فرس، وصفها ابن صاحب الصلاة بقوله: «الخيل

ن بين العراب العتاب الاحساب المدية عند الاعراب[3] وقد تعلم البربر من العرب

كانت الاهتمام بالخيل بذلك ما روي أن الموحدين طلبوا من المكلفين بنقل الخيول إلى

وسكان الأندلس أن يأخذوا أنفسهم ومن معهم بالرفق والمشي واللحاق والمحافظة على

الأغنام الخيل العتاق»[4] ومما يدل على إهتمام الموحدين بالخيل في المغرب الإسلامي

من برقة إلى تلمسان[5] عندما استقرت بها بقايا رياح والخلط وسفيان والاثبج

وزحف اليها عرب المعقل وزغبة وانتشروا في بواديها وأوديتها ونقلوا معهم

هذه الخبرة العربية في تربية الخيول وتحسين أنسابها حتى اشتهرت بالخيول

عمر الفزارية نسبة إلى بلاد فزار، وهي بطن من زناتة تقع بتادلة[6] ومنهم قبائل

لاطين جبل راشد عمور الذين كان لهم انتاج من الخيول[7].

رسان

1- ابن خلدون العبر مجا 7 ص 171 بغية الرواد ج 1 ص 114

2- علي بن عبد الرحمن المرجع السابق ص 152

3- المن بالامامة ص 215 ؛418

4- ابن عذاري البيان ج 4 ص 364 ابن ابي زرع روض القرطاس ص 87

5- السلاوي الاستقصا ج 1 ص 201 ابو ضيف نفس المرجع ص 311

6- ابن عذاري نفس المصدر ج 4 ص 381

7- ابن الخطيب اعمال الاعلام ق 3 ص 168

وأصبحت تربية الخيول مزدهرة، لأنها من بين انسلع التي زاد عليها الطلب من قبل تجار أوروبا فالحسن الوزان يذكر أنها كانت بإيطاليا وتعرف بالخيول البربرية وكذلك كما أصبحت تشكل الهدايا المفضلة إلى الملوك المسلمين في المشرق والمغرب ومنها هدية المرينيين إلى المماليك بمصر وخاصة بعد سيطرتهم على أراضي الدولة الزيانية خلال عهد السلطان يوسف أي يعقوب وأبي الحسن المريني، مما يجعلنا نؤكد من أن جزءا هاما من إنتاج القبائل التي كانت تابعة للدولة الزيانية وقد بلغت في عهد أبي الحسن أربعمائة فارس من الخيل العتاق المسومة المعلمة.

وقد كان حرص ملوك مصر الاستزادة من خيول بلاد المغرب شديد لما امتازت به من القوة والصبر على المتاعب والسرعة الفائقة من ذلك ما روي أن السلطان برقوق كلف ابن لدون بعد استقراره بمصر بالكتاب إلى سلطان تونس فأرسل له خمسة من الخيول.

لكن يبدو أن هذه الهدية لم ترق في عين برقوق لقلة عدد الخيل كذلك كلّف يوسف بن علي زعي اولاد حسين من عرب المعقل أثناء عودته من الحج أن يزوده بأكبر عدد من الخيل العربية الأصيلة فلما أبطأ عليه أرسل مملوكه المكلف بتربية الخيول أن يذهب إلى المغرب للشراء ما شاء[1].

وفي أثناء الطريق تقبّل مع هدية السلطان أحمد بن أبي سالم المريني كما أضاف له السلطان ابو زيان الثاني ثلاثين من الجياد وكذلك سلطان تونس فأصبحت جملتها خمس وتسعين فرسا اختارها للتهجين والتولي بالديار المصرية[2].

1- المقري نفح الطيب ج6 ص132 أبو ضيف نفس المرجع ص312

2- :بن خلدون العبر ص340 :345 القلقشندي المصدر السابق ص583 ج

وقد اعتمدت دولة بني عبد الوادي على عبد الله بن كندور[1] في إدارة مراعيها وانتجاع إبلها ورواحلها ورغم إنتمائه إلى زناتة إلاّ أنه عين الاشراف الأسند إليه لحسان بن أبي سعيد الراعي الأكبر وكبير صبيح من عرب سويد وأخيه موسى بن ابي سعيد[2].

ومما يدل على مهارة هؤلاء العرب في تربية الخيول والإبل، أنه بعد ما ساءت العلاقات بين عبد الله بن كندوز وبني عبد الوادي لجأ مع أخويه حسان وموسى إلى المرينيين فأسندوا اليه النجاع الابل والرواحل، مما يدل على أنهم لهم خبرة بذلك متوارثة من الخلف عن السلف[3].

وبفضل هؤلاء كانت المراعي الخصيبة في الدولة الزيانية تستغل أحسن استغلال من ذلك ما أورده مؤلف الاستبصار عن وجدة حيث يقول: "مراعيها أحسن المراعي وأصلحها للماشية".

الأبقار :

كثرت تربيتها بالمناطق الشمالية من بلاد المغرب الأوسط، حيث المراعي الدائمة الخضراء، لأنها تتطلب الأعشاب الكثيرة والأراضي المستوية الخالية من السفوح الشديدة الانحدار وتتميز أبقار الدولة الزيانية بالقامة المتوسطة مما جعل الحسن الوزان[4] يقارنها بالعجول في ايطاليا حين تعرض أبقار المغرب

1- يعتقد أبو ضيف أن هناك علاقة بين عبد الله بن كندور كمتولي لرعايا الابل واطلاق لفظ كندوز على أنواع من اللحم مع الملاحظة أنها تعني اللحم القوية الصلبة انظر أبو ضيف المرجع السابق ص 313

2- ابن خلدون العبر مجا 7 ص 345 السلاوي الاستقصا ج 2 ص 125 2

3- مؤلف مجهول الاستبصار ص 177

4- وصف افريقية ص462

وقد زاد الاهتمام بها خلال عهد الدولة الزيانية لأن ذكورها كانت تستخدم في الزراعة[1] وجلودها كانت تدبغ وتصدر إلى أوروبا حيث كان الإقبال عليها كثيرا.

من بين المناطق المنتجة للأبقار التي تعرضت لها كتب الرحالة جزائر بني مزغنة[2] وتيهرت[3] وكذلك أراضي مطماطة[4] التي كانت تقع على أراضي وادي ملوية إلا أنه يبدو لي أن أغلب أراضي الدولة الزيانية، خاصة حول المدن خاصة تلمسان ووهران وقلعة بني راشد ومستغانم كان سكانها يهتمون بتربية الأبقار لوفرة الكلأ بتلك المناطق.

- الأغنام

تشتهر أراضي السهوب بتربية الأغنام أو الضأن التي تعيش في شكل جماعات أو قطعانا ويعيش مع القطيع أفراد من المعز ليقوده إلى المرعى.

والأغنام تتألف من صنفين، ولعل ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى تأثير قبائل بني هلال التي استقرت في المناطق التي لازال لحد الآن سكانها يهتمون بتربية هذا النوع من المواشي ويتبعون نفس الطرق التي كانت سائدة خلال عهد الدولة الزيانية، أي الانتقال بالأغنام في رحلة من الشمال إلى الجنوب فيكونون في فصل الشتاء في الهوامش الشمالية للصحراء وفي فصل الصيف ينتقلون بقطعانهم إلى السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس التلي.

1- الدباغ معالم اهل الايمانج 4 ص 44 ؛45.

2- ابن حوقل صورة الارض ص 76 ؛85؛ 86.

3- البكري المغرب ص 147.

4- حليمي عبد القادر جغرافية الجزائر ص 217.

- **التجـــارة الـــداخـــلية**

*** طبقـــات التجـــار:**

الدارس لحياة الدولة الزيانية الاقتصادية وعلى الخصوص ما يتعلق بالمبادلات التجارية يلاحظ تعدد الأنشطة التجارية لاختلاف مقادير رؤوس الأموال والوضع الاجتماعي لأصحابها والطريقة التي يستثمرون بها أموالهم فضلا عن تباعد مراكز الإنتاج والاستهلاك وما يتطلبه ذلك من الانتقال.

هذا لا يقتصر على الدولة الزيانية فقط، بل أغلب دول المغرب الإسلامي، ويستطيع الباحث بالنسبة إلى فترة موضوع البحث ابراز ثلاث مجموعات مختلفة بين تجار الدولة من حيث القدرة على الاستثمار.

- **أ: المجموعة الأولى:** وتتشكل من التجار الصغار الذين يشترون رأس مال لايتجاوز مائتي دينار[1] ويزاولون التجارة بمفردهم وأغلب هؤلاء يكونون، إما تجارا مقيمين مستأجرين للدكاكين والمتاجر من كبار الملاك أومن الأحباس، أوتجار متجولين[2] وقد أورد المازوني[3] مجموعة من النوازل تتعلق بهؤلاء، وبين لنا بأنهم كانوا يخرجون إلى القرى لبيع سلعهم لسكانها ومن بين هؤلاء القبائل العربية كبنيعامر الذين عملوا تجارا متجولين خلال فترة موضوع البحث وقد عرفوا بالمغاطيس لأنهم كانوا يقومون ببيع السلع من جهة والتجسس لصالح الاسبان من جهة أخرى.

1-الونشريس: المعيار، ج6، ص 103.

2- الونشريس: المصدر السابق، ج8، ص 113.

3- المازوني: الدرر المكنونة، ج2، ورقة 76.

- ب: **المجموعة الثانية** هي التي يمكنها توظيف ما بين مائتي دينار وخمسمائة وتختلف عن الأولى وبذلك تكون حركتها أوسع كالانتقال من مدن الدولة الزيانية وأسواقها، كما تشارك في عملية المبادلات بين تجار الدولة والدول الأوروبية الذين يتوافدون على أسواقها[1].

- ج: **المجموعة الثالثة** تعتبر من أكبر الفئات من حيث الاستثمار فأغلب أفرادها يتعاملون في المبادلات التجارية الدولية كالقيام بالرحلات نحو السودان الغربي واحسن ما يمثلها الأخوان[2] المقري الذين كانوا يحتكرون تجارة الذهب ويملكون وكالات في الواحات الصحراوية في البلدان الإفريقية .

وتتميز هذه الفئة عن غيرها وأن أفرادها يزاولون التجارة بأنفسهم أوبواسطة مواليهم وعبيدهم، لم يكن النشاط التجاري مقتصرا على هذه المجموعات فقط بل كان فقهاء الدولة، وعلماؤها يزاولون التجارة ومن يمثل هؤلاء حسن تمثيل الاخوى المقري كما أشار المازوني إلى العقباني بأنه عاد من سجلماسة وهي إحدى المراكز التجارية التي لها علاقة بالسودان، لذا يبدو لي أن انتقاله إليها كان لغرض التجارة[3] وفي بعض الحالات لجأ هؤلاء الفقهاء إلى استئجار الوكلاء لكي يقوموا بأعمالهم التجارية، فكان الوكيل يسافر بالسلع إلى السودان الغربي أو بلاد الشرق الإسلامي. وحتى البلدان

1- من أبرز الأسواق القيصرية في تلمسان التي تعتبر من أهم الأسواق التجارية التي يتم فيها التبادل بين كبار تجار تلمسان والدول الأوروبية.

2- المقري: نفح الطيب، ج3، ص 111 - 116.

3- العقباني: تحفة الناظر ، ورقة 107.

الأروبية فقد أورد الونشريسي[1] نوازل تتعلق برحلة التجار إلى صقلية وكيفية تبديل العملة المغاربية مع العملة السائدة بها.

ومن الوكلاء من كان يختص بتاجر واحد، والبعض منهم بعدد من التجار حيث يستقبلون سلعهم بالموانئ، ثم ينقلونها بعد ذلك إلى المدن الداخلية، ومما يؤكد ذلك أن عبد المؤمن قال: "أنه رافق تاجرا اسكندرانيا من تلمسان إلى فاس وكان التاجر قد اكترى الدواب في تلمسان لنقل سلعته إلى فاس فنقص له خمسة عشر دينار أسلفه إياه عبد المؤمن"[2].

وهذا العمل استمرّ حتى عهد الدولة الزيانية ولهذا يبدو لي أن هناك بعض الناس كانوا يقومون بكراء الدواب للتجار لنقل سلعهم و يرافقونهم إلى المدن التي يتجهون إليها وعند عودتهم يحملون السلع لتجار آخرين في طريق عودتهم.

- **الأمــــن:**

يضاف إلى وجود فئات من الناس يقومون بكراء الدواب إلى التجار نجد القوافل تحتاج إلى من يحرسها لكثرة قطاع الطرق وعلى الخصوص في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة وهو ما يؤكده المازوني[3] بقوله:

" سـئل أبو الفضل العقباني عن موضع كان خاليا وهو في قارعة الطريق وكانت القبائل الموجودة به يقطعون فيه على المسافرين أخذت فيه أموال كثيرة حتى لا يقدر أحد على جوازه"[4].

1- الونشريسي: المعيار ، ج8 ، ص 237.

2- ابن عذاري: المصدر السابق ، ج5 ، ص 237.

3- المازوني: المصدر السابق ، ج2 ، ورقة 110.

4- الحسن الوزان: المصدر السابق ، ج9 ، ص 10.

ولمواجهة انعدام الأمن كانت الدولة الزيانية تكلف القبائل العربية بحراسة المسالك التجارية وعلى الخصوص ما بين تلمسان وفاس وسجلماسة والواحات الصحراوية كتوات وإقليم وادي الساورة.

- **طرق التعامل في التجارة الداخلية:**

شهدت الأسواق تطورا كبيرا في التجارة الداخلية، لأن أراضي الدولة الزيانية تحتل موقعا استراتيجيا هاما وعلى الخصوص مدينة تلمسان التي تتحكم في الطرق التجارية الهامة مما جعلها تمتاز بالثراء والرفاهية. قد أشار البكري إلى توافد القوافل التجارية عليها من المناطق الصحراوية ومما يدل على غنى المدينة، أن الادريسي يرى أنها تعتبر من أهم المدن الأكثر غنى بعد مدينتي اغمات وفاس، إضافة إلى أنها كانت على علاقة تجارية خاصة مع المدن الأوروبية التي تربطها معها معاهدات تجارية.

تنوعت السلع داخل أسواق بلاد المغرب واشتهرت كل منها بنوع معين من المعروضات. فالبعض اختص بالتجارة في المحاصيل الزراعية والبعض الآخر في المنتوجات الحيوانية والآخر في المنتوجات الصناعية،وقد قام هناك تكامل بين الأسواق بواسطة تبادل السلع بين المدن والقرى، فمدن الدولة الزيانية كانت تعتمد على القرى لمد حاجياتها من المواد الغذائية والمواد اللازمة للصناعة،كما كانت المدن تمد أهل هذه القرى بالمصنوعات البسيطة لمد حاجياتهم.

لذلك كانت أسواق الدولة مرآة لحياتها الاقتــصادية أو عنوانــا لنــشاطها التجاري والصناعي والاجتماعي أيضا وقد تشابهت أسواق هذه الدولة مع بقية الأسواق في مظاهرها تقريبا. وتنقسم تلك الأسواق إلى نوعين أسواق حضرية وأسواق ريفية:

فالأولى تقصدها مختلف القبائل في أيام معينة من الأسبوع يتزودون منهــا بما يحتاجون إليه من مختلف السلع والبضائع، حيث أن هذه الأســواق تمتلــئ بالمنتوجات والمصنوعات المحلية المختلفة.

من بين هذه الأسواق سوق بني راشد الذي يعقد كل خميس ويعرف باســم اليوم الذي يعقد فيه، وقد أشار إلى ذلك كل من الادريسي والحــسن الــوزان، وهناك سوق كبير كان يعقد في القرن العاشر والسادس عشر بالقرب من مدينة البطحاء التي كانت قرب غليزان حاليا.

سوق ترنانة التي تقع على نهر شلف يعقد كل جمعة يقصده كثير من الناس لقضاء حاجاتهم.

سوق ريغة يقول في شأنه الادريسي كان يبــاع بــه ويــشترى وتقــضي الحوائج.

سوق ابراهيم وقد انشئت به مدينة تعرض لها الرحالة المسلمون وتعــرف بسوق ابراهيم.

الأسواق التي تصحب الجيوش في غزواتها وفي هذه يقيم التجار أســواقهم قرب المجالات العسكرية وقد أشارت الوثائق الاسبانية إلى هــذا النــوع مــن الأسواق عند تعرضها إلى الحملة التي قام بها الكوديتي حاكم وهــران علــى تلمسان سنة1543، فقد أقيم على الطريق الذي يربط وهران وتلمسان بتيفادا

قرب وادي يســـر [1] سوق اشترى منه الجند الاسبان ما احتاجوا إليه وعلى الخصوص الأحذية.

خلاصة القول أن الأسواق الأسبوعية كانت ولا تزال منتشرة في أغلب مدن الدولة وأريافها تحمل أسماء الأيام التي تنعقد فيها ذكر من بينها سوق ندرومة الذي كانت تقصده القبائل المجاورة للمدينة لبيع منتوجاتها الفلاحية من حبوب وأصواف وجلود وزرابي وبرانيس وحتى الأواني الفخارية!.

سوق المدية الذي يعقد يوم الجمعة وتقصده الكثير من الأعراش والقبائل وسوق الاثنين في مدينة البرواقية وسوق الأحد بسور الغزلان وسوق الاثنين بقصر البخاري، والسلع التي تباع بأسواق الريف حددها الحسن الوزان فقال عنها: "الحبوب والمواشي والكثير من الأقمشة ذات الانتاج المحلي وأشياء أخرى أقل قيمة كالحبال والسروج وغيرها من أجهزة الخيل".

- أســـواق المـــدن

أسواق المدن كانت أكثر تنظيما من أسواق البادية وأول من نظر في تنظيم الأسواق التجارية والصناعية في المدن الإسلامية الكبرى الخليفة الاموي هشام بن عبد المالك 868/65.

ومن المدن التي شملها الترتيب في بلاد المغرب الإسلامي القيروان من قبل والي إفريقية يزيد بن حاتم وامتد ذلك التنظيم إلى المدن المغربية والحديثة التي أنشاها المسلمون بعد القيروان مثل تونس وتيهرت وفاس ومراكش.

1- يقول ابن عذاري كان يزيد هذا حسن السيرة قدم إلى افريقية وأصلحها ورتب أسواق القيروان وجعل لكل صناعة مكانها انظر البيان المغرب ج1 ص68 انظر حسن حسني عبد الوهاب ورقات في الحضارة العربية بافريقية التونسية مكتبة المنار تونس ص 57 ؛58

ومن مزايا هذا التنظيم التخصص حيث نجد ان السوق بالمدينة مرتبط باسم السلعة التي تغلب عليها أو العمل الذي يتم فيه مثل سوق العطارين.

ولتجنب الفوضى في الأسواق يجمع المحتسب أصحاب كل مهنة في سوق متوقفة على نوع المواد التي تعرض فيها فكانت هناك سوق الحطابين يتوافد عليها الحطابون وأغلب هؤلاء كانوا يستعملون الحمير والبغال فكان تجمّعهم بالطرق يؤثر على المارة.

وهناك رحبات خاصة لبيع المواشي منها رحبة الغنم ورحبة الجمال أوالابل.

كان تجار المواشي في أراضي الدولة الزيانية يتعرضون للموالين والجلابين قبل وصولهم إلى السوق لشراء المواشي منهم وعندما يدخلون السوق يفرضون الاسعار التي يرغبون فيها وهذه الظاهرة استمرت إلى الفترات القريبة من عصرنا.

وهناك سوق خاص بالحبوب يتوافد عليه الفلاحون لبيع منتوجاتهم الفلاحية وكان قريب من السوق ومن الفلاحين الذين يتوافدون عليه فلاحوا تسالة وكان قريب من الجامع بتلمسان.

وقد اشار ابن مريم إلى رحبة الزرع في الاوقاف المحبوسة على جامع الرؤيا عند تعرضه إلى الدكاكين التي حبست على هذا المسجد، لأن رحبة الزرع بذلك المكان تعود إلى عصر بني زيان.

لم تكن سوق الحبوب مقتصرة على عاصمة الدولة فحسب بل وجدت في اغلب المناطق الغنية بانتاج الحبوب.

وتعتبر أراضي الدولة الزيانية من بين الأراضي التي كانت تصدّرالحبوب إلى الدول الاروبية مثل ايطاليا وميورقة.

سوق العطارين وهو خاص ببيع العطور وقد شكا العقباني والمازوني والونشريسي من كثرة توافد النساء عليه ومخالطتهن لتجّاره.

سوق الغزل ويقع جنوب المسجد الكبير بتلمسان حسب ما ذكره الفريد بـــل حيث يتوافد عليه النساء والرجال لشراء الخيوط الصوفية والقطنية وتردد النساء عليه يرجع بالدرجة الأولى إلى أن المرأة في الدولة الزيانية كانت تقوم في هذا الميدان بدور هام نتيجة للاقبال الكبير على المنسوجات من قبل التجار الأجانب.

سوق الخرّازين خاص بصنع الجلود كالأحذية حيث ذكر العقباني أن باعة الأحذية يشترون الأحذية بالجملة من الحذائين ثم يعودون لبيعها بالقطاي وهناك سوق عرف بسوق الجلد.

يضاف إلى أن أسواق تلمسان كانت مرتبطة بالحرف فنجد سوق الحدادين والسراجين والخرازين.

سوق النحاسين أي صانعي النحاس، وقد أشار العقباني إلى باعة النحاس الاصفر.

سوق السراجين وكان صنع السروج يتم بداخل المشور.

سوق البردعين تباع فيه البرادع التي تستعمل من قبل ملاكي الحمير والبغال.

سوق الخبازين يكون بالقرب من أفران الخبز.

سوق الحليب توجد به مجموعة من الدكاكين تزدان دكاكينهم بآنية مصنوعة في ميورقة وهم يشترون الحليب من الفلاحين صبيحة كل يوم ثم يوضع في أوعية من خشب مطوقة بالحديد تكون ضيقة عند فتحها وعريضة في قاعدتها، وبقية هذه الاواني مستعملة بعد سقوط الدولة الزيانية.

سوق النخّاسين خاص بتجارة العبيد من كل الاجناس الصقالبة والسودانيين

- **سوق سيـــدي بوجمعة**

وهـــذا عنـــد تعرضـــه إلى الشيـــخ الإمام محمد الشريف المليـــتي قـــال: "ومن كرامته أنه سرق له لجام لبعض أضيافه، حيث دخل اللص إلى اسطبل الدار الذي وجد بابه مفتوحا فأخذ اللجام وذهب به لسيدي بوجمعة ليبيعه يـــوم الأربعاء فوجده رب اللجام في السوق فعرف لجامه و ازاله منه"[1]، يتجـــلى مـــن النص أن بعض المساكن في تلمسان كانت مزودة باسطبلات للدواب تربط بها دواب صاحب المنزل وضيوفه.

وأن اللصوصيـــة كانت منتشـــرة بالمدينـــة خلال هذه المـــدة نتيجـــة للاضطـــرابات التي عرفتها الدولة الزيانية وقد نبه إلى ذلك الرحالة المصري عبد الباسط خليل[2].

كما أشار ابن مريم[3] في ترجمته لهذا العالم أنه سرق له رداء من قبل أحد اللصوص وجده في درب اليهود عند يهودية كانت معروفة لديهم.

وأن هناك سوق أسبوعي بمدينة تلمسان هو سوق سيدي بوجمعة الآنف الذكر الذي يعقد كل يوم أربعاء من الأسبوع وتباع فيه أشياء مختلفة، ومن بينها حاجة الجياد كالسروج و المهاميز واللجم.

كما ذكر ابن مريم سوق آخر عرف بسوق منشار الجلد عند تعرضه لهجوم السلطان الحفصي أبي فارس فقال: "بأن القذائف التي استعملها كانت تصل إلى

1- ابن مريم: البستان ، ص 88.

2- عبد الباسط خليل: روض الباسم ، ص 130.

3- ابن مريم ، نفس المصدر ، ص 88

سوق منشار الجلد[1]"، ولكن ما يعاب عليه أنه لم يحدد لنا موقع سوق منشار الجلد بداخل تلمسان.

كما يوجد سوق خارج مدينة تلمسان، يعرف بسوق الدواب، حيث أن مربي الحمير كانوا يأتون لتلمسان لبيعها وعلى الخصوص من وجدة التي كان فلاحوها يربون حميرا تتميز بالضخامة وتباع في تلمسان بأسعار مرتفعة[2].

يضاف إلى هذه الأسواق، سوق ندرومة الذي كان يعقد يوم الخميس، حيث تباع فيه المواشي والأصواف والمنسوجات والأواني، الفخارية يقصده التجار من مختلف مدن الدولة الزيانية[3].

- القيصـــرية

تعتبر القيصرية[4] من أهم الأسواق في الدولة الزيانية حيث تحتوي على السلع الآتية من أروبا إلى موانئ الدولة الزيانية كوهران والمرسى الكبير وهنين ومزغران وتنس، تنقل منها إلى تلمسان حيث يزداد الإقبال عليها من قبل أهلها لارتفاع مستوى سكان عاصمة الدولة الزيانية وعلى الخصوص فـــي العصر الذهبي، فيروى عن أبي حمو موسى أنه قال: "في شأن تهافت

1- ابن مزروق: المسند الصحيح الحسن في مآثر مولاي أبي الحسن ، ص 121.

2- الحسن الوزان: المصدر السابق ، ص

3- ابن مريم: المصدر السابق ، ص

4- القيصرية كلمة يونانية أصلها قيصاربون، بمعنى السوق الامبراطوري، مما يدل على أنها أطلقت بعد ذلك على الشارع التجاري في المدن و يذكر المقريزي قيصره كسرى في القاهرة. انظر المقريزي،الخطط ،ج، ص وعن قيصرة تلمسان انظر:
Broasselard (ch) : L'nscription . arabe en R.A 18. P16 ..

الناس على البضائع الأوروبية[1] أنه تغير من طبائع الناس وتـــدفـــع الأغنيـــاء نحـــو الرشوة.

إن قيصارية تلمسان لم تحافظ على المكانة التي كانت عليها خلال العصر الذهبي للدولة الزيانية، فقد تأثرت بما أصاب المدينة من حروب واضطرابات داخلية لذا لم نجد الآن أي أثر لهذا الحي التجاري، وخلال الاحتلال الاسباني لمدينة تلمسان1543 وصف لنا أحد الاسبان الذين رافقوا حملة الكوديتي المدينة ومن بينها القيصرية ووضح بأن دكاكينها ومتاجرها كانت عامرة بالسلع المحلية والأجنبية فحدث أن تعرضت للنهب والسلب من الجنود الاسبان وهو ما يؤكد لنا بأن تلمسان على الرغم من كثرة الاضطرابات التي عرفتها الدولة في مرحلتها الأخيرة فإن أسواقها بقيت محافظة نوعا ما على مكانتها في العصر الذهبي.

أما السلع التي كانت تحتويها تتمثل على الخصوص في المنسوجات والخيوط القطنية والذهبية التي كانت تستعمل في طرز الملابس التي لاتزال تلمسان محافظة عليها، والخردوات والأسلحة والأقمشة القطنية والحريرية والذهب والتوابل وريش النعام. وأغلب هذه السلع كانت تأتيها من الدول الاوروبية المطلة على البحر المتوسط كجمهوريات إيطاليا واسبانيا وفرنسا، وحتى من بلجيكا وهولندا و بريطانيا.

وبعد احتلال الاسبان لموانئ الدولة الزيانية ازدادت السلع الاسبانية فـــي أسواق الدولة ومنها سوق القيصارية. وتعتبر القيصارية من أهم الأسواق التـــي عرفت مراقبة الدولة لها، ففي عهد السلطان أبي تاشفين الأول، عمـــد

1- عن المبادلات التجارية بين الدولة الزيانية و الدول الأوروبية انظر Hastoberis : les relations et commerce de l'Afrique du nord au maghreb au moyen age. P 16

إلى وضع دراع لكي يرجع إليه التجار عرف بالدراع المالكي[1] لمواجهة الغش الذي يمكن أن تتعرض له تجارة الأقمشة في القيصارية.

ويقال أنه بمقياس درع السلطان نفسه، لكن هذه الدراع تخلّى عنها التجار عندما ضعفت الدولة الزيانية ونستدل على ذلك بوجود درع عرف بالدرع الوهراني وأن استبداله وجد معارضة من قبل فقهاء الدولة لأنه لم يكن يتماشى مع المواصفات الشرعية، لذا يدخل هذا العمل ضمن تلاعب التجار.

- الفـنـــادق:

تعرضت كتب الرحالة وعلى الخصوص الحسن الوزان[2] ومرمول[3] إلى وجود فنادق للتجار المسيحيين في كل من وهران وتلمسان، لكن الباحث لا يعرف هل الفنادق التي لا تزال الآن بمدينة تلمسان ترجع إلى عهد الدولة الزيانية، أو أنها نشأت في عهد الدولة الجزائرية الحديثة، لكنني أعتقد بأن الفنادق التي لا تزال بتلمسان ترجع إلى عهد الدولة الزيانية وقد أدخلت عليها ترميمات في المراحل الموالية بعد سقوط هذه الدولة لأن ازدهار النشاط التجاري لتلمسان كان في عهد بني زيان وعلى الخصوص العصر الذهبي.

الفنادق الموجودة في تلمسان لم تكن تختلف عن الفنادق في كل من تونس وفاس وهو ما يؤكده الوزان[4] حينما يقول: " أن ما هو موجود بفاس مشابه لما كان في تلمسان"، ولذا اكتفى بشرح المرافق الموجودة في فاس.

1- عن هذا الموضوع انظر Dhina (A) : Le royaume Aledelandid / quelques aspects de sa vie economique dans Majallat et tarikh 1978 / P19

2- الحسن الوزان: المصدر السابق ، ص 393.

3- مرمول: وصف افريقية ، ج2 ، ص 10.

4- الحسن الوزان: المصدر السابق ، ج2 ، ص 10.

فالفنادق كانت ملكية خاصة ينزل بها التجار الغرباء من مسلمين ومسيحيين لكن نزولهم يكون مؤقتا بحيث أن إقامة التاجر بالفنادق تنتهي بانتهاء تصديره لبضائعه وشراء سلع جديدة، ثم مرافقة القوافل التي تنطلق من المدينة نحو المراكز التجارية، وتلك الفنادق تختلف عن فنادق القيصرية لأن التاجر في هذه الأخيرة ما هو إلا وكيل لأحد المؤسسات، وفي المرحلة الأخيرة عرفت أوروبا ظهور شركات ظهر ممثلون لها في أسواق الدولة الزيانية كالقاطالونين والبنادقة والجنويين والميورقيين يملكون مؤسسات تجارية كانت تحتكر تجارة الذهب والعبيد، وحتى اليهود كانت لديهم مؤسسات لها وكلاء بالواحات الصحراوية وموانئ الدولة الزيانية و الدول الاوروبية[1].

والإقامة المستمرة في القيصرية تتطلب إيجاد مرافق أخرى مثل المطعم والفرن وحتى الكنيسة لمزاولة الشعائر الدينية للمسيحيين ومركز لأخذ الضريبة الجمركية من السلع الواردة والصادرة، بينما كانت الفنادق تحتوي هي الأخرى.

- **الحسبة:**

الاحتساب والحسبة مصدر، حساب الأجر على الله تعالى، تقول حسب واحتسب فيه احتسابا أي طلب الأجر من الله، ومنها أيضا احتسب فلان على فلان أي أثر عليه قبح أعماله.

ومعنى هذا أن الاحتساب قام أساسه على وضع قواعد أخلاقية واجتماعية على الخصوص لحماية المجتمع الإسلامي من الآفات الاجتماعية.

1- لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر:
Caudray, les etrangers a Tlemcen dans l'Algerie nouvelle 2eme année, Alger, 1879, pp 72-59

وهذا النوع من العمل يعرف في التاريخ الإسلامي بنظام الحسبة أوالاحتساب الذي تطور في المجتمعات الإسلامية بين المشرق والمغرب حتى أصبح نظاما فرضت له دراسات فقهية وتاريخية وحضارية ويخطئ من يظن أن الاحتساب اقتبسه المسلمون من الأنظمة القديمة عند الإغريق وأنها نقلت إلى الشرق في العصر الهلنستي بواسطة الرومان، حيث وجدها العرب المسلمون في الأماكن التي وصل إليها نفوذهم في المشرق والمغرب فأبقوا عليه، لأهميته ونالها التطور.

ولكن الثابت لدى الباحثين المسلمين وغيرهم أن نظام الحسبة في الإسلام قام على أساس ديني، اجتماعي واقتصادي وأنه كما عرّفه الفقهاء "الأمر بالمعروف" إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله.

وفي ذلك يقول الدكتور عبد الباقي محمد: "أن أحوال الحسبة ترجع إلى العصر الإسلامي الأول، وردت في القرآن وطبقت في عهد الرسول(ص) والخلفاء الراشدين وبقية الدول الاسلامية الأخرى".

فمن الناحية النظرية وردت نصوص جعلت الضبط الاجتماعي أساسا لرعاية وضمان أمن الوطن والمواطن قال الله تعالى:" ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر".

أما في النظام الأوروبي فالأمر مختلف إلى حد كبير فإذا كان المحتسب يأخذ بالشّدة على من يشرب الخمر أو يمارس الملاهي المحرمة أو يأتي عملا بالأداب العامة فإنا نلاحظ أن البيزنطيين في مدينة مثل اللاذقية قبل الاسلام كان محتسبوها يقومون بمهمة تحديد سعر كل امرأة بائعة الهوى حسب جمالها.

من الناحية التطبيقية نجد الرسول(ص) قد ولى سعيد بن أبي سعيد بن أبي العاص بن أمية على سوق المدينة وعمر بن الخطاب السائب مع عبد الله بـــن عتبة على سوق المدينة.

ومن هنا نجد لا مجال للشك في أنّ الحسبة قامت في الإسلام منذ عصر الرسول(ص) وإن كان تنظيمها قد تم في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي ببلدان المشرق الإسلامي مع بناء مدينة بغداد 146 حيث نشطت الصناعة والتجارة وكثرت الاسفار.

وهناك من يرى أنّ نظام الاحتساب يرجع إلى عصر الخليفة الهـــادي اعتمادا على أن أبي الفداء ذكر خلال أحداث 160 موت نافع بن عبد الرحمن المقري المحتسب وأنّ كلمة المحتسب قد لا تعني القائم بوظيفة الحسبة ومـــن هنا نشأ الشك في رجوع نشأة الحسبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو شك لا دليل عليه.

- الحسبة في الإسلام قسمان

* **القسم الأول** : ديني ويتناول الدعوة إلى التوحيد وإقامة الشعائر الدينية وفي مقدمتها الصلاة لأنها عماد الدين، كي يبقى الضمير المسلم حيا متوجها إلى الله تعالى وان تكون العبادة خالصة إلى الله والنهي على المنكر منها التسبيح عند الأضرحة والذبح لهم والتبرك بهم وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية: " أن الصلاة هي أعرف المعروف من الأعمال وهي عمود الإسلام وأعظم شرطك".

* **القسم الثاني:** وهو المدني فقد امتد به العمل إلى أواسط القرن الثالث الهجري وفي ذلك يقول ابن خلدون كانت الحسبة في كثير من الدول الإسلامية

داخلة في عموم ولاية القاضي، يولي بها باختياره ثم انفردت وظيفة السلطان على الخلافة فصار نظره عاما في أمور السياسة فاندرجت في وظائف الملك وافردت بالولاية.

أما في المغرب الإسلامي عامة وفي عصر الزيانيين خاصة فقد كثرت الفتن بسبب تنازع الملوك الزيانيين في تلمسان، فقد ذكر العقباني الحالة التي وصلت اليها العواصم المغربية ومنها تلمسان، حيث تدهورت خطة الحسبة بارتشاء المحتسب لأن ضعف الدولة قد أدى إلى ضعف المحتسب الذي أصبح يشتري الحسبة بالمال ويمارسها بالقهر والسلطان ويجمع المال بالحلال والحرام وعندئذ سكت عن الغش .

في المدن الإسلامية ومنها مدن الدولة الزيانية نجد هناك الإدارة تشرف على الأسواق، تعرف أحيانا بالحسبة، ويسمى المشرف عليها بالمحتسب[1].

فالقاضي هو الذي يولي محتسب السوق ويشرف هذا الأخير على التعامل في الأسواق وسلامة السلع وتوفرها وصحة المكاييل والموازين لحماية المستهلك[2].

كما يشرف على تأمين الأسواق وحراستها، والراجح أن محتسبي الأسواق في العصر الزياني المتأخر لم يقوموا بواجبهم كما ينبغي، إذ تكشف نوازل الفترة ذاتها وكتب الحسبة عن انتشار الغش في الأسواق ويبدو أن محتسبي الأسواق تركوا العمل لأعوانهم ولم يراقبوهم[3].

1- ألف المغاربة والاندلسيون كتبا في ميدان الحسبة، من أبرز هذه الكتب رسالة ابن عبدون والمجليدي، كتاب التسعير، والعقباني، تحفة الناظر، ص162

2- ابن سعيد المغربي: المغرب، ج 2، ص 313.

3- - العقباني: تحفة الناظر، ص 162.

وقد علق الوزان على حالة المحتسب فيقول: " كان يعهد بها في الماضي لرجال أكفاء من ذوي السعة وأصبح الملوك في وقتنا يعهدون بها لأناس عاديين، فكثر الغش".

- **مـــراقبة الأســـواق:**

تعكس أهمية مراقبة الأسواق في الدولة الزيانية عدة قضايا اقتصادية واجتماعية ومالية ودينية ذات صلة بحياة المجتمع في عاصمة الدولة الزيانية وقراها وأكد القرآن الكريم على ضرورة ضبط الموازين والمكاييل والأمانة في الكيل والوزن حفاظا على حقوق عامة الناس. قال تعالى: "ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون". وقال تعالى في أيات أخرى: "وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير لكم وأحسن تأويلا"، وهناك حديث نبوي شريف يقول: "من غشنا فليس منا".

تعتبر مراقبة المكاييل والموازين من بين المشاكل التي واجهت المجتمع الزياني، فكان صاعها القديم يعرف بالتشفيني نسبة لأبي تاشفين الأول الذي يبدو أنه أعطى أهمية كبرى للأسواق وفرض على التجار مكاييل ومقايس منها الصاع التاشفيني والدرع التشفيني الذي لايزال بمتحف تلمسان إلى اليوم.

لكن في المرحلة الموالية تم التخلي عليه وظهر الصاع الوهراني الذي كان كثير الاستعمال في عهد العقباني سعيد.

كما وقع اختلاف بين الفقهاء في عواصم الدول المغربية وعلى الخصوص مدينة تلمسان خلط اللحم بالبطن والمصران فمنعها العقباني واجازها البرزلي خضوعا لما جارت به عادة تونس والقيروان والقرى التونسية الأخرى التي يباع فيها اللحم جزافا وأكداسا مختلطة.

- الأسعـــــــار:

الأسعار وردت فيها هي الأخرى أحاديث نبوية شريفة وأراء فقهية لعلماء المالكية.

وفيما يتعلق بإباحة التسعير، يمكن الرجوع إلى ما روي عن الرسول(ص) قد سئل عن التسعير فقال: " أن الله هو القابض الباسط والمغلي والمرخص وإني لاأرجوا أن ألقى الله وليس لأحد عندي مظلمة وروي عن ابن القاسم عن مالك بن أنس رضي الله عنه قال: " لا يحل لأهل السوق تسعير ما يبيعون به".

أما الإمام سحنون فقد كان يقدر السعر بمجموع التكاليف ويقول ابن خلدون في التسعير أعلم أن التجارة محاولة لكسب تنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء والمحاولة من وراء ذلك الربح.

وأمّا من يختزن السلع ويتعين فيها جولة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، فإن الأسعار لم تكن بمعزل عن الأحداث السياسية والظروف الطبيعية السائدة آنذاك، فالتطاحن والعنف يؤدي في الغالب إلى إتلاف المحاصيل الزراعية ومن نتائجه ارتفاع الأسعار فيلجأ التجار إلى احتكارها وبيعها بأسعار مرتفعة مثل ذلك ارتفاع الأسعار خلال الحصار المريني لمدينة تلمسان 698؛1298/707؛1307 فتوقف دخول البضائع إلى تلمسان حيث كان الجيش المريني يحول دون وصولها إلى المدينة وتحول سير القوافل من تلمسان إلى المنصورة القريبة من الاولى والتي أصبحت عاصمة للدولة المرينية آنذاك، فاشتدت المجاعة وأكل الناس كل شيء فبلغ ثمن البغل والحمار ثمانية مثايل والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم والحية بمثل ذلك والدجاجة بثلاثين، درهم والأصل الوحيد من الكرنب بثلاثة مثاقيل والخس

بعشرين درهم واللفت بخمسة عشر درهم والواحد من القثاء والفقوس بأربعين درهم والحبة من التين والإجاص بدرهمين فاستهلك الناس أموالهم".

علّق الوزان على ذلك الحصار فقال: "بلغ الغلاء درجة كبيرة جعلت كيل القمح يصل إلى سعر قدره ثلاثون درهم".

لكن الملاحظ انه بعد رفع الحصار على تلمسان انخفضت الاسعار وقد علق على ذلك ابن خلدون فقال: "ففي ساعة واحدة بيع مدهم القمح ثمانية صيعان بدينار والشعير ستة عشر صاع بدينار".

كما لعب الجفاف دورا هاما في ارتفاع الاسعار مما جعل الدولة تتدخل في توزيع مخزونها على السكان بأسعار مقبولة للغاية، ومن بين الذين تعرضوا إلى ارتفاع الاسعار ابن مريم في ترجمته لسيدي يحيى فذكر انه حدث غلاء كبير في تلمسان حتى تعطلت فيه المساجد وبعث السلطان لأهل البلد يطالبهم بتوفير الزرع في الاسواق فلم يجد لديهم شيئا.

وهناك مجاعة تعرضت لها الدولة الزيانية خلال سنة1294/694 عمّت بلاد المغرب الأقصى والأوسط وإفريقية وبلغ القمح عشرة دراهم للمدّ والدقيق ستة أواق بدرهم.

وفي عهد السلطان أبي حموا موسى الثاني نزلت بالدولة مجاعة عظيمة عاشها أبو زكرياء يحي بن خلدون و وصفها بقوله: " أنها نتجت عن اعصار عظيم أهلك الزرع بتلمسان وما جاورها فأكل الناس بعضهم بعض وافقروا إلى ما لدى السلطان فتصدق عليهم بنصف جبايته لان تلك المجاعة قد أدت إلى ارتفاع الأسعار لقلة الانتاج وإتلافه.

وقد شارك سلاطين الدولة في ارتفاع الأسعار حيث كانوا يحصلون على كمية كبيرة من الحبوب العائدة من العشور المفروض على المزارعين فخلال

حصار بني عبد الواد لبجاية نجد السلطان الزياني أبو تاشفين أمر بجمع الحبوب بمدينة تمزيزدكت.

وخلال سيطرة السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان1337/637 وجد بمخازنها كمية هامة من الحبوب باعها[1] لتجار ميورقة على أن احتكار الدولة للحبوب في بعض الأحيان يعود بالفائدة على السكان وعلى الخصوص حين تقع الجوائح الطبيعية كالجفاف، فتتمّ عملية توزيع الحبوب على التجار من مخزون الدولة.

ويعود ارتفاع الأسعار في بعض المدن إلى عدم توفرها أو جلبها من مناطق بعيدة وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقوله: "عندما يتعرض لتجارة فيذكر أن التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان، أرفه الناس وأكثرهم أموالا لبعد طريقهم ومشقته وكذلك المسافرون إلى المشرق وأما المترددون في افق واحد بين أمصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقلها".

من خلال النص يتضح أن الأسعار مرتبطة بقانون العرض والطلب، والتجار كانوا يعمدون إلى شراء السلع ثم يخزنونها في المخازن انتظارا لارتفاع أسعارها وعلى الخصوص ما يتعلق بالحبوب، وهو ما جعل العقباني[1] يعلق على ذلك بقوله: « ومن أعظم ما يجب تغييره والاحتساب في القيام به إخراج الزرع لعل من بين المشاكل التي عانت منها الدولة الزيانية وعلى الخصوص في مرحلة الضعف مشكلة الأسعار وهو ما يؤكده العقباني بقوله:

1- العقباني: نفس المصدر ، ص 213.

« قيل عن رجل كانت له معرفة بأحوال السوق والمعرفة في تسعير الفواكه وغيرها عدا الزرع ويعرف من ذلك الجيد والرديء، هل يجوز أخذ الأجرة على الباعة أو لا يجوز له ذلك ».

فأجاب العقباني إن كان له في نفسه ناظر عليهم منفعة المسلمين بقطعه مادة للفساد، فساد الباعة من فحش في المبيعات وسرقة الكيلات والموزونات وما أشبه هذا من الاضرارات التي يفعلها الباعة.

والأمثلة على ما ذكره المازوني من خلال هذه النازلة كثيرة منها:

أ: أن بعض المخازن التي بيد أربابها وعلى الخصوص في الأزمات الاقتصادية التي عرفت بالمسغبة لأنها كانت تستغل كما هو عليه الحال الآن » ولهذا يطلب من المحتسب أن يقوم بعملية التفتيش في المخازن والفنادق والدكاكين[1] والحوانيت إن وجد بها زرع مخزون فإنه يأمر بأن يباع ثم بعد بيعه يدفع لأصحابه رؤوس أموالهم أو يؤخذ الزرع ويتصدق به للفقراء والمساكين وإذا عادوا إلى الاحتكار من جديد فيجب على القاضي أن يأمر بسجنهم.

وحتى الفلاحين الذين كانوا يتوافدون على أسواق الدولة الزيانية من البادية ينزلون بالفنادق وفي بعض الحالات يعمدون إلى ترك زرعهم بها حتى يرتفع سعره لذلك كان المحتسب يشدد عليهم بإخراج زرعهم لسوق المسلمين حتى يدركه الضعيف والعجوز[2]. أما بعض الفقهاء فقد وقع الاختلاف فيما بينهم في قضية التسعير على المواد الغذائية فالنص يرى بأنه يجب

1- الدكاكين و مفردها دكان أو إذا أردنا استعمال النطق المحلي في تلمسان الدكانات و مفردها دكانة فإنها توجد على جانب الرواق في الفنادق.

2- العقباني: نفس المصدر ، ص 213.

علم بأسعر الذي اشتروا بــه من الجلاب.

ومن بين الذين كانوا يحثون على التسعير العقباني وفي هذا الصدد قال: "قلت كان شيخنا وسيدنا الجد[1] الأقرب يقول يتعين أن يكون التسعير على أهل الأسواق في هذا الزمن متفقا عليه ويقصدهم كل لحظة، فضلا عن كل يوم لمــا دانوا به من طمع المحظورات في البيع والإبتياع ومن أخبث شرورهم وهــو من نكبات محظورهم أن التاجر إذا أدركه سبب التعذر وهو من وحل ومطر وشدة تلج فيعمدون إلى إفراغ الأسواق من المطعومات وإفراغ مــا بأيديهم مــن ذلك لتعذر جلب الجلابين ومخازنهم به مليئة. وما ذلك إلا مــن ترصدهم الحظيظة فإذا حط لهم منه أوقية أخرجوا مختزناتهم وباعوا منــه الكثير مبادرة عن إتيان المجلوب يرخص ما بأيديهم[2] يستنتج من النص:

أن وضعية أسواق الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة لا تختلف كثيرا عن وضعية الأسواق الآن لعدم تدخل الدولة في مراقبة الأسعار نتيجة لضعفها. لذلك يوصي العقباني الذي عاش في الثلث الأخير من القرن9هـ/15م بتكثيف المراقبة على الأسواق بقوله يقصدهم كل لحظة فضلا عن كل يوم[3] وأن تجار الحبوب في أراضي الدولة الزيانية كانوا يغتنمون الظروف المناخية فكثرة الأمطار والثلوج في فصل الشتاء كانت كثيرا ما تؤدي إلى تعطيل القوافل التجارية التي تنتقل بين المدن، وكذلك الحروب التي عرفتها الدولة فــي مرحلتها الأخيرة كانت تحول دون سير القوافل التجارية، يعمدون إلى عــدم

1- نفسه ، ص 206.

2- العقباني: نفس المصدر ، ص 206.

3- نفسه، ص 205.

لإخراج ما في مخازنهم من الحبوب فترتفع أسعاره لقلة العرض، ولازال التجار لحد الآن يعمدون إلى ذلك عندما تقل سلع معينة بالأسواق، يعلق العقباني على هذه الأعمال التي كان يقوم بها التجار بقوله:" هذه مكيدة من مكائد الخدع ومضرة على ذلك في أموال المسلمين بغير حق. والواجب عليهم أن يخرجوا ما لديهم ليبيعوه بسعر الوقت دون ضرر يلحقهم في ذلك ولا يلحق المسلمين"[1].
ولعل من بين التحكم في الأسواق هو تنظيم الأسواق.

- تنظـيم الأسـواق:

تميزت أسواق الدولة الزيانية بالتنظيم، حيث حدد كل جناح سلعة معينة مثل سوق الغزل ـ سوق العطارين، الجزارين الخ ـ وهذا يسهل مهمة المراقبة من جهة و توحيد الأسعار من جهة أخرى.

ويرى العقباني إذا كان سعر أهل السوق متحد غير متفاوت فقام واحد منهم يبيع بأعلى ثمن كما يبيع به الناس فإن كان بجودة لم يمنع، وإن لم تكن لـه جودة بما أيديهم معا فإن حط على سعرهم وباع بأرخص مما يبيعون به ترك وبيعه و لم يؤمر الباقي باللحاق به ولكن يوصي القليل أن يلتحقوا بالكثير ويسار بهم في ثمن المبيعات.

مما يؤكد أنه يمكن لبعض التجار أن يعمدوا إلى وضع أسعار سلعهم عـن ما هو موجود في السوق إذا كانت تلك السلعة تتميز بجودتها عن ماهو لـدى التجار، وبذلك تختلف الأسعار حسب نوع السلعة في السوق.

1- العقباني: نفس المصدر ، ص 206.

ويمكن للتاجر أن يبيع بسعر أقل عن السوق إذا كانت السلع متشابهة مـــن حيث الجودة، ولم يفرض على بقية التجار بداخل السوق خفض أسعار سلعهم وبذلك يكون للتاجر الحرية في تحديد السعر بنفسه على شرط أن لا يؤثر علـــى المستهلكين.

- الإحـــتكــــــار:

اهتم فقهاء الدولة الزيانية وغيرهم من فقهاء العالم الإسلامي بالإحتكار لأهميته في الميدان الاقتصادي. ومن بين الذين تناولوا الاحتكار أبو الحسن الذي قال في الرسالة: "أما الحكرة فهو أن يعمد إلى أسواق المسلمين ويشتري كل ما فيه من السلع فهذا إن كان يضر بالناس يمنع من ذلك مطلقا في كـــل مـــا لهم حاجة وإن كان لا يضر بهم وإنما قلنا يمنع الحكرة هذا فيما اشتراه من السوق أما إذا جلبه من مكان آخر فلا يجوز على البيع ولا يمنع من حكرته لأنه لا يضر بالناس"[1].

هذا فيما يتعلق بالتعريف بالاحتكار أما موقف الدولة الزيانية منه، فإن كثرة الاحتكارات وتلاعب التجار في هذه المرحلة دفع بالدولة الزيانية وعلى الخصوص في عصرها الذهبي تشديد المراقبة وتكون تحت إشراف المحتسب[2] الذي له دور مراقبة الأسعار حتى لا تؤثر على معيشة السكان على الرغم

1- انظر العواد، الأحوال الاقتصادية في المغرب الاسلامي ص 126، و أيضا حسن علي عبد العواد، الحياة الإدارية و الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأقصى في القرنين الخامس والسادس الهجريين 11 و 12 م، رسالة دكتورة مخطوطة بكلية العلوم جامعة القاهرة رقم 75 سنة 1973، ص 216.

2- عن الحسبة انظر محمد علي عبد الباقي، الاحتساب بين المنهج الاسلامي والواقع المعاصر، مقال بمجلة سرتاع 4س2 ديسمبر1989، ص236 وفي الدولة الزيانية انظر أبو سعيد العقباني، تحفة الناظر، حقق من قبل علي شنوفي، مجلة معهد الدراسات الشرقية بدمشق، س1965، ص 162.

مــن أن النظام الاقتصادي الإسلامي لم يكن يحدّد الأسعار على البضائع تماشيا مع الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض» وقد ذكر الرسول {صلى الله عليه وسلم} السوق بيد الله، وقد تقيّد امراء الدولة الزيانية بما ورد في القرآن[1].

ونأخذ مثلا، إحدى السلع التي كانت تتميز بالوفرة بأسواق الدولة الزيانية، فقد كان من بين الذين يستترون في تحديد الأسعار الدلال لاتصاله بالحرفين من جهة وصانعي الجلود من جهة أخرى لتكون لديه نظرة حول سعر المادة المعروضة ثم يتصل بأمين الحرفيين المستعملين للجلد ويكون هذا الأخير واحد من هؤلاء، ينتخب من بينهم، فيتم تحديد السعر اليومي الذي يتغيّر بتغير أسعار المادة الأولية مثل شراء الجلود والمواد المستعملة في الدبغ[2].

وفي بعض الحالات كان التجار يختارون من يعرف أحوال السوق فيحدد الأسعار وفي هذا الصدد يقول المازوني: « سئل عن رجل كانت له معرفة بأحوال السوق والمعرفة في تسعير الفواكه وغيرها عدا الزرع ويعرف من ذلك الجيد والرديء، هل يجوز له أخذ الاجرة على الباعة أو لا يجوز»[3].

وهنا نجد بأن تحديد الأسعار لا يكون مقتصرا على المحتسب فقط بل حتى بعض الناس الذين لهم معرفة بأحوال السوق.

وفي بعض الحالات كان التاجر هو الذي يحدد السعر بالإتفاق مع الدلال الذي يحمل السلعة إلى السوق، أو الساحات العمومية في المدن، وهو ما يؤكده عبد الرحمن الوغليسي: "عن الرجل يأتي السوق ليبيع فيقــول للسمســار

1- أبو سعيد العقباني: المصدر السابق، ص 264.
2- نفسه، ص 163-165.
3- المازوني: الدرر المكنونة، ج2، ورقة 49.

بــع لـــي هذا وأعطيك كذا وكذا أجرة معينة، فيأتي السمسار من ذلك ويقول: "لا آخذ إلا ما جرت عليه العادة ولا تنضبط عادتهم في ذلك قد تزيد على مـــا عينه له وقد تنقص وقد تساويه"، فأجاب بأن البيع لا يجوز إلا بأجرة معلومة".

فهذا النص يوضح لنا بأن بعض التجار كانوا يريدون فرض أسعار معينة على السلع التي يدفعونها إلى السماسرة[1] وكذلك الفوائد التي يتحصل عليها هؤلاء، لأنهم يرفضون ذلك لأن السلعة تخضع لعملية المزايدة فأحيانا ترتفع الأسعار عن ما طلبه صاحب السلعة وأحيانا تنخفض نتيجة للطلب والعرض.

وفي بعض الحالات فإن الفلاح يأتي بالخضر والفواكه إلى إحدى الحوانيت بالمدينة، فيطلب منه أن يبيع له رطل العنب بنصف درهم ومقابل خمس أرطال يأخذ درهم وحتى البصل واللّفت تباع الربطة الواحدة بنصف درهم ويأخذ عن كل عشر ربط درهم واحد وبذلك يكون الفلاح هو المحدد للأسعار.

وفي رسم أورده المازوني[2] يتعلق بتاجرين يهوديين يبدو أنهما كانا بأراضي الدولة الزيانية يقومان بالنشاط التجاري فقال: "سئل محمد العقباني عن مردخان اليهودي تحاسبا مع سلول اليهودي على ما كان بينهم من معاملة ومداخله، قلت إلى أن قررت المحاسبة بينهما أنه لم يبق لسلول على نفســه ان مردخان في ماله وذمته غير إثنا عشر قنطارا من الشمــع المسبــوك،

1- الونشريسي: المعيار، ج، ص.

2- ففي عصرها الذهبي واجهت أخطارا خارجية تمثلت في حصارها مرارا و على الخصوص الحصار المريني الكبير الذي أدى إلى تشيد مدينة المنصورة استفحل الغلاء إلى أن بلغ ثمن كيل القمح بثلاثين دينار والملح بثلاث مثاقيل ۔ رطل اللحم بربع متقال فلم يطق السكان تحمل المجاعة، لكن بعد ما تم رفع الحصار دخلت القوافل المدينة فانخفضت الأسعار وأصبح القمح يساوي ثلاث مثاقيل.

كـــان مردخان سلم له فيها ودفع له في رأس المال سلعا من كل وطر وعفص ثمنها مائة وعشرون دينار ذهبا وكان رأس المال كله مائتي وأربعة دنانير ذهبية لحساب سبعة عشر دينار لكل قنطار"[1].

يستخلص من النص ما يلي:

أ: أن النارلة توضح لنا بعض السلع التي كانت متداولة في الدولة الزيانية ومن بينها الطرطار والعفس واللك. كما تحدد سعر البضاعة.

- تأثير الظـــروف السياسية على الأسعـــار:

هذا فيما يتعلق ببعض السلع التي كانت تصدر إلى خارج أراضي الدولة الزيانية، أما أسعار المنتوجات الفلاحية والصناعية التي تباع في أغلب أسواق الدولة فإنها تخضع لظروف سياسية، فعلى الرغم من انعدام الوثائق العائدة لعهد الدولة الزيانية وعلى الخصوص المرحلة الأخيرة منها، لكن نجد بعض الاشارات الخفيفة في بعض المصادر تبين لنا بأن الأسعار مرتبطة بالعوامل السايسية فحين تتعرض تلمسان للخطر الخارجي فإن الأسعار ترتفع بها لعدم وصول القوافل التجارية التي تزود المدينة بما تحتاج إليه من المواد الغذائية والأمثلة على ذلك كثيرة[2].

في المرحلة الأخيرة التي تميزت بكثرة الحروب بين أمرائها من جهة والقوى المعادية لها من جهة أخرى، فإن تلمسان وغيرها من مدن الدولة كانت تعاني من ارتفاع أسعار البضائع التي يكثر الإقبال عليها كالمواد الغذائية.

1- المازوني: المصدر السابق، ج2، ورقة 19.

2- ابن خلدون: يحي بغية للرواد ، ج1 ، ص 211.

فقد عرفت تلمسان في هذه الفترة موضوع البحث، سيطرة القوى الخارجية فدخلها عروج سنة1517م واستولى على ما وجده بها وعندما قلّت الكمية فـــي أسواق تلمسان نتيجة لاختفائها من قبل التجار خرجت قواته إلى القرى المجاورة للمدينة لأخذ الشعير لجياده من المزارعين مما كان له رد فعل وقــد أشار لهذا ابن مريم[1].

أما الكوديتي، فإنه عندما دخل تلمسان سنة1543 سمح لجنده بنهب كــل ما وجد في مخازن الدولة وأسواقها من حبوب وسلع، وهو ما تؤكده الوثائق الاسبانية التي تقول بأن كمية كبيرة من السلع والحبوب نقلت إلى وهران، لأنها كانت في أشد الحاجة إليها. وقد أدى هذا إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية بعد عودة الاسبان، لأن الحروب لم تتوقف بين الأميرين مولاي محمد ومولاي عبــد الله بعد انسحاب الاسبان وهذا حال دون تزويد تلمسان بمـــا تحتاج إليه من سلع لصعوبة المسالك التي حالت دون وصول القوافل التجارية وهنا نجد الاختلاف أيضا بين مرحلة القوة والضعف، فالأولى فإنه بمجرد زوال الخطر تتحسن أحوال الناس بانخفاض الأسعار، بينما في مرحلة الضعف الأمور تبقى معقدة لضعف الجبهة الداخلية واستمرار الصراع بين أمراء الدولة[2].

يضاف إلى ذلك تلاعب التجار بأسعار المواد الغذائية باحتكارها حتى يحين وقت ارتفاع أسعارها، كما شارك سلاطين الدولة الزيانية في ارتفاع الأسعار لأنهم كانوا يحصلون على كمية كبيرة من الحبوب العائدة من العشور المفروضة على المزارعين ثم يبيعونها لتجار الدولة أوالدول الأوروبية الذيــن

1- ابن مريم: البستان، ص 146-147. عن دخول عروج لتلمسان انظر الفصل الثاني من الباب الأول

2- وصف الحسن الوزان هذه الحالة فقال بلغ الغلاء درجة كبيرة جعلت كيل القمح يصل إلى سعر قدره ثلاثون دينار انظر وصف إفريقية 388-389.

يأتون لأسواقها، لكن احتكار الدولة للحبوب في بعض الحالات كان يعود بالفائدة على السكان وخاصة حين تقع الجوائح الطبيعية كالجفاف مما يؤدي إلى انخفاض الانتاج بعد عرض ما هو مخزون في مخازن الدولة في الأسواق بأسعار مقبولة وهذا كان يحدث مرارا في عصر قوة الدولة[1] أما خلال مرحلة الضعف كان سلاطين الدولة ليسوا في مستوى أبي تاشفين الأول ليفضلون مصلحة الدولة ورعاياهم عن مصلحة الغير، بل كان همهم الوحيد إرضاء رغبات.

القوى الموالية لها كالاسبان وهو ما تشير إليه الوثائق الاسبانية ومنها رسالة أرسلها الدكتور واربيخا لملك اسبانيا يقول فيها أنه ذهب إلى تلمسان للاتصال بالأمير عبد الله لكي يشتري منه سلعة تقدر بـــ 30.000 دينار منها40.000 فنقوس. Fongus من القمح و60.000 من نفس الكيل شعيرا وهذا يؤثر سلبا على الأسعار وعلى الخصوص في وقت الأزمات الاقتصادية، فإن قلة الغلة بالأسواق في الوقت الذي يزداد الطلب عليها يؤدي إلى ارتفاع أسعارها مما يتعذر على الطبقة الفقيرة أن تجد ما تسدّ بها رمقها.

هذا فيما يتعلق بأسعار المواد الغذائية أما المواشي فكانت أسعارها هي الأخرى تخضع لقانون العرض والطلب وبعض المناسبات كموسم بداية الحرث الذي تباع بـــه الثيران الخاصة بالحرث بأسعار مرتفعة وفي هذا الصدد يقول ابن مريم[2] في ترجمته لمحمد المعروف بالقليعي أنه رجلا رحويا بالقلعة وله بقر بإزاء مسكنه القريب من عرصة لرجل يدخل فيها، قال له: "اشتر مني العرصة، فقال له: " مـــا عندي ما أعطيك وحدّد له ثمن البيع بستين دينار،

1- ابن مريم: البستان، ص 30.

2- ابن مريم: البستان، ص 271.

وكان هذا العالم يملك ثلاثة ثيران يعلفهم وعندما حان شهر يناير، ومن عادة الناس شراء الثيران المعلوفة في يناير فسأل أهل الصفيصف عن المعلوف فقيل لهم: إن فلان عنده ثلاثة ثيران معلوفة فتوجهوا إليه واشتروا منه واحد بعشرين دينار وسمع أهل وردان فصعدوا إلى القلعة واشتروا منه الثور الثاني بعشرين دينار، فسمع أهل الحنايا فطلعوا إلى القلعة واشتروا الثالث بعشرين دينار، فلم يكن إلاّ والرجل دفع ستين دينار لرب العرصة".

يستخلص من النص ما يلي[1]:

أ: أن أسعار الأراضي خلال المدة موضوع البحث تبدو منخفضة فمزرعة تباع بثمن يقدر بستين دينار.

ب: أن أسعار المواشي المعلوفة كانت مرتفعة وعلى الخصوص الثيران التي تستعمل للحراثة.

ج: يحدد صاحب النص بعض القرى التي كانت تحيط بتلمسان وكان أصحابها يزاولون النشاط الفلاحي وهذا يجعلنا نؤكد مرة أخرى أن مدينة تلمسان كانت فلاحية بالدرجة الأولى.

وفي بعض الحالات كانت الأسعار ترتفع نتيجة للجفاف الذي كانت تتعرض له أراضي الدولة الزيانية، وقد أشار إلى ذلك ابن مريم حيث قال: " عن سيدي يحي أن خديمه قال: " عندنا هري في دار الشيخ لا تخلو من الزرع والشيخ صاحب الزرع في زمن الغلاء لم يبق الزرع إلاّ عنده وأن الغلاء الذي عرفته تلمسان أدى إلى تعطيل المساجد وأن سلطان عصره قصده لشراء الزرع منه لأن أمراء الدولة كانوا يقومون بشراء الحبوب وإعادة بيعها"، وقد حدث هذا في عصر الدولة الزيانية الذهبي، ولعل ذلك كان يحدث في فترة

1- ابن مريم: المصدر السابق، ص 286.

ضعفهــا أيضا وقــد سبق لنا التعرض لبيع الحبوب من قبل مولاي عبد الله للدولة الاسبانية[1].

يبدو أن الدولة الزيانية في مرحلة قوتها تقوم بعملية توظيف أمناء يتميزون بالكفاءة والنزاهة لحفظ الدروب والأسواق والأزقة من الآفات الاجتماعية التي كانت تتعرض لها من اعتداء وسرقة والاعتداء على حرمات الناس[2].

- وضعية الأســـــواق:

إن كل سوق أو حارة كان له أمينه الخاص ينظر في كل الأمور التي تهمه وكذلك حاجة الناس، لكن في مرحلة ضعف الدولة الزيانية لم يبق الاهتمام بهذه الوظيفة كانعدام الأمن في الطرقات والأسواق وحتى داخل المنازل نفسها، وقــد أشار إلى ذلك الرحالة المصري عبد الباسط[3] خليل خلال زيارته تلمسان، أنه تعرض إلى السرقة في مقر إقامته بالمدينة وهذا في عهد المتوكــل الذي يعتبــر عصره أفضل من عصــور الأمراء الذيــن سابقــوه أو الذيــن جــاءوا بعده .

لم يكن الأمر مقتصرا على حفظ الأمن فقط، بل عرفت أسواق الدولة الزيانية كثرة الفوضى وهو ما دفع العقباني[4] إلى القول بأن هناك بعض التجار شيدوا دكاكين بين أيدي الحوانيت في اسواق الدولة مما يضر بالمارة وعلى الخصوص عند تجمع الأحمال وكثرة الناس أمام هذه الدكاكين كأصحاب السلع المتوافدين عليها لبيع وشراء السلع مما يؤدي إلى تكديسها أمام تلك الدكاكين

1- رسالة ابن عبدون، ص 42.

2- عبد الباسط خليل: المصدر السابق، ورقة 69.

3- العقباني، تحفة الناظر، ص 273.

4- نفسه، ص 273.

فيؤثر على المارة لأن الشوارع والأزقة تتميز بكثرة الضيق عكس ما هو الحال في شوارعنا الحديثة.

يضاف إلى ما سبق أن مساحة تلك الدكاكين لا تكفي السلع مما يدفع بالتاجر إلى تكديسها أمام أبواب المحل لكي يطلع عليها التجار، لكن هذا كان له تأثير سلبي على السوق.

لم يكن هذا البناء هو الجانب السلبي فقط بل نجد تراكم الأوساخ خلال فصل الشتاء لكثرة نزول الأمطار والثلوج فيؤثر ذلك على السوق، وأحيانا نجد أصحاب الدكاكين والحوانيت يرفضون جمعه وإبعاده من السوق، إن العمل لابد أن يقوم به الملاك لأنهم ما هم إلا مستأجرين وهذا بدوره يؤثر على حركة المرور[1].

يضاف إلى ما سبق أنه توجد في أسواق الدولة وعلى الخصوص مدينة تلمسان ورشات خاصة بدبغ الجلود تنشر الجلود التي يشتريها هؤلاء من الجزارين في الطرقات لكي يمر عليها المارة، لكنها تصيب المارة عندما يتخطونها بأرجلهم ولهذا طلب العقباني[2] من المحتسب أن يعاقب أصحابها ويحثهم على وضعها بعيدا عن الطرقات وهو ما يؤكده في هذا النص بقوله: «وما يفعله الجزارون عندنا من بسط جلود البقر بمحذاة الطرق لتنالها أقدام المارة يحصل فيها ذلك كما يحصل بالمذابح، وذبح الجزور بالطريق كل هذا من منكرات الشوارع»[3].

1- العقباني: نفس المصدر، ص 272.
2- نفسه، 274.
3- نفسه، ص 246.

النجــش:

كما عرفت الدولة الزيانية خلال هذه الفترة موضوع البحث كثرة النجش في الأسواق، ولعل الأمر لم يكن مقتصرا على تلمسان فقط، عمّ أغلب أسواق الدولة وتتمثل العملية في أن التاجر يأتيه تاجر آخر فيزيد في سعر السلعة دون أخذها وتعرف العملية لدى تجار الدولة بالبرج وقد عرفها ابن رشد بقوله: "هــو أن يعطي الرجل العطاء في سلعة لا يريد شراءها ليغرّ بذلك غيره[1].

يضاف إلى ما سبق أن "هؤلاء التجار لم يتقيدوا بالمكاييل والموازين والدراع خلال شراء السلع والبيع بموازين ومكاييل مغايرة، فكانوا يعطون البائع بالمكيال الصغير ويشترون بالأكبر ونفس الشيء بالنسبة للدراع و كذلك التطفيف فيما يتعلق بكيل الحبوب[2].

وهذه الظواهر تكثر خلال الفترات التي تتميز بضعف الأمن وانعدام المراقبة مثل ما حدث خلال الثورة التحريرية في بعض المناطق المحرمة فقــد استغل بعض التجار الوضعية للأغنياء على حساب الطبقات الفقيرة وهذا العمل تم أيضا في تلمسان وبقية الأسواق التابعة للدولة الزيانية خلال الاضطرابات التي عرفتها الدولة في مرحلتها الأخيرة لقلة المراقبة وعدم الاستقرار السياسي وكثرة الغارات على أسواق الدولة، عكس العصر الذهبي حيث فرض السلطان الزياني أبو تاشفين الأول المراقبة على أسواق الدولة بتحديد المقاييس والمكاييل، فلايزال لحد الآن الدرع الذي نصبه في القيصرية بتلمسان حــتى يرجع إليه التجار عندما يبيعون القماش .

1- البكري المغرب: ص 27 89-91

2- الونشريسي: المعيار، ج6، ص 76 و ما بعدها.

لم يكن التغيير قد مس الدراع فقط، بل شمل أيضا الصاع المستغل في بيع الحبوب، لأنه خلال مرحلة ضعف الدولة عمد التجار إلى تغيير الصاع الزياني فوجدوا معارضة من فقهاء الدولة، ومن بين هؤلاء العقباني وهو ما يؤكده بقوله ما ذكر لي سيدنا الجد الأقرب عن معارضته في الزيادة في صاعنا يوم زيدت الزيادة فيه عما كان قديما يعرف بالتاشفيني[1] بهذا الذي بين أيدينا يكيل به سمي بالوهراني.

لم يحدد لنا العقباني[2] دوافع تغيير المكيال الذي يرجع إلى عهد السلطان أبـــي تاشفين الذي عرفت الدولة الزيانية في عصره ازدهارا في الميدان الاقتصادي مع ذكر المكيال الجديد الذي يعرف بالوهراني نسبة للمدينة التـــي اعتبرت من أكبر مراكز التجارة بعد تلمسان، ولعل أول استعمال له من قبـــل تجار مدينة وهران ثم انتقل العمل به إلى مدينة تلمسان، وغيرها من المـــدن التابعة لها.

يجعل العقباني عوامل التغيير إلى وضعية الدولة وقد علق على ذلك بقوله: "بعد ملك الجوار والثوار من العرب تشريع في هذا الوطن".

والصاع الوهراني استعمل من قبل القبائل في أخذ الوظيف من القبائل الخاضعة لهم، لأنه أكبر من الذي استعمل في عهد السلطان أبي تاشفين الأول وقد أفتى بعض الفقهاء بعدم استعماله لأن العقباني رفض ذلك لعدم تماشيه مع الكيل الشرعي، وأنه لا يجوز في رأيه أن ينصب الناس في أسواقهم دراعا يبيعون به، كما لا يجوز ترك المكيال المعروف الجاري، إلى مكيال مجهول

1- نسبة إلى السلطان أبو تاشفين الأول717-737هـ/1317-1337، للمزيد من المعلومات عنه انظر ابن خلدون يحي بغية الرواد ج1، ص215، التنى نظم الدر العقيان، ص139-144.

2- العقباني: نفسه، ص 141.

وإن لم يكن للناس دراع منصوب، يجوز على الدراع الوسط، كما يرفض العقباني التعامل مع القبائل العربية في القرى بالمكاييل المجهولة في شراء الحبوب منها لأنه يعتبر من المغشوشات.

لم يكن التأثير السلبي مقتصرا على إدخال تغييرات في الموازين والمكاييل فقط بل شمل أيضا التقرب من ذوي الجاه ومعاملتهم عكس بقية الناس في البيع والشراء فالجزارون بمدينة تلمسان عندما يبيعون اللحم يدخلون في وزنه شيئا من الكرش والمصران على قدر كثرة الثمن وقلته إلا أن ذلك لا ينضبط بشكل متساوي بين الناس على نسبة محفوظة من كل ثمن ومثمون، ولكن يختلف حسب من يتقي بأسه من المستضعف الذي لا ناصر له إلا الله، فالأول يحمل القليل من الكرش وقد لايحمل شيئا بحسب تفاوت درجاتهم والأخير يحمل الكثير[1].

كما كان التجار يخرجون من مدن الدولة إلى الأرياف أو البوادي أوالفحوص المجاورة للمدينة لكي يأتوا بالمواد الغذائية ثم يبيعونها في أسواقها.

لم يكن هذا العمل مقتصرا على تجارة الحبوب والخضر والفواكه فقط بل امتد أيضا إلى تجارة المواشي حيث كان هؤلاء التجار يخرجون إلى الريف فيشترون أغناما ثم يأتون بها إلى النواحي المجاورة للمدينة حيث يوجد المرعى لتسمينها ثم ينقلونها إلى أسواق الدولة فيربحون فيها وهو ما يؤكده العقباني[2] بقوله: "وعندنا رجال يقطنون ببلدنا".

لم تكن عملية احتكار تجارة المواشي والتحكم في أسعارها هي الجوانب السلبية فقط بل نجد أيضا الخبازين الذين يعملون في أسواق الدولة كانوا

1- العقباني: تحفة الناظر، ص 232.

2- نفسه، ص 249.

[يعمدون إلى صنع الخبز[1] من الدقيق بعد طبخه مباشرة وعـدم غربلتـه وهـذا لا يتعلق بالقمح فقط بل يشمل القطاني والشعير. لم يتوقف عمل هؤلاء عـلى عدم غربلة الحبوب قبل عجن الخبز بل كانوا يعمدون إلى نقص وزنه بدعـوة أنهـم كانوا يتعرضون لدفع ضرائب أو وظائف للدولة إذا صنعوا خبزا بعـد غربلته.

- تدخل رجال الدين في منع تصدير بعض السلع:

على الرغم من أن هناك معاهدات تجارية أبرمت بين الدولة الزيانيـة والدول المسيحية في عصر قوتها والمرحلة الأخيرة من حياتها فإن المعاهـدات نصت على حرية المبادلات التجارية بين هذه الدول إلى أن رجال الدين فـي أوربا حاولوا الضغط على تجارهم الذين كانوا خاضعين للبابا فـي روما وملتزمين بطاعة أوامره وأنه لا يقبل بسهولة أن تكون العلاقة متينة بيـن الـدول الإسلامية والمسيحية لأن هذه المرحلة تميزت باشتداد الصراع بيـن الإسلام والمسيحية بعد سقوط الامبراطورية البيزنطية في أيد المسلميـن وغرناطة بيـد المسيحيين وبروز القوة الإسلامية في الشرق متمثلة فـي الدولـة العثمانية وفـي الغرب متمثلة في اسبانيا والبرتغال، فالأولـى توسعـت علـى حساب دول مسيحية في أوربا الشرقية وامتدّ نفوذها إلـى أراضي الدولة الزيانية، حيث قامت الدولة الجزائرية سنة1518 مرتبطـة بهـا وإن ذلك على حساب الدولة الزيانية، بينما توسعت اسبانيا والبرتغـال على حساب الدول الإسلامية في غرب العالم الإسلامي وهذا ما دفع برجال الدين المسيحيين إلـى إصدار تعليمات تمنع نقل بعض السلع إلى أراضـي

1- نفسه، ورقة 225.

الدولة الزيانية ومـــن بينها الأسلحة، الحديد، الخشب، القمح، الشعير، الذرة البيضاء، وحبال القنب.

وعلى نفس المنوال لجأ فقهاء الدولة الزيانية إلى المطالبة بعدم بيع السلع للدول المسيحية فقد أورد الونشريسي.

من بين السلع التي حرمتها كتب النوازل الفقهية هو بيع السلاح لمن يقتل به المسلمين وكذلك الأرض التي تتخذ مكانا لبناء كنيسة للنصارى أو معبد لليهود، وحتى الخشب الذي يصنع منه الصليب أو السلاح ليستعين به الكفار على المسلمين وحتى النحاس والغرائر والزفت والقطران والشمع والسروج واللجام والمهاميز لأنها تستعمل من قبل فرسانهم، وحتى الصوف والكتان مـــن بين السلع المحرمة على الكفار.

والسبب في رأي هؤلاء الفقهاء أن النصارى كانوا يستعملون من الحرير الرايات التي يحملها الجند خلال حروبهم ضد الدول الإسلامية كما يزنيون بـــه كنائسهم.

ولم يكن هذا التحريم مقتصرا على الكفار فقط بل شمل أيضا القبائل العربية وغيرها من القبائل التي عرفت بالبغي والفساد في الأرض والتسليط على هتك الحريم وأخذ أموال الناس وهذه الظاهرة عرفتها الدولة الزيانية فـــي مرحلتها الأخيرة.

وإن بيع هذه الأشياء لهذه القبائل سيؤدي إلى تقويتهم مما يـــؤدي إلـــى المضرّة بالنسبة للمسلمين .

وحتى في الأزمات الاقتصادية لا يمكن التعامل مع هذه القبائل كبيع القمح والشعير لهم لأن هذا الأخير يقدمونه علفا لخيولهم.

لكن هذا البيع لم يكن محترما من قبل المنتجين سواء بالنسبة للدول المسيحية أو القبائل، لأن المصالح المادية كانت تتغلب على الجانب العقائدي، هذا فيما يتعلق بالمبادلات التجارية بين الدول الإسلامية والمسيحية.

الفصـــل الثـــانـــي

الصنــاعــة

إن الصناعة في الدولة الزيانية تتميز بالخصوص في تصنيع الانتاج الزراعي وما يتصل به، وكذلك استخراج المعادن والاستفادة منها.

- مــوقف الدولــة من العمل:

فالدارس لمصادر الفترة يلاحظ بأن السكان كانوا يعجبون بالصناعــة ويحبّون تعليمها ويكرهون القصور فيها ، فقد أورد ابن مريم في ترجمتــه لابــن زكري الذي كان يعتبر من كبار علماء عصره أنه كان في بداية أمره يتعلم الصناعة قبل أن يلتحق بالدروس وأن شيخه هو الذي طلب منه ترك عمله مقابل تسديد *ما كان يأخذه من معلم الصنعة*.

ويبدو من خلال المصادر التي تمكّن الاطلاع عليها أن العاملين في المهن خلال هذه الفترة موضوع البحث لا يستفيدون كثيرا لكنهم يقبلون عليها.

ولم تكن الحرف تزاول في الأسواق فقط بل حتى في المنازل حيث كثر الإقبال عليها من قبل النساء العاملات اللواتي يجدن صعوبات في مزاولتها في بعض الحالات لموقف رجالهن منها لذلك طرح المازوني مجموعة من النوازل تتعلق بالموضوع:

إن ما عرفته الدولة الزيانية هو الذي ساد الفترة الموحدية حيث فرضت الضرائب على الصناع حسب مدخولهم وترك تقديرها وتحصيلها لأمين كل صنعة في كل مدينة وهذه الطريقة كانت متبعة في مدينة الجزائر خلال عهد الدولة الجزائرية الحديثة مما يجعلنا نؤكد على أنه لم يحدث أي تغيير فــي الفترة الممتدة ما بين عصر الدولة الموحدية وقيام الدولة الجزائرية الحديثة، فكانت الدولة الزيانية تطبق النظام الذي عرفه المغرب في عهد الموحدين،

والذي يشرف على هؤلاء الحرفيين أمين الصنعة[1].

وقد عرف النشاط الصناعي في أواخر الدولة الزيانية ازدهارا كبيرا نتيجة للهجرة الاندلسية إلى مدن الدولة، ولكن هذا لا يجعلنا نقلل من دور سكان الدولة الزيانية لأن الخبرة الصناعية في العصر الزياني وبالخصوص مرحلتها الأخيرة لم تعد تقتصر على الأندلسيين فقط بل برز عدد من أهل البلاد في مختلف الصنائع.

- الملكيــــة:

*** ارباب العمل:**

تشير النوازل إلى الملكية في المعادن وآلات العمل من رحاء وأفران وحمامات وملاحات ومعاصر ومناسج، ومن بين تلك النوازل ما أورده المازوني بقوله: "سئل الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن مقلاش عن اكتراء المكتري ملاحة البطحاء مدة معينة، هل يسوغ أو لا مع أن أمر الملح إذا أزيل من محل عادة إلى ما كان عليه بعد أسبوع ونحوه لا سيما في شدة الحر؟. فأجاب، أما الملاحة[2] فليس الكراء فيها بيعا لملحها فيما توهمت بل الكراء فيها

1- يبدو أنه في تلمسان كانت الحرف تزاول في بعض الدروب لذا عرف البعض باسماء الحرف أمثال درب الحجامين ودرب الصياغين وبعض الحرف تزاول إلى جانب الفنادق مثل الحرازين المعروفين بالبلاغجية كانوا إلى جانب فندق الرمانة، والحدادين والبرادعين بالقرب من فندق بوعلي .

- يوجد بالمكتبة الوطنية مخطوط خاص بالأسواق تعرض إلى الحرف و ذكر تنظيماتها التي يبدو أنها لم تكن تختلف عما كان سائد في الدولة الزيانية، حيث نجد لكل حرفة أمين، وهؤلاء ينتخبون أمين عنهم ليكون صلة بينهم وبين الدولة انظر ابن الشويح الأسواق مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 750.

2- يبدو أن الملاحة كانت مستغلة من قبل الدولة الزيانية في عصرها الذهبي وعند ضعفها حاول بعض أمراءها إقطاعها لبعض شيوخ القبائل لأنها تقع ضمن مضارب سويد عن هذا ،انظر الونشريسي المعيار، ج5 ، ص 222، ج1 1468.

لأجل رفع الحجر عنه مدة من الزمان لأنها محجرة لمصلحة اقتضت ذلك فإذا قطعها الإمام أو من هو قائم مقامه لمدة من الزمن فإنه أباح له النظر فيها".

فهذا النص الذي أورده المازوني[1] والذي نسبه إلى ابن مقلاش من كبار علماء وهران في عصره يوضح لنا بأن الملاحات كانت ملكا للدولة، وأغلبها بوادي جمعة التابع الآن لغليزان أشرفت عليها دولة بني زيان واستمر ذلك في مرحلتها الأخيرة، حيث كان الملح ينقل إلى مرسى أرزيو ومنه يصدر إلى الدول الأوروبية .

ويبدو من خلال النص أنه في بعض الفترات التاريخية ولعلها مدة الاضطرابات كان سلاطين الدولة يلجؤون إلى عملية استئجارها لبعض الناس مقابل تقديم ضريبة للدولة الزيانية .

كما وردت نازلة عند المازوني[2] تتعلق بمعدن الحديد المستخرج من جبال دولة كالونشريس والظهرة وموقف الدولة هل يمكن استغلاله من قبل الدولة أو اقطاعه مقابل تقديم ضريبة لها.

لم تكن الدولة هي الوحيدة التي تتحكم في وسائل الإنتاج بل حتى كبار التجار الذين كانوا يقومون بكراء المناسج للنساء لكي يقمن بصناعة الملابس و الزرابي أو الحنابل أو غيرها، لأن بعضهن لا يستطعن شراء الآلات التي تستعمل في النسيج وفي هذا الصدد يقول المازوني: " سئل القاضي أبو عبد الله بن سراح عن أهل صناعة الحياكة وذلك أنهم يكترون المناسج بأجرة معلومة من غير أجل أو يمنع من ذلك فقال: " لايجوز إلاّ إذا قال الكراء لأجل معلوم وأجرة معلومة، ينبغي أن يعطوا أجرة لأجل معلوم كالشهر أو نحوه، أو جمعة

1- المازوني: الدرر المكنونة، في نوازل مازونة، ج2، ورقة 46.
2- نفسه، ج2 ، ورقة 47

أو نحوها، ومع ذلك يقول الصانع إن عملت ملحفة واحدة في ذلك الأجل تعطيني خمسة دراهم إن عملت اثنين تعطيني عشرة".

ولكنه إذا جاء بالمنسج يقول له ما عملت فيه إلاّ واحدة أخذ خمس دراهم وان قال اثنين أخذ منه عشرة هل يجوز؟"[1] وفي نص آخر يقول: " جوابكم فـي مسألة ثانية أن أهل الصناعة المذكورة كانوا إذا جاءهم صاحب شغل اتفقوا معه على أجرة معلومة فإذا تم شغل آخر بقدر مانقص من غزله في خدمة الشغل[2]".

- **الصنـــاع:**

لا توجد لدينا مصادر تبيّن لنا عدد الصنّاع في الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة، كل ما هنالك أن الصنّاع في هذه الدولة يتوزعون على ثلاثة أصناف.

الأول: الصانع الخاص.

الثاني: الصانع المشترك وهذا الأخير يستقبل الزبائن في دكانه أو متجره يضع لهم حاجاتهم، مثلا أن الزبون يأتي بالمادة الأولية ويطلب منه مثلا نسج ملحفة أو برنوس...الخ، فابن زكري[3] كان يعمل عند هؤلاء الحرفيين حيث يأتيه الزبائن بالصوف لنسج ما يحتاجون إليه.

الثالث: الصانع المتجول مثل صانع الأواني الحديدية يخرج إلى الأرياف يصنع الأواني، والآلات لسكانها وعلى الخصوص المناسج والمغازل والغرابل ويبدو أن بعض أهل الذمة كانوا يزاولون هذا النوع من الصناعة وهو مـا يؤكده ابن مرزوق بقوله: « جوابكم على الرجال من المسلمين ومن أهل الذمة

1- المازوني: المصدر السابق، ج2 ، ورقة 97.

2- الونشريسي، المعيار، ج5، ص 122.

3- ابن مريم: البستان، ص 28.

يقصدون بيع السلع من النساء في الدور أو لتصليح الحوائج مثل المغزل أوغيره وقد تخرج إليهم المرأة لمباشرة البيع وهي مكشوفة الوجه وخصوصا في زمن الحر وقد تدفع ما تشتري به من مال زوجها ببخس من الثمن أو من الزرع أو غيره هل يسوغ تقديم مثل هؤلاء للبيع من النساء .

وقد أجاب ابن مرزوق[1] بأن ذلك لا يجوز لما فيه من التحجر والظلم والغش ويؤول إلى أكل أموال الناس بالباطل. لم تتوقف النساء عن الاختلاط بالصناع المتجولين فقط، بل كن يذهبن إلى أسواق الدولة ويجالسن الصناع الذين كانوا يصنعون الأواني أو الحلي أو نسج الملابس أو تخييطها ويطول بقاؤهن في تلك الأماكن بدون فائدة، وعلى الخصوص في أوقات القائلة أو عندما يكون المكان خاليا من الناس أو بداخل ورشة نسج الملابس حين تكون المرأة مع الرجل[2].

- تنظيم الصناعة:

عرفت الدولة الزيانية كغيرها من دول المغرب الإسلامي تنظيم النشاط الحرفي حيث أن أسواقها وعلى الخصوص القيصرية أو الفنادق التابعة لها خصصت بها أجنحة لكل حرفة مثل سوق الوراقين، والفخارين والعطارين والصباغين والدباغين وعلى كل حرفة أمين يعتبر صلة بين الحرفيين والدولة وهذه الظاهرة نجدها أيضا عندما تأسست الدولة الجزائرية الحديثة بأسواق مدينة جزائر بني مزغنة[3] والظاهر أن الصناعيين في الدولة الزيانية كانوا

1- نوازل ابن مرزوق، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1342 ورقة 17.

2- العقباني: تحفة الناظر، مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم 1353 ورقة 16.

3- ابن الشويخ: الأسواق، ورقة 56.

يتميزون عن غيرهم بلباس قصير حسب ما أورده الحسن الوزان[1] الذي زار أراضي الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة.

- المراكز الصنـــاعيـــة:

من بين الذين تناولوا الصناعة ومراكز توزيعها بأراضي الدولة الزيانية الحسن الوزان الذي قال: "في شأن صناعها أنهم أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة، ولعل هذا لا يختلف بالنسبة لمناطق أخرى وبالنسبة لبقية مدن الدولة. وهناك بعض المدن سكانها متخصصون في نوع من الصناعة مثل العباد التي قال عنها الوزان: " الصناع معظمهم من الصباغين، كما أن تلمسان كانت مشهورة بصناعة المنسوجات التي وصلت شهرتها أغلب أرجاء العالم الإسلامي وعلى الخصوص الكساء المعروف بالسفساري»[2].

من بين المدن التي ازدهرت فيها الصناعة، مدينة هنين التي قال في شأنها مرمول[3]: "يضع سكانها أشياء متقنة ومن بينها الأواني الفخارية التي نجد بعض بقائها في الآثار الباقية المبعثرة في أرجاء المدينة القديمة، يضاف إليها صناعة المنسوجات، لأنه ذكر بأن هنين كانت تصنع بها أقمشة وزرابي فاخرة"، ويبدو أن الاقبال عليها كان كثيرا من قبل تجار أوربا الذين يتوافدون على المدينة قبل احتلالها من الأسبان سنة1531م.

ومن بين الأشياء التي صنعت في تلمسان نجد المعاطف الصغيرة والكبيرة الرفيعة جدا، حتى أنه يوجد منها ما يزن عشر أواق.

1- الحسن الوزان: وصف افرقية، ص 56.

2- العماري: كتاب الجغرافية مجلة المعهد الفرنسي للدراسة الشرقية، دمشق 1967، ص 126 - 333.

3- مرمول وصف افريقية ، ج3 ، ترجمة حاجي الرباط ، ج2 ، ص 300.

بالإضافة إلى صناعة المنسوجات التي عرفتها تلمسان واشتهرت بها خلال عهد الدولة الزيانية، وحتى مرحلتها الأخيرة فهناك صناعة الأواني المختلفة في الطقوم الفاخرة للخيل وكذلك ركابات جميلة ولجم ومهاميز ورؤوس اللجم[1].

من بين المدن التي اشتهرت بالصناعة مدينة شرشال[2] بعد استقرار الجالية الأندلسية بها حيث عمد هؤلاء إلى الاهتمام بالمنسوجات الحريرية بتطوير هذا النوع من الصناعة وتشجيع زراعة أشجار التوت التي تتوالد بها دودة القز التي تنمو على أوراقها الحرير الطبيعي.

وما يقال عن شرشال ينطبق أيضا على القليعة التي استقر بها الأندلسيون وشجعوا بها صناعة الحرير بغرسهم لأشجار التوت على ضفاف وادي الزعفران.

أما مليانة[3] فكانت هي الأخرى من بين المراكز الصناعية حيث عمد سكانها إلى صناعة المنسوجات الحريرية وعلى الخصوص الجوخ الذي كان يصدر منها إلى بقية المناطق.

يضاف إلى ذلك صناعة السروج لأن الأراضي المجاورة للمدينة كانت تهتم بتربية المواشي وعلى الخصوص الخيول وبالقرب منها سوق خميس مليانة التي كان صناعها يصدرون إليه صناعتهم وعلى الخصوص السروج لتوافد القبائل عليه.

1- ابن خلدون: يحي بغية الرواد، ج1، ص 86.
2- مرمول: المصدر السابق، ج2، ص 300.
3- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1.

لم تتوقف الصناعة في مليانة على السروج فقط بل امتدت إلى الأخشاب لأن نسبة كبيرة من سكانها كانوا خراطين وهو ما يؤكده مرمول بقوله: «سكانها خراطون يصنعون أوعية خشبية للشراب يقبل الناس على اقتنائها لأن ازدهار هذا النوع من الصناعة في مليانة يرجع بالدرجة الأولى إلى وجود غابات تحيط بالمدينة ومن أهم أشجارها الخروب الذي يبدو أنه استعمل في صناعة الأواني المنزلية الخشبية لجودته.

ومن بين المدن التي اشتهرت بالصناعة مزغران[1] القريبة من مستغانم التي قال عنها مرمول[2]: " أن صناعها مياسير لكن سقوط مدينة وهران في يد الاسبان قد أثر على صناعتهم لأنهم كانوا يصدرون ما ينتجون إلى سوق وهران وعندما سقطت المدينة أثر ذلك على مجموعة الحرفيين المتواجدين بمزغران". ما يقال عن مدينة مزغران ينطبق على مستغانم[3] القريبة منها حيث سكانها اشتهروا بصناعة المنسوجات وقد أثرت الحروب على حرفييها، وكذلك محاصرة الاسبان لها مرارا زيادة على ضغط قبائل بني هلال، مما دفع بالحرفيين إلى الهجرة منها ولعل البعض منهم انتقلوا إلى مدينة جزائر بني مزغنة بعد تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة.

وحتى المناطق الجبلية كان سكانها يزاولون النشاط الحرفي زيادة على صناعة الفحم الذي كان ينقل إلى مدن الدولة ومن بين هؤلاء سكان مطغرة[4] الذين كانوا يجلبون الفحم من جبلهم إلى هنين وندرومة وتلمسان، إلا أن

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 34.
2- مرمول : المصدر السابق، ج2.
3- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج32
4- مرمول: المصدر السابق ، ج2، ص 251.

الحروب التي عرفتها الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة أثرت على تحركاتهم لانعدام الأمن من جهة وكثرة الغارات الاسبانية من جهة أخرى. ومن بين الذين كانوا يصنعون الفحم سكان جبل بني ورنيد[1] جنوب تلمسان الذي قال مرمول في شأنه: "به أشجار يصنع منها الفحم. وعندما تعرض ابن مريم إلى حياة ابن زكري[2] أشار إلى نقل الفحم من جبل بني ورنيد إلى قرية العباد[3] خلال فصل الشتاء حيث تسقط الثلوج على مدينة تلمسان[4] و نواحيها، ومن بين المدن التي كان سكانها يهتمون بالصناعة قلعة بني راشد التي قدر مرمول[5] عدد الحرفيين بها فقال: "بلغ نحو أربعين دار للصناع ومن بين هؤلاء الصناع أفراد من الجالية اليهودية كانوا يصنعون الصابون والمنسوجات والسروج وحاجيات الخيول وأغلب مصنوعاتهم تصدر إلى سوق أم عسكر الذي تعرض له الوزان خلال زيارته للناحية في بداية القرن10هـ/16م. يضاف إلى بني راشد ندرومة القريبة من عاصمة الدولة والتي كانت تتوفر على المواد الأولية المتمثلة في القطن الذي يزرع بضواحي المدينة والأصواف لغناء جبالها بتربية المواشي مما جعل الوزان يعلق على سكانها بقوله: " ندرومة اليوم مزدهرة لكثرة الصناع الذي ينتجون على الخصوص أقمشة القطن[6]".

1- نفسه، ج2، ص 352.
2- ابن مريم: البستان، ص 28
3- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص 24.
4- نفسه ج2 ص 17.
5- مرمول: المصدر السابق، ج2 ص 324.
6- نفسه ج2 ص 295.

- دور المــرأة الزيــانية:

كانت المرأة الزيانية تفتخر بتعليم بناتها الحرف المتداولة بين العائلات مــع إبراز أهمية العمل حين يكون الزوج فقيرا بالمثل التالي: «ومدتي مــال الجدين و بقي مال اليدين».

ولعل من أبرز الحرف التي اشتهرت بها النساء في أراضي الدولة الزيانية صناعة الزرابي والخياطة والطرز بخيط الذهب والفضة وغزل الصوف، فــإن نشاط الدرازين يتوقف في غالبيته على إنتاجهن من الأصواف المغزولة.

فالمرأة هي المصدر الأساسي لهذه الطائفة التي يبدو أنها عرفت ازدهارا في عهد الدولة الزيانية وعلى الخصوص في عهد قوتها.

ومما يؤكد على وجود الورشات الخاصة بالنسيج في هذه الفترة موضوع البحث ما أورده ابن مريم[1] في شأن ابن زكري قال:"دخلت في طراز عند معلم لتعليم الخياطة والنسيج وبقي عنده حتى تعلم النسيج فدخل إليه ابن زغو فقال لمعلمه يقول لك ابن زغوا النسيج في هذا الغزل فلما أتى المعلم أخبره بالقصة ونسج المعلم الغزل وعندما خصته الطعمة بعث له ابن زكري ليأتي بها".

فالاستفادة من النص تتمثل فمايلي:

إن ورشة الحرفيين في مدينة تلمسان كانت تشغل مجموعة من الأطفال يتعلمون فيها الحرفة ويبدو أن ذلك لم يكن يخص صناعة المنسوجات فقط بل امتد إلى حرف أخرى. وأن الذين لهم الحق في هذا هم كبار الحرفيين الذين بلغوا درجة عالية في اكتساب المهارة لذا يلقبون بالمعلم، والمعلم هو أعلى درجة بالنسبة للحرفيين.

1- ابن مريم : البستان ، ص 28.

وأن هؤلاء الأطفال يتقاضون شبه مرتب بالنسبة لابن زكري كان يقدر بنصف دينار.

وتشير المصادر التي تمكنا من الإطلاع عليها زيادة النشاط الحرفي في هذه الفترة موضوع البحث وهو ما يوضحه المازوني[1] بقوله: " سئل العقباني عن دفع برنوسا لصانع يحيكه ودفع إليه أجرته ثم أتى رب البرنوس للصانع فقال له: "أريني برنوسي لبيعه، وقال له الصانع: " أخذ فيه معاملة فقال له ربه: " لا تأخذ فيه معاملة ولا أبيعه إلا بالذهب وصار الصانع بعده بذلك وربه يتردد إلى الصانع إلا أن قال له يوما أنه قد ضاع ولكني أغرمه لك وأعطيك ثمنه فأعطاه بعض الثمن ثم قال له سق لي ما عندك من البرانيس واخليها لك من الثمن الذي لك عندي فأعطاه برانيس ليحيكها من ذلك فمسك بهما الصانع وطلب منه الأجرة على الحياكة".

يستخلص من النص ما يلي:

أ: أن في مدينة تلمسان كانت ورشات للحرفيين يقومون بحياكة ما يحتاج إليه السكان من ملابس بعد تقديم المادة الأولية الصوف مقابل أجرة الحياكة.

ب: هناك بعض التجار يشترون الخيوط الصوفية المغزولة ثم يقدمونها لهؤلاء الحرفيين لحياكة البرانيس وغيرها من الملابس ثم بعد ذلك يقومون ببيعها في دكاكينهم ومخازنهم ويسافرون بها ضمن القوافل التجارية التي كانت تنطلق من تلمسان نحو الجهات المختلفة.

ج: في بعض الحالات يقع سوء التفاهم بين الحرفيين وصاحب الشغل حيث يدعى الحرفي بأن البرانيس قد ضاعت منه ويرفض التعويض لصاحبها.

1- المازوني : المصدر السابق ، ج2 ، ورقة 50.

- الصنــــاعــات

حسب ما سبق يتبين للباحث أن الصناعة في تلمسان كانت تتمثل فيما يلي:

*صنـــاعة النسيج :

من بين الصناعات التي لم تكن مقتصرة على المدن بل شملت البوادي أيضا لأن القبائل العربية البربرية كانت تعمد إلى الرحلة الموسمية وأن مساكنها عبارة عن خيم مصنوعة من الوبر والصوف تقوم بنسجها المرأة لذلك نجد صناعة المنسوجات المنزلية أكثر انتشارا فكل عائلة تهتم بهذا النوع من الصناعة حيث تقوم الأسرة بنسج ما تحتاج اليه من الملابس لأن المادة الأولية متوفرة في أغلب المناطق التابعة للدولة الزيانية.

ويلاحظ ان أهمية صناعة الحنابل شجعت عددا من السكان إلى المشاركة في هذه النوع من الصناعة استمرت إلى مابعد سقوط الدولة الزيانية فكانت حنابل الونشريس وزرابي قلعة بني راشد وحنابل المدية والحياك في المدية وتلمسان وكذلك محازم تلمسان من بين السلع التي كثر الاقبال عليها خلال عهد الدولة الجزائرية الحديثة.

وكانت حياك الدولة الزيانية وبرانيسها وزرابيها تباع لتجار الدول الأوروبية والإسلامية مما جعل الفقهاء يقومون هم الأخرون بها فقــد أورد أبـــو الفضل العقباني أن فقيها مات وترك زوجات وأولادا صغارا وكبار، فسافر بعضهم لبلد فاجتمع هناك ببعض الفقهاء وقالوا لهم إن الفقيه المذكور كان يبعث لنا الحنابل لبيعها ونأخذ بها سلعة والآن مات وأنت من خواصه فاحمل هذه السلعة لبلدكم حيث ورثتها.

ولم تكن صناعة المنسوجات مقتصرة على الحنابل بل نجـد الزرابـي كمـا سبق ذكره لكنها الآن لم يجد من يقوم باحيائها أوالعناية بها على الرغـم مـن وجود مساعدة من قبل الدولة ولعل ذلك راجع إلى ارتفاع اسعارها وقلـة التجار بها.

*** صنـــاعة الجلود:**

من بين الصناعات التي وجدت رواجا من قبل سكان الدولة الزيانية حـيث كانت تمارس منذ العصور القديمة وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقولـه: "الصنائـع في المغرب قليلة وغير مستحكمة الأماكن من صناعة الصوف مـن نسجه والجلد في غزره ودبغه فإنهم لما استظهروا بلغوا فيه المبالغ العموم البلوى لمالهم من حال البداوة".

تكاد صناعة الجلود تكون في أغلب بلدان المغرب الإسلامي مدنه وبواديه لسد حاجيات السكان.

أما الدباغون فمنهم الذين كانوا يعدون الجلود للدبغ من حيث إزالة الشعر من الجلد وإعداد السحيق اللازم للدباغة وكانوا يستعملون جلود الأغنام والأبقار فينشرونها في الطرقات لتجفيفها وكانت من العادات السلبية حيث وجدت معارضة من قبل فقهاء الدولة لأن دمها يدخل في النجاسة ولذلك كان المحتسب يأمر بإبعاد الجلود من الطرقات حتى لا تأثر على المارة وهناك من يقوم بتلوينها بألوان مختلفة ومن أهمها الجلد الفيلالي.

ومن المصنوعات الجلدية صناعة الأحذية وقد لعبت الجالية الاندلسية دورا هاما في تطوير هذا النوع من الصناعةفي المجتمع الزياني وتباع تلك الأحذية في الاسواق التابعة للدولة الزيانية حيث كان التجار يشترونها من الورشات الخاصة بصناعتها ثم يوزعونها على التجار الصغار بالمدن والارياف وبعضهم

كان يصدر إلى خارج الدولة الزيانية فكان الاقبال على أحذية بني زيا ن في السودان الغربي على الخصوص البليغة والخفاف والسندالة والسومال.

بالإضاقة إلى صناعة السروج التي كانت لها قيمة كبيرة حيث تصدر إلى خارج الدولة وبعض السروج كانت مطرزة بالذهب تباع بأثمان عالية.

فقد تطورت هذه الصناعة على أيدي الاندلسيين الذين استقروا في تلمسان وفتحوا لهم ورشات بها ولا تزال لحد الآن في المناطق الغربية من الدولة الجزائرية ومن هذه الصناعات اللجوم كما راجت في بلاد بني زيان صناعة الزيوت لما لها من أهمية كبيرة لكثرة السكان وقد تضاف إلى ذلك إضاءة البيوت والقصور.

يعتبر زيت الزيتون أهم أنواع الزيوت وأكثرها انتشارا في أراضي الدولة الزيانية ويعود ذلك إلى وفرة أشجاره في كثير من أرجاء البلاد وأهمها المناطق الغربية والوسطى من الوطن وقد ورد ذكره في وثائق الأوقاف الخاصة بالمدارس والمساجد والزوايا.

وأما طواحن الغلال في عصر الدولة الزيانية فكانت أما سلطانية أو خاصة تملكها بعض الأسر ويدلنا على ذلك تحذير العقباني لأصحابها بأن يتبعوا قواعد معيّنة في تعاملهم مع الناس وكان لكل طحان أو صاحب طاحونة غلمان أو صبيان يقومون بنقل الحبوب من البيوت إلى المطاحين ويعودونه دقيقا إلى أصحابه وكانت تلك المطاحين كثيرة بحيث أصبح العاملون فيها يتدخلون في شؤون الدولة كما حدث في عهد السلطان عبد الواحد كانوا يعرفون أيضا بالرحوية وهذه الكلمة لا تزال مستعملة لحد الآن بتلمسان.

وقد أوضح لنا التنسي دور هذه الطائفة من العمال في الصراعات التي عاشتها الدولة الزيانية أنهم ساعدوا السلطان أبو مالك عبد الواحد

فـــي استعادة سلطانه حيث يقول: " ادخله ليلا جماعة الرحوية وقـــامـــوا علـــى أسوار مشاعل النيران".

وكثرة هذه الطواحين تدعوا إلى التساؤل عن طبيعتها وكيفـــية صنعـــها واستغلالها.

وأول ما يتبادر إلى الذهن أنها كانت من الحجر وتعتمد على الطاقة الحركية للماء في استغلالها وهذا ما يفسر وجودها على الأنهار في تلمسان ووهران ومستغانم وغيرها من مدن الدولة الزيانية وأريافها وقد استمر وجود هذه المطاحن بالارياف الجزائرية حتى القرن العشرين وهناك مطاحن صغيرة توجد بالمنازل كانت هي الأخرى لا تزال لحد الآن.

*** صنـــــاعة الخبز:**

أما فيما يتعلق بصناعة الخبز فتطالعنا كتب الحسبة بمعلومات هامة في هذا الشأن يقول الشيرازي ينبغي أن ترفع سقوف حوانيت الخبازين وتفتح أبوابها وتجعل في سقوف الأفران فتحة واسعة يخرج منها الدخان ويجب أن ترفع المداخن بالقدر الذي يجعل دخانها مرتفع عن الدور المجاورة.

*** صنـــــاعة الفخار:**

أما فيما يتعلق بصناعة الفخار فتعتبر هي الأخرى من بين الحرف التي عرفتها مدن الدولة الزيانية فكانت توجد بتلمسان أفران خاصة بالفخار وقد أشار إليها جورج مارسي في دراسته الوجيزة عن الفخار في الجزائر وكذلك الفرد بل الذي حدد مراكز صناعة الفخار في تلمسان وقال عنها أنها لا تبعد كثيرا عن باب العقبة، حيث توجد أثار أفران لصناعة الفخار وحطـــام الأفـــران بباب القرمدين، حيـــث يتبين للباحث ان هـــذا المكـــان والمناطق

المجاورة لــه كانت أفران لصناعة الفخار والخزف والقرميد بالدولة الزيانية وهذا ما أعطى لهذا الباب اسمه.

وهناك مراكز أخرى لم يتم الكشف عليها لأن المدينة الحديثة قد شيدت وتوسعت على حساب المدينة القديمة مثل أغادير الواقعة جنوب المدينة والتــي كانت مسكونة وبها مجموعة من الحرفيين.

ولعل من أبرز الآثار الباقيه للخزف الزياني ماقام به جورج مارسي عــنــد دراسته للفخار الحمادي وجد البعض منه يعود إلى مدية تلمسان ترجع إلـــى القرن السابع الهجري الثالث عاشر الميلادي.

من أبرز العوامل التي أدت إلى ازدهار هذه الصناعــة في مــدن دول بنـــي زيان وأريافها استعمالها من قبل كل الطبقات الاجتماعية سواء كأواني الطهي أوحفظ المؤونة أوالسيول كالزيوت والسمن وغيرها من المواد السائلة.

ومن بين الذين تعرضوا لها الحسن الوزان الذي قال عنها أنها تباع بأسواق الدولة مثل قلعة بني راشد التي زارها واطلع على الفخار الذي يباع بها.

*** صنــــاعة مواد البناء:**

تطورت صناعة مواد البناء في عهد الدولة الزيانية لوفرة الأيدي العاملة الأجنبية سواء من الأندلس أو الدول الاوروبية فقد ذكر يحيى ابن خلدون أن سلاطين الدولة الزيانية قد استعانوا بالاندلسيين لبناء المشاريع العمرانية وخاصة في عهد السلطان أبو موسى الثاني وكذلك السلطان أبو تاشفين الأول الذي ولع في بناء القصور والدور وتشييد المصانع واغتراس المتنزهات مستظهرا بذلك بآلاف عديدة من فعلة أسرى الروم نجارين وزلاجين وزواقين وغير ذلك مع صدقة رحمه الله بالاختراع وبصره بالتشكيل والابتداع فخلف

أثار لم تكن قبله لمالك ولاعرف لها بمشارق الأرض ومغاربها مثل دار السرور وأبي فهر وما سواها.

ويلاحظ الباحث أن العبيد من الدول الاوروبية كانوا يشكلون في مجموعهم الطبقة العاملة في الدولة الزيانية وهذا يتجلى من خلال الرسائل المتبادلة بين ملوك اوروبا وسلاطين بني زيان فقد جاء في أحد هذه الرسائل وما أشرتم إليه بتسريح جميع ماعندنا من الأسرى فذلك ما لا يمكن أن يكون كما لا يمكن لنا أن نطلب منكم تسريح ما عندكم من أسرى المسلمين لأنكم تعلمون أن ما عمر بلادنا إلاّ الأسرى وأكثرهم صناع متقنون في أنواع جميع الصناعات ولو طلبتم مثلا تسريح خمسة أو ستة لأسعفنا مطلبكم وقضينا إربكم وأمّا تسريح الجميع فصعب لأن ذلك يخل الموضع ويعطل مايحتاج اليه من أنواع الصنائع.

تتميز العمارة الزيانية بتأثرها بالأساليب الفنية الأندلسية، ففي مسجد سيدي أبي الحسن نجد الزخرفة النباتية والكتابة الكوفية وخشبه المشيّد بخشب الأرز المنقوش والأقواس المحلاة بأوراق وزهور أنيقة الشكل.

بمسجد أولاد الإمام، توجد قطع من الجص المنقوش كانت مزخرفة على الخصوص إطار المحراب. توجد الآن بمتحف تلمسان وهي عبارة عن قبيبة مزينة بالمقرنصات تشكل مشكاة المحراب وتكتنفها أوراق مزدوجة تتدرج فيها غصون ملتوية وزهور ذات ثلاثة أو أربعة أو خمسة فصوص.

ويتميز صناع الدولة الزيانية بإنجاز مشاريعهم في الوقت المحدّد لها كما حدث في بناء مدينة تمزيزدكت وقصور أبي تاشفين الأول في تلمسان.

* **الصنـــاعة الخشبية:**

من بين الصناعات التي لها ارتباط بالبناء وتتميز الدولة الزيانية بوجود ثروة غابية سهلت عملية تطور صناعة الأخشاب المتمثلة في الأسِرّة والخزائن والصناديق والأبواب والنوفد إلاّ أنها كانت متأثرة بالصناعة الاندلسية والدليل على ذلك ما يلاحظ على إحدى أبواب المدرسة التاشفينية في متحف تلمسان التي تعود إلى القرن الثامن الهجري الرابع عاشر الميلادي.

ومن بين الآثار الدالة على هذه المرحلة ثرية مسجد تلمسان التي ترجــع إلى عهد يغمراسن بن زيان.

ومن بين التحف التي أشارت إليها كتب النوازل الفقهية الصناديق الخشبية المطلية بالذهب والفضة لدى سلاطين بني زيان والطبقة الغنية من كبار التجار والموظفين.

* **صنـــاعة الحديد :**

هي من بين الصناعات التي ورد ذكرها في مصادر المعاصرة للدولة والسبب في وجود هذه الصناعة وفرة موادها الأولية في محيط الدولة واحتياجات الدولة لها، فقد استخدمت في صناعات مختلفة مثل صناعة الأسلحـــة التي أقيمت في معظم مدن الدولة لتفي بحاجة البلاد من سيوف وغيرهـــا مـــن أدوات القتال ومن الحديد صنعت أبواب المدينة وتحصيناتها، كما استعمل الحديد في الأدوات البسيطة كالسكاكين ومقابض الأبواب ومطارقها والفؤوس والمحاريث والشبابيك وغيرها.

ويذكر الحس الوزان من بين المدن التي كان سكانها يشتغلون بصناعة الحديد مدينة تفسيرة ومصنوعاتها تباع في أسواق تلمسان.

الفصل الثالث

- **النظـــام الجبائـــي:**

لن نخوض في تفصيل هذا الموضوع الشائك لأننا سنعود إليه في الفصول القادمة ويعتبر من بين الأسباب التي خلقت نوعا من الطلاق والانفصام بين الدولة الزيانية، ورعاياها والتي كانت بكل تأكيد من أهم أسباب ضعفها وعدم استقرارها، فكانت تلك الضرائب تصحب تعسفات في جبيها وأدت إلى تقسيم المجتمع إلى قسمين الموالين لها، معفيين منها، بينما المعارضين لها مطالبين بدفعها، ولهذا اعتبر جبي الضرائب من أبرز الأسباب التي أدت إلى زعزعة الدولة الزيانية وحالت دون تجاوز أزمتها السياسية.

فيغمراسن بن زيان سلك مسلك التضريب بين قبائل بني توجين، كما فرض عليهم الإتاوة، ففي عهد ابنه عثمان بن يغمراسن كلف أحد شيوخ بني توجين وهو محمد بن سلامة على جمع الإتاواة من قومه ووطنه لملوك بني زيان.

لكن يبدو أن هؤلاء اغتنموا فرصة الصراع بين بني مرين وبني زيان فتوقفوا عن دفع هذه الضريبة وعلى الخصوص خلال الحصار الكبير لتلمسان وهو ما يؤكده ابن خلدون بقوله: " وبعد الحصار المريني وضع بنوعبد الوادي من جديد الإتاواة على بني توجين.

وبما أن الدولة الزيانية كانت في حاجة إلى مداخيل مالية لتلبية حاجيات البلاد وتمويل حروبها ضد جيرانها والحصول على مساندة أكبر عدد من القبائل الحليفة وأداء رواتب الجند المرتزقة العاملين ببلاطها.

ولقد خصص ابن مرزوق[1] في مسنده فصلا خاصا بهذا الموضوع أحصى فيه بعض تلك الضرائب قبل أن يشير إلى إلغائها من قبل السلطان المريني أبي الحسن.

1- ابن مرزوق، المسند ص186.

فقد ألغى بعد دخوله تلمسان مغارم كثيرة منها المطالبات في الأبواب من التفتيش الذي لا يحترم فيه.

- الضرائب وأنواعها:

من بين الذين تعرضوا إلى الضرائب في عهد الدولة الزيانية عبد الرحمن بن خلدون الذي عاصر عهد قوتها وبداية انهيارها وكذلك استبداد الهلاليين بأراضي الدولة بعد أن تعاملت معهم سلطة بني زيان منذ عهد مؤسسها. مما جعلهم يحصلون على أراضي شاسعة من قبل الدولة ويفرضون ضرائب على رعاياها، ومن هؤلاء الثعالبة الذين كانوا يأخذون الصدقات والأتاوات على الفلاحين بسهل متيجة.

وبنو مالك الذين فرضوا سيطرتهم على المنطقة الواقعة بالقرب من غليزان ففرضوا عليها الضرائب وهذا ما يشير إليه ابن خلدون بقوله: "كان بنو مالك بن زغبة لهذا العهد يدفعون الاتاوات على بلد سيرات ومدينة البطحاء وهوارة.

يضاف إلى هؤلاء العطاف الذين يتواجدون بنواحي مليانة ولا تزال تلك القبيلة في نفس المضارب لحد الآن، وقد فرضوا على القبائل في تلك الناحية ضرائب، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "استولى العطاف على نواحي مليانة والديالم والروينة فأخذوا المغارم على جبل دراك وما إليه من وادي الشلف".

أما بنوا عامر[1] فقد استولوا على الناحية الممتدة من تسالة إلى جبل هيدور وهران وقد فرضوا على سكان تلك الناحية أن يقدموا لهم الضرائب".

---

1 - ابن خلدون: العبر، ج6، ص101.

وما يقال عن بني عامر من زغبة ينطبق أيضا على المعقل الذين استولوا على الجهة الغربية من أراضي الدولة.

فذوي عبيد الله مثلا سيطروا على الناحية الممتدة ما بين تلمسان ووجدة إلى مصب وادي ملوية إلى البحر ومنبعث وادي صا من القبلة وتنتهي رحلتهم إلى قصور توات، مما جعلهم يفرضون ضرائب على سكان تلك الناحية وحتى على سكان مدنها كوجدة وندرومة وبعض قراها وحتى على القوافل التجارية التي تجتاز تلك الناحية وهو ما يشير إليه ابن خلدون عن ذوي منصور فيقول: « أما ذوي منصور فوطئوا التلول وتملكوا وجدة وندرومة وبني يزناسن ومديونة وبني سنوس اقطاعا من السلطان لما كان لهم عليها قبل ذلك من الاتاوات والوضائع فصار معظم جبايتها لهم وضربوا على بلاد هنين بالساحل ضريبة الإجارة منها إلى تلمسان فلا يسير ما بينهما مسافر أيام حلولهم بساحتها إلا بإجارتهم وعلى ضريبة يؤديها لهم»[1].

وهكذا نجد بأن أغلب أراضي الدولة الزيانية في نهاية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي قد امتلكت من طرف بني هلال الذين استغلوا الصراع بين الأسرة الزيانية الحاكمة لصالحهم.

استمر تحكم هؤلاء في سكان الدولة الزيانية وهو ما يؤكده المازوني الذي عاصر أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي فأورد مجموعة من النوازل تتعلق بهذا الموضوع نتوقف عن البعض منها. ومن تلك النوازل نذكر قوله: « سئل عبد الرحمن أبو عيسي عمن له أرض للحراثة ويعجـز

1- نفسه، ج6 ، ص 103.

عن دفع المظالم التي ينشبها العمال على الحراثين عمد لمن له جاه وسطوة فقال لـــه: " اشترك معي في حرث أرضي على أن ألتزم بجميع المغارم"[1].

فالتنازل عن أرضه مقابل الاعفاء من الضريبة جعل الفلاح يعمل خلال فترة الحرث و جني المحصول وحين يحين وقت جمع هذا المنتوج يتخلى عن نصف الانتاج لهؤلاء الناس وأن رفض تسديد ما عليه يكون جزاؤه مصادرة أمواله وتعذيبه وهو ما يؤكده المازوني بقوله: «سئل بركات الباروني عــن رجل كلف عليه عامل وطنهم غرم مال ظلما وعدوانا وخوفه بالضرب والسجن».

وهو ما يشير إليه أيضا ابن صعد في نص يتعلق بكثرة الضرائب المفروضة من قبل ولاة الدولة الزيانية على الرعية مما دفع بالبعض منهم إلى اللجوء لرجال الطرقية ومن هؤلاء أحمد ابن الحسن الغماري الذي احتمى بـــه أحد الفلاحين من جبل بني ورنيد فالتجأ لزاويته، فبعث إليه قـــائـــد جـــبل بـــني ورنيد طالبا منه اخراجه من حمايته.

نستخلص من النص أن الرعية في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية كانوا يفرون من أحكام موظفي الدولة إلى الزوايا طالبين الشفاعة من شيوخها لمكانة هؤلاء من أمراءها .

- فرض الضرائب من قبل الدولة على الرعية:

عمد سلاطين بني زيان إلى فرض نسبة من أموال الضريبة على القبائل فيقوم أحد أعيانها بتوزيع النسبة على السكان حسب المكانة الإجتماعية لهـــؤلاء وبعد الجمع يدفعها للسلطان لكن الفقهاء كانوا يعارضون هذا النـــوع

1- نفسه ، ج6، ص 120.

من الضرائب فيشترطون على أمراء الدولة شروطا في جبايتها لخصها الونشريسي في هذه النازلة بقوله: "أن مصالح المسلمين الذين لا تسكن ثغورهم ولا يكف عنهم عدوهم دمرهم الله ولا تأمن طرقهم إلاّ بها إن كانت لا تقوم إلاّ بمغارم الأسواق وكان أصل وضعها كون بيت المال عاجزا او قاهرا عنها كانت تلك المضارب يجب حفضها وأن يولى لقبضها وتصريفها في موضعها الثقات الأمناء فإن أخذوها من محلها ووضعوها في المصالح التي جعلت لها كان سعيهم مشكورا ومن وضعها في غير موضعها كان غاشا ظالما".

يتجلى من هذه النازلة أنه يجوز المحافظة على مصالح المسلمين على الخصوص حماية ثغورهم من الهجومات التي كانت تقوم بها السفن المسيحية بعد النصف الأول من القرن التاسع الهجري والخامس عشر الميلادي وكذلك قطّاع الطرق الذين يتعرضون لقوافل التجار والمسافرين إلى بوجود دولة قوية تملك القوة العسكرية التي يمكن تسخيرها بمواجهة إغارة الأساطيل المسيحية وقطّاع الطرق، وهذا يحتاج إلى أموال تقدمها الدولة في تجنيدها للجيش وأن ذلك يتطلب مداخيل تتمثل في الضرائب التي تجمعها الدولة من رعاياها وهذا جائز حسب رأي الونشريسي، وأما الضرائب التي تفرض على الأسواق في شكل مكس على السلع التي تأتي بها القوافل التجارية أو التي تحملها إلى بقية المناطق التابعة للدولة المجاورة لها ويتم ذلك في أغلب الحالات بالأبواب الرئيسية لمدينة تلمسان أو بقية مدن هذه الدولة وأنه لايمكن اللجوء إلى فرض الضرائب، غير الشرعية على السكان إلاّ بعد أن تكون الدولة في أشد الحاجة إليها نتيجة للأخطار الخارجية وانعدام الأموال في بيت مال المسلمين لمواجهة ذلك الخطر وهو ما جعل الونشريسي يعلق على ذلك بقوله: أن أصل وضعها كون بيت المال عاجزا أو قاهرا.

وأن الذين يتولون قبض تلك المغارم يكونون من التقات والأمناء لكن ما حدث في هذا العصر أن الذين كانو يقومون بقبض تلك الضرائب إما من أفراد الجالية اليهودية في مدن الدولة أو شيوخ القبائل في قراهم وكل واحد من هؤلاء لا يتصف بالثقة وبذلك كانو يدفعون مما يجمعونه إلى الشيء القليل.

وأن الأموال التي كانت تذهب لخزينة الدولة لا تصرف في المصارف التي تجمعت من أجلها أي تقوية الجيش الزياني وتحسين ثغور الدولة لمواجهة الأخطار الخارجية لكن أغلب تلك الأموال استعملت في الترفيه على الأمراء والسلاطين وشراء شيوخ القبائل العربية.

ومن بين تلك الضرائب التي تعرضت لها كتب النوازل ضريبة الخراج التي يقول في شأنها الونشريسي: «توظيف الخراج في عصرنا هذا إخراجه ظلم محض فإنجاد الجند لو استوفت جيرايتهم ووزعت على الكافة تكفيهم برهة من الزمن وقدرا صالحا من الوقت وقد تسامح بنعمهم وترفههم في العيش وتبديرهم للأموال على وجوه العمارات فكيف يقدّر إحتياجهم لتوظيف خراج لإمدادهم ورفاهيتهم وخاصة أغنياء الذهر فقراء بالإضافة إليهم بقية الناس لو قدرنا إماما مطاعا مفتقرا إلى تكثير الجند لسد الثغور وحماية الملك فالإمام يمكن أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافيا لهم في الحال».

ما يستنتج من هذا النص أن ضريبة الخراج في عصر الونشريسي لم تكن مرتبطة بمبادئ الشريعة الإسلامية، حيث كان فلاحوا الدولة يعانون من هذه الضريبة وقد أورد المازوني مجموعة من النوازل تشير إلى الخراج وتأثيره على النشاط الفلاحي حيث أدى ببعض الفلاحين للتخلي عن أراضيهم وفلاحة

أراضي غيرهم ضمن ما يعرف بالخماسة أي زرع وبذر وحصد المحاصيل مقابل خمس الإنتاج وإن كان الدافع في فرض هذه الضريبة تقوية جيش الدولة للدفاع عن أراضيها لكن هؤلاء الجند تأثروا بالوضعية التي كانت تتخبط فيها الدولة مما جعل تلك الأموال تصرف في أمور تعتبر تافهة في رأي الونشريسي كبناء القصور وغيرها من وسائل الترفيه وهذا لا يجوز أن توظف هذه الأموال في رفاهية مجموعة من الناس على حساب بقية الطبقات الإجتماعية وحتى الطبقة الغنية أفقرتها هذه الضرائب وهو ما تؤكده النازلة.

إذا كان الخراج إحدى الضرائب التي كان لها تأثير سلبي على الفلاحين في عهد الدولة الزيانية خلال هذه الفترة موضوع البحث فهنالك ضرائب أخرى لاتقل عنها سلبية ويأتي في مقدمة هذه الضرائب القبالة.

إذا حاول المرء معرفة أيضا الضرائب التي فرضت على فلاحي الدولة الزيانية غير التي ذكرت من قبل وكيف أثرت على الزراعة نجد أن المصادر تستعمل مصطلحات عدة تتميز بالترادف كالقبالات والمغارم واللوازم والوظائف السلطانية.

أ- القبالة: قد يقصد بها كراء الأرض

والمغارم قد ترد بمعنى آخر غير معنى الضرائب ويبدو أن المسلمين كانوا يسمونها خراجا مضروبا على الأرض وهناك نوازل أوردها المازوني عن الوظائف بمعنى الخراج المضروب على الأرض. والمصادر التي تمكنا من الرجوع إليها لم توضح لنا مقدار الخراج من هذا النوع، ولا ريب أن توزيع الوظائف على الرؤوس أثر على الفلاحين بالدرجة الأولى.

- **الجزيـــة**[1].

من بين الضرائب التي فرضت على الجالية اليهودية مقابل تأمينهم من قبل الدولة الإسلامية وحقن دمائهم.

* **أنـــــــواعها**: الجزية على وجهين

أ: فاليهود الذين يوجدون بالأراضي التي استولى عليها المسلمون صلحا لايجبرون أصحابها على دفع الجزية، وتحدد من قبل الإمام بالنسبة للذين صالحوا على أنفسهم وأموالهم. وأن هذه الجزية الخاصة بالأراضي التي دخلها الإسلام صلحا.

تنقسم إلى ثلاثة أوجه:

أ - أن تكون محملة عليهم.

ب - مفروضة على الرقاب دون الأرض.

ج - مفروضة على رقابهم وأرضهم أو على أرضهم دون رقابهم.

ففيما يتعلق بالدولة الزيانية فإن هذه الأراضي كانت تقطـــع وتبـــاع، وهـــذه الأراضي الصلحية[2] جزيتها على قسمين محملة ومفضلة وتكـــون جزيـــة نفسية وخراج على الأرض.

1- عن أبي حمو موسى الثاني:انظر ابن خلدون، العبر،ج7، ص256، يحي بن خلدون، بغية الرواد،ج2، ص29.

2- عن الأراضي الصلحية: نفس المؤلف و الكتاب، ص 190..

- أراضي العنوة[1]

لأن الأراضي العنوية لا تباع ولا تشترى وإن مات صاحبها لا يصح لوليه أن يرثها إلا ما اكتسب بعد الفتح الإسلامي لها وإن أسلم لم تكن تلك الأرض لصاحبها بل الإمام يتصرف بها. أما الصلحية فلا تباع ولا تورث، وإن مات لا تقسم ولا يملكها إن أسلم وتكون بها جزية وأما المفصلة فإن مات فهي لورثته الذين على دينه، وإن لم يكن له ورثة فذلك للمسلمين.

وأما ما يتعلق بالأراضي التي جلى عليها أهلها بغير قتال فهي للمسلمين[2]، يقطعها الإمام إقطاع تمليك وإن ظهر له وجه المصلحة وهذا النوع يوجد بأراضي الدولة الزيانية لكثرة تحركات القبائل والصراع فيما بينها.

أما الأراضي التي أسلم أهلها بغير قتال فهي لهم يبيعون ويتصرفون مما شاءوا، وليس لأئمة المسلمين عليهم خطر ولا تصرف[3] .

هذا فيما يتعلق بالأراضي بوجه عام، أما بالنسبة للمغرب الإسلامي، فقد وقع الاختلاف فيها بين العلماء، فقيل أنها عنوية وقيل أنها صلحية، وقيل أن فحوصها علوية وجبالها صلحية. والسبب في ذلك أن جبال المغرب الإسلامي كانت تتميز بتضاريسها الصعبة، مما يصعب على القوة الوصول إليها، ولا تزال تلك الجبال تحتوي على آثار لحصون ترجع إلى عصور مختلفة، كما توجد قرى معلقة. أما فيما يخص الأراضي السهلية فإن الفاتحين قد استولوا

1- العقباني : نفس المصدر ، ص 139..

2- العقباني : نفس المصدر ، ص 187.

3- نفسه، ص189.

عليها في القرون الأولى للهجرة وخضعت لأمراء الدول التي قامت بالمغرب الإسلامي مرورا بالرستميين والأدارسة والأغالبة إلى عهد الدولة الزيانية، وإنها تقطع أو تكرى، وإن مدخولها يرجع إلى بيت مال المسلمين وأحيانا يطلب من القبائل المستقرة بها أو الضاربة في ربوعها دفع الخراج للدولة دون أن يكون لتلك القبائل حق تملكها. وفي عهد الدولة الزيانية لم يقع أي تغيير بالنسبة لهذه الأراضي فكان سلاطينها يقطعونها لشيوخ القبائل العربية والمتغلبين على هؤلاء السلاطين إقطاع انتفاع، والهدف من وراء ذلك الحفاظ على رقاب الناس.

وأن هذه الأراضي التي استولت عليها القبائل العربية لم يستفد منهــا سكانــها الذين يوجدون عليها بل كان همهم التغلب وإظهار الفساد بحماية بعضهم لبعض بطريق التعصب. كذلك يوضح صاحب النص بأن توزيع أراضي الدولة الزيانية على شيوخ القبائل العربية لم يكن لصالح الدولة الزيانيــة بل كان سببا في انهيارها الاقتصادي، وقد علق على ذلك العقباني بقولــه: «وما تجرى قوم قطعوا أراضيهم وبددوا خراجها عن جمعه لبيت المال إلا ضعفوا وبادت مقاتلتهم وحمايتهم وصاروا هدفا للسهام من أهل الفساد وطاغية إلى البغي والفساد».

فهذا النص يؤكد ما وصلت إليه أوضاع الدولة الزيانية كمايلي:

أولا: إن الخراج الذي كان يأتي لخزينة الدولة من هذه الأراضي أصبح يذهب إلى جيوب شيوخ القبائل العربية وحتى الزناتية كبني تغرين إحدى بطون بني توجين.

ثانيا: إن توزيع تلك الأراضي أثّر أيضا على تجنيد الجند من قبل الدولة لأنها كانت تدفع تلك الأموال لشيوخ القبائل لكي تضمن لها الولاء.

لم يفرض الخراج على الفلاحين فقط بل حتى على التجار، ففيما يتعلق بسكان وجدة التابعين للدولة الزيانية كانوا يقدمون الضرائب لها من جهة وللقبائل العربية في مفازة أنجاد من جهة أخرى، مما أثّر على أحوالهم الاجتماعية وعن ذلك علّق الحسن الوزان[1] بقوله: "فقراء لأنهم يؤدون الخراج إلى ملك تلمسان وإلى الأعراب المجاورة لهم بمفازة أنجاد[2]"، وحتى الذين لم تفرض عليهم الضرائب فقد كانوا يقدمون هدايا لسلاطين الدولة حتى تسمح لهم ببيع سلعهم في أسواق الدولة وعلى الخصوص مدينة تلمسان وهوما يؤكده الوزان فيما يتعلق بأهل ندرومة[3] فقال: "يقدمون بعض الهدايا إلى الملك من أجل التجارة".

ومن بين الذين يقدمون ضرائب للدولة فلاحو تسالة[4] التي تعتبر من أغنى أراضي الدولة الزيانية من حيث إنتاج الحبوب وهو ما دفع الوزان إلى القول بأنهم أثرياء جدا يؤدون بعض الضرائب إلى ملك تلمسان، ولعل ذلك كان خلال زيارة الوزان للناحية. ومن بين الذين كانوا يدفعون الضرائب للدولة الزيانية سكان معسكر والنواحي المجاورة لها[5].

1- الحسن الوزان: المصدر السابق ج2 ص12، مرمول: المصدر السابق ج2 ص294.

2- نفسه، ج2 ص11، مرمول، نفسه المصدر السابق ج2 ص292.

3- نفسه، ج2 ص13، مرمول، نفسه المصدر السابق ج2 ص295

4- نفسه، ج2 ص25، مرمول، نفسه المصدر السابق ج2 ص325

5- مرمول، نفسه المصدر السابق ج2 ص324.

- المكس:

من الضرائب المفروضة على التجارة الداخلية وهي جائزة في الشريعة الإسلامية وقد اطلق عليها الفقهاء كلمة مغرم لأنها لم يرد فيها نص صريح وفي هذا الصدد ورد في كتاب المسند لابن مرزوق قوله: " منها ما كانت تعم من العطاءات في جواب المسلم نصراني ويهودي وخارجي فيفتشونه من رأسه إلى قدميه ظاهرا أو باطنا عسى أن يدخل به من السلع التي يوظف عليها مغرم من المغارم وحتى النساء يوكل لهن يهوديات يفتشهن ويدخلن أيديهن إلى لحومهن.

من أهم الضرائب بالنسبة للدولة الزيانية وعلى الخصوص في مرحلتها الأخيرة، وكان قبض المكس يتم بأبواب الدولة، وبما أن تلمسان تقع على مفترق الطرق التجارية الهامة لأنها تتوسط الاتجاهات المعروفة الأساسية أي أنها تراقب الممر التلي الوحيد الرابط بين المغرب الأقصى والدولة الحفصية شرقا، كما هي بوابة المغرب ذهابا و إيابا[1].

وتراقب في نفس الوقت طريق الذهب والعاج العابر للصحراء والقادم من بلاد السودان كما تستقبل القوافل التجارية القادمة من موانئ الدولة. على مستوى أبواب المدينة تؤدى الضريبة النقدية المعروفة بالمكس المفروضة على المنتوجات الريفية الموجهة إلى الفنادق[2] والقيصرة سواء كانت فلاحية أو صناعية، فقد أشار *الحسن الوزان إلى أبواب تلمسان*

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج 2، ص 22.

2- يعلق الوزان على الفنادق فيقول: وفيها فنادق على النمط الافريقي. لايزال بقايا البعض منه لحد الآن. ص20..

فقال عنها: " أبواب تلمسان كان يقيم بها مكاسون". لأن الباب يعتبر نقطة عبور من ونحو المدينة للقوافل التجارية حسب الاتجاهات الرئيسية للحركة التجارية وعلى هذا المنوال كان باب كشوطة[1] يستقبل القوافل الواردة والمتجهة إلى المنطقة الغربية والجنوبية، إلى محور تازا، وجدة، وسجلماسة، فقيق.

أما باب القرمدين فيستقبل قوافل هنين والمنتوجات الفلاحية القادمة من المنطقة الشمالية الغربية، وكذا بالنسبة لباب الجياد التي تعبرها قوافل المنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية. وأما باب العقبة فكان يستقبل قوافل وهران والمنطقة الشمالية الشرقية.

والجدير بالذكر أن هذه الأبواب كانت في الوقت نفسه نقطة استقبال ونقطة انطلاق لحركة تجارية زادت في المجال الاقتصادي لتلمسان حيث كانت بمثابـــة المتجر والمخزن. لم يكن هذا مقتصرا على تلمسان فقط بل شمل بقية مدن الدولة ومنها تنس[2] التي قال عنها المازوني: " سألت شيخنا أبو الفضل العقباني وقلت أطلب منك الجواب الشافي في مسألة وذلك أني لما توليت قضـــاء تنس وجدت مرتب قاضيها يؤخذ من الباب، أمرني بذلك فإن أنا أخذته أخـــذت مـــا لايليق، وإن أنا تركته نعلم أن قائد البلد يأخذه فصرت أجود بـــه على الضعاف، ومن ترى أنه يلزمه الخادم في الباب يؤخذ من الداخـــل والخارج نقول للوالي لاتفرض له هل يوافقني". إن النص يوضح لنا بـــأن المازوني تولى قضاء تنس إلا أن صاحب النص لم يجد لنا تاريخ توليه

1- عن أبواب تلمسان انظر: يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج 1، ص 91.

2- عن تنس انظر الحسن الوزان ، ج 2 ، ص 35 ، مرمول ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 354. المازوني، المصدر السابق، ج 2، ورقة.

المتوكل.

وإن تنس تعتبر من الموانئ الأساسية للدولة الزيانية واستمر ذلك حتى فترة موضوع البحث، فقد وجد بها خير الدين حين دخوله إليها كمية هامة من السلع كانت في طريقها إلى الدول الأوروبية ولذا فهي تحتوي على مراكز لقبض الضريبة الجمركية وأخذ المكس عن السلع المحلية الواردة إليها من النواحي المجاورة لها ولذا قال المازوني يأخذ عن الداخل والخارج.

- الضريبـــة الجمركيـــة:

أن المسؤول على هذه الضريبة يعرف بالعشار ولقد ورد عن الرسول(ص) قوله: "لايدخل الجنة عشار" كما تتمثل في المال الذي يجبي عن تجارة المسيحيين الذين يتوافدون على دار الإسلام فكانوا يدفعون عشر تكلفة البضائع التي يحملونها وفرضت لأول مرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كرد فعل على المعاملة التي كان يتلقاها التجار المسلمون في أراضي النصارى.

وخلال عهد الدولة الزيانية كانت تتمثل في العشر ما ورد في النصوص الأوروبية بدور المستندات تدفع من طرف تجار أوروبا وتوجد مقرات المكلفين بجمعها في المدن الساحلية والمدن الداخلية مثل تلمسان والسلطان الزياني هو الذي يراقب جمع الأموال بواسطة صاحب الأشغال وحسب مـــا أورده ديفورك أن الدولة الزيانية توجد بها مجموعة من المكاتب تتعلق

بجباية الضريبة الجمركية وعلى الخصوص الموانئ الرئيسية كوهران وهنين وكذلك القيصرية بتلمسان.

وأغلب هذه المكاتب موجّه بالدرجة الأولى إلى محاربة عملية التهريب بالإضافة إلى جمع أكبر قسط من الأموال المفروضة على السلع الأجنبية.

أما مصلحة الجمارك فكانت تعتبر الواسطة بين السلطان الزياني والدول الأوروبية الممثلة من قبل قناصلها وهم بمثابة السفراء في وقتنا الحالي ويتم أخذها بعد معاهدات بين الدول وهذه الدول تنص على تحديد الضريبة الجمركية.

فمصلحة الجمارك تشغل عددا من الموظفين منهم المدير والمحاسب وهو المسؤول عن العمال الذين يمسكون دفاتر الحسابات ثم مجموعة من المترجمين والحمالين الذين ينقلون السلع بعد جمركتها إلى الفنادق لكي تباع إلى تجار الدولة وينقلون السلع الزيانية التي تحمل في سفن تجار أوروبا إلى دولهم، وقيمة الضريبة الجمركية لا تختلف عن ما كان معروف في عهد الدولة الموحدية فجمهورية ايطاليا كان تجارها يدفعون عشرة في المائة (10%) ونفس الشيء بالنسبة لقشتالة وارغون وفرنسا.

كان تجار الدولة الزيانية يدفعون عشر القيمة على البضائع التي يحملونها وخلال عصرها الذهبي كانت تتمثل في العشر بوجه عام، لكن بعض الدول التي لها علاقة متميزة تدفع نصف الضريبة، وقد حدث هذا خلال تلك الفترة مع إمارة أزغون وقشتاله[1]. أما في فترة (موضوع هذا البحث) فتنعدم الوثائق التي تخص نسبة الضريبة لأنه لم يبق للدولة غير ميناء واحد هو هنين ثم

1- المازوني: المصدر السابق: ج2 ص46.

تعرض هو الآخر للاحتلال الاسباني سنة 1531م.

وتوجد مقرات المصالح الجمركية في كل من تلمسان والموانئ، التابعة للدولة الزيانية كاهنين ووهران، تنس وجزائر بني مزغنة زيادة على القيصرية بداخل تلمسان.

وحسب ما كتبه ديفورك du Faurque فإن الدولة الزيانية توجد بها مجموعة من المكاتب تتلعق بجباية الضريبة وخاصة بالموانئ، الرئيسية مثل وهران وهنين وكثرة هذه المكاتب موجهة بالدرجة الأولى لتحديد عملية تهريب البضائع بالإضافة إلى جمع أكبر قسط من الضرائب المفروضة على السلع الأجنبية .

ومن أبرز النصوص العربية الخاصة بفترة موضوع البحث نص الحسن الوزان الذي قال أنه لا يوجد سوى موظف واحد يدير الجمارك ويحيي الرسوم التجارية ويؤدي ثلاثين دينار في اليوم للخزينة ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى ضعف الدولة الزيانية وقلة مداخيلها خلال زيارة الحسن الوزان لأراضيها لكن في العصر الذهبي كانت مكاتب الديوانة منظمة تنظيما دقيقا تستعمل عدد كبير من الموظفين منهم المدير ورئيس المحاسبة وهو مسؤول عن العمال الذين يمسكون دفاتر للحسابات[1].

أما السلع فكانت تنساق إلى مكتب الجمارك مصحوبة بحارس ويتقاضى الحراس والكتابة السلع حسب مقادير البضائع ويذهب هؤلاء في بعض الأحيان خارج المدينة لملاقاة البغالة ليلا يعمد هؤلاء إلى تهريب بعض الأشياء هربا

1- المازوني: ج2 ، ورقة20 بـ

من دفع الرسوم وأن أخفوا شيئا دفعوا ضريبة الجمـــارك مـــضاعفة، وتبلـــغ الرسوم العادية دينارين عن كل ما قيمته مائة دينار [1].

أما المكلف بقبضها فيسلمها السلطان ويعـــرّف بـــصاحب الأشـــغال ففـــي سنة1466هـــ- 1870م قدم عبد الله بن النجار صاحب أشغال تلمسان ووالـــده عبد الرحمن لأجل تعشير مراكب قدمت لوهران2.

وفي بعض الحالات نجد هناك موظفين تابعين للدولة الزيانية بتلك الموانئ، فخلال رحلة عبد الباسط خليل إلى وهران قدم أحد التجار مع ثلاثة قرون من الذهب، وعندما وصل بالقرب من المدينة وجد رجلا فاتصل به وطلب منه أن يقوم بإدخال هذه البضاعة إلى المدينة مقابل تقديم نسبة معينة له ليجعلها معفاة من دفع الضريبة، لكن الصدف شاءت أن يكون هذا الـــشخص هـــو المكلـــف بقبض الضريبة الجمركية وكان المطلوب من هذا التاجر أن يدفع على الأقـــل عشرين دينارا[3].

يتجلى من هذا أن مدينة وهران التي زارها الرحالة المصري عبد الباســـط خليل كانت شبه جمهورية مستقلـــة عـــن الدولة الزيانية، حيث لا يوجـــد بها إلاّ ممثلا للسلطان مكلف بقبض الضريبة ا جمركية.

وأن هذه الفترة عرفت تلاعب من قبل التجار الذين كانوا يعمدون إلـــى الغش بالنسبة لتقدير السلع والضريبة، وفي بعض الحالات يتم الاتفاق بيـــن

---

1 -Du Faurca (cch.E(.note sur le seltanat de tlemcen à l'epoaue Abdelwahed le commerce de sultanat dans pulletins d'information historiaue (F.T.A) n 1965, P,P, 11-14 et no 2,1965 P,P

2 –Du faureg (ch E) . Prix et niveaux de vie dans les pays Catalans et maghrebiens à la fin du XIII et au début de XIV siècle dqns le moyen age t. L XXI /1965 / PP 475-520.

3 –ABd al Basit, Ibn Khalil, El Raand al Bassime, P46.

هؤلاء وسكان المدينة عند خروجهم منها فيدخلون لهم السلع، لأن السكان لا يتم مراقبتهم من قبل رجال الجمارك وقد انتبه هؤلاء لهذه التلاعبات فكانوا يخرجون لملاقاة القوافل عندما تصلهم معلومات عن اقترابها من المدينة وعلى الخصوص القوافل القادمة من السودان الغربي، كما عرفت مراكز الضريبة الجمركية تلاعبا آخر من قبل أفراد من الجالية اليهودية الذين أصبحوا يتحكمون في تجارة الدولة، ومنها الضريبة الجمركية بموانئ الدولة الزيانية[1].

وعندما سيطر الإسبان على وهران والمرسى الكبير أثر على الدولة الزيانية فحال دون حصول الدولة على الضرائب التي كانت تتجه إليها، وهو ما دفع بأحد السلاطين الذي شرح للسلطان الاسباني بقوله: أتعهد أن أدفع أربعة آلاف دينار سنويا شريطة أن تكون مداخيل باب تلمسان لي كما كانت لوالدي تكون المكوس على البضائع التي تدخل إلى وهران وتخرج منها إلى تلمسان، وإذا زادت مداخيل باب تلمسان عن أربعة آلاف دينار فالزائد يكون لي حاصة.

وفي رسالة مؤرخة في جانفي1530/937 أرسلها أبو محمد عبد الله لشارلكان ملك اسبانيا، يستعطفه ويطلب منه بإلحاح أن يعيد إليه جمرك تلمسان، وقد كان يتقاضاه جنوي ويهودي لحساب الامبراطور الاسباني وإن صاحب تلمسان لم يبق لديه ما يدفع به لخاصته وما يجعله يقوم بواجباته نحو اسبانيا ويتعهد أن لا يقع نصارى في الأسر داخل المملكة وأن لا تهاجم وهران مادام هو حي وعلى العرش بها وقد بلغ ما يقدم من قبل هؤلاء حسب ما أورده الوزان خمسة وعشرين ألف مثقال من الذهب.

1- ABd al Basit, Ibn Khalil, El Raand al Bassime, P46.

لم تكن المدن والقرى هي التي يطلب منها تقديم الضرائب للدولة بل سكان الجبال أيضا، فقد كان أهل جبل بني ورنيد يقدمون للسلطان الزياني ما قيمتـــه اثنا عشر ألف دينار.

- تحويل الضرائب الجمركية إلى المحتلين الاسبان:

أصبحت الضريبة الجمركية خلال فترة موضوع البحث بيد الاسبان وحتى المدن التي لم تحتل أصبح تجارها يقدمون هذه الضريبة للإسبان وللأتراك وفي هذا الصدد ذكرت الرسالة من قبل سكان مستغانم ومزغران أن كل السكان من أهالي البلاد واليهود يربطون علاقاتهم بالسلطان الاسباني ويقدمون ما كـــانوا يدفعونه للسلطان الزياني من الضرائب سواء التي تأتي من تجار البر أوالبحر في أول شهر جوان من كل سنة وخاصة التي تأتي من الضريبة الجمركية فهذا النص يوضح لنا مايلي:

أن الدولة الزيانية في عصرها الذهبي، كانت تأخذ الضرائب الجمركية من أغلب موانئها وليس من وهران والمرسى الكبير فقط وأن قيمة تلك الضرائب تزداد وتنقص حسب أهمية الميناء والتجار الذين يتوافدون عليه وحتـــى علـــى القوافل التجارية التي تأتي بسلع في ذلك الميناء.

وأن كل ما كان يدفع للدولة الزيانية أصبح يقدم للاسبان وهذا يؤثر في خزينة الدولة ويزيد من أزماتها الاقتصادية التي أصبحت تتخبط فيها وأن تلك الضريبة كانت تقدم في فصل الصيف لأن أغلب المبادلات التجارية تتمّ عندما يكون البحر الأبيض المتوسط غير مضطرب. وتذكر الوثائق الاسبانية أن الجنويين واليهــود في وهران كانوا يقدمون لحاكم وهران ضريبة تقدر بـــ3000 دينـــار وأموالهـــا تستعمل في تمويل الجيش خلال الحرب وهذه النسبة تعتبر شيء قليـــل بالنـــسبة إلـــى ما كان يأخذ سلاطين الدولة الزيانية وعلى الخصوص فـــي عـــهـــد

السلطان أبي تشفين الأول الذي شجع المبادلات التجارية مع أوروبا خاصة إيمارات أراقون وقشتالة وجمهورية إيطاليا وهناك رسالة مؤرخة في1530/01/15م من السلطان الزياني تقترح على الأسبان أن يقدموا له ما كان يحصل عليه من الديوانة في وهران وقد أجابه الأسبان على طلبه أنه لا يمكن ذلك لأن الأهالي الذين هم بجوار وهران لا يقدمون إلا 500 دينار على تجارتهم عندما يأتون إلى المدينة للقيام بالنشاط التجاري وأن السفن الأجنبية توقفت عن قصد وهران وفي رسالة أخرى للسلطان الزياني مؤرخة في1529/06/07م طلب فيها من الأسبان فرض ضريبة إضافية تمنح له من وهران على التجار الوافيدين من الميناء.

يتجلى مما سبق أن الدولة الزيانية قد تأثرت كثيرا لفقدان وهران والمرسى الكبير اللذان يعتبران من أهم موانئ الدولة الزيانية والتي كانت ميزانيتها تأتي منها وبواسطة تلك الأموال جندت الدولة القبائل لمساعدتها وأن الدولة الأسبانية رفضت تنازل على الضريبة الجمركية لبني زيان بدعوة أن الأموال تستغل في تموين الجيش الزياني وهذا سيكون خطر على بقاء الأسبان في كل من وهران والمرسى الكبير.

- الزكـــــــاة:

أولا: زكاة الأموال كالذهب والفضة والنقود:

وأما الموظفون الذين كانت تعهد لهم الدولة بمهمة جمع الزكاة فإنهم في الغالب يكونون من أقرب المقربين لأمراء الدولة كأبنائهم مثل ما حدث في عهد السلطان أبي حمو الثاني الذي كلف ابنه ابن تاشفين الثاني لقبض الصدقات.

ثانيـــا: زكـــاة المواشـــي:

وهي الزكاة التي كانت تجمع بواسطة الحكام حيث يشرف عليها سلاطين الدولة إشرافا دقيقا في العصر الذهبي لأنها مورد مالي هام يلقى مراقبة دقيقـــة من أمراء الدولة في جمعه، ومما يؤكد ذلك أن السلطان أبا حمو موسى الثاني أرغم بعض مشايخ القبائل المتمردة على دفع الزكاة.

فرض الضرائب على الدولة الزيانية من قبل القوى المتصارعة.

*** الضرائب المدفوعة من قبل الزيانيين**

كانت الدولة الزيانية تقدم ضرائب للقوتين المتصارعتين:

- أولا: الدولة الجزائرية

كانت الدولة الجزائرية الحديثة التي أسسها خيرالدين في مدينة الجزائر، بعـــد ربطها بالخلافة العثمانية، منذ سنة1518/924 تفرض سيطرتها على بـــني زيان. وقد أورد صاحب غزوات عروج وخيرالدين مجموعة مـــن النصوص تتعلق بهذا الموضوع، منها:

أن مولاي عبد الله بعد الهزيمة التي تلقاها رجع إلى المهادنة وإعطاء الطاعة، حاضرا، فبعث إلى خيرالدين أعيان حضرته وأكابر وقته يستمدون منه الصلح، والعفو، ويعدونه بحمل الستين ألف دينار، ويضاعفون الخراج الذي كانوا يؤدونه اليه لتكون جملته عشرين ألف دينار مع جوائز وهدايا[1].

1- لمؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، ورقة 16.

فالمؤكد أن أمراء الدولة الزيانية عندما يولّون وجـوههم لإحـدى القـوى المتصارعة يمضون معاهدة معها وأهم ما تنص عليـه هـو تقـديم ضـريبة سنوية[1] تقدرها بنود المعاهدة، لهذا كان خير الدين قد أبرم مع مولاي عبد الله معاهدة نصت على أن الدولة الزيانية تقدم مساعدة مالية للدولـة الجزائريـة حددت بعشرة آلاف دينار سنويا، وهي أقل بكثير مما كانت هذه الدولة تقدمـه للاسبان[2]، ولم تنفذ ما اتفقت عليه مع خير الدين، لكن بعد الهزيمة التي ألحقها بها خير الدين وبجيشها خضعت له، ووافقت على تقديم هذه الأموال.

ويبدو أن الوضعية الاقتصادية للدولة الزيانية، هي التي حالت دون تـسديد ما عليها، لأن أغلب أراضيها وموانئها بيد قوة أجنبيـة كـوهران والمرسـى الكبير[3] التي كانت تزود الدولة بأموال تأتيها من الضريبة الجمركية، ولم تبـق لها إلّاهنين[4]، وارشقول.

وأن الخراج الذي كان يفرض على الفلاحين، أصبح جزءا منه يقدم للقوى المتصارعة، ولعل هذا هو الذي أدى بكتب النوازل إلى معارضة هذا النوع من الضرائب، التي اثقلت كاهل الفلاحين، لكن ظروف الدولة الزيانية لا تسمح لها بإعفاء الفلاحين منه، لأن جزءا من مدخوله أصبح يقدم إما للدولة الجزائرية،

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص23، مرمول، المصدر السابق ج2 ص298.

2- لمؤلف مجهول: نفس المصدر، ورقة 31

3- Fego Henri Lion/Histoire d'Oran avant pendant et apres La domination Espagnole156.

4- عن الضريبة الجمركية التي كانت تؤخذ من المرسى الكبير، انظر الحسن الوزان، المصدر السابق ص23، وهناك وثيقة توجد بأرشيف سيماكس، تعود إلى بداية احتلال وهران.

أو الاسبان[1]، وهناك نص آخر يقول فيه: "أن مولاي عبدالله عندما انهزم قدم لخيرالدين ثلاثين الف دينار، فرفضها، مما جعله يترامى بين أقدامه"[2].

- **ثانيا: الاسبـــان**

أما الأسبان فقد فرضوا ضرائب جائرة منذ إحتلالهم لوهران حتى سقوط الدولة الزيانية(1509-1554) مما أثر على خزينة الدولة وكان من بين عوامل انهيارها وأول ضريبة فرضت على أمرائها كانت نتيجة للمعاهدة التي أبرمها أبو عبد الله الثابتي مع الإسبان وقد نصت على أن تقدم تلك الضريبة من خزينة الدولة على دوفوعات فخلال سنة 1512م قدم السلطان الزياني للأسبان ثلاثة دفعات فالأولى كانت في 10 أفريل من نفس السنة قدرت قيمتها 150.000 (M) أو ما يساوي 440 دينار أندلوسي والدفعة الثانية كانت في 1512/06/25م جاء بها القائد العبادي إلى ميناء أرشقول حيث اجتمع فيه مع ممثل الملك فيرديناند الكاتوليكي وقد سدد له 2944 دينار 3 قيراط أندلوسي وفي نفس السنة قدم الأمير الزياني لملك إسبانيا 935,820(م) كما قدم هذا السلطان في سنة1513م لحاكم وهران الذي كلف من طرف ملك إسبانيا مبلغا قدر28,000 (م) وفي السنة الموالية وبالتحديد في*1514/06/04*م قدم مـــا قيمته268,310 (م) وقد سدد أيضا في1516/09/14م ما يقدر بـــ: 159.705 أما السلطان أبو حمو موسى الثالث فقد أبرم هو الأخر معاهدة مع الأسبان بعد توليه السلطة وقد تعرض لها الوزان فقال عنها الضريبة التي كان يدفعها السلطان الزياني للاسبان تقدر بـــ12ألف مثقال من الذهب و12 فرسا و6 سقور إناث وقد ظلّ ملتزما بذلك طوال حياته وقد ذكرته الوثائق الإسبانية

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص:16.

2- تذكر الوثائق الاسبانية أن ارشقول، أصبحت تصدر منها الدولة الزيانية.

أن هذا الأمير دفع في1517/02/11م مبلغا يقدر بـ8512306 دينار وهناك ضريبة كانت تحصل عليها إسبانيا من جمركة السلع التي كانت تدخل وهران من باب تلمسان لكن هذه الضريبة يتم اقتسامها مع بني زيان ففي الفترة الممتدة ما بين1520/09/01م و1521/07/18م وصل مجموع هذه الضريبة ما قيمته3038 دينار أخذ منها بنو زيان1509 بواسطة سلمان تيرونو اليهودي ومن بين الذين دفعوا الضريبة للاسبان السلطان مولاي أبوعبد الله الذي تولى الحكم في الفترة الممتدة مابين1521م – 1534م.

ففي شهر جوان من سنة 1522م دفع هذا السلطان لصالح الإسبان ضريبة قدرت بـ 2000 دينار وفي 1524/06/04م سدد لهؤلاء 5000 دينار تماشيا مع المعاهدة التي أبرمت بينه وبين الأسبان والتي نصت على أن يدفع ضريبة سنوية تقدر بـ5000 دينار وفي الفترة الممتدة مابين1526/05/01م و1528/04/30م دخلت الخزينة الإسبانية من الأموال الزيانية ما قيمته 8000 دينار أندلوسي وبين01 ماي1528 و30 أفريل1529م قدم بنو زيان للأسبان4000 دينار أندلوسي كما دفعوا أيضا مابين01 ماي1529م و31 جويلية من نفس السنة1000 دينار وفي أواخر هذه السنة دفعو أيضا 5000 دينار وأن أغلب الدنانير التي تصب في خزينة الدولة الإسبانية من النوع الجيد لأن المعاهدات المبرمة بينهم وبين بني زيان تنص على الدينار لكونه من فئة17 قيراط وهذا موضح لنا بأن العملة الزيانية المتداولة في تلك الفترة بعضها مغشوش مما جعل الأسبان يركزون على هذه النقطة.

استمرت الدولة الزيانية في دفع الضريبة للإسبان ففي خلال سنة1535م اقترح شارل الخامس على بني زيان أن لا يكون التسديد بالدينار فقط بل تدخل في ذلك السلع وخاصة الحبوب والمواشي وتطبيقا لهده السياسة تحصل شارل

الخامس على6000 دينار و3000 فنقوس قمح قيمتها 1500 دينار و6000 فنقوس شعير بنفس القيمة.

كما نصت معاهدة 1535م التي أمضاها مولاي محمد على أن يدفع للأسبان 4000 دينار من الذهب الخالص والتسديد يكون كل أربعة أشهر زيادة على حصانين وإثني عشر من صقور الصيد.

إذا كان بنو زيان يسددون ما عليهم من ضريبة لصالح الأسبان حسب الإتفاقيات المبرمة بين الطرفين لكان هؤلاء لم يتقيدو بتلك الإتفاقيات فقد نصت إحداهما على أن الضريبة الجمركية التي تجمع من التجار الذين يأتون إلى وهران من باب تلمسان توزع بين الدولتين لم يتم التقيد بينهم وهو ما دفع مولاي محمد أن يكلف الحاخام حيام بنو درهوم في1537/10/9م أن يطلب من حاكم وهران أن يسدد لبني زيان4000 دينار حقا لهم من الضريبة الجمركية يضاف إلى ما سبق أن بعض شيوخ القبائل كانوا يلحون على ملـــوك إسبانيا رفع الضريبة على أمراء بني زيان إثر الزيارة لعبد الرحمــن بـــن رضوان لأسبانيا1536م إقترح على شارل الخامس زيادة في الضريبة تقدر بـــ1000 دينار في حالة ولاية حفيده السلطة في تلمسان وهو مولاي عـــبد الله محمد وهذا ما جعله يدفع15000 دينار بمجرد توليه الحكم.

كذلك نجد أنه في سنة1538م طلب شارل الخامس من بني زياني1000 دينار زيادة على الضريبة التي كان من المفروض أن يدفعها مولاي محمد والمقدرة بـــ4000 دينار، وهذه الألف تخص إصلاح الطريق الرابط بين وهران وتلمسان.

- **العـمـلـة:**

أثرت الأوضاع السيايسة للدولة الزيانية في العملة السائدة بها فقد كانت عملتها في عصرها الذهبي من أجود أنواع العملة المستعملة في الدول المعاصرة خلال عصر قوتها لكن ضعف هذه الدولة قد أثر في عملتها وهـو مـا يؤكده المازوني في هذه النازلة بقوله: «سئل الإمام محمد بن مرزوق عـن الرجل إبتاع نيلجا بألف دينار دارهم عشرية على الحلول لأن دراهم البلد كثير فيها الفساد عن نقص ولا تترك على وزنها المصطلح عليه فـي دار السكة وبنفس ما تخرج من دار السكة تنقص حتى لا تكاد نجـد فـي البلـد إلا درهما منقرضا، وربما اتفق صاحب الفضة ودار السكة من اليهود علـى ضربها ناقصة لقلة الضبط وعلة الفساد وصار هذا المقصوص هو الجاري بيـن الناس ولايتوافقون فيه اصلا وعليه تقع بياعاتهم فنجد هذا المقصوص لحساب اثنين وأربعين درهما للأوقية مثلا والمصطلح عليه في دار السكة مـن حساب اثنين وأربعين لكنه لا يكاد يوجد فإذا وجد جرى على هـذا المقصوص مرة وزادو في نقصان وزنه وبلغ حتى صار من حساب 56 ويخف ذلك وهم مع ذلك لايتوقفون في المعاملة به».

يتجلى من النص أن عملة الدولة لم تكن بالكيفية التي كانت عليها في عصرها الذهبي وهو ما يؤكده الوزان الذي زار الدولة الزيانية في بداية القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي وقد بين لنا بأن العملة المتداولة خلال زيارته لها أنها لم تكن من النوع الجيد وقد نبها أيضا بذلك مرمـول عنـد تعرضه للدولة وبذلك تكون نصوص الرحالة تؤكد ما ورد عند المازوني بشأن فساد عملة بني زيان في عصر الانحطاط إلى ما اكتشف من نقود زيانية لحد الآن لا يتعدّى العصر الذهبي ولذا لا يمكننا القيام بعملية المقارنة بين نقود

للدولة الزيانية في الفترتين وأن الفساد الذي أصاب العملة يرجع بالدرجة الأولى إلى احتكار الجالية اليهودية للأنشطة الاقتصادية خلال عصر الانحطاط زيادة على الاشراف في جباية الضرائب من موانئ وأخذ المكوس على القوافل القادمة لمدنها أو المبارحة لها كما أشرف أيضا على صك النقود وخاصة عاصمة الدولة لذا فقد أنقص من وزنها وفي بعض الحالات يحدث الإتفاق بينهم وبين أمراء الدولة الزيانية لقلت المراقبة على العملة.

يضاف إلى ما سبق توجد عملة غير مغشوشة مثل التي عرفها عصر قوة الدولة.

- **الضوائــق الإقتصادية:**

تعرضت كتب التراجم إلى سوء الأحوال الاقتصادية في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة تخرج من دار الزيانية فقد ورد على لسان أبوراس في كتابه الحاوي لبند من التوحيد والتصرف والأولياء والفتوى عندما تعرض إلــى تلامبدة الولي الشهير أحمد بن يوسف الملياني ما نصه ومنهم أبو العباس أحمد بن على أبو عمران أن كان المساكين لا يفارقون منزله فيطعمهم في داره وخارجها سيما في زمن المسغبة عام ثمانية وتسعة وخمسين وتسعمائة ،فجاهد في ذلك جهلاا كبيرا في إطعام ذوي الفاقة جزاه الله كثيرا، وقد خصه الله بالطعام في كل زمان ويأكل هو خش الطعام ويطعم الفقراء الثريد».

يستخلص من النص أن العلماء وعلى الخصوص أصحاب الزوايا بعد انهيار الدولة الزيانية أصبحوا يقومون مقام سلاطين الدولة في الضوائق الاقتصادية بتقديم الطعام لهؤلاء الفقراء وفي العصر الذهبي للدولة الزيانية كان سلاطينها هم الذين يقمون بهذا العمل وقد أورد ابن خلدون يحي نصا يتعلق بالمجاعة التى عرفتها الدولة الزيانية في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني

فكان هذا الأخير يقوم بنفسه بتقديم الطعام للمحتاجين، وخصص لهم مساحات يستقبلهم فيها واستمر هذا حتى جني المحصول الجديد لأن الضوائق الإقتصادية، نتيجة للجفاف الذي كانت تتعرض له أراضي الدولة الزيانية مما كان يؤدي إلى إرتفاع أسعار المواد الغذائية.

الــفــصــل الــرابــع

- التجـــارة الخـــارجية

*** مـــع أوروبـــا:**

إدا كانت التجارة الداخلية قد تأثرت بالأوضاع السياسية التي عرفتها الدولـــة الزيانية والتي تميزت في المرحلة الأخيرة بكثرة الحروب، فـــإن التجارة الخارجية خضعت هي الأخرى لتلك الاضطرابات في بعض الفتـرات التاريخية ولنفس المعطيات فهي مثل الزراعة عانت من الأوضاع السياسيـــة المتدهورة فتقلص حجمها في الداخل والخارج لانعدام الأمن ولكثرة أعـــداء الدولة وخـــدام الواجهة البحرية ولمعالجة ذلك يجدر بنا في البدايـــة التعـــرض إلى بعض العوامـــل التي كان لها تأثير إيجابي في التجـــارة الخارجية للدولة الزيانية منـــها على الخصوص.

- أ: النشاط الأوروبي في البحر المتوسط :

يعتبر الحوض الغربي للبحر المنوسط من أبرز المراكـــز الاسترتيجـــية الحساسة في العلاقة التي تربط بين البلدان المطلة عليه شمالا وجنـــوبا لذلـــك عرف صراعا عسكريا حادّا منذ العصور القديمة، وامتـــدّ ذاـــك إلى فتـــرة موضوع البحث لكن هذا الصراع لم يؤثر كثـــيرا فـــي المبـــادلات التجاريـــة بيـــن بلدان هذا الحوض مما أدى إلى اشتداد التنافس في الميـــدان للتجـــاري بين تجار هذه الدول.

- ب: المنـــافسة بين الـــدول المسيحية:

عرف حوض البحر المتوسط[1] خلال عصر الدولة الزيانية تنافسا كبيرا بين الدول الأوروبية المطلة على الحوض الغربي للبحر المتوسط وعلى الخصوص الجمهوريات الإيطالية[2] جنوة[3] ليفورن، نبولي، بيزة البندقية venise وإمارة أرغون Aragon وقشتالة Castel ثم البرتغال وجنوب فرنسا وعلى الخصوص مدينة مرسيليا Marseille.

فاشتدّ التنافس بين هذه الدول على السلع الافريقية الآتية من السودان الغربي إلى موانئ دول المغرب الإسلامي بواسطة القوافل التجارية والسلع المحلية كالأصواف والجلود والحبوب التي زاد عليها الطلب في الأسواق الأوروبية وقد أدى هذا التنافس بهذه الدول إلى إقامة علاقات تجارية نشيطة مع الدولة الزيانية وعلى الخصوص في عصرها الذهبي[4].

1- Mas-latrie, (Conde de): Op cit p 320, Traités de paix et de commerce et document divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de L'Afrique. Les relations de commerce de L'Afrique du Nord au Maghreb avec les nations Chrétienes au moyen-age, Paris 1886, 556 p.

2- عن التنافس بين الدول الأروبية على تجارة الدولة الزيانية، انظر رسالتنا الاوضاع الإجتاعية و الإقتصادية للدولة الزيانية ص308 - 319 .

3- فيما يتعلق بتجارة جنوة، انظر:
Lespes d'histoire,(René)Oran, étude de géographie et urbaine. Collection centenaire, Paris Alcan, 1939,p502-503

4- أبرمت بين هذه الدول معاهدات حددت بنودها حرية المبادلات التجارية وثمن الضريبة الجمركية التي تؤخذ من الدول الأوربية في أسواقها الداخلية كتلمسان وموانئها التجارية كوهران وهنين وتنس وجزائر وبني مزغنة وغيرها من موانئ الدولة.

وبعض هذه المعاهدات التجارية منحت امتيازات لبعض الدول على حساب دول أخرى مثل ماحدث بين الدولة الزيانية وإمارة أرغون[1] Argon في العصر الذهبي وبينها وبين اسبانيا في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية لأن أغلب المعاهدات التي أبرمت بين سلاطين هذه المرحلة والدولة الإسبانية نصت على حرية المبادلات التجارية، كما عرفت هذه المرحلة اقتسام مناطق النفوذ بين البرتغال واسبانيا نتيجة لمعاداة توردي زلاس بمبادرة من الكنيسة الكاثوليكية سنة 1494/900 بالمغربين الأوسط والأدنى وعلى الرغم من ذلك فإن هذا لم يضع حدا لتوافد تجار البرتغال وجمهوريات إيطاليا على موانئ الدولة الزيانية فقد أشار الحسن الوزان[2]، في بداية القرن10هـ/16م إلى توافد تجار جمهوريات إيطاليا على ميناء هنين بعد سقوط وهران والمرسى الكبير بيد الإسبان وارتباط بقية موانئ الدولة بالدولة الجزائرية الحديثة أوالتاج الإسباني عن طريق الحماية كتنس[3].

- الموقع الجغرافي

يضاف إلى كثرة التنافس بين الدول الأوربية على موانئها الذي كان له دور ايجابي في ازدهار المبادلات التجارية فإن موقعها الجغرافي لا يقل أهمية عن العامل الأول والسبب في ذلك يرجع إلى مايلي:

1- DUFOURCQ (Ch .E)/La vie Quotidienne dans la Méditerranéens moyen Age. Paris 1975 p12

2- الحسن الوازن: وصف إفريقية، 30.

3- المؤلف مجهول غزوات عروج خير الدين ورقة تعرض إلى بعض السلع التي كانت في طريقها إلى اسبانيا استولى عليها خير الدين وأعاد بها إلى الجزائر خلال حملته على تنس سنة 1517.

أ: إن أراضي الدولة الزيانية تحتل موقعا استرتجيا هاما جعل منها نقطة انطلاق نحو الشمال أي البلدان الأوربية حيث لا تبعد موانؤها عن الموانئ الإسبانية والإيطالية والفرنسية كثيرا مما أثر على المبادلات التجارية بينها وبين هذه الدول المطلة على البحر المتوسط.

في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية اشتد التنافس بين الأساطيل الاسلامية والمسيحية في حوض البحر المتوسط فأثر سلبيا على الموانئ الزيانية وتجارتها، وعلى الخصوص بعد احتلال موانئها الرئيسية التي كانت تتعامل بواسطتها مع الدول الأوربية واقتصر نشاطها التجاري على ارشقول وهنين [1].

أن الدولة الزيانية أعطت أهمية كبيرة للنشاط الزراعي لأن أغلب أراضيها كانت تتميز بعاملين أساسين:

أ: خصوبة التربة فلا تزال لحد الآن سهول متيجة وحوض شلف والسرسو وسيرات ومنداس وغريس وتسالة والأراضي المجاورة لتلمسان تتميز بوفرة الإنتاج وعلى الخصوص الحبوب وتربية المواشي خلال فترة موضوع البحث وما قبلها وهذا ما توصلنا إليه من خلال الوثائق الموجودة في دور الوثائق الأوربية والتي لا يزال البعض منها لم يدرس.

1– إن الدولة الزيانية في عصرها الذهبي كانت تطل على ساحل يمتد من مدينة دلس في الشرق إلى وادي ملوية غربا وهو ماجعلها تمتلك مجموعة من الموانئ لها أهمية في التجارة الدولية ومن بينها ميناء دلس وجزائر بني مزغنة وهران وأرشقول وهنين وكل هذه الموانئ كانت محل توقف وإقلاع للسفن القادمة من الدول الأوربية لغرض التجارة معها وحتى السفن المتجهة نحو المشرق الإسلامي كانت تتوقف بهذه الموانئ لتأخذ منها السلع نحو بلدان المشرق أو لبيع السلع التي تأتي من البلدان المشرقية كما كان تجار هذه الموانئ يتنقلون بسلعهم إلى المشرق على ظهر السفن الأوربية عن انتقال هؤلاء التجارة انظر: Dufourcq (ch.E)/la Vie quotidienne dans les ports mediterraniens P 16. وعن إنتقال هؤلاء التجار انظر:
ABD EL BASIT Ibn Khalil/ ar Raudh al bâsim, Op cit p 39.

ب: إن الدولة الزيانية تتميز أيضا بسهولة الاتصال بالواحات الصحراوية في الجنوب الغربي من جهة والجنوب الشرقي من جهة أخرى مما سمح لتجارها إقامة علاقات تجارية نشيطة مع هذه الواحات ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أقامت بها جالية تلمسانية مثل ما هو الحال بالنسبة إلى توات حيث نجد بعض سكان قصورها انتقلوا إليها من أراضي الدولة الزيانية وحافظوا على العلاقات التي تربطهم بهده المناطق كما استقرت بتوات بعض العائلات منها عائلة العضوني.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل امتدّ النفوذ الزياني إلى السودان الغربي حيث نجد بعض العائلات التلمسانية لعبت دورا في العلاقات التجارية مع هـذه البلدان وأحسن مثال على ذلك عائلة المقري، ثم دور عبد الكريم المغيلي.

خامسا: إن الدولة الزيانية تتحكم في طريق القوافل التجارية منها الطريق العابر للمغرب الإسلامي الذي ينطلق من الأندلس نحو المشرق الإسلامي مما جعل أغلب الرحالة الذين اجتازوا هذا الطريق يصفون الأحوال الإقتصادية للدولة مثل العبدري وابن بطوطة وعبد الباسط بن خليل ثم الحسن الوزان في بداية القرن10هـ/16م.

كما تتحكم تلمسان في المسالك المتجهة من موانئها نحو السودان الغربي مثل الطريق الذي يربط وهران وجزائر بني مزغنة وهنين بالواحات الصحراوية، كفقيق وسجلماسة، وتوات وورجلان.

سادسا: عرف عن سلاطين الدولة الزيانية في العصر الذهبي وفي المرحلة الأخيرة موضوع البحث تسامحهم مع التجار المسيحيين الذين كانوا مقيمين بمدن الدولة وعلى الخصوص مدينة تلمسان.

فالبعض منهم كانوا يزاولون النشاط الحرفي داخل تلمسان ونستدل على ذلك من إحدى رسائل السلطان أبو حمو موسى الثاني وقد بيّن فيها أن بعض هؤلاء المسيحيين كانوا يعملون في ورشات تابعة للدولة، يتقاضون أجورا منها على السلع التي ينتجونها، كما بيّنت كتب النوازل وجود هؤلاء في أسواق الدولة وخروج البعض منهم إلى أريافها لاصلاح حاجيات سكانها كالمناسيج والغرابل وغيرها.

لكن هذه الجالية قد تعرضت لرد الفعل من طرف أهل تلمسان عندما وصلت للمدينة أخبار عن عملية القتل الجماعي لسكان مدينة وهران من طرف الجيش الاسباني فثار هؤلاء ضد الجالية المسيحية بالمدينة[1]، لكن تواجدهم استمر بعد ذلك لأن المعاهدة التي أبرمت بين السلطان الاسباني فرديناند الكاثوليكي Ferdinand le Catholique وعبد الله بن قلمون نصت على الوجود المسيحي بتلمسان[2].

تأتي جمهورية ايطاليا على رأس قائمة الدول التي تعاملت مع الدولة الزيانية في عصرها الذهبي فكان التجار الايطاليون يعرفون أراضي الدولة الزيانية معرفة جيدة، حيث كانوا يتوافدون على ميناء وهران وبقية موانئ الدولة الزيانية الأخرى الممتدة من ميناء أزفون شرقا إلى ميناء هنين غربا للقيام بدور الوسيط في التجارة بين افريقيا وأوروبا.

وإن الوجود الايطالي بموانئ الدولة الزيانية يعود إلى القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي،وبذلك يكون قد سبقوا تجار كاطالونا.

1- الحسن الوزان: المصدر السابق ص23، مرمول: المصدر السابق ج2 ص298-315 عبد الله بن قلمون.

2- Primaudaie(Elie de la) Histoire de l'Occupation Espagnole en Afrique du Nord en R.A 1875P 209

وقد ازداد النشاط التجاري خلال المراحل التي مرت بها الدولة الزيانية حيث احتلت موانئ الدولة المرتبة الأولى في العلاقات التجارية بين دول المغرب الإسلامي واوروبا خلال العصور الوسطى والنصف الأول من القرن السادس عاشر وبخاصة مع البنادقة والفلوراسيين الذين كانوا يأتون بكرة للحصول على السلع التجارية التي كثر الاقبال عليها في الدول الاوروبية كما كانت سفن هؤلاء تتوقف في موانئ بني زيان خلال التحركات بين شرق العالم الإسلامي وغربها.

وكان تجار الدولة وحجاجها يتنقلون إلى المشرق على ظهر هذه السفن وهو ما يؤكده عبد الباسط خليل خلال القرن التاسع الهجري الخامس عاشر الميلادي فيقول عن وهران أنها كانت محل إقلاع أساطيل اوروبا التي تنقل تجار الدولة الزيانية نحو بلاد المشرق الإسلامي والأندلس وحتى البلدان المسيحية ويبدو أن ميناء هنين لقي نفس الاهتمام، حيث كانت تتوافد عليه سفن جمهوريات ايطاليا كجنوة والبندقية حتى الاحتلال الاسباني له سنة.

مثلا أنه خلال سنة 1369/768 انتقل تجار من تلمسان ووهران إلى تونس على سفينة جنوية توقفت بوهران كما أن المبادلات التجارية بين الدولة الناصرية والدولة الزيانية تتم بواسطة سفن الجمهوريات الايطالية فخلال الفترة الممتدة بين7161و727 /1317؛ 1327 توقفت مجموعة من السفن فـــي هنين ووهران متوجهة إلى كل من المرية ومالقا بالاندلس.

لم يتوقف نشاط تجار ايطاليا على المدن الساحلية بل توغلوا في الداخل ووصلوا إلى ورجلان وإقليم توات ومن هؤلاء التاجر مافات الذي رافق القوافل التجارية إلى توات للتعرف على أسواقها لأنها كانت صلة الوصل بين بلان المغرب الإسلامي وافريقية.

وأما التجارة مع فرنسا فقد ازدهرت خلال القرن السادس الهجري الثاني عاشر الميلادي وهي نفس المدة التي احتكرت فيها جمهوريات ايطاليا المبادلات التجاربة بين العالم الإسلامي والمسيحي.

وخلال السلطان الزياني يغمراسن لعب التاجر الفرنسي موندال دورا كبـيرا في نقل السلع نحو الموانىء الزيانية إلى ميناء مرسيلية الفرنسي ومنذ سنة 636/ 1239 أصبحت عائلة هذا التاجر من بين العائلات التي تحتكر المبادلات التجارية مع الدولة الزيانية.

وخلال سيطرة عروج على العاصمة وردت رسالة من أحد تجار اسبانيا في تلمسان بيّن فيها للملك الإسباني بأن عروج لم يسمح لسكان المدينة الخــروج منها حتى لا تتسرب المعلومات وفي الفترات المتوالية تجد أحــد تجار إسبانيا استقر في مدينة تلمسان لمزاولة النشاط التجاري وهو الدكتــور اوربيخا lebrja سنة 943هــ/1536م كلف بشراء السلع ومن بينها الحبوب لفائدة حاكم وهران الكوديتي.

- العوامــل السلبيــة:

هذا فيما يتعلق بالعوامل التي ساعدت على ازدهار المبادلات التجــاريــة أما المؤثرة عليها سلبيا فنذكر من بينها:

- إحتكــار الإسبــان:

عمد الإسبان بعد سيطرتهم على إمارة بني الأحمر بسقوط عاصمة الدولة غرناطة 898هــ/1492م إلى استعمال كل السبل للسيطرة على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ومن أبرزها وهران والمرسى الكبير حتى يمكن لهم التحكم في شريان التجارة ولكي لا تكون هناك مواجهة مع البرتغالين عمدوا

إلى إبرام معاهدة معهم بتشجيع من الكنيسة لتوزيع أراضى المغرب الاسلامي ومنها الدولة الزيانية لأن شبكة المواصلات البحرية، كانت عماد تلمسان الكلي، أهم شريانها الحيوية شمالا «وهران، والمرسى الكبير، وهنين» إذ كانت تلك الموانئ بمثابة همزة وصل، نحو العديد من دول أوربا المطلة على الحوض الغربي للبحر المتوسط[1].

وقد ازداد النشاط خلال المراحل التي مرت بها الدولة الزيانية حيث أصبحت موانئها تحتل مرتبة هامة بالنسبة للنشاط التجاري العالمي، وخاصة مع البنادقة، والفلورنسيين، والجنويين، الذين يأتون بكثرة للحصول على السلع التجارية التي يزداد الاقبال عليها في الأسواق الأوربية، فكان هذا النشاط يمتد من مالقة غربا، إلى تركيا شرقا، مرورا بالاسكندرية ويتوقف هؤلاء التجار بموانئ الدولة، مثل هنين، ووهران.

لكن سقوط المرسى الكبير، ووهران، في قبضة الإسبان، ثم بعد ذلك هنين، باعتبارها أقرب منفذ إلى تلمسان أثرعلى تجارتها، فتوقف تجار أوربا من غير الإسبان الذين كانوا يعمدون إلى نقل المنتوجات الفلاحية كالأصواف، والجلود المدبوغة، والخيول ومنتوجات مستوردة من السودان الغربي والمشرق الإسلامي، بواسطة القوافل[2].

1- عن علاقة هذه الموانئ بالسوادن الغربي ودول أوربا انظر دراسة DEVISSE (A) change en Afrique occidentale , et relation avec la /Route commerciale et mediterranée dans revue d'histoire économique, sociales Revue 1972 pp 42 73 et 357-397.

2- Dufourcq (ch .E) Commerce du Maghreb medieval avec l'europe musulmane donnée connues p 66, Civilisation du Chrétienne en marine Maghreb-Tunis 1979 PP 161-192 .

كما كانت تلمسان تأخذ من تلك الموانئ السلع الأوربية المتمثلة في الأقمشة، والخردوات، والأسلحة، وفي بعض الحالات القمح، عندما يحدث الجفاف في أراضي الدولة الزيانية[1].

وحتى الحملة التي قادها الكوديتي ضد تلمسان سنة 1543/950 كان الهدف من ورائها، احتلال هذه المدينة لأهميتها الاقتصادية فكانت هي المحور من حيث المواصلات، التجارية منها البرية، والبحرية، على هيئة قوافل تجارية تخترق الأفاق فتعرج على العاصمة وتحط رحالها بها، ومنها تنطلق نحو المناطق الشمالية، والجنوبية، والشرقية، والغربية.

وتلمسان تشكل ملتقى الطرق ومحطة للترحال بين أوربا وأُثيوبيا، وكان السلطان الزياني يستفيد فائدة كبيرة من دخول البضائع وخروجها وخاصة اعتبارا من سقوط وهران في أيدي الإسبان واعتقد السلطان عندئذ أنه قد أحسن ضياعهما، ففرض الضرائب وخصوصا على تجار تلمسان، الذين ظلُّوا معفيين منها جريا على عهد السلف من أمراء الدولة الزيانية، وأن فرض الضرائب أثر كثيرا على تجارة تلمسان، مما جعل هؤلاء يقومون بثورة ضد السلطان أبي حمو موسى الثالث، ولعل ذلك كان من بين العوامل التي دفعتهما إلى الاستنجاد بعروج و خير الدين.

وهكذا نجد أن سيطرة الإسبان على موانئ الدولة الزيانية كان لها تأثير سلبي على الوضعية الاقتصادية لهذه الدولة وعلى الخصوص علاقتها بالسودان الغربي.

1- عن هذه الحملة انظر الفصل الثالث من هذه الرسالة المتعلق بالأحوال السياسية ص 88.

فقد كان تجار الدولة الزيانية وورجلان، يقومون بالمبادلات التجارية مع كل من تونس وبجاية وعندما سيطر الإسبان على الموانئ أثر ذلك على هـذا النشاط التجاري ويتمثل هذا التأثر في انتشار الملابس الأوروبية[1]، بدل الزيانية في إقليم السودان، مثلما كانت عليه في العصر الذهبي لهذه الدولة.

- تأثير الاحتلال البرتغالي لسواحل المحيط الأطلسي على تجار المغرب:

إن توجه البرتغاليين نحو ودان، أثر على القوافل التجارية التي كانت تربط منطقة المغرب الإسلامي بانسودان الغربي، فتحولت المسالك نحو المحيط الأطلسي، ومنه يتم نقل السلع الإفريقية نحو الموانئ البرتغالية[2].

وبذلك أصبح البرتغاليون يشكلون خطرا على تجار المغرب الإسلامي، ومـن بينهم تجار الدولة الزيانية، حيث حلوا محلهم في مناطق كثيرة، فتحويل جزء من الذهب نحو المحيط الأطلسي أثر على الدولة الزيانية.

ويذكر ريكاردوRicard أن التجار البرتغالبن كانوا ينقلون الحنابل، التي توجد بسواحل المحيط الأطلسي، وذكر بأن الحنابل تتميز بالألوان الزاهية، ومنها الأحمر والأخضر والأزرق والأبيض، توضع في كل من عنابة، وتـنس، ووهران ومستغانم، ومازونة، وتخلوا على تجارة الدولة الزيانية لأن أراضي هذه الدولة أصبحت ضمن نفوذ الإسبان واقتصروا على ما كان يصنع فـي أسفنى وأزمور، منذ القرن10هـ/16م وهو ماجعل ريكاردو[3] يؤكـد على أن البرتغالين حولوا تجارة الحنابل نحو موانئ المحيط الأطلسي، فأثـروا

1- DUFOURCQ (Ch.E) op.cit P 167.

2- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص165.

3- Brunschvig (R) la Berbérie orientale sur les hafsides des origines à la fin du XVe siècle Paris 1942, 47 p 277.

علـــى صناعت الحنابل، في موانئ الدولة الزيانية، مثل تنس و وهران، التـــي استمرت بها صناعة الحنابل[1].

وتحكم البرتغاليون في مسالك التجارة الصحراوية خلال القرن10هـ/16م، جعلهم يحتكرون التجارة التي كان في الماضي يزاولها تجار المغرب الإسلامي، مثل الذهب والعبيد لكن لم يتم القضاء النهائي عليها، ونستدل ذلك من مجموعة من النصوص التي اوردها الحسن[2] الوزان منها أن سوق ديجان، اوجاني، كانت تقوم بتصدير العبيد في اتجاه الشمال إلى بلدان المغرب الإسلامي، ومنها أراضي الدولة الزيانية أما أسعارها في الأسواق فكانت زهيدة مما مكّن التجار من شراء الأعداد الكبيرة منها، فقد كان الحصان في برنوا يساوي ما بين خمسة عشر إلى عشرين عبدا، وتباع الجارية ذات الخمسة عشر في جاو بستنة دوكات.

ويقول الحسن الوزان عن مدينة تمبكتو ينقصهم الكثير من الملح، نظرا لأنه يحمل من تعازي، التي تقع على مسافة تقدر بحوالى مائة ميل من تمبكتو وخلال تواجده بها كان حمل الملح فيها يقدر بثماننين دوكات وارتفاع الثمن جاء نتيجة للأخطار التي تتعرض لها القوافل التجارية.

- احتـــلال وهـــران:

كما أن إحتلال وهران قد أثّر على تجارة البرتغاليين التي يبدو أنها كانت مزدهرة بفضل تحكمهم وتثيرالبرتغالين في المبادلات التجارية، بعد نجاحهم فـــي الكشوفات الجغرافية فكانوا يأتون إلى وهران لشراء السلع من القوافل التي تتوافد على المدينة، وتشير إحدى الوثائق البرتغالية أن السلع التي كـــان

1- Ibid: l'artisanat Indigène en Oranie, in R .A, 1940.

2- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص164.

بينها تجارهذه الدولة تتمثل في الأغطية والقماش الذي ينقل من هولندا، وبريطانيا، وايكوسيا، وايرلندا.

وفي إحدى الرسائل لملك البرتغال مؤرخة في920هـ/1514/1/17م، ذكر صاحبها بأنه مكلف بالأهالي وعلى الخصوص شؤون المغرب، فيذكر أن تجارا كانوا يأتون من موانئ الدولة الزيانية إلى مالقا.

وفي نفس الفترة نجد البرانيس التي كانت تصنع في بجاية وزاربي مستغانم، وبرانيس سوداء، من تلمسان، تنقل إلى مالقا، وغيرها من الموانئ الاسبانية، وشارك في نقلها تجار برتغاليون من مراكز انتاجها.

وهناك تقرير أرسل لملك البرتغال Dmannel بتاريخ: 919هـ.1513.11.30م من طرف أحد التجار يدعي ألفونس ALphonse يشير إلى استمرار العلاقة الإقتصادية، بين المشرق ودول المغرب الإسلامي، فيقول: " إن عددا كبيرا من التجار قدموا من القاهرة يحملون سلعا مشرقية وقد رافق القافلة القادمة من الشرق تجار من وهران وتلمسان".

- العالم الإسلامي:

فيما يتعلق بالمبادلات التجارية مع دول العالم الإسلامي نجد الدولة الحفصية تعتبر من أهم هذه الدول لمجاورتها لها وأن المبادلات التجارية معها كانت تتم بواسطة الطريق الذي يربط بلدان المغرب الإسلامي بالمشرق الذي أصبح يمتد أكثر على الساحل البحري أو قريبا منه ويجتاز المدن التي أصبحت تحتل أهمية بالنسبة للتجارة الداخلية والخارجية كتلمسان ومليانة وجزائر بني مزغنة وبجاية وقسنطينة وعنابة وتونس وبذلك كان يتم التبادل التجاري

في أسواق هذه المدن خلال رحلة القافلة إلاّ أن ازدهار النشاط التجاري بهــا كان مرتبطا بالأحوال السياسية للدولتين[1].

كانت المبادلات بين الدولة الزيانية والحفصية تتم بواسطة الطرق البرية والبحرية فهناك طريقان بريان يربطان الدولتين:

أولهما: الطريق الذي ينطلق من المغرب الأقصى فيجتاز أراضيه ثم يصل إلى أراضي الدولة الزيانية فيمرّ بتلمسان وتيهرت ومسيلة ومقرة وطبنة وتبسة ثم القيروان وهذا يعرف بطريق الهضاب العليا.

وهذا الطريق كان يسلك من قبل الرحالة والتجار وكذلك الحجيج المتجهين لزيارة الأماكن المقدسة وقد تعرض له كل الرحالة الذين زاروا الجزائر خلال العصور الوسطى منهم اليعقوبي وابن حوقل والبكري والإدريسيي وصاحب كتاب الاستبصار.

وهناك طريق آخر وهو المحادي للساحل، حيث يجتاز المــدن الساحـليــة أو القريبة منا وقد كان أكثر سلوكا من قبل التجار والحجــاج والــرحالــة فــي عصر الدولة الزيانية ينطلق من تلمسان نحو مليانة ومنها إلى جزائر بــني مزغنة ثم بجاية ميلة قسنطينة عنابة ومنها أراضي تونس حاليا.

وكان النشاط التجاري مزدهرا خلال عهد السلطان أبو تاشفين الأول مــع تونس والإمارات التابعة لها بجاية وقسنطينة فقد وفد على تلمسان من بجاية المشدالي مع جماعة من التجار أكرمهم أبو تاشفين وهو ما يؤكده التنســي بقوله: " أن ناصر الدين المشدالي دخل تلمسان تاجرا فعرّفه أبوزيد بالإمام أمير المسلمين الذي رفع عنه عناد مغرمه ومغرم من جاء معه وكان مائتي دينار ذهبية".

---

[1]- Ricard (R): Op cit. P24

بالإضافة إلى هذين الطريقين البريين هناك طريق بحري يربط بين موانئ بني زيان وموانئ الدولة الحفصية، وهومن قول عبد الباسط خليـــل: "أن الجنويين أثناء تنقلهم نحو المشرق كان يرافقهم مجموعة من تجار المسلمين من ذلك أنه عندما أراد التوجه إلى الأندلس ركب سفينة جنوية"، وقد أشار فـــي نص آخر إلى انتقال تجار وهران إلى تونس بوسطة سفن جنوة وهـــو مـــا يؤكّده الحس الوزان الذي أشار إلى تجار برشك الذين كانوا يتجرون مع تونس فيصدرون إليها التين ويجنون من ورائه أموال طائلة.

ويشير المازوني إلى تاجر من مدينة مازونة انتقل إلى تونس لبيع الحايك المصنوع بمازونة والحرير المستورد من الدول الاوروبية.

ويذكر ابن بطوطة أنه توجه إلى تونس وكان يرافقه تجار من تونس مات أحدهم بمدينة مليانة.

ففي منتصف القرن9هـ/15م وبالتحديد بعد الهجوم الذي قاده السلطان[1] أبو فارس الحفصي ضد مدينة تلمسان سنة833هـ/1430م انطلقت قافلة تجارية من تلمسان نحو تونس رافقها ابن الرصاع الذي فضل فيما بعد الاستقرار بمدينة تونس وهو ما يؤكد استمرار المبادلات التجارية بين الدولتين خلال المرحلة الأخيرة من حياة الدولة على الرغم من الاضطرابات التي عرفتها الدولتان وانعدام الأمن في مسالكها التجارية وهو ما دفع بتجارهما إلى استعمال السفن الأجنبية في الانتقال بين البلدين ويؤكد ذلك عبد الباسط خليل الذي قال أن الجنونيين أثناء تنقلهم بين دول المشرق والمغرب الإسلامـــي كانـــوا مرفقين بمجموعة من التجار المسلمين، فهو عندما أراد التوجـــه إلـــى

1-عن حملة أبي فارس الحفصي على تلمسان سنة 833هـ، 1430م انظر التنسي، المصدر السابق،ص244.

الأندلس ركب سفينة جنوبية، كما بين في نص آخر بأن هناك جماعة من تجار وهران وتلمسان انتقلوا إلى تونس بواسطة الأسطول الجنوبي[1].

ويبدو أن المبادلات التجارية لم تتوقف بين الدولتين بعد الاحتلال الإسباني لموانئهما فقد ذكرت أحد الوثائق الإسبانية أن الكوديتي قد موّن وهران بالحبوب من السفن التي انتقلت من عنابة إلى وهران خلال سنة943/ 1563.

- **السلع:**

أما السلع التي كانت تنتقل بين الدولتين فهي سلع مستوردة أو محلية فالمازوني يذكر من بين السلع التي نقلها التاجر المازوني إلى بجاية الحايك المحلي والحرير المستورد من أوربا.

أما الحسن الوزان فذكر لنا بأن سكان برشك كانوا يصدرون التين والكتان إلى تونس بواسطة السفن الجنوية وكانوا يجنون من وراء ذلك فوائد كبيرة.

- **المماليك:**

هذا فيما يتعلق بالدولة الحفصية.

أما دولة المماليك فإن التبادل التجاري بينها وبين الدولة الزيانية يبدو غير واضح لانعدام النصوص سواء لدى المشارقة أو الزيانيين ماعدا بعض الإشارات الخفيفة لا تفي بالموضوع، وقد حاولت قدر الاستطاعة ابراز هذه العلاقة التي ترجع إلى ما قبل هذه الفترة موضوع البحث فقد أشار ابن خلدون

1- Abd al basit Ibn Khalil OP. CIT . P 125 P 135 .
كما ذكر صاحب كتاب الدررالمكنونة في نوازل مازونة أن أحد التجار المازونين كان قد انتقل إلى بجاية لبيع الحايك الذي نسج بمازونة و الحرير المستورد من أوربا ثم عاد منها إلى مازونة محملا بسلع بجائية، ج 2، ورقة 157.

إلى وجود جالية مغاربية وصلت مع القوافل التجارية القادمة من بلدان المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية، كما ترجم السخاوي لمجموعة من العلماء عاشوا في القرن9هـ/15م بعضهم من تلمسان توافدوا على المدن المصرية والحجاز والعراق وبلاد الشام وأغلب هؤلاء رافقوا القوافل التجارية المتجهة نحو المشرق، كما تذكر الوثائق التابعة للمحاكم الشرعية في الإسكندرية مجموعة من الأفراد من وهران ومستغانم وتلمسان في القرن10هـ/16م كانوا يزاولون النشاط التجاري مدينة الأسكندرية وغيرها من مدن دولة الممالك.

كانت دولة المماليك ترتبط بالدولة الزيانية بواسطة شبكة من الطرق البرية والبحرية لكن في هذه الفترة كان التجار يفضلون الطرق البحرية عن البرية لانعدام الأمن في هذه الأخيرة فقد كانت السفن تنتقل من الدول الاوروبية إلى وهران ثم تونس والاسكندرية .

وقد سلك هذا الطريق ابن جبير في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي وصف لنا خطورة هذا الطريق لأن المسافرين يتعرضون فيه إلى القراصنة الأروبيين انطلاقا من جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى الخصوص مالطا وكذلك ابن بطوطة الذي قدم من المشرق فنزل بمدينة تنس ومنها توجّه إلى تلمسان وعبد الباسط خليل الذي انتقل من الاسكندرية سنة 1462/866 على ظهر سفينة من سفن البنادقة والسلطان الزياني أبي حمو موسى التاني الذي ركب سفينة كاطولونية متوجهة إلى الاسكندرية لكنه ألقي عليه القبض في بجاية من طرف أميرها فأعيد إلى بلده تلمسان.

من هنا يتبين لنا أن الدول الاوروبية هي التي كانت تسيطر على النقل البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وعلى الرغم من خطورة الطريق البري إنه استمر يؤدي واجبه لكنه لم يكن مثل ما كان عليه الحال في القرون الهجرية الأولى وعلى الرغم من هذا فقد أرسل أبو الحسن المريني قافلة انطلقت من المنصورة في تلمسان لنقل هدايا لسلاطين المماليك أشار إليها ابن الخطيب في كتابه أعمال الإعلام القسم الأول وحدد لنا كل محتوياتها لكنها تعرضت إلى النهب بالقرب من مدينة غليزان حاليا وبالتحديد عند زمورة.

- السلع:

أما السلع التي كانت تتنقل بين الدولتين فتتمثل خاصة في الجياد لأن أراضي الدولة الزيانية كانت تشتهر بتربية الخيول وقد زودت دولة المماليك ببعضها وعلى الخصوص خلال الحروب يضاف إلى ذلك البلسان الذي طلبه السلطان المملوكي فيما وقدره عليه ملك تلمسان بقوله: «نحن قوم بادية لا نعرف إلاّ الزيت الذي كان يستعمل في مسح الأجسام لتوفر نعومة البشرة».

أما السلع التي تأتي أراضي الدولة من المشرق الإسلامي فتتمثل على الخصوص في العقاقير مثل جوز الطيب القرنفل والزنجبيل والقرفة بواسطة الجنويين والبنادقة القادمين من المشرق وعبر الطريق البري بواسطة القوافل التي تجتاز المنطقة الممتدة ما بين مصر وتلمسان.

- طرق القوافل:

لم تتغير الطرق خلال القرن العاشر/السادس عشر الميلادي بالنسبة لهذه المناطق فهي تلك التي وصفها الرحالة والكتاب في العصور التي سبقت فترة موضوع البحث ومن بينها مسالك القوافل التي تأتي من منطقة توات نحو المناطق التلية في الشمال، وهذا الطريق هو الذي سلكه السلطان الزياني

أبوحمو موسى الثاني[1]، بعد الهجوم المريني على تلمسان، فانطلق نحو جرارة حيث رافق أحد القوافل التجارية.

وهناك طريق مباشر من تلمسان إلى قرية تازا، الجبل تادميت ومنها إلى سجلماسة وقد سلك الطريق كلا من الإدريسي[2]، وابن بطوطة تمبكتوا، فاجتاز جات، وتكدة، وكانت ترافق كل واحد منهم قافلة تجارية متجهة إلى الشمـــال من توات، التي تعتبر ملتقى للطرق القادمة من المشراق والمغرب الإسلامي.

ومن توات إلى سجلماسة ثم درعه، ففاس، ثم تلمسان و من تمبكتوا تخرج أربع طرق كبرى لسير القوافل يتجه أحدها إلى مصر، حيث يمر بكانم، وحسب الاكوست فهو الطريق الذي يمول مصر بالذهب، وهو يجتاز أراضي المغرب الإسلامي، وابتداء من الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أصبحت الطرق مباشرة من تمبوكتـو وجاجو، تيدكانت عين صالح، غدامس، طرابلس، ثم مدن النيل، وكانت هذه المسالك خطيرة لانعدام الأمن بها[3].

الثاني يقصد تونس، فيمر بالهوقار، والثالث يتجه إلى مراكش، فيمر بسجلماسة، وتوات، حيث يصل تلمسان يبدو أن الطريق المتجه من تلمسان إلى سجلماسة لم يتأثّر لأننا وجدنا نازلة تؤكد ذلك «جوابكم في رجل سافر، من تافيلالت إلى تلمسان، واستعجل إلى المدينة، وترك المودع بالطريق والوديعة عنده فلما قربت القافلة التى بها المودع إلى أحواز وجدة، غارت عليها الأعراب، فانتهوا بعض الحوائج منها وسلم الباقي، فادعى المودع عند قدومه

1-عن هذا الطريق انظر ابن أبي زرع: روض القرطاس: ص24-84 : ابن خلدون العبر، ج7، ص146.

2-الإدريسي: صفة المغرب والأندلس، ص96 . وهو جزء من لوحة المشتاق ص 96.

3-ابن بطوطة: الرحلة، دار صادر، بيروت، ص 675 .

لبلد صاحب الوديعة أنه جعلها في مزود دقيق، وجعل المزود في غرارة فسلبت منه».

نستخلص منه ما يلي:

أولا: أنه على الرغم من الاضطرابات التي عرفتها بلاد المغرب الإسلامي، في أواخر القرن9هـ/15م فإن القوافل التجارية لم تتوقف عن رحلاتها، فقد أوردت الوثائق الإسبانية، أنه خلال محاصرة تلمسان من قبل الإسبان عندما كان عروج بداخلها، وصلت قافلة من السودان الغربي وبقيت بخارج المدينة.

ثانيا: أن غارة الأعراب على القوافل التجارية، زادت عما كانت عليه من قبل وهو ما يؤكده الوزان بقوله: ويعلق[1] في نص آخر بقوله من النادر أن يتمكن أحد من العثور على بعض الطرق الآمنة، وهو ما تؤكده أيضا الوثائق الإسبانية، منها الرسالة المرسلة من حاكم هنين، إلى الإمبراطور الإسباني سنة941/ 1534، جاء فيها « أن القافلة القادمة من تلمسان، إلى هنين، هوجمت من قبل العرب وقتل خمسة وأربعون من المرافقين للقافلة، وقد استولوا عليها لأنها لم تكن مرافقة من قبل الحراس كالعادة».

مما يجعلنا نستنتج أن فترة موضوع الدرس المتميز بكثرة الحروب واستبداد القبائل العربية، لم تؤثر على الطرق المتجهة نحو الجنوب فقط، بل إلى موانئ الدولة الزيانية كهنين، وهران، ومستغانم ففيما يتعلق بالعلاقة بين وهران وتلمسان فقد تأثرت هي الأخرى، لأن القوافل التي تنتقل بين المدينتين كانت تتعرض للإغارة من القبائل، وحتى شيوخ الزاويا، كالملياني[2] لم ينج من هذه الغارات، فقد تعرض مرار إلى النهب والسلب، نتيجة لهجوم الأعراب

1-الحسن الوزان: المصدر السابق ج2، ص 11.

2- الصباغ: البستان، ورقة 16 .

على مواشيه ومحاصله وفي رسالة السلطان الزياني مولاي أحمد لفليب الثاني يصرح له بأنه لا يستطيع أن يرسل الأسرى المسيحيين بمفردهم، إلى وهران لأن الطرق غير آمنة، ولذلك لا بد أن يكونوا مرافقين بمجموعة من الجند[1].

كما كانت القبائل الموالية للإسبان تُغير على القبائل التي توجد مضاربها في المنطقة الممتدة ما بين تلمسان، ومستغانم فهذا يؤثرعلى حركة القوافل[2].

كما تذكر المصادر الإسبانية، أن القراصنة الإسبان كانوا يأتون في الليل، ويختفون وراء الصخور في انتظار مرور القوافل التجارية ثم يغيرون عليها، فكانوا يأخدون من وجدوه في القافلة، لا يتركون الأطفال ولا النساء لمواجهة أخطار الإغارة على القوافل التجارية فعمد سلاطين الدولة الزيانية منذ العصر الذهبي لهذه الدولة إلى تكليف القبائل المجاورة لطرق القوافل، كالمعقل بحراستها[3] يضاف إلى ما سبق أنه كان لهذه الدولة حراس يقومون بحراسة التجار، أنفسهم كالشرطة، التي تقوم بمراقبة البدو الرحل والقيام باستخبارات سريعة ومسبقة، لإبلاغ القافلة بهذه التحركات حتى تحضر نفسها للدفاع.

كان هذا النظام الأمني موجودا في المناطق الأكثر خطورة لكن عندما أصبح الضعف يدب في الدولة الزيانية، لم تعد توجه العناية الكبيرة للمسالك التجارية مثلما كانت عليه خلال عهد السلاطين الأقوياء، مثل أبوتاشفين الأول وأبو حمو موسى الأول والثاني.

1–الرسالة توجد بأرشيف سيمنكاس وقد صورنا نسخة منها خلال زيارتنا الاسبانيا وتوجد ضمن مجموعة ملف الشؤون الحربية.

2–أبو راس، الحلل: مخطوط بخزانة سيدي عبد الباقي، بوادي الجمعة، ولاية غليزن ورقة2.

3– أبو راس، الحلل: المصدر السابق، ورقة 2

ثالثا: لعبت هذه الصراعات دورا بارزا في تغيير المسالك التجارية، ابتعادا عن الأماكن الخطيرة فأصبحت القوافل تصل من توات حتى سفوح الأطلس الصحراوي، ثم بعد ذلك تتجه إلى تلمسان[1].

وهناك طريق يتجه من ورجلان نحو الموانئ الشمالية التابعة لإمارة الدولة الزيانية وبجاية.

وهناك طريق آخر يربط تلمسان بالواحات الصحراوية فأصبحت تلمسان مرتبطة بورجلان، وقد أثر على هذا المسلك:

أولا: احتلال الاسبان لكل من وهران والمرسى الكبير، وبجاية ثم هنين، لأن القوافل التى تجتاز هذا المسلك كانت عندما تصل إلى منطقة الحضنة تتوزع فبعض التجار يتوجهون إلى قسنطينـــة، وبعضهم يتوجه إلى جزائـــر بني مزغنة بينما البعض الآخر ينتقل إلى موانئ الدولة الزيانية، وهران، المرسى الكبير، مستغانم هنين، أرشقول[2].

ثانيا: اشتداد الصراع بين الإسبان، وباشوات الجزائر، على الطريق الذي يربط جزائر بنى مزغنة، بتلمسان، ومستغانم بتلمسان، وقد وضح لنا الحسن الوزان: « بأن الإسبان كانوا يهدفون إلى غلـــق الطـــرق، على الأتـــراك، حتـــى لا يستطيعوا السيطرة على تلمسان، التي كانت من بين المراكز التجارية الهامة في المغرب الأوسط».

كما تمكن التجار الأوربيون من مرافقة القوافل التجارية التي تنتقل ما بين توات، وورجلان، وكان الهدف من وراء ذلك تكسير احتكار المسلمين

1- من المناطق التي تشكل خطرا على أمن القوافل التجارية ناحية أنجاد انظر الوزان المصدرالسابق، ج2، ص1.

2-الحسن الوزان، نفس المصدر، ج2، ص16-34.

للمبادلات التجارية، والارتباط مباشرة مع تجار إفريقية، ونقل السلع نحــو موانئ المغرب الإسلامي[1].

- مــراكزالتجــارة:

مراكز التجارة منها ماهو تابع للدولة الزيانية ومنها ما هو خارجها وتتعامل معها باستمرار هذا فيما يتعلق بالمسالك التجارية فالمراكز التجارية التي يتوافد عليها تجار الدولة الزيانية يمكن أن نقسمها إلى قسمين أولهما:

*** الواحات:**

من بين الواحات التي كانت تستقبل تجار الدولة الزيانية خلال هذه الفترة مدينة سجلماسة التي اعتبرت من أكبر المراكز قبل القرن10هـ/16م لكن دورها قل عما كان عليه من قبل نتيجة لوصول البرتغاليين إلى سواحل المحيط الأطلسي وتحكمهم في المسالك وتحويل بعضهما إلى المناطق التى أصبحوا يسيطرون عليها، لكن هذا لم يمنع تجار الدولة الزيانية من زيارة أسواقها ونقــل السلع منها إلى أسواق تلمسان وميناء هنين قبل سقوطه بيد الإسبــان سنة 938هـ/1531م.

*** تبلبلــت:**

ومن بين تلك الواحات تبلبلت التي تحتل مركزا تجاريا هاما لأنها تقع في مفترق الطرق بين توات وسجلماسة والسودان العربي مما جعل أغلب سكانها يزاولون النشاط التجاري وهو ما يؤكده الحسن الوزان بقوله: «أهل تبلبلت

1- L.A. Damaste a le letes / Relation de Voyage Occidentale et l'Afrique 1455-57.P 633.

يتاجرون مع السودان لأنهم فقراء ولأن القبائل العربية التي تنتقل من التلوث بمرافقة القوافل التجارية تفرض أتاوات عليهم».

*** فقـــيــق:**

ومن بين تلك المراكز واحة فقيق[1] التي ارتبطت بالدولة الزيانية، فالوزان ذكر أن نساءها ينسجن ثيابا من الصوف على شكل أغطية السرير تتميز بدقتها حتى يظن الناظر بأنها حرير لذلك تباع بثمن مرتفع في مدن بلاد البربر كفاس وتلمسان أما الرجال من فقيق فكانوا يتعاطون التجارة في بلاد السودان الغربي».

*** تســبايت:**

يضاف إلى فقيق تسبايت[2] التي لها هي الأخرى علاقة تجارية مع الدولة الزيانية لوقوعها على الطريق التجاري الذي يربط مدينة تلمسان بالسودان الغربي لذلك يتواجد بها تجار الدولة الزيانية وهو ما يؤكده الحسن الوزان بقوله: "تسبايت على الطريق المؤدية من فاس وتلمسان إلى مملكة اندز ببلاد السودان".

أما في إقليم توات فنجد تبكرارين[3] التي تعتبر حلقة وصل بين السودان الغربي والدولة وقد توصلنا من خلال مجموعة من النوازل الفقهية بمكتبة زاوية البكرنين أن تجار تبكوراين وتوات وعلى الخصوص تمنطيت كانوا على علاقة بالدولة ومن بين السلع التي نقلت إلى تلمسان العبيد والحنة بينما

1-الحسن الوزان: المصدر السابق، ص132 .

2-الحسن الوزان: المصدر السابق، ص133.

3- نفسه:ص133 انظر Barges (J.J.L): Mémoire sur les relations commerciales du Tlemcen avec le Soudan Sous le règne des Beni-Zeiyan en Revue de l'Orient. de l'Afrique et des colonie 1853 p557.

زود هؤلاء تجار تيكورارين بالسلع الأوربية والمحلية وعلى الخصوص اللحم المجفف لانعدام تربية المواشي بهذه الواحات الصحراوية وفي هذا الصدد يقول الوزان: "يباع بها اللحم المجفف والشحم المملح الذي يأتي به تجار فاس وتلمسان ويجنون منه أرباحا طائلة".

- الواحات الشرقية

*** ورجلان:**

هذا فيما يتعلق بالواحات الصحراوية الغربية أما الشرقية فكانت هي الأخرى على علاقة بالسودان ومن أبرزها ورجلان[1] ووادي ميزاب التي عرف، سكانها نشاطا تجاريا مع المناطق الشمالية للمغرب الأوسط ومنها أراضي الدولة الزيانية حيث توافد هؤلاء على تلمسان ووهران وجزائر بني مزغنة التي كانت من أملاك الدولة الزيانية وهو ما يؤكده الوزان[2] بقوله: "ميزاب سكانها أغنياء وهي رأس خط تجاري يلتقي فيه تجار الجزائر وبجاية بتجار أراضي السودان".

- السوادن الغربي:

أبرز المراكز التجارية في السودان الغربي.

السلع:

فإذا قارنا تجارة الحبوب مثلا أو الذهب والجلود والذهب أو العبيد بين القرن8هـ/14م و10هـ/16م وجدنا الفرق كبير لأن قوة الدولة وتحكمها في القبائل ومراقبتها لمسالك التجارة أدى إلى إزدهار الحياة الإقتصادية، لكن خلال

1- الحسن الوازن: المصدر السابق، ج2، ص133.

2- نفسه : ج2، ص 136.

فترة موضوع البحث استمرت المبادلات التجارية إلا أنها لم تكن كما كانت عليه في عمر الدولة الذهبي ومن بين السلع التي نقلت لأسواق الدولة الزيانية.

- الـــذهب:

من أهم السلع التي اشتد طلب تجار الدولة الزيانية عليها خلال هذه المرحلة مايلي:

وعلى الرغم من سيطرة البرتغاليين على الموانئ التابعة للمغرب الأقصى وتحكمهم في تجارة الذهب فإن هذا لم يحل دون وصول القوافل المحملة بالذهب إلى موانئ الدولة الزيانية، ففي سنة 859هـ/1454م وصلت قافلة تجارية من ودان إلى وهران محملة بالذهب[1] وفي السنة الموالية أرسل البرشلونين سفنهم إلى مدينة وهران حاملة السلع الإسبانية ليتم تبادلها بالذهب وقد مكثت تلك السفن مدة في وهران في انتظار وصول القافلة القادمة من السودان الغربي[2] ومما يوضح لنا ازدهار تجارة الذهب في المرحلة الأخيرة فإنه خلال سنة865هـ/1462م نقل التجارالجنوبيون كمية من الذهب من موانئ الدولة الزيانية نحو ميورقة وبرشلونة.

- الـعبـــيد:

يضاف إلى الذهب تجارة العبيد التي ساعد ازدهارها الموقع الاستراتيجي للدولة الزيانية وهو ما يؤكده الحسن الوزان بقوله: " أنها محطة بين أوربا واثيوبيا".

1- HEERS (J): Gênes au XV^{e} siècle l'Afrique du Nord et le monde Ibérique, Paris, 1961, p476

2- Ibid P480 .

فكانت تستقبل العبيد من الدول الأوربية ومن السودان وقد حدد الحسن الوزان[1] بعض أسعار العبيد من مدينة تمبوكتوا فقال: "بأن العبد الواحد يساوي خمسين فرنكا يباع بأربعمائة أو خمسمائة بأراضي الدولة الزيانية".

ومن بين الذين حددوا لنا أسعار العبيد الرحالة ابن بطوطة الذي ذكر بأنه اشترى مجموعة من العبيد من تيكدة وهي من أهم أسواق السودان المصدرة للعبيد ثمن العبد الواحد خمسة وعشر مثقالا.

أما ديجان اوجان فكانت في عهد الحسن[2] الوزان تصدر منها العبيد نحو بلدان المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية حيث تم نقلهم من وهران وهنين إلى الدول الأوربية وأسعار العبيد تبدو زهيدة اذا ما قورنت بأسواق الدول الأوربية في الشمال مما مكن التجار من شراء الأعداد الكبيرة فقد كان الحصان في بورنوا يساوي ما بين خمسة عشر إلى عشرين عبدا وتباع الجارية ذات الخمسة عشر في جار بستة دوكات زيادة على الرقيق والذهب الأحجار الثمينة والشب والعنبر وريش النعام.

- السلع المصـــدرة:

هذا من ناحية الاستيراد، أما من ناحية التصدير فتأتي سلع الملح في المرتبة الأولى، لأن ندرتها وتعذر الحصول عليها جعل منها سلعة عزيزة مع تزايد طلب السودانين عليها فارتفع ثمنها فأصبح تجار الدولة الزيانية يحصلون من بيعها على أكبر كمية من الذهب واشهر المناطق التي ساهمت في انتاجه تغزة وفي هذا الصدد يقول الوزان: فقد وصلت إلى هذه المدينة في وقت كان

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص23 .

2- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص126 .

حمل الملح فيها يقدر بثمانين دوكات وارتفاع الثمن جاء نتيجة تعرض التجار الداخلين إلى بلاد السودان للمشقة والأخطار.

تلمسان لا تليق بحالنا، ولكن لطف الله، فكيف يرجى الخير ممن يسوسه يهودي وفجار ومن ليس بتراضى[1]. ومن بين السلاطين الذين اعتمدوا على الجالية اليهودية أبو حمو موسى الثالث الذي قال في شأنه السليماني: "وزاد من اضمحلال دولة ابن قلمون منذ أن قدم اليهود للديوانة واعتمدهم في حالة شؤون الجبايات وتحديد الضرائب ومدخولات البضائع الموانئ البحرية على الصادر والوارد، وكان قدم لوهران منصرفا من أغنياء اليهود يدير حكامها وجبايتها فعقد هذا المتصرف اتفاقا تجاريا مع الإسبان المترددين على مدن الساحل تمكنوا بسببه من التصرف في المرسى ومراقبة المراكب الواردة والصادرة[2]".

الذي يستخلص من هذا النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن الدولة الزيانية كانت تملك مجموعة من الموانئ مخصصة لتصدير السلع واستيرادها من الدول الأوربية وتلك السلع يدفع أصحابها ضريبة تعرف بالضريبة الجمركية وهي تختلف باختلاف السلع، حسب قيمتها، والدول التي تتعامل معها الدولة الزيانية لأن كل دولة من تلك الدول تدفع نسبة حسب المعاهدات المبرمة بينها وبين هذه الدول وهي تترواح بين5%و10%[3] وقد لجأ هذا السلطان إلى اليهود لعلاقتهم بهذه الدول لأن بعض المهاجرين اليهود

1--المقري نفح الطيب، ج5، 156 .

2- السليماني ،المصدر السابق ،ج3، ورقة 100،ابن زرفة، المصدر السابق ، ج2 ، ورقة 42 ، أبوراس، المصدر السابق ، ورقة 37 .

3- عن موضوع الديوانة انظر . MAS (LATRIE) (L.de): Traités de paix pp226-357.

في أراضي الدولة كانوا يعيشون في تلك الدول قبل طردهم منها ولذا فهم يحسنون لغاتها.

ثانيا: إن تفضيل اليهود عن غيرهم كان له دور سلبي على أحوال الدولة فكانوا يحتكرون تجارة هذه الدولة ويتصرفون في عائداتها من الضريبة الجمركية لمصالحهم الذاتية فهم لا يصرحون بكل المداخيل التي تأتي من السفن القادمة لتلك الموانئ كما عقدوا اتفاقيات سرية مع تلك الدول وكان من بين نتائجها المؤامرة التي دبرها هؤلاء لصالح الاحتلال الإسباني[1].

ثالثا: في السابق كانت الدولة الزيانية هي التي تحدد ثمن الضريبة حسب ما ورد في المعاهدات التجارية[2] لكن في هذه الفترة أفراد الجالية اليهودية هم الذين يحددون أسعار الضريبة الجمركية على السلع الصادرة والواردات من تلك وإلى الموانىء وهذا يعتبرا تدخلا مباشرا في شؤون الدولة .

- علاقة اليهود بالإسبان :

كما استغل هؤلاء اليهود العلاقة التي ربطتهم بالمراكز الإسبانية في كل من المرسى الكبير ووهران للإستفادة منها وفي هذا الصدد يقول أبوراس «إن يهود وهران كانت لهم صولة عظيمة على بنى عامر لكون الجباية كانت على يد اليهود دون الإسبانين فكان اليهودي لعنهم الله يخرج من محلته لقبض ضرائب بنى عامر فيضرب جباؤه بواسطة دواوير بنى عامر من أولاد عبد الله وغيرهم ثم يتصرف فيهما تصرف الملك في رعيته بما شاء يأمر

1- السليماني: المصدر السابق ، ج3، ورقة 100

2- MAS LATRIE, Op cit, P 358; Dufourcq .(ch.E.)L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII^{e} et XIV siecles .Paris 1966 .P.P.176-228

وينهى فيصادف هذا في الأغلال ويضع على رجل هذا الأكيال ويجلد هذا ويتجلى سبيل هذا إلى غير ذلك دون معترض له[1]».

الشيء الذي يستخلص من هذا النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن الإسبان بعد سيطرتهم على كل من المرسى الكبير ووهران احتاجوا إلى أموال لسد مصاريف الحاميات العسكرية بها لأن اسبانيا كانت تعاني أزمات اقتصادية نتيجة لكثرة مصاريفها في مستعمراتها بالعالم الجديد لذلك فإن تغطية تكاليف الحملة على المرسى الكبير ووهران كان بفضل أموال الكنيسة الإسبانية لذا لابد من إيجاد مجال للحصول على الأموال ولذا لابد من فرض الضرائب على القبائل المعادية لهم والموالية مثل بنى عامر وبنى راشد وأحسن من يقوم بهذا الدور اليهود لعلاقتهم بالسكان.

ثانيا: إن هؤلاء هم الذين يقومون بجباية الأموال لصالح الإسبان حيث يخرجون إلى مضارب بنى عامر ويمكثون بين ظهرانهم فترة زمنية حتى يسددوا لهم الضرائب المفروضة عليهم وكل من يرفض ذلك يكون جزاؤه القتل أو الأسر[2]».

- دورهم في جبي الضرائب من القبائل الموالية للإسبان:

كانت القبائل العربية في عهد قوة الدولة مضطرة إلى دفع ضرائبها للدولة فقد تعرض ابن خلدون إلى دفع الجباية من قبل هؤلاء فذكر بطون قبيلة سويد

1- أبوراس: المصدر السابق، ورقة 39 ، المشرق بهجة الناظر ، ورقة الرحلة القمرية ، ج1 ، ورقة 43.

2- المشرفي ، المصدر السابق ، ورقة 16 .

في عهد يغمراسن[1] بن زيان كانوا يقدمون ضرائب لصالح الدولة وهم محسن بن عمارة وأخوه سويد بضواحي وهران[2] صاروا من أعداد الرعايا أهل الجباية، وكذلك عكرمة من بني يزيد الذين عجزوا عن الطعن فنزلوا بجبل كربكرة.

- اعتماد سلاطين الدولة على اليهود في الإقتصاد:

عرفت الدولة الزيانية في هذه المرحلة سيطرة العنصر اليهودي، على الوضعية الإقتصادية للدولة لاعتماد سلاطينها على هؤلاء اليهود، ونجد هناك نصوصا تشير إلى ذلك منها:

«كان للسلطان الزياني، أعوانا من اليهود لجباية الأموال وقبض الأعشار، العامرين من الإسبان، وغيرهم من المتوافدين للتجارة على سواحل المغرب الأوسط، فاستطالوا على الرعايا بظروف الشغل وأخذ الأموال بغير حق وتوظيف الضرائب المتنوعة[3]» يستفاد من هذا النص مايلي:

أولا: أن الدولة الزيانية في هذه المرحلة عرفت ضعفا نتيجة لانفصال بعض بطون قبيلة بني عبد الوادي عن الأسرة الحاكمة ومعارضة علماء الدولة لهؤلاء السلاطين جعل الناس يرفضون وظائف الدولة وعلى الخصوص جباية الأموال التي تتنافى بعض قوانينها مع الشريعة الإسلامية التي تجدد الضرائب لكن في هذه المرحلة حسب النص «توظيف الضرائب المتنوعة»[4] .

1- تولى يغمراسن الحكم ما بين سنة 633هـ/1236إلى 681هـ/1283، انظرابن خلدون العبر، ج7، ص164-165

2- نفسه ، ج7 ، ص164

3-السليماني كتاب الشماريخ ، ج3 ، ورقة 99

4- ابن زرفة الرحلة القمرية، ج 1، ورقة 42 .

ثانيا: إن الاعتماد على الجالية اليهودية لم يكن حديث العهد بل ذكر ابن مرزوق في كتابه المسند بأن القوافل التجارية التى تدخل تلمسان كانت تفتش من قبل أفراد من الجالية اليهودية نساء ورجالا بالأبواب الرئيسية لهذه المدينة وعلق أحد المرازقة على هذه الوضعية بقوله: التي كان تجار الدولة يتعاملون معها.

- مملكة غينيا:

كانت هذه المملكة محل اقبال تجار الدولة الزيانية الذين كانوا يحملون إليها السلع القادمة من الدول الأروبية والمتمثلة في المنسوجات والخردوات والأسلحة ويأخذون مقابل ذلك العبيد والتبر والملابس القطنية الغانية وفي هذا الصدد يقول الوزان : "يحقق أهل مملكة غينيا أرباحا هائلة في تجارة قماش القطن مع تجار بلاد البربر الذين يحملون إليهم الكثير من الثياب الأوروبية والنحاس والسلاح كالخناجر".

مملكة مالي[1]:

لم تكن تجارة الدولة مقتصرة على مملكة غينيا[2] فقط بل شملت مملكة مالي وعلى الخصوص تمبوكتو حيث تنقل اليها الأقمشة، من الدول الأوروبية التي كانت تزود بها أسواق الدولة الزيانية والجياد وهو ماجعل الوزان يعلق على ذلك بقوله: "تمبكتو تصل إليها أقمشة أوروبا" [3].

1-كتب في الأصل (ملى) وكذلك يكتبها السعدي وغيره من المؤرخين السودانين و هي المملكة العظيمة التي كونها شعب المائد نيغوا وبلغت أوج عظمتها في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ،انظرالوزان الهامش رقم 11،المصدر السابق، ج2،ص162.

2- الحسن الوزان: المصدر السابق ،ج2،ص162 .

3- نفسه، ج2 ، ص165 .

- أثر الجـالية اليهودية بموانـئ الدولـة:

لم يكن تأثير الجالية اليهودية مقتصرا على الواحات الصحراوية فقط بل امتد إلى الموانئ الساحلية للدولة الزيانية بمدينة وهران التي لم تكن في الفترة الأولى من العصور الوسطى ضمن المناطق التي تتميز بوفرة أفراد من الجالية اليهودية إلاّ أن توافد هؤلاء بدأ مع ازدهار الحركة التجارية بين الدولة الزيانية والدول الأروبية، والمضايقات التي تعرض لها اليهود في الأسواق الأوروبية مما جعلهم يفضلون الهجرة إلى أراضي الدولة الزيانية، ومن أكبر حاخمات وهران سيمون بن سماح وكانت العلاقة نشيطة بين اليهود الذين هم من أصل مغربي والوافدين على وهران منذ القرن 8هـ/14م[1].

كذلك نجد أن هؤلاء كانوا يزاولون النشاط التجاري مثل إخوانهم الذين هم من أصل مغربى، فالاختلاف بين القدماء والوافدين كان في اللغة والجوانب الاجتماعية[2].

بعد سقوط مالقة[3] وغرناطة[4] وميورقة[5] انتقل يهودها إلى أراضي الدولة الزيانية حيث وجدوا بها المساعدة، كما زاول بعضهم النشاط التجاري مع إسبانيا وإيطاليا عندما كان تجارها يتوافدون على وهران.

كما تعرضت الوثائق الإسبانية إلى الجالية اليهودية التي هاجرت من الأندلس بعد سقوط القواعد الإسلامية بها فذكر بأن يهود وهران من أصل

1- من أهم الهجرات هجرة 1392، انظر: Dufourcq (Ch .E) Op cit P266 .

2- Ibid P 227.

3- سقطت مالقة سنة 886/1490 ، انظر المقرى نفح الطيب ، ج5 ، ص ص 266- 267 .

4- المقري: نفح الطيب ، ج5 ، ص237 .

5- نفسه ، ج5 ، ص239 .

اندلسي توافدوا عليها بعد سقوط غرناطة1492/887م وكونوا بها مؤسسات تجارية احتكروا خلالها النشاط التجاري بها.

وخلال الاحتلال الإسباني لوهران915هـ/1509م كانوا يشرفون على مؤسسة الديوانة ويتحكمون في القوافل الآتية والمبارحة لوهران وكان هؤلاء يدفعون ضريبة عند دخولهم إلى وهران وما عدا سكان المدينة الذين كانوا يعانون من تلك الضرائب لذلك كان التجار المتوافدون على وهران يكلفونهم بإدخال سلعهم إلى المدينة حتى تكون معفاة من دفع الضريبة وقد أشار إلى ذلك عبد الباسط خليل عند زيارته لوهران[1].

لم تكن وهران هي الوحيدة التي تتواجد بها الجالية اليهودية بل نجد مستغانم ومزغران ولعل تنس أيضا كانت بها جالية يهودية تزاول النشاط التجاري.

تحتوي الوثائق الإسبانية على مجموعة من المعلومات تتعلق بالجالية اليهودية ومن بين تلك الوثائق معاهدة سنة924هـ/1535 التي أبرمت بين الإسبان والدولة الزيانية وقد نصت على أن اليهود كانوا طرفا في تلك المعاهـــدة فأغلب البنود الواردة فيها أشارت إلى تجار اليهود إلى جانب التجار المسلمين.

كما تذكر تلك الوثائق بأن اليهود تعاملوا مع الإسبان بعد احتلالهم لمراكز الدولة الزيانية ومن بين تلك الوثائق وثيقة ترجع إلى سنة 946هـ/1539م نصت على التعاون بين هؤلاء وحاكم وهران الكوديتي[2].

1- ABD AL BASIT, Op cit p 143

2- عن هذه المعاهدة انظر رسالة مولاي محمد المؤرخة في 5/ 9/ 1535 سمنكاس legajo F 138 -19 B

وخلال الصراع الذي حدث بين الإسبان والأتراك على أملاك الدولة الزيانية كان لليهود دور أساسيى في أغلب المدن وقرى الدولة الزيانية سابقا. فكانوا يعملون كعيون لصالح الإسبان.

ومما يؤكد ذلك مجموعة من الوثائق الإسبانية تبرز ذلك الدور الذي لعبه اليهود وعلى الخصوص ما يتعلق بتقديم المعلومات للإسبان عن الأتراك لأنهم كانوا في كل من وهران وتلمسان والجزائر كما كانت العلاقة بينهم حسنة للغاية.

ولم يكن الأمر مقتصرا على الأتراك فقط بل امتد نفوذهم إلى المغرب الأقصى ففي سنة1550 عمد أحد اليهود ويدعى يعقوب إلى تقديم معلومات هامة عن الحالة السياسة للمغرب الأقصى فقد تناول في تقرير كيفية دخول السعديين لفاس وتوسعهم على حساب ما تبقى من الدولة الوطاسية. يتوافدون على المدن والقرى المزاولة للنشاط التجاري ويرافقون القوافل التي تتجه إلى كل النواحي كما قدم معلومات عن التلمسانيين الذين هاجروا من تلمسان إلى فاس وموقفهم من الدولة السعدية.

ومما سهل مهمة هؤلاء اليهود أن علاقتهم بالأهالي كانت جيدة عكس الجالية المسيحية فكانوا بالمغرب الأقصى وتونس وحتى السوادن الغربي ومما يؤكد قولنا هناك مجموعة من النوازل تتعلق بالجالية اليهودية الموجودة بأراضي الدولة الزيانية والدور الخطير الذي أصبحو يقومون به[1].

ففي هذا الصدد يقول الونشريسى: «ورد علينا يهودي اشتغل بأعماله كأمثاله من اليهود ثم استقر أمره أنه شاعر وساحر ومهين للمسلمين مشيئة المتجبرين

1- العقباني، المصدر السابق، ص171

والمتكبرين فانتهى أمره إلى سب المسلمين بأن لا أصل لهم ولا حسب ولا نسب وأن يهود الهربين رؤساء شرفاء».

نستخلص من النازلة مايلي:

أولا: إن الونشريسى يحدد لنا أن صاحب السؤال من قلعة بني راشد التي كانت من بين المراكز التجارية حيث كانت تأتيها القوافل التجارية من مدن الدولة الزيانية، وقد زاد في ازدهار ذلك النشاط غنى أراضيها بالمحاصيل الزراعية وتربية المواشى مما أدى إلى ازدهار الصناعة النسيجية، ولعل اليهود كانوا يشرفون على تجارة القلعة وورشاتها الصناعية.

ثانيا: إن المكانة التي أصبح عليها اليهود في هذه المرحلة من حياة الدولة الزيانية جعلهم لا يكتفون بعدم تقديم الجزية فقط، بل أساءوا إلى المعتقدات الإسلامية ودخلوا في جدل مع المسلمين يتعلق بقواعد الإسلام.

- الـــدول الأوروبيـــة:

* **اسبـــانيـــا:** ففي هذه المدة كانت مالقة تحتكر المبادلات التجارية في البحر المتوسط لصالح التاج الاسباني فكان تجارها يتوافدون على سواحل المدن المطلة على البحر المتوسط، ومن بينها المراكز التي استولى عليها الاسبان.

ومن بين الوثائق التي تخص أراضي الدولة الزيانية الوثيقة المؤرخة في أفريل من سنة 914هـ/1508م، جاء فيها: " أن أحد التجار الإسبان كان يحتكر المبادلات التجارية، ويربط علاقات في الأراضي الممتدة مابين جبل طارق، وتنس، حيث يبيع لهم السلع الاسبانية ويشتري منهم السلع المحلية الآتية من السودان الغربي".

وفي سنة 916هـ/1510م، وهي السنة التي عرفت نجاحا للسياسة الإسبانية، باستيلائها على كل من وهران، وبجاية، والجزيرة المقابلة لجزائر بني مزغنة، فاستفاد من هذه الوضعية واحتكر تجارها المبادلات التجارية، في كل من وهران، وتنس، وتلمسان، ومن بين هؤلاء التجار الذين كانوا يتوافدون على تلك النواحي سانشو ألفونسو[1] وأصله من مدينة مالقا أرسل كمية من السلع إلى أراضي الدولة الزيانية من مدينة مالقة، وقبله كان تجار اسبانيا لا يتوقفون عن زيارة نواحي عمارة، والأراضي المجاورة لمليلة، وهنين، للقيام بالمبادلات التجارية.

كما تذكر الوثائق الإسبانية، أن حاكم المرسى الكبير، بعد احتلاله المدينة عمد إلى إقامة سوق بخارج أسوارها، كانت القبائل تتوافد عليه لشراء ما تحتاج إليه من السلع الإسبانية وبيع منتوجاتها الفلاحية وعلى الخصوص الحبوب، والجلود، والاصواف[2].

ومن القبائل التي كانت تتجر مع الإسبان، قبيلة قيزة التي قيل عنها، ولم يكن أحد أشد اعتناء بالاسبان وتحقق ما يحتاجون إليه من التبن والحشيش، والحطب والسمن، واللبن والعسل، والضأن والمعز، والبقر، والخيل والإبل، والبغال، والحمير، من جميع الاعراب الداخلين تحت حكمهم، فكانوا لا ينقطعون عنهم ليلا ونهارا رغبة لما لهم في ذلك من الثمن الكثير.

1- Gabllerllama Liezar , Malaga el commercia norte fricana , Micalas Madrid 1969 op cit , p188 Sources inédites d histoire du ,1517-1551,p183 Maroc t III , p5

2- انظر التقرير المرسل من قبل جون لوسا Juan Losa للامبراطور فرناندو الرابع Fernando IV مؤرخة في 1506 انظر ارشيف سيمنكاس Secretaria de estada lezajos .3 n232 F8

فهذا النص يوضح لنا بأن ازدهار المبادلات التجارية، بين هذه القبائل، والمراكز الاسبانية، تعود بالدرجة الأولى، إلى ارتفاع أسعار المواد التـــي كانـــوا يتجرون بها، وعلى الخصوص إذا كانوا في أشد الحاجة إليها.

وما يقال عن قيزة، نجده بالنسبة لتجار مزغران، الذين كانوا يتوجهون إلـــى وهران، لبيع منتوجاتهم الفلاحية، في حالة السلم لكن عندما يتخلون عـــن هـــذه المعاملة يتعرضون للغارة من قبل الحامية الاسبانية في وهران.

أما أهل قلعة بني راشد: فيقول عنهم المشرفي[1] حدثني بعض أهل المعسكر أنهم كانوا يأتونه لحاكم وهران، بالزرع المضروب عليهم، فيرده وكيله في وجوههم ويتعلل بعدم صفائه، ويلزمهم تبديله بما هو أصفى منه، فيأتونه له مرة أخرى وربما فعل بغير ذلك مرارا ولا يقبله منهم بعد ذلك حتى يرشون».

فهذا النص الذي أورده المشرفي نستخلص منه مايلي:

أولا: أن مدينة معسكر، والأراضي المجاورة لها من أغنى الأراضي فـــي إنتاج المحاصيل الزراعية، لذلك يكون هناك فائض في الإنتاج يتطلـــب تصديره، ومن أقرب المناطق وهران، التى يتوافد عليها تجار أوروبا لحمـــل هذا المحصول .

ثانيا: إن معسكر، وقلعة بنى راشد، من بين المناطق تعتبر علاقتها بين القوى المتصارعة في المنطقة، لذلك فهم مع العثمانيين ومع السعديين وأحيانا مع الإسبان، مما جعل موقف هؤلاء منهم يختلف عن موقفهم من القبائل العربية، وعلى الخصوص بنى عامر لذلك يختلفون لهم مشاكل عندما يأتون لبيع محصولهم الزراعي.

1- عن مزغران انظر رسالة أهالي مستغانم و مزغران و يهودها و المؤرخة في 1511/05/28 نشرها La Primaudaie IV 17-19 XIX 74-66.

ومن بين الذين يتجرون مع وهران: سكان أغبال الذين قال عنهم مرمول: " الأراضي المجاورة لأغبال، مسكونة من الأعراب فهم أغنياء بأراضيهم، ومواشيهم، وأن تجارتها مع وهران، ويتوقف استمرارالنشاط التجاري، على حفظ العلاقات الحسنة مع وهران".

والقبائل التى كانت تتعامل مع المراكز الإسبانية في كل من وهران، والمرسى الكبير، كانت تتحصل على رخص من الادارة الإسبانية، تسمح لها بمزاولة النشاط التجاري والدخول إلى المدينة، في حالة الحرب التى كانت تقوم بها الحامية الإسبانية، على القبائل المعارضة لها والقوة العثمانية لم تتوقف إسبانيا عند هذا الحد فقط بل كانت تعمل من أجل إحتكار تجارة المنطقة لصالحها مما جعلها تدخل في صراع مع الدول الأروبية التى كانت لها مصالح وفي924هـ امضيت ببلاد الوليد من قبل كلانصخوا ثم الملك كارلوس والملكة خوانة والكاتب العام للبلاط الملكي أما المناطق التى من هذه العلاقة هي قادس ونواحيها وبذلك قام مجلسها البلدي بمكاتبة الإمبرطور موضحا له خطر هذه العلاقة على التجارة وهو ما جعله يتصل بالدولة البرتغالية لاعادة إحياء المعاهدة التى أبرمت بين الدولتين حول تجارة التوابل والتى حررت بمدينة طليطلة قبل سقوط مملكة غرناطة في 885 هـ/1480/6/26.

كذلك توضح الوثيقة بأن نشاط البرتغاليين في موانىء المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية قد أزعج المدن الإسبانية مثل قادس نتيجة للمعاهدة التى أبرمتها البرتغال مع دول المغرب الإسلامي .

وفي سنة 1528، عمد شارل الخامس إلى تشجيع المبادلات التجارية، بين موانىء تجارية في المنطقة كجمهوريات إيطاليا وفرنسا و البرتغال.

فيما يتعلق بالبرتغال نجد ضمن وثائق مالقة نص المعاهدة التى أبرمت بين

البرتغال ودول المغرب الإسلامي الذين أطلق عليهم اسم مورو[1] وكان لها تأثير على تجارة إسبانيا وهو ما أدى بهذه الأخيرة إلى الاتصال بالبرتغال وإمضاء معاهدة مؤرخة في 1518/2/4/ بين إفريقية وإسبانيا، وعلى الخصوص في المنطقة الممتدة من غمارة إلى تنس[2].

المبادلات التجارية بين إسبانيا، والدولة الزيانية تأثرت بالحروب التى كانت تتخبط فيها الناحية، وهناك أمثلة كثيرة منها: أن قلعة بنى راشد[3] كان لها دور في تموين وهران «لأنها من أغنى بلاد الله زرعا وضرعا تعطى الميــرة «أي الطعام» لكل ناحية وهران، فكانت الحبوب تنتقل منها إلى كل مـــن المرسى الكبير، ووهران[4] إلا أن هؤلاء التجار توقفوا عن تمويل المراكز بعد سيطرة الحامية التركية على قلعة بنى راشد، وهو ما يؤكده صاحب كتاب غزوات عروج وخيرالدين « فلما تمكن عروج من مملكة تلمسان منع أهل القلعة من امداد النصارى بما كانوا يمدونهم فضاقت أحوال النصارى واشتد عليكم الأمر»[5].

ولعل وقف تموين وهران كان من أبرز الدوافع التى أدت بالسلطان الزيـــاني أن يجد قبولا من قبل ملك اسبانيا بتزويده بما يحتاج إليه من الجيش،

1- عن هذا انظر: F - Archivo de Simancas diversos de castilla numero 975 .16 - 18

2- انظر التقرير الخاص بالمجلس البلدي لمالقة والمؤرخ في 8/6/ 1529، و خاصة الفقرة المتعلقة بتشجيع المبادلات التجارية و تزويد وهران بما تحتاج له من المتطوعة و المواد الغذائية تحمل الوثيقة .A . E . Co R.el no 129 Co 7064 - 129

3- مؤلف مجهول: غزوات عروج و خير الدين، ورقة 29.

4- يذكر الحسن الوزان الذي زار المدينة خلال بداية القرن 10هـ/ 16 ان وهران تتزود بالحبوب من المناطق القريبة منها، انظر، وصف إفريقية، ج 2، ص 386.

5- لمؤلف مجهول: نفس المصدر، ورقة 29 .

لأن أبا حمو قال للإسبان لو بقي الأتراك بقلعة بني راشد فستكون النهاية للإسبان بأراضي الدولة الزيانية.

وأحيانا نجد هؤلاء الإسبان يعمدون إلى الإغارة على مضارب القبائل، والقرى أو المدن عندما يكونون في أشد الحاجة إلى المواد الغذائية، ونستدل على ذلك من خلال إحدى الرسائل التي ترجع إلى سنة( )[1]، ذكر صاحبها "بأن شيوخ أغبال لم يتقدموا إلى بيع وهران، لبيع منتوجاتهم الغذائية، ولهذا لا بد من إرسال الجند للسيطرة على الأعمال، لأن المدينة تحتاج إلى أكثر من خمسين ألف Fanogus حبوب[2].

ووهران تحتاج إلى المواد الغذائية، لأن القبائل العربية لم تصدر لها تلك المواد منذ ثمانية أيام، وأن المدينة تعيش ضائقة اقتصادية وإذا استمر الأمر على هذا الحال فإننا لا نجد ما نأكله، لايوجد إلا مائة ثور، وخمسمائة رأس من الأغنام، ولم يبق لنا من الحبوب إلاّ 244 Fanogus وهو ما دفعهم إلى أن يهاجموا تلك المدينة ليستولوا على ما فيها من المواد الغذائية.

كما نجد النشاط التجاري تأثر أيضا في سنة 1532/938 عندما استولى خير الدين على حصن البنيون وزيادة نفوذ الدولة الجزائرية بقيادة خير الدين، وهو ما تؤكده هذه الرسالة التي وجهت من قبل الكوديتي، إلى ملك إسبانيا المؤرخة في سنة 1534، طلب منه تزويده بثلاثة عشر ألف Fanogus من الحبوب، ومن مالقة، حيث توجد كمية لابأس بها عند أحد تجارها،

1- عن هذا انظر الوثيقة المتعلقة بتمويل وهران بالمواد الغذائية والمعاهدات العسكرية من مدريد والمتواجدة بـ:

A.M.M. Provissiones, Vol, XIV. F231-232.L.A. FRCE RES 120 CO 70-64

2- هو نوع من المكاييل المستعملة من قبل الاسبان خلال تلك الفترة Fanogus.

وكذلك ثلاثة آلاف كيل، لأن وهران في حاجة إلى الحبوب لضمان تموين الجيش الذي سيكلف بمحاربة القبائل المعارضة للاسبان[1].

وفي نفس السنة وبالتحديد في941هـ/11،9،1534 أخبر الكونت الكوديتي أنه توصل إلى حل مشكلة تموين وهران لأنـــه تحـــصل علـــى ثلاثـــة آلاف وخمسمائةFanogus من القمح ومـــائةFanogus شعير من عنابة.

فهذه الرسالة توضح بأن المبادلات التجارية لم تتوقف في موانئ الجزائـــر خلال هذه الفترة موضوع البحث، كما يبدو أن الحامية الاسبانية في عنابة التي انتقلت منها السفن المحملة بالحبوب دور في توجيهها لوهران[2].

كما أن تغير موالاة سلاطين الدولة الزيانية للاسبان كان له تـــأثير ســـلبي على المبادلات التجارية.

ففي رسالة للكوديتي المؤرخة في1536/942، والمرسلة للملك الاســـباني، ذكر له فيها أن تموين وهران في السنة الماضية كان ضعيفا على الرغم مـــن أن هذه السنة عرفـــت إبـــرام المعاهـــدة التجاريـــة بـــين الدولـــة الزيانيـــة، والامبراطورية الاسبانية، وأن هذه الضائقة دفعت بالجند إلى المطالبة بـــالعودة إلى قشتالة وأن ما يوجد في وهران لا يكفي حتى الضيق، لأن القبائل لاتصدّر محاصيلها الزراعية إلا بعد حصاد المحصول، ومما زاد الأمور خطـــورة أن القبائل المحيطة بالمدينة كانت عليها[3].

1- A.M.M. Privissions vol Xiv f 234-235 AFR. C rel 147 CO 7064-147

2- Arch de Simancas Estado, Legafa 462

3- Lettre du conte d' Alcaudete a sa majesté Oran -5 / 1536
Arch de Simancas Estado, Legafa p462

وهكذا نجد على الرغم من نجاح شارل الخامس في السيطرة على تـــونس فإنه يؤثر على وضعية الاسبان في كل من وهران والمرسى الكبيـــر بزيـــادة نفوذهم في المنطقة.

ففي نفس السنة أرسل الكوديتي رسالة مؤرخة في943هـ/1536/06/5م جاء فيها أنه يوم934هـ1536/05/25م وصلت سفن من عنابة إلى وهـــران محملة بالحبوب اشترى من تجارها Fanogus 3700 ثم كمية أخرى تقدر بـــ300 من نفس الكيل و500 شعير[1].

وهناك رسالة من الدكتور ورنيخا لملك اسبانيا يقول فيها: أنه ذهـــب إلـــى تلمسان تماشيا مع طلبه، وأنه يتوجه إلى الأمير عبد الله باسم ملـــك إســـبانيا، لشراء سلعة تقدر بـــ30000 دينار منها Fanogus 40000 من القمح بنفس الكيل، و60000 من الشعير بنفس الكيل ، وأنه سيقدم للأمير الزياني الأموال المتعلقة بتموين وهران[2] وفي رسالة من شارل الخامس إلـــى مـــا كـــسيملان المؤرخة في957هـ/ 1550/10/20م أخبر شارل الخـــامس بوفـــاة مـــولاي عبدالقادر، وذكر بأن مولاي محمد والمنصور بن غانم قدما لتلمـــسان ووافقـــا على تموين وهران بما يحتاج إليه من المواد الغذائية، لأن الحروب الدائرة في المنطقة أثرت على وهران كما أثرت على مليلة، وأن منطقة تـــسالة وقلعـــة بني راشد اللتين تمولان وهران والمرسى الكبير، توقفـــت القوافـــل التجاريـــة القادمة منها إلى وهران، لأن انعدام الأمن في الطرقات نتيجة للحروب أثـــرت على المبادلات التجارية[3].

1- هذه الرسالة توجد بأرشيف سيمانكاس Arch de Simancas Estado Legafa

2- Ibid, le Gafa 462

3- Casteies Srie Espagne T I P

أثرت فترة الحروب بين السعديين والعثمانيين سلبيا على العلاقة التجارية بين الاسبان وتجار الدولة الزيانية فالدارس لهذه الوثائق يجد معلومات قيّمة ضمن تقارير التجار الاسبانين المتوافدين على أراضي الدولة الزيانية فهناك تقرير من التاجر جون[1].

يذكر فيه بأن الأهالي كانوا يمنعون المعاملات التجارية مع المسيحين، على اختلاف جنسهم، وفي بعض الحالات يكون المنع مقتصرا على تجار اسبانيا فقط، وعلى الرغم من هذه العوائق التى كان من ورائها أعداء الأسبان، وعلى الخصوص العلماء ورجال الزوايا، الذين[2] قادوا المقاومة فإن النشاط التجاري قد استمر بين موانئ الدولة الزيانية، والاسبانية، مقابل دفع الضريبة الجمركية فالتجار الاسبان لا يزالون يتوافدون على النواحي المجاورة للمراكز البرتغالية، في المغرب الاقصى، وميناء هنين، وارشقول من موانئ الدولة الزيانية[3].

وهناك تاجر آخر يدعى بأن النشاط التجاري لم يكن ممنوعا، وأن السفن الاسبانية والفرنسية تتوافـــد على موانىء الدولة الزيانية، وفي بعض الحالات فإن السفن التجارية ترافقها سفن عسكرية للدفاع عنها في حالة تعرضها إلى عملية القرصنة، وعلى الخصوص عندما تكون تلك السفن موجهة نحو وهران، وهنين والمرسى الكبير، لتواجد الاسطول الجزائري بالبحر

1-عرفت فترة العصور الوسطى اشتداد الصراع بين العالمين الاسلامي و المسيحي و كان وراءها رجال الكنيسة بالنسبة للدول المسيحية و الفقهاء بالنسبة للدول الإسلامية مما جعلهم يصدرون فتاوى تتعلق بمنع بيع الاسلحة و الجياد و كل ما يستعمل في الحرب ، انظر العقباني ، المصدر السابق.

2- ورد في أرشيف ، سيمنكاس وثيقة هامة تقدر عدد مداخيل وهران ب 9900 دينار archiv C.S.negaciode setada n 461

3- nicalas Calrillam Ciegar : malaga el Comercio nort a Fricane 1517-1551 P 183 .

المتوسط فكان يعترض تلك السفن ويأسر تجارها، ويأخذ سلعها لتباع في ميناء الجزائر، وغيرها من موانئ الدولة الجزائرية.

وهناك تاجر آخر يدّعي في تقرير له: "بأن النشاط التجاري مع الأهالي كان ممنوعا على كل المسيحيين، ولكن ذلك المنع لم يطبق لأن النشاط التجاري استمر بين تجار الدولة الزيانية والمسيحيين، فالسلع تباع وتشترى في كل موانئ الامارة[1]". وأن المبادلات التجارية مع الأهالي كانت تجد معارضة من طرف المعارضين للدول المسيحية، لكن لهذه التجارة فوائد من ناحية تموين الجند عندما لا يستفيد تجار الدولة الزيانية بالمطالب التي تدعو إلى المقاطعة وعلى الخصوص السلع التي تستعمل من قبل الجند، مثل الجياد، والأسلحة وغيرها، وهو ما تؤكده مجموعة من النوازل الفقهية أوردها المازوني[2] والونشريسي ويؤكد هذا المنع التاجر فقد ذكر في تقرير أن التجارة ممنوعة عامة.

أما رحلة هؤلاء التجار في أراضي المغرب الاسلامي فيقول عنها أن التجار الذين يتنقلون من المغرب الأقصى يزورون سانتاكروز، وكذلك أراضي إمارة بني زيان، ثم بعد ذلك يتجهون إلى وهران، ومنها إلى قرطاجنة الاسبانية، كما يتوافد تجار بني زيان على موانئ اسبانيا الجنوبية[3]، ربما وحتى الموانئ الفرنسية والايطالية والبرتغالية. وفي بعض الأحيان كان

1- المازوني الدرر المكنونة ج2 ورقة.

2- الونشريسي، المعيار.

Fands Laget Maget Mari 465 F 415– 464 - 493 -3

الاسبان يمنعون المبادلات التجارية مع الدولة الزيانية، ففي اكتوبر1550 وصلت قافلة من تلمسان إلى وهران محملة بالسلع، وعند عودتها رفض حاكم وهران أن تعود محملة بسلع من وهران، بالرغم من أن حركة التجارة كان معمولا بها، والسكان يتنقلون إلى وهران للبيع وشراء السلع كما نقل تاجر آخر ويدعى غليروس Galers ألف Fanagas dtugas من مالقة ثم أراضي الدولة الزيانية ونفس البضاعة نقلها التاجر Fernandg Fedra وقدرت الكمية بـــ800 Fanagos.[1]

كما نقل تاجر آخر ويدعىantanieفي13 أوت ثلاثمائة من نفس السلعة[2] هذافيما يتعلق بالسلع التى نقلت من مدن جنوب إسبانيا، أما بقية الدول الأوروبية فيلاحظ أن تجار فرنسا كانوا يتوافدون على موانىء الدولة الزيانية لشراء العبيد المجلوبين من السودان الغربي مقابل الخمور التى كانت تتوفر في الفنادق وكذلك المنسوجات الحريرية والأغطية التى تأتي من باريس Paris ونربونnorbone ومنتبوليmantpellier ومرسيلية marasseille)[3].

كما كان تجار ميورقة يستوردون بدورهم العبيد من أراضي الدولة الزيانية فقد ذكرت إحدى الدراسات التى تناولت الوجود المغربي في ميورقة بأن حوالى ستمائة مسلم من أبناء المغرب ومنها أراضي الدولة الزيانية يتركون ميورقة ويعودون إلى بلدانهم بعد تحريرهم سواء بالموانىء المسيحية أوالإسلامية. واستمرت تجارة العبيد في المرحلة الأخيرة ففي سنة 896هـــ/

1- nicalas Calrillana CP CIT P186 .

2- Ibid P187

3- Felix Reynaud: Histoire du commerce de Marseille t 2. de 1291- et1430 . Paris 2 P256

1495 بيع أحد الأطفال وعمره أربع عشر عاما من وهران لتجار ميورقة[1].

وفي مالقا وجدت مجموعة من العبيد المسلمين من الدولة الزيانية منهم واحد من تلمسان وعمره خمسون سنة والآخر أربع عشرة سنة وثالث من وهران وعمره ثلاثة وعشرون سنة بيع لتجار البندقية[2] فتواجد هؤلاء العبيد في الأسواق الاوروبية خلال هذه المرحلة بالذات يرجع بالدرجة الأولى إلى كثرت الحروب التى عرفتها الدولة والتى أثرت سلبا على سكانها فبيع بعضهم إلى تجار أوروبا لكن هذا لم يكن يحدث في العصر الذهبي للدولة الزيانية حيث لم يكن يسمح بالاتجار بالمسلمين وقد طرح علماؤها نوازل تتعلق بالاتجار المسلمين وقد اتفقوا على تحرير تجارتهم.

يضاف إلى العبيد الذين نقلوا من أراضي الدولة الزيانية وأصلهم من أراضيها نجد مجموعة من العبيد نقلوا من الواحات الصحراوية والسودان الغربي.

من كل ما سبق يتضح لنا أن تجارة العبيد كانت متبادلة مع افريقيا طوال عصر الدولة الزيانية والدليل على ذلك أنه في سنة900هـ/1495م قام القرطاجيون بإبرام معاهدة تجارية مع الدولة الزيانية تتعلق بتحديد هذا النوع من التجارة مع الدولة.

- تجـــارة الـــذهب:

لم تكن تجارة العبيد هي التى تحتل المكانة الأولى بالنسبة إلى المبادلات التجارية مع الدول الأوربية بل نجد الذهب الذي علق السلطان الزياني عليه أهمية فقال لولا الذهب لم ينزل بلادي تاجر من غير تجار الصحراء الذيـــن

1- nicolas Calrillana: OP CIT P89 .

2- Ibid P97 .

يذهبون، بحيث يأتون بالتبر.

- **الأصــواف:**

ومن بين السلع التى تنقل إلى الدول الأروبية الأصواف و على الخصوص من المناطق التى اشتهرت بتربية المواشي كوهران وتنس وشرشال ومستغانم وأسعارها تختلف حسب النوعية والجودة.

يضاف إلى الاصواف الجلود[1] التى اشتهرت بها الدولة الزيانية نتيجـة لعاملين أساسيين :

أولا: ان الدولة الزيانية عرفت ازدهار دباغة الجلود[2] سواء في عاصمة الدولة تلمسان أو المدن الأخرى كوهران وهنين وقلعة بى راشد.

- **الحنابل:** كما نجد من بين السلع الحنابل التى اشتهرت بها بلدان المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية وتتميز بإختلاف ألوانها الزاهية منها ذات اللون الأحمر والأخضر والأزرق والأبيض وهذه الحنابل من مدينة وهران وتنسب للدولة الزيانية فكان تجار البرتغال يتوافدون على وهران للحصول على الحنابل من تجارها.

وحرية المبادلات التجارية مع وهران شجعها أمير تلمسان لأن القوافل التجارية القادمة من الواحات الصحراوية وجدت صعوبات في الدخول لتلمسان، نتيجة للحصار الذي فرضته القوة السعدية عليها، وحتى لا تتوقف الحركة التجارية أمر السلطان الزياني بتوجهها إلى المراكـز الاسبانية لبيـع

1-عن تجارة الصوف، انظر، DuFourcq de , L' Espagne catalane et le Maghreb . P 554

2- عن صناعة الجلود ، انظر العقباني: المصدر السابق، ص126.

ما تحمله مع سلع، حتى لا تتعرض للسلب، والنهب والمصادرة من قبل السعديين[1].

- المبادلات بين اسبانيــا والقبائل العربية والبربريـــة:

هذا فيما يتعلق بالعلاقات التجارية مع الدولة الزيانية، لكن هناك مبادلات بين اسبانيا والقبائل، المتواجدة بأراضي الدولة، حددتها بعض المعاهدات التجارية بين شيوخها وحكام وهران.

نجد هناك مجموعة من الوثائق تتعلق بالمبادلات التجارية بين وهران والقبائل العربية، مثلما هو الحال بالنسبة لهذه الوثيقة التى يعود تاريخها إلى سنة 1494/900 التى تتعرض إلى توافد تجار اسبانيا على القبائل المجاورة لكل من هنين، وهران، والمرسى الكبير، وتنس وأنهم كانوا يشترون السلع من تجارها، ويدفعون لهم السلع الأروبية، ويؤكد هذا الوزان عند تعرضه لبنى بوسعيد المجاورة لتنس.

- الاحتكار الاسبـــاني لتجارة الدولة الزيـــانية:

عرفت أراضي الدولة الزيانية خلال فترة موضوع البحث احتكار الاسبان لتجارتها الخارجية، وهذا ما نتوصل اليه من خلال الوثائق الاسبانية التى ذكرت لنا وجود علاقات تجارية بين موانيء اسبانيا، وبلدان المغرب الإسلامي ومن أبرز الموانيء الاسبانية، مالقة، التي كانت تحتكر النشاط التجاري:

تحتوى تلك المدينة على مجموعة من الوثائق تغطي فترة موضوع البحث: فالفترة الممتدة مابين1517/922-1518/923 عرفت مجموعة من الرحلات

1- عن الحصار الذي فرض على تلمسان من قبل الدولة السعدية ، انظر تكملة بغية الرواد، ليحي بن خلدون مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 2217 ورقة 96 ، و انظر ايضا الفصل الثالث من الباب الأول من هذه الرسالة ص 113-114.

للأسطول الإسباني، في اتجاه موانىء الدولة الزيانية، مثل ارشقول[1]، وهنين، ومستغانم[2]، وتنس[3]، وغيرها من موانىء الدولة.

ومن بين التجار الذين كانوا يتوافدون على هذه الموانىء جورد انجيلوا jord angule، لم يكن دوره مقتصرا على زيارة الموانىء، بل ربط علاقات بتجار الدولة للحصول على ما يحتاج إليه من السلع التى كان عليها الطلب في إسبانيا وهنين وهي السلع الآتية من السودان الغربي كالعاج والذهب والعبيد.

وهناك وثيقة يعود تاريخها إلى 1551/9/7/959[4] جاء فيها «إن التاجر غارسيا Garcia كان يقوم بنشاط تجاري مع أراضي الدولة الزيانـــية، وعلى الخصوص وهران التي اشترى منها مائة وخمسون[5]Cahices de trigo".

وهناك وثائق ترجع لنفس السنة1551/901 ذكر فيها أن تجار اسبانيا كانوا يشترون الزنوج القادمين من إفريقيا بواسطة القوافل التجارية القادمة إلـــى موانىء الدولة ومنها وهران، ومن هذه الأخيرة يُنقلون إلى الموانىء الجنوبية الاسبانية، ومنها إلى الأسواق الاسبانية، حيث يباعون لأصحاب الأراضي أو الأعيان الذين يستعملونهم للعمل في قصورهم. كما توجد مجموعة من الوثائق لبيع العبيد في أراضي الدولة الزيانية ومن بين هؤلاء الزنوج الذين نقلوا من هنين، مستغانم وارشقول إلى مالقا[6].

---

1 – عن أرشقول ، انظر الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ج ، 2ص .

2–نفسه، ج 2ص، يعلق عليها خلال الهجوم الاسباني سنة 1543 بأنها من أغنى مدن الدولة الزيانية .

3 – الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص.

4– Ibid P 264

5 –Catillana Nicolas OP .CIT .P266

6– Catillana :Op cit, P 266 .

وهناك من أصل وطني أي من أقاليم الدولة الزيانية من بينهم الأطفال والنساء، يؤخذون من أسرى الحروب التى كانت تتخبط فيها الدولة بين أمرائها وقبائلها وبين القوتين المتصارعتين على أراضيها، الاسبان والعثمانيين.

وضّحت لنا تلك الوثائق أسعار هؤلاء الأسرى فتقول: "هناك عبدة تعرف باسم فاطمة عمرها ما بين12و13 سنة بيعت إلى أحد الإسبان وتعرف باسم نلونمسا nlomsa بثمانين دينارا"[1].

وفي سنة 1551/11/27/958 بيع أحد العبيد من أراضي الدولة عمره ما بين خمس وعشرين وثلاثين سنة مع بنت له بمائة وعشرين دينار[2].

وهناك عبد عمره خمسة عشر من وهران، وفي سنة 959/ 1515، نجد تجارة العبيد تحتل أهمية كبرى في تجارة اسبانيا، وعلى الخصوص وهران والأراضي المجاورة لها، والقريبة من تلمسان، التى عرفت خلال هذه المدة مواجهة كبيرة بين السعديين[3]، والعثمانيين، وكانت سببا في إنهزام القوة السعدية في نواحي تلمسان، مما أدى إلى أسر عدد كبير من أفرادها، ولعل بعضهم بيعوا لتجار من الجالية اليهودية الذين احتكروا تجارة العبيد، فأخذوهم إلى وهران والمرسى الكبير، حيث بيعوا لتجار اسبانيا بها.

ولم يكن نقل هؤلاء لمالقة فقط، بل نجد المرية تحتوى على مجموعة من الوثائق تتعلق بالمبادلات التجارية ومنها تجارة العبيد، لكن هذا لا يقلل

1- Catillana :Op cit, P 269 .

2- Ibid P 267 .

3-عن هذه المواجهة، انظر الافرني : المصدر السابق رقم 17 .

مـــن مكانة مالقة التى كان دورها يشـــبه جنوة والبندقـــية في عصرهما الذهـــبي أي في العصور الوسطى[1].

ومن بين التجار الذين كانوا يتوافدون على أراضي الدولة الزيانية، جون مرتنا غنزالوا، ففي إحدى الوثائق ترجع إلى جون 1520/927 أهم ما جاء فيها أن مدينة مالقا يوجد بأحد مراكزها ستة عشر عبيدا نقلوا من أراضي الدولة الزيانية، وهناك واحد وثمانون شخصا أسروا من أراضي الدولة الزيانية، فنقلوا من وهران، بواسطة الأسطول الاسباني إلى مدينة مالقا وبيعوا في أسواق العبيد بالمدن الاسبانية[2].

هناك واحد وثمانون من العبيد نقلوا من وهران وأغلبهم من أسرى الحرب.

- دور سلاطين الدولة الإسبانية في تشجيع الحركة التجارية:

كان لملوك إسبانيا دورا في تشجيع المبادلات التجارية، بين أراضي الدولة الزيانية، والمراكز الاسبانية، في كل من وهرأن والمرسى الكبير، وهدفهم من وراء ذلك محاربة التهديدات العثمانية، حيث عمد الأسطول الجزائري إلى مراقبة حركة التنقل بين وهران والمرسى الكبير ومدن جنوب إسبانيا وإيطاليا.

كما عمد هؤلاء إلى محاربة القبائل التي كانت تتعامل مع الاسبان، بالقتل كل من يكتشف أمره بأنه يزود الاسبان بما تحتاج إليه من المواد الغذائية ونجحت هذه السياسة في بعض السنوات ونستدل على ذلك بمجموعة من

1- Catillana (Nicolas) OP .CIT .P 192 .

2- Ibid . P 193.

الرسائل والتقارير التى كانت ترسل من حكام وهران، إلى الامبراطور الاسباني منها.

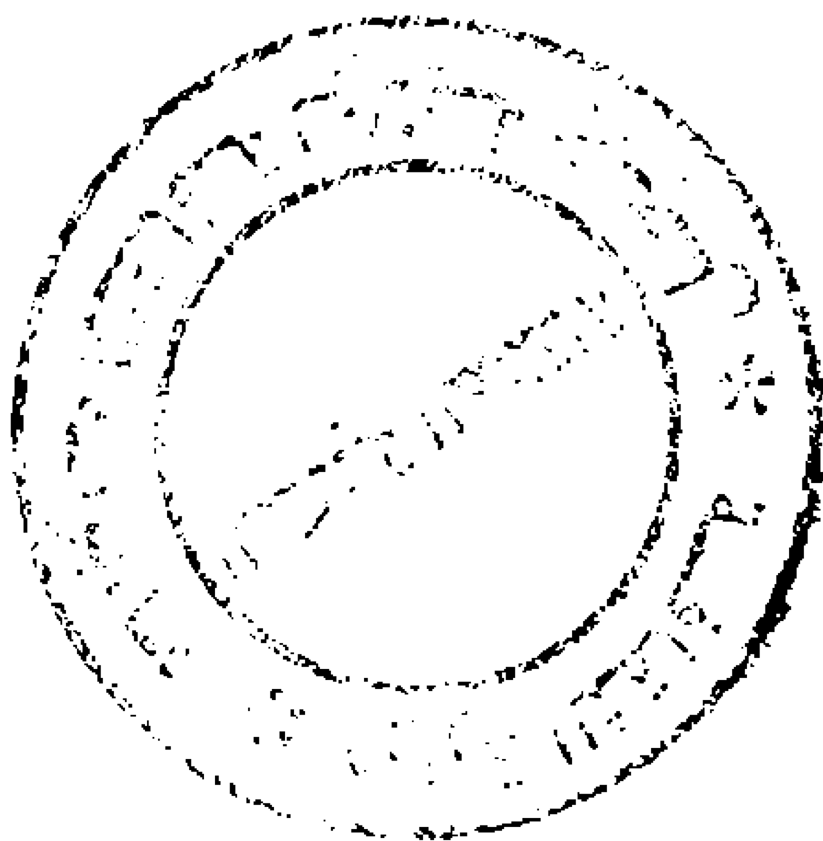
وفي1551 أخذ تجار إسبانيا من وهران مائة وخمسين شابا، ومن هؤلاء الذين يتوافدوان عليها التاجر sante Podr.

ومن بين الذين كانوا يحتكرون المبادلات التجارية غنزالوGonz her وعلى الخصوص بين موانىء الدولة الزيانية وميناء مالقا، وكذلك لويس مونداز غريسا Geacea louis mendz وقد قام بنقل الحبوب من موانىء هذه الدول إلى مالقا.

- المـــواد الغـــذائيـــة:

تعتبر تجارة المواد الغذائية من أبرز السلع التى كانت تنقل إلى اسبانيا خلال القرن السادس عشر وعلى الخصوص الحبوب، عندما تكون إسبانيا فـــي أشد الحاجة إليها لأن هجرة الأندلسين إلى دول المغرب الإسلامي قـــد أثـــر على الإنتاج الفلاحي في الجهة الجنوبية التى كانت ضمن أملاك دولـــة بنى الأحمر[1].

لكن بعض الحالات كانت اسبانيا تقوم هي الأخرى بتصدير الحبوب إلـــى أراضي الدولة الزيانية عندما تتعرض لكوارث البقول الجافة والخمور التـــى كان عليها الطلب في أغلب أسواق الدولة.



1- Catillana (Nicolas) Op .cit .P194 .

فكان الخمر ينقل من مالقة إلى المغرب الاوسط خلال هذه الفترة، كما نجــد أحد التجار ويدعي دون ماري القرضي donmari cardola نقل حوالــي 14.50 Foneges de trig.

الباب الثاني

الأحوال الثقافية

الـفـصـل الأول

الحـــالة العلميـــة والثقـــافية

يمكن تقسيم الحركة الثقافية التي عرفتها الدولة الزيانية في مرحلة انهيارها إلى فترتين.

تمثل هذه الفترة مجموعة من العلماء نقتصر على البعض منهم:

محمد بن مرزوق المعروف بالكفيف[1] ولد بتلمسان يوم الإثنين واحد ذي القعدة 824هـ/ 1427م و توفي بها سنة 901هـ/1495م.

من أبرز الشيوخ الذين تتلمذ عليهم أبو الفضل بن الإمام[2] وقاسم العقبـــاني[3] ومحمد العبادي[4] وأبو زيد بن مخلوف الثعالبي[5] وعبد الله المتولى، كما أجـــاز ابن حجر بالمراسلة.

درّس في تلمسان وتخرج على يديه مجموعة من علمـــاء المغـــرب الإسلامـــي والاندلس، يأتـــي في مقدمتهـم احمـــد بن داود والبلـــوي وابـــن عـــباس الصغيـــر[6] وابـــن غـــازي[7] وأبوالعباس الونشريسي[8] الـــذي روى عنـــه مجموعـــة من الفنـــون، لكن يبدو لي أنه لم يكن في مستوى ابن مرزوق

1- ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص75 والمرازقة كثيرون:منهم ابن مرزوق الخطيب.

2- ابن مريم: البستان، ص 64 والحفيد لعبدواو وكبيرا في الحركة الفكرية في تلمسان

3- نفسه، ص 147.

4- نفسه، ص 147.

5- التمبكتي: نيل الابتهاج ، ص .

المقري: نفح الطيب ، ج 5 ، ص 419.

6- ابن عسكر: دوحة الناشر ، ص 45.

7- نفسه، ص 47.

8- نفسه، ص 27.

الخطيـــب[1] والحفيد[2] اللذان عرفا كثيرا بغزارة الانتاج، أما هو فلم يترك لنا غير عمل واحد هو كتاب الحاوي[3].

ومن بين العلماء الذين عاصروه أحمد بن يحي بن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن الشريف قاضي الجماعة[4]. ترجم له السخاوي في كتابه "الضوء اللامع"، لكن ما يعاب على هذه الترجمة أنه لم يتعرض لمولده والعلوم التي تلقاها فـــي تلمسان وكذلك الشيوخ الذين أخذ عنهم وتأثر بهم بل اكتفى بقوله: " أنه تولى القضاء وما هو معروف لدينا أن هذا المنصب لا يتولاه إلا من كان بارعا فـــي العلوم الفقهية وهذا يوضح لنا بأنه زاول دراسته في تلمسان قبل انتقاله إلى المشرق وبرع في العلوم الفقهية والحديث والتفسير.

كما زاول بمصر دراستـــه وخاصـــة على السخـــاوي[5] الـــذي قـــال بأنـــه: " تتلمـــذ عليه وأنه أحبه كثيرا"، كانت وفاته886هـ/1461م-1462م أما مؤلفاتـــه فتمثلت في شرح الجمل للخويخي، وشرح البردة وشـــرح خليل علي بن الحاجب الأول وعلى العقيدة البرهانية، يضاف إلـــى هـــذا العالم الجليل ابن زكري[6] الذي اكتشف نجاحه ابن زاغو عندما كان يتعلم المهنة بإحدى ورشات الحرفيين بتلمسان.

لم يكن ابن زكري من العائلات ذات المجد العالي التي اشتهرت بكثرة علمائها، بل ينسب إلى الطبقة الفقيرة التي كانت ظروفها لا تسمح لها بمزاولة

1- ابن مرزوق: المصدر السابق، ص 68.

2- نفسه: ص 297.

3- ابن مريم: البستان، ص 97.

4- السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع 12ج القاهرة 1353 مجا1 ص 193

5- السخاوي: الضوء اللامع ، مجلد1 ، ص 166

6- ابن مريم: البستان ، ص38.

التعليم، لأن كل فرد من أفرادها كان يقوم بعمل ما، كـي يحصـل علـى مـا تحتاجه العائلة.

كان بين ابن زكري وبين السنوسي محاورات ومباحثات في علم الكلام. والشيخ ابن زكري يعتقد أن السنوسي من تلامذته فقيل ذلك للسنوسي، فقال والله ما حدثت عنه سوى مسألة واحدة.

وعلى الرغم من الاختلاف بين العالمين فإنه عندما توفي السنوسـي رثاه ابن زكري بقصائد على ما كان بينهما.

أما عن مكانة ابن زكري بالنسبة لعصره فقد قال التمبكتي[1]: "سألت شيخـنا أبا عبد الله محمد بن هبة الله[2] عنه فقلت له: "ما تقول في الشيخ ابن زكري ومقامه من العلم. فقال: " أما ابن زكري فلا يضار تحت جناحه".

وتبرز مكانته العلمية من خلال الدروس التي كان يلقيها على طلابه فعندما ينعقد مجلسه ويتصدر فيه للتدريس وحل المسائل التي كانت تستعصي على طلابه، ينقل ما ذهب إليه الأوائل فيها ويتعرض للرّد والقبول وبسط الأدلة والتصويب والتخطي ولا يقتصر على العقائد لتمكنه من آلات الترجيح والاجتهاد وبالجملة، فهو أحد أعلام المائة التاسعة ممن يقتدى بهم في المشارق والمغارب وتحمل إليه الرحلة، توفي بالطاعون سنة906هـ/1455-1456م[3].

ومن المعارضين له محمد عبد الكريم المغيلي، ولد في الثلث الأول مـن القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.

1- التمبكتي: نيل الإبتهاج، ص 340.
2- ابن عسكر: نفس المصدر، ص 116-117.
3- ابن مريم: البستان، ص38، ابن عساكر: نفس المصدر ، ص 117.

درس في مسقط رأسه على علماء تلمسان، فبرع في مجموعة من المعارف ثم برح *تلمسان قاصدا الواحات الصحراوية، فتوقف بتوات التي كانت لها* علاقة تجارية نشيطة مع تلمسان لارتباطها معها بواسطة القوافل التجارية، لذا لم تكن هذه الناحية مجهولة عن تلمسان.

أما فيما يتعلق بدوافع خروجه من تلمسان إلى الواحات الصحراوية فلم يتعرض لها الذين ترجموا له، لكن يبدو لي أن سوء أوضاع الدولة الزيانية وموقف سلاطينها كان سببا في خروجه من تلمسان، وكذلك موقف أمرائها المتأخرين من زيادة نفوذ الجالية اليهودية التي استبدت بشؤون الدولة لا في عاصمة[1] الدولة فقط، بل حتى بالواحات الصحراوية وقد خرجوا عن العلاقة التي حددها الإسلام لهم.

فاغتنم هؤلاء الضعف الذي أصبح يسود دول المغرب الإسلامي ومنها الدولة الزيانية لصالحهم فاحتكروا التجارة وشيدوا المعابد والقصور وارتداء الملابس الفاخرة وامتطوا الجياد التي تزين لجومها وسروجها بالذهب، وهو ما دفع المغيلي وغيره من علماء الدولة الزيانية أن يقفوا موقفا معارضا لليهود[2].

ويأتي في مقدمة الوسائل التي لجأ إليها، الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، فعارض يهود توات[3] وألزمهم الذل وقاتلهم وهدم كنائسهم مما جعل بعض أعلام توات وعلى رأسهم الشيخ العصنوني يوجهون له نقدا.

1- السليماني: الأعرج، زبدة الشماريخ ، ج3 ، ورقة 136.

2- الونشريسي: المعيار، ج2 ، ص 198-199.

3- التوات: تقع بالجنوب الغربي على ضفاف وادي الساورة بوسط الصحراء الجزائرية و أهم مدنها الآن أدرار عاصمة الولاية كما تضم عدة قصور و لمعرفة دور الجالية اليهودية بها، انظر الباب الأول للفصل الثالث من هذه الرسالة.

أما في تلمسان فقد وقف علماؤها إلى جانبه ومنهم، أبو عبد الله التنسي[1] الذي ردّ على المغيلي بكتاب مطول لخّص فيه جوابه للمغيلي ووافقه على ذلك الإمام السنوسي[2] الذي أرسل رسالة أهم ما جاء فيها:" من عبد الله محمد بن يوسف السنوسي إلى الأخ الحبيب أيده في عمله واعتبره في نطاق مبادئ الشريعة الإسلامية وأن الزمان تميز بالفساد وهو ما سهّل بروز اليهود وتخليهم عن ما كان يربطهم بالمسلمين".

كذلك يلاحظ السنوسي صاحب الرسالة بأن هذا الوقت تميز أيضا بسكوت العلماء عما يحدث في حواضر المسلمين وانعدام الغيرة عن الإسلام وقلة إيمان الناس[3].

وعندما وصل جواب التنسي ورسالة السنوسي، أمر المغيلي أتباعه فتسلحوا وقصدوا معابد اليهود وأمرهم بقتل من يعارضهم فتمكنوا من تهديم أغلب تلك المعابد ومنح لكل من قتل يهوديا مثاقيل من الذهب[4].

لم يتوقف عمل المغيلي على توات فقط بل توجه إلى إمارة مالي وبالتحديد نكدة فاجتمع بصاحبها الذي كان معتنقا للإسلام وساعده في نشر تعاليم الإسلام، مما جعل الناس ينتفعون به ويتخرج عليه مجموعة من طلبة العلم، تركهم بنكدة ينجزون ما بدأه هو. ثم توجه إلى بلاد كنورش التي اجتمع فيها بأمراء المسلمين في تلك النواحي وقد استمع هؤلاء إليه واستفادوا منه

1- عن جواب التنسي، انظر الونشريسي: المعيار، ج2، ص: 189، التنسي نظم الدرر العقباني، ص 32-33.

2- التمبكتي: المصدر السابق، ص 356.

3- ابن مريم: البستان، ص 223.

4- الونشريسي: المعيار، ج2، 188-201.

فـــي تسيير أمور المسلمين وهو ما دفع به أن يكتب لهم رسالة تتعلق بشؤون الدولة، استمدها من مبادئ الشريعة الإسلامية[1] .

لم يتوقف عند بلاد كنورش *بل* توجه *إلى* تكرور، وهي من *المراكز* التجارية فاجتمع بسلطانها محمد الحاج وجرى على طريقته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ألّف له رسالة أجاب فيها على مسائل طرحت عليه، وهناك بلغه مقتل والده بتوات من طرف اليهود الذين استعادوا مكانتهم بها بعد خروج المغيلي وزيادة نفوذ أنصارهم. تأسّف المغيلي من أهل توات الذين وقفوا موقفا سلبيا ولم يقدموا على حماية عائلته بعد معاقبة تجار توات بإمارته والقبض عليهم[2] .

لكن عمله هذا وجد معارضة من علماء تكرور وعلى رأسهم العالم محمـــد بن عمر لأن هؤلاء في رأيه لم يفعلوا أي شيء يعاقبون عليه، فرجع عن ذلك وأمر بإطلاق سراحهم ثم ترك تكرور[3] عائدا إلى توات.

ثم توجّه إلى المشرق وعندما وصل إلى برقة وصله نبأ زواج أحد رؤسائها بربيبته فبلغ ذلك المغيلي، فتوجه إليه فلما رآه وبّخه وقال: " يا ملعون خالفـــت الكتاب والسنة و إجماع الأمة فيما بيده"، فأشار إليه الشيخ بأصابعه فسقط رأسه عن جثته بمجرد إشارته إليه.

والشيء الذي يمكن التوصل إليه من خلال هذه الرواية أن المغيلي استمر في قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى في أصعب الظروف.

1الرسالة: مخطوطة، بالخزينة العامة بالرباط، رقم 1130.

2التمبكتي: المصدر السابق، ص 130.

3عن تكرور: انظر، رسالتنا الأحوال الإقتصادية و الإجتماعية للدولة الزيانية ، ص 297.

أما فيما يتعلق بإتصاله بالشيخ عبد الرحمن السيوطي[1] فإن صاحب هذه الورقات يقول: "بأنه دخل على السيوطي في مسجده فقال له: "ما معك من العلوم يا عبد الرحمن، فقال له: "أنا أحفظ أحاديث النبي(ص) من أولها إلى آخرها".

فقال له: "لعلك تكذب، فإن كنت صادقا فإني أسألك عن الأحاديث التي صحّ ورودها على الرسول فجعل ينص له على الحديث فيقول له: "لم يبلغني ثم يقوم حتى يحاور سارية من سواري المسجد ثم يقبل إليه ويقول حديث حتى أفاده بخمسمائة حديث وقد أقرّ السيوطي للشيخ عبد الكريم المغيلي بالفضل والعلم والولاية فأخذ منهما عن صاحبه الأوراد.

وعندما رجع من حجه هو والشيخ[2] اعمر وجد الشيخ عبد الكريم قرية من أهل التوات قد تعدّوا على ابن له فقتلوه وكان يجلّ الشيخ عبد الكريم ويخدمه فأخبره بقتل أهل تلك القرية لولده فقال له: "أقتل قاتله"[3].

ولكن المغيلي فضّل فيما بعد الاستقرار بتوات حتى توفي بها سنة 909هـ/ 1503-1504م.

وهكذا نجد بأن علماء الدولة الزيانية لم يكن تأثيرهم في أراضيهم فقط، بل إمتدّ أيضا إلى أجزاء كبيرة من أراضي العالم الإسلامي، وعلى الخصوص السودان الغربي الذي له علاقة بالدولة الزيانية وهذا منذ عصرها الذهبي حيث نجد العائلات العلمية بتلمسان وهي عائلة المقري التي اهتمت بالنشاط التجاري بين المنطقتين. لكن يبدو كان لها دور في نشر الثقافة الإسلامية بهذه المناطق

1- عن عبد الرحمن السيوطي: انظر الزركلي الأعلام مجلد ، ص 167.

2- تمبكتي: المصدر السابق، ص 130.

3- يوجد بزاوية كنتة أحد القصور يذكر سكان تلك الناحية أنه ممر و لم يعد تعميره لدعوة المغيلي عليه لأن سكانه هم الذين قاتلوا ابن المغيلي.

النائية، ومما يؤكد ذلك أن الرحالة ابن بطوطة يذكر من بين الذين رافقوه في توجهه نحو السودان الغربي أحد علماء الدولة الزيانية.

أما عن أثر المغيلي فالدّارس له يلاحظ عليه اهتمامه بأوضاع المسلمين والقضاء على الأخطار التي كانت محدقة بهم وعلى رأسها اليهود الذين أصبحوا يحتكرون كل شيء، وقد تحالف معهم بعض علماء الأمة أمثال قاضي توات الشيخ العصنوني وكذا أمراء بني زيان الذين تهمهم المصالح الذاتية بالدرجة الأولى، وقد أشار إلى التنسي في الإجابة التي أرسلها إلى المغيلي في توات ردا على رسالته.

من أبرز مؤلفاته "البدر المنير في علم التفسير" وهو خاص بتفسير القرآن وكتاب "مصابح الأرواح في أصول الفلاح[1]" وهو كتاب عجيب في كراسين أرسله إلى السنوسي وابن غازي كما شرح مختصر خليل سماه "النيل"، وله قطع أخرى من البيوع وغيرها، كما أنه قيل أنه شرح "ثلاثة أرباع المختصر وحاشية".

كما شرح بيوع الآجال من ابن الحاجب وسماه " فهام إلى الحال" وتأليف في الهيئات، ومختصر تلخيص المفتاح، ومفتاح في علم الحديث به أبحاث على النوري وشرح الجمل في المنطق ومقدمة فيه ومنظومة سماها "فتح الوافيات وثلاثة شروح عليها"، ومن المناصرين له محمد بن عبد الجليل التنسي[2] الفقيه العلامة الحافظ، قدرة الأدباء العالم الجليل، درس في البداية على علماء عصره

1- عن العصنوني: انظر التمبكتي، المصدر السابق، ص356.

2- المقري. نفح الطيب، ج2، ص574، وج195، ابن مريم ، البستان، ص208-22، السخاوي الضوء اللامع مجلد 8، ص120.

ومن أبرزهم أبي الفضل العقباني[1]، وابن مرزوق[2] الحفيد ومحمد النجار[3] والولي إبراهيم التازني[4]. والإمام أبو العباس[5] تولى تدريس التفسير والحديث والفقه والعربية، ولمكانته العلمية وصِف من قبل معاصريه السنوسي بالشيخ الإمام القدوة، عالم الأعلام الحافظ المحقق التنسي.

وبلغت شهرته المشرق، لأن ابن داود الذي سبق له أن زار تلمسان قبل أن يتوجه لزيارة الأماكن المقدسة سئل من قبل علماء المشرق عن علماء تلمسان فقال: العلم مع التنسي والإصلاح مع السنوسي والرياسة مع ابن زكري.

ومن بين علماء هذه الفترة محمد بن محمد بن أحمد بن أبي العيش الخزرجي التلمساني الذي اشتهر في علم الأصول والفقه والفتوى، نقل عنه المازوني والونشريسي مجموعة من النوازل تتناول قضايا مختلفة.

أما إنتاجه الفكري فتمثل في كتاب له يتعلق " بالأسماء الحسنى" يتألف من سفرين.

لكن أشهر علماء تلمسان في هذه الفترة التي سبقت القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي: محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي[6]، الصالح حسن[7] أبركان الذي انتفع به كثيرا وخاصة في ميدان التصوف كما، تتلمذ

1- ابن مريم، البستان، ص 82.
2- نفسه: ص 27-30.
3- نفسه: ص 143.
4- نفسه: ص 58.
5- نفسه: ص 134.
6- ابن مريم: البستان ، ص: 252.
7- نفسه: ص 329.

علـــى محمد بن توزرت[1] والقلصادي[2] الذي أجازه في جميع ما يرويه.

وعلم القراءات عن الشريف بن أحمد وعلم الأسطرلاب عن العلامة الحباك، والأصول والمنطق عن أبي العباس، والفقه عن الجلاب وأخيه التالوتي[3] وعلم التوحيد عن أبي الفتح الكناشين والصحيحين وغيرها عن الإمام عبد الرحمن بن حمو مخلوف الثعالبي والسلسلات وأشياء كثيرة عن الولي الصالح العلامة إبراهيم التارني.

وعن شخصيته، فهو آية في العلم والإصلاح والزهد والورع وكان يكره الكتابة للأمراء فإذا طلب إليه، كتب لهم حياءا، وأما أخوه التالونـــي فـقــال: "لا تكتب لهم، فيجيبه: كلفت به. ثم يعلن له الحياء فيقول له السنوسي[4]: "لا تستح من أحد وإذا دخل النار بالحياء دخلها".

وأما عن إنتاجه الفكري فإن أول مؤلفاته، شرحه "المستوفي على الحوفي"، ولم يبلغ من العمر سبعة عشر سنة، مما جعل الشيخ أبو الحسن أبركان[5] يتعجب منه ثم أمره بإخفائه حتى يكمل سنة ثلاثين لئلا تأخذه العين وقال لـــه لا نظير له[6].

ومن أبرز مؤلفاته أيضا " المختصر في المنطق" الذي توجد منه مجموعة

1- ابن مريم: البستان ،

2- نفسه: ص 60-73.

3- نفسه: ص 232.

4- ابن مريم: البستان ، ص 232.

5- نفسه: ص 240.

6- توجد المخطوطة بالخزانة العامة بالرباط في مجموعة تحت رقم417-249. و273 من ورقة1 إلى37.

منه في مكتبات وطنية وعالمية ومنها الخزانة العامة بالرباط[1] .

كما توجد في نفس الخزانة شرح "للمختصر في المنطق"[2] لنفس المؤلف ولعل الهدف من هذا العمل هو تبسيط عمله الأول، المختصر في المنطق، لكي تكون الإفادة جماعية. وفي ميدان التصوف ألّف كتابا على أبي الحسن الصغير، كما شرح السنوسي الأمية الجزائرية في التوحيد المسماة "كفاية المريد" لأحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي. كما ألّف السنوسي في تفسير القرآن من بين أعماله في هذا الميدان تفسير الفاتحة.

ومن بين مؤلفاته البرية عن غامض أسرار الصباغة المعدية وهذه الرسالة تبحث في أسرار الحديث الشريف المعدة بين الداء والحمية رأس الدواء[3] .

كما كتب أيضا العقيدة الصغرى[4] والمقامات السنوسية، أم البراهين في العقائد وهي عبارة عن مختصر مفيد يحتوي على جميع عقائد التوحيد ختمه بكلمتي الشهادة.

ولعل من أبرز من اهتم بهذا الكتاب الشيخ أبو العباس أحمد بن الأنصار أم البراهين[5] بعنوان "شرح بهجة الناظرين في محاسن أم البراهين".

1- المخطوط بالخزانة العامة بالرباط في مجموعة تحت رقم 427-249د، و2347-1966د، 2375-1072د.

2- يوجد المخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 863د، انظرالتمبكتي، المصدر السابق، ص 329.

3- ابن مريم: البستان ، ص 245-249.

4- مخطوط بالمكتبة الوطنية ، تحت رقم 682.

5- ابن مريم: نفس المصدر ، ص 245.

ومن مؤلفاته: توحيد أهل العرفان والمعرفة بالله ورسله بالدليل والبراهين[1] و" العقد الفريد في حل مشكلة التوحيد" وهو شرح الأمية الجزائرية، يضاف إلى ذلك "العقيد المختصر"، وشرح أسماء الله الحسنى.

كما ذكر لنا الهلالي أن عقيدة أخرى فيها دلائل قطعية رد فيه على من أثبت تأثير الأسباب العادية ومختصر حاشيته التفتراني على الكشاف وشرح مقدمة الجبر والمفاصلية لابن الياسمين وشرح جمل الخوجي وشرح مختصر ابن عرفة في المنطق ومن بين الكتب التي شرحها: شرح رسالة ابن سينا في الطب لم يكمل، وغاية المحاسن ومختصر الروض الأنف ومختصر بقية السالك وشرح المرشدة وشرح الأجرومية وشرح الخوجي في الكلام[2]

هذا فيما يتعلق ببعض مؤلفاته، أما فيما يتعلق بتلامذته فنجد منهم ابن الصعد[3] وبلقاسم الزواوي[4] وابن يحي ابن محمد وابن الحاج وأبو عبد الله بن العباس وأبو محمد القلعي، يضاف إلى السنوسي محمد بن أحمد بن النجار التلمساني، يجهل تاريخ مولده وحياته الأولى، لأنه يبدو أنه ولد بتلمسان وزاول بها دراسته على كبار علمائها مما جعله يبرع من المعارف.

ومن بين الذين ترجموا له، القلصادي الذي زاول دراسته عليه في تلمسان حيث قال عنه في رحلته: شيخنا وهذه الإشارة تؤكد على أنه كان حيا خلال زيارة الرحالة الأندلسي لتلمسان وأنه من بين مدرسيها حيث أخذ عنه مجموعة من المعارف.

1- مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 2231د، ضمن مجموعة من ورقة 27 إلى 38.

2- التمبكتي: المصدر السابق ، ص 230.

3- ابن مريم: البستان ، ص 251-252.

4- نفسه: ص: 247.

وفي نص آخر، يذكر القلصادي معارفه التي تتمثل في العلوم الشريعة مما سهل مهمة تولي الافتاء والإمامة بأحد مساجد تلمسان لأنه لا يمكن لأي عالم أن يتولى هذه الوظيفة إذا لم يكن بارعا في الفقه والتفسير و وصل إلى مرحلة الإجتهاد.

أما الكتب التي درّسها لطلابه فتتمثل في "مختصر خليل" و"أصول ابن الحاجب" و"إرشاد إمام الحرمين" و"تنقيحة الأليفة للمرادي" و"الجمل" وهي من المدونة.

ومن المعارف التي تلقاها القلصادي عنه، علم الحديث وخاصة حديث المشابكة وحديث الصيام وحديث الرحمة وهو ما يوضح لنا بأن علماء الجزائر في عصره كانوا يدرسون مواضيع معينة تتعلق بالأحاديث.

يضاف إلى ابن النجار، العالم الجليل ابن صعد. ولد ابن صعد بتلمسان ودرس بها على إبراز علمائها أمثال عبد الجليل التنسي والسنوسي.

- الهيئة العلمية بتلمسان وانتشار حركة التأليف العلوم الإنسانية:

*** الأدب:** من أبرز الفنون التي عرفتها تلمسان خلال هذه فترة موضوع البحث، العلوم الإنسانية وعلى الخصوص فنون الأدب، وأن الحروب التي عاشتها الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة أثّرت على الحياة الأدبية فنجد بروز الشعر الشعبي الذي خلد بعض الأحداث كاحتلال الإسبان لكل من وهران والمرسى الكبير والتنبؤ بسقوط تلك المراكز تحت ظل الإحتلال الإسباني، وكذلك الشعر الحر الذي كان امتدادا لما عرفته الدولة في عصورها الذهبية وعلى الخصوص في المناسبات الدينية كالاحتفال بالمولد النبوي[1] الذي كان

1- التنسي، المصدر السابق، ص 185، انظر، أيضا رحلة ابن عمار مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 706.

يحتفل به أهل تلمسان وبقية المدن التابعة لها احتفالا كبيرا وتلقى فيه القصائد الشعرية وأحسن مثال على ذلك ما حدث في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني وأبنائه من بعده[1].

كما أن الرسائل الموجودة بدور الوثائق الإسبانية وعلى الخصوص التي أرسلت من قبل أمراء الدولة الزيانية تدل على المستوى الأدبي الذي وصلته تلمسان عكس الرسائل التي أرسلت من قبل شيوخ القبائل البربرية والعربية نجد بها بعض الكلمات العامية التي كانت متداولة في تلك الفترة.

وكان للأندلسيين دورا بارزا في هذه النهضة الفكرية التي عرفتها تلمسان لأن أغلب الرسائل يغلب عليها الخط الأندلسي عكس الرسائل التي بعثت من قبل شيوخ القبائل البربرية والعربية، نجد أغلبها يغلب عليه الخط المغربي.

كما نجد من بين المواضيع التي أعطى لها الشعراء أهمية كبرى التصوف، فهناك مجموعة من القصائد تتعلق بالتصوف ومدح كبار المتصوفة في هذا العصر أمثال عبد الرحمن الثعالبي[2] ومحمد الهواري[3] وإبراهيم التارني[4] والشيخ السنوسي[5] ومحمد بن يوسف الملياني[6].

إضافة إلى التصوف نجد علماء اهتموا بفن جديد يتمثل في المنظومات، فكانوا يؤلفون كتبا في شكل قصائد شعرية يسهل على الطالب حفظها

1- قمنا بتصوير مجموعة من هذه الرسائل خلال آخر زيارة لنا لإسبانيا سنة 1919.

2- ابن مريم: البستان، ص 145.

3- نفسه: ص 53-85.

4- نفسه: ص 245.

5- نفسه: ص 74-57.

6- الصباغ: زهر البستان، ورقة 176.

مثل الأذكار[1] وقواعد اللغة العربية والفرائض والفلك وغيرها من الفنون.

كما توجد بعض القصائد الشعرية خصصها أصحابها للتغني بمناظر تلمسان الخلابة وبالخصوص شلالة الوريط وبعض المآثر العمرانية وقد تغنى بها الشعراء وعلى الخصوص العين الموجودة بداخلها.

وهناك قصائد تتعلق بأمراء الدولة الزيانية وبعض مواطني الدولة الذين كانوا بعد وفاتهم كالونشريسي أبي العباس وابن زكري وعمر السنوسي وغيرهم من علماء تلمسان.

والطابع السائد في تلمسان ومدنها وحتى قراها خلال هذه الفترة أن هناك من الشعراء من تغلب عليه الجانب العقائدي فكان يتغنى بالميلاديات والمدائح النبوية[2] والتضرعات والابتهالات والتوسلات[3] والحكم والمواعظ[4] لعل الدوافع في ذلك يرجع إلى عاملين أساسيين.

أولا: تأثير الحركة الصوفية في المجتمع الزياني التي شملت الجانب السياسي بقيادتها للمقاومة ضد الاحتلال الأجنبي ومعارضتها للذين يتعاملون مع القوة الأجنبية، وقوفها إلى جانب الفئات المحرومة في الأرياف التي تتعرض إلى الاضطهاد من قبل القوى المتصارعة واستبداد شيوخ القبائل وامتد تأثيرها إلى الجانب الثقافي[5] فكثرت المدائح الدينية والنبوية وكرامات الأولياء أو ما يعرف بعلم المناقب والاهتمام بالآخرة.

1- نفسه : ورقة 175.

2- رحلة ابن عمار ، ورقة 136.

3- نفس المصدر ، ورقة 137.

4- نفسه : ورقة 138.

5- عن هذه الأمراض ، انظر ، ابن مريم البستان ، مجموعة كبيرة من الصفحات.

ثانيا: أن الظروف السياسية التي عرفتها الدولة خلال هذه المرحلة جعلت الناس يتخذون نوعا ما الشعر الغزلي والإكثار من الابتهالات والتساؤلات إلى الله لعله يخرجهما من هذه الحالة المزرية التي زادت في شدتها كثرة الأمراض المعدية التي كانت تأتي على الأخضر واليابس[1].

ومن أبرز الأدباء الذين عرفتهم تلمسان خلال هذه المدة، محمد بن عبد الرحمن الحوفي[2] العالم الأصولي الشاعر أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الحوفي الفقيه التلمساني من أدباء النصف الثاني من القرن التاسع الهجري وأوائل العاشرة 15-16[3].

كان شاعرا لا يستهان به. توفي في شهر ذي القعدة 910هـ/1505م مدح السلطان أبا عبد الله محمد السابع بن أبي ثابت الثاني بقصيدة مطلعها:

أصبح الحزن من عطائك يحكى «» يوم الاثنين لا نام عطاء[4]

ومن شعره قصيدة يتغزل فيها ومطلعها:

إزداد النرن من عين نزل «» ودموع الشوق إن راق الغزل
أيغي ديمة و كافة «» أم تستعيب للنبوي منها النزل
لا بكت عيني و لا بغى البكاء «» ضرورتنا من فعلها إن لم تزل[5]

1- ابن مريم : نفس المصدر السابق ، ص 167.

2- ابن مريم : البستان ، ص 148-199-205.

3- حكم أبو عبد الله، محمد السابع، ابن أبي الثابت الثاني، ما بين سنة873-911/ 14688-1505، انظر Barges op cit P.

4- ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 199.

5- نفسه : ص 148.

هذا وللحوفي قصيدة جليلة رثى فيها إمام أهل التوحيد محمد بن يوسف السنوسي الحسني:

ما لمنازل أظنت أرجاؤها ... والأرض رجت خاب رجاؤها
وأني عليها النقض من أطرافها ... وتراكمت وتعاطلت أزوارها
وزر عظيم خطبه و مصيبة ... لم تدرك بالقوم كف غراؤها
فقد السنوسي الإمام محمد ... وهو ابن يوسف هذا منها خلاؤها
فقد كان بحر المعارف زاخر... فإنجاز عنها حين بث عطاؤها
دعا إلى التوحيد دعوة مخلص ... وإلى الشريعة قادرنا خباؤها
يا أيها النفس المقدسة التي ... لبقائها المحمود كان بناؤها
يا واحد العلماء بعلمائه ... كل العلوم بدت لنا إتخذوها

ومن بين الذين اشتهروا في ميدان الشعر أيضا حدو بن الحاج الذي اهتم بالمدح، فألف منظومات في مدح النبي(ص) وتوسلات سور القرآن من أوله إلى آخره.

*** علم التوحيد:**

من أشهر العلماء الذين ألفوا في علم التوحيد والذين تأثر بهم علماء تلمسان أو عاشوا على مؤلفاتهم ولم يأتوا بجديد، محمد بن يوسف بن عمر شعيب السنوسي قال عنه الملالي: " كبير علمائها الإمام العلامة المتفاني الصالح الزاهد ولي الله بن الشيخ الصالح الزاهد الخاشع أبي يعقوب[1]، أخذ علم الحديث عن أبي الفاتح الكناشي"[2].

1- الملالي: مناقب السنوسي مخطوط بخزانة ، محمد البشير ، بالبرج ولاية معسكر ورقة 6.
2- نفسه : ورقة 6.

يتعرض السنوسي إلى الدوافع التي جعلته يؤلف في ميدان التوحيد. فقد كتب عقيدته المسماة بعقيدة أهل التوحيد ثم وضع لها شرحا عرفه باسم عمدة أهل التوحيد[1]. وفي مقدمة هذا الكتاب يربط ضعف التعليم بضعف الدولة الزيانية فيقول: "والملكة في زماننا هذا قد تمكنت من القلوب حتى.. من حسن الاستماع عن أنفسهم والإنتفاع لما تراكم عليها من ظلمات الفتن[2]".

كما أن السكان في عصره كانوا يلجؤون إلى الوسائل المادية وهو ما جعله يعلق على ذلك بقوله: والعوائد التي قادت إلى كل بلية وإنما الذكي اليوم مثالا في الغالب يحب الدنيا يسعى إليها وعدم الامتثال للآخرة وليس أهل لأن يتقيدون أو يقاد شيئا من نفائس العلوم الفاخرة[3] فالضعف الذي عرفته الدولة الزيانية نتيجة للاضطرابات هو الذي دفع بالناس إلى الاهتمام بالجانب المادي أكثر من الجانب الروحي. عندما ألف السنوسي عقائده أنكرها كثير من علماء وقته وعلى الخصوص في تلمسان فتكلموا بما لا يطاق فكثر تغيره لذلك.

وعقيدته الكبرى[4] أول ما صنفه في التوحيد وشرحها في ثلاثة عشر كراسة والصغرى شرحها في ستة[5].

والهدف من التأليف والشرح هو أن يستفيد منها أغلب الناس وأن لا تكون حكرا على كبار العلماء أو من لهم دراية في علم التوحيد[6] كما شرح

1- توجد نسخة، منها مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم630-632.

2- نفسه: ورقة 4.

3- السنوسي: عقيدة أهل التوحيد، ورقة 3.

4- الملالي: المصدر السابق، ورقة9.

5- الملالي: المصدر السابق، ورقة 10.

6- نفسه : ورقة 11.

السنوسي الأمية الجزائرية في التوحيد المسماة كفاية المريد لأحمد بن عبد الله الجزائري الزواوي، ت 884هـ/1472م[1] وعرف هذا الكتاب "بالعقد الفريد في حل مشكلة التوحيد" ومن بين مؤلفات السنوسي في هذا الميدان "كتاب أم البراهين" في العقائد وهو عبارة عن مختصر مفيد يحتوي على مجموعة عقائد التوحيد ختمه بكلمتي الشهادة.

وهناك رسالة تتعلق بالموضوع سماها "توحيد أهل العرفان ومعرفة الله ورسله بالدليل والبرهان"[2]، وقد اهتم الذين جاؤوا بعد السنوسي بما كتبه في ميدان التوحيد ومن بين هؤلاء تلميذه الملالي الذي قال عنه: "وله عقيدة أخرى فيها دلائل قطعية رد فيها على من أثبت تأثير الأسباب العادية ومختصر حاشية التفراني على الكشاف وشرح مقدمة الجبر والمفاضلة لابن ياسين من الذين اهتموا بعلم الفلك قبل هذه الفترة من التلمسانيين محمد بن أحمد أبي يحي التلمساني عرف بالحباك[3]".

من أبرز مؤلفاته بغية الطلاب وقد شرح السنوسي هذا الكتاب وألف مقدمة اعتنى العلماء قديما وحديثا بهذه الصناعة ورتّب كل واحد ما لديه فيها من بضاعة فألفوا فيها رسائل كثيرة وقد اختلفت أغراضهم بين الإيجاب والإطناب وربما كان من بعضهم حشو أو سباب[4].

1- يوجد الكتاب مخطوط بالمكتبة الوطنية ، تحت رقم 1846.

2- الملالي : المصدر السابق، ورقة 11.

3- ابن مريم: البستان ، ص 141.

4- توجد مخطوطة بغية الطلاب في المكتبة الوطنية و قد علمت من محمد بغلي أنه بتحقيقها لنشرها.

فهذا النص يوضح لنا أن خزائن تلمسان كانت تحتوي على مجموعة من المؤلفات في هذا الموضوع ولعل بعضها كان يدرس من قبل الحباك الذي أخذ منه السنوسي هذا الفن.

ولعل من أبرز ما كتب في الموضوع هو كتاب ابن الحباك "بغية الطلاب" الذي قدم له السنوسي شرحا عرفه باسم "عمدة ذوي الألباب ونزهة الحساب"[1] في شرح بغية الطلاب في علم الأسطرلاب وقد علّق عليه بقوله: "وأحسن رسالة رتبها في هذه الطريقة الجليلة وأقربها للحفظ وأجمعها للمعاني الكثيرة في الأحرف القليلة الرسالة المسماة ببغية الطلاب في علم الأسطرلاب التي ألقاها أبو عبد الله محمد بن الحباك[2] وقد جعلها منظومة ليسهل حفظها".

يبدو أن هذه الكتب من أبرز الكتب في علم الفلك المتداولة، أما في الميدان اللغة العربية فنجد من بين التلمسانيين الذين كانوا يذرسونها سيدي حدو بن الحاج بن سعيد المناوي الذي درس الأجرومية وألفية ابن مالك[3].

وأما زيان أحمد بن يوسف فقد قال عنه ابن مريم: "اشتهر باليد الطولى في العربية منفردا بمعرفة كتاب الرضى على الكافية كما درس اللغة العربية في مدارس تلمسان عمر الراشدي.

يضاف إلى هؤلاء محمد بن محمد التلمساني الذي كتب أبحاثا في النحو ومن بين مدرسي العربية أيضا محمد بن الحاج المكي أمزيان الذي درس ألفية مالك والأجرومية[4].

1- ابن مريم: المصدر السابق، ص 141.
2- التمبكتي: نيل الإبتهاج ، ص 47.
3- ابن مريم: البستان ، ص 256.
4 نفس المصدر: ص 284.

* التفسيـــــر:

أما فيما يتعلق بتفسير القرآن فنجد من بين المفسرين أحمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو المغراوي التلمساني الذي ألف كثيرا في هذا الميدان ومنها تفسير سورة الفاتحة في غاية الحسن ومقدمة في تفسير الفاتحة.

ومن بين المفسرين التلمسانيين محمد بن أحمد ابن مرزوق الذي فسر القرآن لتلامذته خلال دروسه.

* الفــرائــض:

إضافة إلى التفسير نجد علم الفرائض الذي عرف تطورا ومن أبرز المؤلفات في هذا الميدان فرائض ابن التلمساني الذي شرح من قبل الإمام العضوني.

كما ألف في هذا الميدان حدو بن الحاج ومحمد بن الحاج، كما ألف كتبا عديدة تعلق معظمها بالفقه المالكي أصوله وفروعه ومن أبرزها "المنهج الفائق والسهل الرائق والمعني اللائق بأدب الموثق وأحكام الوثائق"[1]، "غنية المعاصر والتاسي في شرح فقه ووثائق عبد الله القشتالي"[2] "إيضاح السالك إلى قواعد الإمام مالك"، "وعدوة البروق في تلخيص ما بين المذاهب من الجمع والفروق". خصص بعض المؤلفات لكبار علماء الفقه المالكي من التلمسانيين أمثال المقري الجد الذي أطلع عليه أبو العباس صاحب كتاب نفح الطيب كما أكمل وفيات ابن قنفذ القسنطيني[3] التي خصصها لعلماء المذهب المالكي حتى نهاية

1- ابن مريم: البستان ، ص 262.

2- التمبكتي: نيل الإبتهاج، ص 259.

3- حقق وفيات الونشريسي حاجي بالرباط.

القرن التاسع الهجري/الخامس العشر الميلادي، أي قبل وفاته بفترة زمنية قصيرة.

ومن بين العلماء الذين أنجبتهم تلمسان في ميدان الفقه المالكي أبو عبد الله محمد بن موسى الوجديجي التلمساني علق عليه ابن مخلوف فقال عالمها ومفتيها ومن أكابر أوليائها وصدور فقهائها الإمام الذي لا تأخذه في الله لومة لائم[1].

من أبرز شيوخه السنوسي وطبقته وبذلك يكون قد تأثر بالفكر الصوفي لأن ابن مخلوف يقول من أكابر أوليائها(تلمسان)[2]. كما أخذ عن عبد الله بن جلال وهو من علماء تلمسان.

*** العلوم الدينية:**

من أبرز العلوم الدينية التي عرفت شهرة في تلمسان خلال هذه المرحلة والتي كانت امتدادا للمرحلة التي سبقتها.

- أولا: الفقه:

من أبرز علماء تلمسان في هذا الميدان أبو العباس الونشريسي الذي كان ابن الغازي يعترف له بالتفوق في الفقهيات وقد مر به يوما في مجلسه بالقرويين فقال لمن حوله من الفقهاء: " لو أن رجلا حلف بطلاق زوجته إذ أن أبا العباس الونشريسي أحاط بمذهب مالك أصوله وفروعه، لكان بارا في يمينه"[3].

1- عن المقري: انظر ، أبو العباس ، المقري ، نفح الطيب ، ج7 ، 129-221.

2- عن ابن مخلوف: انظر مريم ، ص 154.

3- ابن عساكر: دوحة ، الناشر تحقيق حجي ، 1397-1977 ، ص 47.

أما المنجور[1] فقال عنه في فهرسته: " أنه لما لازم تدريس الفقه يقــول من لا يعرفه أنه يعرف غيره وكان فصيح اللسان والقلم ولم يكن مكثرا لما قاله الذين سبقوه بل أضاف إلى أرائهم ويتجلى لنا ذلك في مؤلفاته التي يتقدمها كتابه المعيار الفتاوي[2] علماء إفريقية والأندلس والمغرب وقد استفاد فيه من خزانة قاضي فاس ولا سيما فتاوى فاس والأندلس"[3].

أما فتاوى إفريقية والمغرب الأوسط فنقل بعضها من كتاب أستاذه المغيلي[4]، كما أخذ عن البرزلي وله تعليقات وإضافة على تلك الفتاوى وهناك أسئلة أجاب عنها بنفسه وهذا يوضح لنا المستوى العلمي للونشريسي في ميدان الفقه المالكي[5].

أما الذين تخرجوا عنه فهم أحمد البجاوي ومحمد بن يحي المديوني ويحي بن عمران الزواوي ويحي الونشريسي ومحمد عبد الرحمن بن حلال ومحمد بن شقروان ابن هبة وأغلب هؤلاء التلاميــذ من الذين اشتهروا في ميدان الفقــه وكان حيا سنة 950هـــ/ 1543م[6].

ومن بين الذين يشار لهم في ميدان الفقه المالكي أبو جمعة المغراوي الوهراني الذي أصدر فتوى تتعلق بالجالية الأندلسية تدل على كثرة اطلاعه بعلوم الدين وعلى الخصوص الفقه وأصوله[7].

1- نفس المصدر: ص 27.

2- ابو العباس الونشريسي: المعيار، ج1 ، ص 9.

3- يحي المغيلي: الدرر المكنونة، ج 2، ص 237.

4- توجد هذه الإجابات في أغلب أجزاء كتاب المعيار.

5- ابن مريم: البستان، ص 54-280.

6- نفس المصدر: ص 82.

7- الزياني: المصدر السابق، ص 37.

كما ألف كتابا عنوانه: "الجيش الكمين في الرد على من يكفر المسلميـــن"[1] ومن بين هؤلاء الفقهاء الذين عرفتهـــم تلمسان خـــلال هذه المـــرحلة محمد بن العباس التلمساني عرف بأبي عبد الله كان من الفقهاء نحويا عالما وهـــو ابن الإمام المحقق العلامة ابن العباس[2].

تتلمذ عن الإمام السنوسي وابـــن مرزوق الكفيـــف والحافـــظ التنســـي وابن زكري وغيرهم، وبفاس درس عن ابن غازي[3].

من مؤلفاته مجامع وفوائد، رواية وأبحاث ـ كان حيا 920هـــ/1519م ـ ومن بين الذين اشتهروا في ميدان الفقه أبو الحسن علي بن محمد التاولوني الأنصاري التلمساني الفقيه العالم الجليل.

ومن بين هؤلاء محمد بن أحمد بن أحمد ابن أبي العيش الخزرجي التلمساني الفقيه الأصولي له فتاوى بعضها في المعيار وتأليف كبير فـــي الأسماء الحسنى في سفرين سنة911هـــ/1505م[4] يضاف إلـــى هـــؤلاء ابـــن زكري الذي شرح ورقات إمام الحرمين أبي المعالي في أصول الفقه ولـــه فتوى منقولة في" المعيار والدرر المكنونة في نوازل مازونة".

يضاف إلى هؤلاء الذين اشتهروا في ميدان الفقه سليمان بن الحسن البوزيدي الشريف التلمساني أبو ربيع الذي قال عنه القلصادي في رحلته كان سليمان البوزيدي فقيها إماما عالما بمذهب مالك وبفقهه[5] وذكر ابـــن غـــازي

1- يوجد الكتاب مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 700د.

2- ابن مريم: نفس المصدر السابق، ص 259.

3- نفسه: ص 159.

4- نفسه: ص 252-253.

5- نفس المصدر: ص 105.

في فهرسته بأنه الفقيه العالم المحقق، الشريف الحسب والنسب، قال عنه الونشريسي شيخ شيوخها الفقيه المحصل المحقق له ابتكارات في الفقه.

كما اهتم بالفقه محمد بن أبي العيش الخزرجي[1] التلمساني الفقيه الأصولي أبو عبد الله من فقهاء تلمسان الأجلة وعلمائها الأهلة له فتاوى نقلها الونشريسي في معياره.

ومن ألّفوا في الفقه محمد بن عبد الرحمن بن جلال[2] الوهراني قال عنه المنجور: " كان فقيها علامة مشاركا في كل فن موحدا مكتبا خطيبا استفدت منه في العقائد والفقه والحديث".

- علم الأصول والحديث:

يعتبر هذا العلم من بين العلوم التي عرفت إقبالا من قبل التلمسانيين وقد أدخل علم الأصول إلى المغرب الإسلامي الذي تلقى شطرا من تكوينه على علماء الأصول، فنقل العلم إلى مراكز المغرب الإسلامي عند عودته من المشرق.

ومن أبرز المدارس التي كانت تدرس في مدارس الدولة الزيانية ومساجدها جمع الجوامع لتاج الدين عبد الوهاب السبكي771هـ/1370م وكذلك ابن عرفة ت 803هـ/ كما اهتم علماء تلمسان بعلم الحديث ومن بين هؤلاء أحمد بن محمد بن يعقوب العجسي منها شرح مختصر خليل وله تعليق لطيف على البخاري في نحو عشرين كراسا اقتصر فيه غالبا على ضبط الألفاظ وتفسيرها[3].

1- نفسه: ص 106.

2- نفسه: ص 253.

3- ابن مريم: البستان، ص 210-207.

وقد ألف الونشريسي أبوالعباس في الحديث وله تعاليق على ابن الحاجب الفرعي ثلاثة أسفار[1].

أما سيدي حدو فقد درس رسالة أبي زيد القيرواني ومختصر ابن الحاجب الفرعي كما اهتـــــمّ بالحديث في تلمسان زيان بن حمد بن يونس الذي أخـــذ مختصر الشيخ خليل والمطول وحاشيته وشرح المحلبي على جمع الجوامع للسبكي[2].

كما اهتمّ بالحديث محمد بن أحمد بن مرزوق الذي درس تفسير صحيح البخاري[3].

يضاف إليه محمد بن الشرقي الذي حفظ مختصر ابن الحاجب الفرعي ورسالة ابن أبي زيد القيرواني[4] كما اهتمّ بالحديث محمد بن عبد الله بن الحاج بن سعيد الناوي[5] الذي ألف مختصر لأبي زيد القيرواني.

ومن بين الذين درسوا الحديث محمد بن الحاج المكنى أمزيـــان حفـــظ ابـــن الحاجب ورسالة ابن أبي زيد القيرواني.

ومن بين هؤلاء ابن زاغو[6] الذي قال في شأنه القلصادي قرأت عليه صحيح البخاري كله من أول صحيح مسلم.

1- ابن عساكر: دوحة ، الناشر ، ص52.
2- ابن مريم : البستان ، ص 95-267.
3- نفسه : ص252.
4- نفسه : ص201.
5- نفسه: ص 284.
6- ابن مريم: البستان ، ص 42-43.

يضاف إليه عبد الجليل التنسي[1] الذي له تعليق على ابن الحاجب كما اهتم بالحديث محمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الكفيف[2] الذي شرح المختصر لابن الحاجب ودرس صحيح مسلم والبخاري، كما أعطى أهمية لمختصر ابــن الحاجب الأصلي والفرعي والتهذيب وبعض الخوخي وغيرها.

- التصــوف:

يعد التصوف في هذه الفترة من أهم العلوم الدينية التي حظيت بأراضي الدولة الزيانية باهتمام كبير وعلى الخصوص التقاليد والرسائل والدراسات المتنوعة.

وبالرغم من كثرة هذه المصادفات في خزائن أمراء الدولة الزيانية فقد كان إقبال الناس على كتب التصوف من أعز ما يقتنيه الدارسون والهواة من جامعي الكتب ولا سيما من أنصار الطرق الصوفية.
وفيمايلي نذكر بعضا من المؤلفين والمؤلفات في التصوف.

أولا: أحمد زروق 899هـ/1493م[3] الذي اعتبر ركيزة من حيث الإقبال عليه من قبل الدارسين وعلى الخصوص عندما استقر ببجاية فتوافد عليه مجموعة من طلبة العلم وفي مقدمتهم محمد بن يوسف الملياني[4].

ثانيا: محمد بن علي الخروبي[5] سنة 956هـ/1557 عاش في الجزائر وكان مغرما بجمع الكتب واقتنائها وقد تأثر بن مرزوق وعلى الخصوص

1- نفسه: ص 221-284-249.
2- المقري: نفح الطيب ، ج2 ، ص 693 ، و ج4 ، 320 ، و ج5 ، ص 418-419.
3- التمبكتي: المصدر السابق ، ص 84.
4- الصباغ : المصدر السابق ، ص 14 ، و أبعدها.
5- لمزيد من المعلومات انظر، أبو القاسم سعد اللهتاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص504.

فـــي كتابه" الدرة الشريفة" في الكلام على أصول الفقه.

كما ألف في الطريقة الشاذلية التي هي في نظره تعتمد على ثلاثة أصول:

أولا: أن يلتزم بسلوك الطريقة والتمسك باليقين والابتعاد عن مخالطة الناس والافتاء بشيوخ الطريقة العارفين واتباع تعاليم السنة قولا وفعلا والابتعاد عــن مخالطة الناس في سرائه-الرضا مما قسّم الله قليلا أو كثير- الاستنجاد بالله فـــي الشدّة.

ومن بين الذين تأثر بهم في ميدان التصوف أحمد بن يعقوب العجيسي الشهير بالعبادي[1]، قال في شأنه ابن مريم، له فوائد عديدة وتحقيقات مفيدة لاسيما في التصوف فقد نظر بمعرفته وبجودة التأليف فيه.

ومن بين ما ألف شرح المراصد في التصوف لشيخه أحمد بن عقبة وكتاب "النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية: ومختصر إعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكن"، وكتاب "القواعد في التصوف وكتاب "عدة المريد الصديق من أسباب المقت في البيان الطرق وذكر حوادث الوقت" وهو كتاب جليل في موضوعه به مائة فصل بيّن فيه البدع التي يفعلها فقراء المتصوفة وشرح نظم ابن البناء في التصوف.

ومن بين الذين اهتموا به أحمد التمبكتي الذي قال عنه أنه آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين بين الحقيقة والشريعة، كما ألف في التصوف أحمد بـــن محمد بن محمد بن يحي المعروف بابن حيدة المديوني الوهراني، أخذ التصوف عن ابن تاغزوت.

1- ابن مريم: البستان، ص 200.

أضاف إليه سعيد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن بلعيش المقري الذي أخذ عن حاجي الوهراني لباس الخرقة الصوفية كما أخذ التصوف عن علي بن يحي السلكستني.

ومن بين الذين أثروا في ميدان التصوف عبد الله المناوي الذي أخذ عن محمد بن بلال القراءات السبع والتصوف وأخذ عنه اليعقوبي التصوف، وكتب ابن عطاء الله كلها.

وذكر ابن مريم بأن محمد بن بلال قال: "وجد في يوم بالجامع الأعظم من تلمسان يقرأ كتاب التنوير أسقاط التدبير فقال لي: "من أمرك أن تقرأ هذا الكتاب؟، فقلت له: تبركاته، فقال: نعم، قرأته أنا على سيدي أحمد بن الحاج فقرأت عليه شيئا من التنوير، ثم قال لي: قد أجزتك قراءته، ودعا لي بالخير ففتح الله لي، ثم قرأت الحكم فحفظتها كالفاتحة وجعلتها وردا أقرأها كل يوم صباحا ومساءا ففتح الله لي في ابن عباد، وكتب ابن عطاء الله كلها وكتب أحمد زروق الإثني عشر".

- الهجرة الخارجية لعلماء تلمسان:

هذا فيما يتعلق بالحركة الثقافية التي قامت على إنقاذ الفترة التي عرفت فيها تلمسان ازدهارا فكريا وأنجبت فقهاء العصر الذين أشاد بهم العلماء المعاصرون لهم شرقا وغربا وترجمنا للبعض منهم لكي نبرز الخسارة التي عرفتها تلمسان.

فقد تعرضت خلال الفترة الممتدة من بداية القرن العاشر إلى منتصفه/ السادس عشر، إلى الاضطرابات نتيجة للصراع الذي قام بين أفراد الأسرة الزيانية ثم تدخّل الإسبان وباشاوات الدولة الجزائرية والسعديون زيادة

على شيوخ القبائل من بني راشد فاشتدت المؤامرات وانعدام الأمن فأثر ذلك على الحياة الفكرية بعاصمة الدولة الزيانية ودفع بعلمائها إلى تركها والخروج منها نحو فاس عاصمة الوطاسيين والواحات الصحراوية كما حدث مع الشيخ محمد بن عبد الكريم الذي سبق لنا التعرض له.

*** الهجــرة إلى فاس:**

ففيما يتعلق بمدينة فاس فإنها لم تكن مجهولة لدى علماء الدولة الزيانية فقد سبق لبعضهم الانتقال إليها خلال عصر قوة الدولة مثل الونشريسي وأبناء الإمام والمقري والأبلي كما عاش فيها فترة من الوقت أبو عبد الله الشريف التلمساني وأحمد المقري.

من بين عوامل انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس ضعف المسلمين ونجاح حركة الاسترداد المسيحية، ثم الهجوم الإسباني على السواحل الجزائرية وخاصة وهران التي كانت من بين المراكز الثقافية للدولة الزيانية فهاجر بعض علمائها إلى فاس، يضاف إلى ذلك قيام الدولة الجزائرية[1] الحديثة وانحسار نفوذ بني زيان عما كان عليه من قبل[2].

ومن ناحية أخرى فإن فاس قد اختصت بمميزاتها القديمة المركزة على التألق في دراسة الفقه المالكي والعناية الفائقة بعلوم الدين بعد تأسيس جامع القرويين[3] الذي كان قبلة للعلماء.

1- عن احتلال وهران، انظر، الباب الأول الفصل الأول، ص.

2- تأسست الدولة الجزائرية على يد خير الدين سنة1518، انظر للمؤلف مجهول غزوات عروج و خير الدين، ورقة 37.

3- عن تأسيس مسجد القرويين من فاطمة أم التقتاني القروينيه، ج1، ص20-21، دار الكتاب 1979، انظر، محمد العابد الفاسي فهرس مخطوطات.

يضاف إلى كل ما سبق أن سلاطين المغرب كالوطاسيين والسعديين رحبوا بهجرة علماء الدولة الزيانية وخاصة القادمين من تلمسان لأسباب سياسية تتعلق بموقفهم من الدولة العثمانية عموما والجزائرية على الخصوص.

كما حدث خلال الحملة السعدية[1] على تلمسان أن رافقت القوة السعدية مجموعة من علماء الدولة الزيانية بينما التحق ما بقي بعاصمة بني زيان زملائهم بفاس بعد نهاية دولتهم و ربط تلمسان بالجزائر. فالعلماء كثيرون لكننا سنكتفي ببعضهم لأن بحثنا يتعلق بانهيار الدولة الزيانية ونترك الأمر للذين يريدون دراسة الحياة الثقافية للمغرب الأوسط في عصر الدولة الزيانية.

ولعل من أبرز العلماء الذين أثّروا في الحركة الفكرية بفاس بعد أن فقدتهم الدولة الزيانية هو أبوالعباس أحمد بن يحي بن محمد عبد الواحد الونشريسي[2] وابنه عبد الواحد[3] نجهل تاريخ مولده ومسقط رأسه هل كان بتلمسان أو بالونشريس[4] لأن الذين ترجموا له لم يتعرضوا لهجرة عائلته إلى تلمسان والظروف التي دفعتها لهذه الهجرة بل اكتفوا بمرحلة استقراره بفاس.

أما رحلته من تلمسان لفاس فكان السبب فيها، موقفه من أمراء بني زيان لم يكن مؤيد لسياستهم عكس بعض علماء عصره وقد صرح في كتابه المعيار أن شر العلماء هم الذين يتقربون من سلاطين الدول.

1- عن الحملة السعدية على تلمسان سنة انظر، الباب الأول، الفصل الثالث من هذه الرسالة.

2- التمبكتي: المصدر السابق، ص، ابن عسكر المصدر السابق، ص47.

3- نفسه: ص 54.

4-جبل الونشريس يشكل جزء من سلسلة الأطلس التلي يقع غرب الجزائر ضمن ولاية الشلف، لمزيد من المعلومات عنه، انظر، حايمي عبد القادر جغرافية الجزائر، ص36 .

كما أورد نازلة تتعلق ببناء جدار وحصن على أحد المقابر المجاورة للمدينة بعد حفرها، وقد عارض وجاء ببعض الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال أئمة علماء المالكية التي تؤكد احترام مقابر المسلمين وفند تلك الآراء التي تؤكد عكس ذلك ولعل هذا كان أيضا من بين عوامل خروجه من تلمسان لأن الذين ترجموا له لم يوضحوا لنا الأسباب التي دفعت السلطان الزياني المتوكل إلى نهب داره بعد خروجه من تلمسان متسترا حتى لا يكتشف أمره فوصل إلى فاس حسب ما ذكره أحمد بابا التمبكتي في شهر المحرم من سنة 834هـ/ 1469م بمفرده لأن الأسرة لم ترافقه ويبدو لي أنها التحقت به بعد فترة وجيزة من استقراره بفاس.

أما عن دراسته فقد بدأها بتلمسان، وتخصص في العلوم الدينية تتلمذ على الشيخ الإمام قاسم بن سعيد[1] العقباني وولده القاضي العالم أبو سالم[2] العقباني وحفيده الإمام محمد[3] بن أحمد قاسم العقباني، كما درس على الشيخ أبي عبد الله ابن جلال وابن مرزوق الكفيف ومحمد بن العباس.

ويبدو أن هؤلاء العلماء أجازوا الونشريسي مما جعله يتولى مهنة التدريس بعد وصوله إلى فاس بالمسجد المعروف بالشراطين قبل أن تسند إليه الكراسي الوقفية بأهم مساجد ومدارس فاس.

وقد أشاد علماء المغرب بتفوقه ومن بين هؤلاء ابن غازي الذي اعترف للونشريسي بالتفوق في الفقهيات وعندما مر به يوما بمجلسه في القرويين قال لمن حوله من الفقهاء: " لو أن رجلا حلف بطلاق زوجته إذ أن أبا العباس

1- تمبكتي: المصدر السابق، ص 101.

2- نفسه: ص 58.

3- نفسه : ص 35-55.

الونشريسي أحاط بمذهب مالك أصوله وفروعه لكان بارا في يمينـــه"، أمـــا ابـــن غازي فقال في فهرسه: "واكب على تدريس المدونة وابن الحاجب. وكان مشاركا في فنون العلم إلا أنه لما لـــزم تدريس الفقـــه قـــيل: " كأنـــه من لا يعرف غيره وكان فصيح اللسان والقلم"[1]. درس أيضا بالقرويين الذي يعتبر أكبر مساجد فاس ومراكزها العلمية.

أما فيما يتعلق بتلامذته فقد تخرج عليه مجموعة من العلماء بلغوا درجة عليا في التدريس والقضاء والإفتاء في كل من فاس وفقيق وجبال الأطلس أشهرهم ولده عبد الواحد الونشريسي ومحمد بن عبد الجبار الذي عمر زاوية أبيه المشهورة في فقيق والحسن ابن عثمان بتاوردانت بواسطة هؤلاء امتد علم أبي العباس إلى ربوع المغرب الأقصى.

كما تولى وظيفة الإفتاء وهي من أبرز الوظائف التي لا تتحصل عليها لأمن من كان نابغا في العلوم الفقهية هذا فيما يخص تلامذته أما إنتاجه الفكري فهو مرآة لعصره ومن أشهر مؤلفاته كتاب المعيار في فتاوى علماء إفريقيا والأندلسية والمغرب نقل فتاوى الأندلس وفاس من خزانة قاضي فاس.

وأما فتاوى إفريقيا والمغرب الأوسط نقل بعضها من كتاب يحي المغيلي صاحب كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة كما أخذ عن البرزلي وله تعليقات وإضافة على تلك الفتاوى وهو ما يوضح لنا المستوى العالي له.

كما ألف إلى جانب المعيار كتبا عديدة تتعلق معظمهـــا بالفقـــه المـــالكي أصوله فروعه منها: «المنهج الفائق والسهل الرائق والمعنى اللائـــق بـــأدب الموثق وأحكام الوثائق»[2] «غنية المعاصر والتاسي في شرح فقه ووثـــائـــــق

1- ابن مريم: البستان ، ص 170.

2- توجد منه في الخزانة العامة بالرباط نسختان تحت رقمين 1609-1354.

عبد الله الفشتالي»[1] «مختصر أحكام البرزلي» «إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك» «عدة البروق في تلخيص ما في المذاهب من الجمع والفرق» «القصد الواحد في اصطلاح ابن الحاجب» وله تأليف في ترجمة المقري الحد، ووفيات العلماء، شرح الخرزجية في الغرض والولايات والخطط الشرعية. أما وفاته فكانت سنة 914هـ/1508م-1509م.

هذا فيما يتعلق بالونشريسي ابي العباس أمّا ابنه عبد الواحد فقد زاول دراسته في فاس على والده وعلماء الدولة الوطاسية.

وفي سنة 911هـ/1505م وجه أباه فلما عرس أطلق القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن عبد الله الفيرني قاضي فاس بدأه على الشهادة لعبد الواحد الونشريسي وقال له: «هذه هديتي لهذا العرس لأن الشهادة عند هذا القاضي عزيزة عليه فكان يقول: "من طلبها كأنما طلب ابنتي".

ولما توفي أبوه قيل أنه لا يحسن درس أبيه فجلس على كرسيه بالمدرسة الصانجية، فدرس المدونة وحضر الناس دروسه يختبرونه في مقدمة هؤلاء ابن الغازي الذي قبّله بين عينه بعد نهاية درسه وقال لو لم يحسن الدرس لقمت مقامه حتى يحسنه ويأخذ مرتّب أبيه.

كما كان يأتي مجلسه مجموعة من علماء المغرب الأقصى، أما عن الوظائف التي تخلى عنها إلى الفتوى بعد موت الشيخ بن هارون[2] كان شاعر مجدا، له أزجال وموشحات مع رقة طبعه، واهتزازه عند سماع الألحان واعتدال مزاجه، وقوام طبعه.

1- توجد تحت رقم 1610-889.

2- ابن عسكر: المصدر السابق، ص 47.

هذه المميزات التي تميّز بها جعلته مقربا من الوطاسيين حيث كان السلطان أبو العباس معتقدا في الصلحاء وأرباب الأحوال ومن فوقهم من أهل العلم كما كان وقف عند إشارته الفقهية أي مالك عبد الواحد الونشريسي.

وأما موقفه من ملوك عصره فهو يختلف عن أبيه وربما أكثر شدة منه من ملوك عصره ومما يؤكد ذلك أنه ذات يوم خرج الناس لصلاة يوم العيد ينتظرون السلطان وطال انتظارهم وعندما انتقل عبد الواحد إلى المصلى فرقى المنبر وقال ذلك بحضور السلطان الوطاسي ولم يكن كعادة بعض العلماء.

وهو الذي كتب عقد الصلح بين الوطاسيين والسعديين سنة 940هـ/ ثم بموجبه أن يكون للسعديين من تادلا إلى السوس وبني وطاس من تادلا إلى المغرب الأوسط. وحضر الصلح قاضي فاس أبو الحسن علي بن هارون المطغري التلمساني.

وأما أحمد فقد بدأ عهده بالقضاء على أبي حسون علي بن محمد الوطاسي وأشهد عليه فجعله من ملكه وكتبها الشيخ أبي محمد بن الواحد الونشريسي وعليه خطوط جماعة من الفقهاء.

وفي هذه الفترة أصبح المغرب في حالة غير مستقرة لاشتداد النزاع بين السعديين والوطاسيين فأثر على العلماء الذين كانوا في مقدمة وقوع هذا الصراع لتأثيرهم على المجتمع، مما يجعل كل واحد من هؤلاء الأمراء يريد التأييد والنصرة منهم لإصباغ عمله بالشرعية.

يضاف إلى الونشريسي الذي كان مفتيا في فاس محمد بن هبة الذي حاضره السلطان أبوعبد، لم يذكر الذين ترجموا له متى ولد ولكن يبدو

لـــي مولده في حدود سنة 908هـــ/1502م لأن المترجمين له ذكروا بأنه في حدود سنة 983هـــ/1575م. كان عمره يناهز خمس وسبعين سنة[1] أما عن شيوخه فنجد في مقدمتهم أحمد بن طاع الله والشيخ أي مروان وعبد المالك الذي أخذ عنه علم الكلام كما درس في تلمسان عن مجموعة من العلماء خاصة تلامذة الإمام السنوسي[2] وأبو العباس ابن زكري[3].

هذا فيما يتعلق بشيوخه، أما معارفه فيذكر عنه أنه كان عارفـا بعلم الأصول والبيان والمنطق والفرائض والحساب أما عن انتقاله من فاس فيذكر أنه في سنة967هـــ/1559م اتصل بسلطانها الذي أكرمه وولاّه الفتوى بحضره[4] مراكش، ثم بعد ذلك انتقل إلى فاس عاصمة دولة السعديين فوجد ترحيب من سلاطين هذه الدولة فقلدوه مهنة التدريس وهي من الوظائف ذات الشأن الأكبر في الدولة، كما تولى الخطبة بجامع الأندلسيين لفاس وهو أكبر مساجدها إلى جانب القروييـــن واستمـــر ذلك في عهـــد أبناء محمد الشيـــخ أي يزيـــد وعبد الرحمن الذي يحتل تلك المكانة التي أعطاها له محمد الشيخ، ثـــم نقل إلى جامع القرويين إماما مدة ثلاثة عشر سنة واعتبر من قبل صاحب كتاب" سلوة الأنفاس" إمام الأئمـــة.

وأما الذين تتلمذوا عليه فهم النوارحي ابن مروان بن عبـــد المالـــك وأبـــي عبد الله السنوسي وأبي العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني.

1- التمبكتي: المصدر السابق، ص 112.

2- ابن مريم: البستان، ص 263.

3- نفسه: ص 237.

4- مراكش مدينة مغربية أسسها يوسف بن تاشفين ، لمزيد من المعلومات عنها انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق: ج ، ص 116.

ومن بين العلماء التلمسانيين الذين أثروا على الحركة الفكرية بفاس العالم الجليل محمد بن المقدم الخوار التلمساني الذي درس بمسجد القرويين المختصر وغيره من المؤلفات الفقهية.

كان من الجوار حسن الخلق مائلا إلى تواضع، قرأ على فقيه الحاج محمد الكنور وغيره. توفي في أوائل العشرة الثانية من القرن العاشر الهجري.

يضاف إليه الفقيه العالم العلامة مفتي فاس وخطيب جامعها الأعظم وعميد علمائها وشيخ الجماعة بها أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن جلال المغراوي التلمساني.

ولد بتلمسان سنة908هـ/1504م ثم رحل منها إلى فاس سنة958هـ/ 1551م أيام السلطان أبي عبد الله الشيخ، ولما استقر بها قلده السلطان المذكور الفتوى والتدريس والخطبة بجامع الأندلس ثمان سنين في حياة أبي زيد عبد الرحمن بن إبراهيم وولده الشيخ أبي شامة، ثم بجامع القرويين ثلاثة عشر سنة فكان إمام الأئمة وخير من أخيار الأمة.

وتنافس في علومه الناس والاقتباس من علومه عارفا بالمنطق والعقائد والبيان والفقه والحديث والتفسير وغير ذلك مرجوحا إليه في تحرير عقائد التوحيد أما عن شيوخه، فقد أدرك المشايخ بتلمسان. فأخذ عنهم وانتفع بهم ومن هؤلاء الفقيه الصالح المفتي أبو عبد الله محمد بن موسى فقيه تلمسان والفقهاء المتقنين لصالح المفتي أبي عثمان سعيد المقري وأبي العباس أحمد بن طاع الله من تلامذة الشيخ بن غازي كما أخذ عن أبي مروان عبد المالك البرجي التفسير وغيره، كما أخذ عن جماعة من أصحاب عبد الله السنوسي وأبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي الملياني لأن ابن جلال كان يزور الملياني مع والده فتأثر به في ميدان التصوف.

أما تلامذته فإن من بينهم حسب رواية التمبكتي أبا المحاسن الذي لازمه كثيرا فقرأ عليه التفسير والأصول والفقه والكبرى والصغرى للسنوسي وهو ما يؤكده التمبكتي بقوله: "أحمد الشيخ أبو المحاسن عنه عقائد التوحيد فكان ماهرا في ذلك بشهادة العامة والخاصة.

وقال في شأنه ابن عسكر: "لقي المشايخ وأخذ عنهم بتلمسان وطالت أيام رئاسته بفاس أين أثقله الهرم، وانتفع الناس به" وتوفي سنة **981هـ /1573م**.

أما المنجور فذكر في فهرسته: "قدم على فاس من فقهاء تلمسان وأخذ عنه هو الفقيه الموحدي كثير الأذكار وقراءة القرآن".

كما عرف عنه بأنه من بين الذين يلازمون قراءة العلم والتصنيف والتدريس والتأليف يشارك العامة والخاصة من هذه الأمة إثارة الخلوة وإجابة الدعوى.

ومن علماء تلمسان الذين عاصروه أحمد بن محمد يعقوب العبادي نجهل كل ما يتعلق بتاريخ مولده الأول، لكن يظهر أنه ولد بتلمسان ودرس بها دراسته الأولى في الكتاتيب التي خصصت لحفظ القرآن ومعرفة مبادئ اللغة العربية، ثم بعد ذلك اتّصل بكبار علماء عصره فزاول دراسته بمدارسها وكان يشارك في حلقات الدرس التي تقام بمدارس تلمسان ومساجدها.

يعتبر العبادي من بين العلماء الذين وقفوا ضد الوجود التركي في تلمسان مما جعله يرتحل إلى فاس مع مجموعة من العلماء الذين كانوا معه في نفس لذلك عندما وصل إلى فاس وجد ترحابا من قبل سلاطين الدولة السعدية حيث ذكر المراكشي فأمرهم الأخبار ونقلهم إلى فاس وأوصل كل عالم على قدرته.

وعندما وصل هؤلاء العلماء إلى فاس وجدوا ترحابا من قبل السعديين فقدمت لهم الهدايا وهو ما يؤكده العبادي بنفسه حيث ذكر أن الأموال التي قدرت بألف مثقال من الذهب كما أمر لهم بكساء وإقامة جليلة.

والهدف من وراء ذلك أن الدولة السعدية تريد استغلال علماء الدولة الزيانية للدفاع عن سياستها التوسيعية والوقوف في وجه الدولة الجزائرية.

وبما أن بعض هؤلاء العلماء كانوا يؤيدون هذه السياسة وسبق لهم مكاتبة محمد الشيخ ولعل من بين هؤلاء العبادي الذي عين من قبل السلطان السعدي للتدريس بفاس مما جعل علماء الدولة السعدية يقبلون على حلقات دروسه لإعجابهم بحسن عبارته وتحقيقه.

لم يبق تأثيره مقتصرا على علماء فاس فقط بل امتدّ لأغلب مراكز الدولة، فقد رحل من فاس إلى مراكش ويظهر لي أنه زاول بها التدريس قبل أن يعود إلى تلمسان، لن يعترض الذين ترجموا له سبب عودته لتلمسان، لكن يبدو لي أن سلاطين الدولة السعدية بعد مقتل محمد الشيخ وزيادة نفوذ الدولة الجزائرية الحديثة بعد سقوط الدولة الزيانية 962هـ/ 1554م[1] لم يفكروا في توسع تجاه هذه الدولة.

ومن بين علماء تلمسان الذين عاصروه محمد بن موسى الوجد يحي التلمساني وهو مثل علماء عصره نجهل تاريخ ميلاده ومعارفه الأولى التي تلقاها عن شيوخه ماعدا إشارة ابن مخلوف الذي قال في شأنه عالمها ومفتيها ومن أكابر أوليائها وفقهائها الإمام الذي لا تأخذه في الله لومة الإمام لائم، أخذ عن عبد الله بن جلال.

1- عن سقوط الدولة الزيانية: انظر الفصل الثالث من الباب الأول.

وأما الذين تتلمذوا عليه فنذكر ابنه وأحمد البجاني ومن بين الذين ارتحلوا من تلمسان إلى فاس، محمد بن هبة الوجد يحي الملقب شقرون التلمساني[1].

لم يذكر الذين ترجموا متى ولد، يبدو أنه ولد بتلمسان سنة908هـ/1502م، لأن الذين ترجموا له يذكروا بأنه توفي سنة 983هـ/1559م، وعمره خمس وسبعون سنة[2].

ومن بين الذين ارتحلوا إلى فاس أبو جمعة المغراوي الذي سبق أن تعرضنا له عند كلامنا عن علماء وهران، زاول دراسته بعاصمة الدولة الزيانية قبل انتقاله إلى المغرب الأقصى، وهو ما دفع بالذين ترجموا له أن يقولوا عنه الأستاذ المتكلم، القدرة المقوي، العالم العمدة[3].

وفي المغرب الأقصى، درس على ابن غازي وتأثر به، ومن أبرز مؤلفاته "الجيش الكمين في الرد على من يكفر عموم المسلمين"، وله شعر في رثـاء، ابن غازي توفي بفاس سنة929هـ[4] وعندما حل بفاس، وجد ترحيبا من قبل أمراء بني وطاس، فكلف بتدريس الفقه، وأصوله في تلمسان بالمسجد المعروف بالشراطين، قبل أن تستند إليه الكراسي الوقفية في أهم مساجد، ومدارس بفاس[5].

1- ابن مريم: البستان، ص 64-284.

2- ابن القاضي: درة الحجال ، ص 215.

3- ابن القاضي : المصدر السابق، ص 125.

4-يوجد هذا الكتاب مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1136، ورقة 16 و هو من الكتب التي تحتاج للنشر لأنه يبرز مواقفه من العلاقة بين المسلمين و النصارى خلال عصره.

5- ابن مريم: البستان ، ص 54.

- **الهجرة للمشـــرق الإسلامي:**

لم تكن هجرة التلمسانيين مقتصرة على المغرب الأقصى فقط بل امتدت إلى المشرق الإسلامي وأثر هؤلاء العلماء في الأحوال الثقافية وحتى الإدارية في بلدان المشرق الإسلامي ومن بين هؤلاء العلماء: شهاب الدين التلمساني.

لكن السخاوي لم يذكر لنا المراحل الأولى من حياته بل اكتفى بالفترة الـــتي عاشها في المشرق فقد قال عنه أنه تولى القضاء بالأسكندرية ودمشـــق ولا يمكن أن يتولى هذا المنصب إن لم يكن من كبار الفقهاء[1] ومتمكنا من معرفة مجموعة من المعارف فقد قال عنه السخاوي أنه كان يمتاز عن غيره بالترحال حيث وصل إلى مدينة شيــران[2] وشهــد بها وفاة العالم الجلــيل ابــن الجزري[3] سنـــة 833هـــ/ 1429م.

أما الشيوخ من المشارقة الذين تتلمذ عليهم نذكر من بينهم ابن خلكان فقـــد ذكر السخاوي أنه درس عليه صحيح ومسلم وأثناه على مباشرة القضـــاء بالأسكندرية ولعله كان له الفضل في توليه هذا المنصب[4]. وهو من بـــين الذيـــن ترجم لهم السخاوي من التلمسانيين.

قال في شأنه الحمال أبو عبد الله الدمامي، قال في ساعة الحمال فـــي تاريخه: « باشر القضاء مستحفظا في مباشرة الوظيفة ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى أنه من العلماء الوافدين الجدد على الإسكندرية»، لكـــن

1- السخاوي: الضوء اللامع ، ج2 ، ص 236.

2- شيران. من بين الأمصار الاسلامية التي عرفت ازدهار الحركة الاسلامية مما جعلها قبلة للعلماء.

3- السخاوي: المصدر السابق ، مجلد 1 ، ص 193.

4- الإسكندرية مدينة ساحلية على البحر المتوسط شيّدها الإسكندر المقري وكانت تحتوي على أهم مكتبة في العالم،لمزيد من المعلومات عنها،انظر ياقوت الحموي معجم،البلدان.ج1،ص167.

هذا التحفظ قد زال بعد أن انتشر صيته وعدله في القضاء التي طرحت عليه.

ومن الإسكندرية انتقل إلى دمشق[1] ولم تنتشر كتب التراجم إلى أسباب تخليه عن الوظيفة وانتقاله إلى دمشق إلا أنه يظهر لي بأنه قد عزل من منصبه فأثر ذلك عليه مما جعله يفضل الانتقال إلى بلاد الشام حيث اتّخذ دمشق مستقرا وتولى بها وظيفة القضاء، ثم عزل ولكنه في الأخير تمكن من استعادة منصبه الذي بقي به حتى وفاته سنة **874هـ/1469م**[2]. وصلى عليه بالجامع الأموي ودفن بباب الفراد بين الجهة الشرقية من دمشق[3].

ومن بين الذين ارتحلوا إلى المشرق محمد بن وارث[4] الذي ولد بتلمسان وتلقى علومه بها، وتقرب من سلطانها المنتصرين، أبي حمو ويظهر أنه اختلف معه أو أن أعيان الدولة الزيانية قد دبروا له مؤامرة للتخلص منه، مما جعله يترك تلمسان، نحو المشرق، ومما يؤكد قول السخاوي خادم المنتصر بــن أبي حمو صاحب تلمسان، أحس بشيء فقدم القاهرة[5].

فهذا النص يؤكد لنا أن من بين الدوافع التي دفعت علماء تلمسان إلى الرحلة إلى المشرق أن أراضي الدولة الزيانية كانت تعيش اضطرابات نتيجة للصراع بين أمراء الدولة الزيانية ودور القبائل العربية والبربرية، التدخل الخارجي وعلى الخصوص محاولة دول المغرب الإسلامي، السيطرة علــى

1– الإسكندرية مدينة ساحلية على البحر المتوسط شيدها الإسكندر المقدوني و كانت تحتوي على أهم مكتبة في العالم، لمزيد من المعلومات عنها، انظر ياقوت الحموي معجم البلدان ج، ص.

2– دمشق مدينة من المدن القديمة في بلاد الشام اتخذها الأمويون عاصمة من 40هـ،625م ، لمزيد من المعلومات عنها انظر ياقوت الحموي المصدر السابق ، ج3 ، ص 136.

3– السخاوي ، المصدر السابق ، مجلد1 ، ث 167.

4– نفسه: مجلد ، ج1 ، ص 167.

5– نفسه: مجلد ، ج1 ، ص 167.

تلمسان وفي القاهرة اتّصل بأعيان الدولة، وفي مقدمتهم الجمالي[1] ثم سعد الديــن إبراهيم بن أعراب الذي[2] أنعم عليه واستمر مقربا منه، مدى حياته، كما أكثــر العبادة و النسك. ومن بين الذين ارتحلوا إلى المشرق مــن التلمسانيين أبو عبد الله الزياتي التلكساني الذي كان من أئمة العربية في عصره تتلمذ على محمد بن منداس، صاحب الجزولي[3] وعلى عبد الرحمن بن الزيات[4] ثم انتقل إلى مصر فاستقر بالإسكندرية، وبها أخذ عن موطنه عبد العزيز عمر بن مخلوف التلمساني[5] ولم يلبث أن تصدر لإقراء العربية، فتخرج عليه جماعة من الفضلاء قال عنه أبو حيان، كان شيخ أهل الإسكندرية.

ومن رحل إلى المشرق، أبو البركات[6] التلمساني يجهل تاريخ مولده والعلوم الأولى التي تلقاها. قبل أن يشارك في حلقات الدرس، ومجالس العلم، والاتصال بعلماء المشرق، وتمكن من الاستفادة، من العالمين محمد بن حيان، ومحمد وبن عبد الرحمن القرويين.

يضاف إلى هؤلاء العلماء الذين أثروا على الثقافة في المشرق من التلمسانيين، أحمد بن سعيد بن إبراهيم التلمساني، الملقب بشهاب الدين[7]، الذين تولى قضاء المالكية ببلاد الشام سنة **845هـ/1441**م، بعد عزل سالم الزواوي المالكي.

1- نفسه: مجلد ، ج1 ، ص 168.

2- الجمالي: لمزيد من المعلومات عنه انظر السخاوي ، مجلد2 ، ص 167.

3- سعد الدين إبراهيم بن أعراب.

4- عن محمد بن منداس : انظر السخاوي ، المصدر السابق ، مجلد ، ج3 ، ص 210.

5- محمد بن زيان.

6- ابن حيان السخاوي: المصدر السابق ، مجلد ، ص 197.

7- نفسه: مجلد ، ج2 ، ص 287.

أما عن تاريخ وصوله إلى دمشق، فكان في أول ربيع الأول من نفس السنة، ثـم عزل عن منصبه، وتولى مكانه سالم الزواو[1] وبعد سبع سنوات من عزله أعيد إلى منصبه من جديد، فدخل دمشق، في ذي القعدة من سنة852هـ/1448م[2] واستمر إلى أن عزل بسبب سوء التفاهم، الذي حدث بينه وبين الحاجب الثاني، لأن ابن شهاب طالب غريب عند الحاجب المذكور، فامتنع من إرساله إليه فطالبه الحاجب، فلما حضر إليه أهانه، فوقف أمراء دمشق إلى جانب الحـاجب، وكتبوا إلى مصر في شأنه فورد عليه مرسوم ينص علـى أن القضاة لا يطلبون أحدا، عند حكام السياسة لا يأخذون أحدا من مجالس الشرع الشريـف ولا يحكمون له هذا فيما يتعلق بالعلاقة بين السلطة المحلية، ورجال القضاء، في الولايات التابعة لدولة المماليك.

أما ابن شهاب التلمساني فقد أبعد من جديد من منصبه وتولى مكانه ابن عامر المالكي. ثم عاد إلى مصر، واتصل بسلاطين دولة المماليك، واستطاع أن يضمن العودة من جديد لمنصبه، الذي تولاه في يوم ذي الحجة سنة895هـ/1491م.

وقد تذكّر كتب التراجم أنه دفع رشوة من إرجاعه لمنصب قضاة المالكية، بدمشق قدرت بخمسمائة دينار والذي سهل هذا المنصب، عبد الرحمن السويدي[3]، أصله من أراضي الدولة الزيانية ينسب إلى قبيلة سويد الهلالية استمر في منصبه إلى أن صرف، وحل الورث مكانه قاضي القضاة محي الدين بن عبد الوارث، واستمر شهاب الدين مصرفا عن قضاة حتى توفي يوم الأربعاء من خامس ربيع الأول من سنة 875هـ/1469م.

1- السخاوي: المصدر السابق ، مجلد ، ج4 ، ص 165.

2- نفسه، مجلد1، ج2، ص267.من بين الولايات التابعة لدولة المماليك ولاية الشام –دمشق-.

3- نفسه : مجلد ، ج2 ، ص 167

الفـــصـــل الثـــانـــي

المـــــراكز الأخـــــرى

من بين التغييرات التي أثرت على ثقافة الدولة الزيانية في العصور الأخيرة حياتها بروز مراكز ثانوية أصبحت تنافس تلمسان ومن بين هــذه المراكــز على الخصوص مايلي:

هــران:

عرفت مدينة وهران ازدهارا في الميدان الثقافي، خاصة في القــرن التاســع جري/الخامس عشر الميلادي، عندما استقر بها محمد بــن عمــر الهــواري، س بها زاوية، وهو ما يؤكده ابن صعد بقوله: « كان لا يخلو مجلــسه مــن رضة علمية ومحاضرة أدبية»[1].

فالذي يمكن استخلاصه من هذا النص أن الفنون التي كانت تقــدم لطــلاب اوية، ومريديها، لم تقتصر على التصوف فقط، بل شــملت مجموعــة مــن عارف، سبق الهواري أن أخذها عن شيوخه في كل من بجاية، وفاس.

كما نلاحظ على النص نوعا من المبالغة من قبل ابن صعد عند تعرضه هواري في ميدان المعرفة حيث اعتبره من كبار علماء عصره، وهــو مــا ؤكده بقوله: "حدثني جماعة من الأصحاب أنه كان ربما يعرض لطلبة العلم ن أهل وهران وتلمسان وغيرها من سائر البلدان كثير من المسائل العويصة، يستفتون فيها شيوخ الوقت فلا يجدون عندهم شفى وعندما يأتون إلى مجلس لهواري ويحضرون في جملة من يحضره من الناس يجدون الجواب لأن لشيخ إذا أخذ في الدرس يصل إلى تلك المسائل"[2].

1- ابن صعد: روضة النسرين ، مخطوط بالمكتبة الوطنية ، رقم **2596** ، ورقة **49** جـــ

2- نفسه: ورقة 49 – 50.

المراكز الأخرى

من بين التغييرات التي أثرت على ثقافة الدولة الزيانية في العصور الأخيرة من حياتها بروز مراكز ثانوية أصبحت تناقس تلمسان ومن بين هذه المراكز نذكر على الخصوص مايلي:

- وهران:

عرفت مدينة وهران ازدهارا في الميدان الثقافي، خاصة في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، عندما استقر بها محمد بن عمر الهواري، وأسس بها زاوية، وهو ما يؤكده ابن صعد بقوله: « كان لا يخلو مجلسه من معارضة علمية ومحاضرة أدبية»[1].

فالذي يمكن استخلاصه من هذا النص أن الفنون التي كانت تقدم لطلاب الزاوية، ومريديها، لم تقتصر على التصوف فقط بل شملت مجموعة من المعارف، سبق الهواري أن أخذها عن شيوخه في كل من بجاية، وفاس.

كما نلاحظ على النص نوعا من المبالغة من قبل ابن صعد عند تعرضه للهواري في ميدان المعرفة حيث اعتبره من كبار علماء عصره، وهو ما يؤكده بقوله: "حدثني جماعة من الأصحاب أنه كان ربما يعرض لطلبة العلم من أهل وهران وتلمسان وغيرها من سائر البلدان كثير من المسائل العويصة، فيستفتون فيها شيوخ الوقت فلا يجدون عندهم شفى وعندما يأتون إلى مجلس الهواري ويحضرون في جملة من يحضره من الناس يجدون الجواب لأن الشيخ إذا أخذ في الدرس يصل إلى تلك المسائل"[2].

1- ابن صعد: روضة النسرين ، مخطوط بالمكتبة الوطنية ، رقم 2596 ، ورقة 49 جـ

2- نفسه: ورقة 49 - 50.

فإذا أخذنا برأي ابن صعد، نستنتج بأن الهواري كان يستقبل طلبة العلم من مختلف المراكز الثقافية، وعلى الخصوص تلمسان التي عرفت ازدهارا ثقافيا في عصر الهواري.

أما عن نوعية الدروس التي كانت تدرس بالزاوية فهي لم تكن تختلف عما كان يقدم لطلبة المعرفة في أغلب زوايا الناحية. ولم تتوقف الحركة الفكرية في *وهران، بعد وفاة محمد بن عمر الهواري بل زادت ازدهارا في عصر إبراهيم* التازي، الذي تولى تسيير شؤون الزاوية، وكان من أقرب المقربين لشيخه لذا لعب دورا مشرفا على تطور الحركة الفكرية وهو ما يؤكده ابن صعد بقوله: «أقام التازي في وهران سوق الأدب، وبنى بها معالم الإسلام، والإيمان ورتب المواسم الشرعية، وركز على الآداب المدنية والدنيوية وفضل أهلها عما كانوا عليه من التدني، في الحضارة فاتسعت وعظمت فيها العمارة، وارتحل إليها كثير من أهل الجزيرة»[1].

فهذا النص الذي أورده ابن صعد يستنتج منه الباحث مايلي:

أولا: إن إبراهيم التازي الذي استقر في وهران، بعد أن درس على محمد الهواري، لعب دورا كبيرا في تطوير الدراسة بزاويته في وهران، وتشييد المدرسة التي كان الطلبة يزاولون فيها دروسهم، والتي تحتوي على غرف الطلبة والغرباء المتوافدين على وهران، لزيارة المدينة فكانوا يتلقون ترحابا. فإقبال هؤلاء على زيارة الزاوية،وعلى الخصوص العلماء،أدى إلى ازدهار التعليم، في وهران، وقد بين ذلك الرحالة المصري، عبد الباسط خليل الذي زار وهران، و حضر حفل احتفال بحفظ أحد الطلبة للقرآن.

1- ابن صعد: المصدر السابق، ورقة 13 .

ثانيا: إن اهتمام التازي بالجانب الفكري جعل مجموعة من العلماء ينتقلون إلى وهران لحضور دروس التازي، وغيره من علمائها الذين قدموا إليها من مختلف أرجاء الدولة الزيانية، مما أدى إلى ازدهار الحياة الفكرية بوهران، وهو ما جعل ابن صعد[1] يعلق على ذلك بقوله: «أقام في وهران سوق الآداب».

ثالثا: أن وهران من بين مدن الدولة الزيانية التي استقبلت مجموعة من المهاجرين الأندلسيين الذين توافدوا عليها منذ سقوط المراكز الأولى للدولة الإسلامية في الأندلس، ومما يؤكد ذلك أن أحد علماء وهران أصدر فتوى[2] في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، تتعلق بالأندلسيين وعلى الخصوص أهل الثغور الذين أصبحوا تحت ظل الدول المسيحية «أرغون وقشتالة» وأن إصداره لهذه الفتوى كان بدافع من علماء هذه المناطق الذين توافد بعضهم على وهران، واستمرت تلك الهجرة بعد سقوط المراكز التابعة لإمارة غرناطة كالمرية، وقرطاجنة، ومالقة، وغرناطة نفسها وقد وجد هؤلاء ترحابا من قبل الوهرانيين، فأصدر في هذه الفترة العالم الوهراني أبو جمعة المغراوي[3]، الذي كان يشغل مهنة الإفتاء بوهران، فتوى تتعلق بالأندلسيين وقد طلب منهم اللجوء إلى التقية للحفاظ على الإسلام، وسنتناول الموضوع بالتفصيل عندما نتعرض للجالية الأندلسية.

1- ابن صعد: نفس المصدر، ورقة 311.

2- الذي أصدر هذه الفتوى هو عبد الرحمن بن مقلاش أحد تلامذة الهواري و هو الذي أصلح سهوه، انظر ابن صعد، المصدر السابق، ورقة 20.

3- فتوى أبو جمعة المغراوي توجد لدينا نسخة منها نأمل في نشرها.

فالازدهار الاقتصادي والثقافي الذي عرفته مدينة وهران قد أثر على سكانها وهو ما جعل ابن صعد[1] يعلق على ذلك بقوله: «أحيا بعض معالم الإسلام والإيمان ورتب المواسم الشرعية ونبه على الآداب الدينية والدنيوية ونقل أهلها عما كانوا عليه من التدني في الحضارة»، لكن هذا الازدهار لم يستمر طويلا لأن مدينة وهران كانت من بين المدن التي سقطت في يد الإسبان وأن سقوطها أثر سلبا على الحياة الفكرية بها فقد نهبت مكتبتها التي كانت بزاوية محمد الهواري والتي كانت تحتوي على نفائس الكتب لعلماء المغرب الإسلامي والأندلس، فنقلت من طرف الكردينال أخسيمانس إلى مسقط رأسه بالقلعة القريبة من مدريد، وخلال زيارتنا لإسبانيا زرنا القلعة وسألنا بعض الأساتذة عنها في قسم التاريخ بجامعة القلعة لكننا لم نتوصل إلى معرفة مكانها ولعل البعض من كتبها نقلت إلى مكتبة الأسكوريال، وأخرى إلى المكتبة الوطنية بمدريد التي وجدنا بها بعض المخطوطات لعلماء جزائريين منها فتوى ابن مقلاش، الخاصة بالجالية الأندلسية.

كما كان الاحتلال سببا في مقتل بعض علمائها في المجزرة التي قام بها الجيش الإسباني عند احتلاله وهران بينما البعض تمكن من الفرار فالتحق بتلمسان ثم بعد ذلك هاجر البعض منهم إلى مدينة فاس وبقية المراكز الثقافية في المغرب الأقصى وقد لعب علماء وهران دورا مشرفا في ازدهار الحياة

1- ابن مصعد: المصدر السابق، ورقة 311.
توجد قلعة هناريس مسقط رأس أخسيمانس بالقرب من مدينة مدريد وخلال زيارتنا إسبانيا انتقلنا إليها و اتصلنا بأحد أساتذة التاريخ الحديث بها وسألناه عن مكان تواجد هذه المخطوطات فرفض تزويدنا بمعلومات عنها وربما أنها بإحدى مكتبات هذه القلعة ،أبو عبد الله محمد الشريف الحسني، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم760 ورقة6.

الفكرية بالمغرب الأقصى خلال عهد الدولة الوطاسية والسعدية كما تولوا وظائف في الدولة.

وهكذا نرى بأن الدولة الزيانية قد فقدت مركزا هاما من مراكزها الثقافية نتيجة لسقوط وهران بيد الإسبان وتحويل المدينة إلى مركز عسكري مسيحي.

أما فيما يتعلق بعلماء الأندلس، الذين استقروا بوهران، فيبدو أن عددهم كان كبيرا، لكننا لم نتمكن من إحصائهم لانعدام الوثائق المتعلقة بالموضوع، وعدم تشجيع رجال الزوايا وأصحاب الخزائن العلمية للاطلاع على ما لديهم من المخطوطات التي ترجع لهذه الفترة على الرغم من زيارتنا للولايات المجاورة لوهران، وكذلك عدم السماح لنا بالاطلاع على مخطوطات زاوية بطيوة.

وعلى الرغم من هذه النقائص فإن وهران قد تأثرت مثل بقية مدن الدولة الزيانية، بالهجرة الأندلسية، نتيجة لاستقرار علماء الأندلس بين أحضان سكانها، مما جعل العلماء يقبلون عليها للأخذ عنهم ومن هؤلاء محمد الشريف الحسني، أبو عبد الله الذي قال:

«لقيت بوهران سيدي عزوز بجبل المرسى بوهران سنة 852هـ/1448م وقرأت على سيدي محمد بن سعيد الشريف الغرناطي،قاضي وهران عام 860هـ/1455م". فهذا النص الذي أورده الشريف الحسني عندما تعرض إلى رحلته لوهران يؤكد على أن دور الأندلسيين لم يقتصر على الحياة الفكرية فقط، بل امتدّ أيضا إلى تولي وظائف في الدولة، منها قضاء وهران الذي تولاه محمد بن سعيد الغرناطي، وفي نفس الوقت درس الحديث بوهران ويبدو أنه لم يكن الوحيد الذي انتقل إلى وهران بل هناك علماء آخرين لم يرد ذكرهم في كتب التراجم التي استطعنا الاطلاع عليها.

ومن بين العلماء الذين نسبوا لمدينة وهران أحمد صبح الذي خرج من وهران مع بناته بعدما احتل الإسبان المدينة فوصل إلى تلمسان ونزل بموضع يقال له أجادير[1] فأتى الناس إليه يأخذون عنه العلم ولعل دروسه كان يلقنها بمسجد أجادير وهو من أقدم مساجد المدينة لأنه شيد من طرف الأدارسة خلال القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي.

والشيخ كان من تلامذة إبراهيم التازي. في مدينة وهران،لهذا كان التصوف أهم الفنون التي درستها بتلمسان ومن بين الذين تعرضوا له سعيد المقري الذي قال عنه كنت آنذاك صغيرا، فحملتني أمي إليه، ومعها حبة من ثمر وإناء من الماء، ثم فتح الله علي وأطال عمره حتى كبرت وعقلت فجودت عليه القرآن.

هذه الوثيقة تبين لنا النور الذي قام به بعض علماء مدينة وهران، عند انتقالهم لمدينة تلمسان وروح التضامن من قبل سكان عاصمة الدولة الزيانية.

ومن بين العلماء الذين نسبوا إلى وهران إبراهيم التازي الذي لعب دورا مهما في الحركة في وهران حيث شيد مدرسة[2] لطلب العلم، بها غرف مرتفعة، خاصة للموردين، من أهل البيت الكريم، ورتب فيها ما يجب من حق الضيافة. ويعرف هذا البيت ببيت الشرفاء، وقال في شأنه ابن صعد «حضرت يوما بوهران وقد قدم على الزاوية شاب من أولاد الشرفاء، باسم التجارة فتقدم إليه الشيخ المبارك، ينزله بمحل كراء مهم من المدرسة فقال ابن الشريف، أومثلي ينزل في

1- أجادير اسم قديم لمدينة تلمسان و مازال حي أجادير موجودا في شمال شرقي المدينة الحالية، وقد أسس بها إدريس الأول مسجده الذي لم يتبقى منه إلا الصومعة ، انظر محمود بوعياد ، تاريخ بن زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر و العقبان ، ص:281.

2- محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص:37 و ما بعدها، نقلا عن ابن صعد.

المدرسة، مختلطا مع الناس فقال له هذا المنزل هو أفضل منزل بالزاوية[1].

ومن هؤلاء محمد ابن عمر بن عثمان بن عبد الله بن عكاشة الهواري[2] نسبا، نشأ في مضارب مغراوة وكانت دراسته الأولى في مسقط رأسه، ثم رحل لطلب العلم فقصد فاس التي أخذ عن علمائها وفي مقدمتهم الشيخ العبدري والقباب، وهم من أبرز علماء عصرهم في فاس[3].

كما تلقى العلم في بجاية[4] عن الشيخ أحمد بن إدريس والشيخ عبد الرحمن الوغليسي[5]، وقال عنه ابن صعد أنه كان كثير الثناء على أهل بجاية.

من العلماء الذين نسبوا لهذه المدينة، سيدي بختي دفين ناحية غمرة، عرف من قبل الذين ترحموا له بأنه قد جمع بين العمل والعلم، وجودة الحفظ، وتقوية الفهم والفهامة والقريحة والديانة كما تميز بكثرة النصيحة فانتفع بعلمه خلق كثير من طلابه يغلب على ثقافته التصوف، وعلى الخصوص الطريقة الزرقوية[6] لأنه درس على محمد الهواري الذي كان من بين الذين تلقوا دراستهم في التصوف بمدرسة بجاية، التي اعتبرت من أبرز المدارس في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[7]، كما درس أيضا على خليفة الهواري إبراهيم التازي الذي طور الدراسة الصوفية بمدرسته في وهران.

1- محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص:45.

2- ابن صعد، المصدر السابق، ورقة 3.

3- نفسه، ورقة 16 جـ.

4- نفسه، ورقة 14 جـ.

5- يعتبر أحمد بن إدريس و عبد الرحمن الوغليسي من كبار علماء بجاية في هذا العصر، انظر ابن مريم، المصدر السابق، ص:228.

6- محمد بن يوسف الزياني،المصدر السابق، ص 38.

7- نفسه، ص:40.

وهو ما جعل المترجمين للشيخ بختي يقولون عنه أنه انتفع بعلوم دينية ونال بركاته فكان من المفتوح به في كل شيء وكانت له صحبة جسمية ومحبة مع أحد رجال التصوف في تلمسان، وهو الشيخ أبو علي الحسن[1] بن مخلوف دفين تلمسان الذي يعتبر من أكبر المتصوفة في عصره، حيث أن الأمير الزياني، كان يطلب وده وود محمد الهواري، لأن فترة حكمه عرفت اضطرابات زيادة على محاولة سلاطين الدولة الحفصية السيطرة على مدينة تلمسان[2].

ومن نسب أيضا لهذه المدينة العالم الجليل محمد بن بقي، دفين جبل أبـي عروض، عاش في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وقيل عـنه بأنه كان له جلالة عظيمة[3].

يضاف لهؤلاء العلماء العلامة سيذي غانم بن يوسف الغمري دفين جبل ماخوخ من بلاد أولاد علي العامري قيل عنه ظهر فضله وكثر يسره وهـو مـن بين الذين عاصروا القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي والعاشر الهجري/16م[4] من بين العلماء الذين تأثر بهم الشيخ محمد بن يوسف الراشدي ثم الملياني[5].

كما نسب لوهران، أبو العباس أحمد بن أبي جمعة النجار الوهراني المغراوي، كان من أبرز العلماء في عصره له فتوى تتعلق بالهجرة الأندلسية،

1- الحسن أبركان أحد مشايخ السنوسي دفين تلمسان، انظر ابن مريم:البستان،ص:245-252.

2- لمزيد من المعلومات عن هذه الأحداث انظر التنسي، المصدر السابق، ص:243-250.

3- محمد بن يوسف الزياني ، المصدر السابق ، ص:45.

4- نفس المصدر ، ص:37.

5- عن محمد بن يوسف الملياني، نفس المصدر، ص:42 ، انظر أيضا محمد الصباغ ، بستان الأزهار في منابت أحمد بن يوسف الراشدي، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم1707-1708.

أرسلها إلى الأندلسيين الذين كانوا يعيشون تحت سيطرة الدولة الإسبانية، وحثهم على المحافظة على العقيدة الإسلامية[1].

كما ألف مجموعة من الكتب بعضها لايزال مخطوطا بينما البعض الآخر نشر ومنها كتاب «الاختصار والبيان فيما يعرض من المعلمين وأباء الصبيان»[2] يتناول هذا الكتاب موضوعا مهما يتعلق بالتعليم في الكتاتيب والمشاكل التي كانت تحدث في تلك الكتاتيب كما تناول الطريقة البيداغوجية التي يمكن الرجوع إليها في تربية هؤلاء الأطفال ولذا فهذا الكتاب يحتاج إلى دراسة وتحقيق من قبل المختصين في ميدان التربية. كما تتلمذ على الشيخ غانم بن يوسف الغمري وأخذ منه فوائد جمة ومسائل مهمة.

وظهر خلال هذا العصر عيسى بن موسى الملقب بجمال الدين التجيبي، كان من العلماء العظام والمتصوفة الكبار عاش في القرن العاشر الهجري/ 16م، أخذ عن تلامذة ابن غازي، بفاس في أوائل القرن العاشر، وتوفي في العقد الثامن منه، وقبره معروف بزاويته على شاطئ وادى التاغة من أرض غريس، كان تقيا و وليا وعالما، كما نسبه لبني توجين أبو مهدي صاحب الغوثية كان واسطة عقدهم أخذ بفاس على تلامذة ابن غارني كالملالي وقد اشتهر بغوثيته التي كان السبب فيها مقتل ابنه محمد، والسبب في قتله بنوعبادين محمود إحدى بطون الحشم[3].

فيما يتعلق بعلماء بني راشد، بجبل عمور من بين الذين نسبوا إليه العالم الجليل أبو العباس المعروف بتالوسان من جبال بني راشد قيل عنه أنه من

1- نفسه ، ص:37.

2- أبو جمعة المغراوي، أدب الصبيان، نشر الكتاب رابح بونار. الجزائر 1974ص16

3- أبو راس الناصري: شرح الغوثية مخطوط بالمكتبة الوطنية .

كبار الأعلام وحملة راية الإسلام، فإذا قدم من جبل بني راشد، تلمسان تتعطل الدروس لأجل لقائه، ولم يبق فقيه بها ما دام الشيخ مقيما احتراما لمقامه، ورغبة في الأخذ عنه، مع وفرة العلماء في ذلك الوقت بتلمسان.

توفي رحمه الله في العشرة الثانية من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. لم يكن هو الوحيد الذي نسب لجبل بني راشد بل نجد أبا العباس أحمد المعروف بأقدار[1] كان شيخا فاضلا وإماما عظيما في علم التوحيد وعلم الكلام، له تأليف وشرح العقيدة الصغرى للسنوسي، انتفع الناس به وبعلومه توفي في أوائل العشرة الخامسة من القـــرن العاشـــر الهجري/16م لديه قصائد استغاثة، عن الأخطار التي عرفتها الناحية بسبب الغزو الإسباني لها.

وفي نفس الفن اشتهر الشيخ يحيى بن عبد العزيز[2]، ومن مميزات هذا الفن أن الناس يلجؤون إليه عندما تعجز السلطات الحاكمة في حمايتهم من الأخطار الخارجية، وفرض الأمن، فيتجهون إلى الدعاء والابتهال.

وهناك آخرون نسبوا لقلعة بني راشد منهم عمر بن علي الشهير بالتراري، توفي في قلعة بني راشد، وقد تتلمذ على محمد بن احمد بن غازي، مـــن مؤلفاته "الحسام الصلب في مفسدات القلب"، وقد جعل عليه عثمان القلعي شرحا[3].

وعبد القادر بن سعيد البردعي الذي كان من أبرز علماء القرن العاشر/16م درس بمجاجة على الشيخ محمد بن علي المجاجي، المتوفي سنة1008/1599م.

1- وادي التاغنة لعل المقصود به وادي تافنا الذي يصب في البحر المتوسط.

2- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 126

3- نفسه ، ورقة 127.

تتكون خزانته من أمهات الكتب في مختلف الفروع العلمية، وقـد اسـتعان على نسخها بعض اللاجئين الأندلسيين، من بينهم العلامة أبي القاسم عبد الملك المعروف بابن بتمكوال، المشهور بالتأليف في الجزائر ابتداء من القران التاسع الهجري/15م وقد سد فراغا رغم اقتصاره على ذكر العلماء[1].

ومحمد بن يحي بن موسى أخذ العلم عن أبيه وعن أئمة تلمسان، ثم أسّس زاوية الزاوش[2] التى تخرج منها كثير من العلماء، الذين نسبوا إلى غريس وكانوا وراء تأسيس أربطة للدفاع عن السكان من الغارات الاسبانية.

قال عنه صاحب عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس بأنه أفقه علماء القرن10هـ/16م، أمّا صاحب البستان فقال: " هو السيد الفقيه العارف بالله الناسك المحقق، المتصوف، الورع، ذو الكرامات والأخلاق المرضية، إمام العلوم الظاهرة وله فيها نصيب جمع من فواصلها وأصولهـا، لا يتحدث في علم إلاّ ظن معه أنه لا يحسن إلاّ غيره، أسس زاوية بالكرط[3] قبل أن ينتقل إلى وادي فروحة، في حدود سنة900هـ/1494-1495 وأسس هناك رباطا لرواد العلم فقصده الطلاب من جميع الآفاق"، ومن الذيـن أخذوا عنه عبد الله بن الراوف الادريسي، وعلي بن عومر، وكان لـه دور فـي الراشدية حتى صارت كعبة العلماء، وقـد توفـي فـي حـدود سنـة920هـ/ 1541م.

1- أوجدنا خلال زيارتنا لكل من ولاية معسكر وغليزان مجموعة من المخطوطات بزواياها مكتوبة بالخط الأندلسي وناسخيها من أفراد الجالية الأندلسية مما يؤكد على توحيد عدد كبير منهم في تلك الناحية أحد زوايا ولاية معسكر لعبت دورا مشرفا في مقاومة الغزو الاسباني للناحية .

2- الصباغ ، البستان ، ورقة 165 أ

3- الكرط قرية تقع على بعد أربعة كلم من معسكر مقر عائلة المشارقة و القرية القديمة دمـرها الاسبان ولا تزال آثارها ماثلة للعيان .

الذين ورد ذكرهم في هذه المنظومة محمد بن يحي[1] الذي كان أول من أوصل التوحيد إلى مضارب بني راشد، وكذلك ولده أبو اسحاق يعقوب المتقدم علي شاكلته علما وولاية، اختص بين أهل زمانه بعلوم القراءات، والرسم، والتجويد، فكان رحمة الله تشد له الرحال لأخذ القراءة عنه.

وعبد الرحمن بن مسعود الذي استقرّ في غريس وتولى القضاء بها للدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة، وأنّ قدومه إلى غريس كان من صحراء أبي سمعون وقد سمعت ممن يثق به منهم أنه نسب إلى الأشراف، يشين أهل فحيح.

وهو من أكابر علماء القلعة حسب الذين ترجموا له في القرن التاسع الهجري/15م المعاصرين للإمام عمر السنوسي يبدو أنهم أخذوا عليه خلال زيارتهم لمدينة تلمسان الذين كان لهم الدور البارز في الحركة الفكرية خلال هذه المدة أبو عبد لله المعوفل الونشريسي دفين وادي شلف قرب وادي أرهيو ألف منظومة تحتوي على حوالي ثلاث مائة بيت ضمنها صاحبها علماء مدينة البطحاء و ما جاورها وذكر فيها مجموعة من علماء قلعة بني راشد وقد توفي سنة 923هـ/1517م. والعالم اشتهر كغيره من العلماء المعاصرين له كما عرف بكثرة طلابه وانتشار طريقته، فدخل مع علماء القلعة في مناظرة تتعلق بالتصوف ويبدو أنها تمت بأحد مساجدها وبحضور مجموعة من علماء غريس، والقلعة ونواحيها، وقد أشار إليها الصباغ[2].

وكذلك أحمد بن أحمد الذي يبدو أنه لم يكن من بين أعلام الطريقة في ناحية غريس، بل وصف بأنه من علماء اللغة قد شرح كتاب الألفية، والآجرومية، وهما من الكتب الأكثر تداولا في عصره، كما كان عالما في

1-الصباغ، المصدر السابق، ورقة 68.

2- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 157.

التوحيد حيث شرح عقيدة السنوسي، التي كانت تدرس في القلعة وغريس مثلما هو عليه الحال في كل من فاس، ومراكش وتلمسان، وغيرها من حواضر المغرب الإسلامي ومن الذين تتلمذوا عن علماء تلمسان من غريس أبو محمد عبد القادر بن خدة، الذي تتلمذ على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، الذي تأثر به وألف في علم التوحيد، ولعل ما قام به في هذا الميدان لا يزيد عن شرح لإحدى رسائل السنوسي، وكتبه في التوحيد.

أمّا ابنه محمد الكبير فقد انتقل لجبل تسالة، حيث توجد مضارب بني عامر.

- معسكر:

إن ضعف الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة قد أدى برجال الزوايا إلى إنشاء مؤسسات لها أهميتها العلمية ولها شعاعها داخل أراضي الدولة الزيانية وخارجها فمحمد بن يوسف الملياني أنشأ زاوية في راس الماء[1] وبعد خروجه من مضارب بني راشد إلى يلل[2] عند بني وعد أنشأ زاوية أخرى ثم مجموعة أخرى من الزوايا، فزاد أتباعه وأقام بتلك الزوايا مدارس لتعليم المعارف وعلى الخصوص ما يتعلق بالطريقة الزروقية الشاذلية وقد استقبل الطلاب من خارج أراضي الدولة الزيانية كما توافد عليه مجموعة من العلماء يدرسون بزاويته.

وتعتبر زاوية الملياني من أكبر الزوايا في هذا العصر لنفوذها السياسي وعلى الخصوص بعد الاتفاق الذي تم بينها وبين الأخوين عروج وخير الدين حيث شارك أتباعه وطلابه في محاربة الاسبان وعلى الخصوص معركة قلعة بني راشد التي استشهد فيها بعض طلابه.

1- الصباغ: زهرة البستان ورقة 16.

2- نفس المصدر: ورقة 17.

وهناك بعض الزوايا الأخرى قامت بنفس الدور المتعلق بمحاربة الغزو الإسباني والقيام بالتدريس أمثال زاوية محاجة بوادي شلف وزاوية ابن الأحول على ضفاف وادي الخبر وزاوية محمد بن على بوادي فروحة وروبة سيد يعقوب بندرومة .

والجانب السلبي بالنسبة لهذه الزوايا أنّ المستوى الفكري الذي عرفته تلمسان في عصرها الذهبي ويتصل ذلك بمؤلفات المقري الجد وأبناء الإمام وأبي عبد الله الشريف الحسني وابن مرزوق الحفيد وغيرهم من علماء تلمسان والذي وصل إلى درجة كبيرة من التقدم ومؤلفات أصحاب هذه الزوايا ومستوى طلابهم كان منحطا وأصبح ميزة ملموسة للثقافات التي تتبناها الشعوب في فترات ضعف الدولة وتخليها عن الاهتمام بالتعليم وبرجاله فلم تذكر الوثائق التي اطلعنا عليها أن سلاطين الدولة الزيانية الأواخر قد اقتربوا من رجال الفكر وأشركوهم في مجالسهم أو ساهموا في المجالس العلمية مثل ما كان يحدث في عهد السلطانين أبي تاشفين الأول وأبي حمو موسى الثاني اللّذين أغدقا الأموال عليهم وشجعا حركة التأليف كما حدث في عهد المتوكل.

لذا عرف هذا العصر بمجموعة من المميزات تتمثل في قلة الاجتهاد وكثرة التقليد والاعتماد على الاختصار والشروحات غير مكترثبن بالبحث والنقد والتحليل ولكن مع هذا فإن علماء هذا العصر ركزوا على نشر العقائد وتدعيم أخلاقيات المجتمع ونشر المعارف والقيم الحضارية بين الجماهير وتثبيت الرعية انتماءاتهم القبلية الجهوية والقضاء على الأمية فكانت هذه الزوايا في أغلب الحالات أربطة يتكون فيها المجاهدون الذين قادوا المقاومة ضد الاحتلال.

ومما يؤكد ذلك ما ذهب إليه أبو راس[1]، أنّ ظهور المحن مشهور في كلام العلماء، الذين أخذتهم الغيرة على الإسلام، ولما كثرت على المسلمين غاراتهم، وقلّت من أهل البلاد عليهم غيرتهم، واشتدت على المسلمين شوكتهم، خاطب علماء الأفاق على ألسنة الرفاق، بنى عامر وزناتة، محرضين إياهم على الإغاثة يعايرهم بالدخول تحت ذمة الكوافر وافتراش بناتهم الحرائر:

أولا: أن أول من انتبه لخطر الاحتلال الاسباني على الإسلام، والمسلمين، والكفرة في كل من وهران والمناطق المجاورة لها، حتى في جزائر بنى مزغنة؟ فإن الذين طلبوا من ابن التومي النجدة بالأخوين عروج وخير الدين، هم علماء الجزائر، وفي بجاية كان لابن القاضي دور في استقدام عروج لتحرير بجاية.

ثانيا: هؤلاء العلماء تأثروا بسوء الوضعية، التي أصبحت عليها البلاد، نتيجة لكثرة الغارات على النواحي القريبة والبعيدة من وهران، والمرسى الكبير.

إن زاوية أحمد بن يوسف الملياني تعتبر من أهم الزوايا في هذا العصر بحيث لم يكن تأثيرها مقتصرا على محيطها فقط بل امتد إلى المغرب الأقصى.

وطريقة أحمد بن يوسف هي الطريقة الزروقية نسبة إلى العالم الجليل الفقيه المحدث الصوفي أحمد بن عيسى البرنسي الشهير بزروق وفي مقدمة الشيوخ الذين تأثر بهم، أحمد بن عقبة الحضرمي المتوفي سنة **854هـ/1450** تتلمذ زروق على مجموعة من العلماء في المغرب الأقصى والأوسط والأدنى كالعلامة ابن زكري التلمساني وقد اعتبر حسب ما ذكر من قبل مترجمه بأنه

1- الجامعي، فتح وهران، ورقة 8، أبو راس عجائب الأسفار، ورقة 16 أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 336.

آخر أئمة الطريقة المحقيقين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة وعن يده انتشرت الطريقة في المغرب الأوسط بواسطة تلامذته وفي مقدمتهم أحمد بن يوسف الملياني الراشيدي الذي اختص به في بجاية إلى جانب مجموعة من علماء المغرب الأوسط وقد علق عليه صاحب كتاب سلوة الأنفاس فقال: "كان من أعيان مشايخ المغرب العظماء العارفين أخذ أوتاد المغرب وأركان هذا الشأن جمع الله له على الشريعة والحقيقة وانتهت إليه رئاسة السالكين وتربية المرتدين في البلاد الراشدية والمغرب بأسره".

نلاحظ على النص مايلي:

أولا: أنَّ الملياني بعد دراسته على زروق في بجاية والتي استمرت فترة زمنية تلقى خلالها الطريقة القادرية بعد انتقاله إلى بجاية وتوليه التدريس بها ثم وصول الملياني إلى بجاية وأخذ الطريقة عليه.

ثانيا: أنَّ الملياني يعتبر تلميذ التلميذ على الرغم من ذلك فإن الزيتوني اعترف بمكانته وهو ما جعل الصباغ يعلق على ذلك بقوله: "انظر تعظيم أحمد[1] لأحمد بن يوسف الملياني مع جلالة قدره في العلم والدين".

ومن بين الذين تأثروا بالملياني وكان لهم دور نشيط في الحركة الصوفية أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن السهيلي والده الولي الصالح عبد الرحمن الجرجوي نشأ ودرس بالبلاد الجزائرية « جزائر بنى مزغنة » وتولى بها القضاء زمانا ثم انتقل إلى المغرب الأقصى، وقد مر في طريقه بالعلامة أحمد بن يوسف الملياني فأخذ عنه الطريقة ثم انتقل إلى تافيلالت فنزل عند أولاد عبد الحليم وتصدر بها التدريس ثم رحل إلى الزريقية بوادي زيز، فتزوج

1- الصباغ المصدر السابق، ورقة 115.

وولد له عبد الله ثم رحل إلى قصره السهيلي وأسس به زاوية على الطريقة الزروقية ثم أسسوا لهم زوايا في إقليم وادي الساورة.

ومن أتباعه عبد القادر بن محمد والولي الصالح أحمد بن موسى الكزراري ويحي بن صفية، وهكذا نجد بأن تأثير رجال الزوايا في أراضي الدولة الزيانية قد امتد إلى خارج محيط هذه الدولة في عصر الملياني.

- دور طــلابه:

لعب طلبة الملياني دورا مشرفا في انتشار الطريقة الزروقية في حياته وبعد مماته وكذلك في محاربة الغزو الخارجي المتمثل في الاحتلال الإسباني، فقد تحالف الملياني مع الأخوين عروج وخير الدين، عندما تبين له بأنهم يعملون من أجل إنقاذ الجزائر من الخطر الأجنبي الذي تمكن من السيطرة على الموانئ الساحلية متخذا منها قاعدة للتوغل في الداخل بعد أن وجد تعاونا مــن قبل شيوخ القبائل وأمراء الدولة الزيانية فوقف إلى جانب الحق ولعب هو وتلامذته دورا مشرفا في مقاومة الغزو الإسباني للناحية فتولوا قيادة الكتائب في المعارك بين المسلمين والاسبان، وقد اعترفت الوثائق الإسبانية بهذا الدور الذي قاموا به، وقد تناول الصباغ[1] بعضهم عند تعرضه لتلامذة الملياني، فذكر من بينهم محمد مقري القلعي قال عنه: " أنه كان صواما قواما مــن أعظم الأولياء مدح أحمد بن يوسف بأشعار، لم أحفظ منها شيئا لأنه مات شهيدا في معركة الأتراك والنصارى، الواقعة بمحشر السوح من حومة القلعة وتركني صغيرا.

1- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 117.

يستخلص من النص مايلي:

أولا: أن محمد بن مغزي القلعي[1] كان شاعرا وقد مدح أحمد بن يوسف الملياني، لكن أشعاره لم تدون لأن صاحبها قد استشهد قبل أن يدون ما قاله فـــي مدح الملياني وربما قصائد في غير المدح ترجع إلى هذا الشاعر، يتناول فيها المعارك التي جرت في القلعة وما جاورها.

ثانيا: أنَّ محمد بن معزي القلعي وقف ضد الاحتلال الإسباني للقلعة ومـــا جاورها ويبدو أنه كان على رأس المجاهدين لمكانته العلمية ولقربه من الملياني، فسقط شهيدا بإحدى المعارك بين الأتراك والإسبان الذين كانوا كثيرا ما يعبرون الأراضي المجاورة للقلعة وعلى الخصوص في عهد الكونت الكوديتي[2] .

ثالثا: إن الصباغ حدّد لنا موقع المعركة ولم يتعرض لتاريخها والنتائج التي أسفرت عليها. ومن هؤلاء العلماء الذين وقفوا ضد الاسبان قاسم بن سعيد القلعي قال عنه: "كان من أهل المكاشفات مات في الملاحم الواقعة بقلعة بني راشد وقت حلول الإسكندر والأتراك بها مع النصارى دمرهم الله مات شهيدا رحمه الله قتله الكفار وكان من الذاكرين".

يستفاد من النص مايلي:

أولا: أنَّ قاسم بن سعادة[3] كان من الأولياء الصالحين يأتيه الزوار فيكشف لهم أمورا قبل حدوثها ولم يذكر الصباغ أي علاقة مع رجال العلم بل كان من مريدي أحمد بن يوسف الملياني ولعل استشهاده مرتبط بهذه العلاقة.

1- نفسه: ورقة 117

2- عن عصر الكونت الكوديتي: انظر الباب الأول الفصل الثالث، ص110

3- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 149.

ثانيا: إن الكاتب حدد لنا تاريخ استشهاده عكس من سبقه وقد استشهد بعد المعركة التي دارت بين الجيش الجزائري بقيادة الإسكندر والإسبان وحلفائهم من الزيانيين والقبائل الذين وقفوا ضد الإسكندر فعدم تكافؤ القوى حال دون تحقيق النصر من قبل الإسكندر فاستشهدوا وقتل من كان معه من أفراد حامية القلعة وحتى الذين كانوا بداخلها من السكان الذين لم يتمكنوا من الخروج منها قبل سقوطها ومن هؤلاء رجال العلم لأنها كانت من بين المراكز الثقافية التابعة للدولة الزيانية وقاسم بن سعد يبدو أنه استشهد داخل أحد مساجد القلعة في الوقت الذي كان قائما بالذكر يردد ذكر الله عز وجل».

يضاف إلى هؤلاء التلاميذ الذين نشروا طريقته بعد وفاته أحمد بن الأحول، عرف بذلك لنسبه لأمه فكان من بين رجال الطريقة تولى الآذان بجامع الخطبة بقلعة بني راشد[1]، مواظبا على الأوقات، في الليل والنهار، لا يأخذ على الآذان الأجر لما علم من الثواب في الأذان، محبا لأهل العلم مجالسا لهم.

يستفاد من النص:

أ: أن بعض مريدي الملياني وأتباعه نسبوا إلى أمهاتهم عكس ما هو الحال في مناطق أخرى ولعل السبب في ذلك يرجع إلى مكانة المـــرأة في المجتمع المغربي وعلى الخصوص لدى قبائل زناتة البدوية التي احتفظت ببعض العادات والتقاليد[2].

1- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 22.

2- يذكر الصباغ: أن سيدي الشريف، الذي كان ضريحه في مدينة الجزائر وهو من تلامذة أحمد بن يوسف الملياني نسب إليه كرامة تنص على أنه دخل إلى القلعة واتجه إلى مساجدها وقال أن مسجدها شيد من قبل الإسبان، إنظر الصباغ: ورقة 167

ب: أنه كان مؤذنا بأكبر مساجد القلعة، وهو مسجد الخطبة مما يؤكد لنا أن القلعة كانت تحتوي على مجموعة من المساجد أكبرها الذي تقام فيه خطبة الجمعة.

ج: أنَّ المؤذنين كانوا يتقاضون رواتب ولعل ذلك كان يأتي من العقارات المحبسة[1] على المساجد مثل ما هو عليه الحال في تلمسان عاصمة الدولة الزيانية.

د: مسجد الخطبة في قلعة بني راشد كانت تلقى به الدروس من علمائها وكان هذا المؤذن يواظب عليها وله علاقة حسنة بالعلماء الذين يتوافدون علـــى المسجد لإلقاء الدروس به.

وعبد القادر بن محمد ولد أبي الربيع سليمان دواد، يلقب بأبي دواد دفين بني ونيف المتوفى سنة 946هـ/1539م درس على أحمد بن يوسف الملياني وكذلك أحمد بن موسى، الذي ولد بفاس سنة 895هـ/1480م ثم تلقى معارفه الأولى بها ومن بين الذين أخذ عنهم فنون المعرفة محمد بن أبي جمع الصوماتي فقد حفظ عنه القرآن ثم أخذ العلوم الأخرى عن عدة مشايخ منهم محمد بن أحمد غازي المكناسي وأبو العباس أحمد بن على المنجور[2] وبعده سافر من فاس إلى سجلماسة وحط ركابه الطريقة الزروقية الذي كان قد تلقاها من أحمد بن يوسف الملياني، ولم يتوقف أحمد بن يوسف عن أخذ العلم عنه بـــل رحل إلى أحمد بن يوسف وأخذ عنه المعرفة.

1- الونشريسي: المعيار، ج2، ص155.

2- ابن عساكر: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط 1977، ص38.

- الانتقادات الموجهة للملياني وأتباعه:

على الرغم من النجاح الذي حققه أحمد بن يوسف الملياني فإنه وجد معارضة من قبل علماء غريس وهوارة وبني راشد، وأشار إلى ذلك الصباغ في كتابه البستان، وقد قدم لنا بعض الأمثلة تتعلق بالعلماء الذين كانوا يعارضون الملياني ومن هؤلاء:

1- محمد الزندوي: تتلمذ على السنوسي فكان يتجه إليه بمدينة تلمسان للأخذ عنه، وهو ما يؤكده الصباغ بقوله: أن سيدي محمد الزندوي، كان يقرأ على السنوسي المذكور، وفي ذات يوم وقع بعتاب في سيدي أحمد بن يوسف مع بعض الجهلة، فلما أتى المجلس مجلس السنوسي» بادره الشيخ وقال له: "تقول في سلسلة الذهب، أحمد بن يوسف، اذهب إليه الساعة واطلبه في استغفار، وأن يجعل في كل الذي اعتبته بها، وأخذ عليه من الأسرار التي منحه بها فذهب وفعل ما أمره".

فتجلى الباحث من هذا النص مايلي:

أ: أنَّ أحمد بن يوسف الملياني الذي انتشر صيته في قلعة بني راشد وما جاورها وجد معارضة من قبل علماء الدولة الزيانية، وقد اتهم هؤلاء هو وأتباعه بأنهم جهلة لا معرفة لهم بالتصوف وعلى الخصوص ما يقوم به المريدون من حركات فقد قال عنها بعضهم: "بأن تلك الحركات التي يقومون بها لا علاقة لها بالإسلام".

ب: يوضح النص بأن السنوسي ذاع هو الآخر صيته فكان الطلبة يقصدونه من مختلف أرجاء الدولة الزيانية ومنها قلعة بني راشد التي كانت تشكل إقليما إداريا تابعا للدولة الزيانية، فأغلب طلبة هذا الإقليم توافدوا على مدارس

تلمسان، ومساجدها، للأخذ عن كبار شيوخها أمثال ابن زكري والسنوسي، وابن صعد، وابن زاغو[1]، وابن مرزوق[2] والعقباني، وغيرهم من كبار العلماء.

ج: أن النص يشير إلى اعتراف السنوسي بالمكانة العلمية لأحمد بن يوسف الملياني وكرامته، وهذه ربما فيها نوع من المبالغة الهدف من ورائها إبراز دور ومكانة الملياني بالنسبة للمجتمع الزياني، مما جعله يتهم تلميذه ويطلب منه أن يتجه إلى الملياني طالبا العفو منه.

2- أتباعه: لم تكن معارضة هؤلاء العلماء مقتصرة على أحمد بن يوسف الملياني، بل امتدت إلى بقية رجال الطرقية ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلاّ أن بعض هؤلاء يقومون بأعمال لا تتماشى مع الشريعة الإسلامية، فقد أشار المازوني إلى ذلك وقال: "سئل العقباني عن رجل ينسب إلى الصلاح، ويزعم أمور لا يدعها لما قبل قال: "نرى جبرئيل ويقول لي: "ونسمع منه، ونرى ميكائيل حين يكيل الماء ويقول للطلبة من يشتري لي ضيعة، ويقول للظلمة ننجيه ونعزل مضاده ويقول لمن يراه مريضا خذ هذه العشبة تداوى بها فإنها كانت كما أعطاها لي رسول الله (ص)".

هذا النص يوضح لنا بأن هناك فئة من الدجالين استغلت ضعف السلطة والصراعات المتواصلة بين القبائل لنشر أفكارها التي لا علاقة لها بالإسلام، ولا تزال هذه الظاهرة إلى يومنا هذا.

وعن تمسك السكان بالأولياء ذكر الصباغ أن يحي المغراو ي القاطن بمصراته قال: "بأن على الندرومي[3] بلغ منزلة في الولاية ويأتيه الناس في

1- نفسه: ص 142- 148.

2- نفسه: ص 223 - 249.

3- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 130.

ندرومة[1]، بالهدايا، والتحف، والظاهرة لا تزال متفشية لحد الآن في أغلب الأرياف التي تنتشر بها الزوايا.

أما الندرومي فقد وجد معارضة من كبار علماء العصر ومن هؤلاء أبي الربيع سيدي سليمان بن أحمد سعيد القلعي[2]، الذي اشتهر في عصره بالقوة فكان يحفظ نحو الثمانية عشر كتابا، لذا عرف بالحافظ، كان يتوافد باستمرار على تلمسان عاصمة الدولة الزيانية لتلقي المعرفة من علمائها ومن هؤلاء ابن زكري، لذا ذكر الصبّاغ أنه ذهب إلى تلمسان نحو مجلس أبي العباس بن احمد بن محمد بن زكري، وكان هذا الأخير يفضله عن بقية الطلاب، الذين يتوافدون على مجلسه لكثرة حفظه فكان يرجع إليه مرارا خلال المجلس، وتوجيه السؤال إليه عن أشياء ضمن الكتب التي اشتهر بحفظها لأنها من بين التي كانت تدرس من قبل ابن زكري .

وذات مرة خلال ذهابه إلى تلمسان التقى بمحمد بن موسى المازوني، الملقب بالمجدوب وكان من أولياء الله ومن علماء التصوف رجع إليه الصباغ في كثرة من المواضع في كتابه البستان نقل منه فقرات ونصوصا ويبدو من خلال ما جاء في زهر البستان أنه ألف في التصوف كما فعل قريبه المغيلي الذي تعرض الأولياء شلف، ولهذا فأننا نعتقد بأنه ألّف في الأولياء، وكرامتهم مما جعل الصباغ يعتمد عليه وينقل منه فقرات كثيرة في كتابه لأن مكانته تبدو أنها لا تقل عن أحمد بن يوسف الملياني، وأن دعوته مستجابة لذلك عندما التقى به سليمان بن أحمد وهو بالحناء في يديه والكحل في عينيه، والسواك

1- نفسه: ورقة 40.

2- نفسه: ورقة 9ب

ونحو ذلك فأنكروا عليه ذلك مما جعل المجذوب يدعو عليه ويقول حسب ما ذكره الصباغ: "تكون مدرسا والله تكون قاضيا والله ثم مشى وتركه[1]".

فالذي يستفاد منه أن الذين كانوا يزاولون دراستهم في تلمسان على شيوخها كانوا عند اتمام دراستهم ويعودون إلى أقاليم الدولة الزيانية يتولون مناصب كالقضاء والإفتاء والتدريس.

وأن دعوة المجذوب أصابت هذا العالم الجليل ومما يؤكد على ذلك أنه عندما عاد إلى تلمسان حضر مجلس ابن زكري، لم يشارك كعادته فيسأله عن ذلك ابن زكري وعندما أخبره بذلك قال له: "نذهب لهذا الولي ونطلب لك الشفاعة منه وعندما اتصل به ابن زكري أجابه المجذوب بأن الحاجة قد انقضت.

ولعل هذا فيه نوع من المبالغة لأن الصباغ يريد أن يبرز لنا كرامات هؤلاء الأولياء المعاصرين لأحمد بن يوسف، لذا فإنه عندما عاد إلى القلعة درس، لكن الطلبة الذين حضروا مجلسه اشتكوا من عدم استفادتهم ومما يؤكد ذلك القاضي علي بن محمد بن معز تحدث مع الصباغ وقال: "ذهبت تقرأ في حال صغرى على سيدي سليمان فلم نستفد منه لدعوة المجذوب له".

- **القلعـــة:**

لم تتوقف المعارضة عند هذا الحد بل امتدت أيضا لفقهاء قلعة بني راشد الذين وجهوا انتقاداتهم إلى المريدين ولكن ربما البعض من هؤلاء من أتباع احمد بن يوسف الملياني وغيره من رجال زوايا أراضي الدولة الزيانية وفي هذا الصدد قال الصباغ: " اعترض بعض الفقهاء على الفقراء الذاكرين لله

1- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 9.

فــي حلق الذكر والدعوى لم يثبت عن الرسول(ص) هذا في اجتماعه مع الصحابة وإنما ورد عليه الصلاة و السلام، الله لا أله إلا لله، سبحان الله والحمد لله[1] ».

لم تتوقف الانتقادات عند هذا الحد فقط بل امتد ت إلى الأماكن التي كانوا يتخذونها في اجتماعاتهم والمتمثلة في المساجد القديمة التي يبدو أنها أضرحة لبعض الأولياء ولا تزال الظاهرة لحد الآن في القرن العشرين وكذلك الزوايا والكهوف فهذه في رأي الفقهاء تعتبر بدعا لا يجوز السكوت عنها، لأن حديث الرسول(ص) قال: " لا تشد الرحال إلا لثلاثة المسجد الأقصى والمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف".

وقد رد رجال التصوف على هذا النقد بأن الرسول(ص) لم يمنع زيارة مساجد اخرى فكان هو يقوم بزيارة مسجدنا على الرغم من انه لم يكن ضمن الثلاثة المذكورة .

أما البدع التي تتعارض مع الشريعة الإسلامية فقد وجدت معارضة من قبل رجال الزوايا وهو ما يؤكده الصبّاغ بقوله[2]: « وأما أهل البدع فيجب التغيير عليهم ويهون على فعلهم القبيح من مخالفة السنة". فلقد حكي أن الشيخ أحمد بــن يوسف أحرق عليهم بيوتهم وأمر بصرفهم وتأديبهم غير ما مرة، وكــان يقول لأصحابه عليكم بكتاب الله وأن علماء السنة اجمعوا علــى تعظيــم أحمــد بــن يوسف الملياني، فالسنوسي ومحمد بن الجبار والفجيجي[3] وأحمد بــن عبد الواحد الورغي ومحمد الزيتوني[4].

1- نفسه: ورقة 51.

2- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 51.

3- نفسه: ورقة 63.

4- نفسه: ورقة 115.

فالنص الهدف منه إبعاد شبهات *البدع* عن طريقة أحمد بن يوسف الملياني الذي بدأ أمره بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد رفض البقاء إلى جانب أبيه في دواره عندما رأى الناس يزنون جهارا ،ولم يستطع أن يؤثر على هؤلاء فاتجه إلى قاضي قلعة بني راشد الذي كان موقفه سلبيا[1]، لكن يبدو أن الملياني عندما زادت مكانته وانتشرت طريقته وكثر مريدوه، بحيث أصبحت الدولة الزيانية تخشى من سلطته عمد إلى محاربة البدع التي انتشرت خلال فترة انحطاط الدولة الزيانية وحتى ما نسب إليه فيما بعد يعتبـــر مبالغ فيه وعلى الخصوص طريقته اليوسفية التي نسبت إليه، ومبادؤهـــا لا تتماشي مع الشريعة الإسلامية.

- انتشـــار اليوسفيـــة الزروقيـــة:

لم يبق تأثير الملياني مقتصرا على مجموعة الزوايا التي أنشأها بقلعـــة بنـــي راشد، وما جاورها، بل امتد إلى المغرب الأقصى، والجنوب الغربي الجزائري.

ففيما يتعلق بالمغرب الأقصى فإن العالم الجليل أحمد بن الحاج البيدري[2] قدم من المغرب الأقصى إلى زاوية الملياني، فاستقبله بها ومكث عنده أكثر مـــن ثلاثة أيام، يبدو أنه أخذ عنه المعارف، وعلى الخصوص ما يتعلق بالطريقة الزروقية، التى تلقاها الملياني عن نتيجة زروق الفاسي ببجاية، وقـــد علـــق الصباغ على هذا اللقاء فقال: " أنه أخذ، وقرأ عليه واعتـــرف بولايـــة أحمـــد بن يوسف الملياني".

1- نفسه: ورقة 13.

2- نفسه: ورقة 115.

وعلى الرغم من العناية العلمية لهذه الشخصية في المغرب الأقصى حيث يعتبر من كبار علماء عصره، وقد علق عليه الصباغ بقوله: «بأنه لم يتمكن أي أحد في المغرب الأقصى من فك رموز أبيات شعرية، لمحمد ابن غازي المكناسي غيره"، مما يؤكد مكانته العلمية ولذا يبدو أن الملياني نفسه قد استفاد منه خلال زيارته للزاوية فأخذ عنه مجموعة من المعارف. كما يظهر أيضا بأن طلبة الملياني قد توافدوا عليه واستفادوا منه لأن الزاوية كان لها دور ثقافي يتمثل في إعطاء الدروس للطلبة والمريدين وقد نبه لذلك الحسن الوزان خلال زيارته للزاوية في بداية القرن العاشر/السادس عشر الميلادي.

ومن بين الذين زاروا الملياني في زاويته، الحافظ الجليل محمد بن عبد الجبار الفجيجي الذي كان من كبار العلماء في عصره، بإقليم فجيج، وله اتصال بعلماء عصره، ومن هؤلاء عبد الكريم المغيلي، الذي أرسله في قبضة يهود توات، وقد أجابه بموافقته على محاربتهم، لأنهم تخلوا عما كان يربطهم بالمسلمين، فرفضوا دفع الجزية التي هي فرض، وقد انتقل محمد بن عبد الجبار من فقيق إلى حوض شلف حيث كان الملياني مستقرا في مكان عرف بالأحرف الحمر ولعله مجاجة التي كانت من أبرز المراكز في عصر أحمد بن يوسف الملياني واستقدمه للزاوية الغرض منها زيارة الملياني، والأخذ عنه، ومحاربته في قضايا تتعلق بالحركة الصوفية، وقد علق على ذلك الصباغ فقال: "تكلم مع الشيخ في العلوم ورجع إلى أهله في نعمة وسرور[1]".

لم يكن الفجيجي هو الوحيد من علماء الغرب الأقصى الذي زار الملياني بل نجد أيضا الولي الصالح محمد الزيتوني[2] حين أتى من المغرب الأقصى

1- الصباغ: المصدر السابق، ورقة 114.

2- نفسه: ورقة 115.

على رأس موكب حجاج المغرب متوجها إلى زيارة الأماكن المقدسة فاجتاز الرشيدية وعندما علم الملياني بوجوده على رأس الراكب انتقل إليه واستدعاه إلى زاويته، وقد سجل لنا الصباغ الحديث الذي دار بينه وبين الزيتوني فقال: "قال له الزيتوني أنت ابن الزروق وهو ابني وأنت تلميذ الزروق وهو تلميذي".

فالذي يستفاد من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن الزيتوني كان من رجال الطريقة القادرية في المغرب الأقصى وقد تتلمذ عليه زروق الفاسي قبل.

تلقى أيضا على شيخه، معارف أخرى على بعض علماء بجاية، لأن هذه الأخيرة كانت من أنشط المراكز الفكرية، خلال القرن التاسع الهجري، والخامس عشر الميلادي، فقد توافد عليها مجموعة من كبار علماء ذلك العصر أمثال عبد الرحمن بن مخلوف[1] الثعالبي، ومحمد الهواري[2] وحتى عبد الكريم .

ثانيا: أن احمد بن يوسف الملياني بعد حصوله على المعرفة والطريقة انتقل إلى مضارب بني راشد وبالتحديد إلى رأس الماء[3] فأسس هناك زاوية في البداية كان على علاقة طيبة بالدولة الزيانية لكن عندما تبين له بأن الأمراء الزيانيين لا يطبّقون الشريعة الإسلامية كما قاموا باضطهاد مجموعة من العلماء الذين وجهوا لهم انتقادات كالونشريسي والمغيلي وتقربوا من الجالية اليهودية مما جعل الملياني يصف الدولة بأنها دولة يهودية، وبذلك أعلن الحرب ضد الدولة مما جعل تصدر الأوامر من أجل القبض عليه وقتله لأنـــه

1- ابن مريم: البستان، ص 250- 260.

2- نفسه: ص 35-60.

3- رأس الماء لا تزال تحمل نفس الاسم تابعة، لولاية سيدي بلعباس الآن.

أصبح يشكل خطرا عليها فترك راس الماء وتوجه إلى يلل طالبا الحماية مـن قبائل الناحية فازداد عدد مريده مما جعل الوزان يعلق عليه بقوله:

تعرض فيها لمجموعة من العلماء نذكر من بينهم العالم الجليـل عبـد الله، الذي كان من تلامذة أحمد بن يوسف الملياني استقر في مدينة تسالة[1]، ضـمن مضارب بني عامر ثم انتقل إلى غريس، ولعل السبب في ذلـك يرجـع إلـى سوء التفاهم بينه، وبين شيوخ بني عامر، الذي كان الـبعض مـنهم مـوالي للاسبان.

ومن الذين ورد ذكرهم في المنظومة سحنون كان إماما في العلم، درس بغريس، وتخرج عليه طلبة العلم بها، ومنهم أيضا سيدي معمر مشهور بغريس، وهو جد عبد القادر بن محمد المعروف بسيدي الشيخ.

وكذلك محمد بن عبد الرزاق، الذي تتلمذ عن الإمام ابن غازي، وعنـد عودته إلى مسقط رأسه توافد عليه طلبه غريس وأخذوا عنه المعارف.

ومن هؤلاء الإمام أبو محمد بن عبد القادر بن أحمد المختار، بن محمد مـن أبناء عبد القوي بن علي، له تلامذة كثيرون ألف في علم التوحيد، ودرس الحاشية على صغرى السنوسي ويعبرون عنه بشيخنا أبي محمد عبد القادر بـن خده الراشيدي[2].

عرفت ناحية غريس في فترة موضوع البحث العالم الجليل محمد[3] بن يحي المغرواي الذي درس في البداية بمسقط رأسه، ثم انتقل إلى تلمسان فدرس بها

1- تسالة قرية قريبة من سيدي بلعباس، لمزيد من المعلومات عنها في هذه الفترة موضوع البحث انظر، الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 33.

2- سعد الله المرجع السابق ص 107.

3- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 44.

عن الشيخ محمد السنوسي وغيره من العلماء التلمسانيين المعاصرين له. من أبرز الفنون التي تلقاها عنه التصوف لأنه هو الذي ألبسه الخرقة، وهذا يؤكد لنا بأن السنوسي لعب دورا كبيرا في انتشار حركة التصوف بإقليم الدولة الزيانية وقد سبق في ذلك محمد بن يوسف الراشيدي الملياني[1].

يضاف إلى هؤلاء المعاصرين له في ميدان التصوف أبو عبد الله محمد بن أبو هلول المحاجي[2] الذي كانت طريقته سنة، وأن تعبداته تختلف عن البعض الطرقيين الذين عاصروه لأنه أخذ الطريقة عن السيد محابن شاعة[3] الذي تتلمذ على الشيخ الملياني والذي تتلمذ بدوره عن الشيخ أحمد زروق[4] وبذلك يعتبر هذا العالم على الطريقة الزوقوية الشاذلية التي عرفت انتشارا في العالم الإسلامي وعلى الخصوص بالمغرب الإسلامي، وقد أتى هذا العالم على الطريقة بوجهها الأكمل.

ومن بين العلماء عثمان بن أبي زياد الذي عرف عنه من خلال كتب التراجم أنه كان غيورا على الشريعة الإسلامية مما جعله يختلف مع محمد بن يوسف الملياني وقد علق عليه صاحب فتح الترجمان بقوله: ‹‹وقعت بينه وبين أحمد بن يوسف الملياني أمور لاينبغي لعاقل أن يستنقصه››. وقعت مناظرة بينه وبين أحمد بن يوسف الملياني ومن بين الذي لهم فضل على الحركة الفكرية في هذا العصر المتميز بالفوضى والحروب المتواصلة الشيخ أقدر[5] الذي أعلن الحرب على قبيلة هبرة، بعد أن فعلت الأفعال الشنيعة

1- نفسه، ورقة، 15.

2- الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف الجزائر 190، ج2، ص 32.

3- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 166.

4- بن الحاج، ربح التجارة، ورقة 91.

5- محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص25.

بالمسلمين المهاجرين من غرناطة والنازلين بمرسى أرزيو فكانوا ينهبون المهاجرين ويقتلونهم ويشقون بطونهم لما يظنون من ابتلاعهم للجـواهـر، لأن علماء الدولة الزيانية خلال هذه الفترة تولوا حركة التغيير لأن سلطة الدولة قـد انهارت وهو ما دفعهم إلى قيادة كتائب المجاهدين للدفاع عـن أحواز الوطن ابتغاء السعادة.

وقد خلد الشعر الشعبي هذه المعارك وأشاد بهؤلاء الذين جاهدوا في الله حق جهاده لمطاردة العدو وجلاده وفي هذا الصدد نأتي ببعض الأبيات منها:

وعبد الجليل حل قـدرا ورفعـه «» وعبد الكريم صهره ضامر نائب
الخلي وأبي بكر محمد فخرهـم «» دليل أبي بكر رئيس المـراكب
واحمام والقطبي و هواو الحسن «» كذا لما بدا الرحمن بدر المعـارك
ودوار ابرهيم عيسـي خليـفة «» وفحلى أبي صدور الكـتائـب

فمن بين العلماء الذين ورد ذكرهم في الأبيات العالم القدير عبد الجليل[1] الذي يعتبرمن كبار علماء العصر لأنه لم يقتصر على التدريس فقط بل ألف مجموعة من الكتب منها تنبيه الأنام في ذكر أحاديث النبي عليه السلام.

كان في البداية بتسالة ضمن مضارب بني عامر، ثم انتقل لزاوية صهره عبد الكريم درس ودرّس بها فزادت معارفه ومن أبرز مؤلفاته خلال هذه المرحلة شرح أرجوزة أبي زيد عبد الرحمن الرقصي الذي أوصل علم التوحيد لقلعة بني راشد.

ولكي يتمكن من نشر المعارف التي تلقاها على الشيوخ في السابق عمـد إلى تأسيس زاوية خصصها لتدريس العلم بقرية الكرط.

1- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 200.

ولما تغلب الاسبان على وهران سنة 915 هـ/1509م ثم محاولتهم السيطرة على المناطق القريبة منها وخاصة ناحية غريس أصبح تواجده بالكرط جمرا عليه مما دفع به إلى الانتقال لوادي فروحة في حدود الثلث الأول من القرن العاشر، وهناك أقام رباطا لطلاب العلم كان قبلة للعلماء في غريس وما جاورها:

وقد استفاد منه عبد الله بن عبد الرزاق الادريسي وعلي بن عمر الحمودي الادريسي وبفضل هؤلاء التلاميذ انتشر العلم بمضارب بني راشد وغريس حتى صار الوطن الراشدي بغية العلماء وقبلة الطلبة النجباء الذين حملوا راية العلم.

أما وفاته فكانت في حدود سنة920 هـ/1514م تاركا وراءه مجموعة من تلامذته وأبنائه كالفقيه ابن اسحاق يعقوب ومحمد الصغير الذي تولى إدارة الزاوية بعد وفاته، ابنه محمد الكبير انتقل لجبل تسالة حيث توجد مضارب بنى عامر.

- **العوامل المساعدة:**

ومن أهم العوامل التي ساعدت في ازدهار الحركة الفكرية في العصر الذهبي، للدولة الزيانية، نذكر مايلي:

أ- العنصر البشري:

فالعنصر البشري متمثل في بني زيان، الذين استولوا على الحكم، وقبضوا على زمام الأمور، منذ مدة طويلة عرفت فيها تلمسان أحداثا خطيرة، وانقلابات من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

فبنو زيان كعنصر اجتماعي، له خصائصه ومميزاته، كان يغلب عليهم فـــي البداية طابع البداوة، ثم تطوروا فانتقلوا إلى التحضر[1]، مما جعلهم يؤثرون في الحركة الفكرية، عن قصد أو عن غير قصد، وعملــوا علـــى تطويرها بعد أن اندمجوا في بيئة تلمسان، التي كانت مركزا ثقافيا قبل تأسيس[2] دولتهم، وارتبطوا بعناصر اجتماعية أخرى منها التلمسانية[3] والوافدة[4] عليـــها مـــن الأندلس فخلقوا تيارا اجتماعيا له وزنه وأثره.

ب- الهجــرة الهـــلالية:

إن هجرة قبائل بني هلال من الواحات الصحراوية والمناطق الداخلية، نحـــو أراضي الدولة الزيانية خلق تيارا اجتماعيا، لامتزاج العناصر العربية بالعنصر البربري.

فالعنصر البربري الحاكم في تلمسان، عمد إلى تقوية مراكز اللغة العربية، في البلاد، التي استولوا عليها كما شجع الزناتيون دراسة العربية باستقبالهم لمجموعة من العلماء توافدوا على عاصمة بني زيان من أراضي الدولة[5]،

1- يقول ابن خلدون أن السلطان أبا حمو موسى الأول707 هـ/1308م هو الذي نقل الدولة من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر انظر يحي بن خلدون بغية الرواد ج1 ص 212، 205.

2- ابن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص13، السليماني، زبدة الشماريخ، ج3، ورقة 119.

3- ابن خلدون يحي: بغية الرواد، ج1، ص212.

4- من بين العائلات الوافدة: عائلة العقباني التي لعب أفرادها دورا مشرفا في حياة الدولة الثقافية واستمر تأثير هذه العائلة حتى نهاية الدولة ولازال البعض من أفراد العائلة بتلمسان، لمزيد من المعلومات عنها انظر يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص126.

5- من بين الذين توافدوا على تلمسان من داخل الدولة أبو اسحاق التنسي، وأبناء الإمام من برشك، لمزيد من المعلومات عن هؤلاء انظر يحي بن خلدون المصدر السابق ص: 205، 212، 215.

وخارجها[1] وبذلك أصبحت روح السيطرة على مظاهر النشاط الثقافي عربية في صميمها، وقوية في انتشارها بين مختلف عناصر السكان مما ساعد في تعريب أراضي الدولة الزيانية.

لم يكن يصدر عن بني زيان ما يخل بهذه الروح ولا ما يوحي بتيار رجعي، يؤثر بصفة شعورية أو لا شعورية في تطور الحركة الفكرية وازدهارها، بل كانت العناصر البربرية المتمثلة في الزناتيين وغيرهم، من البربر بفضل تكوينهم العام، وتشابههم مع العرب في تقاليدهم والكثير من أخلاقهم ومظاهر سلوكهم يعملون من حيث لا يشعرون، بتدعيم الحركة الفكرية باللسان العربي وما لعبه بنو هلال القادمون من المشرق، إلى المغرب في المجتمع الزياني، بصفة خاصة في الناحية الثقافية، فقد كان لهذه القبائل ظهور بارز في مختلف أوجه النشاط، ولا سيما في المجالات التي تتفق وطبيعتهم، فعربوا كل النواحي التي استولوا عليها والتي كانت من بين المناطق التي تنتشر فيها اللهجة الأمازيغية، وعلى الخصوص الزناتية[2].

ج- تقرب أمراء الدولة من رجال الفكر:

بالنسبة للدولة الزيانية في عصرها الذهبي، كانت للأغلبية من أمرائها اتصالات برجال الفكر، في مقدمة هؤلاء مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان، حيث كان يجالس العلماء ويكثر من زيارتهم، مما يؤكد على ذلك أن المصادر التي اطلعنا عليها تذكر لنا أنه ارتحل لزيارة الولي الشهير أبي البيان واضح[3] بموضعه

1- ابن خلدون يحي، بغية الرواد، ج1، ص48، التنسي، نظم الدر والعقيان، ص126، انظر رسالتنا الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للدولة الزيانية ص 57.

2- من بين المناطق التي انتشرت فيها اللهجة الزناتية المغرب الأوسط الذي قال عنه وطن الزناتة انظر: ابن خلدون العبر، مجلد 6، ص 175-192.

3- المازوني، المصدر السابق، ج1 ورقة 96.

بجبل فرشان، والهدف من الزيارة هو التقرب من هذا الوالي تلمسا ببركته والدعاء له.

ومن بين الذين وجدوا العناية في عهده، عائلة التنسي وعلى رأسهم أبو اسحاق[1]، قال في شأنه التنسي عبد الجليل: " أنه أعلم من كان في زمانه، كانت الفتوى تأتيه من إفريقية وتلمسان، لذا فشهرته سبقت انتقاله لتلمسان. مما جعل يغمراسن يكاتبه ويرغبه في سكنى تلمسان[2]".

لم يكن يغمراسن هو الوحيد من سلاطين الدولة الزيانية الذي اعتنى بالعلماء، بل نجد أيضا أن أبا حمو موسى الأول الذي كان صاحب آثار جميلة، وسيرة حسنة، محبا للعلم وأهله ورد عليه بعد موت يوسف بن يعقوب المريني الفقيهـــان أبو زبدة[3] وأبو موسى[4]، أبناء الإمام، فلم ير ما يؤدي بــه شكر الله على النعمة التي من الله عليه بها من قتل عدوه وتعجيل الفرح إلى الاعتناء بالعلم، والقيام بحقه، فأكرم مثواهما واحتفل بقدومهما وشيد لهما المدرسة التي تسمى باسمهما[5]، وكان يكثر من مجالستهما والاقتداء بهما.

وقد سبق لأبناء الإمام زيارة المشرق العربي، الأخذ عن علمائه، بالمراكز التي تمكنا من زيارتها، فزادت معارفهما، لذا عندما عاد من المشرق تبين لهما أن برشك[6]، ومليانة لا تليق بالمكانة التي أصبحا عليها فقبلوا طلب السلطان عندما أمرهما بالانتقال إلى تلمسان.

1- التنسي، نظم الدر والعقبان، ص 126.

2- التنسي: نفس المصدر، ص126.

3- يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص137.

4- نفسه، ج1: ص139.

5- نفسه، ج1: ص139.

6- برشك: مدينة تقع غرب شرشال يعتقد بأن بناء غوراية كانت على أنقاضها.

كما كان ابنه أبو تاشفين[1]، متقربا للعلماء يسمع مدائحهم وعلى الخصوص في المولد النبوي الشريف، علق عليه التنسي بقوله: "كان له بالعلم وأهله، احتفال، وكانوا منه بمحل تهم، واهتمام، وفد عليه بتلمسان الفقيه العالم المفتي قاضي الجماعة أبو موسى عمران المشدالي"[2] من أكبر فقهاء عصره بمذهب مالك فأكرم نزله وأدام المسيرة به، وألحقه بجانبه وولاء التدريس بمدرسته[3] الجديدة". كما علق عليه يحي بن خلدون بقوله: «لم يكن في معاصريه أحد مثله، علما بمذهب مالك، وحفاظا له ولأقوال أصحابه وعرفانا بنوازل الأحكام وصوابا في الفتية وقد نسب إليه المازوني في كتابه الدرر المكنونة في نوازل مازونة مجموعة من النوازل»[4]. لم يتوقف هذا السلطان عن استقبال أبي عمران المشدالي بل استقبل أبا العباس بن عمر[5] البجائي، الذي قدم هو الآخر من بجاية فأنزله منزلة الكرامة وسأله عن مقدميه، فأخبره أنه جاء تاجر فعرف به أبوزيد بن الإمام، أمير المسلمين، فرفع عنه تكلفة مغرمة، ومغرم من جاء معه، وكان مائتي دينار ثم أعطاه زيادة على ذلك مائة دينار.

يضاف إلى السلطان ابن تاشفين الأول السلطان أبو حمو موسى الثاني الذي كان لــه إنتاج فكري في النثر الرائق والشعر الفائق، ومن العلم العقلي، والنقلي، ما جلا نوره من الدنيا. وقد قال في شأنه التنسي: «صنف، رضي الله

1- أبو تاشفين عبد الرحمن: تولى الحكم مابين718هـ/1318م و737هـ/1337م، انظر التنسي، المصدر السابق، ص142.

2- ابن خلدون يحي: بغية الرواد، ج1، ص127.

3- هي المدرسة التاشفينية التي أسسها إلى جانب مسجد سيدي أبي الحسن وقد شيدت بلدية تلمسان على أنقاضها، انظر التنسي: المصدر السابق، ص 139.

4- المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج1، ورقة 156.

5- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص75.

عنه كتابا أدبيا، لولده المولى أبي تاشفين ولي عهده، سماه نظم السلوك في سياسة الملوك»[1].

وأما اعتناؤه بالعلم، وأهله يقصر اللسان عن الإجابة عنه، وفي فترة حكمه برز شريف العلماء، وعالم الشرفاء أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحي[2] ، فكان له محبا ومعظما إن كان أوحد عصره، ومن أول المدرسين بالمدرسة اليعقوبية[3].

وقد ألف هذا الأمير قصائد شعرية وعلى الخصوص بمناسبة المولد النبوي الشريف الذي كان من أهم المناسبات التي يتنافس فيها الشعراء.

- مرحلة الانحطاط السياسي:

بدأت هذه المرحلة بمقتل السلطان أبي حمو موسى الثاني، لأن الدولة بعده دخلت في صراعات متواصلة وعلى الخصوص بين أبناء هذا السلطان، وأحفاده، ومن أجل تولي السلطة. لكن هذا لم يؤثر على الحياة الفكرية، فقد عرفت الدولة خلال هذه المرحلة، بروز علماء كبار أمثال المرازقة والعقبانيين ومن بين الذين كان لهم دور في تطور الحركة الفكرية في تلمسان أبو زيان محمد بن أبي حمو، وقد قال في شأنه التنسي: "أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع في نظم مجالسها، واتساقها، وأوضح لأهل الأبصار والبصائر رسمها، إن كانت تفرغ ما في السماء أصلها ثابت وفرعها في السماء، وتصرف بيته

1- يوجد الكتاب مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1374، وقد نشر في تونس سنه 1279هـ، 1862، 1863م.

2- هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحي الشريف التلمساني لمزيد من المعلومات عنه ابن مريم، البستان ص 164، 184.

3- أسس السلطان أبو حمو موسى الثاني المدرسة التاشفينية سنة 768هـ، 1363م كان موقعا إلى جانب مسجد سيدي ابراهيم المصمودي انظر التنسي المصدر السابق ص 180.

بين دراسة معارف وإفاضة عوارف وكلف بالعلم حتى صار سنهاج لسانه وروحة أجفانه، فلم تحل حضرته مـــن مناظـــرة ولا عمـــرت إلا بمذاكرة ومحاضرة فلاحت للعلم في أيامه شموس، وارتاحت للاستقرار ما فيه نفوس بعد نفوس، نسخ رضي الله عنه بيده الكريمة نسخا من القرآن، يوجد بالخزانة العامة بالرباط مصحف له مكتوب بخط مغربي جميل، محلى بالذهب، عند كل أول سورة وعلى رأس كل آية وجميع ما فيه من الأسماء الحسنى مكتوب بالذهب وهو أمير المسلمين أبي زيان كتبه بتلمسان سنة801هـ/ وهذه النسخة حبسها كلها بخزانته[1]، التي بمقدم الجامع الأعظم، والتي هي من مآثره الشريفة".

- المـــــــدارس:

لعل أول ما يتبادر لذهن الدارس للحركة العلمية للدولة الزيانية هو انعدام الجامعات الكبرى، ذات الإشعاع العلمي والإقليمي مثل ما هو الحال بالنسبة للأزهر، في مصر، والزيتونة، في تونس والقرويين في المغرب الأقصى، فإن المسجد[2] الأعظم الذي أسس في تلمسان، في عهد المرابطين لم يقم بالدور المنوط به لظروف تلمسان السياسية، التي لم تعرف الاستقرار طوال مراحل حياتها.

وهو ما جعل الباحثين يتفقون على أن الأغلبية من علماء بني زيان كانوا يسافرون إلى الخارج للانتفاع من غيرهم لأن تلمسان كانت تعيش فراغا ثقافيا، لكن هذا لم يشمل كل الفترات التاريخية، بل كانت تلمسان في عصرها

1- التنسي، المصدر السابق، ص211.

2- هو المسجد الأعظم الذي يقع في تاجرارت المدينة التي شيدت من قبل المرابطين خلال حصارهم لأغادير سنة 462هـ/ وقد شيد المسجد من قبل تاشفين نفسه، ص 211

الذهبي قبلة العلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي، فنجد بها علماء الأندلس[1] والمغرب الأقصى، إمارة بجاية[2] وحتى مصر، فعبد الباسط خليل تحصل على إجازة في[3] الطب من ابن الأشقر[4]، الذي كان يدرس الطب بتلمسان.

وحتى المراكز الثقافية التي نشأت خارج مدينة تلمسان، كوهران، وجزائر بني مزغنة، وقلعة بني راشد، ومستغانم، ومازونة، فإن علماءها الأوائل تتلمذوا عن علماء تلمسان، وعند عودتهم إلى مسقط رأسهم لعبوا دورا بارزا في نشر الإنتاج العلمي لعلماء تلمسان، أمثال السنوسي، ابن زكري، وابن مرزوق.

يلاحظ الباحث فيما يتعلق بالمدارس التي نشأت بأراضي المغرب الإسلامي ومنها الدولة الزيانية أنها تعتبر نموذجا مقتبسا من المعهد التعليمي الملحق بالزاوية الموجودة الأربطة[5] السابقة.

فالمدرسة التي ظهرت بفاس وتلمسان تشبه المعهد التعليمي الملحق بالزاوية وتسمح للدولة بوضع يدها على التعليم الذي يجب أن يخرج موظفين يعملون في تنفيذ سياستها. فالمدرسة إذن من حيث المبنى والنظام نظير الزاوية إلاّ أنها من حيث نزعتها تعتبر النقيض.

1- عن هجرة علماء الأندلس لتلمسان انظر يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص118، 120، 123.

2- نفسه، ج1، ص123، 129.

3- عبد الباسط بن خليل زار مدينة تلمسان خلال حكم السلطان المتوكل سنة 866هـ/ 1461م وقد تعرض إلى عادة التلمساني انظر:

4- يعرف أيضا بانكاوة ويوجد ضريحه بتلمسان.

5- ظهرت هذه الأربطة في العهود الأولى للتواجد الإسلامي بالمغرب ، ومن أبرزها :الرباط، المنستير وسوسة و وهران، لمزيد من المعلومات انظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، نشر دوسلان الجزائر، ص 126، 127.

فإذا كانت المدارس التي نشأت من قبل بني زيان قد خضعت لسلاطين هذه الدولة منذ عهد أول مؤسس لها وهو السلطان أبو حمو موسى الأول[1] مثل تعيين المدرسين ومنح العلاوات لمدرسيها وطلابها فإن الزاوية قد ورثت الرباط فهي أشد تحررا من الخضوع للحكام، وأحيانا يتدخل علماؤها وطلابها في مواجهة سياسة سلاطين الدولة عندما يحيدون عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وأحسن مثال على ذلك ما قام به الملياني[2] تجاه أمراء الدولة الزيانية، الذي شن عليهم حملات متواصلة لتقربهم من النصارى واستعمالهم لأفراد من الجالية اليهودية.

ومن بين الذين تناولوا موضوع المدرسة المغربية "جورج مارسي" الـــذي شارك أخاه "ويليام مارسي" في الموضوع، وقد قال: "إن المدرسة اسما ومسمى انتقلت من المشرق إلى المغرب، ثم أنه قارن بين دوافع بنائها لدى الشيعة فـــي المشرق وبني عبد الوادي في تلمسان".

وأن بناء المدارس من قبل بني عبد الوادي المقصود به إحياء المذهب المالكي واستئصال جذور المذهب الموحدي المناهض له. وقد قاوم الفقهاء تأسيس المدارس لأنها في رأيهم تخضع الدين للدولة.

وقد نقل المقري قول الأبلي الذي قال: " ما أفسد العلم هو كثرة التأليف وأذهبه بنيان المدارس. لأن بناء المدارس يجذب إليه الطلبة بما فيه من مرتبات فيقبل بهم على ما يعينه أهل الرئاسة للأجراء والأقرباء منهم أو من يرضى لنفسه دخوله في حكمهم، وتصرفهم مع أهل العلم حقيقة الذين لايدعون ذلك، وإن دعوا لم يجيبوا وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم".

---

1 – ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 212، 213.

2 – الصباغ، زهر البستان ورقة 266.

أهم مــدارس الدولة الزيــانية:

- مدرسة أبنــاء الإمام:

مدرسة أولاد الإمام موقعها بناحيــة المطمــر حســب ما ذكــره يحــي ابن خلدون[1]، أو داخل باب كشوطة كما ذكر من قبل ابن مريم، وأن من بين دوافع تأسيسها أن أبا حمو موسى الأول قد استدعى إلى تلمسان أبناء الإمام مــن برشك، وقد شيد لهما المدرسة للتدريس بها، كما بنى لهما بجانبها سكنا يتألف من دارين.

أما التنسي[2] فيقول في شأن المدرسة، كانت لأبي حمو موسى الأول آثار جميلة وسيرة حسنة، محبا في العلم وأهله، ورد عليه بعد موت يوسف بن يعقوب المريني[3] الفقيهان العالمان الجليلان أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى أبناء الإمام فقام بحقهما، وأكرم مثواهما وبنى لهما مدرسة تسمى بهما

- المدرســة التاشفينية[4]

أما المدرسة الثانية فكانت المدرسة التاشفينية اشتهرت بنسبها إلى مؤسسها السلطان أبي تاشفين الأول، تقع إلى جانب المسجد الأعظم وهي في منتهى الروعة والجمال؟.

وتعتبر أيضا من المنجزات الحضارية المعمارية، جعلها الحسن الوزان من أجمل المدارس، وعندما زار هذا الرحالة تلمسان اطلع عليها ويبدو أنه خلال

1- ابن خلدون يحي، بغية الرواد، ج1، ص 213، 219.

2- التنسي، المصدر السابق، ص 132، 134.

3- يوسف بن يعقوب المريني 695هـ، 1286م، من أكبر أعداء الدولة الزيانية قام بحصار تلمسان مدة ثمان سنوات وأشهر 1289 - 1307، 688، 707 وقد شيد خلال مدينة المنصور انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص 441.

4- التنسي، المصدر السابق، ص 130.

زيارته لها كانت لا تزال تقوم بدورها في ميدان التدريس واستمر وجودها حتى الاحتلال الفرنسي، حيث عمد هؤلاء الذين يدعون الحضارة إلى تهديمها وإقامة المجلس البلدي لمدينة تلمسان على أنقاضها وذلك سنة 1873، ولا تزال بعض البقايا من زلاجها وأخشابها في متحف حديقة الحرية بالجزائر العاصمة.

- المدرسة اليعقوبية:

أما المدرسة الثالثة فعرفت بالمدرسة اليعقوبية أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني، حيث ضريح أبيه أبي يعقوب يوسف، شيد إلى جانبها مسجد لأن المساجد خلال هذه الفترة المدروسة ملحقة بالمدارس وخاصة بالأساتذة وتلاميذ المدرسة وأحدث بجانبها مقبرة ضمت ضريح أبيه وأعمامه أبي ثابت وأبي سعيد اللذان حكما الدولة الزيانية بعد الاحتلال المريني لها سنة 737هـ/1338م. وأما المدرسة الرابعة التي شيدت من قبل بني زيان مدرسة سيدي لحسن بناها سنة 1453 أبو العباس أحمد بن أبي حمو موسى الثاني جريا على عادة ملوك هذه الدولة وقد ألحق بها مسجدا[1] .

- المدارس التي شيدت من قبل بني مرين:

هذا فيما يتعلق بالمدارس التي شيدت من قبل بني زيان، وأما المدارس التي ترجع لعهد بني مرين الذين شيدوها بعد احتلالهم لتلمسان نذكر منها ما يلي:

- مـــدرسة العبـــاد:

شيد هذه المدرسة أبو الحسن سنة 1346/747م وهي على غاية من الجمال قرب مسجد ضريح سيدي بومدين الذي أقامه الموحدون وأقيم إلى

1- أحمد أبي حمو موسى الثاني تولى الحكم من866هـ،1461 إلى 855هـ1451م انظر التنسي، المصدر السابق، ص 247، 249، السليماني الأعرج، المصدر السابق، ورقة 123.

جانب الضريح سنة 738هـ/1339م، مسجد العباد الـذي أصبح مـن بيـن المؤسسات العلمية بمدينة تلمسان.

- **مـدرسة سيـدي الحلوي:**

يضاف إلى هذه المدرسة، مدرسة سيدي الحلوي نسبة إلى أحد رجالات العلم من الأندلسيين وأقيمت إلى جانبها زاوية أسست سنة 754هـ/1354م. فالمدارس السابقة حظيت بعناية أمراء الدولة الزيانية، فأشرفوا عليها بأنفسهم حتى شيدت في أروع مثال، وأبهى حلة وكثيرا ما تجلى فيها الذوق الفني والمهارة الصناعية والخلق والابداع والزخرف البديع في أعلى الجدران والأبواب فكانت بذلك آية في الفن المعماري.

- **مـدرسة مـازونة:**

يبدو أن المدارس في عهد الدولة الزيانية كانت تقوم بدور هام خاصة في العصر الذهبي لهذه الدولة حيث كان سلاطينها يبذلون جهودا كبيرة في إقامة المدارس والتقرب من العلماء ومشاركتهم في المجالس العلمية مثل ما حدث في عهد السلطان يغمراسن[1] وأبي تاشفين[2] وأبي حمو موسى الثاني[3]، لكن يبدو أن الاهتمام بالعلماء والمدرسين وعلمائها في فترة ضعف الدولة تغير في فترة وأصبح العلماء هم الذين يشيدون المدارس بدل السلاطين. وأحسن مثال على ذلك ما حدث في مدينة مازونة التي أصبحت من بين المراكز الفكرية خلال فترة ضعف الدولة الزيانية وهو ما يؤكده المازوني بقوله: ‹‹سئل علي بن عثمان عن فقيه في مدرسة سكنها طلبة العلم وإقراء العلم، ونجد من طلبته

1- ابن خلدون يحي، بغية الرواد، ج1، ص 205.
2- نفسه، ج1، ص 215، 218.
3- نفسه، ج2، ص 101، 103.

نجيبان، فلما تولى الفقيه اختص بالمدارسة أحد النجباء يقرؤها للطلبة››.

يستفاد من النص مايلي:

1: إن مدينة مازونة خلال عصر يحي المازوني كانت تحتوي على مدرسة ولم نعرف بالتحديد متى شيدت، لكن يبدو لي أنها تعود إلى النصف الثاني مــن القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي الذي عرف توافد مجموعة من علماء الأندلس على مدن الدولة الزيانية وخاصة القريبة من الأندلس بعد وصولهم إليها انشغلوا بالتعليم، ولعل بعضهم نزل بمازونة وكان وراء ازدهار الحركة الفكرية بها[1]. يضاف إلى ذلك توقف الصراع الذي اشتد بين مغراوة بني عبد الوادي[2] فــي عصرهم الذهبي وإحلال القبائل العربية في مضارب مغراوة أثّر على الثقافة فانتشرت العربية بتدعيم من قبل شيوخ هذه القبائل مما جعل العربية تحل محل اللهجة الأمازيغية بها.

2: إن العلماء قبل وفاتهم كانوا يختارون أحد طلابهم لكي يتولى تسيير شؤون المدرسة والتدريس بها ويكون في أغلب الحالات من نجباء الطلبة. لكن ما حدث أن التنافس في بعض الحالات يشتد بين طلاب المدرسة، وهو مــا يؤدي في بعض الحالات إلى انقسام الطلبة، وهو مأدى بالنسبة لمدرسة مازونة حيت أن أحد طلابها لم يعترف بالذي خلف شيخ المدرسة فأعلن الانفصال عليها وعمد إلى تشييد مدرسة له فالتجأ إلى الدور المهدمة من المدرسة التي كانت تشتمل على مجموعة من البيوت بعضها محبسة على أحد مساجد مازونة بينما الباقي اتصل بأصحابه وطلب منهم التنازل وعليه شرائه

1- المازوني: الدرر المكنونة، ج2، ص 76.

2- عن الصراع بين مغراوة وبني عبد الواد انظر يحي بن خلدون، بغية الرواد، ص 204، 247.

لغرض بناء مدرسة. وحتى يواجه مشكلة نقص الأموال رأى أنه من الأفضل الاتصال بشيوخ القبائل العربية الذين كانوا قد استولوا على أراضي أصحابها وفرضوا الضرائب الشرعية على الفلاحين والتجار مما جعلهم يحصلون على أموال كبيرة وأصبح ما لديهم يفوق ما لدى الدولة الزيانية. لذا رأى هذا العالم أنه من الأفضل الاعتماد عليهم في بناء مدرسة وهو ما يؤكده المازوني[1] بقوله: «إنه قصد أمراء العرب ونسائهم وطلبهم أن يتصدقوا عليه لبناء هذه الخربة مدرسة فأعطوه ما طلب». وبعد تحصله على الأموال لجأ إلى مطالبة سكان مازونة بمساعدته في البناء لأن من طبيعة المجتمع الجزائري منذ العصور القديمة أن يتعاون وخاصة إذا كان الأمر متعلقا بالمؤسسات الدينية والتعلبمية ولاتزال هذه الميزة لحد الآن، مما يؤكد ذلك أن المازوني[2] صرّح بأن الناس يعينونه في البناء بأنفسهم قصد الأجر، لما كان البناء باسم المدرسة فلما كملت وسكنها الطلبة ما شاء الله بعد ذلك توفيت امرأة أمير من العرب فكلم زوجها الفقيه أن يدفنها في بيت من بيوت المدرسة. وإن هذا يتنافى مع دوافع بناء المدرسة مما أدى بالمازوني أن يطرح القضية على علماء المغرب الإسلامي لأن بناء المدرسة طرح مجموعة من المشاكل منها:

- أن أمراء العرب الذين قدموا يد المساعدة لهذا الفقيه كانت لغرض بناء مدرسة وحتى الأرض التي منحت للفقيه ستصرف عليها في صالح المدرسة واستفادة الطلبة الساكنين فيها.

ثم تطرح قضية الأرض التي بيد هذا الأمير الذي سبق له أن أخذها بالتغلب ولم يستند إلى إقطاع من يعتبر إقطاعه من أمراء الدولة الزيانية الذين فقدوا

1- المازوني: نفس المصدر، ج2، ورقة 87.

2- نفسه: ج2، ص 99.

سيطرتهم على مملكتهم وفي هذا الصدد يذكر المازوني: أن الأمير السابق لم يستند إلى إقطاع من يعتبر إقطاعه من أمراء المؤمنين فلا يمضي له فيها تحبيس ولا عطية ولا يحل لمن ينتسب إلى العلم أن يقبل شيئا من ذلك من يد الأعراب المتغلبين على الأوطان. فالذي يمكن التوصل اليه:

- إن هذا الأمير أخذ الأرض من أصحابها أو من أراضي الدولة بطرق غير شرعية فلا يحق له تقديمها حبسا على المدرسة، كما لا يجوز لهذا الفقيه الاستفادة منها.

- إن البعض من سكان مازونة رأوا في بناء هذه المدرسة سيؤثر على المدرسة القديمة ومسجدها لذا طلبوا بتهديمها لأنها أصبحت تنافس المدرسة السابقة وأن يطبق عليها ما قام به الرسول(ص) بمسجد الضرار بالمدينة المنورة. هذا فيما يتعلق بالنازلة أما إجابة العلماء يمكن تلخيصها فيما يلي:

- إجابة عبد الرحمن الوغليسي[1] الذي جاء فيها: ‹‹ وأما ما سألت عن هدم المدرسة ومسجدها لقصد الضرر، فهذا ما لا أصوبه وأستعصيه لأن كثرة أماكن العلم ترجع لكثرة طلاب العلم وانتشاره يتطلب توفير السكن لطلابه، والمدرسة ليست في الحكم كغيرها من المساجد المقررة بمساجد الضرر وليست متحققة بمسجد المدينة››. فالذي يمكن استخلاصه من إجابة الوغليسي بالنسبة لموضوع بحثنا يتمثل فيما يلي:

- إن فقهاء مازونة انقسموا على أنفسهم بين من يريد بقاء المدرسة ومسجدها ومن يريد تهديمها لأنها تضر بمسجد المدينة ومدرستها ولذا فتهديمها يتماشى مع ما قام به الرسول (ص) في مسجد المدينة.

1- عن عبد الرحمن الوغليسي: انظر ابن مريم: البستان، ص 85، 228.

- إن عبد الرحمن الوغليسي أنكر ذلك بدعوة أن كثرة طلبة العلم في أي مدينة يحتاج إلى عدد من المدارس. وبيوت الإقامة لهم لكي يتمكنوا من التحصيل ولهذا يجب على العلماء تشجيع بناء المدارس.

- إن وجود مدرسة مجاورة للأخرى لا يؤثر على الأولى لوجود عدد من الناس يريدون مزاولة التعلم بهذه المدارس وإن كثرة التنافس وزيادة عدد المدارس سيؤدي لامحالة إلى ازدهار الحركة الفكرية.

المساجد:

أما الصنف الثاني وهو من حيث الدراسة فقد كان مسجديا وعلى شكل حلقات فكان يشتمل على مجموعة من المواد كالأصول والفقه والتفسير ودراسة الحديث من توحيد وفنون اللغة وحتى العلوم العقلية من فلسفة ورياضيات وطب[1]. والذين يقومون بالتدريس في المساجد يحصلون على قرار من البلاط الزياني.

- المدرسين:

أما الذين كانوا يدرسون بتلمسان فقد تعرضت لهم كتب التراجم[2]، بعضهم في العصر الذهبي بينما البعض الآخر في عصر الانحطاط الذي عرفته الدولة الزيانية في مرحلتها الأخيرة. ففي عصر قوة الدولة تعرض يحي بن خلدون[3] لبعضهم فذكر من بينهم أبا يعقوب التفريسي وقد علق عليه بقوله: ‹‹يقري الإنس والجن في مسجده والناس يسمعون صوت الجان واستطاع أحد طلبته أن يكون الشيخ يرى صور الجن فبينما مجلسه ذات يوم غاص بالطلبة لقراءة

1- ابن مريم: البستان، ص 37.

2- نفسه: ص38، انظر أيضا ابن صعد، روضة النسرين، ورقة 311.

3- ابن خلدون يحي: المصدر السابق، ج1، ص 107.

العلـم إذ دخل من باب المسجد حنش عظيم››. والهدف من وراء ذلك إبراز كرامة هؤلاء العلماء، ومن بين الذين درسوا في مدارس الدولة الزيانية فـي أعـز مجدهم أبو عبد الله الشريف[1] الذي درس بالمدرسة التاشفينية، ثم انتقل إلى الجامع الأعظم فقرأ فيه الأحكام الصغرى لعبـد الحـق الاشبيلـي وابـن الحاجب الفرعي، وكان يحضر دروسه جماعة من الطلبة الفاسيين الذين انتقلوا من فاس للأخذ عنه لمكانته الفكرية[2]. ومن الذين درسوا بـها أبـو موسى عمران المشدالي[3] الذي قال عنه التنسي: " أنه لما ورد تلمسان فـي عهـد السلطـان أبـي تاشفين الأول ولاه التدريس بمدرسته الجديدة".

أما مدرسة أبناء الإمام فقد درس بها أبناء الإمام بعد تشييدها من قبل أبي حمو موسى الأول فقد ذكر التنسي[4]: " أنه لما ورد الفقيه العالم أبو العباس أحمـد[5] بـن عمران البجائي على تلمسان تاجرا دخل المدرسة القديمة فحضر مجلس أبي زيد بن الإمام فألقاهم يتكلمون في قول ابن الحاجب، في الأصول في حد العلم إنها صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض فنادى يا سيدي هذا الحد غير مانع أنه ينقص بالفضل والخاصة فقال له الشيخ أبو زيد: " من هذا الـذي أنبأ مقاله عن مقامه. فقال: محبكم أحمد بن عمران، فقال أولا نشتغل بضيافتكم وحينئذ يقع الجواب".

1- نفسه: ج1، ص107.

2 – ابن مريم: البستان، ص 164، 184.

3- التنسي: المصدر السابق، ص 141.

4- نفسه: 142.

5- أبو العباس أحمد بن عمران التيجاني من كبار علماء هذه المدينة ارتحل من بجاية إلى تلمسان فاتصل بها بعلمائها وحضر إحدى مجالسهم، انظر التنسي، المصدر السابق، ص 142.

يستنتج من النص ما يلي:

أ: إن العلماء عندما يرتحلون لأي مركز ثقافي فأول زيارة لهم تكون إما للمساجد أو المدارس بحضور حلقات الدرس بها والاستماع لعلمائها.

ب: إن النص وضح لنا نوعية المعارف التي كانت تدرس بهذه المدارس وكيفية منهجية إلقائها على الطلبة.

أما المدرسة الثالثة فهي المدرسة اليعقوبية[1] فإن أول المدرسين بها أبا عبد الله الشريف الذي يعتبر من كبار علماء تلمسان، كان أبو حمو موسى الثاني يحضر مجلس أقربائه جالسا على الحصير تواضعا للعلم وإكراما له، فلما انقضى المجلس اشهد بتلك الأوقاف وكسا طلبتها، وأطعم الناس وطول مدته حتى ختم السيد أبو عبد الله المذكور تفسير القرآن العزيز فيها فاحتفل أيضا بحضور ذلك الختم ، وأطعم فيه الناس وكان موسما عظيما.

نستخلص من النص ما يلي:

1: أن السلطان الزياني اختار أبا عبد الله[2] الشريف ليكون أول مدرس بهذه المدرسة لعاملين أساسيين: أ – أنه ينتسب لآل البيت (الأشراف).

ب – يعتبر من أبرز علماء عصره امتد تأثيره إلى المغرب الأقصى.

2: أن سلاطين الدولة كانوا يحضرون بعض الدروس التي كانت تلقى بمدارس الدولة الزيانية ويشاركون طلابهم في الجلوس على الحصير الذي يبدو أن مدارس الدولة الزيانية كانت تفرش بها حيث يجلس عليها الطلبة.

---

[1]– ابن خلدرن يحي: المصدر السابق، ج2، ص 136.

[2]– نفسه: ج2، ص 136.

3: أن الطلبة الذين كانوا يتابعون الدروس وكانوا يحصلون على الطعام والكساء من قبل الدولة وحتى المبيت، حيث كانت المدارس مزودة بغرف للطلبة المغتربين.

4: إن دور المدارس لم يكن مقتصرا على التدريس فقط، بل كان بعض العلماء يقومون بتفسير القرآن وعندما ينتهون من ذلك تقام احتفالات يشرف عليها السلطان ويستدعى لها الناس، يقدم لهم الطعام مثل ما هو الحال بالنسبة للاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

هذا فيما يتعلق بعصر قوة الدولة الزيانية، أما مرحلة ضعفها التي بدأت مع بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، فيبدو أن المدارس حافظت على مستواها العلمي ولم يبق النشاط الثقافي مقتصرا عليها، بل امتد إلى أرياف الدولة الزيانية، فهذا أحمد بن يوسف الشريف الإدريسي[1] كان يدرس بمداشر جبل بني ورنيد جنوب تلمسان، فدرس هناك الرسالة والعقائد وابن الحاجب الفرعي، كما ركز على تدريس القرآن والخراز والضبط. يضاف إليه أحمد بن صالح بن ابراهيم[2] الذي سجن لمواقفه من أمراء الدولة وقد اغتنم فترة وجوده بالسجن لتدريس زملائه المسجونين الذين قدرهم ابن مريم بسبعمائة سجين. وعلى الرغم من أن الرقم مبالغ فيه إلا أنه يؤكد لنا إقبال سكان هذه المدينة على التعليم واتساع السجون بها، كما قام بتجويد القرآن داخل السجن، وبذلك يجد الباحث بأن تحويل السجون إلى مراكز تعليمية لم يكن وليد الثورة التحريرية، بل يمتد إلى أعماق التاريخ الوطني وإن العلماء لا يتركون أوقاتهم تذهب هباء. من ناحية أخرى نجد هناك تنافسا

1- ابن مريم: البستان، ص 26،27.

2- نفسه: ص20.

بين علماء الدولة الزيانية مما دفع ببعضهم إلى إبراز عيوب زملائهم وعلى الخصوص بحضور أمرائها، فقد ذكر ابن مريم: «أن علماء تلمسان توقفوا عـن قراءة التفسير فقدموا سيدي بن العباس بن زكري يقري ما في التعوذ وما فـي البسملة والفاتحة، غير أن الفارئ قرأ إن فتحنا لك فتحا مبينا خلافا ما طالع، فعسر عليه الأمر، لأن الفقهاء أرادوا أن يمتحنوه لأن القراءة كانت بين يدي السلطان واستمر التفسير للقرآن من الضحى إلى الزوال[1] » فالنص الذي أورده ابن مريم يؤكد لنا مكانة ابن زكري[2] لذا يختلف عن غيره من حيث المكانة الاجتماعية لأنه ينسب إلى عائلة فقيرة، لكن عمله واجتهاده جعله من كبار علماء عصره فقد استمر في التفسير تلك المدة الزمنية الطويلة. ومن بين المدرسين أحمد بن عبد الرحمن بن زاغو عرف من طرف المترجمين له بأنه الإمام المدرس، فكان يعطي الدروس لطلابه بمدارس الدولة ومساجدها. يضاف إليه محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحي بن عبد الرحمن القرشي التلمساني بالقلصادي الشهير علق عليه ابن مريم بقوله قرأ وأقرأ بتلمسان. أما محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق[3] فدرس بتلمسان التفسير والحديث وصحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وأبي داود والموطأ والعمدة من الحديث وأرجوزته الصغرى وهي الحديقة في علم الحديث وبعضا من الكبرى وكان مقر تدريسه الجامع الأعظم. ومن كبار المدرسين في هذه الفترة محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن ،

1- البستان: ص 38، 41.

2- هو أبو العباس بن زكري ينسب إلى إحدى العائلات الفقيرة وبمساعدة أحمد بن عبد الرحمن بن زاغو، تمكن من أن يصبح من كبار علماء الدولة الزيانية خلال النصف الأخير من *القرن 9هـ/15م انظر التمبكتي، نيل الابتهاج، ص61.*

3- التمبكتي: نفس المصدر، ص 71.

بن عبد الله بن الإمام أبي الفضل التلمساني[1] الذي تخرج عليه كبار علماء عصره كابن مرزوق الكفيف، وعبد الجليل التنسي[2] وقد قال عنه القلصادي: "حضرت مجلسه فكان فقيها إماما عالما بالمعقول"، كما ذكر من بين المدرسين الذين تعرض لهم في رحلته محمـد بـن أحمد بن النجار التلمساني[3] الذي قال عنه: " قرأت عليه بعض مختصر الشيـخ خليل وبعـض كتب الغزالـي وابـن الحاجب الأصلي وتفسير القرآن وإرشاد إمام الحرمين ومنهاج البخاري وجمل الخونجي وتلخيص المفتاح وقواعد القرآن وبعض الألفية والمرادي والجمل وشيئا من المدونة". كما ذكر القلصادي من بين المدرسين محمـد أبـو عبد الله الشريف التلمساني[4] إمام جامع الخراطين وقد قال في شأنه: ‹‹قرأت عليه، تلخيص المفتاح وبعض التسهيل لابن مالك، ومفتاح الأصول للسيد الشريف التلمساني وحضرت عليه بعض الألفية وبعض المرادي عليها وجمل الزجاجي وتلقيح القرافي››. ومن بين المدرسين أيضا محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي[5] خرج عليه مجموعة من علماء تلمسان التنسي والسنوسي وابن مرزوق الكفيف وابن زكري والمازوني والونشريسـي وابـن مرزوق حفيد الحفيد. كما يذكر ابن مرزوق من بين المدرسين محمد بن محمد قاسم بن تومرت التلمساني الذي كان يقول لكل من جاء للقراءة عليه، اقرأ لي أي علم شئت. ومن المدرسين أيضا عبد الرحمن بن محمد بن أحمد

1 – المقري: نفح الطيب، ج5، ص 419.
2 – نفسه: ج5، ص 419.
3 – ابن مريم: البستان، ص 221.
4 – نفسه: ص 201.
5 – نفسه: ص 39، 41.

الشريف التلمساني[1] المشهور بأبي يحي قال في شأنه أبي يحي المطغري: ‹‹حضرت مجالس العلماء شرقا وغربا فما رأيت ولا سمعت مثل عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشريف››. يضاف إليه علي بن يحي السلكني الجادري الذي يعتبر من المدرسين بمسجد أجادير مسجد مولاي إدريس. ووقت الدراسة فيه من الصباح إلى الضحى وعندما يخرج ويذهب لعرصته بوادي الصفيصف التي يخدمها بفأسه يذهب معه الطلبة فيدرس لهم العلم عند ذهابه وعودته في الطريق وهو يعمل في العرصة والقارئ يقرأ وهو يفسر ما يقرأه على طلابه إلى الزوال ويدرس بمجلسه ابن الحاجب الفرعي. أما قاسم بن سعيد بن محمد العقباني[2] كان يدرس مختصرا بن أبي زيد القيرواني والمدونة ومختصر خليل والأحكام لابن عطاء وشرحها لابن عباد، والحوفي بطريق الصحيح والمكسور والمناسخات من شرح والده ومختصره في أصول الدين والبيان والحساب والفرائض والهندسة في فصل الصيف، وبذلك يكون التعليم في تلمسان مختلفا عما هو بالنسبة لفاس حيث تتوقف الدروس في الصيف لكن بالنسبة للدولة الزيانية لا تتوقف حتى في أيام العطل، حيث كان ابن زاغو يخصص يومي الخميس والجمعة لدراسة التصوف وتصحيح تأليفه ولعل ذلك يتم بحضور طلابه النجباء. ومن الذين درسوا بالجامع الأعظم حمو الشريف[3] كما درس به المناري الذي يعتبر من كبار الأساتذة في القراءات السبع وعلم الخراز والضبط وابن بري والأجرومية وألفية ابن ' والرسالـة، توفي بتلمسان سنة 998هـ/ كما زاول مهنة التدريس في تلمسان

1 – نفسه: ص 39، 41.
2 – ابن مريم: البستان، ص 95.
3 – نفسه: ص 76-77.

أحمد بن عيسى الورنيدي ويعرف بأبركان، وركز في دروسه على علم الظاهر والباطن فكان يدرس رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر ابن الحاجب الفرعي وعقائد الشيخ السنوسي وألفية ابن مالك ومنظم الجزولي وسلم المرونق في المنطق حكم ابن عطاء الله في التصوف[1]. من خلال ذكر هذه المؤلفات التي درسها الورنيدي تبين لنا أنه لم يقتصر على فن واحد في تدريس طلابه بل ركز على أغلب الفنون التي تدرس في عصره، ولعله كانت له مجموعة من الحلقات يخصص كل حلقة لفن معين.

- أثر الأندلسيين في ميدان التدريس:

بعد استعراضنا الشخصيات التلمسانية التي زاولت مهنة التدريس في تلمسان، يجدر بنا التعرض للشخصيات الأندلسية لأن من نتائج نزوح الأندلسيين إلى تلمسان ازدهار الحركة الفكرية بها حيث قام بها مجموعة من أفراد هذه الجالية بنشر التعليم بواسطة إلقائهم الدروس بالمؤسسات التعليمية الموجودة بالمدينة، ومن بين الذين درسوا بتلمسان نذكر محمد بن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن أبي العيش الخزرجي[2] الذي قام بإحدى مساجد تلمسان بتفسير القرآن لطلابه وشرح أسماء الله الحسنى، كما يبدو عليه أنه درس الأصول والتصوف لأنه ألف فيهما. ومن أبرز التلاميذ الذين تخرجوا عليه محمد بن العباس[3] التلمساني، ويحي المغيلي[4] المازوني والحافظ

1 - نفسه: ص 119.

2- ابن مريم: البستان، ص 252 .

3- ابن مريم: نفس المصدر، ص 249، 259.

4- نفسه: ص 222-223.

عبد الجليل التنسي[1] والقلصادي[2] وأبو البركـــات[3] وولده أبوسالـــم العقباني[4] وحفيده محمد بن احمد والونشريسي الذي نقل عنه كثيرا من الفتاوى في معياره، وابن زكري ومحمد بـــن محمـــد بـــن مرزوق الكفيف. درس مختصر ابن أبي زيد للمدونة ومختصر خليل وشرح الأحكام لابن عباد والحوفي شرح والده ومختصره في أصول الدين. ومن بين الأندلسيين الذين زاروا تلمسان وتأثروا وأثروا فيها ومن بين هـــؤلاء الشيـــخ أبـــو الحسن علـــي بـــن محمد بن محمد بن علي السبطي الشهير[5] بالقلصادي، الذي قال عنه الصالح الرحالة المؤلف آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس. أخذ عنه الإمام السنوسي[6] صاحب العقائد وجملة من الفرائض والحساب وإجازة جميع مروياته عند ارتحاله إلى المشرق مرّ بتلمسان، فأخذ بها عن الإمام عالم الدنيا، حسب تعبير المقري ابن مرزوق[7] والقاضي أبي الفضل قاسم[8] العقباني وأبي العباس بن زاغو[9] وغيرهم من علماء الدولة الزيانية. ومن هؤلاء أبي عبد الله محمد بن علي بن الأزرق وقال عنه ابن داود من كبار الأولياء شاذلي الطريقة. وقـــد قال العلامة ابن داود حدثني مولاي ولدي رضي الله عنه لقيته

1- نفسه: ص 248 - 249.
2- نفسه: ص 221 - 223.
3- نفسه: ص 248 - 250.
4- نفسه: ص 249 - 252.
5- المقري: نفح الطيب، ج5، ص 426-428.
6- نفسه: ج2، ص 692.
7- نفسه: ج5، ص 414 - 418.
8- نفسه: ج2، ص 692.
9- نفسه: ج2، ص 692.

في تلمسان يوم الاثنين سنة 895هـ/1489. كما قال أيضا: " دخل علي فـــي نفس السنة وبالتحديد في شهر رمضان". *ويضاف إليه أبو عبــد الله* محمـــد بـــن الحداد الوادي، نزيل تلمسان، وقد قال المقري:" تذكرت ما رأيته مكتوبا على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلميــن أبـــو تاشفين الزياني من بدائع الدنيا وهي:

نـــظر بعينك بهجتي ومـــائـــي «» وبديع اتقاني وحـــسن بنـــائي
وبديع شكلي واعتبر فيما ترى «» من نشأتي كل من تدفق مـــائي
جسم لـــطيف دائـــب ســـيلانه «» صاف كذوب الفـــضة بيضـــاء
قد خف إلى أزهار وشيء تمقت «» قعدت كمثل الروض غير سماء

ومن الأندلسيين الذين توافدوا على تلمسان أيضا شمـــس الديـــن أبـــو عبد الله بن جابر الوادي آشي. قال في شأنه ابن مرزوق عاشرته وسمعت منه وسمع بقراءتي فقرأت عليه الكثير وقيدت من فوائده، وأنشدني النثر وقرأت عليه بمنزلي من تلمسان. هذا العالم درس بتلمسان الحديث والفقه والأصول والنحو والمنطق والجدل والفرائض وكان كثير الإسماع في الفقه والجدل.

- أولا: الكتب التي تـــدرس بالمؤتسســـات الثقافية:

تنوع المعارف العلمية وكثرة الكتب المعتمدة: ومن بين الكتب التي كانت تدرس بمساجد ومدارس الدولة الزيانية والتي تشتمل على مختلف الفنون التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية في مختلف مراحل ازدهارها نذكر في البداية:

أولاً: التفسير: فيما يتعلق بالتفسير نذكر تفسير الزجاجي[1] والزمخشري[2] وتفسير ابن عطية[3] والمعافري[4] المعروف بأحكام القرآن والتفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي[5]، والخازن[6] للإمام المحدث المفسر أبو عبد الله محمد ابن ابراهيم البغدادي المعروف بالخازن، وأهم تفسيره التأويل في معاني التنزيل وتفسير القرطبي[7] وكذلك تفسير الإمام المحدث أبو عبد الله محمد بن يحي البهلي البخاني، وتفسير أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان البقري الأندلسي، والجواهر الحسان لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي.

ثانيا: القراءات: ومن بين كتب القراءة التي كانت متداولة بالمؤسسات التعليمية للدولة الزيانية كتاب المنبهات للإمام أبي عمر أحمد بن عبد ربه بن حبيب القرطبي. وزاجر بن البر المعروف بالدرر اللوامع[8] في قراءة نافع، ومنها الشاطبية المسماة بجزر الأماني للإمام أبي القاسم بن خلف بن أحمد الزغبي الشاطبي. والشاطبية متضمنة للسبع، وهي القراءات السبع التي نزل بها القرآن، وتسمى بالأحرف، وهي لغة سبع قبائل عربية: قريش،

1- أبو اسحاق إبراهيم الزجاجي توفي سنة316 لمزيد من المعلومات عنه انظر الزركلي، الإعلام، الطبعة الثالثة،ج،ص33.

2- الزمخشري نسبة إلى زمخشر: قرية من كوري خوارزم، انظر ياقوت الحموي، المصدر السابق.

3- ابن عطية هو أبو محمد عبد الله بن عطية توفي 541 هـ، 1146-1147.

4- توفي 543 هـ-1148م وصاحب الإعلام الروكلي يقول توفي 538 هـ- 1144م.

5- توفي 257هـ-888م الرزكلي المصدر السابق، ج8، ص 156.

6- توفي 275هـ-888م، انظر الرزكلي، ج6، ص 119.

7- توفي 606هـ-1209م، نفسه ج7، ص 168.

8- توفي 169 هـ، 785م ، انظر: الزركلي، ج8، ص: 317-318.

تميم، طبة، كنانة، قيس، هديل، بنو أسد، فهؤلاء هم الذين نزل القرآن بلغتهم. وشيوخ القراءة سبعة، أولهم نافع بن عبد الرحمن[1] إمام أهل المدينة، قرأ عليه الإمام مالك(رضي الله عنه) القرآن، ومنها المقدمة في مخارج الحروف والتجويد والدرة في السبع والعشر للجزري ومورد الضمان في رسم القرآن لأبي عبد الله محمد بن محمد بن ابراهيم الأموي الشريسي الشهير بالخراز وتفصيل عقد الدرر لأبي عبد الله محمد بن احمد بن غانم العثماني المكناسي[2] ومنظومة القراءة للمراكشي.

ثالثا: الحديث: هو علم يعرف به أقوال الرسول(ص) ويعبر عنه بالسنـــة، ومن بين الكتب المتداولة بالمراكز الثقافية التابعة للدولة الزيانيـــة، كتـــاب ابـــن جربح وهو أول من صنف في الإسلام والجامع الكبير لسفيان[3] الثوري، والموطأ للإمام مالك إمام دار الهجرة وشرح الموطأ لأبي عبـــد الله محمـــد بـــن عبد الله الزرقاني[4] ومساند الشافعي لمحمد بن ادريـــس بـــن العبـــاس بـــن عثمان بن شافع[5]، والمسند لأبي داوود سليمان بن داوود الطيالسي[6] ومسند الإمام عبد الرزاق الصنعاني[7] ومسند الإمام الحافظ أبو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الدواني. وصحيح البخاري لمحمد بن اسماعيل البخاري

1- توفي 169هـ-785م، انظر: الزركلي، ج8، ص: 317-318.
2- توفي 919هـ-1513م، ابن عسكر، دوحة الناشر، ص 74.
3- توفي 159هـ-775م الزركلي، ج3، ص 158.
4- الزرقاني: 1122هـ-1719م، الزركلي، ج4، ص 46.
5- ولد سنة 150هـ-767م، وتوفي سنة 204هـ-819م، ج4، ص 46، ج7، ص 54.
6- ولد سنة 133هـ-750م، وتوفي 204هـ-819م.
7- توفي 211هـ-، انظر، غبن الحبي، شذرات الذهب، تحقيق، ج2، ص 75.

والجامع وجملة الأحاديث الصحيحة التي تتألـف من سبعـة آلاف ومائتين وخمسة وسبعين حديثا، وقد نظمهـا قاضـي تلمسـان أبو عبـد الله بن عبد الحق بن سليمان اليعقوبي في بيتين من الطويل، فقال:

جميع أحاديث الصحيح التي رواه البخاري خمس وسبعون في العدد وسبعة آلاف تضاف وما بقي إلا مائتين عدادا لأولاد محمد عليه عـدة شـروح لأبـي داوود بن نصر التلمساني، وأول شروحه للكرماني والقسطلاني. وصحيح مسلم لأبي الحسن مسلم بن الحجاج النسابوري، ويتألف من ثلاثمائة ألف حديث، وعلى عدة شروح، ثم سند أبي داود[1] سليمان بن الأشعث السجستاني، والاسدية محمد بن يزيد بن ماجة، ومسند أبي محمد عبـد الله بـن مسلم بن قيثة[2] وصحيح الترمذي لأبي عيسى بن سوده الترمذي[3]، المعروف بالجامع الكبير في الحديث والشمائل وشرح شمائله، ثـم مسـند أبـي محمد عبد الله وجامع أبو اسحاق ابراهيم بن اسحاق ومسند المبرد لأبي العباس بن عبد الله بن زيد ومسند المروزي[4] أبي عبد الله بن نصر المزوري وسنـن أبي عبد الرحمن بن علي بن شعيب النسائي[5]. ومسند أبي القاسم عبد الله بـن محمد بن عبد العزيز البغوي[6]، ومختصر البخاري لابن أبي حمزة أبي محمد عبد الله بن أبي حمزة الأندلسي. والجامع الكبير والصغير لجلال الدين أبي العباس أحمد السيوطي والأربعون النووية لأبي عبد الله النوري.

1- توفي 373هـ-869م، الزركلي، الإعلام، ج3، ص 182

2- توفي 276هـ أو 275هـ-888م، شذرات الذهب، ج2، ص 169.

3 - توفي 279هـ-892م، شذرات الذهب، ج2، ص174.

4- توفي 281هـ-894م، الزركلي، افعلام، ج6، ص 183.

5- توفي 303هـ-915م، شذرات الذهب، ج2، ص 239.

6- توفي 313 أو 317هـ-925 أو 929م، شذرات الذهب، ج2، ص 239.

رابعــا: الأصول: هو علم يعرف به أصول العلم في كل نوع من أنواعه، ومن بين الكتب التي تداولها علماء الدولة الزيانية كتاب إمـــام الحرميــن[1] أبــو المعالي عبد الملك بن الشيخ عبد الله، البراهيــن لأبـــي حامــد محمــد بن محمد بــن محمد الغزالي[2]، والبسيط والوسيط والوفير والمتجول والمنتحل وعلم الجدول، والبراهين في الأصول. ومنها منهاج البيضاوي والمختصر للرازي، وجامع الجوامع لابن السبكي[3] وجمع الجوامع الذي يحتوي على عدة شروح وحواشي كحاشية أبي عبد الله محمد بن قاسم العبادي وأبي عبد الله محمد بن الشريف التلمساني، ومنها مختصر الكردي لأبي عمر بن عثمان المعروف بابن الحاجب ومخدم السنوسي وشرحه.

خامسا: الفقه: هو لغة الفهم، واصطلاحا ما ذهب إليه مالك من الأحكام الشرعية المنصوص عليها بالكتاب والسنة والقياس.

فمن الكتب التي كانت تدرس لطلاب تلمسان وغيرها من مدن الدولــة الزيانية العتيقة لأبي زيد عبد الرحمن[4] بن القاسم المصري والماجشولية[5] لعبد المالك بن الماجشون والأسدية لمحمد بن أسد ومعهــا العتيــبة لأبـــي عــبد الله بن العتيبي وشرحها لابن رشد والتحصيل والبيان، ثــم المتيطة لأبي عبد الله المتيطي، ومختصر عبد الله بن شعبان،- والرسالة لأبي عبد الله محمد بن أبي زيد القيرواني.

1- توفي 478هـ-1056م، شذرات الذهب، ج3، ص 358.
2 - توفي 505هـ-1111م، شذرات الذهب، ج4، ص 11.
3 - توفي 756هـ-1373م، شذرات الذهب، ج6، ص183.
4- توفي 191هـ-806م، شذرات الذهب، ج1، ص 329.
5- توفي 213هـ-828م، نفسه، ج8، ص 37.

وكتاب القطرب لأبي عبد الله والفدا لأبي زكريا يحي بن زياد، والحدود والمعاني، والموازنة لأبي عبد الله بن المواز[1] ، وكتاب الأخفش لأبي الحسن بن مسعدة الأخفش[2] والبكرية لأبي سعيد الحسن بن الحسن ابن عبد البكري النحوي، والثعلبة لأبي العباس احمد بن يحي بن زيد المعروف بثعلب[3] . والفخارية للإمام النحوي أبي جعفر احمد بن محمد بن سلامة الأزدي الفخاري، ومختصر ابن عرفة، وكتاب أبوبكر محمد بن القاسم المعـــروف بابن الأنباري[4]، والغرناطية لابن النحاس الإمام النحوي أبو جعفر بن الزبير ومعها الخرشية، والجمل لأبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق[5] وكتاب السيوطـــي في النحو لأبي سعيد الحسيني، وشرح كتاب سيبويه، ومنهـــا الإيضـــاح لأبي الحسن بن احمد بن عبد الغفار الفاربي[6]، والمقصور والممدود والحجة في القراءات، واللمع لعثمان بن حي النحوي الموصلي ومفاتيح الأقفـــال ومنها الجزولية لأبي موسى عيسى بن عبد الله العزيز الجزولـــي، وألفيـــة بن معطي لأبي الحسن بن يحي بن معطي وعليها عدة شروح. والمفضل على المفضل للسخاوي مع شرح المفضل للزمخشري[7] .

1- توفي 281هـ-894م، الزركلي، الأعلام، ج6، ص 183.
2- توفي 211هـ-826م، نفسهن ج5، ص 167.
3- توفي 291هـ-903م، نفسه، ج3، ص 188.
4- توفي 321هـ-933م، نفسه، ج6، ص 137.
5- توفي 328هـ-939م، الزركلي، العلام، ج7، ص226.
6- توفي 376هـ-986م، شذرات الذهب، ج6، ص 350.
7- توفي 606هـ-1209م، نفسه، ج8، ص 194.

والمعونة والتلقين لعبد الوهاب، والباهية لأبي الوليد، والنصرة اللحنية[1] لأبي محمد الدحني، ومقدمات بن رشد والنبهات للقاضي عياض، والحوفية لأبي القاسم الحوفي، والهداية للحفيد[2] ابن رشد، والغافقية لأبي عبد الله محمد بن نـــوح الغافقي[3]، والجواهر لأبي محمد عبد الله بن شـــاش، ومختصـــر ابـــن الحاجب لأبي عمر عثمان بن عمر بن أبي بكر، والغبرينية لأبي العباس الغبريني[4] ، ومختصر أبي الضياء لضياء الدين محمد خليل بن اسحاق ومجموعة شروحه، ومنها شرح بن مرزوق. والمرشد المعين لعبد الواحـــد بـــن احمد بن علي بن عاشر، ومنظومة أبو زيد عبد الرحمن بن الصغير الأخضري، وهذه المنظومة اختصرها من مقدمات بن رشد، ذكـــر فيها مسائل الصلاة والزكاة و الصيام و الحج.

سادســـا: النحو: هو لغة القصد والمثل والجهة والمقدار، ومن أبرز الكتب المتداولة لدى طلبة العلم في تلمسان كتاب النحو لأبي بشر عمر بن عثمان المعروف بسيبويه[5] . وشرح الموصلي[6] لموفق الدين أبي البقاء يعيش بن محمد بن علي الموصلي وألفية بن مالك والتسهيلة والكافية وقواعد بن هشام وقواعد المجردي المعبر عنها بلامية الجمل وقواعـــد الـــزواوي، والأجروميـــة

1- توفي 478هـ-1094م، الزركلي، اعلام، ج5، ص 148.
2- توفي 520هـ-1126م، شذرات الذهب، ج4، ص 62.
3- توفي 606هـ-1209م، نفسه، ج6، ص 166.
4- توفي 707هـ-1304م، عنوان الدراية، تحقيق، رابح بونار، الجزائر1970، ص12-35.
5- توفي سنة 61هـ-680م، أو 77هـ-669م.
6- توفي سنة 643هـ-1245م، شذرات الذهب، ج5، ص 221.

لأبـــي عبـــد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي عرف بابن أجروم[1] وقـــد اشتغل الناس بقراءتها، ووضعت التآليف الجيدة عليـــها حتـــى لا تجـــد من لايعتني بها قراءة وتأليفـــا عليها بالمشـــرق والمغـــرب، والمغـــني لابـــن هشـــام.

سابعـــا: علم البيان: علم البيان هو العلم بالقواعد التي يعرف بها إيراد المعنى بطرق مختلفة منها الرسالة السمرقندية لأبي الليث السمرقندي والمفتاح والايضاح وتلخيص المفتاح.

ثامنا: المنـــــطق: من بين الكتب التي كانت تدرس بتلمسان منطق العلامة السنوسي وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي ومنطق المغيلي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي سماه كتاب الألباب في رد الفكر إلى الصواب وما يتذكر أولوا الألباب.

تاسعا: العروض: هو علم يعرف به صحيح الشعر وهو اثنان وعشرون بحرا، ستة عشر مستعملة منها الخزرجية لأبي محمد عبد الله بن محمد وشرحها لقاضي الجماعة أبي القاسم بن أحمد الشريف الحسني الغرناطي، والكافي والقوافي ورسالة الصبيان وشرحها للدمنهوري وشرح الشجع عـــن الكافي والوافي وتأليف أبي عبد الله بن مرزوق[2].

عاشرا: التنجيم: من بين الكتب التي كانت متداولة، كتب ابن زكري للعلامة أبي العباس بن أحمد بن زكري.

1- توفي سنة 723هـ-1325م، شذرات الذهب، ج5، ص62.

2- ابن مريم: المصدر السابق، ص 141-142.

حادي عشر: التوحيد: منها التقيد من البسيط لأبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري وشرح السنوسي عليها والمحصل في محصل المقاصد لأحمد بن زكري والكبرى والوسطى والصغرى وصغر الصغرى والمقدمة. وعلى كل واحد منها شرح جليل، فمنها حاشية البوسى على الكبرى وشروح الشيخ السنوسي نفسه وشرح الغدامسي والفجيجي للثلاثة وهو الكبير والوسيط.

ومنها شرح علماء الراشدية أنفسهم، وممن شرحها الشيخ الملالي بثلاثة شروح الكبير والوسيط والصغير.

ثاني عشر: التصوف: فيما يتعلق بعلم التصوف فإن من بين الكتب التي تداولت خاصة بزوايا الدولة الزيانية مؤلفات زروق وما نسب لأبي العباس أحمد بن يوسف الراشدي وهو من الأقطاب المشاهير وأبو العباس بن أحمد بن زكري وشرح رسالة زروق وغيرها في التصوف.

ومنهم الجزولي أبو عبد الله محمد بن الحسن كان إماما عالما والعلامة البيدري.

ثالث عشر: الطب: علم الطب من بين العلوم التي كانت تدرس في تلمسان منها ما كتبه العلامة السنوسي وابن زكري والبيدري وابن الحاج البجائي وهو القدوة العلامة الطبيب الحكيم أبو عبد الله بن الحاج بن عامر الغساني السلماني صاحب كتاب شموس الأموار وكنز من كنوز الأسرار.

رابع عشر: الوثائق: من بين العلماء الذين ألفوا في هذا الميدان أبو العباس الونشريسي شارح وثائق القشتالي.

- **ثانيـــا: مؤلفات التلمساني – اختصار وشرح :**

كما تميزت هذه المرحلة من حياة الدولة الزيانية وحتى عصرها الذهبي بمميزات يمكن تلخيصها فيمايلي:

أولا: الإكثار من الاختصار للكتب المتداولة في أراضي الدولة الزيانية في مختلف الفنون.

*** أولا: اللغـــة :**

ففيما يتعلق باللغة نجد من بين الكتب التي ألفت رجزا اختصار ألفـــيـــة بـــن مالك، وهي من بين الكتب التي كانت تدرّس في مدارس الدولة الزيانية ومساجدها، والذي قام بهذا التلخيص ابن مرزوق[1].

وفي ميدان اللغة أيضا نجد شرح ألفية بن مالك ليحي العلمي، وهي من الكتب المتداولة في أوساط طلبة العلم بأراضي الدولة، والهدف من هذا العمل تسهيل عملية الفهم والحفظ لها من قبل الطلبة.

ومن بين الكتب المتعلقة بميدان اللغة نجد شرح كتاب الجمل الذي ألـــفـــه بن مرزوف وسماه" نهاية الأمل في شرح الجمل".

*** ثانيـــا: الأدب:**

هذا فيما يتعلق باللغة .أما ميدان الأدب فنجد هناك تأليفا لعبد الجليل التنسي، الذي عاش في عهد المتوكل، جمع الشعر الذي قاله السلطان أبو حمو موسى الثاني، والذي جمع بعضه يحي بن خلدون في كتابه بغية الرواد، وعلى الخصوص الجزء الثاني منه الذي خصصه لأبي حمو موسى الثاني، وحتى التنسي في كتابه نظم الدر والعقبان، وأغلب تلك القصائد تتعلق بالمولدات

1- ابن مريم: البستان، ص 167.

الـــتي تميز بها هذا العصر، جمعها في كتابه روح الأرواح فيما قاله أبو حمو من الشعر.

يضاف إلى ذلك أن ابن مـــرزوق، قد لجأ إلى شـــرح كتـــاب العمـــدة لابن رشيق المسيلي القيرواني، أي تبسيطه، لكي يسهل على الطلبة فهمه، وفعل ذلك معاصره: الشريف التلمساني، فشرح هو بدوره كتاب العمدة. وهكـــذا نجد بأن علماء الدولة الزيانية في عصرها الذهبي وفي العصر المتأخر يدل على البحث والنقد إضافة إلى ذلك شرح الكتب وتلخيصها، وهـــو يعتبر ضعفا بالنسبة للجانب الثقافي.

*** ثالثـــا: الحديث:**

يضاف إلى اللغة، نجد علم الحديث الذي يعتبر من أهم الفنون التي وجهت لها العناية من قبل علماء الدولة الزيانية في عصرها الذهبي، وحتى في المرحلة المتأخرة، فابن مرزوق الحفيد الذي كان يدرس كتاب ابن الحاجب[1] عمد إلى شرحه، لكي يستفيد منه طلابه، وعنوانه شرح غبن الحاجب الفرعي، كما شرح أيضا مختصر خليل، وهو بدوره من الكتب الأكثر تداولا فـــي تلمسان.

*** رابعـــا: الفقه:**

لم يقتصر الأمر على الحديث فقط، بل نجد الفقه قد اعتني به من قبل علماء هذا العصر، ومن بين هؤلاء: غبن سلمى الذي قام بتأليف رجز.

1- ابن مريم: البستان، ص 211 - 255.

*** خامســـا: علم الفرائض:**

أما أبو اسحاق التنسي، الذي اعتبر من بين العلماء الذين ألفوا في علم الفرائض، وكتابه أول المؤلفات التي تداولها علماء الدولة الزيانية في جميع عصورها، لذا وجهت له عناية من قبل العلماء فظهرت عليه شروحات مـــن أبرزها شرح ابن التلمساني[1] وشرح العضوني[2].

وقد علق عليه محمد بن صالح العضوني، فقال: "وأما بعد فإني لما رأيت طلبة الزمان مولعين برجز الفقيه الفاضل إلى اسحاق التنسي اهتديت لشرحه".

*** سادســـا: علم المنطق:**

وفي المنطق[3]، فإن كتاب الإمام السنوسي قد درس في عصره وفـــي العصور الموالية، وهو ما يؤكده بعض العلماء، ومن بينهم محمد بن محمد، الذي قال: "لما كثرت قراءتي لمختصر ابن عبد الله السنوسي على شيخنا العلامة أبي علي البوني، قراءة وتوضيح وبيان وتحقيق وإتقان لجأت إلى شرحه".

وهو من بين الكتب التي درست في تلمسان وخارجها، علق عليه شارحه بقوله: ‹‹ إن من اشتغل في التعليم بغيره طلبه موسوم بقلة الرشاد وبالجهل اللازم المألوف››.

*** سابعـــا: السيرة:**

هذا فيما يتعلق بالمنطق، أما سيرة الرسول(ص) فكانت من بين الكتب الأكثر تداولا في أراضي الدولة الزيانية، وغيرها من دول المغرب الإسلا

1- الشرح هذا خاص لكتاب أبو اسحاق التنسي في علم الفرائض، توجد لدينا صورة من نسخة قديمة تعود لعصر المؤلف، وقد شرح هذا الكتاب ابن التلمساني، وهناك شروحات على شرحه، منها شرح الحباك وابن زاغو وشقرون الوجدي، انظر: ابن مريم: البستان، ص 22-42.

2 - ابن مريم: البستان، ص 82.

3- نفسه: ص 246، 259.

يأتي في مقدمتها كتاب القاضي عياض(الشفا) قام ابن مرزوق الحفيد بوضع شرح له سماه شرح الشفا، وهناك شرحان للبردة من قبل ابن مرزوق[1] الحفيد الأول، سماه شرح البردة الأصغر والثاني شرح البردة الأوسط، ويعتبر الشرحان من أجود ما كتب في هذا الموضوع، وقد استطعنا الإطلاع على شرح قيم للبردة في قصر توسان بولاية أدرار، يشمل معلومات قيمة عـن الثقافة في عهد الدولة الزيانية.

*** ثامنـــا: النوازل:**

زيادة على ما سبق، أن هذا العصر عرف أيضا بكثرة الاهتمام بـــالنوازل الفقهية التي تتناول الأحوال الاقتصادية والثقافية والاجتماعيـــة، ومـــن أبـــرز المجموعات نوازل المازوني[2] والمعيار للونشريسي[3] بالنسبة للدولة الزيانيـــة، توجد بهما قائمة لعلماء الدولة الذين اشتهروا في ميدان النوازل.

- ثالثـــا: انتشار مؤلفات علماء الدولة الزيانية:

لم يكن تأثير علماء الدولة الزيانية فقط على الحرية الفكرية، في المغرب الإسلامي بعد هجرتهم من تلمسان، بل نجد أيضا مؤلفاتهم التي عرفت انتشارا خارج محيط الدولة الزيانية، فأصبحت المؤلفات التلمسانية تدرس في أغلب المؤسسات التعليمية، وعلى الخصوص في المغرب الأقصى، ونستدل على ذلك من إجازة الشيخ عبد القادر الفاسي[4].

1- نفسه: ص 23، 210.

2- المازوني: الدرر الكنونة، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 1335، 1336.

3- الونشريس: المعيار ، ج13ص 166.

4- توجد هذه الإجازة مخطوطة بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1236 ص: 36. للتعريف بالشيخ عبد الرحمن الثعالبي، انظر: السخاوي، الضوء اللامع، مجلد 6، ج1، ص166. الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 68.

- **أولا: علم الحديث**

فيما يتعلق بعلوم الحديث نجد من بين المؤلفات التي تدرس بالمغرب الأقصى مؤلفات أبي عبد الله السنوسي، الذي سبق له أن أخذ الحديث عن الإمام عبد الرحمن الثعالبي[1] وما كتبه ابن مرزوق، عن أبيه الحفيد[2].

ومن بين العلماء التلمسانيين الذين كانت لكتبهم دور في هذا الميدان، أبو العباس الونشريسي الذي تتلمذ عليه ابن هارون[3]، وعبد الواحد الونشريسي ابنه، ودروسه في الحديث، كانت هي الأخرى بأسانيد علماء تلمسان وأبرزهم السنوسي[4]، وابن مرزوق[5]، الكفيف وابن مرزوق الحفيد، الذي أخذ الحديث عن والده وجده[6].

أما الزقاق[7]، فقد تتلمذ هو الآخر على علماء تلمسانيين، في مقدمتهم عبد الواحد الونشريسي، وعن ابن الحاج البيدر[8]، الذي اسند حديثه إلى الشيخ السنوسي.

1- المقري: نفح الطيب، ج5، ص 420.
2- ابن عساكر: المصدر السابق، ص 47.
3- ابن مريم: البستان، ص 57.
4- نفسه: ص 166.
5- المقري: نفح الطيب، ج5، ص 419.
6- نفسه: ج5، ص419.
7- نفسه: ص199
8- نفسه: ج6، ص 433.

- **ثانيـــا: علم البيان:**

ومن بين المعارف التي كانت تؤخذ من المؤلفات التلمسانية، علم البيـــان الذي كان الاعتماد فيه على ما كتبه ابن مرزوق الكفيف[1] وابـــنه الحفيـــد[2] عـــن جده.

- **ثالثـــا: التوحيد:**

أما فيما يتعلق بالعقائد فنجد أيضا مؤلفات ابن مرزوق، وولده وجـــده، وابن جدلال، عن أبي عثمان سعيد الكفيف، عن السنوسي، كما أسند المحور مـــا كتبه لأبي العباس، عن أحمد بن جيدة الوهراني[3] وتلميذه أبي عبـــد الله الشريـــف بـــن أبي مداني[4].

يضاف إليه مصنفات ابن زكري[5]، وأبي اسحاق الشاطبي، التي أخذها المنجور عن أبي عبد الله بن جلال، الذي أسندها إلى السنوسي، وابن زكري.

- **رابعـــا: اللغة:**

يضاف إلى علمْ العقائد العربية، التي تركز الاهتمام فيها على مؤلفـــات ابـــن مرزوق في العربية، فدرست تلك المؤلفات، في فترة موضوع البحـــث، أي القرن العاشر الهجري/16م.

1- المقري: نفح الطيب، ج5، ص 419.
2- نفسه: ج5، ص 420.
3- ابن عساكر: المصدر السابق، ص 116.
4- نفسه: ص 117.
5- عن مصنفات ابن زكري، انظر: ابن مريم، البستان، ص: 18-29.

- **خامســا: الفقه:**

والفقه يعتبر من أهم الفنون، التي أثر فيها علماء الدولة الزيانية، علـــى المغاربة، وعلى الخصوص ما كتبه أبو العباس الونشريســـي[1]، ومحمـــد عـــبد الواحد الونشريسي[2] الذي تتلمذ عليه التازي[3]، فدرس عليه في فاس، كما درس على زميله ابن هارون، أقرب المقربين لعبد الواحد الونشريسي، ومن بين تلامذته أبو زكريا السراج[4]، وأبو محمد الحميدي، الذي أخذ عن محـــمـــد عبد الواحد الونشريسي دروسه في الفقه[5].

أما ابن جلال الذي درس هو الأخر في المغرب، فقد تخرج عليه مجموعة من التلاميذ، ودروسه يسندها إلى علماء الدولة الزيانية، فقد أخذ عن والـــده الفقيه أبي زيد، عن عمه، محمد عبد الله، عن التنسي عن أبيه محمـــد عـــن ابن مرزوق.

أما أبو العباس، الحافظ أحمد ابن محمد المقري[6]، فقد روى علم المنطق، وهو علم يعرف به كيفية الانتقال من أمور حاصلة لأمور مستحصلة، ومنها منطق العلامة السنوسي، ومنها منطق المغيلي[7]، وكتاب الألباب في رد الفكر

1- التمبكتي: نيل الابتهاج، ورقة 118، ابن عساكر، المصدر السابق، ص 52.
2- ابن سعد: التعرف ج4 ص 34.
3- ابن عساكر: دوحة الناشر، ص 66.
4- نفسه: ص 110.
5- ابن عساكر: المصدر السابق، ص 52.
6- عن أبي العباس أحمد بن محمد المقري انظر: نفح الطيب، ج5، ص 423.
7- توجد رسالة المغيلي في المنطق بزاويته بدائرة أدرار، وقمنا بتصويرها، وهي توجد بمخزنتنا.

إلى الصواب، وما يتذكره أولوالألباب وكان معارضا للسيوطي، ولما قال هذا الأخير بتحريم المنطق، خالفه المغيلي، وقال بالجواز.

- سادســا: علم العروض:

ومن بين الفنون علم العروض، وهو علم يعرف به صحيح الشعر.

- سابعــا: علم الحساب:

أما علم الحساب، فنجد من أبرز المؤلفين في هذا المجال أبي العباسين احمد بن القباب[1]، له عدة تآليف، منها شرح على قواعد القاضي عياض، وشرح على بيوع أبي جماعة، درس أيضا في فاس من قبل التلمسانيين.

- ثامنــا: التنجيم:

من أبرز مؤلفات التلمسانيين، في هذا الميدان، رسالة ابن زكري في عمل التنجيم[2].

- تاسعــا: علم الكلام:

ومن بين المؤلفات التلمسانية التي وجدت رواجا خارج تلمســان، تــأليف السنوسي في علم التوحيد[3]، مثل الكبرى[4]، والوسطى[5] والصغرى، والمقدمــة، وله على كل واحد منها شرح جليل، وعليها من شروح غيره عدة فمنها حاشية

1- ابن القباب: مزيد من المعلومات انظر يحي ابن خلدون بغية الرواد ج1 ص 266

2- توجد هذه الرسالة في قصر كسال بولاية أدرار، وقد اطلعنا عليها خلال زيارتنا لنفس المكتبة سنة 1991.

3- السنوسي، العقيدة الكبرى، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 630.

4- نفسه، العقيدة الصغرى، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 653.

5- نفسه، العقيدة الوسطى، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 632.

السنوسي، على الكبرى[1]، وغيرها ومنها شـرح الغدامـسي[2]، ومنهـا شـرح الفيجيجي[3]، الثلاثمائة، ومنها شرح علماء الراشدية، منهم عبد القادر بن حـدة المهاجي، وكان من أهل القرن 9هـ/15م يعرف.

- القضـايا المعالجة من قبل علماء بني زيان:

إن علماء الدولة الزيانية في هذه الفترة التاريخية وما قبلها كانوا يشاركون في معالجة القضايا الاجتماعية والاقتصادية، والسياسية التي تعترض أحوال المجتمع الزياني، خلال هذه المدة التي تميزت بضعف سياسي، وانهيار اجتماعي، فكانت العلاقة متينة بينهم وبين بقية علماء المغرب الإسلامي، لأن القضايا التي كانت تطرح عليهم في شكل نوازل فقهية، يستشيرون فيها علماء تونس وبجاية، ومن بين تلك القضايا نذكر منها:

- الفتوى التي أصدرها العالمان الجليلان، الشريف التلمساني[4] وأبي عبد الله المقري[5]، فيما يتعلق بمن أوصى بثلث ماله واشترط أنه لا يرجع في وصيته، لكنه فيما بعد تراجع عن الوصية وقد رأى في ذلك علماء تلمسان أن هذا لايجوز شرعا، لكن الغبريني رد عليهم معقبا بقوله:

أولا: أما قول أبو عبد الله المقري بأن الوصية فلا يبعد بطلانها، فإن رجع عنها كان بيِّن في صحة رجوعه، قلت هذه دعوى مبنية على دعوى، وقوله: "هذا بخلاف ما أوصى بعتق عبد أو أمة والتزم بأن لا يرجع في ذلك الأجوبة

1- شرح الغدامسي: يوجد بالمكتبة الوطنية، رقم 1223.
2- شرح الفيحيجي: يوجد بخزانة الشيخ البشير، البرج ولاية معسكر.
3- شرح عبد القادر بن خدة المهاجي: يوجد بنفس المكتبة.
4- ابن مريم: البستان، ص 126.
5 - نفسه: ص 143.

وأجب بخلاف الشرط إما وحده أو معها، قلت هذا الكلام ليس فيه تحقيق، الأول مبني على الشك أو التجويز، والثاني أنه فرق بين الوصية والعبد والوصية به بخلاف".

وهكذا نجد الغبريني في رده على التلمسانيين يأتي بأمثلة من جوابهما في هذه النازلة[1]، ثم يوجه لكلاهما نقدا معتمدا في ذلك على بعض المصادر الفقهية ومجتهدا لإبطال فتواهما.

وفي بعض الأحيان يقع تعقيب على العالم الذي نفي إجابة الأول، وحدث في هذه الفتوى أن العالم التلمساني ابن مرزوق رد على الغبريني تأييدا لعلماء تلمسان، وقد تم ذلك خلال زيارته لتونس[2]، التي وقف بها على تعقيب الغبريني لجواب أبي عبد الله المذكورين، وهو ما يؤكده ابن مرزوق بقوله: فإن بعض إخواني مما شملني وإياه وصف القرية، وجمعنا في ذات البيئة المعرفة والمحبة، نازلته في نازلة من المسائل الفقهية، وفرع من فروع أحكام الوصية، وشرح لي بعض أئمة الوقت وفقهائه، ممن يعتمد على ما سألني من العلوم، من تلقائه من أهل تلمسان المحروسة، ومن أهل حضرة تونس دار العلم في الحديث، والقديم، الموجب أهلها مرتبة التفضيل والتقديم[3].

فابن مرزوق يوضح لنا بأن أحد علماء تونس، هو الذي طلب منه الإجابة عن النازلة، التي سبق أن وقع فيها اختلاف بين علماء تونس، وتلمسان، وقد حاول في البداية أن لا يقلل من دور علماء تونس، فاعتبر تونس من أهم المراكز العلمية منذ القديم، وفي نفس الوقت لم ينس تلمسان كحاضرة ثقافية

1- الونشريسي: المصدر السابق، ج12، ص 48.
2- ابن مريم: المصدر السابق، ص157. المقري: نفس المصدر، ج5، ص 67.
3- الونشريسي: نفس المصدر، ج6، ص 267.

هي الأخرى، ثم انتقل إلى الفتوى، فقال ونص على ما قدر من ذلك عن أخواي الفقيهبن، الشريف الفاضل العلامة أبي عبد الله محمد بن محمد المقري التلمساني وما تعقب به عليهما[1].

ومن بين القضايا التي أوردها الونشريسي، وجلبت انتباه علماء الدولة الزيانية، النازلة التي طرحها المغيلي المازوني، على شيخه أبي الفضل العقباني، ومحمد بن مرزوق، وعيسى الغبريني، والمتعلقة باختلاف فقهاء مازونة، على أحد المدرسين الذي كان يخلط في صفات الله تعالى، ويوضح ذلك المازوني بقوله: ‹‹ وذلك أنه قال أن الله رأى أشخاصنا قبل وجودنا وسمع أصواتنا في الأول، ونحن عين العدم››.

ذكر العالم هذا الرأي بمجلس تدريسه بمازونة، نتج عنه رد فعل من فقهائها بين مؤيد ومعارض، فالبعض يرى أن السمع والبصر لا يتعلقان إلا بموجود ولا موجود في الأول للآية.

وقد قيل لهذا العالم فإنك تقول أن ذلك معنى واضح للعمل كما تقول المعتزلة، وأن المازوني لم يستطع أن يوفق بين الخصمين، مما دفع به إلى مراسلة شيخه العقباني، وفي هذا الصدد ذكر بأنه أراد إمعان النظر في المسألة.

وملخص إجابة العقباني، أن الله تعالى منصف بالنظر في الأول، وليس منظرا للحوادث، في الأول كما يراها كما لا تزال حين يوجدها.

وأما إجابة ابن مرزوق الحفيد[2]، فهي تنص أيضا على أن أئمة المذاهب السنية رضي الله عنهم، متفقون على أن السمع والبصر ثابتان من صفات

1- الونشريسي: المصدر السابق، ج12، ص 346.
2- نفسه: ج12، ص 346، 347.

الله عز وجل.

وأما الغزالي، فقد قال: "بأن الإدراك المتعلق بالمرئيات، إنما يتعلق بموجود لا بمعدوم، خلافا لبعض المبتدعة".

ومن بين القضايا التي تناولها رجال الإفتاء في أراضي الدولة الزيانية بصفة خاصة، و المغرب الإسلامي بصفة عامة الاجتهاد والتقليد.

فمن بين الذين تناولوا هذا الموضوع العالم الجليل أحمد بن زكري[1]، الذي أجاب عن النازلة، التي طرحت على أبي العباس الونشريسي[2]، في فاس، وقد سأل عنها علماء تلمسان.

وقد أجاب عليها أيضا عبد الرحمن الوغليسي[3]، فقال: "ليس ممن يتقلد غير المشهور، عليه القضاء والفتوى من السلف والخلف في عمل على جادة أئمة المذاهب، واحذار مخالفهم. فالذي يمكن التوصل إليه من خلال رد الوغليسي، فإن الذين يزاولون مهنة القضاء والفتوى يجب عليهم الحكم بما يتفق عليه علماء المذهب، والابتعاد عما اختلفوا فيه".

وأما العقباني فيرى بأنه لا بد أن ينظر في الحكم الذي عدل عن المشهور إلى الشاذ فإن الحكم وأظنه بأنه المشهور نقض حكمه وأن حكم به مع العلم أنه الشاذ إلا أنه المشهور نقض حكمه وأن حكم به مع أنه الشاذ إلا أنه ترجح عنده، فكان من أهل النظر ممن يدرج الراجح والمرجوح، إنه لم يكن في العلم

1- عن ابن زكري: انظر: ابن مريم، البستان، ص: 38.

2- وعن أبي العباس الونشريسي: انظر: ابن عسكر، دوحة الناشر، ص 122.

3- عن عبد الرحمن الوغليسي، وهو من كبار علماء المدرسة البجائية في عصره، درس عليه مجموعة من علماء الجزائر، أبرزهم عبد الرحمن الثعالبي، لمزيد من المعلومات عنه، انظر: ابن مريم، البستان، ص: 207.

بهذه المنزلة زجر وينبغي أن يؤخذ عن القضاء.

فالعقباني يعتبر من كبار قضاة المغرب الإسلامي، لأنه تولى القضاء في كل من بجاية وتلمسان، وسبتة، وعرضت عليه قضايا مختلفة، ولذا فإجابته تدل على خبرته في الميدان، ولهذا يرى بأن القاضي لابد أن تكون له معرفة لكي يستطيع أن يفرق بين المشهور والشاذ، ويدرك مابين الراجح والمرجوح، وإذا لم يستطع ذلك فيجب معاتبته وابعاده عن القضاء.

أما السنوسي[1] الذي يعتبر هو الآخر من كبار رجال الفتوى في أواخر القـــرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، فيقول: « اعلم اكرمك الله تعالـــى، أن الناس باعتبار التقليد في الأحكام الشرعية فيما يعرض مـــن النوازل، فيقسمون إلى أربعة أقسام.»

- **أولا:** مجتهد اجتهد حتى ظن أن الحكم كذا.
- **ثانيا:** مجتهد يتيسر عليه النظر إلى الآية لم ينظر.
- **ثالثا:** عالما لم يبلغ رتبة الاجتهاد ولا يقدر على الاستبداد والنظر لنفسه، إلاّ أنه ادنت له أدلة الأحوال فهو الراجح منها من المرجوح.
- **الرابع:** علمي محقق.

وهكذا فإن إجابة السنوسي عكس من سبقه ويحال من خلالها أن يفرق بين العالم والجاهل، لأن بعض القضاة لم يكن لهم مستوى يخول لهم ذلك، وهـــو مـــا دفع بالسنوسي أن يقول: ‹‹ بأنه لا يمكن أن يكون في نفس الدرجة بين المجتهد والعامي المحض، الذي يتولى القضاء››، وهذه الظاهرة انتشرت فـــي عصر السنوسي وخاصة في القرن العاشر، السادس عشر الميلادي.

1- السنوسي من كبار علماء عصره، ألف في مجموعة من الفنون، وعلى الخصوص التوحيد، فالعقيدة الصغرى و الوسطى والكبرى، والبراهين، درست في أغلب المراكز الثقافية في كل المغرب الإسلامي، لمزيد من المعلومات عن هذا، انظر: الباب الرابع.

يضاف إلى هذه النازلة، فتوى تتعلق بثبوت شرف الأم والسؤال كان كالتالي: ‹‹جوابكم أبقاكم الله وسددكم في مسألة، رجل ثبت أن أمه والتي ولدت شريفة النسب فهل تثبت لهذا الرجل شرف النسب من جهة الأم ويحترم بحرمة الشرفاء بينهم[1]››.

اخترنا النازلة لأهمية الأشراف في عصر الدولة الزيانية، وعلى الخصوص في المرحلة الأخيرة من حياتها، حيث لاحظنا وجود مجموعة من الأسر ذات النسب البربري ادعت الانتساب إلى آل الرسول(ص)، ومن هؤلاء بني زيان الذين ينسبون لبني عبد الوادي.

كما أن الذين ينسبون لآل الرسول(ص) كانوا محترمين من قبل أمراء الدولة الزيانية من جهة، وشيوخ القبائل في الريف من جهة أخرى، ولعل هذا كان من بين العوامل التي أدت إلى النازلة.

ومن أبرز الإجابات التي رجعنا لها أو التي اعتمدناها، إجابة أبو عبد الله الشريف، لأنه يعتبر من أشراف الدولة الزيانية من جهة، ومن كبار علمائها في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، يقول:‹‹ فكتب له بذلك شرف الرسم وهو دون شرف النسب وإن ثبت شرف الرحم جاز أن يدعى له››.

ومن بين الذين أفتوا في ذلك سعيد العقباني، خطيب تلمسان وقاضي الجماعة بها، وكان ذلك في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول، لأن تاريخ

1- أن أصل الأشراف في المغرب الإسلامي يرجعون إلى بداية تأسيس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى واستقرار مجموعة من الأسر العلوية بالمغرب الأوسط وتكوين إمارات لهم به، لمزيد من المعلومات عن هذا، انظر: ابن أبي زرع روض القرطاس.
اليعقوبي، البلدان، ص: 12-14، انظر أيضا: لقبال، دور قبيلة كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية، الجزائر، ص 209.

إجابته على الفتوى كان في ربيع الثاني 770هـ- 372م[1].

كما أجاب على ذلك أيضا أحد كبار علماء تلمسان، وهو الفقيه أبو محمد عبد الله بن الفقيه المدرس المفسر المفتي المحقق، العالم أبي عبد الله محمد الحسيني، وكان ذلك سنة 783هـ-1381م.

وكذلك الفقيه، المدرس الأصوني المفتي القاضي أبو عثمان سعيد العقباني[2]، سنة783هـ-1381م وهذا بحضور يوسف بن محمد المغراوي، وعبد الواحد بن موسى المديوني.

إضافة إلى هؤلاء العلماء التلمسانيين الذين شاركوا في الإجابة، على هذه الفتوى، أبو الحسن علي بن محمد بن منصور الأشهب[3]، المدرّس المفتي، وكذلك أبو يحي بن عبد الله[4] الشريف، الذي قال: " أن ثبت الشريف المذكور والمرأة حق النسب، ثبت لوحدها بحق الولادة، وذلك شرف عظيم ومنزلة عاليا".

ومن بين الذين أجابوا على هذه الفتوى أيضا علماء بجاية، الذين اتفقوا على أن الشرف الثابت للأولاد، ليس هو شرف الرحم، بل شرف النسب.

يضاف إلى ما سبق أن هناك محاورات كانت تتم بين علماء الدولة الزيانية، من بينها المحاورة التي تمت بين العالمين الجليلين: محمد المقري[5]، وابراهيم بن الإمام، وموضوعها قول القاضي المقري رحمه الله، نظرت في قوله

1- ابن مريم: البستان، ص 48.

2- الونشريسي: المصدر السابق، ج12، ص 71.

3- عن منصور الأشهب، انظر: ابن مريم، المصدر السابق، ص69.

4- نفسه: ص 47.

5- نفسه: ص 46 المقري، المصدر السابق ج5، ص 334.

تعـــالى: "وما منعنا أن نرسل بالآيات"، ومـــع ما في الصحيـــح من قولـــه: "ما بعث من نبي قبلي، إلا أرقى ما مثله من عليه البشر.... "

هذا فيما يتعلق بالفترة التي سبقت القرن العاشر فإن تلمسان عرفت فراغا بهجرة علمائها إلى المغرب الأقصى، والمشرق الإسلامي، والواحات الصحراوية، لكن هؤلاء بقوا مرتبطين بتلمسان. ومن هؤلاء محمد شفـــرون بن أحمد بن أبي جمعة[1] المغراوي، الوهراني، الذي كان له دور مشرف في الحركة الفكرية، خلال عهد الدولتين الوطاسية والسعدية، ونكتفي هنا بالتعرض لأحدى الرسائل، وهي عبارة عن فتوى صدرت منه، وجدت من قبل علماء تلمسان، وتتمثل في قوله: «سؤال وجه لي من قبل أحد الطلبة، فقال: "أرشدكم الله جوابكم، فمن يعرف الله ورسوله، ويفرق بينهما، ويعلم أن الله قديم، باق، وإنه يحيي، ويميت، ويغني، ويفقر، ولا يعرف في ذلك دليل، ولا برهان، هل إيمانه صحيح، وليس هو كافر أم لا[2] وهل يصح إمامته وشهادته، أم لا، وإن بعض الطلبة كفر عامة المسلمين بعدم معرفتهم، كذلك هل يصح قوله أم لا.

فهذا السؤال الذي يطرح على المغراوي، يعتبر من بين الأسئلة، التي لاتزال تطرح في المجتمعات الإسلامية، وخاصة من بعض العلماء، الذين يلجؤون إلى الفروع دون الرجوع إلى الأصول، فيما يتعلق بالقضايا الدينية.

وإن بعض العلماء وصفهم بقوله: «إن بعض من يدرس العلم ويدعيه، ويزعم أنه ممن يحفظه، ويعينه، ويتعرض في علم التوحيد، والتدريس، والفتوى، وغيره ويرى أنه ممن ينصح المسلمين للإسلام، ونصر دين مولانا محمد(ص)، أو أن علمه إلى الحكم بتكفير المسلمين ــ المؤدي إلى ما ظهر

---

1 – ابن عساكر: المصدر السابق، ص 127.

2 – هذه الرسالة مخطوطة بالمكتبة الوطنية تحمل رقم 23، ورقة 13.

لـــي في السؤال في تقريبهم ــ ظنا منه أن كل ناعق له أتباع وأن الحقّ ليس له ناصر ولا داع.

قبل أن يرد المغراوي على هذا السؤال رجع إلى ما كتبه الإمام السنوسي الذي يعتبر من كبار العلماء في أواخر عهد الدولة الزيانية، الذين كتبوا في ميدان التوحيد، وإن مؤلفاته كانت تدرس في أغلب المراكز بالمغرب الإسلامي، وما يؤكده لك ما توصلنا إليه من خلال زيارتنا لمجموعة من الزوايا داخل الوطن حيث لا تكاد تخلو زاوية من كتب السنوسي وخاصة العقيدة الصغرى، والكبرى، لذا فالمغراوي جاء بنص السنوسي كمقدمة لنقد ما ورد في هذا السؤال، وفي هذا الصدد يقول: «قال السيد الإمام الحجة لموضع صاحب الحجة سيدي محمد السنوسي رضي الله عنه، يعني والله أعلم ما لم يظهر، وقد استدل على ذلك من خلال أقوال السنوسي، الذي قال يعني الله أعلم ما لم يظهر النظر في عقائدهم، كزماننا هذا، فيجب تقييده بالتلطف والمحاربة في تعليمهم الحق لما تبعه عقولهم، فقد فعل الله تعالى في الألفاظ والأدلة سعة. فكل يخاطب على قدر فهمه والله المستعان»[1] التبليغ لهم قد لا يحل له الخوض في شتى من ذلك معهم، أن لا يزيده إلا شبهة لا يقدر خروجها منهم القصوة»[2].

إن فتوى أبي جمعة محمد شفرون، فتاريخها أوائل رجب المبارك عام عشرين وسبعمائة. وكالعادة بالنسبة لعلماء الدولة الزيانية نجد الوجديجي[3]، يؤكد المغراوي في إجابته فيقول: « فاستدل على ذلك من قول الرسول(ص)

1- أبو جمعة المغراوي: المصدر السابق، ورقة 36.

2- نفسه: ورقة 35.

3- ابن مريم: المصدر السابق، ورقة 113.

من أحيا سنتي عند فساد أمتي، فله أجر مائة شهيد، فهذا من إحياء السنة، ومن إخماد البدعة، ومن أراد غير هذا فقد أخطأ».

وهكذا نجد الوجديجي يرى فإجابة المغراوي على النازلة ردا صريحا على الذين يريدون تشويه الإسلام، بنشر الأفكار التي تتنافى مع الشريعة الإسلامية وخاصة اتهام كل المسلمين بأنهم لا علاقة لهم بالإسلام ولذا يجب تكفيرهم جميعا، وهذه الأفكار لا تزال متداولة في عصرنا، وقد أدت إلى تدمير بعض المجتمعات الإسلامية، وجدت ذلك في عهد الدولة الزيانية، التي درسنا بها الضعف الاقتصادي، والانهيار الاجتماعي وضعف الميدان العقائدي، وفي هذا الصدد يقول: «إن النص على الأحكام الشرعية أن يظهر نفسه أخمده الله ونكسه»[1].

لم يتوقف الوجديجي عند هذا الحد بل يتهم كل من يجتمع بهؤلاء ويسمع لهم فهو مبتدع ملهم، تطبق عليه أحكام الشريعة الإسلامية، وفي هذا الصدد يقول: «فمن سمع لهذا المبتدع وركن إليه، وقاربه، فهو متبدع مثله، فلا يحل المقام معه كما لا تقبل شهادته ولاتجوز إمامته».

والسبب في ذلك يرجع في رأي الوجديجي أن هذا الشخص قد أحل دماء المسلمين، وأموالهم واتصف بصفات المبتدعين.

ومن بين الذين أبدعوا فتوى المغراوي من التلمسانيين محمد بن محمد بن عيسى، وصف المغراوي بقوله: « بأنه صحيح جاري على القواعد العلمية والقوانين الحكيمة مبنية عن رسوخ قدمه، في العلم، وحيازته قطب السبق، ونصحه للمسلمين وشفعته لهم، وأدام فعله وأنابه على علمه.

وأما الإجابة الثالثة فكانت للعالم الجليل ابن ملوكة[2].

1- أبو جمعة المغراوي: المصدر السابق، ورقة 36.

2- ابن مريم: البستان، ص 267.

المصادر والمراجع

* **المخطوطـــات**

– التنسي: نظم الدر والعقبان في شرف بني زيان مخطوط بالخزانـــة العامـــة بالرباط تحت رقم444

– أبوسعيد العقباني: تحفة الناظر وغنية الذكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر.

– مؤلف مجهول: زهر البستان مخطوط بمانشستر ببريطانيا

– مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين مخطوط بالمكتبة الوطنية.

– المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم1335/ 1336

– الياكوتي: تلخيص الأثار وعجائب المسالك والأمصار مخطـوط ومـصور على ميكروا فيلم بمعهد المخطوطات القاهرة.

* **المصــادر**

– ابن آدم أبوعبيد قاسم: الخراج تحقيق محمد شاكر الطبعة الثانيـة القـاهرة 1384.

– ابن الابار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ت سنة658: كتاب الحلة السيراء ط1 تحقيق حسن مؤنس الشركة العربية للطباعة والنـشر القاهرة1963.

كتاب التكملة لكتاب الصلة تحقيق محمد بن أبي شنب والفريـد بـل المطبعـة الشرقية الجزائر.

- ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت630: الكامل في التاريخ8 اجزاء نشر دار الكتاب العربي بيروت1967/1387

- ابن بشكوال ابي القاسم خلف بن عبد الملك: كتاب الصلة مراجعة عزت العطار الحسيني مكتبة المثنى بغداد1955/1374

- ابن بطوطة شمس الدين ابو عبد الله بن ابراهيم ت703: رحلة ابن بطوطة دار صادر بيروت للطباعة والنشر بيروت1964/1384

- ابن حزم ابو محمد بن سعيد456: جمهرة انساب العرب نشر ليفي بروفنسال القاهرة1948

- ابن حوقل ابو القاسم ابن حوقل النصيبي ت367: كتاب صورة الارض ط2 مطبعة بريل ليدن1938

- ابن خردادبة ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله في حدود300هـ: المسالك والممالك بريل ليدن1889

- ابن الخطيب لسان الدين بن عبد الله ت776: أعمال الاعمال فيمن بويع قبل الاحتلام تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني دار الكتاب الدار البيضاء 1964.

الاحاطة في اخبار غرناطة نشر محمد عنان رقم الحلل في نظم الدول تونس1899/1316.

نفاضة الجراب تحقيق محمد العبادي بدون تاريخ

اللمحة البدرية في الدولة الناصرية القاهرة1947

معيار الاختبار في ذكر المعاهد والاثار الرسالة الثالثة من مشاهدة لسان الدين ابن الخطيب ببلاد المغرب جامعة الاسكندرية1958

- ابن خلدون عبد الرحمان ت808: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت1968

المقدمة دار الكتاب اللبناني1968

التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا تحقيق ابن تاويت القاهرة لجنة التأليف والنشر 1951

- ابن خلدون يحيى: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد نشر الفريد بل مع ترجمة الى الفرنسية جزءان ج1/1904 والثاني في قسمين1913 وقد حقق الدكتور حاجيات الجزء الاول سنة1980

- ابن خلكان ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ت681: وفيات الاعيان وانباء أبناء أهل الزمان تحقيق احسان عباس دار الثقافة بيروت1971

- ابن ابي زرع ابو الحسن علي بن عبد الله الفاسي ت ق8هـ: الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس

- ابن ابي دينار ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني ت 1681/1092: المؤنس في اخبار افريقية وتونس تحقيق محمد شمام طبع المكتبة العتيقة ط 3 تونس 1967 ونشر مطبعة النهضة تونس 1950

- ابن صاحب الصلاة المن بالامامة تحقيق ممد التازي الدار البيضاء

ابن ابي الضياف احمد ت1291/1874؛1875

اتحاف أهل الزمان باخبار تونس وعهد الامان ج 1 ط تونس 1963

- ابن سعيد علي بن موسى المغربي: كتاب الجغرافيا ط2 تحقيق العربي اسماعيل ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982

- ابن الصغير حي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري

تاريخ أئمة الرستميين 1908
- ابن عبد الحكم عبد الرحمان بن عبد الله ت 257: فتوح افريقية والاندلس تحقيق انيس الطباع مكتبة دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 19
- ابن عذارى المراكشي ابو عبد الله محمد ت في القرن السابع الهجري البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب نحقيق ج ؛ س؛ كولان وليفي
- بروفنسال دار الثقافة بيروت1965/1384
ابن فرحون ابو الفداء ابراهيم علي بن محمد توفي1397/799
الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ط 1 دار السعادة القاهرة1329
- ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية
الوافيات نحقيق عادل نويهض.
- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي الانصاري ت711: لسان العرب المحيط اعداد يوسف الخياط دار لسان العرب بيروت1970.
ابن مريم ابو عبد الله محمد بن احمد الشريف المليتي المديوني التلمساني البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان تحقيق محمد بن ابي شنب الطبعة الثعالبية الجزائر 1908/1326.
- ابو الفداء عماد الدين بن اسماعيل بن محمد بن عمر ت732: تقويم البلدان تصحيح رينود ديسلان باريس1840
المختصر فياخبار البشر جزءان المطبعة الحسينية القاهرة
- البغدادي ابن عبد المؤمن ت1438/839: مراصد الاطلاع على اسماء الاماكن والبقاع طبعة حديثة في 3 اجزاء

- البكري ابو عبد الله ت487: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهـو جزء من كتاب المسالك والممالك مكتبة المثنـى بغـداد ومطبعـة الحكومـة الجزائرية 1857

- التيجاني ابو محمد عبد الله بن محمد التيجاني كان حيا سنة 13/702 رحلـة التيجاني المطبعة الرسمية تونس 1958

- التنسي ابومحمد عبد الجليل التنسي: نظم الدر والعقبان في بيان شرف بنـي زيان حقق جزء منه محمود بو عياد 1977

التمبكتي ابو العباس احمد بابا بن احمد الصنهاجي السوداني 963 / 1555 نيل الابتهاج بتطريز الديباج وهو على هامش المـذهب لابـن فرحـون ط 1 القاهرة 1329

- الدباغ ابو زيد عبد الرحمان الانصاري ت696: معالم الايمان في معرفـة أهل القيروان ط2 اكمله وعلق عليه ابو الفضل القاسم بن عيسى بـن يحيـى التنوخي ت839 تحقيق محمد الاحمدي ابو الانوار واخرون مكتبـة الخـانجي 1968

- الدرجيني ابو العباس احمد بن سعيد ت670: كتاب طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق ابراهيم طلاي مطبعة البعث قسنطينة 1974/1394.

- الزركلي خير الدين: الاعلام 11 جزء ط 3 بيروت 196

الزاركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تحقيق محمد ماضـور تـونس المكتبة العتيقة 1966

- الزهري: كتاب الجغرافيا نشر محمد الحاج صادق مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي دمشق 1967 ؛1968

- الضبي ت 459: بغية الملتمس في تاريخ اخبار الاندلس علمائها وامرائهـــا وشعرائها ودوي النباة ومن دخل اليها واخرج منها ط مجريد1884.
- الشيرازي عبد الرحمان بن ناصر بن عبد الله الشافعي ت1193/589.
نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيقق ونشر باز العريني القاهرة1946.
- العمري ابن فضل الله ت1349/749: مسالك الابصار في ممالك الامصار نشر وتحقيق احمد زاكي القاهرة1924.
- العبدري ابو محمد عبد الله بن محمد العبدري القـــرن8 : رحلـــة العبـــدري المسماة بالرحلة المغربية تحقيق محمد الفاسي الرباط.

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع



الباب الثاني الأحوال الثقافية

الفصل الأول

الفصل الثاني

Achevé d'imprimer sur les presses
de l'imprimerie HASNAOUI M.
09, Rue Mcd BOUCHAKOUR. Alger. - Tél. : 021 74 70 83
Juin 2009

هذا الكتاب

دراسة تارخية، سياسية، اقتصادية، ثقافية واجتماعية..
تعد مرآة صادقة لأحوال الدولة الزيانية، التي تعتبر من أهم الدول التي نشأت على أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون..
وقد مرّت الدولة الزيانية بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلدون حيث كان شاهدا هو وأخوه يحى بن خلدون على أهم مراحل هذه الدولة.

منشورات الحضارة
ص.ب 04 بئرالتوتة -الجزائر
هاتف فاكس: 021.44.34.41

الإيداع القانوني 759-2009
ردمك 978-9961-767-67-2

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

الدكتور مختار حساني

تاريخ الدولة الزيّانية

الجزء الثالث

الأحوال الاجتماعية

منشورات الحضارة

تاريخ الدولة الزيانية

الجزء الثالث

الأحوال الاجتماعية



الدكتور: مختار حساني

منشورات الحضارة

طبـــعـــة 2009

الإيداع القانونـــي: 760-2009
ردمك:978-9961-767-67-2

منشورات الحضارة
ص ب 04 بئر التوتة 16045 الجزائر
هاتف/فاكس، 41. 34. 44 (021)

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب

المــقــدمـــــة

تعتبر الدولة الزيانية من أهم الــدول التـــي نــشأت علـــى أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثـــة قـــــرون 1232- 1562. وقـــد مرّت بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلـــدون حيث كان شاهدا على مرحلة هامّة من حياة هذه الدولة، هو وأخـــوه يحي ابن خلدون صاحب كتاب بغيـــة الرواد.

وتميّزت هذه المرحلة بحروب متواصلة مع القوى الخارجية التـــي كانت تعمل من أجل السيطرة على أراضيها لأهميتهـــا مـــن الناحيـــة الاقتصادية اذ تعتبر الدولة الزيانية من بين الدول التي أعطت أهميـــة كبيرة للتجارة الداخلية والخارجية مع محيطهـــا (البحـــر المتوســـط، السودان الغربي والمشرق العربي) فالوثائق التي تحصّلنا عليها فـــي دور الارشيف بالدول الغربية وكذلك ما بقي من التـــراث المخطـــوط الذي يعود لعصر هذه الدولة يؤكد عظمتها في هذا الميدان.

أما في الجانب الثقافي فكانت عاصمتها تلمسان من بين المراكـــز الهامة، حيث كان لعلمائها أثر كبير في الحواضر الاسلامية في بـــلاد المشرق وبلاد المغرب الاسلامي. فالتراجم المتوفرة لدينا تؤكد هـــذا الدور الهام الذي قام به علماء الدولة الزيانيـــة ونـــذكر مـــنهم علـــى الخصوص: أبو زكريا ويحي المغيلي المزوني الـــذي ألّـــف الـــدرر

المكنون في نوازل مازونه وتعرض فيــه إلــى الاحــوال الــسياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال مجموعة مــن النــوازل لعلمــاء الجزائر، وكذلك محمد بن عبد الكريم المغيلــي التلمــساني، رجــل الاصلاح في عصره...

وهذا العمل الذي نقدّمه للمكتبة الجزائرية يعدّ مرآة صادقة لاحوال هذه الدولة انطلاقا من دراسة تاريخية اقتصادية، اجتماعية وسياسية.

د. مختار حساني

برج الكيفان في 8. 10. 2007

الــفــصــــل الأو ل

الطبقـــات الاجتماعــية

- عنـــاصـــر السكـــان:

إن الدارس للدولة الزيانية في هذه المرحلة المضطربة يجد صعوبات كبيرة في تحديد سكان الدولة الزيانية في المدة الأخيرة فالمصادر التي تناولت الموضوع لم تتوسع في هذه النقطة.

أ - لأن الدولة الزيانية في هذه الفترة تميزت بتقليص مساحتها عما كانت عليه في عصرها الذهبي حيث وصلت في أعز قوتها إلى جبال الزان[1] شرقا ووادي ملوية[2] غربا والبحر المتوسط شمالا و وادي ميزاب[3] جنوبا، لكن فــي الفترة الممتدة من بداية موضوع البحث إلى نهاية دولة بني زيان962هـ/ 1554م قد انفصلت عنها أجزاء كبيرة ولم تزد في بعض الأحيان على تلمسان وما حولها وامتدت أحيانا أخرى إلى قلعة بني راشد.

ب: حركة القبائل وهجرتها داخل محيط الدولة الزيانية ، يتبين لنا ذلك بوضوح من خلال وصف الحسن الوزان لأراضي الدولة الزيانية في بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي يستفاد منه أن جزءا من أراضي الدولة مسها، الخراب مما جعله يشير إلى فراغ مجموعة من المناطق مــن

1- جبال الزان المعروف اليوم بجبل أنفا دوا والذي يشكل جزءا من جرجرة، انظر التنسي، نظم الدر و العقبان، ص:184.

2- وادي ملوية : ينبع من جبال الأطلس المغربية ويصب في البحر المتوسط بالقرب من مليلة، انظر الوزان، المصدر السابق ، ص : 250.

3- وادي ميزاب أو مصاب يقع بجنوب الجزائر أقيمت حوله مجموعة من المدن و القرى نسب أهلها اليه.

سكانها كالأراضي المحيطة بالبطحاء وشرشال ومستغانم وهنين، كما حلت قبائل محل قبائل سابقة واستقرار القبائل العربية مكان مضارب القبائل البربرية.

- الخـــريطـــة السكـــانية:

فالتوزيع السكاني لا يكون على أساس المناطق أو النواحي فقط وبين المدن والأرياف بل يكون على أساس عرقي، فعلى الرغم من تعريب السكان وانتشار القبائل العربية ضمن محيط الدولة الزيانية فإن العنصر الأكثر انتشارا هو العنصر البربري ثم العربي وبعده المهاجرون الأندلسيون ومجموعة من الجاليات الأجنبية يهود ونصارى.

*** القبـــائل البربريـــة.**

قبل التعرض للقبائل لابد من القول بأن هناك أنواعا من القبائل منها القوية التي لها تأثير على تسيير دواليب الدولة خلال فترة موضوع البحث منها قبائل ثانوية تأثيرها أقل القبائل البربرية:

اختلف النسابون في أصل البربر فقال السهلي[1] المسعودى[2] والقطاعي[3] هـــو ولد بن بربر بن كنعان بن صار، وقال الطبري مثله ورد أيضا أنهم مـــن ولـــد بربر بن نفسان بن ابراهيم الخليل(ص)[4].

1-أبو زيد عبد الرحمان بن احمد بن اصبع السهيلي ت581، 1192 انظر ابن فرحون المذهب في أعيان المذهب ط1 الأولى القاهرة 1929 ص 220 وانظر أيضا ابن خلدون يحيى بغية الرواد ج 1 ص 181

2- الزاركلي الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين الطبعة الثانية ج5ص89

3- ابو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي ت 454 انظر السبكي طبقات الشافعية تحقيق الحاجي القاهرة 1963 ج 4 ص 63 ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء الزمان تحقيق احسان عباس بيروت 1971

4- مروج الذهب ومعادن الجوهر(ط) بولاق الطبعة الحديثة المصورة منها ج 2 ص 94 ؛96

وقال الصولي[1]: هو ولد بن بربر بن مصرائم بن حـام، وزعـم بعـض المؤرخين أنهم من ولد سام بن نوح عليه السلام، ثم اختلفوا فقالت فرقة: هـم ولد بربر من تملا بن مارين بن فار بن عمر بن عملاق بن رام بن سام وعلى هذا القول الأخير يكونون من العمالقة.

وقال مالك بن المرحل: البربر قبائل شتى مـن حميـر ومـصر والقـبط والعماليق وكنعان وقريش، تألفوا بالشام و لعلّ قسما منهم افريقيش بـن قـيس البربر لكثرة كلامهم[2].

واختلف الناس أيضا في سبب خروجهم الى المغرب فذهب المسعودى والطبري والسهلي الى أن افريقيش بن قيس بن صيفي هو الذي أخرجهم لفتح افريقية وسماهم البربر.

ذهب البكري[3] الى ان بني اسرائيل هم المخرجوهم منذ فتح داود عليه السلام جالوتهم مذكور في القرآن، وقال ابن قتيبة[4] هو زقرر بن حرتيـل بـن حديلان بن جلوه بن اديلان بن حطي بترجيع بن مادغيس لأبتر بن قيس بن عيلان بن مضر[5].

1- أبو بكر بن يحيى الصولي ت 353 ، 1082 عنه انظر الزاركلي الاعلام ج 8 ص 4 كحالة عمر تراجم مصنفي الكتب العربية مكتبة المثنى بيروت ج 2 ص 105 بروكلمان تاريخ الأدب العربي ترجمة النجار ج 3 ص 51 ؛54 زغلول عبد الحميد المرجع السابق ص81

2- عن افريقش انظر المسعودي مروج الذهبج 2 ص 13

3- ابن خلدون عبد الرحمان العبر ج 6 ص 176 ؛177 ؛ ابن حزم جمهرة أنساب العرب تحقيق محمد هارون القاهرة دار المعارف 1962 ص 495

4- وعبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب البكري ت 587 انظر كتاب الصلة لان بشكوال مراجعة عزت العطار الحسيني مكتبة المثنى بغداد 1955،1374 الزركلي الاعلام ج 4 ص 223 كحالة نفس المرجع ج 6 ص 76

5- وعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة 276 ، 889 عنه انظر بروكلمان تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 221 ؛230 ابن خلدون يحيى بغية الرواد ج 1 ص 179

هذه هي أغلب الروايات التي تناولت البربر،ومن بين المحدثين الذين تناولوا هذه النقطة أستاذنا الدكتور لقبال[1] الذي يرى بأن دور العرب المسلمين في إطلاق اسم البربر على سكان المغرب الإسلامي لا يتعدى تبني مصطلح جامع لكل السكان محاكة لمن سبقوهم في المنطقة، ولكن من خلال دراستنا للكتب المغربية التي تعرضت للموضوع لاحظنا أن نسابة البربر قد استساغوا الكلمة وأخذوا بها وأقربها في نسبتهم علما أن هذه الكتب لم توضع إلا في العهود المتأخرة، حيث تردد صداها فيما دونه المؤرخون المسلمون منذ حركة التدوين في المغرب الأقصى تلك الحركة التي كان رائدها أبوالقاسم الزياني ت(1249هـ/1809م).

ومن أشهر نسابة البربر الذي تناولهم ذلك المؤرخ الرحالة المغربي سليمان بن اسحاق المطماطي وكذلك تاريخ العقباني عن بني زيان وابن مرزوق صاحب المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن السلطان أبي الحسن[2].

بالاضافة إلى بعض الفقرات لمحمد بن يوسف الوراق وابن حزم وابن عذارى وابن عبد الحكم الذي يظن أنه صاحب الأنساب والذي اختيرت منه نبذة من مفاخر البربر لابن خلدون[3] والسلاوي[4].

---

1 لقبال المرجع السابق ص 84 ابن مرزوق. (1). المسندالصحيح الحسن ص 107 ؛113

2- ابن خلدون العبر ج ج 6 ص 71.

3- لسلاوي ،الاستقصاء ج 1 ص 36 انظر أيضا شارل أندري جوليان تاريخ افريقية الشمالية تونس الجزائر المغرب الاقصى ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة الشركة التونسية والشركة الجزائرية للنشر والتوزيع الجزائر 1978 ج 1 ص 67.

4- أمين ،واصف الفهرسة والخرائط التاريخية للممالك الاسلامية ص16؛17 انظر أيضا سعيد عبد الفتاح عاشور أوروبا في العصور الوسطى ج1 الطبعة الثانية1961 ص 65؛66 ؛89 انظر أيضا لقبال موسى المرجع السابق ص52

والملاحظ أن كلمة البربر استهوت الباحثين المحدثين في المشرق والمغرب وترددت كثيرا من أن مقابلها كلمة أمازيغ ومشتقاتها التي تدل على الشرف والنبالة وتعشق الحرية لم تحظ بهذا القدر من الاستعمال.

وإن كلمة البربر غدت هي الغالبة على السكان الأقدمين اعتمادا على الروايات السابقة التي ذكرناها من قبل بالإضافة الى ما أورده بعض المؤرخين الأوروبيين حول أصل الكلمة وقالوا بأنها إيرانية أو لاتينية.

وأن الإغريق أطلقوها على الشعوب الجرمانية المتوحشة الذين اشتهروا بالتخريب للحضارة والعمران في كثير من ولاية الامبراطورية الرومانية الغربية والشرقية ومن هؤلاء الوندال الذين مارسوا أسلوبا غير إنساني مع سكان شبه جزيرة ايبيريا بالمغرب الاسلامي (شمال افريقية) وبعد انقراض الوندال من شمال أفريقية حيث سيقوا الى القسطنطينية في عصر جستنيان بقيت كلمة البربر في ذاكرة التاريخ منسوبة لغير أهلها.

وقد كان الاعتماد من طرف المسلمين في بعض الأحيان على شجرة الأنساب الواردة في التوراة وأنه بدا للمتأخرمن من المغاربة، وهو مالـــك بـــن المرحل أن يوافق بين هذه الأراء وأن البربر خليط من عدة أجناس مـــا بين سامية وحامية ويرى الدكتور لقبال أن البحث عن أصل البربر بحث عقيم اللهم إلا إذا كان البحث يدور حول نوع الجاليات والشعوب التي دانت لها احتكاك بالمنطقة والتي استقرت بها، واندمجت مع السكان الأصليين وُ
ذهب إليه بعض الدارسين الأنتروبولوجيين حول موضوع أصل الأنساب فـــي شمال افريقية وإن أهم سمات هذا الأنسان الشعر وبروز الأنف وسواد العيون

واعتدال القامة[1] لا تخرج كل هذه الصفات على المجموعة التي تميز بهــا الانسان في حوض البحر المتوسط وجنوب آسيا، واذا كانت المنافذ التي مــن الممكن أن تكون طريقا الى الهجرات على الصحراء والبحر هو باب المندب وبرزخ السويس وسيناء ومضيق جبل طارق، ومعنى ذلك أن امتزاجا حدث بين المسلمين والحاميين عن طريق النزوح والاختلاط،وهذه السمة هي الغالبة مع اختلاف العصور وخصوصا في المناطق الحساسة من العالم مثل حوض البحر المتوسط[2].

وقد تفرعت القبائل البربرية إلى مجموعتين أساسيتين، البرانس، وهم مستقرون بالقرى الساحلية، والبتر وهم منتشرون في السهول[3]، ويتميزون بالرحلة، وينتشرون بالمناطق التلية والسهوب. ومن أبرز القبائل البربرية خلال فترة موضوع البحث زناتة وموطنها الأصلي المغرب الأوسط[4].

ومعنى ذلك أنها داخلة في الإطار الزياني، وفي ذلك يقول ابن خلدون[5]: أن المغرب الأوسط ينسب إليها ويعرف بها فيقال وطن زناتة وهي أقوى القبائل البربرية البترية عدة وعددا وتنتسب الى مادغيس الأبتر والادريسي[6]

1- شارل أندري جوليان المرجع السابق ج 1 ص67 ؛68.

2- دوزي تاريخ مسلمي اسبانيا ج 1 ترجمة حسن حبشي وجمال محرز ومختار العبادي القاهرة 1963 ص 141 انظر ماجد عبد المنعم التاريخ السياسي للدولة العربية ج 1 ص 226

3- ابن منظور القبائل العربية ج 1 ص 223 وما بعدها انظر لقبال نفس المرجع ص 54 ؛ شارل أندري جوليان المرج السابق ج 1 ص 66 وما بعدها ؛ حليمي عبد القادر جغرافية الجزائر ص 223

4- ابن خلدون العبر ج ص 203 ؛ ابن حزم جمهرة أنساب العرب ص 95 مرمول السياسة الداخلية للخلافة الفا طمية في بلاد المغرب الاسلامي الجزائر 1983 ص 156

5- ابن خلدون المصدر السابق 7 ص 178

6- الإدريسي المصدر السابق ص 98

يرى أنها تنسب إلى جانا بن مدغيس، وهو جالوت الذي قتله داود عليه السلام، ومعنى ذلك أنه يرى أنها تعود في أصل نشأتها إلى العرق الكنعاني من العماليق، ويتفق معه أبو الفداء في نسبتها إلى العرب، ويرى بأنها عدنانيـــة أو قحطانية.

وأهم مناطق سكنى زناتة هي وهران وتلمسان وأم عسكر وتيهرت[1] ويمكن تحديد مضاربها من تلمسان غربا الى نهر الشلف شرقا ومن ساحل شرشال ووهران شمالا إلى تيهرت جنوبا، الأول جراوة[2] بالأوراس بني يفــرن[3] ومغراوة[4] الذين كانوا تحت قيادة بني خزر وبني ومانوا وبني يلومي[5] وفــي القرنين الرابع الهجري والخامس الهجري/العاشر والحادي عاشر الميلادي كانوا متمركزين بالسهول الغربية للمغرب الأقصى وحوض الشلف كما تواجدت مضارب بني يعلى في تلمسان وبني خزرون في سجلماسة[6] وتعتبر من أقوى القبائل الزناتية خاصة خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي حيث تمكنت من تحطيم حركة الفاطميين نحو الغرب وكان هذا بقيادة الخزر.

1- الاصطخري،المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبد العالي بدون تاريخ ص36؛ الإدريسي صفة المغرب ص36؛ ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص200 ؛ لقبال موسى المرجع السابق ص59 ؛ محمد الصالح مرمول المرجع السابق ص178 ؛ بن عميرة المرجع السابق ص126.

2- عن جراوة انظر ابن خلدون العبر ج 4 ص159

3- العبر ج7 ص 135 لقبال المرجع السابق ص59 ؛60

4- نفسه ج7 ص 134 ؛ ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص 189 ؛200

5- نفسه ج4 ص 44؛ ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص 200 ؛ الجيلالي المرجع السابق ج 2 ص 256

6- نفسه ج7 ص 131 انظر حاجيات أبو حموا موسى الثاني مقال بمجلة تاريخ وحضارة المغرب ع 5 السنة الخامسة 19 78 ص 16 و26 ؛ الميلي المرجع أنساب ج 2 ص 349

وخلال فترة موضوع البحث برزت إلى الوجود أسرة أولاد منديل[1] الذين أسسوا لهم إمارة بناحية مازونة وفي نفس المنطقة التي كانت تندرج ضمن مضارب مغراوة مند قرون عديدة وجدهم منديل هو الذي ملك شلف بعد أن تقلص نفوذ الدولة الموحدية بعد معركة العقاب وملكوا جبل الونشريس والمدية ثم أغاروا على متيجة فسيطروا عليها إلا أنهم اصطدموا ببني غانية ووقعت معركة بين الجانبين قتل فيها منديل سنة1244/622[2].

وكانت لهذه الهزيمة نتائج سلبية اذ وضعت حد لتوسع منديل وقوة مغراوة وأرغمتهم على التخلي على متيجة وأضعفتهم إلى حد أنهم أصبحوا لا يقوون على الدفاع على جبل الونشريس لما زحف إليه بني توجين وحتى المدية وبقي أولاد منديل منحصرين في منطقة الشلف وأهم مدنه شرشال ومليانة وتنس إلا أنهم في هذه الأثناء استطاعوا أن يختطفوا مازونة في النهاية كما سيوضح بعد ذلك[3].

وأما بنو ومانوا وبنو يلومي[4] فكانا بين القبائل التي كانت تستقر بتلك المنطقة وفي مدينة البطحاء[5] وأراض سيق وسيرات ومما يذكر أنهم كانوا

1- العبر ج7ص 134 ؛ الميلي المرجع السابق ج2 ص369 الجيلالي تاريخ الجزائر العام ج2 ص148 ؛ دائرة المعارف الاسلامية ج14 ص360.

2- نفسه ج 7 ص 114 انظر الميلي المرجع السابق ج 2 ص 174

3- عن بني ومانوا وبني يلومي انظر ابن خلدون العبر ج 7 ص 114 ؛119

4- البطحاء تقع بالمنطقة المحصورة بين الهبرة وسيق أو ربما بالقرب من بلدية عمي موسى وقد كانت أطلالها ماثلة للعيان خلال زيارة الحسن الوزان للمنطقة في بداية القرن العاشر الهجري السادس عاشر الميلادي انظر وصف افريقيا ص 416

5- عن عبد المؤمن بن علي الكومي مؤسس الخلافة الموحدية انظر المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب ليد 1847 ص 97 ابن صاحب الصلاة ص 412

على اتصال بسلطان الموحدين، وذلك منذ عهد عبد المؤمن الكومي545/ 1145[1] حيث كانوا يدفعون الضرائب له.

أما الجنس الثاني فقد برز بالدرجة الأولى في القرن السابع الهجري الثالث عاشر الميلادي ويتألف من بني واسين [بنو مرين وبنو عبد الوادي] التي يندرج تحتها بنو زيان وقد أكد يحي بن خلدون أنهم من البربر حيث قال ومــن أبناء زناتة بنو عبد الوادي وبني توجين ومليكش إلاّ أنه عاد فقسمهم الى فخذين ينسب أولها إلى البربر والثاني إلى إدريس بن عبد الله بن محمد بــن علي بن أبي طالب[2].

وأرجع التنسي[3] نسبهم إلى الرســول (ص) على أن عــبد الرحمــن بــن خلدون رد على الزعم بأنه لا سند له ولو كان الأمر كذلك لافتخــر بــه يغمــراســن بن زيان، لأن هذا الأخير لما علم بذلك قال برطانتهم إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله وأما الدنيا فإننا نلناها بسيــوفنا.

ويبدو أن الشيء الذي دفع بهؤلاء المــؤرخيــن أن يربطــوا نســب بنــي عبد الوادي إلى بيت النبوة أن كل منهما ألف كتابه وقدمه إلى أحد سلاطين هذه الدولة فابن خلدون يحي قدم كتابه للسلطان أبي حمو موسى الثاني وفعل نفس الشيء التنسي الذي ألّف كتابه في عهد المتوكل[4].

1- العبر ج 7 ص 114
2- نفسه ج 7 ص 190
3- نفسه 7 ص 149
4- عن المتوكل انظر التنسي المصدر السابق ص 236

من هنا يتبين لنا أن أهم قبائل زناتة مايلي:

- **أولا:** بنو عبد الوادي كانوا يعيشون قبل الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط في جبل الأوراس وقد تحدث عنهم الإدريسي في رحلته فذكر أنهم من بين سكان الأراضي المحيطة بمدينة بسكرة ثم انتقلوا نحو السهول التلية في عهد الدولة الموحدية وتمركزوا في الأراضي المحصورة ما بين وطن الشلف وتلمسان الـــى جوار إخوانهم من الزناتيين مثل بني توجين ومغراوة.

- **ثانيا:** قبيلة مغراوة التي كانت تقطن وادي شلف ومليانة وبرشك وشرشال ومازونة.

- **ثالثا:** بنو توجين وقد انتقلوا من الواحات الصحراوية نحو الشمال فسيطروا على أراضي صنهاجة[1] مثل المدية[2] واخرجوا الثعالبة من أراضي تيطري، ينقسمون بدورهم الى مجموعة من البطون.

بنو تغرين سيطروا على جبل الونشريس منذ أوائل القرن الثامن الهجري الرابع عاشر الميلادي بعد أن تخلى عنهم بنو مرين بعد الحصار الكبير لتلمسان 698/1296-707/1307وكان الونشريس قبل ذلك تحت سلطة محمد بن عبد القوي المنتمي الى بني منكوش وهم فرع آخر من بني توجين وكان تواجدهم بمنطقة الونشريس والسرسو.

1- صنهاجة تشكل أكبر مجموعة من البرانس من أبرز بطونها تلكاتة التي تنسب إليها الدولة الزيرية والحمادية ولمتونة التي ينتسب إليها المرابطون لمزيد من المعلومات انظر ابن خلدون العبر ج 6 ص 313 ؛370

2- ابن عذاري البيان ج 1 ص 330 ؛341

أولاد عزيز الذين استوطنوا المنطقة الممتدة ما بين المديـــة ومضـــارب بني منكوش وقد وفدوا من موطنهم الأصلي ماسون وكذلك بنو يدللتن الذين هــم أيضا من بني توجين.

استولت قبيلة بني توجين على حصن الجعبات وقلعة تاغزورت وبذلك أصبحت المناطق الواقعة بين مواطن بني راشد وصنهاجة بنواحي المدية وبلاد السرسو وجباله ملكا لبني توجين قبل انتقال القبائل العربية لهذه المنطقة.

بنو ورنيد الذين هم فرع من بني توجين فقد كانوا هم الآخرون يقطنون سفوح الونشريس ثم سيطروا على المناطق الجبلية منه. بنو سلامة تمركزوا في المنطقة المحصورة بين تاغرورت الونشريس.

- **رابعا:** بنو راشد الذين كانوا يرتدون منطقة جبل بني راشد [جبل عمور] الذي يحمل اسمهم وذلك أنهم خلال المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الموحدية المضطربة توجهوا نحو المناطق الشمالية لأهميتها من الناحية الاقتصادية وعلى الخصوص النشاط الزراعي فخصوبة الأرض تساعدهم على ايجاد الكلإ والماء لمواشيهم وقد أغاروا على المنطقة التي لقبيلة مديونة الواقعة ما بين وادي مينا ووادي سيق فتغلبوا عليها واختطفوا بها القلعة التي أصبحت تحمل اسم قلعة بني راشد كما توجهوا الى المنطقة التي كانت في الماضي ضمن مضارب بني يفرن.

وهناك قبائل أخرى كانت مستقرة بأراضي الدولة الزيانية مثل الصنهاجيين وقد كان هؤلاء يعيشون بجبل الونشريس وذلك قبل بداية التوسع الصنهاجي خلال عهد بلكين بن زيري978/368 الذي قام بتجديد مدن مليانة والمدية

التي كانت تحمل اسم قبيلة صنهاجة ونفس الشيء بالنسبة لجزائر بني مزغنة، وكذلك بنو يندل أو هندل[1] ومتيجة الذين ينتسبون بدورهم لنفس القبيلة.

ومن القبائل التي عاشت بشلف حد يجن[2] حيث كانت مضاربهم في منداس بين بني يفرن من الناحية الغربية ولواتة في الشرق وبين مطماطة في السرسو والونشريس إلا أنهم كانوا في صراع مع لواتة مما أدى إلى ضعفهم وتسهيل مهمة بني يلومي ومانو في السيطرة على أراضيهم ،إلاّ أن وجودهم رغم ذلك استمر بتلك المنطقة إلى أن تغلب عليهم بنو عبد الوادي وبني توجين.

أما سنجاس فكانوا هم الآخرون يتمركزون بالشلف ويشير ابن خلدون الى مذهبهم فيقول أنهم معتنقون للمذهب الخارجي لكنه يبدو أنهم تخلوا عنه بالتدريج لأن مضاربهم التي ذكرها ابن خلدون مثل جبل بني راشد والشلف ينعدم بها المذهب الخارجي[3].

كما تتواجد في نفس المنطقة قبيلة الماية وهم من بني فاتن وقد لعبوا دورا هاما في تكوين الدولة الرستمية وخلال عهد ابن خلدون كانت مضاربهم بجبل الونشريس وبالتحديد أراضي السرسو قبلة منداس حتى جبل كزول[4].

وإذا انتقلنا الى شمال الشلف نجد من بين قبائله مغيلة التي استقرت بجبل الظهرة وبالتحديد بين مصب شلف حتى مازونة[5].

1- بني هندل قبيلة بربرية

2- ابن خلدون العبر ج 6 ص 412 ؛313 الإدريسي المصدر السابق ص 89

3- نفسه ج 6 ص 97 انظر الميلي المرجع السابق ج 2 ص 175

4- ومنداس حسب النسابة البربر أنه ينتسب إلى مغر بن أوريغ بن المثنى وقد ترك هؤلاء مضاربهم وتوجهوا الى جبل ونشريس انظر العبر ج 6 ص 254 ومنداس الآن إحدى دوائر ولاية غليزان

5- هوارة انظر ابن خلدون العبر ج 6 ص 283 الميلي المرجع السابق ج 2 ص 249

ومن القبائل المحيطة بجبل الونشريس هوارة ومن بطونها زكارة التي ينسب إليها جبل زكار بدائرة مليانة.

وخلال القرن السادس الهجري الثاني عاشر الميلادي ،أسس شيخ هوارة قلعة هوارة[1] ويرى ابن خلدون أنهم يتمركزون بالمغرب الأوسط خاصة بجبل هوارة القريب من مدينة البطحاء.

كما يقول عنهم أنهم وجدوا في البداية بنواحي طرابلس وبرقة ثم توزعوا في منطقة الأوراس وكذلك بين عنابة وتيفاش[2] وبين وهران وتيهرت وعلى مسافة غيز بعيدة من أشير يوجد سوق هوارة[3].

ومن الملاحظ أننا نجد بعد تأسيس الدولة الزيانية أن بعض شيوخ هوارة تحالفوا مع ملوك بني زيان وهو يعقوب بن يوسف الهواري الذي عاش خلال عهد السلطان أبي تاشفين الأول718؛1318/737؛1337 وقد عينه على قبيلة بني توجين[4] وهذا يجعلنا نرجح أن القبائل البربرية المتواجدة بأراضي الدولة الزيانية كانت تظهر الطاعة لهم، لكن لا تلبث أن تنقلب عليهم عندما يتعرض ملكهم لأخطار خارجية وفي كثــيــر مــن الأحيان كانت هذه القبائل تمديد العون لأعدائهم في الداخل والخارج، ومن بطون مطماطة بني يلسن الذين استقروا بالونشريس وقــد هاجروا مع الزناتيين من بني توجين وتمركزوا بناحية منـــداس.

1- تيفاش مدينة قديمة ترجع الى العهد الروماني توجد الآن بولاية سوق اهراس وقد وصفها البكري بالظالمة انظر المغرب ص 53

2- البكري المصدر السابق ص 60

3- يحيى بن خلدون بغية الرواد 1 ص 230

4- يحيى بن خلدون بغية الرواد ج 1 ص 230

- **العلاقــة بين القبائــل البربرية والدولــة الزيــانية:**

من الضروري التعرف في هذا البحث على طبيعة العلاقات المتبادلة بين الدولة الزيانية والقبائل البربرية الداخلة في إطارها السياسي حيث نرى بأن هذه العلاقات كانت من طرف الدولة قائمة على التسلط والسيطرة ومن الجانب الآخر نرى أنها علاقات قبلية لم تصل الى درجة الانتماء الوطني.

وإنما تخضع الى لون من العصبية أحيانا للدولة وأحيانا للقبيلة ومن ثم فإننا نلاحظ أن هذه العلاقة لم تأخذ طابع الاستقرار طول الفترة التاريخية للعصر الزياني ومن هنا انقسمت الى قسمين:

- **أولا:** علاقة القبائل البربرية بالدولة الزيانية[1] وهذه العلاقة تخضع لعدة اعتبارات منها المصلحة الاقتصادية والتعصب للعرف.

وكان العامل الأول أكثر قوة ذلك أن التأثير الأكبر لصالح القبيلة ودليلنا على ذلك أن قبيلة بني توجين كانت علاقاتها عدائية مع الدولة وذلك أنهم فــي هذه الفترة كانوا كثيري الحركة[2] كما كانوا على إتصال بالمغراويين الذين يجاورونهم ويجوبون معهم سهول وادي شلف وقد حاولوا أن يحافظوا على المنطقة من التدخل الخارجي مما جعلهم يتحدون في مواجهة االزيانيين رغم رابطة العمومة مع الأسرة الحاكمة في تلمسان.

1- عن علاقة الدولة الزيانية بالقبائل البربرية انظر ابن خلدون العبرج7ص200؛201 يحيى بن خلدون بغية الروادج1والثاني.

2- شارل عما نوائيل ديفورك مكانة الونشريس والجهات المجاورة له في تاريخ المغرب الأوسط عبر الألفية الأولى من التاريخ الهجري؛ محاضرة ألقاها في ملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر1980ص9.

ومن جهة أخرى، فإن بني زيان لم يحاولوا التفاهم معهم للاستثمار الروابط العرقية ذلك أن بني توجين نفسوا عليهم مال إليهم من سلطان وفي ذلك يقول ابن خلدون [استقل يغمراسن ابن زيان بأمر تلمسان والمغرب الأوسط وظفر بالسلطان وعلا كعبه على سائر أحياء زناتة، نافسوا عليه ما أتاه الله من العز وأكرمه به من الملك فنبذوه العهد وساقوه الطاعة وركبوا له ظهر الخلاف][1]. إلا أن هذه العلاقة اختلفت بعد الحصار الطويل لتلمسان الذي قام به المرينيين ضد الزيانيين من سنة 698؛1317/707؛1337[2] قد مالت إلى الود والصفاء بعد ذلك ولعل هذا الموقف يرجع إلى أحد احتمالين:

- **أولا** :أنهم وجدوا أن بني زيان وصلوا الى درجة عالية من التفوق العسكري خلال عهد أبي تاشفين الأول717-1317/737-1337.

- **ثانيا** :أن بني توجين وبني عبد الوادي وبني مرين وإن كانوا من أصل واحد الا أن بني توجين من جد أقرب ولذلك نجد العصبية القبلية تسيطر على بني توجين فينحازون إلى بني زيان.

ومما يؤكد الاحتمال الأول أنه خلال سنة 1348/749 وبعد أن التف بنو عبد الوادي وراء أبي سعيد الملقب بالزعيم استطاعوا إحياء الدولة من جديد حيث تحالفوا معهم بنو توجين بعد رجوعهم من القيروان[3].

1- ابن خلدون العبر ج 7 ص 164

2- ابن خلدون العبر ج 7 ص 201 يحيى بن خلدون بغية الرواد ج 1 ص 215 التنسي المصدر السابق ص 156

3- ابن خلدون المصدر السابق ج 7 ص 196 ابن خلدون يحيى بغية الرواد ج 2 ص 148

ويدل على ذلك أنه خلال عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني كان شيخهم نصر بن عمر التجيبي أميرا في جبل الونشريس للزيانيين بعدما أعلن طاعته وقدم لهم حصة من المقاتلين لتساهم في الحروب التي تخوضها الدولة[1].

ويتبين لنا من خلال ما أوردناه أن سياسة بني توجين كانت تهدف إلى مسالمة كل من ظهرت غلبته وقوى أمره وإعلان الطاعة والإنحياز لكل من فرض سلطته على هذه الدولة مقابل المحافظة على ولايتهم بجبل الونشريس ولذلك وقفوا إلى جانب أبي زيان ضد أبي حمو موسى الثاني الذي عندما اشتد جانبه أخذ أشياخ بني توجين كافة وساقهم في ركابه تحملهم البغال المبردعة[2] وهكذا خضعوا من جديد لابي حمو وأن خضوعهم هذا ينم عن ضعفهم.

وميلهم إلى الاستسلام للغالب من السلاطين مما كان يحط من شأنهم ويخل بما عرفه قومهم قبل ذلك من عزة وكرامة وما زاد في انحطاط قوتهم أن السلطان الزياني أبو حمو قطع أراضيهم للقبائل العربية ومنها قلعة بني سلامة أعطاها لأولاد عريف وكذلك منداس وما جاورها وقد علق ابن خلدون فقال: [وعمرت أوطانهم قبائل عرب بني هلال والمعقل، لما تغلبوا على سائر البلاد والبقاء لله][3].

ويتجلى لنا من النص أنهم فقدوا أغلب الأراضي الزراعية وأصبحوا مطالبين بتقديم الضرائب عما بقي بأيديهم منها للقبائل العربية التي استقرت بينهم.

1- يحيى ابن خلدون المصدر السابق ج 2 ص 200

2- ابن خلدون العبر ج 6 ص 182

3- بنو تغرين إحدى بطون قبيلة بني توجين انظر العبر ج 7 ص 320

على أن مغراوة هي الأخرى اصطدمت مرارا بالدولة الزيانية التي كانت تحاول السيطرة عليها لذلك استولى يغمراسن على بعض مدنهم تنس، وبعد وفاته حاربهم ابنه أبو سعيد فسيطر على أملاكهم مما جعل أميرهم ثابت بن منديل يلجأ الى المغرب الأقصى سنة694؛1294 طالبا المساعدة من بني مرين وإثر محاصرة هؤلاء لتلمسان سنة698؛707/ 1298؛1307اغتنم راشد بن محمد الفرصة، فعاد لإحياء إمارته إلا أنه اضطر بعد ذلك إلى مغادرة المنطقة بعد فك الحصار خوفا من انتقام بني عبد الوادي وكذلك فعل ابنه علي بن راشد فقد قام هو الآخر بمحاولة إحياء إمارته إبّان الاستيلاء المريني على تلمسان في عهد السلطان أبي الحسن المريني1336/737 وتوجه معه إلى القيروان حيث شارك إلى جانبه في المعركة التي انهزم فيها الجيش المريني سنة 1347/748 وعاد مع شيوخ زناتة إلى المغرب، وكان له دورا بارزا في اعادة النفوذ الزياني حيث وقف إلى جانبهم لعهد تم بينه وبينهم ، ثم ما لبثت مغراوة أن نقضت هذا أبعد أكثر من مرة عندما رفضت مساعدة بني زيان في حربهم ضد الناصر بن أبي الحسن المريني سنة 1347/749 وهذا الموقف من جانب مغراوة أحكم العداء بينها وبين الدولة الزيانية ولم تنفرد قبيلة مغراوة بموقفها العدائي من بني زيان بل وقف بني توجين وقبائل زغبه ضدهم في حربهم ضد أبي الحسن المريني سنة 750/ 1349.

ولم يمر موقف مغراوة من الدولة الزيانية دون عقاب، فقد قام أبو ثابت بعدة حملات تأديبية لهذه القبائل حيث استطاع هزيمة مغراوة وقتل علي بن راشد والسيطرة على مليانة والمدية وبرشك وشرشال وتقرر هذا فكلما ضعف شأن الدولة الزيانية وتلاشى سلطانها تطلع أمراء مغراوة إلى إحياء

مجدهم بمساعدة بني مرين ولكن سرعان ما كان بنو عبد الوادي يسترجعون ملكهم ويستعيدون الشلف منهم وبذلك قضوا على آمال المغراويين به.

وأما بني راشد فقد تعاونوا مع الزناتيين في مواجهة بني مرين وشاركــوا إلى جانبهم في معركتي أيسلي ووادي تلاغ وكونوا إمارة صغيرة موالية للدولـــة الزيانية ولما استولى أبو الحسن على تلمسان سنة1336/737 وجد بها بعض أشياخ بني راشد فنقلهم مع شيوخ بني عبد الوادي إلى المغرب الأقصى وعندمـــا قام أبوسالم بمنافسة أبي حمو موسى الثاني قـــدم زيـــان بـــن يحـــي الراشدي إلـــى وطن بني راشد داعيا لأبي زيان القبي فيها.

وفي ربيع الأول سنة761 سبتمبر1360 أغار الأمير أبو تاشفين الثاني رفقة الشيخ عمران بن موسى اللؤلؤي على أراضي بني راشد، ففــرّ زيــان ين يحيى والتجأ عند عرب سويد ثم عاد الى وطنه وقام بدعوة بني مرين مما جعل عمر بن موسى اللؤلؤي يتجه إليه ويهزمه هزيمة أكبر من الأولى واجلائه من أراضيه، مما جعله يتجه مرة أخرى إلى المغرب الأقصى.

وعندما عاد الى قلعة بني راشد بعد عقد الصلح مع بني عبد الوادي وفـــي رجب سنة 1362/763 اتهمه أبو حمو موسى الثاني بمراسلة بني مريــن فقبض عليه واعتقله بوهران ففر من معتقله وتوجه إلى المغرب الأقصى وعـــند عودته اعتقل من جديد سنة1367/768 وتوفي بسجنه وبوفاتـــه انتهـــت إمارة بني راشد.

يتبن مما سبق دراسته ،أن علاقة الدولة بالقبائل الزناتية عامة كانت قائمـــة على روح التنافس والصراع وقد ضربنا لذلك أمثلة مثل علاقة بنـــي تـــوجين وبني راشد بالدولة.

أما علاقة بني عبد الوادي أنفسهم بالدولة، فتبدوا مختلفة لأنها تمس علاقة القبيلة بالأسرة الحاكمة وهي علاقة بلا شك أكثر إيجابية إلاّ أنها في بعض الحالات تبدو عدائية، ذلك أن بطون بني عبد الوادي وقعت في نفس الروح القبلية وسيطرت على البعض منها روح المنافسة ودليلنا على ذلك ما ذهبنا إليه عما أورده ابن خلدون عن شخصية يغمراسن أنه كان من أشد هذا الحي بأسا وأعلمهم في النفوس مهابة وجلالا وأعرفهم بمصالح قبيلته.

وقد تناول هذه العلاقة بمزيد من الوضوح السلطان أبي حمو موسى الثاني في قوله [أنه كان على السلطان أن يرضيهم وأن يجعل على كل جماعة منهم شيخا من أكابرهم وأعيانهم على أن يكون كل واحد من هؤلاء الأشياخ من أكثر قبيله محبة له ورغبة في خدمته واستعدادا لتحريض جماعته على الطاعة وأسلمهم ريبة وأبعدهم عن النميمة والغيبة].

ومن هذين النصين اللذين قد عرضنا لهما كأمثلة تتبين لنا العلاقة بين الأسرة الحاكمة في الدولة الزيانية وقبيلة بني عبد الوادي كانت أكثر انسجاما من بقية القبائل البربرية الأخرى ،مما يدل على أن السلطان جعل القرابة التي تربطه بهذه القبيلة وسيلة للتقرب منه. فقرب أفراد من هذه الأسرة وأدخلهم في خدمته واختار الشيوخ من أكابرهم وأعيانهم بشروط كان من أهمها محبتهم له ورغبتهم في خدمته واستعدادهم لتحريض جماعته على الطاعة مع قلة الريبة والبعد عن الغيبة والنميمة وبذلك يتبن لنا صحة ما ذهب اليه ابن خلدون عبد الرحمان من وصفه ليغمراسن بن زيان أنه كان أعظم ملوك بني زيان على الاطلاق.

وأما من حيث الأنشطة فهناك قبائل مستقرة تمارس الزراعة وأخرى متنقلة تعتمد على تربية المواشي ومن بين القبائل من يجمع بين الحرفيين وقد استفادت بعضها من ضعف الدولة وساهمت في موت الدول بالحروب والفوضى كقبيلة بني عامر وسويد من بني هلال وبني راشد من زناته وقد اتبعنا طريقة عبد الرحمن بن خلدون في تقسيم القبائل لا على أساس الأنشطة الاقتصادية ومكانتها في المجتمع بل اعتمدنا الجانب العرقي وبدأنا بالقبائل البربرية لقدمها في المنطقة.

وخلال القرن التاسع الهجري ومنتصف القرن العاشر الهجري الموافق للقرنين الخامس عشر والسادس عاشر الميلاديين فكان توزيع القبائل كمايلي:

- أولا: القبائل البربرية

ومن أبرز القبائل البربرية في فترة موضوع البحث زناتة التي كان المغرب الأوسط موطنها الأصلي وهو ما يتضح من قول ابن خلدون: « إن المغرب الأوسط ينسب إليها ويعرف بها فيقال وطن زناته وهي أقوى القبائل البربرية البترية عدة وعددا[1].

وأهم مناطق سكنى زناته، هي وهران وتلمسان ومعسكر إلى تيهرت ويمكن تحديد مضاربها من تلمسان غربا إلى نهر شلف[2] شرقا، ومن ساحل شر شال[3] شمالا إلى تيهرت[4] جنوبا وقد كانوا يقومون بالرحلة بين التل والسهوب

1- ابن خلدون: العبر، مجلد7، ص:10-15.

2- من أكبر أنهار الجزائر يصب في البحر المتوسط بالقرب من مدينة مستغانم، انظر الوزان، المصدر السابق ج2 ص32

3- شرشال: مدينة تقع غرب الجزائر على ساحل البحر المتوسط كانت عاصمة لموريطانيا القيصرية و عرفت الإزدهار في عهد الملك يوبا الثاني . انظر الحسن الوزان ج2 ص 34.

4- تيهرت: هناك مدينتان تيهرت القديمة الرومانية وتيهرت الرستمية، عنها انظر ياقوت الحموي المصدر السابق.

والواحات الصحراوية ولاتزال بعض المناطق في أدرار ووادي السورة تحمل أسماء زناته تؤكد تواجد هؤلاء قبل الهجرة الهلالية. وقد زاد نفوذ الزناتيين فـــي القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي بعد تأسيسهم لدول وينتسب هؤلاء إلى بني واسين « بني مرين وبني عبد الوادي».

فبنو عبد الوادي انتقلوا من الواحات الصحراوية إلى نواحي تلمسان وأصبحوا يتحكمون في الناحية الممتدة ما بين وادي صا ومضارب بني توجين وبالتحديد من المدية إلى جبل الونشريش ومن التراب إلى الجعبات.

أما الحدود الفاصلة بين بني عبد الوادي[1] و بني توجبن فتشتمل على سيق[2] ومدينة البطحاء[3] امتدادا إلى مضارب مغراوة مما أدى إلى كثرة الحروب بين هذه القبائل وبني عبد الوادي على الأراضي التي تتميز بوفرة الكلأ والمـــاء لأن أغلب بطونهم يعتمدون في حياتهم على تربية المواشي والرحلة بين التـــل والواحات الصحراوية. هذا فيما يتعلق بمضاربهم بني عبد الوادي.

أما بطونهم فقد بلغ عددها عند تأسيس دولتهم إثنا عشر بطنا منهم بنو القاسم الذين نسبوا لبني عبد الوادي بالمجاورة وأنهم من الأشراف العلويين حسب مـــا ذكره التنسي وغيره من المؤرخين الموالين لبني زيان ولم يحافظوا على قوة عصبيتهم خلال مراحل دولتهم حيث بدأ الصراع بين هذه البطون فـــي عهد يغمراسن بن زيان الذي عارضه بنو مكن دفع ببعضهم إلى الفـــرار

1- عن بني عبد الوادي: انظر ابن خلدون، العبر، مجلد 7س 129: ابن خلدون يحي، بغية الرواد ج1، بغية الرواد، ج1، ص:91 دائرة المعارف الإسلامية، ستال جورج مارسي Marçais (G) ، مادة زيان 418.

2- سيق تعتبر من بين المدن ذات الأهمية وهي إحدى دوائر ولاية معسكر حاليا مشهورة بالزيتون.

3- عن البطحاء ، انظر الباب الثاني الفصل الأول ص 278

نحـــو الأندلس اضطرارا لأن يغمراسن خشي من زعيمهم يحيى بـــن مكـــن وابنه الزعيم مما جعل بنو مكن يتحالفون مع المرينيين ضد يغمراسن، لكن هذا لم يستمر ويبدو أن بعض شيوخ بني عبد الوادي لعبوا دورا مشرفا في حسم الصراع بين يغمراسن وبني مكن لصالحه، فعادوا إلى تلمسان وربطوا علاقاتهم بأمراء بني زيان وخاصة في عهد شيخهم داود بـــن علـــي، الـــذي يعتبـــر من ابرز مشايخ بني عبد الوادي[1] وصاحب الشـــورى فـــي عهـــد السلطـــان أبـــي حمو مـــوسى[2] الثاني الذي سبق أن حث ابنـــه أبـــا تشفين الثانـــي للاعتماد على شيوخ بني عبد الوادي و تفضيلهم على غيرهم.

كما أن الصراع داخل الأسرة الحاكمة على السلطة له تأثيرات سلبية في قوة القبيلة فإنه بعد مقتل السلطان أبي حمو موسى الأول من قبل أبي تاشفين[3] الأول عمد هذا الأخير إلى إبعاد قرابته من أولاد وأحفاد يغمراسن الذين كانوا بتلمسان فطاردهم نحو الأندلس خشية من ترشيحهم لتولي شؤون الدولة رما يتوقع من الفتن من قبلهم، مما دفع بالبعض منهم كبني بند وكس[4] بن طاغ الله وخاصة بنو جرار بن علي إلى التعامل مع بني مرين لذلك عندما استولى هؤلاء على تلمسان سنة737هـــ-1337م استعملوا عليها عثمان بن جرار.

---

1 – التنسي، المصدر السابق، ص 159-164.

2 – وعن أبي حمو موسى الثاني، انظر المقدمة ص:159-164.

3 – قتل السلطان أبو حمو موسى الأول سنة 717 هـــ، 1317 م، انظر ابن خلدون يحيى، بغية الرواد،ج1، ص:127، التنسي، المصدر السابق 138-139.

4 – عن بني بنداوكسن بن طاع الله من بين أفراد أسرة بني زيان. انظر ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج1، ص:102، أونيكوكسن اوتبدوكسن التنسي ص:109، تعرضت تلمسان إلى الاحتلال المريني مرات منها سيطرة أبو الحسن عليها سنة 737هـــ، 1337م، لمزيد من المعلومات عن دخول أبي الحسن لها، انظر ابن خلدون، العبر، ج7، ص:536.

وقد ازداد هذا الانقسام في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية نتيجة لسوء الأوضاع السياسية التي عرفتها الدولة وما أسفر عنها من حروب بينها وبين القبائل الواقعة تحت سيطرتها، والأمثلة على ذلك كثيرة منها أولاد قايد وأولاد سالم وأولاد الحاج علي وأولاد عبد الحليم وهؤلاء من بني زيان لعبوا دورا مشرفا في عصر قوة الدولة لكن في مرحلة انحطاطها دخلوا في صراع مع أمرائها، مما أدى إلى ترك مساكنهم[1] بتلمسان ومضاربهم بضواحيها والانتقال في اتجاه الجنوب وأول محطة توقفوا عندها عين الصفراء[2] التي تعتبر من بين المراكز القريبة من عاصمة الدولة وإحدى المحطات التجارية التي تسلكها القوافل المتجهة من تلمسان نحو الواحات الصحراوية والسودان الغربي فأقاموا بها نحو أربع و عشرين سنة، ويبدو أن خروجهم من تلمسان لم يضع حدا لصراعهم مع دولة بني زيان، وهو ما يؤكده صاحب النص بقوله: «وهم أهل مدينة تلمسان و أنهم كانوا أهل مملكة فقام عليهم بنو زيان فأخرجوهم من تلمسان ثم ارتحلوا ونزلوا بعين الصفراء، ثم نزلوا بعين صبرة فاستقروا بها أربع وعشرين سنة وهم يقاتلون مع بني زيان»[3].

واستمرار الحرب بينهم و بين بني زيان دفعتهم أيضا إلى الرحلة من جديد إلى الجهة الشرقية ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى شدة التنافس

---

1 – العشماوي: كتاب الإعتبار و التعريف بآل النبي المختار، مخطوط بزاوية الشيخ السويسي بغليزان، ورقة20.

2– عين الصفراء: إحدى دوائر النعامة من أهم المدن التي تقع بين الواحات الصحراوية وإقليم التل و هي الآن عاصمة لإحدى دوائر ولاية العشماوي، نفس المصدر، ورقة 18.

3 - وادي المبطوح يقع بالقرب من مدينة سيق لا يزال سكانه يعتقدون بأنهم من بقايا الأسرة الزيانية، انظر العشماوي، المصدر السابق، ورقة 160.

بينهم وبين أمراء الدولة المتأخرين، إلا أن وصولهم إلى وادي المبطوح[1] واستقرارهم به أثر في وضعيتهم الاجتماعية فتحولوا عن الرحلة ومزاولة تربية المواشي، مقتصرين على الزراعة لخصوبة الأراضي التي استقروا بـــها وفي هذا الصدد يذكر الكاتب أنهم بعد أن غلبوا على أمرهم ركبوا علـــى خيولهم وهربوا بأمتعتهم وعبيدهم وأولادهم وعيالهم وكل من كان معهـــم وصاروا يجدون السير حتى وصلوا وادي المبطوح، واستقروا فيه ثم بعـــد ذلـــك تفرقوا فـــي الأوطان»[2].

لم يوضح لنا الكاتب أسباب انتقال البعض منهم من وادي المبطوح نحـــو مناطق أخرى، لكن يبدو لنا أن ذلك كان نتيجة للصراع الذي حدث بينهم حول استغلال الأراضي التي حلوا بها.

فأولاد قائد بن يعلا انتقلوا إلى جبل زواوة[3] والبعض الآخر نحو الواحات الصحراوية، كما اتجه أولاد سالم إلى جبل جرجرة وأولاد عبد الحليم إلى تافلالت أولاد الحاج فضلوا قرية تملاحت، ولم يبق بوادي المبطوح غير أولاد دافل. ومن بين بطون بني عبد الوادي وأفخاذهم بني حمو الذين استقروا غرب مدينة تنس إلى جوار بني رابح ومنهم فرقة حطت رحالها بجبال بني سنوسن يقال لهم أولاد محمد بجبال بني يزناسن بين مضارب بني دريد وآخرون إلى جوار بني عامر بإزاء الدواب وهؤلاء في مجموعهم نسبوا إلى أبي حمو موسى الأول.

1- العشماوي: المصدر السابق، ورقة 17.

2- لعل المقصود به جبل الزان الذي يعرف الآن بجبل كفادوا و توجد في منطقة القبائل الكبرى إحدى القرى تحمل اسم يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية.

3- جبال بني سنوسن و بني يزناسن نسبة إلى هذه القبائل التي اتخذت تلك الجبال مستقرا بالقرب من الحدود الجزائرية المغربية أي بين مدينة المغنية و وجدة.

يضاف إلى هؤلاء فرقة من بني عبد الوادي استقرت في مسك الغنائم «مستغانم» يقال لهم أولاد عفيف وأخرى في غريس عرفوا بأولاد محمد بن يحيى وأولاد عيسى وبجبل ترارة أولاد إبراهيم وأولاد سيدهم، كما انتقل أولاد محمد بن زيان إلى جبل العمور.

- بنو تويجن:

هذا فيما يتعلق بقبيلة بني عبد الوادي، أما توجين فكانت قوتهم لا تقل عن بني عبد الوادي، ومواطنهم بوادي شلف وقبلة جبل ونشريس من أرض السرسو وهو المسمى لهذا العهد بنهر واصل و استقرارهم بهذه الجهة كان على حساب بني وجديجن[1] ومطماطة[2]، وبعض مضارب مغراوة[3] الذين سبق لهم السيطرة على بسائط متيجة[4] وجبل ونشريس بعد ضعف الدولة الموحدية، إلا أن عبد القوي بن عطية التوجيني نازعهم عليها و أرغمهم على تركه فخل مكانه بنو تغرين و بنو منكوش من بني توجين ثم تغلبوا على منداس واستقر بها أحياء من بني مدن أما بنو يدللتن فاستقروا بقلعة بني سلامة، كما نزل بنو يزناسن بالأراضي الواقعة شرق ونشريس، لكن هناك صراع حدث بين بطون بني توجين كانت الغلبة فيه لبني عطية وبني تغرين و أولاد عزيز بن يعقوب الذين يعرفون بالحشم فسيطروا على أغلب تلول تلك الناحية بعد

1- نسبة إلى حمو موسى الأول الذي شيد قصر بتلك الناحية و لا تزال إحدى مدن ولاية غليزان تحمل اسم عمي موسى نسبة لأبي حمو موسى..

2- عن جديجن، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد 7، ص:11-102..

3- نفسه، مجلد7 ص:50-57..

4- نفسه، مجلد7 ص:50-57.

إزاحة مغراوة[1] عن المدية والونشريس وتافركنت واستأثروا لملكها وملك الأوطان الواقعة غربها مثل منداس والجعبات وتاغزورت.

أما وضعيتهم الاجتماعية فلم تتغير وهذا ما جعل ابن خلدون يعلق عليهم بقوله:«صار لهم ملك بدوي لم يفارقوا فيه سكن الخيام والابتعاد عن النجعة وإيلاف الرحلتين ينتهون في مشاتيهم إلى مصاب الزاب في المصائف يعودون إلى بلادهم هذه من التل[2].

ومن بين الذين حددوا لنا مضارب بني توجين أبو راس الناصري بقـولـه: « توجد بعض بطون بني توجين ضمن نواحي نهر واصل ثم صاروا من قبل بنـي راشد إلى جبل دواك وبلغ عدد جنودهم ثلاثة آلاف فارس منهم بنو تغرين وبنو عزيز لكن الزعامة لبني تغرين خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين[3] وأرضهم بإزاء الونشريس والسكان في تلك النواحي يطلقون عليهم اسم الأجواد»[4].

إن تحركات بني توجين مرتبطة بالأوضاع السياسية التي عرفهـا المغـرب الأوسط منذ القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي وفي تلـك الفتـرة كان قسم من بني توجـين مـا بـين قلعـة سعيـدة[5] في الغـرب

1- الصراع بين بني توجين و مغراوة ظهر لأول مرة بعد فشل ثورة بنو عانية في القضاء على الدولة الموحدية، لمزيد من المعلومات عن الأحداث التي عرفها المغرب الأوسط في الثلث الأول من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:133-134-134. .

2- ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:318-333.

3 - أبو راس، الحلل، ورقة 102.

4 - أبوراس، المصدر السابق، ورقة 49.

5 - قلعة سعيدة : تعتبر الآن من بين المدن الحديثة فتوسع عمرانها بعد الاستقلال 1962 و هي عاصمة لإحدى ولايات الدولة الجزائرية.

إلى المدية[1] بالشرق.

وعندما قامت الدولة الزيانية أثرت على بني توجيـــن فاستـــولوا على عامـــة أوطانهم وفوضوا بني يزناسن وبني يدللتن لحكمهم لتحـــالفـــهـــم مـــع بني عبد الوادي بينما فضل المعارضون لهم الاعتصام بجبل ونشريس.

كما اغتنموا سوء أوضاع الدولة الزيانية لصالحهم فتحالفوا مع القوى الخارجية التي كانت تطمح في السيطرة عليها و من بين هؤلاء بنو مرين الذين حاصروا تلمسان سنة737هـــ،1337م خلال هذا الحصار استوثق ملك محمد بن عطية فتغلب على مضارب صنهاجة بجبل المدية وأخرج الثعالبة مـــن جبل تيطري إلى متيجة ثم استولوا على المدية وأنزل بها أولاد عـــزيـــز بن يعقوب وجعلها موطنا لهم.

أما بنو صالح المقربين من محمد بن عطية، فقد اختلفوا معه مما دفع بهم إلى التوجه نحو أراضي الدولة الحفصية فاستقروا بضواحي قسنطينة إقطاعا لهم من قبل بني حفص.

كما أن استمرار الحروب بين الدولة الزيانية والقوى المعاديـــة لها أثـــر على بني توجين وهو ما جعل محمد بـــن الخطيـــب[2] يعلق عليهـــم بقـــولـــه: «كانت السيادة في قبائل بني توجين لبني عطية[3] ثم صاروا من القبائل الغارمة

---

1 - ابن الخطيب القرشي التلمساني القبائل العربية مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم3182 ورقة 14.

2- وما يقال عليها ينطق على المدية التي سبق لبلكين بن زيري اختطافها إلى جانب جزائرفي مزغنة ومليانة، لمزيد من المعلومات عنها انظر عبد الرحمان الجيلالي، المدن الثلاثة عن حصار تلمسان الكبير، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:196. جبل تيطري من أهم الجبال القريبة من المدية لذا عرفت المدية بعاصمة ولاية التيطري.

3- عن بني عطية و دورهم في منطقة الونشريس، انظر الصاغ، زهر البستان، ورقة 118.

ومن بطونهم بني زندار وبني قمار ومنهم فرقة كبيرة بأرضيهم اليوم بإزاء جبل بني راشد تلاشى أمرهم واضمحل حزبهم مثل الأمم الذين من قبلهم وبقيت منهم أوزاع متفرقون في الأقطار ويقال أن بني شعيب منهم والشوشرة وأولاد موسى في العطاف وفرقة بجبل أوراس».

- بنـــو راشـــد:

هذا فيما يتعلق ببني توجين، أما بنو راشد فينسبون إلى جبل عمور الذي عرف بجبل بني راشد، اغتنموا أوضاع المغرب الأوسط في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الموحدية، فتوجهوا نحو المناطق الشمالية لأهميتها من الناحية الاقتصادية وخاصة وفرة الماء والكلأ[1]، فأغاروا على المنطقة التي تندرج ضمن مضارب مديونة بين وادي مينا[2] ووادي سيق، فتغلبوا عليها واختطّوا بها القلعة التي عرفت بقلعة بني راشد، كما استولوا على مضارب قبيلـــة بـــني يفرن وصنهاجة.

- مغـــــراوة:

أما مغراوة فقد ملكوا حوض شلف وجميع مدنه، كمليانة وتنس وبرشك وشرشال كما استولوا على سهل متيجة ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل امتدت مضاربهم إلى جبل ونشريس فاستولوا عليه قبل وصول بني توجين.

وكونوا بهذه المضارب إمارة شملت مليانة وشرشال وبرشك وتنس ومازونة، ومستغانم، ثم أعلنوا الحرب على بني زيان مما جعل هؤلاء يشنون الغارات المتواصلة على مضاربهم منذ عهد يغمرا سن بن زيان.

1- أبو راس المصدر السابق، ورقة 74.

2- وادي سيق يمر بالقرب من مدينة سيق.

ومعارضتهم لبني زيان جعلهم يتحالفون مع الحفصيين في البداية ثم مـــع بني مرين، مما ساهم في ضعفهم وانقسامهم على أنفسهم فضعفت عصبيتهم مما دفع بالبعض منهم إلى التوجه نحو الواحات الصحراوية حيث توجد آثار لهم بقصور وادي بني كومي[1] «تاغيت» يعرف بقصر بني واروا[2] نسبة لأحد بطون مغراوة ولا نعرف تاريخ انتقالهم لهذه الناحية وبناء هذا القصر، لكــن يبدو أن ذلك كان في أواخر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بعـــد الضعف الذي أصاب المغراويين نتيجة لحروبهــم مــع بنـــي زيان من جهة والقبائل العربية من جهة أخرى.

ومن بين الذين تخلوا عن مضاربهم من بطون مغراوة، بنو بختـــة الذين فضلوا الاستقرار بالضواحي المجاورة لتلسمان وبالتحديد وادي يســـر، ومنهم بنو الكوط في الزاب وجبل راشد ولهم هناك قصور كثيـــرة ومنهم بنو وراو شلف ومراكش والسوس وبإزاء ملوية وقبيلة فـــوق ماســـون بأرض الجعبات ومنهم سنجاس وقبيلة خدو ببجاية وريغـــة بالـــزاب إلا أن أشهر قبائلهم هي التي توجد عند مصب نهر شلف فـــي البحر المتوسط.

ومن مغراوة الكناسرة وأهل فرس في غـــريس وأهـــل الكرط وفرقـــة يميـــنا وبني راشد من الشرق وأخـــرى بيســـر وفرقـــة بـــأولاد خالـــد تركـــوا وتناموا[3].

1- عن قصور بني كومي، انظر الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 2، ص130.

2- وعني بني واروا، ، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7،ص: 276.

3- أبوراس الناصري ، المصدر السابق ، ورقة 40.

- مطـمــاطــة:

يضاف إلى قبيلة مغراوة مطماطة[1] التي تعتبــر من أبرز القبائل التـــي لعبــت دورا بارزا خلال القرن الثالث والرابــع الهجــرييــن، التاســع والعاشـــر الميلاديــن.

من بين بطونهم بني يلسن الذين استقروا بالونشريس هاجروا مع الزنـــاتيين خلال القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي وتمركــزوا بالخــصوص بناحية منداس وبالقرب من بلدية عمي موسى حاليا بجوار مكناسة.

كما توجد بقايا منهم بالجبل المقابل لتيهرت والذي عرف خلال هذه الفترة بجبل كركرة، دخل البعض منهم في صراع مع مغراوة وعندما فشلوا فـــي الحفاظ على مضاربهم انتقلوا إلى الجبال المطلة على سهل متيجــة ثــم خضـــعوا في نهاية الأمر إلى القبائل العربية وأصبحوا يدفعــون ضرائبهــم لأولاد يعقوب بن يوسف والعطاف الذين استحوذوا على التلــول والجــبال المجاورة لجبل دواك[2].

كما نزل البعض منهم نواحي البطحاء أي ما يعرف اليوم بالأراضي المجاورة لغليزان[3]، لكن الحروب التي عاشتها الدولة الزيانية أثـرّت علـــى المطماطين مما دفعهم إلى الإنتقال عن مضاربهم وتوزعهــم بيـــن القبائـــل ويجـــعل أبو راس من بين بطونهم أولاد إدريس الأحرار بـــوادي ســيرات.

---

1 - عقد الجمان ورقة 9-10.

2 - ابن خلدون، العبر، مجلد6، ص:102.

3 - غليزان عاصمة لإحدى ولايات الدولة الجزائرية و اسمها أمازيغي معناه تل الدباب، انظر القرشي القبائل العربية، ورقة 126.

- هـــــوارة:

أما هوارة[1] فتعتبر من أكبر القبائل البربرية التي كان لها تأثير على الأوضاع السياسية في المغرب الاسلامي منذ الفتوحات الاسلامية وقد استقر بعض بطونها بالمغرب الأوسط ومنها زكارة التي ينسب إليها جبل زكار بدائرة مليانة.

وخلال القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي أسس شيخ هـــوارة[2] محمد بن إسحاق قلعة هوارة التي عرفت فيما بعد بقلعة بني راشد.

وقبل استقرارهم في تلك الناحية كانت أراضيهم تابعة لقبيلة بني يلومي[3] وبني ومانوا ثم انتقل حكمهم إلى آل حيون الذين لعبوا دورا بارزا في المرحلة الأولى من عهد الدولة الزيانية وعلى الخصوص في عهد السلطان أبي تاشفين الأول الذي تقرب منهم وعين شيوخهم في الوظائف ومن أبرز هؤلاء يعقوب بن يوسف[4] وخلال فترة موضوع البحث عرفت هوارة هي الأخرى هجرة داخلية وخارجية ومن المهاجرين، بنو علان الذين كانوا أهل الرئاســـة فـــي الجزائر خلال العصر الذهبي للدولة الزيانية، فهي في النصف الأول مـــن القـــرن 10هـــ/ 16.

لم نجد لهم ذكر ولعل السبب في ذلك أنهم انصهروا ضمن سكان مدينة الجزائر ولم يدخلوا في أي نشاط سياسي مما جعل المصادر تغفل عن ذكرهم.

---

1 - عن هوارة، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد

2 - عن هوارة، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد

3- عن بني يلومي و بني ومانوا، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:114.

4- ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج1، ص216، التنسي، المصدر السابق، ص139-144.

أما الذين حافظوا على مضاربهم فهم أهل الجبل المطل على البطحاء وفيه مسراة وغيرها من بطونهم أهل جبل عباش وأوماهة وتيلوانت وقد هاجرت فرقة منهم الى مستغانم تحت ضغط قبيلة السويد، كانوا قبل ذلك بالبطحاء.

ومن بين تلك القبائل التي استقرت بأراضي الدولة الزيانية خلال هذه الفترة بنو مرين الذين أسسوا لهم دولة بالمغرب الأقصى[1] وادخلوهم أيضا في صراع فيما بينهم مما أدى إلى إنهيار دولتهم وتأسيس الدولة الوطاسية[2] على أنقاضها دفع ببعض بطون بنى مرين إلى الانتقال نحو المغرب الأوسط واستقروا في البداية بتلمسان والبعض منهم على ضفاف وادي يسر مجاورين الحشم وهم الذين عرفوا بأولاد سيدي محمد الشارف الملقب بالأدغم كما انتقل البعض منهم الى مضارب بنى عامر.

- بنو يلومي وبنو ومانوا:

ومن بين القبائل البربرية التي تعرضت الى ترك مضاربها بنو يلومي وبنو مانوا اللتان كانت مضاربهما بإقليم بني راشد[3] حاليا أي بمعسكر ونواحيها وسبب خروجهم هو ضعف عصبتهم وهو ما يؤكده القرشي[4] بقوله: وأما بنو يلومان وبنووامنو منهم فرقة في ونوغة وأخرى في البرجية يضاف إلى القبائل السابقة نجد قبائل أخرى حدث تحركها داخل حدود الدولة كالانتقال

1- تأسست الدولة الزيانية سنة614 هـ،1226، لمزيد من المعلومات عنها انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7 ص:352-361.

2- عن بني وطاس، انظر السلاوي، المصدر السابق، ج4 ، ص:157

3- بنو راشد من القبائل الزناتية لمزيد من المعلومات عنهم، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:315-318.

4- ابن الخطيب القرشي، المصدر السابق، ورقة 18

مـــن الجهة الشرقية نحو الناحية الغربية وخاصة الحدود الفاصلة الآن بين الجزائر والمملكة المغربية من بين تلك القبائل ضريسة وزناتة.

فالأولى كانت مستقرة بين تنس ووادي شلف ثم تعرضت لضغوط من قبل قبائل الناحية الأقوى منها لأهمية المنطقة من الناحية الاقتصادية، فوفرة المياه وخصوبة الأرض جعل القبائل تتصارع على هذه المنطقة فبعد المغراويين جاء دور الهلاليين، فاستقروا بها.

لم نعرف تاريخ خروج ضريسة من المنطقة، لكن يبدو لي أنه مر بعدة مراحل قبل تأسيس الدولة واستمر إلى نهايتها وسلكوا الطريق الساحلي إلـــى أن وصلوا إلى وادي ملوية وعنده فضلوا جبال بطيوة ومضيق تازة.

يضاف إلى هؤلاء قبائل أخرى تركت مضاربها نتيجة لضعفها ومن بينها جماعات مدغرة[1] ومطماطة[2] ومغيلة ورواغة الذين اختاروا بدورهم ساحل طريقة عند مصب وادي الملوية مما يقابل مضارب بني يزناسن. وهناك هجرة من جنوب المغرب الأقصى وبالتحديد من مضارب قبيلة مدغرة الموجودة بسجلماسة وهم أولاد سيدي بوعنان الذين تركوا مضاربهم في بداية القـــرن العاشر الهجري، السادس الميلادي فاستقر مولاي الشريف بتلمسان وانتقل وبعض أبنائه انتقلوا إلى أم العسكر(معسكر) ومن بيـــن القبائل التـــي لها تأثير على الوضعية السياسية خلال هذه فـــترة موضوع

1- مدغرة : قبيلة بربرية، لمزيد من المعلومات عنها انظر ابن خلدون، العبر، مجلد.

2- ابن خلدون: العبر، مجلد، ص: عن بيطري، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد.

البحـــث الحشـــم[1] الذين اعتبرهم المؤلف بأنهم جزء ومن قبيلة بني راشد سموا بذلك في أواسط القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي. ومن بين بطون الحشم ما يلي:

- **أولاد سيـــدي دحـــو**

يعتبرون من أهم البطون التي تنسب إلى الحشم وقد علق عليهم الطيب المختار بقوله « أصح القبائل نسبا وأعظمها في القديم جاها ولعل ذلك كان فـــي عهد الدولة الزيانية وعلى الخصوص في مرحلتها الأخيرة حيث نجـــد الحشم قد تحالفوا مع الأتراك ضد الأسبان وهو ما يؤكده المؤلـــف بقـــولـــه: « ونجدهم زيادة والتزام عند ملوك الأتراك ومن دخل من أهل المطالب والجبليات لا يتعرض له ».

ولكن ما يعاب على النص أنه لم يحدد لنا تاريخ ارتباط الحشم بالأتراك، لكن يبدو من خلال الوثائق الإسبانية أنه تم خلال المرحلة الأولى من التوسع التركي على حساب الدولة الزيانية ولعل ذلك تم بدفع من قبل الملياني الذي كان بالقلعة خلال مرور عروج بها متوجها نحو تلمسان ولعلهم لم يكونوا على علاقة حسنة مع الزيانيين.

1- أن لفظ الحشم مأخوذ من الحشمة بالكسر وهي الحياء و من الحشمة بالحركة وهو الغضب، أنظر الطيب بن المختار القول الأعم في بيان أنساب الحشم، مخطوط بمستغانم، عند الطيب، ورقة1، ومن أكد هذا التعريف صاحب كتاب المزوار والتنوير في ذكر آل النبي البشير، المصدر السابق، ورقة2. وعن تاريخ وصولهم إلى غريس يقول في شأنه أبو راس الناصري في شرحه بغوتية أبي مهدي أن دخول الحشم كان أاخر المائة التاسعة.

- **أولاد محمـــد بن يحيـــى**

ومن بين البطون الذين ينسبـــون إلى الحشم أولاد ســـيدي محمـــد بن يحيى مقرئ الجن ويعرفون الآن بفروجه وانحســـرت الرايـــات عنـــد سيـــدي بن فريحة[1].

- **مهـــاجـــة**

ومن بين البطون مهاجة التي سكنت المنطقة منذ القدم وعلى الخصوص في العهد الزياني وتتصل بالدولة الإدريسية التي حكمت منطقة المغرب الأوسط بواسطة الأسر العلوية التي كونت لها إمارة في بعض المدن مثل مليانة وسوق حمزة ومن بين البطون أيضا:

- **أولاد أحمـــد الـــورغـــي**[2]

لا يزالون يعرفون في الوقت الحالي بنفس الاسم ولهم علاقة بالأتراك ولعل ذلك تم قبل نهاية الدولة الزيانية حيث أوكلت لهم الوظائف المخزنية لصالح الأتراك. ومن بين هؤلاء:

- **أولاد الـــعـــبـــد**[3]

ومن أبرز الشخصيات التي تنسب إلى هذا البطن، أبو زيد كان مشهورا بالشجاعة معروفا بالرماية خلال فترة الصراع بين الأتراك والأسبان على أراض الدولة الزيانية ويظهر أنه ترك غريس واستقر في مضارب المحال قريب من وادي مينا.

1- الطيب، من المختار، المصدر السابق، ورقة 5.

2- نفسه ورقة 6.

3 - نفسه ورقة 6.

ومن هؤلاء أولاد عبد القادر[1]: وهم من أقدم البطون التي استقرت في الناحية لأن المؤلف يرجعهم إلى فتنة موسى بن أبي العافية لأن هؤلاء حسب ما أورد هذا الكاتب ليسوا من البربر بل من الأدارسة وعلى الخصوص أسرة آل حمدون الذين حكموا في عهد ملوك الطوائف الجزء الجنوبي من الأندلس وشمال المغرب الأقصى وهو ما جعل صاحب النص يقول في شأنهم "واصل سلفهم من الأندلس" ومما يؤكد هذا القول أن حياتهم الثقافية والاجتماعية بقيت متأثرة بالحضارة الأندلسية وفي هذا الصدد[2] يقول "وهم لهذا العهد ما خرجوا على طريقة أهل الأندلس من تعاطي الشعر والتأنق في الكلام وارتكاب أبواب الفصاحة والتوغل في رفاهية الملبس والمركب والمأكل والمشرب وهم من البطون المقربين من الأتراك». وهو ما يستفاد من قوله: «وملوك الأتراك يرفعون حوائجهم ويتكلمون في مصالحهم"[3].

ومن بين الذين ينسبون إلى الحشم بن دوخة ولهذه القبيلة ارتباط بأولاد سيدي دحو وعلى الخصوص ما يتعلق بالجانب الثقافي.

ومن بين بطون الحشم الذين لعبوا دورا في الأحداث أولاد أحمد الذين يقطنون ناحية تسالة[4] إلى جانب بني عامر وهم أقدم منهم في المنطقة لأنهم تواجدوا بها قبل توافد بني عامر على تلك الناحية، كذلك نجد أن استقرار القبائل العربية في منطقة الحشم قد جعلهم يتأثرون ويؤثرون وهو ما يوضحه صاحب النص بقوله: أن العرب لما اختلطوا بالبربر واستوزروا لهم

---

1 – نفسه ورقة 8.

2 – الطيب بن مختار، المصدر السابق، ورقة 3.

3 – نفس المصدر، ورقة 3.

4 – نفسه، ورقة 4.

وشاركوهم في رطانتهم وعجميتهم ونشأ أولادهم مع أولادهـم ففقـد لـسانهم المصري الذي وقع به الإعجاز ونزل به القرآن وتبدلت وجوه أعرابه وأفضوا للعجم ومالوا إليها بالطبع[1].

ولما كانت ألفاظه صحيحة من حيث الوضع اسـتحقوا أن يـسموا عربـا واستحقوا أن يوصفوا بالعجمية من حيث تغيير الأعراب.

نستخلص من النص ما يلي:

أ/ أنه قبل هذه المرحلة كانت المنطقة مسكونة من بني راشد، لكن بعد ضـعف الدولة الزيانية و بني راشد سهل مهمة قبائل بني هلال في الاستقرار بجوارها، أو بداخل بطونها بعد إبعاد بني راشد إلى نواحي شلف[2].

ب/ أن الوجود الهلالي بالناحية أثر على أحوال القبائل الاجتماعية والثقافية بإنتشار اللغة العربية في مضارب بني راشد وتأثر العرب بالبربرية مما كان له تأثير على فصاحتهم التي كانت لهم في شبه الجزيرة العربية القبائـل العربية.

يبدو أنه من قبيل المبالغة التاريخية أن يقال أنّه لا وجود للقبائل العربية فـي المغرب الأوسط قبل وصول بني هلال سوى المتواجدين بمنطقة تيهرت الذين انتقلوا إليها مع عبد الرحمان بن رستم ومن كان قبل ذلك من قبائل عربية استقرت بالقيروان وتونس خلال الفتوحات الاسلامية ثم انتقلت بعد ذلك إلى بلاد المغرب الأوسط وانتشرت في عدة جبهات منه فقد ذكر اليـ الأسر العلوية التي استقرت مابين سوق حمزة البويرة حتى الحدود الجزائرية المغربية حاليا.

---

1 – العشماوي المزوار و التنوير في ذكر آل النبي، البشير، ورقة 3.

2 – الطيب، من المختار، المصدر السابق ، ورقة 7.

ودخول العلويين إلى المغرب الأوسط كان بقدوم إدريس الأول من المشرق إلى المغرب الأقصى وزاد بعد وفاة إدريس الثاني 828/213 حيث خلفه ابـــنه محمد الذي قام بتوزيع أراضي الدولة على ثمانية من إخوانه من السوس الأقصى إلى تلمسان ووهران بالمغرب الأوسط.

ويقول أبو ضيف [خلف هؤلاء وأتباعهم ومواليهم قـــد توجهـــوا معهـــم إلى الأماكن التي استقروا بها مما كان له أثره في نشر الاسلام في هذه المناطق وتعريبها.

إلا أن نصيب المغرب الأوسط وإن كان غير محدود من هذه القبائل العربـــية إلا أنه يمكن التعرف إليه من خلال التعرف على الأفواج التـــي التحقت بالأدارسة.

ففي نهاية عام805/189 وفد على إدريس الثاني من افريقية والأندلس خمس مائة فارس من زعماء القبائل ينتمون إلى قيس والازدج ومذهج والصدف وغيرها كانوا ساخطين على الأغالبة بافريقية والأمويين بالأندلس وكان وفودهم على إدريس كسبا له خصوصا إذا أدركنا أن شعور إدريس الثاني وهو في الوسط البربري الذي أحاط به دفع دفعه إلى استغلال وجـــود هؤلاء العرب، على أن هذه الهجرات لم تتوقف من الشرق والقيـــروان والأندلس.

واذا كانت العلاقة بين القاطنين والعرب قامت أساسا على عدم التفاهـــم إلا أنه كانت تتأرجح بين الخضوع والثورة في كثير من الأحيان وذلك أن التأييد للفاطميين في معظمه كان بربريا ربما لأغراض سياسية أو لحب البربر.

كالشأن دائما لغير العرب من المسلمين أنهم عاطفيــون فيمــا يتصــل بــآل البيت، وقد صور لنا هذا الوفاء بين العرب والفاطميين المعز لدين الله الفاطمي حين عزم إلى الإنتقال الى مصر استقدم جعفر بن علي بن حمدون وعرض عليه استخلافه نائبا عنه في افريقية فاشترط عليه لقبول ذلك شروطا فقال له [تترك معي أحد أولادك وإخوتك يقيمون في القصر وأنا أدبر لا تسألني عن شي من الأموال إنما أجنيه يكون بأداء ما أنفقه وإذا أردت أمرا فعلته دون أن ننتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره لي فغضب المعز لذلك وقال يا جعفر عزلتني عن عملي وأردت أن تجعل لي فيه شريكا يبدون أمري واستبدت بالأموال والأعمال دوني فقد أخطأت ثم استدعى يوسف بلكين بن زيري فقبل الأمر.

- أهم القبــائــل العــربــية :

هذا فيما يتعلق بالفترة التي سبقت مجيء الهلاليين، أمّا هم فقد وفدوا إلى المغرب الاسلامي بتوجيه من قبل الفاطميين في مصر وقد هاجروا من الصعيد خاصة وهجرتهم الأولى كانت من جزيرة العرب وسيناء عامة.

كانوا أخلاطا من القبائل العربية غلب اسم بنو هلال عليه وإن كان بنو سليم أقوى من هذه القبائل وبذلك يبدو لنا ان توجه هذه القبائل نحو المغرب لم يكن مقصودا منه ضرب لمعز بن باديس ونشر العربية في المغرب الاسلامي فحسب وإنما قصد ضرب القحطانيين في المغرب الاسلامي لأن بني هلال وبني سليم كانت العداوة بينهم وبين الأزد مشهورة لمجاورتهم إياهم في ب حيث تناحر هلال وسليم على مر أيام ولعبوا دورا هز الدولة الاسلامية فيما بعد هزا عنيفا وفرض بعض نظمها وتقاليدها.

ومن بين القبائل الهلالية التي استقرت بالمغرب الأوسط زغبه فيقول عنها أبو ضيف [إن زغبه ورياح انضمت الى بني هلال وبني سليم وهما قبيلتان من العرب كانتا تقيمان على حدود مصر الغربية في إقليم برقة وكانت بينهما حرب وعداوة والقلقشندي يرى أن زغبه من بني هلال بني عامر من العدنانية.

أما المعقل فهم بطن من مدجح من القحطانية وهو ربيعه بن الحرث بن كعب بن خالد بن مدجن، فاستقرت زغبه بطرابلس وقابس ثم تحالفوا مع الموحدين وقاموا معهم في مواجهة ثورة ابن غانية.

- وأهم بطون زغبه:

*** قبائل بني عامر:**

نسبة إلى عامر بن زغبه بن سعيد بن ربيعه بن نهيك بن صعصعة أحد بطون هوزان بن منصور بن عكرمة بن زيد بن حفصة من قيس غيلان أرضهم بجبل غزوان عند الطائف.

- البطن الأول :

بنو عامر وهم من بطون قبيلة زغبة العربية وقد ارتبطوا مع بني يزيد بروابط مشتركة وقاتلوا معهم في حروبهم وقد استقر بهم المقام في أراضي التل حيث أقطعهم يغمراسن الأراضي المحيطة بتلمسان كما استوطنوا الجزء الشرقي من أراضي الدولة فاستقروا بنهر واصل القريب من جبال الونشريس إلاّ أنهم كانوا في فصل الخريف يتوجهون إلى أراضي بني ميزاب وفي نهاية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي تولوا جباية الضرائب على السهول التي تقع مابين مرتفعات تسالة والظهرة كما سيطروا على زيدور قرب عين تموشنت ومملالة وسفوح سبخة وهران وبعض المناطق من سهل سيق كما

توسعوا في سهول وهران التي كانت مسكونة من قبل ازداجة ومرتفعات تسالة التي تندرج ضمن مملكات بني راشد.

وقد أشار الحسن الوزان إلى بني عامر بقوله أنهم يتوجهون نحو المناطق الصحراوية وأنهم يعملون ضمن الجيش الزياني وقد عددهم بستة آلاف فارس، ومن بطون بني عامر اليعقوبية نسبة إلى يعقوب بن عامر من زغبة:

- أولاد مطرف ويقال لهم المطارفة نسبة لمطرف بن شافع بن عامر بن زغبه
- أولاد صالح ويقال لهم الصوالحية نسبة لصالح بن شافع بن عامر بن زغبه
- أولاد بالغ نسبة لبالغ بن شافع بن عامر بن زغبه

- **البطـــن الثــــاني :**

بنو يعقوب الذين تنسب إليهم أرض اليعقوبية وبطونهم خمسة:

ذوي منيع ويقال لهم أولاد منيع نسبة لجدهم منيع بن عامر.

الكرايش نسبة لجدهم رداد بن كريش بن عباد بن منيع بن يعقوب بن عامـــر بن زغبه.

أولاد رداد ويقال لهم الردايدية نسبة لجدهم رداد بن كريش بن عباد بن منيع بن يعقوب بن عامر بن زغبه.

أولاد عطاف ويقال لهم العطاطفة نسبة إلى جدهم عطاف بن رداد بن كريش بن عياد.

أولاد هلال ويقال لهم الهلالي ونسبة لجدهم هلال بن عطاف بن رداد بن كريش.

أولاد غانم نسبة لجدهم غانم بن هلال بن عطاف بن رداد.

أولاد سليم نسبة لجدهم سليم بن داود بن هلال بن عطاف.

أولاد سعيد ويقال لهم السعايدة نسبة لجدهم سعيد بن داود بن هلال بن عطاف بن رداد بن كريش.

أولاد سليم ويقال لهم السلامية نسبة لجدهم سليم بن داوود بن هلال بن عطاف.
أولاد سآسى نسبة الى جدهم سآسى بن سليم بن داوود بن هلال بن عطاف.
أولاد سعيد الصغير نسبة إلى جدهم سعيد الصغير بن عثمان بن سعيد بن داود بن عطاف.
أولاد هجر ويقال لهم الهجائر نسبة لجدهم هجر بن غانم بن هلال بن عطاف.
البطن الثالث بنو حميد وبطونهم ستة وستون بطنا مختلفة وهم.
أولاد عبيد نسبة لجدهم حميد بن عامر بن رغبة.
ذوي عيسى نسبة لجدهم عيسى بن حميد بن عامر بن زغبه.
الدواقة نسبة إلى جدهم دوقة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبه.
العقالة نسبة لجدهم عقلة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبه.
الصعادلة نسبة لجدهم صعدلة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.
السجاجدة نسبة لجدهم سجادة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.
أولاد حمزة نسبة الى جدهم محرز بن حمزة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.
أولاد عجزة نسبة لجدهم عجزة بن حمزة بن عبيد بن حمير بن عامر بن زغبة.
المعاليف نسبة لجدهم معلاف بن محرز بن حمزة بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.
الحجز نسبة لجدهم حجاز بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.
أولاد جحش نسبة لجدهم جحش بن حجاز بن عبيد بن حميد بن عامر بن زغبة.
الولادة نسبة لجدهم ولاد بن محمد بن حجوش.

الشدايدية نسبة لجدهم شداد بن محمد بن حجوش.

المساعدة نسبة لجدهم مسعود بن شداد.

أولاد أعمر ويقال لهم العمامرة نسبة لجدهم أعمر بن زيان بن مسعود.

وأولاده حامد نسبة لجدهم حامد بن حجوش.

وأولاده رياب نسبة لجدهم رياب بن حامد بن حجوش وأولاده مقران نسبة لجدهم مقران بن رياب بن حامد بن حجوش وأولاده عبد الله الكبير نسبة لجدهم عبد الله الكبير بن رياب بن حامد.

الونادة نسبة لجدهم وانود بن عبد الله الكبير بن رياب بن حامد

أولاد سلطان ويقال لهم السلاطنة نسبة إلى جدهم سلطان بن ونود بن عبد الله الكبير بن رباب .

العثمانة نسبة لجدهم عثمان الثاني بن سلطان بن ونود

أولاد علي نسبة لجدهم علي الكبير ين عثمان بن سلطان بن ونود بن عبد الله الكبير.

أولاد سعيد نسبة الى جدهم سعيد بن رباب بن حامد.

أولاد مسعود نسبة لجدهم مسعود بن رباب بن حامد.

أولاد عريف ويقال لهم العرايفية نسبة لجدهم عريف بن سعيد ابن رباب بن حامد.

أولاد ميمون نسبة لجدهم الميمون بن عريف بن سعيد بن رباب بن حامد

أولاد العباس الكبير نسبة الى جدهم العباس الكبير بن ميمون بن عريف بن سعيد.

المحايد نسبة لجدهم حداد ويقال له محداد بن عريف بن سعيد بن رباب بن حامد.

أولاد عروف ويقال لهم المعارف نسبة لجدهم معروف ابن سعيد بن رباب بن حامد .

أولاد يعقوب الكبير نسبة لجدهم يعقوب بن معروف بن سعيد بن رباب بن حامد.

اولاد معرف نسبة لجدهم امعرف بن يعقوب بن معرف بن سعيد بن رباب بن حامد.

أولاد عسكر ويقال لهم العسكرية نسبة لجدهم عسكر بن امعرف بن يعقوب بن معروف.

أولاد عبد الصغير نسبة الى جدهم عبد الله الصغير بن عسكر بن امعرف.

أولاد زيان نسبة لجدهم زيان بن يعقوب بن معروف بن سعيد.

أولاد عريف الصغير نسبة لجدهم عريف الصغير بن زيان بن يعقوب بن معروف .

أولاد يحيى نسبة لجدهم يحيى بن يعقوب بن معروف .

أولاد عريف التالي نسبة لجدهم عريف بن يحي بن يعقوب بن معروف.

أولاد إبراهيم نسبة لجدهم ابراهيم بن يعقوب بن معروف بن سعيد.

أولاد سليم نسبة لجدهم سليم بن ابراهيم بن يعقوب بن معروف بن سعيد.

أولاد اعمر نسبة لجدهم عمر بن ابراهيم بن يعقوب بن مروف بن سعيد بن رباب .

أولاد علي الصغير نسبة لجدهم علي الصغير بن اعمر بن ابراهيم بن يعقوب

أولاد عامر ويقال لهم العوامر.

وبنو عامر هم الذين تنتسب اليهم القبيلة نسبة لجدهم عامر بن ابراهيم بن يعقوب بن معروف بن سعيد بن رباب.

أولاد خالد نسبة لجدهم خالد بن عامر بن ابراهيم وخالد مات في الجزائر طريدا من أبي حمو موسى بن يوسف الزياني.

أولاد سليم الأوسط نسبة لجدهم سليم بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب .

أولاد شعيب ويقال لهم الشعايبية نسبة إلى جدهم شعيب بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب .

وشعيب هذا هو الذي قتله أحوه خالد الطريد للرياسة فلم يدركها وكان شعيب هذا من النصحاء للسلطان أبي حمو موسى الثاني .

أولاد زكرياء نسبة لجدهم زكرياء بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب.

أولاد موسى ويقال لهم المواسية نسبة لجدهم موسى بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب .

أولاد العباس نسبة لجدهم العباس الصغير بن موسى بن عامر بن ابراهيم والعباس هذا هو الذي قتله أبو تاشفين الثاني بنواحي السرسو في الحرب التي وقعت بينه وبين بني عامر سنة سبع وسبعين وسبعمائة وبعث برأسه لحضرة والده أبي حمو موسى الثاني في تلمسان .

قيزة ويقال لهم أيضا جيدزة نسبة لجدهم قيزة بن عامر بن ابراهيم .

أولاد معروف الصغير نسبة لجدهم معروف الصغير بن عامر بن أبراهيم بن يعقوب.

أولاد ردان ويقال لهم الردادنة نسبة لجدهم ردان بن معروف بن عامر.

أولاد ماضي نسبة لجدهم ماضي بن ردان بن معروف بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب.

وهم قبيلة عظيمة ذات أعراش بنواحي قسنطينة وليس ماضي هذا هو الذي تنسب إليه العين المعروفة بعين ماضي وإنما هي منسوبة لماضي بن مغرب من بني كبير إحدى بطون كرفة بن الاثبج الهلالي .

أولاد سقير ويقال لهم السقر ويقال لأولاده السقارنة نسبة لجدهم سقير بن عامر بن ابراهيم بن يعقوب بن معروف ومات سقير سنة إحدى وستين وسبعمائة واختلف في كيفية موته على ثلاثة أقوال فقيل أنه غزا بجيشه على زاوية سيدي البحري وهو أبو سيف بتارقة فأخذ وانصرف وكان أبو يوسف غائبا ولما قدم سمع بذلك فتبعه إلى أن لحقه بأبي حنش فقتله هناك وقبره به، وقيل أنه لقي نفسه في معركة بين بني عامر في وطواط على الغنائم فقتل وقيل أنه لما لقي نفس في تلك الفتنة ليكلف الناس عضه رجل من قومه في بطنه غلطا ولم يعرف، فجرح بتلك العضة ومات ثم أمر أبو حمو موسى بتجهيزه، فغسل وكفن من أكفان الملوك وجعله في هودج وسار به إلى العباد فدفن هناك.

وكان بين سقير وابن عمه علي بن اعمر من أولاد علي بن ابن اعمر منافسة شديدة على الرئاسة ولما مات استقل علي برئاسة بني عامر

أولاد عبد الله التالي نسبة لجدهم عبد الله التالي بن سقير بن عامر

أولاد ملوك نسبة لجدهم ملوك بن سقير بن عامر وعبد الله وملوك هذان قتلهما في الحرب أبو تاشفين بن أبي حمو موسى الثاني بنواحي السرسو وبعث برأسهما إلى تلمسان سنة سبع وسبعين وسبعمائة.

أولاد المسعود نسبة لجدهم المسعود بن سقير بن عامر بن ابراهيم.

الونازرة نسبة لجدهم ونزار ابن عبد الله بن صقير بن عامر بن ابراهيم.

واصل أرض بني عامر بجبل غزوان عند الطائف خلال عهد الدولة العباسية.

حميان قبيلة عظيمة نسبة لجدهم حميان بن عقبـــة بن يزيد بن عيســـى ابن زغبة. الهلالي كانت لهم الأتاوات على أراضي بني حسن والاهوص وحمزة وقبـــل قيام الدولة الموحدية كانت رئاستهم لأولاد لاحق ثم صارت لأولاد امعافا ثـــم صارت في بيت سعد بن مالك وهم يزعمون انهـــم مـــن ذرية عبـــد الرحمـــن بن أبي بكر .

ومسكن هؤلاء من ملاتة في أرض الحفرة وما ولاها وأكثرهم بقي بالقفر إلى الآن وهؤلاء أتوا مع بني عامر وانتقلوا بانتقالهم الى ضواحي تلمسان وكانت لهم رغبة شديدة في التنصر.

وعندما قام الاسبان بتحصين وهران ببناء قلعة مرجاجو، كان أول من أتى لهم بالماء حميان وكان عدد هذه القبيلة ثلاثين دوارا فهم قبيل كبير ولهم بسالة عظيمة ومكيدة في الحروب ويقال أن شيخهم هو الذي دبر على الاسبان بناء مرجاجو تحصينا للمدينة ولما أعجبهم رأيه خشوا من فتكه بهم قالوا المدبر لنا مدبر علينا فنووا الفتك به وسكتوا وشرعوا في بناء القلعة وحفروا بالقرب من أساسها بئر عميق فألقوه فيه خفية وردموا عليه .

قبيلة قيزة، وهم فرقة من بني عامر من أولاد عامر بن ابراهيم نسبة لجدهم قيزة بن عامر وكان مسكنهم بنواحي تارقة بتلك الجبال وبهم سمي جبل يقال له جبل قيزة ولما لحق بهم اخواتهم الونارة انتقلوا لملاتة فسكنوا بضواحي تامزوغة ووادي الغسول وطاء وجبلا وكانوا أهل بأس شديد وعددهم نحو الثلاثة عشر دوار وكانت لهم رياسة عظيمة مع الاسبانيين.

أولاد عبد الله وهم فرقة من بني عامر نسبة لجدهم عبـــد الله بـــن سقيـــر بـــن عامر بن ابراهيم وكان مسكنهم بوادي الثلاثاء من ملاتة ولهم عدد كبير يبلغون نحو الستين دوارا ولهم جولان عظيم في الأرض وبطش شديد ومكر

عتيد فكانوا ينتهون للمطمر الأحمر بوادي ميناء وكان لليهود عليهم من الصولة العظيمة التي وسموهم بها سمة الخسف والذل ما لا يصدقه انسان.

أولاد علي القبيلة المشهورة وهم فرقة من بني عامر ومسكنهم ببلاد مخوخ اللوماني صاحب الخيمة المشهورة الثنية في الحرب الواقعة بين بني لومي وبني مادوا في أوائل المائة الخامسة وليس هو ما خوخ الشريف وهم فرقة كبيرة يناهزون السبعين دوار.

وأولاد علي لهم بأس وأناقة وكانوا أهل عداء شديد للإسبان حتى غزوا بهم المرة بعد الأخرى الكرط وغيره وكان فيهم جبار عنيد ظالم فارس شجاع يقــال له رابح بن صولة قيل من صبيح وقيل من أولاد علي نسبة لجده صولــة بــن يعقوب وأولاده يقال لهم الصوالة أشد بأس على المسلمين ونكاية للمؤمنين وإعانة للاسبان فكم لهم من غارة بالليل والنهار الى أن قتله الحشم بعدما كف بصره وكان لأولاد علي ما يفوق المائة فارس من الأعيان حتى خيل بني عامر كانت تناهز عشرة آلاف فارس فضلا على المشاة.

أولاد عبد الله بن سقير بن عامر ويقال لهم الونزرة نسبة لجدهم نــزار بــن عبد الله بن سقير وهم فرقة ذات بأس شديد فهم نحو الستة دواوير وأصل مسكنهم بوادي سنان بنواحي عين تموشنت من مزارع أولاد خليفة الخارجين من أولاد الزائر ثم انتقلوا لنواحي تارقة فسكنوا بجبالها مع إخوتهم قيزة العامريين.

بنو يزيد[1] وقد تحالفوا في البداية مع الدولة الموحدية التي أقطعتهم بلاد حمزة البويرة وبني حسن من أراضي بجاية فاستقروا هنالك وكونوا حصن

1- المصدر السابق3 ص1030 انظر أيضا أبو ضيف المرجع السابق ص163

منيعا لحماية الدولة الموحدية أمام كتامة[1] وزواوة[2] كما تطلعوا بمسؤولية حماية الأراضي المحيطة ببجاية لصالح الموحدين[3].

وعندما تأسست الدولة الزيانية ومدت نفوذها إلى المغرب الأوسط اضطر يغمراسن الى نقل حميان وهم فوج من بني يزيد إلى المنطقة المجاورة لتلمسان[4] فتنقل معهم بنو يزيد واستقروا بالأراضي التي تقع غرب أراضي بنـــي يزيـــد أي جبال تيطري نواحي المدية وجنوبا المناطق التي يسكنها الشعانبة.

بنو مالك الذين كانوا أحلافا مع العطاف والديلم وبني بادين من زناتة وقـــد ربطتهم علاقة طيبة ببني عبد الوادي قبل تأسيس دولتهم وقد عرف عـــن بـــني مالك فيما بعد طاعتهم وولائهم للدولة[5] السويد[6] ينتسبـــون الى مالـــك بن زغبة وقد كانوا حلفاء العطاف والد يالم والبربر من بني واسين قبل تأسيس الدولة الزيانية والمرينية وعلى الخصوص في الفترة التي سيطـــروا فيـــها بنـــي عبد الوادي على تلمسان وضواحيها[7].

1- عن كتامة وهي قبيلة أمازيغية انظر العبر ج6 ص301 ؛ ابن حوقل صورة الأرض ص93 القلقشندي نهاية الأدب في معرفة أنساب العرب القاهرة تحقيق الأبياري ص405 انظر أيضا بل المرجع السابق ص97 ؛106
2- عن زواوة وهي فرع من كتامة انظر العبر ج6 ص262 ؛308؛ أبو ضبف المرجع السابق ص236
3- ابن خلدون العبر ج 6 ص 308
4- نفسه ج 6 ص 188
5- نفسه ج 6 ص90
6- تتألف قبيلة سويد من فليتة وشبابة والهبرة ومجاهر وجوثة والحساسنة لمزيد من المعلومات عنها انظر ابن خلدون العبرج6 ص95 ؛96
7- منهم أولاد عبد القوي بن حمدان وكانوا في عهد يغمراسن بن زيان تحت رئاسة أولاد عيسى بن عبد القوي لمزيد من المعلومات عنهم انظر ابن خلدون العبر ج6 ص 95 ؛96.

وقد اشتهر عرب السويد بمناصرتهم وولائهم للدولة الزيانية دون سائر بطون زغبة، مما جعل يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية يتقرب من رؤسائهم ومشايخهم وخص منهم أولاد عيسى بن عبد القوي وأقام أحد أبنائه وهـو المهدي رئيسا على القبيلة كما قرب منه يوسف بن مهدي وأخاه عمر[1] وقـد أكرمهم باقتطاع البطحاء[2] وأسند لهم تلمسان وما جاورها عند خروجه إلـى الحرب وعلى الخصوص عمر بن مهدي.

وعندما تحالف السويد مع بنـي مريـن خـلال فتـرة حكـم السلطـان أبي عنان الذي أقطع شيخهم ونزمار بن عريف جزءا كبـيرا مـن أراضي بني توجين مثل السرسو والأراضي المجاورة له.

وفي نهاية القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أصبح هؤلاء يسيطرون على كل الناحية التي كانت تابعة لبني توجين والمدن التي تقـع ضمن مضاربهم كما استولوا على خليج أرزيو والشط الشـرقـي ومجمـوع سهول سيدي بلعباس وفي القرن السابع الهجـري الثالـث عشر الميلادي استولوا أيضا على قلعة بني سلامة وقد كانت خاضعـة لهم عند زيارة ابن خلدون لها واستقراره بها فترة من الزمـن[3].

1- البطحاء تقع في سهل مينا وغير بعيدة عن قلعة بني راشد وكانت تلك الأراضي تابعة لقبيلة مغراوة ابن خلدون ج6 ص95؛96

2- ابن خلدون العبر ج 6 ص 96

3- الميلي المرجع السابق ج ص 159

يضاف الى هذه البطون السابقة عكرمة[1] والديلم[2] الذين ينحدرون من زغبة والجبهات التي كانوا يتمركزون بها، رويـنه جنـوب الونشـريس في الأراضي التي تقع الى يسار الطريق الذي يتجه من برج بـني هنـدل الى تيهرت[3].

بالإضافة الى قبيلة عكرمة ،العطاف الذين لا تزال أثارهم بادية الى العيان إلى يومنا هذا فمدينة العطاف إحدى دوائر ولاية عين دفلى تحمل اسم هـذه القبيلة العربية.

ويعود تاريخ استقرارهم بالمنطقة إلى القرن الثامن الهجري العاشر الميلادي وقبل هذه الفترة كانوا متواجدين بمليانة والمناطق الواقعة إلى الشمال منها خاصة جبل دراج[4].

هذا فيما يتعلق بزغبه أما رياح فقد استقروا بالسهول العليا الشرقية وأقاموا علاقات مع الزيانيين كبني بادين ولما فشل بنو عبد الوادي أمام المرنيين طلبوا النجدة منهم فاستقروا بجبل اشير[5] وملكوه.

1- ابن خلدون العبر ج 6 ص 100

2- نفسه ج 6 ص 89

3- الديلم كانوا متمركزين بالأراضي القريبة من كاف الرواد الذي يقع على طريق ثنية الأحد يحول باسي كانوا يستقرون في المنطقة الواقعة جنوبي ثنية الأحد

4- ابن خلدون العبر ج 6 ص 103

5 نفسه ج 6 ص 103

ومن بين القبائل العربية التي تقطن أراضي الدولة الزيانية المعقل[1] وكان عند دخول الهلاليين إلى المغرب الإسلامي قد توجهوا نحو المنـــاطق الصحراوية على الخصوص الجنوبية منها وتحالفوا مع الزيانيين ثم المرينيين الذين أدوا لهم يمين الولاء والطاعة لذوي منصور[2] وذوي عبيد الله[3] لما كانت مواقعهم متصلة ببني عبد الوادي وبصفة خاصة عرب المنبآت من ذوي منصور حسب ما أورده ابن خلدون [الذي قال عنهم أنهم كانوا حلفاء وشيعة ليغمراسن وقومه الثعالبة فهم بطن من عرب المعقل استقروا في البداية بجبل تيطري وبعد سيطرة القبائل الزناتية على الونشريس ابعدوا الى متيجة وعندما تمكن المرينيون من العطاف ومليكش استولى الثعالبة على مضارب صنهاجة بعد أن دب الضعف في هذه الأخيرة.

1- أشير مدينة حصينة أسسها زيري بن مناد الصنهاجي سنة324،937 عنها انظر ابن حوقل صورة الأرض ص85؛ البكري المصدر الساب ص169؛ ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص283

2- 8عن المعقل انظر ابن خلدون العبر ج 6 ص 88

ذوي منصور بطونهم أربعة هم أولاد الحسي وأولاد أبي الحسن والعمارنة وأولاد عمران والمنبات وأولاد منبات لمزيد من المعلومات عنهم انظر ابن خلدون العبر ج 6 ص 131

ابن خلدون العبر ج 6 ص 124 ؛ أبو ضيف المرجع السابق ص 163

كان الثعالبة وحصين في عدد رعايا بني توجين يؤدون لهم المغارم ويساهمون بجنودهم في حروبهم ثم انتقلوا إلى جوار بني مليكش الصنهاجيين بسهل متيجة إلى أن سيطر بني مرين على المغرب الأوسط وقبضوا على مليكش فضعف هؤلاء مما جعل الثعالبة يسيطرون على سهل متيجة لمزيد من المعلومات على هذه الحوادث انظر ابن خلدون العبر ج 6 ص 126 ؛ الميلي المرجع السابق ج 2 ص 159

تعرف هذه القصور بمنطقة توات وأهمها تمنطيت انظر الحسن الوزان المصدر السابق ص 125

ابن بطوطة الرحلة ص 969

ابن خلدون العبر ج 6 ص 124

3- نفسه ج 6 ص 124

ومن بطون المعقل أيضا ذوي عبيد الله الذين كانوا مجاورين لبني عامر من زغبة وقد استقروا بين تلمسان ووجدة إلى مصب نهر الملوية بالقرب من البحر المتوسط وقاموا بالرحلة الى قصور توات وتوغلوا إلى أبعد من ذلك حيث وصلوا الى تيكرارين .

أما في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي فقد كان ذوي عبيد الله متواجدين في مدن الملوية والمناطق الساحلية حيث كانوا يجمعون الضرائب من قبيلة بني يزناسن وطرارة حتى حوض تافنا وسهول أنجاد وجبال تلمسان.

ومن بين بطون ذوي عبيد الله الحداج وتوجد مضاربهم على الحدود الجزائرية المغربية وبالتحديد جنوب غرب وجدة والدراج يتمركزون في الجنوب الشرقي لتلمسان وهي نفس المنطقة التي كانوا يقيمون بها خلال عهد الدولة الزيانية

وقد تحالف ذوي عبيد الله مع بني عامر وهم بدورهم كانوا يأخذون الضرائب على مدينة وجدة وندرومة كما استولوا على المناطق التي كانت تابعة لولهاصة وبني يزناسن وهم أبناء العمومة بالنسبة لبني يزناسن وهي إحدى بطون كومية وقد اتصل هؤلاء بيغمراسن وكان من بينهم موظفون في الدولة الزيانية مثل عيسى ابن موسى الذي ولاه مهمة الطواف بالليل على الحرس وتقسيم الأقوات على المقاتلين خلال الحصار المريني وتوجد مضاربهم بالمناطق الواقعة شرق حوض الملوية[1]

---

1 ابن خلدون العبر ج 7 ص 207

- **العلاقـــات بين القبـــائل العربيـــة والدولـــة الزيـــانية :**

كانت هذه العلاقات تتراوح بين سلبا وايجابا في اطار المصلحة المشتركة وكان الهدف منها تأمين سلامة الدولة وردع أعدائها فقد لعبت هذه القبائل دور مهم في مد نفوذ الدولة وإبراز دور القبائل العربية في هذا الميدان وخاصة السويد وبني عامر.

فيما يتعلق بقبيلة السويد فنلاحظ أن علاقاتها خلال عهد يغمرسن بن زيان 633،1235/681 1282 تبدلت من الصفاء إلى العداء بسبب سوء التفاهم بينه وبين عمر بن مهدي بن طراد عرب السويد من المناطق التي أقطعهم إياها فانتقلوا الى جوار بني توجين الذين كانوا أعداء الدولة، ثم هادنوهم وتصاهروا معهم[1] .

أما أبو تاشفين الأول717،1317/737،1337 فحاول التقرب من سويد فلجأ الى شيخهم وزعين، قبيلتهم عريف بن يحيى الذي ربطته به علاقة سابقة نشأت منذ الصغر إلا أنه ما لبث أن انقلب عليه ويرجع ذلك إلى إتهام شيخ السويد بالتشبهه بالملوك في بعض تصرفاته والتي كانت مقصورة على أمراء الدولة الزيانية[2].

إلا أن هذا التشبه لم يكن سببا مباشرا في هذا الانقلاب الفجائي وربما عـاد ذلك إلى الصراعات التي كان يتخبط فيها البلاط الزياني مما أدى إلـى مقتـل أبـي حمو موسى الاول1318/718 وتصفية أسرة آل الملاح وممـا يؤيـد وجهة النظر السابقة أن هلال الكاطالوني قد تأمر ضد عريـف الـسـويـدي

1- نفسه ج 6 ص 97

2- نفسه ج 6 ص 99

من بـــني مرين سنة1320/720 انخرط تحت لوائهم وخلص لخدمته ونتيجـــة لذلك فإنّ هؤلاء قد تقربوا من بني عامر واحلوهم محلهم في خدمة الدولة ممـــا أجج نار العداوة بين سويد والدولة الزيانية[1].

وقد حاول السلطان أبو حمو موسى الثاني أحداث الصراع داخل قبيلة السويد لإضعافها عندما وافق على تعيين ميمون بن سعيد بن عثمان رئيسا للقبيلة[2] وأن رد الفعل من قبل أبي بكر ومحمد بن عريف كان سريعا حيث لحقا بقومهما ودبرا مؤامرة مقتل ميمون بعدها آلت رئاسة القبيلة إليهما[3].

وفي أوائل سنة1369،770[4] قدم محمد بن عريف على أبي حمو موسى الثاني فاستقبله بحفاوة وإحسان وأرسل مع الوزير عمران بن موسى اللحـــاق بأبي بكر لاستفاء الشرط الذي التزم به والمتمثل في إخراج أبـــي زيـــان مـــن مضارب سويد ولكن أبو بكر بن عريف لم يكن يثق في أبي حمو وهذه الأمثلة توضح العلاقة بين سويد والدولة الزيانية.

أما بنو عامر فقد وقفوا موقفا يدل على مدى تعصبهم، فعنـــدما سيطـــر بنو مرين على تلمسان سنة1298،698 تحالف معهم بنو عامر لذلك رجعـــوا وتركوا مضاربهم عند انسحاب بني مرين بعـــد مقتـــل أبـــي يعقـــوب يوسف1307،717 وعاشوا بأطراف افريقية غيـــر خاضعين للسلطان المرينـــي وبقوا مؤيدين لبني عبد الوادي.

1- نفسه ج7 ص219 يحيى بن خلدون بغية الرواد ج1 ص214 ؛215.
2- ابن خلدون العبر ج6 ص78 ؛ انظر أبو ضيف المرجع السابق ص125.
3- يحيى بن لدون بغية الرواد ج1 ص219.
4- نفسه ج2 ص274.

وعند عودة أبوحموموسى الثاني لتلمسان1359/760 كساهم جميعا على كثرتهم وقد قدرهم يحيى بن خلدون بثمانية آلاف فارس وقدم لشيوخهم الخيول بسروجها والأسلحة والجوائز كما أغدق عليهم من الأموال الشيء الكثير ولكن هؤلاء سرعان ما غيروا موقفهم من الدولة وخاصة عندما حاول سلاطين بني زيان التدخل في شؤون قبيلة بني عامر[1].

- علاقة القبائل بعضها ببعض :

أما عن علاقة هذه القبائل بعضها ببعض فقد نتج عنها استمرار الصراع القبلي كما حدث بين السويد وبني عامر وكان من بين نتائج الصراع انعدام الأمن لسببين:

اولا: علاقة الدولة بالبدو الرحل لأن الامتيازات التي منحتها الدولة لهذه القبائل جعلتها خطرا عليها

ثانيا: انتقال القبائل العربية إلى المناطق الشمالية ذات الخصوبة أدى إلى خلق نوع من الصراع في هذه المنطقة.

وإذا كنت ظاهرة الصراع قديمة في المغرب الأوسط إلا أنها في تلك الفترة أخذت بعدا جديدا وعمقا وكان أكبر بعد وقد كان لهذا الصراع ضعفا في الدولة وهو ما يؤكده المازوني بقوله فقد أصبحت يد السلطان لا تنال الخارجين على الأمن بل ضعفت عن مقاومتهم وردعهم وإنما أخذ يداويهم بالهدايا والانعام.

1- الميلي المرجع السابق ج2 ص163
كحالة القبائل العربية ج1 ص137

ويصف ابن خلدون الحالة التي وصلت إليها الدولة فيقول: [مازالـــت كـــما وصفناهـــــــا مرارا العرب هم أبناء السهل وسلطة بني عبد الـــوادي لا تمـــتد اليهم بتاتا.

ويضيف ابن خلدون وافريقية والمغرب لما جاء إليها بنو سليم وبنو هلال منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها في ثلاثة مائة من السنين لحـــق بـــها وعادت مبانيها خرابا ما بين السودان الغربي والبحر الرومي[1].

ولعل ابن خلدون قد تأثر بمن سابقوه من الرحالة والمؤرخين المغاربة، على أن الميلي[2] يرى أن ما لحق بالمغرب من أمور يرجع إلى القيادات الصنهاجية التي لم تحسن السياسة وأنّ ما قاله ابن خلدون مبالغة في تقدير تلك الأضرار من جانبي المؤرخين المغاربة وأنّهم حملوا مسؤولياتها للهلاليين لأنّها كتبت من طرف دول بربرية ولم يكن للهلاليين حكومة تهتم بالدعاية السياسية لهم[3].

وتلقف الخيط جماعة من المستشرقين واستغلوا هذه الوضعية ممـــا جعـــل كاريت يصف حركة انتقال العرب إلى المغرب الاسلامي في عهـــد الفـــاتحين المسلمين بأنها كانت كالإعصار الذي يقتلع الأشجار ويهدم المنازل وإن مع هذا في عهد الهلاليين فإن وصف العرب الفاتحين بذلك هو نوع من التجلي علـــى الحقائق التاريخية[4].

1- نفسه ج 1 ورقة 15

2- ابن خلدون المقدمة ص 150 2الادريسي صفة المغرب ص 93 ؛103؛ 109؛ المؤلف مجهول الاستبصار تحقيق أحمد مخار العبادي ص 154 ابن بطوطة تحفة الناظر دار صادر بيروت 1963 ج 1 ص 6 ؛9 التجاني رحلة التيجاني المطبعة الرسمية تونس 1958 ص 59

3- الميلي تاريخ الجزائر ج 2 ص 153

4- أبو ضيف المرجع السابق ص

كما أننا لا نطمئن الى ما يسوقه هؤلاء المستشرقين حول أثر الهلاليين ووصفهم بأنهم كانوا كالحريق الهائل يبتلع الأشجار والمساكن ويتركها رمادا تذروه الرياح على أن بعض المؤرخين أمثال جرمان عياش أنصف هؤلاء العرب الهلاليين بقوله [إن بعض المؤرخين الذين اعتمدوا على ما كتـــبه ابـــن خلدون عن عرب بني هلال وبني سليم أسرفوا في تعليل تفسير الأحداث وتطور الأحوال بالمغرب بفساد العرب المستمر منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وحتى القرن الحالي فليس من المعقول أن تسبب بعض القبائل القليلة العدد في انحطاط قطر عظيم مثل افريقية والمغرب الأوسط والأقصى وانحلاله وتخريبه لمدة عشرة قرون كاملة.

ليست تلك القبائل هي السبب الأساسي لما حـــدث ونأخذ هنـــا بكـــلام ابـــن خلدون حين يتعرض إلى الاضطرابات التي عرفتها افريقية وبلدان المغرب الأوسط والأقصى ، فابن الأثير يقول عن ثورة صاحب الحمار فإن القبائل التي كانت تأتيه كانت تأتي من أجل النهب والسلب وعندما لم تجـــد مـــا تنهبه وتسلبه توقفت عن المجيء اليه.

ويقول ابن خلدون عن نتائج ثورة ابن غانية أن هؤلاء أزالوا من متيجة أكثر من ثلاثين مصر، هذا بالنسبة لمتيجة ما بالك في بقية المناطق الأخرى.
ويقول عن بلكين بن زيري إتجه غرب المغرب الأوسط وأفرغه من سكانه وكاد أن يزيل زناتة من الوجود.

كما يلاحظ أيضا أن دور العرب خلال هذه الفترة مرتبط بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة آنذاك.

والتاريخ أكد لنا أن العرب كانوا يميلون إرتياد المراعي والمياه وأن معاشهم كان في الإبل وأنها أكثر طعنا وأبعد في القفر وهي لا تعتمد في حياتها على التلول ونباتها وشجرها فقط بل قوام حياتها مراعي الشجر في القفر وهو نفس ما لجأت اليه قبائل زناتة ومعنى ذلك أن هؤلاء البدو لم تكن لهم حاجة في المناطق الساحلية ولا مدنها إلاّ أن حركة الأحداث السياسية لهذه الدولـــة أو تلك من دول المغرب الاسلامي ومنها الدولة الزيانية هي التي كانت ترى في فروسية القبائل العربية درعها الواقي.

فإذا أضفنا الى ذلك أن وجود هؤلاء البدو في أراضي بني زيان كان لهم دورا بارزا في حركة التعريب وهو ما يؤكده شارل أندري جوليان فيقول [إن الاستعراب في نواحي الجزائر كلها ولكنه في إقليم وهران أعم منه في أي موضع آخر.

ولقد ساعد تجاور البربر العرب وعلى الخصوص القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أن يستبدل البربر لغتهم باللغة العربية].

ولعل التقارب والامتزاج بين العرب والبربر كان أساسه قوة العقيدة الاسلامية التي وجـــدت بين العناصر العربية والبربرية وهو ما أكـــده جاك بيرك حيث قـــال [أصبح الكلام بالعربية هو صفة من صفة المسلم].

فاستقرار السويد في المناطق التي كانت تابعة لبني توجين كان من بين نتائجه تخلي سكان تلك المنطقة عن اللهجة الامازيغية وانتشار اللغة العربية وينطبق هذا على الأراضي التي استولى عليها بنو عامر والثعالبة وذوي عبيد الله والمعقل وهو ما جعل شارل أندري جوليان يعلق على ذلك بقوله أن عرب المغرب ليسوا في الغالب سوى قبائل زناتية وأن ذلك ليس جديد على هؤلاء

العرب فقد كانت البادية هي المدرسة الأولى التي تعلم فيها أبناء المدن في جزيرة العرب قبل الاسلام الفصاحة من ذلك لكن حسب أحد المؤرخين الجزائريين أن تلك الفصاحة فقدتها القبائل العربية في الجزائر نتيجة للاختلاط بينها وبين القبائل البربرية.

- **ثانيا: القبائل العربية:**

هذا فيما يتعلق بالقبائل البربرية الزناتية، أما القبائل العربية فقد اغتنموا ضعف بني توجين ومغراوة وبني راشد نتيجة للحروب التي عرفتها الجهة الغربية من القطر الجزائري أو ما كان يعرف بأراضي الدولة الزيانية و هذا سهل مهمة القبائل الهلالية للسيطرة على مضاربهم و فرض إرادتها على من بقي منهم و هو ما يبرزه السليماني بقوله: "سكنت قبائل زناتة تحت سيطرة العرب بعد ما كانت في مجالاتها من التلول والآكام وبما تأتي أيام المصيف في كل عام لأخذ المغارم والأتاوات بطرق معلومة وشروط في عهد الموحدين مرسومة، حتى نزلوا التلول والسواحل وملؤوها بالخيام والرواحل واستوطنوا المدن والعواصم واستبدلوا وحش الغلاة بالسوائم".

هذا النص الذي أورده السليماني يمكن أن نستنتج منه ما يلي:

أ/ أن القبائل الزناتية التي اغتنمت الضعف الذي عرفته الدولة الموحدية نتيجة لثورة بني غانية ومعركة العقاب في الأندلس سمح لها بالسيطرة على السهول الممتدة ما بين وادي ملوية إلى جزائر بني مزغنة ودخلت فيما بينها في صراع خلال القرن الثامن الهجري والتاسع الموافق للقرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين فأدى إلى ضعفها وسهل مهمة القبائل العربية في استغلالها.

ب/ أن تلك القبائل العربية خلال عهد الدولة الموحدية كانـت تعتمـد فـي حياتها الاجتماعية على حرفة الانتقال بين الواحات الصحراوية والتلول وخلالها تقوم بعملية المبادلات التجارية مع تلك المناطق ثم تشارك في جمع المحاصيل الزراعية.

لكن عندما حدث الضعف في قبائل زناتة ودولها دفع القبائل العربية إلى تغيير نمط معيشتها ففضلت الاستقرار بتلك المناطق التلية والساحلية بعد أن تحصلت عليها نتيجة للإقطاعات التي منحتها إياها الدولة المرينية والزيانية ولم يتوقف بها الأمر عند هذا الحد فقط ،بل نجد البعض من بطون بني هلال قـد استقروا بداخل المدن كتلمسان وغيرها من المدن التابعة للدولة، وتوقفوا عـن الترحال بين التلول والواحات الصحراوية كوادي الساورة وإقليم توات.

يربط السليماني بين ضعف قبائل زناتة و قوة بني هلال لتخلي الزناتيين عن الحروب وفي هذا الصدد يقول أيضا : ألفت قبائل زناتة اللهو والراحة واستبدلوا مزاولة الغارات بالكسب والفلاحة.

فهذا النص يوضح لنا أسباب ضعف القبائل الزناتية زيادة على الغارات التي كانت قد ألفتها من قبل عندما كانت قبائل رحل متنقلة، لكن عندما زاولت النشاط الفلاحي اندفعت للإستقرار والتوقف عن الغارات للحصول على مـا تحتاج إليه في معيشتها.

هذا فيما يتعلق بالفريق الأول من القبائل العربية الذين فضلوا الإقامة على الرحلة بين التلول والواحات الصحراوية. لكن الفريق الثاني نافسوا القبائل البربرية وزاولوا مثلهم النشاط الفلاحي المتمثل في تربية المواشي وزراعة

الأراضي، هذا العمل هو الذي تسبب في الصراع بين القبائل العربية والبربرية الذي أشار إليه مرارا المازوني من خلال كتابه الدرر المكنونة في نوازل مازونة عند تعرضه إلى الغارات التي كانت تشن من قبل بني عامر[1] وسويد[2] الذين استقروا بمضارب الزناتيين وأرغموهم على ترك مضاربهم والاعتصام بالمناطق الجبلية مثل جبل ونشريس[3] وجبل بني ورنيد وجبل مطرارة ومطغرة وبني بوسعيد وبني سنوسن وما بقي في السهول فرضت عليهم الضرائب وفـــي هذا الصدد يذكر السليماني "واحتلوا شعوب زناتة في سهولها وجبالها وأوديتها وشواطئها وأرغموها على الاستكانة إليهم والدخول في حملتهم حتـــى لم يبق للزناتيين أعز وصار خبرهم حديث السمر".

- تغييـــر مضـــارب القبـــائل:

وعن تحول مراكز القبائل البربرية لصالح القبائل العربية نذكر أن الخريطة السكانية للدولة الزيانية أدخلت عليها تغييرات جذرية تمثلت فيمايلي:

- حـــوض الشلـــف:

منطقة حوض شلف كانت من قبل خاضعة لبني توجين ومغراوة ِالذين كانوا يسيطرون على المنطقة الممتدة من مدينة المدية إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط حيث شمل نفوذهم تلك السهول الخصبة المتمثلة في حوض شلف والسرسو وغريس وغيرها من الأراضي التي تتميز بالجودة في الانتاج، فتم توزيعها بين هذه القبائل فالسويد استولوا على تلك الأراضي بينما بقايا

1- عن بني عامر بن زغبة ، انظر ابن خلدون ، العبر ، مجلد 6 ، ص:85.
2- وعن سويد، انظر ابن خلدون، العبر، مجلد6، ص:95.
3- جبال الونشريس تقع ضمن ولاية شلف و هي من أبرز جبال سلسلة الأطلس التلي،انظر حليمي جغرافية، الجزائر ص:216
أبوراس: عجائب الأسفار ، ورقة 57.

مغوارة فضلوا المناطق الجبلية وعلى الخصوص الجبال المجاورة لساحل البحر المتوسط الممتدة من تيازة إلى مستغانم[1] حافظوا على اللهجة الزناتية بينما الذين بقوا بالسهول الخصبة تأثروا بالقبائل العربية فتخلوا عن لهجتهم وتمسكوا باللغة العربية. وما يقال عن هؤلاء ينطبق على بني توجين الذين استبد بهم حصين بن زغبة فسيطروا على الأراضي المجاورة للمدية أو ما كان يعرف بتيطري والثعالبة بسهول متيجة بعد إبعاد مليكش[2].

- النواحـــي المجـــاورة لتلمســـان:

هذا فيما يتعلق بالأراضي الشرقية من عاصمة الدولة أما النواحي المجـــاورة لها فقد تعرضت هي الأخرى إلى تأثير من قبل القبائل العربية وهـــذا منـــذ تأسيس الدولة، لكن في مرحلة قوتها حافظت على التوازن بين عرب زغبة الذين استدعوا من قبل يغمراسن والقبائل الزناتية وعلى رأس هؤلاء بنو عبد الوادي وكومية الذين لعبوا دورا في أعز قوة الدولة، لكن عندما ضعفت خضعوا لبني عامر وفي هذا الصدد يقول السليماني[3] استبد بنو عامر بهذه النواحي.

وإلى الجنوب من هذه المناطق استقر بنو يزيد[4] من قبيلة حميان الهلالية، وعلى الخصوص في المنطقة الممتدة ما بين منابع وادي صا غربا إلى بجاية حيث موطن رياح و سليم من بني هلال.

1- أبوراس: عجائب الأسفار، ورقة 58.

2- ابن خلدون، العبر، مجلد6 ، ص:90 ، انظر الميلي، المرجع السابق، ج2 ، ص:163.

3- قلعة هوارة نسبة إلى هذه القبيلة و تعرف أيضا بقلعة بني راشد نسبة إلى بني راشد التي انتقلوا إليها من جبل عمور الذي يعرف بجبل بني راشد.

4- عن المعقل، انظر الحسن الوزان، المصدر السابق، ص:13

لكن هذا التوسع الهلالي في هذه المناطق لم يقض على ما بقي من القبائل البربرية فقد استمر تواجد الزناتيين في غريس حيث تحول اسمهم إلى الحشم في الناحية الممتدة ما بين جبال أو سلاسن جنوبا إلى قلعة هوارة[1] وبني شقران شمالا ومن قلعة سعيدة وموانئ الصحراء إلى بسيط سيق ووادي الحمام غربا إلا أن هؤلاء تأثروا بالهلاليين فتعربوا.

- **الجهـــة الغــربيـــة:**

أما الجهة الغربية فقد تاثرت بالمد الهلالي فالأراضي الموجودة بين تلمسان ووادي صا خضعت لعرب المعقل[2] ذوي عبيد الله الهداج والخراج من النبات ويطلق على جميعهم عرب الأحلاف.

وقد امتد نفوذهم إلى المدن المتواجدة بالناحية كوجدة و ندرومة وهنين فأصبحوا يضيقون عليهم وفرضوا إرادتهم على سكان جبال بني يزناسن.

- **القبـــائـــل العــربية:**

- **أولا:**

من أبرز القبائل الهلالية، بنو عامر الذين لعبوا دورا هاما مما جعلهم يلجأون إليها في حالة الهجوم على مضاربهم من قبل القبائل المعادية للإسبان.

وشدتهم على إخوانهم المسلمين لا تقل عن شافع أما القبائل البربرية فمـــن أبرزهم قبيلة كرشتل[3] انتقلت هذه القبيلة من مـــضاربها إلـــى أرض متـــوعرة بساحل البحر، فوجدوا بتلك الناحية إحدى بطون بني زيـــان الـــذين ضـــعفت

1- السليماني، المصدر السابق، ج3 ، ورقة

2- ابن خلدون، العبر، مجلد 6 ، ص:301.

3- المشرفي، بهجة الناظر، في إطار الداخلي تحت ولاية الإسبانيين مخطوط

شوكتهم بضعف الدولة الزيانية فأجلوهم من تلك الناحية وحلوا محلهم و شيدوا مداشرهم[1]. وعندما استولى الإسبان على وهران تحالفوا معهم وكلفوا بالتجسس لصالحهم مما جعل المؤرخون يطلقون عليهم المغاطيس أي تغطيس[2] الناس ويحكى أنهم غطسوا إمامهم الذي كان يصلي بهم فباعوه للإسبان غفلة منه.

أما الطريقة التي كانوا يتبعونها فتتمثل فيما يلي:

أولا: أنهم يأتون بدوابهم إلى الدواوير كبائعين للعطرية ومنهم مناقطة من الجلود الفلالية، فإن وجدوا خيرا جلبوه للنصارى وإذا رأو فرصة في الصغير أو الكبير أخذوه وجلبوه على دوابهم ومشوا به ليلا فيبعونه للإسبان[3] ».

- **بطونهم:** من أبرز بطونهم:

* **أولاد عبد الله:** كانت مضاربهم بوادي الثلاثاء من ملاتة يتميزون بالرحلة وهو ما جعل المشرفي يعلق عليهم بقوله: « لهم جولات عظيمة بالأرض». كما عرفوا بتعاونهم مع الإسبان وخضوعهم لهم حيث كانوا يدفعون لهم الضرائب[4].

* **أولاد علي:** لا تختلف سياستهم عن بقية القبائل المجاورة لتلك المراكز وكان دورهم يتمثل على الخصوص في حركة الجوسسة عكس البطون الأخرى التي شاركت بقوتها في الجيش الإسباني وقد علق عليهم المشرفي فقال فكان منهم من تطلع على عورات الإسلام والأخبار بهم الكفرة ولهم على المسلمين كما

1- نفسه ورقة 15

2- المرازي: سعد السعود، ج1، ص123

3- المشرفي، نفس المصدر، ورقة 16.

4- قلعة هوارة نسبة إلى هذه القبيلة و تعرف أيضا بقلعة بني راشد نسبة إلى بني راشد التي انتقلوا إليها من جبل عمور الذي يعرف بجبل بني راشد.

كان بينهم المنحشون والمغطسـون والرقاقصة وسائر ما فيه الضر بالمسلمين والنفع للإسبانيين"[1].

وقد تمكنا في آخر زيارة لنا لإسبانيا من الإطلاع على أربع وثائق تتعلق بحركة الجوسسة التي كانت تقوم بها تلك القبائل لصالح الإسبان ولم يرد في الوثائق السالفة الذكر اسم الشخص ما عدا ذكر القبيلة التي ينتسب إليها.

*** حميــان:**

يضاف إلى بني عامر قبيلة حميان[2] التي توجد مضاربها بأرض الحفرة وما ولاها وعددها يزيد على ثلاثين دوارا كانوا يقدمون النصائح للإسبان وهو ما دفع المشرفي أن يعلق عليهم بقوله « أن شيخ حميان[3] هو الذي دبر على الإسبان بناء حصن مرجاجو ولكنهم قتلوه ووضعوا جثته في أساس بناء الحصن.

*** بنو شــافع:**

ومن بين القبائل بنو شافع[4] الذين كانت مضاربهم بالعين البيضاء وسهل ملاتة وجبال سيدي سعيد، عرفوا خلال هذه المدة بالشدة مما جعل الإسبان يتقربون منهم ويعتمدون عليهم في مواجهة القبائل المعارضة لهم وقد عـلق عليهم المشرفي بقوله: أهل نجدة وبأس شديد وقتال عنيد تقوت بهم الجيوش الإسبانية.

1- عن المعقل، انظر الحسن الوزان، المصدر السابق، ص:13. نفسه، ص:26

2- المزاري المصدر السابقص23 ابن خلدون، العبر، ج6، أبوراس، عجائب الأسفار.

3- الزياني ، دليل الحيران ، ص 146 .

4- أبوراس، المصدر السابق ، ورقة 147.

* قـيـزة:[1]

وقد ورد ذكره في بعض المصادر باسم حيذرة نسبوا إلى بني عامر ومساكنهم بوادي تارقة لكن عندما التحق بهم الونازة تركوا مضاربهم إلى ملاتة فاستوطنوا نواحي تمزغرت ووادي العسول:

من أهم الخدمات التي قدمها هؤلاء لصالح أعداء الدولة الزيانية ما يلي:

أ/ عملية الجوسسة، إذ كانوا ينقلون معلومات عن تلك القبائل الموالية للزيانيين أو العثمانيين لصالح المراكز الإسبانية وهو ما جعل المشرفي يقول «فكانوا عيونهم البصيرة »[2].

ب/ استعمالهم في شن الغارات على تلك القبائل وفي هذا الصدد يقول المشرفي اعتدوا بهم وأكثروا من شن الغارات على الأقربين والأبعدين، كما أن النواحي المتمركزين بها قريبة من الأبراج المحيطة بوهران مما جعلهم يلجأون إليها في حالة الهجوم على مضاربهم من قبل القبائل المعادية للإسبان.

أما أبوراس فقد علق على التقارب بين الإسبان وبني عامر فقال لما تغلب الإسبان على مدينة وهران واتخذوها دار قرار واطمأنت بهم الدار ورغب العرب في عرضه الفاني فانحاز إليه كل قيود على نفسه مثل كيسة وحميان وبنو عامر من كل ضعيف الإيمان ولما صاروا هم شيعة قويت بهم شوكة الإسبان وكانوا عيونه على المسلمين يشق بهم الغارة على الأبعدين فيقتحم حللهم ودورهم ويدوس عامرهم ومعمورهم مثل الحشم وبني راشد ونحوهم من بعد وطنه يؤدون الإتاوة وأخرى يظهرون العداوة.

1- نفسه ، ورقة 149.

2- المشرفي، المصدر السابق ، ورقة 3 .

الذي يستفاد من نص أبي راس ما يلي:

أ/ أن التقارب الذي حدث بين القبائل القريبة من وهران والإسبان مرتبط بالجانب المادي، إذ كان الإسبان يغدقون على هؤلاء الأموال مقابل الخدمة التي تقدم لهم عن أعدائهم.

ب/ استعمالهم في الحروب ضد القبائل المعارضة لهم وقد استغلوا في ذلك الصراع القبلي الذي عرفته الدولة الزيانية بين القبائل العربية والبربرية فكانوا يغيرون على الحشم وبني راشد الموالين لهم كالأتراك وأحيانا الدولة الزيانية.

- ثانيـــا: القبـــائل البربـــرية:

إضافة إلى القبائل العربية التي سبقت الإشارة إليها وكانت مضاربها بالقرب من مراكز الإسبان الذين تحالفوا معهم فإن هناك قبائل بربرية قامـــت بالـــدور نفسه ومن بين هؤلاء:

كرشتل[1]: هذه القبيلة انتقلت مضاربها إلى أرض متوعرة بساحل البحر ووجدوا بتلك الناحية إحدى بطون بني زيان الذين ضعفت شوكتهم بضعف الدولة الزيانية فأجلوهم من تلك الناحية وحلوا محلهم وشيدوا مداشرهم[2].

- ثانيـــا: الجـــاليـــات الأجنبيـــة

تتألف الجاليات الأجنبية في أراضي الدولة الزيانيـــة مـــن مجموعـــة مـــن العناصر المختلفة من حيث الدين والثقافة فالعنصر الأندلـــسي المهـــاجر مـــن

1- عرف العرب الذين تعاملوا مع الإسبان بعرب دمليون و هم أولاد عبد الله سموا بذلك لأنهم كانوا يطلبون منهم العدد الكثير فيقول أحدهم للنصارى دمليون بمعنى أيها الرومي أعطونا عشرة ملايين أبى عدد كثير فيه عشرة ألف دينار، انظر عبد القادر المشرفي بهجة الناظر ورقة 6 ا..

2- حساني، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للدولة الزيانية رسالة دكتوراة،الحلقة الثالثة، الجزائر1986، ص:66-95.

الأندلس والعنصر اليهودي الذي وفد مع المهاجرين المسلمين والتقى بزملائـــه المستقرين بهذه المنطقة من قبل والعنصر الثالث هم النصارى المجلوبين، إمـــا كعبيدا وجنود مرتزقة أو تجار[1].

- الأنــــدلسيـــون:

يعتبر العنصر الأندلسي من أهم العناصر مما كان يشغله في الجانب الفكري والتأثير الإقتصادي والإجتماعي[2].

أما الهجرة الأندلسية فقد بدأت مع بداية ضعف المسلمين في الأندلس، وتوسع النصارى على حساب المراكز الإسلامية مثل قرطبة التي سقطـــت سنـــة633هـــ،1235م وبالنسبة سنـــة636هـــ 1238م ومرسيـــة 666هـــ، 1266م مما جعل سكان تلك المدن يتوجهون إلى غرناطـــة أو مـــدن دول المغرب الإسلامي كتلمسان.

وهناك مجموعة من الأندلسيين قدموا من غرب الأندلس نحو أراضي الدولة الزيانية بعد سقوط إشبيلية سنة 646هـــ،1248م وخلال الصراع بين دولة بني ناصر ومملكة أراغون وغيرها من دول شبه جزيرة إيبيريا بإسبانيا المجاورة لبني ناصر ،نجد عددا من الأندلسيين توجهوا نحو أراضي الدولة الزيانية وأغلبهم استقروا بمدنها كوهران ومدينة تلمسان البعض الاخر فضل الهجرة إلى مضارب القبائل كبنى راشد الذين كانوا معارضين الاحتلال الاسباني، مما جعل الاندلسين يقودون معهم المقاومة ضد العدو المشترك، بيسـ

1- ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص:174، ابن خلدون،يحيى، بغية الرواد،ج1، ص:206، بوعياد، جوانب من حياة المغرب، ص:66.

2- حساني الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للدولة الزيانية ، ورقة 71.

البعض، يبدو أنه فضل الانتقال إلى الجزائر بعد تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة نظرا للمكانة التي أصبح عليها الأندلسين في هذه الدولة المسلمة فقد وجدنا في كتب التراجم أن بعض أفراد الجالية الأندلسية كانوا مستقرين بمضارب الحشم في أم العسكر محافظين على عاداتهم وتقاليدهم وعلى الخصوص الرفاهية في الطعام واللباس وفي هذا الصدد يذكر العربي المشرفي في كتابه الياقوتة الوهاجة الأندلسيين الذين هجروا من الأندلس واستقروا بريف الدولة الزيانية فقال: «شرفاء الأندلس فرقهم ،حمدون وبنو حمدون وبنو مرون وبنو سلطان وبنو القاسم وبنو أبي بكر وبنو عبد الرحمن وبنو محمد بن عمر الشريف وهذه الفرق المذكورة انتقلت فروعهم إلى الثغور المقابلة بالأندلس فمنهم من انتقل إلى القـــيروان وتونس واحوازها ومنهم من انتقل إلى الساحل الريفي وإلى جبل الكواكب وجبال ترارة وتهامة بإزاء تلمسان ومولين منهم الثغور حال نزولهم بها وامتدت فروع بني حمود إلى الساحل الوهراني والمستغانمي وإلى ازريو وبنو سلطان استواطنوا الجزائر وتفرعوا في ساحلها وهم أحفاد أبي العباس ويقالِ لهم شرفاء الترك" كما وجد البعض منهم في مجاجة[1] حيث لعبوا دورا مشرفا في نسيج الكتب وقد وجدنا خلال زيارتنا لمدينة معسكر والزوايا المجاورة لها بعض النسخ نسخها أفراد من الجالية الأندلسية أحدهم ينتسب إلى عائلة العالم الجليل ابن عاشر الأندلسي.

كما ذكرت كتب التراجم بعض علماء الأندلس الذين استقروا في مازونة ومستغانم ووهران وتلمسان ونستعرض لهذا بالتفصيل في موضوع الجالية

1- مجاجة التى تقع الآن ضمن ولاية شلف كانت تعتبر من أهم المراكز الثقافية في المنطقة خلال هذه الفترة ويتجلى ذلك من العلماء الذين نسبوا إليها أو تخرجوا منها السليماني، المصدر السابق ج3، ورقة103.

الأندلسية أما الذين دخلوا تلمسان، فتقربوا من سلاطينها وهو ما جعل السليماني يعلق على ذلك بقوله لما تولى أبو عبد الله عبد الواحد استظهر على أمره بطانه من جالية الأندليس فرجوا به في مضايق الحضارة والانغماس في النعم حتى صرف الأموال في شهواته.

أما المرحلة الثالثة فكانت في نهاية القرن9هـ،15م بعد سقوط غرناطة وقد عاصر ذلك تولى تلمسان الأمير أبوالعباس أحمد بن أبي زيان فاستقبل المهاجرين الأندلسين الذين نزل البعض منهم في تلمسان والجزائر وبجاية وندرومة وهنين وغيرها من أراضي الدولة الزيانية[1].

أما من قصد منهم تلمسان فانقسموا حسب المكانة الاجتماعية فالعلماء وأهل بيوتات الأندلس نزلوا بداخل المدينة ،وأما بقيتهم فأنزلهم بوادي لوريت خارجها فاتخذوا قرى لسكناهم واظهروا هناك من صنائعهم ومتاجرهم ما كان بالنفع على البلاد وأهلها وميلوا تلك الشعاب بالبستاين المتنوعة الثمار وأنواع الرياحين والأزهار واتصلت مساكنهم بذلك الوادي الى نهر الصفيصف فأقاموا به عمارة بقيت أثارهم بتلك الشعاب العميقة ذات الأدراج والحياة المترفة، وامتدت مساكنهم الى جبل يدو حيث زاوية الشيخ أحمد بن الحاج بن محمد بن على المناوي المتوفي سنة 930هـ.

فهؤلاء المهاجرون الذين استقروا بوادي الوريت لم يكونوا عالة على المجتمع الزياني بل زاول كل واحد مهنته وفضل الحصول على قوته وجهده مما دفع بهم إلى بناء مسكانهم ولا تزال أثار تلك المساكن ماثلة للعيان على ضفاف وادي الوريت، لكن الحروب التى عرفتها الدولة الزيانية خلال

1- السليماني ، المصدر السابق ، ج3 ، ورقة 104.

القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي دفع ببعضهم إلى الدخول. لصالح الدولة الجزائرية وتخليهم عن التبعية للتاج الإسباني.

أولا/ العبيد: إن استعمال هؤلاء قد اختلف بين عصر القوة وعصر الإنهيار فالأول كانت الدولة الزيانية في أعز قوتها وتملك قوة استطاعت من خلالها المحافظة على سيادتهما وقمع أعدائها وهذا ماجعلها توسع من عناصر قوتها فأدخلت العنصر المسيحي للاستفادة منه وهذا في رأي يعتبر من نقاط الضعف لأن هؤلاء كانوا مرتبطين بدولهما أكثر من ارتباطهم بالدولة الزيانية[1].

أما في مرحلة الانهيار فقل عدد الجند و تقلصت مساحة الدولة وازداد الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة، كما أن احتلال الاسبان لكل من وهران والمرسي الكبير جعلهم يفضلون أن يكون عمل هذه العناصر داخل الجيش الاسباني بدل الجيش الزياني لعدم استقرار مولاة أمراء بني زيان لصالح التـــاج الاسباني.

ثانيا/ التجار: فيما يتعلق بالتجار فخلال العصر الذهبي للدولة الزيانية كانوا ينتسبون لمجموعة من الدول المسيحية التى تقوم بالمبادلات التجارية مع الدولة الزيانية ولكل دولة قنصل ينظر العلاقة بين تجارها و الدولة الزيانية، لكن بعد ضعف الدولة الزيانية وسقوط وهران والمرسى الكبير أثّر على هؤلاء التجـــار فانعدم الأمن، مما جعلهم يتعرضون للتصفية الجـــسدية كمـــا حـــدث لتجـــار القيصرية بتلمسان الذين هاجم عليهم سكان تلمسان بمجرد وصـــول الطلائـــع الأولى لمهاجري وهران بعد سقوطها بيد الاسبان ســـنة 915هــــ، 1509م وزاد نفوذهم بعد احتلالهم لها ولكن الاسبان بعد فترة زمنية قـــصيرة انتبهـــوا

1 الجامعي،فتح مدينة وهران،مخطوط بالمكتبة الوطنية ، رقم 2521 ، ورقة 9 .

لخطورتهم فابعدوا عن وهران وعلى الخصوص الحصن الذي يعرف بحصن اليهود[1].

الجالية اليهودية:

ومن بين الذين تعرضوا لتوزيع اليهود، الحسن[2] الوزان الذي ذكرلنا بأن عدد من اليهود قد نزلوا بعد فرارهم من الأندلس وصقلية في الجرارة وتوات وكانت الأولى في مفترق الطرق حيث كانوا يرافقون القوافل التجارية المنطلقة من الجزائر وتلمسان نحو السودان الغربي. كما وجدت جالية يهودية في كل من بسكرة وتقرت لها علاقة بإخوانهم في المدن التابعة للدولة الزيانية كمدينة الجزائر التى كانت بها مدرسة لتعليم التوراة. اغتنم اليهود ضعف امراء الدولة الزيانية فتسربوا الى داخل المدينة تلمسان وأقاموا لهم حيا مجاورا للمنشور وقريبا من الحي التجاري القيصرية التى يبدو أن مجموعة كبيرة من مخازنها ودكاكينها كانت للجالية اليهودية، إلاّ أنها عانت من الفوضى التى عرفتها مدينة تلمسان حيث نهبت ممتلكاتها مرارا.

لم يقتصر ازدياد النفوذ على تلمسان بل شمل أيضا قلعة بنى راشد حيث كانوا يحتكرون النشاط التجاري ويقطنون خارج أسوار القلعة وكانوا متواجدين بها خلال الحملة التى قادها عروج ضد تلمسان. فذكر الصباغ بعض الحرف التى كانت تزاول من قبلهم زيادة على التجارة صناعة الصابون.

1- de Faurce: (Ch) l'Espagne Catalane et le Maghreb PP 136-137

- نفسه، ج3 ، ورقة 106 (3) يبدو ان تواجد هؤلاء سبق قيام الدولة الزيانية بل يعود الى عهد المرابطين فالقوه العسكريه المرابطية التى واجهت الموحدين كانت بقيادة ... المسيحين، انظر، ابن عذاري البيان، ج5 ، ص136 .

2- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص9 .

يضاف إلى القلعة مدينة وهران التى وجدوا بها. وقد عرفت وهران كغيرها من مدن بني زيان تواجد هؤلاء اليهود بعضهم من يهود المغرب بينما البعض الآخر قدموا إليها من الخارج ويتجلى لنا ذلك من خلال ألقابهم التي نشرتها الوثائق الإسبانية منها نغورة وطورينو وتونستو وزميروا العائلة الأخيرة لها أقارب بارمبور وأسفي واليهود الأندلسيين أغلبهم هاجروا الى أراضي الدولة الزيانية من الأندلس حسب المراحل التى تعرضنا لهـا بالنسبة للاندلسين، فكانوا يرافقون هؤلاء الى دول المغرب الاسلامي لموقف الاسبان منهم، لأنهم اتهموا بتعاونهم مع المسلمين خلال الفتوحات الاسلامية للأندلس، لكنهم يختلفون عن الأندلسيين بالاستغلال الذي يأبى المسلم أن يشارك فيه في كثير من الأحيان مثل تجارة الرقيق (النخاسة) التي كانت فـي عصر قوة الدولة الزيانية مقتصرة على الزنوج القادمين من افريقية، لكن في مرحلة ضعف الدولة امتدت إلى سكان الدولة من الغرب والبربر فكانوا يتاجرون فيهم وعلى الخصوص الذين يقعون أسرى بيد الجيوش الاسبانية. كما شاركوا في المعاملات الربوية التى تستعمل الطوائف الاجتماعية وما اكثرها في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانـيـة، لأن نفوذهم وانتشارهم قد ازداد على ما كان عليه في عصر قوتها، حيث كانت الأغلبية منهم متواجدة في مفترق الطرق التجارية. ومن أهم تلـك الأماكن التى تواجد فيها هؤلاء، درعة التى تعتبر من أهم الأسواق التجارية التى يتوافد عليها تجار الدولة الزيانية، ولذلك سوق سجلماسه وان يهودهـا كانوا على علاقة مع إخوانهم بتلمسان.

ثالثـــا/ العبيـــد: فيما يتعلق بالعبيد نجد هناك نوعين:

- **الأول:** الذين وصلوا إلى أراضى الدولة الزيانية نتيجة للمبادلات التجارية بين الدول الأوروبية والدولة الزيانية، وقد كان عددهم كبيرا خلال العصر الذهبيي للدولة الزيانية وقد استعمل البعض في الأنشطة الصناعية كـــما حدث في عهد السلطان أبى حمو موسى الثاني.

- **ثانيــا:** الأسرى زاد هؤلاء بعد سقوط الأندلس نتيجة لحركة الجهاد البحري التى كان يقوم بها سكان مدن الدولة الزيانية بمساعدة الجالية الأندلسية. ومن بين المدن التى يتوجد بها هؤلاء، وهران والمرسى الكبير قــبل احتلالهما ثم تلمسان، حيث نصت المعاهدات التى أبرمت بين الدولة الزيانية والاسبان على اطلاق سراح هؤلاء.

- **ثالثا: الطبقات الاجتماعية:**

عرف المجتمع الزياني كغيره من المجتمعات الاسلامية المعاصـــرة لـــه الطبقية نتيجة للظروف السياسية والإقتصاية والثقافية فحســب مـــا أورده ابـــن خلدون[1] أن وضع الطبقات مراتب، فيها طبقة بعد أخرى حتى ينتهي فـــي العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي أسفل إلى من لايملك ضرا ولا نفعا بين أبناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة. كما أن هذه الطبقات تختلف بين سكان المدن والقرى من حيث عددها ونوعيتها بين القرى وعاصمة الدولة وبقية مدنها، ومما يلاحظ على هذا التفاوت الطبقي في المجتمع أنه كان تفـــاوتا مزدوجا، كما كان هناك تفاوتا رأسيا بين الطبقات في داخل الإقليم الواحـــد، كان هناك تفاوت أفقي بي الأقاليم وبعضها البعض وهو ما يفسره

1- ابن خلدون: العبر، المقدمة، ص647.

ابن خلدون بقوله: "واعتبر ذلك في المغرب مثلا فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى مثل بجاية وتلمسان تجد بينهم بونا كبيرا على الجملة ثم على الخصوصيات، فحال القاضي في فاس اوسع من حال القاضى في تلمسان وهكذا كل مع صنف أهله، وكان أيضا حال تلمسان مع وهران والجزائر، وحال وهران والجزائر مع مادونهما إلى أن تنتهي إلى المداشر". فالنص الـــذي أورده ابن خلدون.

يوضح لنا أن مكانة المدينة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية لها تأثير في طبقاتها الاجتماعية من حيث التحضر حيث بعض المدن لايزال يغلب عليها الطابع البدوي وهذا يمكن أن يقال عن تلمسان عندما تأسست الدولة الزيانية طبعتها في المرحلة الأولى أي الطابع البدوي، لأن قبيلة بنى عبد الوادي قبيلة بدوية تعتمد الرحلة عكس فاس التى كانت عاصمة للأدارسة ولم تفقد مكانتها في عهد المرابطين والموحدين كما أن الثروة لها دور في أحداث الرفاهية بالمدن وبذلك تظهر داخل هذه المدن القصور والدور الفاخرة، ويقل التحضر كلما انتقلنا من المدن الكبرى فالصغرى، ثم المداشر. لكن يبدو هـــذا النـــص لا يتناسب ما وصل اليه المحتمع الزياني في هذه الفترة موضوع البحث يذكر الحسن الوزان بأن ما يملكه شيوخ القبائل في خيامهم من وسائل الترفيه يفوق ما كان بحاضرة الدولة الزيانية التى تعرضت مرار إلى النهب والسلب نتيجة للحروب المستمرة وكثرة المواجهة بين أمرائها من اجل الحكم. لذلك نجد هناك اختلافا بين عصور الدولة الزيانية فعهد السلطان أبي حمو موسى[1] يعتبـــر مـــن أرقى عصور هذه الدولة بعد قسم هذا السلطان المجتمـــع فـــي عهـــده

1- التناسي نظم الدر و العقبان ص107 و109.

إلى أربع طبقات اجتماعية هم الشرفاء والفقهاء وشيوخ القبائل وأمناء الحـرف وأما بقية السكان فنظر اليهم نظرة أرستقراطية، فهـو لم يشـر إليهـم عنـد تعرضـه إلى أعوان السلطان وجلسائه فيقول يا بني وأما جلساؤك فلتجالس العلماء والفقهاء والأشراف ذوي الاذهان الثاقبة. أما الحسن الوزان فهو يتفـق مع أبى حمو[1] في العدد ويختلف معه في النوع، حيث قسم المجتمع الزياني إلى أربع طبقات الصناع والتجار والطلبة والجيش.

يبدو من حيث الترتيب أن تقسيم ابن خلدون أضبط، لأنه شمل أغلبية أراضي دول المغرب الاسلامي وفرق بين أقاليمه وبين طبقات كل إقليم.

- طبقـة الحكـام:

الأسرة الحاكمة: انحصرت السلطة في دولة بنى عبد الوادي في بيت الزياني[2] وقد كانت زعامة القبيلة في بنى طاع الله وعلى الخصوص بني محمد بن زكدا وذلك لقبولهم مبدأ التوريث في تولى عرش البلاد ومن هنا أصبح هـذا البيت يتمتع بمكانة السيادة والرئاسة في المجتمع الزياني.

وبطبيعة الحال كان انتماء بني طاع الله إلى بنى عبد الوادي سبيلا إلى علو بقية بطون بنى عبد الوادي ومن هؤلاء آل مكن[3] وبنو زردال[4] وهم أول من يبايع السلطان يغمراسن بعد وفاة السلطان زيان ويشكلون قادة الجيش الزياني ويتولون المناصب الحساسة في الدولة كولاة لأقاليمها. ومثل السلطان أعلى سلطة في البلاد فهو على رأس المثلث الهرمي لرجال الدولة جمعا كما يمثل

1- حسان الوزان رقم2 وصف إفريقيا.

2- ابن خلدون بغية الرواد الجزء الأون ص 102 وما بعدها.

3- التنسي نظم الدر والعقبان صفحة 109.

4- التنسي مصدر السابق ص109.

السلطة المركزية من الناحية الإدارية فهو الذي يعين العمال على الأقاليم المختلفة وبالتالى فهم يخضعون له مباشرة.

هذا فيما يتعلق بالفترة التـى سبقـت القـرن 10هـ، 16م، أما بالنسبـة للمرحلة الأخيرة لحياة الدولة، فنجد تغييرات طرأت على هذه الطبقة وتتمثل فيما يلي:

أولا: ضعف العصبية القبلية بانعدام تأثير شيوخ بنى عبد الوادي في تسيير دواليب الدولة فقد كانوا من قبل هم أول من يبايع سلاطينها وبذلك يتدخلون في اختيار الأمراء لكن في هذه المرحلة لم يكن لهم أي دور يذكر بل أصبح شيوخ بني عامر وبنى راشد هم الذين يعيّنون ويعزلون هؤلاء الأمراء. يضاف إلى القوتين المتصارعتين، الأتراك والاسبان الذين يتدخلون هم في العزل والتعين وبذلك فقد هؤلاء الأمراء ما كان الأمراء الدولة الزيانية في عصرهم الذهبي من فرض سيادة الدولة على كل أقاليمها. لكن في هذا العصر السيادة للاسبان في مراكزهم فحاكم وهران يلقب بالحاكم العام لوهران والمرسى الكبير وإمارة تنس تلمسان.

ثانيا: إن الوظائف التى كان يتولاها أبناء أمراء الدولة مثل ماحدث فـي عهـد السلطان أبى حمو موسى الثاني أصبحت لكبار شيوخ القبائل الذين ينوبون سلاطينها في تلك الأقاليم ويحبون جبايتها لمصالحهم مما أثر علـى خزينة الدولة الزيانية.

ثالثا: البطانة التي حددها السلطان أبو حمو لابنه أبي تاشفين الثاني فـي كتابه واسطة السلوك والتى تتمثل في كبار موظفي الدولة وفي هذا الصدد

يقول: « يا بني ينبغي لك أن تدبر في وزرائك وجلسائك وكتابك وفقهائك وقضائك وأعوانك وعمالك وقوادك وأجنادك»[1].

فاختيار هؤلاء لا يتم بالمحاباة فقط، فالوزير الذي يكون على رأس موظفي الدولة لابد أن يكون من أخيار قومه وكبير عشيرته لا يحتاج لما عندك من أموال، فهذه الشروط لم يتقيد بها أبو حمو نفسه نتيجة لأوضاع الدولة في عصره. أما الشخصية الثانية فتتمثل في الفقيه[2] الذي يرافق السلطان عندما يباشر عمله وخاصة خلال عقده لمجلس المظالم الذي يتم كل يوم الجمعة بعد الصلاة حينها تعرض القضايا التي لم يتمكن قاضي الجماعة من النظر فيها، فتحول للأمير. لذا يشترط زيادة على منصب القاضي نجد صاحب الشرطة[3] الذي ينفذ أحكام الأمير والقاضي، ويشترط في اختياره أن يكون ذا دراية وكفاية.

وهناك قادة عسكريون، حدد أبو حمو شروط اختيارهم بقوله: « فتختار من انجاد جندك يكونون صادقين في محنك راضين بعهدك لايصيبون الرعية بمكروه ولا دابة بل يسدون الثغور ويحوطون البلاد ويمنعونها من كل باغ وعاد ».

أما مرمول فيحدد موظفي الدولة الزيانية بقوله: مستشار الملك الذى كان يحمل الخاتم و يدير شؤون الحكم إلى جانب الأمير[4].

1- عن هذ التعين ودور شيوخ بنى عبد الوادي، انظر يحي بن خلدون، ج2، ص236

2- انظر، تغير سياسة كبار موظفي الدولة وعلى الخصوص المزوار كالمنصور بن غانم الراشيدي الذي كان يوالى الاتراكرو الاسبان أحيانا أخرى فهو مع الاقوى، انظر الملاحق تجد رسائل للمنصور يعلن فيها موالاته للاسبان.

3- الحسن الوزان وصف افريقية ص 441

4- مرمول، وصف إفريقية، ج 2، ص:303.

الخازن[1] العام مكلف بجمع موارد بيت المال والأشغال وهو الذي يعين موظفي الضريبة الجمركية في موانئ الدولة، ثم يتجه لتلك الموانئ لقبض تلك الأموال ومن بين موظفي الدولة المزوار الذي كان كاتبا للملك وقائدا عامـا بجند الجنود ويؤدي لهم الأجور ويعطيهم عند الإنقضاء يعتبر هذا الموظـف من أكبر موظفي الدولة، وله علاقة بالقوة المتصارعة لذلك نجـد مجموعـة من القبائل أرسلها المزوار للإسبان وهناك شيوخ القبائل الذين عرفهم مرمول وحدد صلاحيتهم فقال عنها النبلاء المحاربون فيعتزون كثيرا ممـا لهـم مـن رجاحة وشجاعة لأنهم هم الذين يرافقون الملك لذلك فإن لهم عدة إمتيازات وعطاءات مع رواتب حسنة تمكنهم من أن يعيشوا عيشة راقية. يقيم الملك بين العمال وهم القواد جميع رعاياه ومدنه كولايات يوليهم المناصب الرئيسية في قطره وبلاطه ذلك هو النظام الذي كان متبعا من قبل ملوك خلال مرحلة الضعف، كان التعيين يتم بواسطة شيوخ القبائل الذين لهم تأثير فـي تسيير دواليب الحكم مثل بنى عامر وبنى راشد.

فالذي يستخلص من النص، أن هناك فئة كانت هي التي تتحكم في شـؤون الدولة منها قادة الجيش والموظفين بالأقاليم التي بقيت تابعة للدولـة الزيانيـة وأغلب هؤلاء من شيوخ القبائل الذين كانوا موالين لها وقد تعرضت الوثـائق الإسبانية لبعضهم منها عائلة ابن غانم التي تولى أفرادهـا منـصب المـزوار خلال هذه الفترة موضوع البحث كما أوردت شخصيات أخرى فـي رسـائل أمراء الدولة الزيانية وحكام وهران كالكوديتي.

1- نفسه، ج 2، ص:303.

- **الطبقـــة الثـــانية:**

هذه الطبقة جعلتها في المرتبة الثانية بناء على تقييم الحسن الوازن لما لها من الإمكانيات المتوفرة لديهم فالتجار يعتبرهم الحسن الوزان[1] أفضل من تجار دول الغرب الإسلامي الأخرى من حيث أخلاقهم والمداخيل التي يتوفرون عليها نتيجة للمبادلات التجارية التي يقومون بها في السودان الغربي، وتشكلت بتلمسان عائلات تهتم بالنشاط التجاري ومن بينها، عائلة المقري التي احتكرت تجارة السودان الغربي في العصر الذهبي للدولة الزيانية وعائلة النجار والمرازقة.

أما الحرفيون فكانوا يتحصلون على مداخيل هامة لأن الصناعة التلمسانية بجودتها وهو ما جعل الإقبال عليها من قبل سكان المغرب الاسلامي والسودان الغربي وقد زاد الرقي بعد الهجرة الأندلسية لتلمسان حيث شيد هؤلاء ورشات على ضفاف الوريط وأقاموا صناعات مختلفة[2] ثم إن رجال العلم على إختلاف فروعه كانوا يتمتعون بمنزلة اجتماعية مرموقة و على الخصوص في عصر الدولة الذهبي حيث تولوا مناصب حساسة في الدولة مثل عائلة العقباني[3] التي تولى أفرادها مناصب وعلى الخصوص منصب القضاء واستمر ذلك في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة حيث ورد ذكر أحد أفرادها كان ضمن الوفد الذي أمضـــى معـــاهدة 917 هـــ-1512م مع الإسبان خلال عهد السلطان أبي حمو موسى الثالث.

1- مرمول، المصدر السابق،ج2،ص507

2- إبن القاضي، ذرة الحجال ج2 ، ص:367.

3- الحسن الوزان، المصدر السابق ، ص:397.

ثم عائلة العبادي الذين كانوا موظفين في الدولة الزيانية واستمر دور هذه العائلة حتى الهجوم السعدي على تلمسان فتركت العائلة تلمسان والتجأت إلى فاس مما يؤكد أن تلك العائلة كانت قد تعاونت مع السعديين مما جعلها تتحصل على وظائف في فاس[1].

لكن بعض هذه العائلات رفضت التعامل مع أمراء الدولة فاضطهدت مما جعلها تهاجر إلى الأمصار الاسلامية الأخرى وأحسن مثال على ذلك الونشريسي[2] ومحمد بن عبد الكريم[3] المغيلي وحتى السنوسي[4] على الرغم من بقائه في تلمسان رفض التعامل مع أمرائها.

وكان أمراء هذه الدولة في الماضي يتقربون من هؤلاء العلماء ويحضرون مجالسهم العلمية .وقد حدث هذا في عهد كل من يغمراسن بن زيان وأبي تاشفين الأول وأبي حمو موسى الثاني، مما جعل العلماء يتوافدون على الأمراء الزيانيين يعرضون عليهم إنتاجهم العلمي والأدبي طمعا في نيل مكافأتهم وكريم عطائهم وقد أشار إلى ذلك الرحالة المصري عبد الباسط ابن خليل فقال أنه تقدم بقصيدة في ليلة المولد النبوي الشريف وقد أعفي من الضريبة التي كان عليه تقديمها عن السلع التي كان يتاجر بها، حدث هذا في عهد المتوكل[5]

1- عن هذه العائلة انظر ابن مريم البستان،ص104،ابن عساكر دوحة الناشر، ص:119.

2- ابن مريم البستان، ص:53.

3- نفس المصدر، ص:53.

4- السليماني، المصدر السابق، ص:397.

5- المقري، نفح الطيب، ج3، ص:111، انظر أيضا عطاء الله دهينة العلاقات التجارية بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي و دور تلمسان في هذا الميدان مقال بمجلة الأصالة ع 24 1975، ص:103. الملالي، مناقب السنوسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ورقة 26.

الذي عرف عصره كبار علماء تلمسان لكن عندما نرجع إلى القرن 10هـ16م نجد أمراء هذه الفترة لا يهمهم من الأمر إلا مصالحهم الذاتية فالشيء الذي يشغلهم ليس الجانب الفكري فقط ،بل كيفية الوصول إلى السلطة وهو نفس الخطأ الذي وقع فيه المجتمع الجزائري بعد الاستقلال مما كان له تأثير على الناحية الثقافية.

- الأشراف:

يجعل السلطان أبو حمو موسى الثاني الأشراف في المرتبة الأولى وفي هذا الصدد يقول: « يكون الشرفاء عندك أرفع الناس في الرتب لأنهم أشرفهم في الحسب وأعلاهم في النسب » ويتجلى من هذا النص أن للأشراف أثر كبير في المجتمع الزياني خلال هذه الفترة موضوع البحث.

إن أول هجرة لأسرة آل الرسول(ص) حدثت في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي حيث استقر أبناء إدريس بن عبد الله و إخوانه محمد النفس الزكية وسليمان بالمغرب الأوسط والأدنى[1] وكل العائلات الشرقية تنتسب لهؤلاء، ففي تلمسان كان الناس يفضلون مسجد أجادير[2] على غيره من المساجد لأنه شيد من طرف الأدارسة.

ولكن في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية قد قلت العناية بهم مما جعل الونشريسي يتأسف، وعلى الرغم من ذلك فإن هؤلاء الأشراف كانت لهم قوة وسطوة في النفوس ولم يكن الأمر مقتصرا على المساعدة المادية فقط،

1- اليعقوبي، البلدان ص13.

2- مسجد أجادير يعتبر أول مسجد أسس بمدينة أجادير من قبل إدريس الثاني، و قد أقام له يغمراسن الصومعة لاتزال ماثلة للعيان لحد الآن. انظر ابن خلدون يحي، بغية الرواد، ج1، ص123.

بل كانوا يكافؤونهم بأمور إدارية، منها أن السلطان أبي تاشفين الأول قد كلّف أبا علي حسن بن يحيى الحسيني بحمل الرسالة إلى السلطان المريني أبي الحسن[1]، كما كانوا يكلفونهم بالتدريس، فأول مدرس بالمدرسة اليعقوبية[2] التي شيدها أبو حمو موسى الثاني هو الشريف الحسني، كما كان هؤلاء يحتلون المرتبة الأولى بالنسبة لترتيب أعوان السلطان.

من بين الذين استقروا في تلمسان أولاد عنان الذين توزعوا، فأولاد حمد بتلمسان، بعض إخوانهم لجأوا إلى مضارب بني عامر عند القلعة القريبة من وادي يسر عرفوا بأولاد محمد الزفاف، كما لجأ إخوانهم إلى مضارب مغراوة ممايلي مدينة مازونة عرفوا بأولاد عدة، ومنهم فرقة في قبائل بني مظهر يقال لهم أولاد زيان، ولعلهم ينسبون إلى بني زيان لأن مؤرخي الدولة الزيانية وعلى رأسهم عبد الجليل التنسي يجعل بني زيان من أبناء إدريس، توزعوا على القبائل بعد سقوط دولة الأدارسة، وإن ارتباطهم ببني عبد الوادي يكون بالمجاورة ومنهم فرقة في أرض بني راشد يقال لهم أولاد القطب الواضح سيدي الشريف.

أما أولاد سيدي عبد الوهاب وهم أهل درع البستان بإزاء الصوامع في بلاد السويد وفرقة أخرى في تلمسان، ولعل أغلبهم كانوا مستقرين بها ثم تركوها إلى الريف لظروف المدينة من جهة وعناية شيوخ القبائل بالأشراف من جهة

1- التنسي نظم الدر والعقيان ص12 Abdel Basit B.Khalil, : Deux Récits de voyages inédit en Afrique du Nord par R.Brunschwig 1936. P 176.

2- توجد هذه المدرسة بباب إيلان لمزيد من المعلومات عنها انظر التناسي مصدر السابق ص179.

أخرى فكانوا يعفون من دفع الضرائب المفروضة على السكان ومن الذين استقروا في تلمسان أولاد سيدي إبراهيم بن يحى توزعوا بدورهم إلى فرق أولاد أحمد في مدينة تلمسان وأولاد سيدهم انتقلوا إلى جبل ترارة في مضارب قبائل بني أمنير وأولاد سيدي أحمد في ترارة وهم أبناء عمومة الذين بمدينة تلمسان لا نعرف متى خروجوا من عاصمة الدولة الزيانية لأن المؤلف اكتفى بذكر هذه الأسر ومكان تواجدها دون التعرض لدورها في الحياة السياسية.

والبعض من هؤلاء وجدوا بأرياف الدولة الزيانية ثم انتقلوا لعاصمتها كأولاد عمران بن محمد منهم عمران الصغير الذي انتقل إلى غريس الشرقي و خلف أربعة أولاد منهم عامر الذي فضل الانتقال إلى تلمسان للقاء العالم الجليل محمد بن يوسف السنوسي[1] فزوجه من ابنته ومكث فترة من الزمن بالمدينة ولم يبارحها إلا بعد وفاة زوجته فخرج منها نحو أراضي بني يعقوب إزاء الجعافرة ويبدو أن أولاده لم يعجبهم الاستقرار لدى بني يعقوب لارتباطهم في بعض الحالات بالإسبان والحروب التي كانت تتعرض لها تلك النواحي في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية ففضل البعض التوجه نحو الواحات الصحراوية القريبة من جبل عمور فيما فضل الآخرون الانتقال نحو وادي ملوية، وهكذا نجد بأن السكان في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية تميزاوا بكثرة الحركة داخل الدولة و خارجها.

ومن بين العائلات الشريفة التي استقرت بمدينة تلمسان أولاد ه بن زيان وقد انتقل بعضهم إلى جبل بني يزناسن[2] ناحية الجوف.

1- المازوني، المصدر السابق، ج2.

2- عن محمد بن يوسف السنوسي انظر ابن مريم البستان، ص:129، ابن عسكر دوحة الناشر، ص:121.

- **الفقهــاء:**

من بين الذين تناولوا هذه الطبقة السلطان أبو حمو موسى الثاني فقال عــن الفقهاء أما الفقهاء فإنهم مصابيح الدين وبهم تقام الشرائع وتسد الدرائع وتعتصم بهم من الأهوال والبدع ويعتزبهم الإسلام ويرتفع»[1] أما الفقهاء والعلماء والمدرسون فقد قالوا في عصر الدولة الزيانية تكريما عظيما كان مبعثه تلك الحركة الفكرية، وتتضح لنا مكانة هؤلاء الفقهاء والعلماء في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني[2] الذي أوصى ولي عهده باتخاذ فقيه يحصن به نفسه فيستشيره، فيما أشكل عليه من أحكام الشرع وما يقتضيه الحال من الحلال والحرام لأن صلاح الدنيا متوقف على العــمل الصالح من أجل الآخرة وقــد كان هؤلاء مستشارين للسلاطين في أغلب الحالات كما كانوا موظفين فـــي الدولة ومن أبرزهم في العصر الذهبي للدولة، الفقيه عبدون الحباك، صاحــب أبي زيان وكان له خبرة في الميادين المالية والإدارية بالإضافة إلى العلــوم الفقهية.

والعبادي[3] والعقباني[4] اللذان كان لهم دور في عهد السلطان أبي عبد الله الملقب بأبي قلمون في المعاهدة التي أبرمت بينه وبين إسبانيا في سنة917هــ،

1- عن جبال بني يزناسن، انظر حليمي، المرجع السابق، ص:106

2- أبو حمو موسى الثاني، واسطة السلوك، ورقة 16

عن آل الحباك، أنظر الونشريسي، المعيار، ج 6 ، ص:523

3- وكان السلاطين في عصرهم الذهبي يغدقون أموالا عليهم و لهم جرايات ثانية و مرتبات شهرية على قدرهم مع الكسرة الجارية في السابع من المولد النبوي الشريف و في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني زادت العناية بالاشراف، و قد نص في وصيته لإبنه أبي تاشفين الثاني أن يكون من بين جلسائه الأشراف. أبو خمو موسى الثاني واسطة السلوك مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 18 ، ورقة 12.

4- ابن خلدون يحي ، بغية الرواد ، ج1 ، ص 115-117

912م، وبذلك يكون نفوذ بعض العائلات العلمية قد امتد من عصر الدولة الذهبي إلى فترة انحطاطها كعائلة العقباني وهي عائلة أندلسية لعبت دور في الحركة الثقافية وتولي بعض أفرادها وظائف هامة في الدولة.

وقد أغدق أمراء الدولة أموالا على العلماء الوافدين على تلمسان والمستقرين بها. فهذا يغمراسن بن زيان قد استقبل أبا الحسن[1] التنسي وأغـــدق عليه فعل ذلك أبو حمو موسى الأول مع أبناء الإمام[2] وأبو تاشفين مـــع أبي عمران المشدالي[3]، وكذلك أبو حمـــو موســـى الثانـــي مع يحيـــى ابن خلدون الذي ولاه ديوان الإنشاء[4]. وخلال مرحلة انحطاطها توافد على أراض الدولة الزيانية الرحالة المصري عبد الباسط خليل فأغدق عليه المتوكل الأموال، وقد اعترف هو بنفسه فقال: إنه تقدم بقصيدة في ليلة المولد النبـــوي الشريف ولقد أعفي من الضريبة التي كان عليه تقديمها عن السلع التي كـــان يتاجر بها»[5]، ولعله تلقى مكافأة أخرى لم يشر إليها خلال فترة مكوثـــه بمدينـــة تلمسان وولاياتها فقد زار أيضا وهران.

---

1 المدرسة اليعقوبية هي المدرسة الثالثة التي أسسها ملوك بني عبد الوادي في عهد السلطان بني حمو موسى الثاني لمزيد من المعلومات عنها انظر ابن خلدون يحي ، بغية الرواد ، ج 2 103. التنسي، المصدر السابق ، ص179.

2- العمشاوي ، المصدر السابق ، ورقة 89.

3- نفسه ، ورقة 37.

4- مازونة عاصمة لإحدى دوائر ولاية غليزان أسسها المغراويون في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي. لمزيد من المعلومات عنها انظر المازوني، الدرر المكنونة، ج2، ورقة76

5- عبد الباسط خليل ص123

- **المتصـــوفة:**

إن ظهور الحركة الصوفية يعود إلى الفترة التي سبقت قيام هــذه الدولـــة وخاصة في العهد الموحدي الذي تميّز ببروز أكبر المتصوفين فـــي الأنـــدلس والمغرب ونذكر - من بين هؤلاء- أبا مدين شعيب[1] وأبا الحسن التنسي وقـــد أخذت هذه الحركة بفضل هؤلاء المتصوفة وتلاميذهم تتغلغل بـــين الأوســـاط الشعبية فإذا رجعنا إلى كتب الوافيات لابن قنفذ وأحمد بابا التمبكتي صـــاحب نيل الابتهاج وابن مريم صاحب البـــستان[2] نجـــدها حافلـــة بتـــراجم هـــؤلاء المتصوفة، ومن أبرزها خلال عهد الدولة الزيانية محمد بن عمـــر الهـــواري المتوفى سنة 843هـــ-1439م[3] والحسن بـــن مخلـــوف الـــشهير بأبركـــان المتوفـــى سنة857هـــ-1453م وقد سماه التنسي الولي الزاهد والقطب الغوث شيـــخ الـــزهـــاد وقـــدوة العبـــاد ابراهيم التازي نزيل وهـــران والمتـــــوفى سنة 866هـــ-1462م.

ويتميز عهد الدولة الزيانية بتغلب الفكر الصوفي على الحياة الفكرية وعلى أكثر مظاهر الحياة في البلاد حيث نجد في كتب التراجم صفحات حافلة بالأحاديث عن كراماتهم ومناقبهم واستجابة دعوتهم وزهدهم في الحياة ولذلك كان عامة الناس وخاصة في أواخر عهد بني زيان يقبلون إقبالا كبيرا علـــى هؤلاء الأولياء وحتى سلاطين الدولة كانوا يستقبلون المتصوفين ويقضون حاجاتهم.

1- عن سيدي بو مدين انظر يحيى بن خلدون بغية الرواد ج1 ص128؛ العبدري الرحلة ص16 ابن بطوطة الرحلة ص17 الحسن الوزان وصف افريقية ص392

2- عن عبد الله بن مشيش انظر ابن مريم البستان ص 256 ابراهيم حركات الصلات الفكرية بين تلمسان والجزائر مقال بملة الاصالة ع26 ،1975 صص183؛ 184.

3- ابن قنفذ القسنطيني الوافيات تحقيق عادل نويهض ص208احمد بابا التمبكتي نيل الابتهاج ص173ابن مريم البستان ص350 نظم الدروالعقبان ص136

ومن هؤلاء ابراهيم بن علي الخياط الذي كان رجلا صالحا يعيش من الخياطة وكان كثير الدخول على أمير المؤمنين يغمراسن بن زيان لقضاء حوائج الناس وربما دخل عليه في اليوم الواحد سبعين مرة[1].

لعل اهتمام يغمراسن بهؤلاء الأولياء يعود بالدرجة الأولى إلى مكانتهم في المجتمع الزياني حيث كثر الإقبال عليهم من جل سكان الدولة وكان يغمراسن يتوجّه إلى مدينة أغادير لزيارة سيدي محمد بن عبد الله في داره إلتماسا إلى دعائه.

أما أبو تاشفين الأول فوافق استقبال هؤلاء المرابطين لأغراض سياسية حيث اتصل بالذين كانوا يتمركزون في نواحي بسكرة لحثهم على محاربة الدولة الحفصية واستمر هذا إلى نهاية الدولة.

- القضـــاة:

أما القضاة فإنهم يمثلون طبقة اجتماعية واحدة وهم على درجات أعلاها قاضي الجماعة ورئيس المظالم وغالبا ما يكون هو الحاكم أومن ينوب عنه في هذا الأمر ويدخل في هذه الطبقة المفتي والمحتسب وصاحب الشرطة لعلاقتهما بنظام القضاة.

وقد حصر الأب برجيس j . Berges j أصناف القضاة بدولة بني زيان في قاضي الجماعة وقاضي الحضرة وهو بمثابة الموثق والمعدل بالنسبة إلى أشخاص المنتمين لقصر السلطان ثم قاضي العسكر[2] وهو الذي يرافق

1- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ص2.

2- عن العبادي، انظر ابن عساكر، المصدر السابق، ص118. من بين الذين تولوا قضاء العسكر المقري الجد في عهد السلطان أب الحسن المريني، لمزيد من المعلومات عنه انظر المقري، المصدر السابق، ج1، ص565.

الجيش في جميع تنقلاته وتقتصر أعماله على المحاربين وقاضي الجماعة لدى الدولة الزيانية من المصطلحات التي توصلنا إليها من خلال ترجمة يحيى بن خلدون[1] لأبي عثمان سعيد العقباني الذي تولى قضاء الجماعة بتلمسان فقاضي الجماعة في مدينة تلمسان عاصمة الدولة الزيانية كان يختار لهذا المنصب في العصر الذهبي للدولة الزيانية كبار علمائها وقد تولى هذه الوظيفة أبو الفضل قاسم العقباني الذي يعتبر من أكبر علماء عصره واليزناسي الذي كان قاضيا في مدينة الجزائر ثم نقل إلى تلمسان وهما من المجتهدين نسب إليهما المازوني[2] والونشريسي[3] مجموعة من النوازل تمس الأحكام الشرعية.

أما في المدن الأخرى فإن سلاطين الدولة الذين يقومون بتعيين هؤلاء القضاة بعد استشارة قاضي الجماعة لأنه من أكبر قضاة الدولة.

ومن بين المدن التي ورد ذكرها في المصادر التي استطعنا الاطلاع عليها في مدينة تنس التي تولى بها القضاء أبو زكريا[4] يحيى المغيلي صاحب كتاب (الدرر المكنونة في نوازل مازونة)، ووهران التي تولى القضاء بها عالم

1- عائلة العقباني هي عائلة أندلسية لعب أفرادها دورا هاما في الحياة الفكرية في عهد الدولة الزيانية، لمزيد من المعلومات عن هذه العائلة انظر ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج1، ص:123، ابن مريم البستان، ص:155.
ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج 1، ص:123، الونشريسي، المعيار.

2- ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص181، يحي بن خلدون، بغية الرواد،ج1، ص42، التنسي، المصدر السابق، ص 126. المازوني ، الدرر المكنونة ج2 ص 260.

3- ابن خلدون يحي، بغية الرواد،ج1 ص214،2i2،الونشريسي،المعيار في إثني عشر جزءا، تحقيق حجمي، دار الغرب.

4- المازوني ، المصدر السابق، ج 1 ، ورقة1-7. نفسه،ج1، ص216. 4، العقباني ، تحفة الناظر ، ص162-163.
عن اليزناسي الذي تولى القضاء في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني بمدينة الجزائر ثم نقل لتلمسان أورد له المازوني مجموعة من النوازل ، انظر الدرر المكنونة ، الجزء الأول و الثاني.

أندلسي وهو الغرناطي لأن بعض المهاجرين الأندلسيين بعد يضاف إلى القاضي المفتي وهي وظيفة لها علاقة بالعبادات والمعاملات والأصل فيها قــول الله تعالى: « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» والأصل فـــي المفــتي أن يكون مجتهدا إجتهادا مطلقا.

يضاف إلى وهران قلعة بني راشد التي اعتبرت من بين أقاليم الدولة الزيانية وقد ورد ذكر بعض القضاة الذين تولوا بها القضاء الصباغ.

وكذلك مدينة الجزائر قبل قيام إمارة سالم بن التومي فقد تولى القضاء بها اليزناسي قبل نقله لتلمسان. هذا فيما يتعلق بالأمصار أو المدن فإن بعض أرياف الدولة تولى الأحكام بها القضاة الذين عينوا من قبل شيوخ القبائل الذين كان لهم شبه استقلال عن الدولة الزيانية.

والأصل في الفتوى أن تكون مرسلة كما ورد في مجموعة فتاوي ابن رشد والمازوني والونشريسي، فمن الأفضل للعالم أن لا يفتي حتى يرى نفسه أهلا ويراه الناس أهلا لها على ما حكى الإمام مالك[1].

- **الأثـــر السلبي على القضاء:**

هذا ما يتعلق بعصر الدولة الذهبي أما فترة انحطاطها فقد تأثرت وظيفة القضاء والفتوى وغيرها من الوظائف الشرعية وهذا لم يكن مقتصرا على الدولة الزيانية فقط بل شمل أغلب دول المغرب الاسلامي. فكان إسناد الوظائف الشرعية كالإمامة في الصلاة والقضاء على العوام والجهال الذيـــن

1- توجد مجموعة من الفتوى أوردها المازوني في كتابه الدرر المكنونة في نوازل مازونة تتعلق بأمور القضاء في عصر أبيه وعصره وهو عهد الدولة الزيانية فكان هذا العالم الجليل من بين قضاة الدولة انظر الدرر المكنونة ج1 ورقة 166

لا يحسنون شروط الإمامة ولا يعرفون الأحكام فيما تصح به وتبطل وربما وجد فيهم من لا يقوم بالقراءة. ولم يقتصر الأمر على الإمامة فقط بل شمل أيضا الفتوى فكان يتعطاها الجهال، وهذا الأمر قد انتشر في هذه الفترة وفسدت بسببه الأديان والأبدان وذلك لما ضاع العلم وقل القائمون عليه وهو ما يؤكده الونشريسي[1] بقوله تقديم الجهال على العلماء في تولية المناصب الشرعية من القضاء والفتوى والشهادة والتوثيق والخطابة والحسبة والأمانة في الأسواق والنظر على الأوقاف وأموال الأيتام والقيام بالموارث والجاه ممن لايصلح لها ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبذلك أصبح الناس يشتكون في أحكامهم وعلى الخصوص خارج عاصمة الدولة تلمسان وهو ما جعل ابن مرزوق[2] يعلق على ذلك فيقول: « أن قضاة الامصار في زماننا لهم أن يقيموا الحدود في القصاص وغيره إنما توليهم القضاء إنما هو من قبل السلطان وكذلك أن ولاهم صاحب الوطن الذي فوض له السلطان توليه القضاة.

نستنتج من نص ابن مرزوق أن قضاة المناطق لم يكن تعنيهم من السلطان كما هو الحال بالنسبة إلى عاصمة الدولة الزيانية. بل من قادة الأوطان مثلا «وطن بني راشد » ولهم الحق في إقامة الحدود في أماكن إقامتهم إلا أن تعيين هؤلاء من قادة الأوطان الذين هم شيوخ القبائل في هذه الفترة جعلهم يخضعون لاستبدادهم و يسكتون عنهم لأنه لا يمكن لهم الاتصال بأمراء الدولة، وقد أشار الصباغ إلى قاضي قلعة بني راشد الذي فرض عليه قائدها خطية فلجأ إلى أحمد بن يوسف الملياني طالبا منه التدخل لصالحه ولم يتصل بالأمير الزياني لأن هذا الأخير لا يمكن له أن يقف إلى جانب القاضي ضد قائد وطن

1- أورد الونشريسي في كتابه المعيار مجموعة من النوازل تتعلق بهذا الموضوع.
2- المازوني الدرر المكنونة في نوازل مازونة ج1 ورقة176.

بني راشد الذي هو بدوره شيخ بني راشد وإن تأثير هؤلاء كبيرا على الدولة الزيانية في عصر الانحطاط[1].

وأما فيما يتعلق بالرواتب التي كان يتقاضاها القاضي في العصر الذهبي هي من خزينة الدولة في شكل أموال أوعقارات أراضي تقطع للقاضي يتصرف فيها خلال توليه القضاء وهي كافية. ومن بين المستفيدين من هذه الاقطاعات العقباني[2] الذين تولى بعضهم القضاء بتلمسان، لكن خلال مرحلة ضعف الدولة الزيانية قلت مداخيلها بعدم سيطرتها على النشاط التجاري وجبي الضرائب من القبائل الموالية للدولة التي أصبحت تتجه لجيوب شيوخ القبائل لذا اعتمد على ضرائب المكوس التي تقدم من التجار الذين يتوافدون على مدن الدولة وهي غير شرعية. ومن بين الذين تعرضوا لها المازوني[3] الذي تولى قضاء تنس وراسل شيخه أبا الفضل العقياني بالراتب الذي كان يتقاضاه من قائد تنس يحصل عليه من أموال المكوس لذا رأى بأنه لا يمكن له أخذه ولكن سيوزعه على الفقراء والمساكين بعد قبضه لأنه لو تركه فإنه سيعود لقائد تنس.

- الرعية والأحــوال الإقتصادية على الطبقــات الإجتمــاعية:

تعرض السلطان الزياني والرعية عند تناوله لطبقة المجتمع الزياني فقال عنها وإما العامة والدهماء فتقبل بهم طريقة واحدة يقفون عندها ولا يتعدون حدها وتجربهم على مايعودوا من السير الحميدة والموالاة المجيدة ثم لا تتركهم لأغراضهم الدفاعية وعقولهم التي هي عن الصواب شاردة».

1- الصباغ، البستان في ذكر مناقب زمام الاخيار سيدي أحمد بن يوسف الملياني مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1708 ورقة 66.

2- عن الإمام مالك بن أنس انظر ابن مخلوف ، شجرة النور الزكية ، دار الكتاب ، ص:27.

3- الونشريسي، المعيار، ج2، ص:127

يتضح من هذا أن أمراء بني زيان في عصرهم الذهبي أو في العصور الموالية خاصة فترة البحث أنهم نظروا إلى هذه الطبقة نظرة استفراضية على الرغم من أنها تشكل النسبة الكبيرة من أفراد المجتمع وهذا الأمر لم يكن مقتصرا على السلطان أبي حمو موسى الثاني بل حتى مؤرخوا دول الغرب الإسلامي لم يتعرضوا لهذه الطبقة الإجتماعية، والوثائق الإسبانية التي أرخت لنهاية بني زيان إكتفت بالتعرض لشيوخ القبائل وما خدمه من خدمات لصالحهم لذا يجد الباحث صعوبات كبيرة في التعرف على أحوالها المالية.

يبدو لي بأن أحوالها في العصر الذهبي كانت أفضل مما أصبحت عليه خلال فترة موضوع البحث لأن الدولة كانت تقف إلى جانبها زمن الشدة وفي هذا الصدد يقول أبو حمو موسى الثاني لا تعدل في مغارمهم عند الغرمات وتوصي بالتحفظ عليهم للولاة وإن كان زمن فتنة ثائرة وفساد في البلاد ومشاهرة فتقبل على الرعية جهد في الاستطاعة وتظهر عليهم فضلك»[1].

يبدو أن الوصية التي أوصى بها السلطان ابنه لم تطبق سواء في زمن الاستقرار أو الإضطرابات فالضرائب كانت جائرة سواء من قبل سلاطين الدولة أو من شيوخ القبائل واستبداد الولاة زاد عن حده خاصة بين فترة موضوع البحث لأن الدولة كانت في أشد الحاجة للأموال لدفعها لأطراف الصراع.

وأن الذين دفعوا فترة الفوضى والإضطرابات التي عرفتها أراضي الدولة الزيانية في النصف الأول من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي».

1- أبو حمو موسى الزياني واسطة السلوك، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1374.
المازوني، المصدر السابق ، ج 2، ورقة 67

وفيما يخص الضوائق الإقتصادية فإنه خلال العصر الذهبي للدولة كانت هذه الأخيرة تتدخل لصالحهم وقد حدث ذلك خلال عصر السلطان أبو حمو موسى الثاني وقد ذكر في كتابه واسطة السلوك وإن كان زمن فترفق به في المخامن والمجاني وتحسن لضعفائهم المحتاجين ومآثرهم فما اخزنته زمن الرخاء فتعمر أسواقهم بما أخزنته من الطعام » إن زمن القحط يقل الإنتاج وترتفع أسعار المواد الغذائية فيحول دون الحصول عليها من قبل هذه الطبقة فتشتد المجاعة وتنتشر الأمراض لقلة التغذية وقد حدث كل ذلك خلال فترة موضوع البحث. للطبقات الاجتماعية في البوادي.

هذا التقسيم الذي سبق أن أوردناه يتفق مع طبيعة التقسيم الطبقي في مجتمع الدولة وبخاصة العاصمة تلمسان.

أما بالنسبة للبادية فالوضع مختلف تماما حيث أننا نلاحظ على هذا المجتمع البدوي الشكل القبلي الذي لايختلف زمانيا من عصر ماقبل الاسلام عنه في عصرنا وما بعده حتى عهد الدولة الزيانية حيث يلاحظ أن البداوة[1] في المغرب الأوسط وجهت أشبه ما يكون ردة أونكسة فقد كانت هناك محاولات لتوطين هؤلاء ولكن الظروف التي سبقت سقوط الدول الكبرى كالمرابطين والموحدين خلقت نوعا من الإرتداد إلى البداوة ساعد على قيام دول كانت قبائل رحل توحدت في الفترة موضوع البحث على شكل ثلاث دول تنتسب للقبائل البدوية مثل بني عبد الوادي وبني مرين[2].

1- عن البداوة في بلاد المغرب الاسلامي انظر ابن خلدون المقدمة ص 120 وكتاب العبر الجزء السادس والسابع تعرض فيهما إلى البداوة .

2- ابن خلدون العبر ج7 ص129 انظر أحمد مختار العبادي دراسات في تاريخ المغرب ص 197

وإذا كان هذا التحديد لم يكن يأخذ خطا ثابتا وإنما ظل السبب فيه الحرب والفتن وتحالف بعض هذه القبائل مع بعض الدول ثم أوجدت هذه الوضعية السيئة لبعضها نظرا لضعف المستوى العسكري لكل دولة من هذه الدول نفوذ كبير لبعض هذه القبائل حتى وصل الحال إلى تأييد قبيلة من قبائل أو عدم تأييدها كان يقيم دولة من هذه الدول أو يسقطها ومن هنا نود أنه من الضروري دراسة وضعية القبائل والترف على نواحي تقسيمها الاجتماعي حتى نعرف جوانب القوة والضعف في تكوينها فمن الثابت المتعارف عليه من بين المؤرخين المحدثين أن هناك تشابها بين البربر والعرب ومن ذلك أن بعض القبائل البربرية كانت تعيش على تربية المواشي كالعرب ويكون تقسيم هذه القبائل على طائفتين: قبائل مقيمة وأخرى طاعنة.

أما المقيمة فكانت تسكن فيما يشبه القرى وأما الطاعنة فكانت تسكن الخيام ومنها من تنقل خيامها مرة عديدة في السنة لكي يستغلوا أراضي نائية ويرى قيوا أن خير وسيلة لتقسيم الأعراب البدو أن توزعهم إلى طائفتين، عرب يقل نزوعهم إلى الطعن وعرب رحل هؤلاء هم البدو وأما برنار ولاكروا فيقسمانهم إلى الأقسام التالية:

- **أولا** :الرعاة الذين لا يطعنون إلاّ قليلا جدا وهؤلاء يتجولون في التل في أوقات من السنة طلبا لمراعي جديدة.

- **ثانيا** :الرعاة الذين لهم مشاتي ومصائف مختلفة ولا يبتعد أحدهما عن الآخر إلا قليلا وبعض هؤلاء الرعاة يقضون الشتاء في الجنوب وبعضهم شمال أطلس الصحراء.

- **ثالثا:** الرعاة الخلص وهم يقضون الشتاء في الصحراء حتى إذا ما حلّ الربيع تركوا مضاربهم في الجنوب سعيا وراء الكلاء والماء بين قبائل التل التي تتيح لهم حق ورودها. وتعرف هذه الهجرة بالرحلة وهذا التقسيم الأفقي يتفق مع ما أورده ابن خلدون حيث يقول عند تعرضه لبني توجين أقاموا ملكا بدويا لم يفارقوا فيه الطعن والخيام و البسائط[1].

على أن بني عبد الوادي بدأوا في انتقالهم الحضري من البادية إلى الحضر بنفس النمط التي أسست فيه الأسر الحاكمة من سكان المغرب حيث نجدهم يتدرجون من البداوة إلى الحضارة وفى ذلك يقول ابن خلدون عندما يخرجون إلى ماشيتهم بالصحراء يتركون أتباعهم بالتلول لزرع أرضهم و ازراع فدنهم وجباية الخراج من أتباعهم[2].

أما فيما يتعلق بالرحلة داخل الإقليم يذكر ابن خلدون عن بنـــي يزنـاســن من توجين أنهم كانوا يجوبون جانبي نهر واصل من أعالــي وادي الشلف، هــذا من ناحية التقسيم الأفقي للبدو.

وأما التقسيم الرأسي من أعلى إلى أسفل فإنه يقـع فـي قمـة الهـرم شيخ القبيلــة وهــو في نفس المستوى الرأسي مع أهــل العشيرة ثم يأتـــي فـــي الدرجة الثانية أرباب السيوف ثم المشتغلين بالزراعة وهم مستقرون والمشتغلون بالرعي وهــم رحل[3].

1- دائرة المعارف الاسلامية ج 2 ص 394.
2- العبر ج7 ص 326.
3- نفسه ج7 ص 159.

أما شيوخ القبائل فقد أسندت لهم الدولة بعض الوظائف الإدارية مثل ولاية الأقاليم وجباية الأعشار فاستطاعوا بذلك أن يكونوا لأنفسهم جاها وثروة، بالإضافة إلى الاقطاعات الكبيرة[1] وتقربهم إلى مجلس السلطان ومنادمته فـــي خلوته والتجرء عليه والإساءة إليه في بعض الأحيان ذلك أن البدوي يتعشـــق الحرية ويأبى الخضوع للأنظمة المحدثة، وقد لعـــب عرب سويـــد دورا بارزا في تنظم الحكم والإدارة في دولة بني زيان وبني مرين ومن ذلك، أن أبي تاشفين ابن موسى بن عثمان بن يغمراسن اتخذ عريف بن يحيى وزيرا كما استخدم شيوخ القبائل والعشائر سفراء كما أنهم حافظوا على وضعيتهم القبلية من حيث تقاليد حسن الجوار التي كانت مرعية من قبل حكام ذلك الزمان من ذلك ماروواه ابن خلدون أنه لجأ إلى جوار القبائل العربية عندما اشتد عليه الخطر وقد طلب من وزمار بن عريف انقاذ ابن الخطيب من الموت ومعنى ذلك أن شيوخ القبائل والعشائر كانت لهم منزلة لدى سلاطين الدولة الزيانية وقد وصف يحيى ابن خلدون عند دخوله مجلس السلطان أبو حمو موسى الثاني مكانة هؤلاء الشيوخ فقال [وأتينا قصر الخليفة المنير فجلس أمير المؤمنين في رحبة داره الكبرى بمنزل شرفه، تحف به الاسرة الاعلون من قومه وعرب معقله وعامريته وأعيان الطبقات من أهل حضرته[2].

أما الطبقة الثانية فهي طبقة العسكريين والمحاربين من الفرسان، وقـــد ساعـــد على وجود هذه الطبقة قيام صراعات بين دول المغرب من جهـــة والقبائل من جهة أخرى[3] ومحاولة كل طرف أن يتوسع على حساب الطرف

1- نفسه ج 7 ص 339

2- يحيى بنخلدون بغبة الرواد ج 2 ص 130

3- عبد الحميد يونس الهلالية ص 88

الآخر، وساعد على ذلك الروح القبلية والخصائص العقلية والنفسبة لأفرادها، فهم يتوسعون ويختصمون مع الطبيعة لا يحلون في موضع حتى ينقلهم لموضع آخر وتصطدم جماعتهم بعضها مع بعض من ناحية واختلاف على الرئاسة من ناحية أخرى والأمثلة على ذلك كثيرة منها أنه خلال فتنة قامت بين عرب بني عامر في أحيائهم خرجت فيها فرسانهم للمواجهة والمنافسة[1].

ويدخل في هذه الطبقة، الشعراء الذين يتغنون بأمجاد القببلة وهذا اتجاه عربي حيث نرى الشعراء ملازمين لمواكب الفرسان يحثونهم على القتال وقـد تأثرت بذلك القبائل الزناتية وحدت حدو القبائل العربية كما أنهم كانوا يشتركون في المعارك الحربية التي تخوضها الدولة محافظين على شارتهم القبلية وولايتهم المميزة لهم وهذه الأولوية والشارات ربما عادت إلى أصول تاريخية من ذلك، مايقال عن احتفاظ بني كعب من سليم براية جدهم التي حاربوا بها في ظل جيوش النبي(ص) في شبه الجزيرة العربية[2].

أما أسلحتهم فقد تلاءمت مع ظروف حياتهم فكانت من النوع الخفيف مع مهارة في امتطاء صهوات الخيل وظهور الإبل وفي مقدمة أسلحتهم السيف فهو وسيلتهم للدفاع عن النفس والمبارزة والقتال عن قريب.

وقد عرف المغرب الاسلامي من أنواع السيوف السيف المستقيم الشائع استخدامه في العالم الاسلامي إلى حوالي القرن السابع الهيجري الثالث عشر الميلادي تقريبا .ثم بدأ يحل محله السيف المقوس في النصل الواحد وقد تأثر العرب بأسلحة البربر مثل طاكوبة وهو سيف مستقيم النصل ذو وجه واحد

1- ابن خلدون المصدر السابق ج 6 ص 108.
2- نفسه ج 6 ص 73.

ويتسع عند منتصفه ثم يقل عرضه وينتهي بطرف مدبدب حاد[1].

ومن أسلحتهم الرمح[2] للفر والغارة والرمي عن بعد، وقد أجدوا في استخدامه على ظهور الجياد وعندهم عدة أشكال لرأس الرمح يسمونها المربوعات والطويلة يطلقون عليها الطوال وأما ألسنتها فمختلفة. ومن الأسلحة المستعملة الخنجر وهو السكين الكبير له مقبض من العاج[3] ومنها الدروع يلبس في الحرب وتتألف الدروع الكاملة من الجوشن وهو الذي يقي الصدر، والبضة أو الخودة وهي الأجزاء التي تقي الرأس.

اما مرتبات هؤلاء فقد تحدث عنها ابن صاحب الصلاة فيقول: [لكل فارس عشرون دينار وللأشياخ العرب لكل واحد مائة دينار وسائر عساكر العرب عشرون دينار لكل فارس[4] بالاضافة إلى ما تقدمه الدولة لهؤلاء من عدة وخيول وسلاح. وهذا بقي العمل به في عهد الدولة الزيانية[5].

وأما الطبقة الثالثة والأخيرة ،فهي طبقة الرعاة والفلاحين وفي ذلك يقول عبد الحميد يونس[6] عن البدو[كان أول اهتمامهم بالأنعام وقد نجحوا في التدخل الصناعي في توليد وتكثيره والاهتمام بالأنواع الأصلية منه وقد كان ارتباط العرب البدو بالإبل والخيل وقد طبقوا على حيواننهم ما ألفوه في مجنمعهم

1- عبد الرحمان زاكي السلاح في الاسلام ص 33 ؛39 ؛44.
2- الالوسي بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ص230.
3- أبو ضيف المرجع السابق ص301.
4- عبد الرحمان زاكي المرجع السابق ص21.
5- نفسه ص26.
6- ابن صاحب الصلاة المن بالإمامة ص290.

مــن العصبية الأبوية وأخذوا من القواعد البيولوجية بالاحتفاظ بسلامة أنسابه على أن الخيل أصبحت وضعيتها في المجتمع الزياني بفضل القبائل العربية نفس الوضعية[1] التبدي كانت عليها في شبه الجزيرة العربية فهي وسيلة تهدف إلى الدفاع على النفس وهي تصحبهم أينما ذهبوا حتى أصبحت هذه العلاقة الحيوية بين الفرسان والخيل يضرب بها المثل في التعاطف والتآلف، وما يقال على العرب ينطبق على المجتمع الزناتي ومعنى ذلك أنّ تربية الخيول اهتم بها الفرسان من كلا الجانبين[2].

أما الإبل والبقر والغنم فقد اهتم بها الرعاة وإن كان اهتمام الفرس بالخيل يبدأ بعد مرحلة تربيته عند هؤلاء الرعاة وحسب التدرج الطبيعي في مدارج الرقي الاجتماعي.

انتقل بعض هؤلاء الرعاة من مرحلة التنقل والرحلة إلى مرحلة الاستقرار فجمعوا بين تربية الأنعام وزراعة الأرض ومعنى ذلك الانتقال من وضعيـــة المجتمع من الإقطاع إلى طبقة الرأسمالية وقد بدأت هذه الطبقة تظهر فـــي مجتمعات المغرب منذ عصر الدويـــلات وإمـــارة الرستمييـــن بتيهــرت وبني مدرار بسجلماسة واستمرت هذه الوضعية حتى وصلت القبائل العربية من بني هلال وسليم وغيرهم فآثروا هذا النشاط وظــل امتاز العرب على البربر. والذي يعنينا هو نشاط القبائل المعاصرة الدولة الزيانية من بني هلال وسليم وبقية القبائل البربرية.

1- ابن عذاري البيان ج4 ص85.
2- الهلالية. ص88.

- **الأمـــراض الاجتمـــاعية:**

بالرغم من عدم استتباب الأمن خلال المراحل التي مـــرت بهـــا الدولـــة الزيانية وطغيان الحركة الصوفية، فإن حياة السكان لم تكن كلها حيـــاة زهـــد وتقشف ولعل السبب في ذلك يرجع إلى موقع تلمسان وغيرها من مدن الدولة مما جعلها من أكبر المراكز التجارية يتوافد عليها التجار من مختلف الدول مما أدى إلى تكوين طبقة غنية لم تكن تتقيد بالمبادئ التي نشرتها الحركة الصوفية وفقهاء المالكية التي تحرم على المسلم عدم إرتداء الملابس المطرزة بالـــذهب والفضة وكذلك عدم استعمال قوائم السيوف واللوم المحلى بالذهب،وربما عـــاد الترف إلى ما تمتعت به تلمسان عاصمة الدولة، حيث كانت تتوفر على مناظر خلابة لضواحيها وبساتينها وشلالاتها المتدفقة ومتنزهاتها التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية والأدبية مثل وادي الصفيصف وكديـــة العـــشاق وغـــدير الجوزاء[2+1]، فالمتنزهات الآنفة الذكر تهيء الجو للـــسكان للالتفـــات للمـــرح والترفيه على احتياجات السكان.

نلاحظ من خلال دراستنا لموضوع السكن في الدولة الزيانية قلة الوثـــائق سواء في ذلك المادية والأدبية لقلة ما كتب عن العمران وخططـــه بـــالمغرب خاصة العمارة المدنية بالإضافة أن الأدب لم يكن قد توصل إلى حد وصـــف المرافق العامة والخاصة وصفا دقيقا فيما عدا بعض الاشارات التي وردت في خلال ما كتبه المؤرخون المعاصرون مثل ابن خلدون والرحالة المـــشارقـــة

1- انظر رسالة المنصور ابن غانم لحاكم وهران الكوديتي، أرشيف سيمنكاس مجموعة الشؤون العسكرية، الملف رقم6، ورقة37.

2- انظر الباب الأول الفصل.

والأندلسيين والمغاربة، ذكر ابن خلدون اختلاف المساكن في المدن فهي تختلف باختلاف المستوى الاجتماعي فالطبقة الغنية تتخذ القصور المشتملة على الدور والبيوت والغرف الكبرى لكثرة الأولاد والحاشية والعبيد والمداخيـل التي كانت تحصل عليها هذه الطبقات الاجتماعية في مدن الدولة الزيانية أثرت على المساكن والملابس والمأكولات فحسب العبذري[1] الـذي زار تلمسان خلال القرن السابع الهيجري، الثالث عشر الميلادي ذكـر أن مساكنها عالية تحتوي على مجموعة من الطوابق، وسطوحها مغطاة بالقرميد. وهذا الوصف خاص بالطبقة الغنية.

اما الطبقة الفقيرة فقد كانت بيوتها مغطاة بالطبين أوالكلاء [الديس] وهـذا النوع يعبر عن الدور البسيطة التي يطلق عليها اسم القربي في بلاد المغرب الاسلامي ويكون مغطاة بالنباتات الجافة كالديس والحلفاء ومن بين الذين تعرضوا للمنازل، ابن مريم[2] فيقول عن تلك المساكن أنها مزودة باصطبلات الخيل وهي منفصلة عن المساكن وبالقرب منها بيوت مخصصة للضيوف.

أما الحسن الوزان[3] فيشير إلى منازل الأغنياء خارج المدينة فيقول بها مباني، في الأناقة، ومن ينعمون بأكبر متعة. وأما المدن الأخرى مثل هنين[4] فبيوتها جميلة لكل بيت مشربة بالماء العذب وصحنه المزين بحاملات الكروم وكانت المنازل مبلطة ببلاط ملون، وسطوح الغرف مبلطة بنفس الشيء والجدران مكسوة بالفسيفساء وبيوت مليانة متقنة في داخلها فسقيات جميلة.

1- العبذري، الرحلة المغربية، تحقيق بن حدو، مكتبة البعث، قسنطينة، ص:16.

2- ابن مريم، البستان، ص:316.

3- الحسن الوزان، وصف إفريقة، ص:391.

4- نفس المصدر، ص:386.

نستخلص مما سبق أن تلك المنازل تخص الطبقة الغنية بالمدينتين وهـــي توضح لنا مدى الغناء والثراء الذي وصل اليه التجار في هذه المناطق فاستعمال البلاط الملون في سطح الغرف والجدران يجعلنا نعتقد أن تبليطها كان من عمل الجاليات الأجنبية لقرب المسافة بين هنين وأوروبا خاصة الأندلس التي توافد تجارها عليها.

وتميزت تلك الدور بوجود صحن في وسطها ولا تزال المنازل حتى الآن تتوافر على هذه الصحون التي يتجمع فيها أفراد العائلة وعلى الخصوص فـــي فصل الصيف. وعن الماء يقول الونشريسي عن تلمسان: هو بلد كبير بـــه حمامات ومدارس ودور يجري بها الماء كلها يدخل بخارجها من الجهة الفوقية منها ويمر بقنوات محكمة البناء ويشق في داخل بعض الدور ويمر بإزاء بعضها إلى أن يخرج من الجهة السفلية من البلد المذكور[1]، وهناك بعض العيون توجد في الأزقة.

وقد تحدث عنها ابن مريم بعضها يرجع إلى الفترة التي سبقت الفتح الاسلامي وبقيت مستعملة حيث ذكر البكري عبن النصرانيووردت أيضا في شعر ابن خميس الذي عاش في تلمسان ووصف بعض مظاهرها العمرانية فقال:

فساقية الرومي عـــندي مزيـــة ** وإن رغمت تلك السواقي الروائح

ومن بين العيون التي تعرض لها يحيى ابن خلدون عين وزوتة التي تقع خارج باب الجياد. وأما التلالسي فيذكر عين أم يحيى فيقول:

ومنه ومن عين أم يحيى شرابنا ** لأنهما في الطيب كل النيل بل أحلى.

1- المازوني الذرر المكنونة ج 2 ررقة 16.

- المـــأكـــولات:

أما المأكولات فقد تطورت بتطور الدولة ففي البداية كانت معيشتهم تتميّز بالبساطة ثم تطورت في عهد السلطان أبي حمو موســـى الثـــاني فأصـــبحت متنوعة، وتُقدّم فيس أواني فضية وذهبية[1] وفي ذلك يقول: يحي بن خلـــدون[2]: (وجيء آخر الليل بالحرس الشهي الملاء الحافل الملامح والمـــشام المتعـــددة الخوانات، مما أرحبت ساحته وجيرت بروده ونادى بالعصبة أولى القوة محملة بالفواكه والحلوى، وطعم الناس بيد الخليفة).

وتأتي أكلة الكسكسي في مقدمة المأكولات فالطبقة الفقيرة كانت تستعمل هذا النوع من الطعام يوميا كوجبة للغذاء والعشاء وفي بعـــض الحـــالات يكـــون مصنوع من الشعير مثل الخبز. وسما يدل على ذلك ما أورده ابن مـــريم فـــي ترجمته لسيدي محمد بن عثمان بن يعقوب الورنيدي فقال في شأنه كان رضي الله عنه لايأكل إلا خبز الشعير بالإدام.

ومن بين المأكولات البسيسة وكانت تصنع بسميد الشعير المحمص والزيت والماء وفي بعض المناطق من القمح وهي قديمة ببلدان المغرب الاسلامي حيث ذكرت المصادر التاريخية أثناء تعرضها للكاهنة أشارت إلى صنع البسيسة من قبلها ولاتزال تصنع إلى يومنا هذا وخاصة بمناسبة الولادة حيث تقدم للأشخاص الذين يأتون للتهنئة بالمولود الجديد.

وهناك العصيدة التي تصنع من الدقيق الرفيع يضاف إليه الزبدة والسمن فـــي المناطق الرعوية.

1- يحيى بن خلدون بغية الرواد ج2 ص40 ؛49 التنسي نظم الدر والعقبان ص236.

2- برانشفيك البربرية الشرقية في ظل الدولة الحفصية ج 2 ص111.

ومن بين الأطعمة أيضا الهريسة التي تطبخ باللحم والقمح ولحم الدجـــاج مع زيت الزيتون.

وهناك أنواع أخرى مثل السيار وهو الفول المطبوخ في اللبن والسمن وأوراق السلق المطبوخة بالحمص والجزر والفول ومن ذلك الدويدة أوالشعيرة التي تطبخ بلحم الدجاج وتستعمل في الاحتفالات وأيام شهر رمضان نجد الحساء وهذا النوع من الأكل لا يزال لحد الآن وتعتبر من بين الأكلات الشعبية على الخصوص بأراضي بني زيان وقد أشار إليها ابن مرزوق خلال تعرضه لأبي الحسن المريني بمدينة المنصورة فقـــال: [أخذ يسيرا من حسو][1].

أما الحسن الوزان فيشير إلى أطعمة قدمت إلى السلطان الزياني خلال الحصار المريني للمدينة سنة698-707/1298-1307 هي عبارة عن لحم خيل مشوي مخلوط بشعير وورق البرتقال[2].

أما الحلوى فتصنع أيام المواسم مثل عيد الفطر وعيد الأضحى وأيام رمضان حيث يكثر الإقبال عليها من طرف السكان منها الكعك والزلابية وهناك المشهدة التي أشار إليها ابن مريم خلال تعرضه لكرامات سيدي الحلوي حيث قال [اخرج مشهدة لم ير الراؤون مثلها ولاطيبتها امراة فـــي الدنيا من أحكام طبخ وجود صنع وكثرة ادام فاكلنا منها قليلا ومن الحلوى الـــتي كانت متداولة في عصر بني زيان السفنج والقطائف والقرص المصنوع بالسميد والقباط المحشو باللوز[3].

1- دهينة عطاء الله سلطنة بني عبد الوادي ص181.
2- الحسن الوزان المصدر السابق ص108.
3- ابن مرزوق المستند الصحيح ص 232.

هذا في عصر الدولة الذهبي، لكن خلال فترة موضوع البحث يلاحظ كثرة الحروب التي عرفتها الدولة وعدم استقرار السلطة نتيجة لكثرة المتصارعين عليها ربما أثر أيضا على معيشة أمراء الدولة كما أثرت على بقية الرعايا.

وضعف المبادلات التجارية وعلى الخصوص مع الدول الأوروبية مثل إيطاليا وفرنسا والبرتغال وبلدان السودان الغربي، لكن هذا لا ينبغي أن يكون حدث تطور في نوعية المأكولات بفضل المهاجرين الأندلسيين.

- **الملابس:**

إذا كانت نوعية المأكولات مرتبطة أشد ارتباطا بمستوى الطبقات الاجتماعية فالملابس هي الأخرى تختلف من طبقة إلى أخرى من المدنيين والعسكريين والحضر وسكان البوادي كما توجد ملابس خاصة بالصيف وأخرى بالشتاء وأغلب الملابس مصنوعة من الصوف والقطن والحرير[1]، وفقهاء الدولة الزيانية يحرمون على الرجل لبس الحرير، لكن طبقة الحكام لم يلتزموا بذلك[2].

هذا من جهة ومن جهة أخرى، فإن الباحث يلاحظ وجود ملابس أندلسية في المجتمع الزياني لقرب موانىء الأندلس التي تشتهر بصناعة المنسوجات مثل المرية حسب ما أورده الإدريسي خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، إن السلع كانت تصل باستمرار إلى هنين وغيرها من الموانىء الزيانية ومن بين تلك السلع الملابس المرية على الخصوص

1- الحسن الوزان المصدر السابق ص 392.

2- الحسن الوزان المصدر السابق ص 172.

الخاصة بالعرائس[1].

كما وجدت ملابس مشرقية في الأسواق الزيانية أشار لها العماري[2] عند تعرضه إلى تلمسان وملابس أوروبية ذكرها شارل عمانوائيل ديفورك والمازوني في نوازله وهي الفرو ويبدو أنها من الملابس المستوردة من الدول الأوروبية لذا طرح المازوني هل تلبس دون غسل لأنها صنعت من قبل المسيحيين.

وعن اختلاف الملابس حسب الطبقات الاجتماعية يرى ابن خلدون أن الطبقة الغنية كانت ترتدي الملابس الفاخرة من الحرير والديباج وأن هذه الملابس تطورت بتطور الدولة لأن أغلب ماتركه ابن خلدون هو عبارة عن تجارب مستوحاة من البيئة المغربية التي عاش فيها.

وهناك ذكر الملابس التي كان قد أهداها السلطان أبوالحسن المريني للمماليك وبعضها مصدرها أراضي الدولة الزيانية منها الصكات المذهبة والحلال ثلاثة عشر حلل والمخائد حلة وتزن ذهبا مائتين وأنزق ذهب عشرون وستة واربعين ،وفرشة حلة وعشرة علامات عشة وعشر واقيات مذهبة وستة وعشرون قناعا مذهبا وثلاثون وجوه اللحف حرير وذهب ومائتين من المحررات الملونة الرفيعة المختمة وحيطان أحدهما حلة والآخر نزق وثلاثة وعشرون صفة من النجان واثنان من صنابل الحلة وعشرة براقع للخيل، ومنها ثمانية من الحلة ومراشلة الخيل ثلاثون وثلاث نافس من الحرير وحنبلان من الحرير وعشرة حنابل من الحرير والصوف وحنابل ونشريسية

1- المازوني الدرر المكنونة ج 2 ص 136.

2- ابن خلدون المقدمة ص 776.

وزمورية ومائة وسبعة آلاف من الجلد التركّي والاغماني ومن درق اللمط المثمة ومن الأكسية المحررة أربع وعشرون ومن البرانس المحررة ثمانية ومن الإحرام ما بين محررة وصوف عشرون ومن أزواج المجفف خمسون وعشر لزمات من الفضة وستة عشر شقة من الملف]، فالملاحظ على هذه القائمة إن أغلب تلك الملابس تخص الطبقة الغنية.

ومما يوضح أن تلك الملابس كانت لذلك المجتمع الزياني قول الحسن الوزان الذي زار تلمسان في أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عاشر الميلادي فيقول أن ملابس سلاطين الدولة الزيانية كانت جميلة وأنيقة.

وفي نص آخر يقول أن الملابس بالنسبة لتلمسان لا تختلف عن فاس ومن بينها العمامة التي كان يتعمم بها سلاطين المغرب الاسلامي وقد ذكر صاحب كتاب الاستبصار القريب من عهد بني زيان أنّ أهل بجاية كانوا متخصصين في صناعة العمائم وهي مطروزة بالذهب تساوي الواحدة مابين الخمسمائة والست مائة دينار والعمامة شعار الاسلام في المغرب عامة فقد اورد صاحب كتاب مسالك الابصار عند تعرضه للدولة الحفصية أن ملوكها يلبسون عمامة كما أشار الى لبس العمامة من قبل سلاطين الدولة الزيانية وفي مقدمتهم أبو حمو موسى الثاني.

ومن الملابس التي كان الإقبال عليها البرنوس والفقهاء لباسهم جبة من الصوف أو القطن.

وأما الصوفية فكانوا يرتدون الخرقة يقول الغبريني في ترجمته لأبي الفضل قاسم بن محمد القرشي أنه قال: [دخلت سوق الصوف فرأيت خرقة أعجبتني فاشتريتها بثلاثين درهما.

كما كان الفقهاء يلبسون البرنوس الأبيض فقد أورد القلقشندي قولــه: [وأما العلماء وأهل الصلاح فإنه لاحرج عليهم في ذلك ولاحرج فـــي لبس لبرنوس الملون بالأبيض وإلى ذلك أشار ابن مريم أثناء حديثه عن سيدي أحمد المشدالي حيث قال: [لجأ إلى سوق ندرومة ودل قلمون برنوسه على وجهه لكي لا يعرفه الناس والسروال يعتبر من الملابس التي *عرفها المجتمع الزياني وبقية سكان الجزائر حاليا وهو ما يؤكده الغبريني* في ترجمته للتجيبي [كان يوما يسير إلى باب البحر ومعه بعض خواصه وإذا بشخصية يتمايل سكرا فالقى يده في يد الشيخ فقال له ياسيدي إدفع لي ما أتم به هذه السكرة فانتهره الناس فقال لهم الشيخ لا عليكم، دعوه فتركه يأخذ سراوله حيث دفعه إليه لأنه لم يكن عنده غيره].

ومن الملابس أيضا الجلابة وقد وجدت هذه الأخيرة في المغرب الاسلامي والأندلس منذ عهد الخلافة الأموية واستمرت إلى العهد الزياني ويتجلى ذلك من خلال ما كتبه العماري حيث يقول أن الملابس في المجتمع الزياني تختلف حسب المكانة أو العرق أو المهنة حيث يلبس ابن الجبل لباس أمثاله من أهل الجبال ويلبس العربي لباسا عربيا ولكن أفضل الناس كساء هم الأساتذة.

وإذا كنا من لم نعثر على تفاصيل كثيرة عن الملابس فيجب علينا الرجوع الى ما قبل عصر بني زيان وهو العصر الموحدي لأن تلك الملابس لا تتغير بين عشية وضحاها ففي هذا العصر ذكر ابن صاحب الصـــلاة وهو من علماء تلمسان قال: [أنعم عليهم السلطان بالكساء والعمائم والغفافير والبرانيس

والأكسية تحصل كل فارس على غفارة وعمامة وكساء وقبطية وشقـــة وفـــي نص آخر يقول كما جمعهم بالقباطي والقمص والغفافير والعمائم][1].

وفي رواية أخرى يقول أعطى الكسوات للموحدين والأشياخ من كل رتبة وللطلبة والعرب فأعطى كل واحد ستة أثواب عمامة وفقارة وقبطية مبطنة ومقطعيين مهداويين وكساء][2].

فالنصوص الثلاثة توضح للباحث الملابس التي أكثر انتشارا في المغرب الاسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية لأن ملابس هذه القبائل في البوادي امتداد لما كان عليه في العهد الموحدي.

أما المصادر المعاصرة للدولة الزيانية فقد اكتفت بالاشارة إلى الحديث عنها دون التعرض لنوعيتها ففي عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني فقد توافد عليه ثمانية آلاف من العرب فقدم لهم الكسوة. فالنص اكتفى بالكسوة ولم يوضح لنا أسماءها.

أما أبو الحسن المريني فإنه بعدد الاستلاء على تلمسان خرج إليه سكانها فأعطاهم ألف فارس من عتاق الخيل بجهازتها وعدتها ومهنداتها والكسي المناسبة والجهازات مبين مرجح بالذهب ومفطط ومنبل بالذهب والفضة والكسي ماهو بالتفصيل المكسب وماهو بالخز الرفيع وكان عدد الكساء أثناء عشر ألف كساء.

1- الونشريسي، المعيار، ج 4 ، ص:276.

2- ابن خلدون يحيى، بغية الرواد، ج1، ص:40 ، انظر أيضا محمد بلغراد تلمسان، مقال بمجلة الأصالة ع26، 1975، ص:300.

وأغلب هذه الأكسية من صنع تلمسان لأنها اشتهرت خلال هذه المدة بصناعة الملابس.

وإذا كان أبو الحسن قد استولى في تلمسان على مخازن الحبوب فإن الذي يتبادر إلى الأذهان استلاؤه على دور الطرز ومصانع المنسوجات بالعاصمة الزيانية، وربما كانت الإشارة إلى ذلك واضحة فيما عرض إليه ابن مرزوق حبث يقول أن ملابس أبي الحسن المريني وحاشيته [كانت ثيابه وثياب والده رضي الله عنه من أثواب ملوك تلمسان قد صارت إليه فلم يشغل منها قط للباسه ولفرشه[1].

على أن النص الذي أورده ابن مرزوق يبدو التناقض فيه واضحا بين العبارتين المتجاورتين ولعل ذلك يعود إلى أن أبي الحسن المريني كان قد أهدى الحلل المرقومة المذهبة والأنساق والفتح والمحررات المختمة والبرانيس المصنوعة من الحرير المشفف وأحاريم الصوف لدولة المماليك بمصر.

- **الجنود:**

أما الجنود في الدولة الزيانية فقد كانت لهم ملابس خاصة بهم. إن هذه المرحلة عرفت تسرب الملابس الإسبانية إلى المجتمع الزياني لأن من أهم السلع الموجودة كانت تباع من قبل الإسبان وقد نصت إحدى الوثائق الإسبانية أن مولاي عبد الله كان يمتطي جوادا أبيضا وبرنوسا وشاشية إسبانية يعلوها ريش النعام[2].

1- يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج2 ، ص:40-49، التنسي، نظم الدر والعقبان ص:326، المقري، أزهار الرياض، ج3، ص:116، القاهرة 1938.

2- عن هذا انظر رسالة الكوديتي Conde de AlcoudeTe للامبراطور شارل الخامس توجد بأرشيف سيمنكاس 3 FF 286-62 er le gajo.

ومن الملابس التي كانوا يرتدونها البرنوس وأما الفقهاء فكان لباسهم العمامة والجبة من الصوف أو القطن

أما الحسن الوزان فيقول أنهم يرتدون في فصل الصيف صدرية ذات أكمام عريضة مما يساعد على تسرب الهواء إلى أجسامهم و تخفيف شدة الحرارة وأما في فصل الشتاء فكانوا يلبسون كساءا من الجلد ويضعون فوق الصدرية أو الكساء ويلبسون وشاحا كبيرا سن قماش القطن يلفونه ويلتحفون بــه شتاء[1] وتغيير الملابس من فصل إلى آخر إن دل على شئ فهو يدل على أمرين إثنين:

- **أولهمـــا:**

طبيعة المناخ الذي تتميز به أراضي الدولة الزيانبة حيث يكون الصيف شديد الحرارة وشتاء قارس.

- **ثـــانيـــا:**

الرقي الاجتماعي الذي وصلت إليه الحياة في عهد هذه الدولة هذا مـــن جهـــة ومن جهة أخرى نلاحظ الاختلاف بين ملابس الجنود وضباطهـــم، وهـــذا مـــا يوضحه الوزان بقوله أما العسكريون القادة من ذوي الجاه فيلبسون فوق الصدرية لباسا آخر ويضعون فوق المعطـف قبـعة كتلـك التي كانت متصلة بالمعاطف التي يرتديها الناس في إيطاليـــا خلال أسفـــارهم[2].

1- الحسن الوزان ، المصدر السابق ، 392.

2- الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ص:392.

أما الحرفيون[1] في المجتمع الزياني، فكانت لهم ملابس مميزة عن بقية السكان حيث يلبسون لباسا لائقا، و لكنهم يضعون قوبا قصيرا وقليل منهم الذين يضعون عمامة على الرأس أما المرأة فيقول الوزان عن نفس الطبقة أن نساءها كن يسرن في الأنهج وهن يرتدين ملابس بيضاء واسعة والملاحظ أنه لم يوضح لنا طريقة الحجاب في هذه الملابس إلا عندما تحدث عن النساء العربيات فقال أما العربيات فكن يرتدين ملابس تتألف من قميص أسود عريض الكمين يضعن فوقه خمارا من نفس اللون أو لون أزرق ويتعصبن به ويلفون به أجسادهن أما المازوني فيعطينا صورة للحائك تشبه إلى حد بعيد ما تلبسه المرأة في الغرب الجزائري والجنوب ويبدو أنه من مخلفات التراث الرستمي لأنه استمر عبر التاريخ الزياني وما زال موجودا لحد الآن وفي هذا الصدد يقول أنه زي النساء الالتحاف بالكساء دون نقاب من كتان ولا غيره وإنما يسترن وجوههن بطرف من نفس الكساء بايديهن.

أما الرحالة الإسباني مرمول[2]، فقد ذكر أن المرأة في المغرب الأوسط ترتدي حائكا ذا لون أبيض وقد أشار هايدو إلى المرأة في الجزائر فقال أنها ترتدي معطفا أيضا من الصوف الرقيق ومن القماش والحرير يعرف بالحائك والجواري كن يخرجن غير ملتحفات عكس المرأة الحرة.

1- الحسن الوزان، المصدر السابق ص 393.
2- المازوني، الدرر المكنونة، ج1 ، ورقة 356.

ومن ملابس النساء السفساوي[1] الخاص بالمرأة في المجتمع الزياني حيث ارتفعت شهرته في العالم الاسلامي وقد اشتهر بلونه الأبيض، كما وجدت بتلمسان لبس الكنافيش وهي أنواع كما كانت المرأة ترتدي سروالا وقد تعرض لذلك الرحالة الإسباني مرمول فذكر بأن السروال ترتديه المرأة بالمغرب الأوسط[2].

وأما أهل الذمة فقد كان مفروضا عليهم إرتداء ملابس خاصة وهي تختلف عن ملابس المسلمين ولونها أصفر، وعلى رأسهم الضفائر إلا أنهم لم يتقيدوا بتلك الملابس وبخاصة في مرحلة ضعف الدولة الزيانية وهو ما جعل المازوني يقول لباس أهل الذمة حيث لاحظ تقليد الدميات.

1- مرمول، وصف إفريقية، ج2، ص:320.

2- عن السفساوي انظر الزهري، المصدر السابق م ص:198.

- مرمول ، نفس المصدر ، ج 2 ، ص:321.

الـفـصــل الـثــانــي

أثر الصراع على الأوضاع الاجتماعية

- أثر الصراع على مدن الدولة (المدن الرئيسية):

- أولا/ مدينة تلمسان:

تعتبر مدينة تلمسان من بين المدن القديمة، يقول عنها يحي بن خلدون: (دار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسان كلمة مركبة من تلم ومعناه تجمع بين، وسان ومعناه اثنان أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا أبو عبد الله الأبلي وكان حافظا بلسان القوم ويقال تلشان وهو مركب من تل ومعناها لها وشان أي لها شان).

يلاحظ على النص الذي أورده ابن خلدون وهو من بين المقربي من النظام الزياني وله اضطلاع على وثائق الدولة أن هنالك اختلاف في التسمية بالنسبة لتلمسان التي اسست من قبل الزناتيين.

أما عبد الرحمان بن خلدون فيرى رأي آخر. فهو يأخذ برأي الابلي ولكنه يختلف معه في التفسير حيث يرى أن المقصود هو التل والبحر بمعنى أنها تجمع بين طبيعة البر والبحر فهي تقع في سفح جبل وتشرف على ساحل بحري يجثم تحت أقدامها ،فهي غير بعيدة عن ميناء الغزوات الشهير.

واما محمد بلغراد فيرى أن المقصود بها هي مدينة الينابيع وقد علق على[1] ذلك بقوله فقال إن هذا المعنى يتلاءم مع إقليم تلمسان.

1- يحي ابن خلدون بغية الرواد ج 1 ص 85

وبعض المؤرخين أمثال الدكتور حاجيات والدكتور بوعياد وهما مـــن سكـــان تلمسان يرون الرأي الوارد عند يحيى ابن خلدون لأنه يساير لغة القوم، وقـــد أطلق عليها الرومان بماريا بمعنى البساتين، كما كانت تعرف أيضا بمدينة أغادير[1]

وأما أغادير فهو الاسم الفنيقي القديم ،دخل في لغة البربر ويعلق على الاسم بلغراد فيقول وهذا يتفق وموقع المدينة لأنها تقوم على هضبة قليلة الانحدار.

من ناحية أخرى أننا لانعرف متى تحول اسم أغادير إلى تلمسان وأصبحت تجمع بين المدن الثلاثة. وهي المدينة التي كانت معروفة خلال القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي حيث أقام بها إدريس الثاني مسجدا لا تزال آثاره ماثلة إلى الآن.

وعندما تأسست الدولة المرابطية أسس يوسف بن تاشفين مدينة مجاورة للمدينة القديمة أطلق عليها اسم تاجرارت[2] أي المعسكر واقام بها المرابطون مسجدها الكبير الذي لايزال ماثلا للعيان لحد الآن وأما الزيانيون فقد أقاموا بالمدينة المرابطية التي كانت مقرا لولاية موحدية حيث كان بها القصر القديم الغير بعيد عن المشور.

يذكر يحي ابن خلدون نص يسنده إلى ابن مرزوق فيما يتعلق بأقدميتها فيقول: [قال حدثت يوما فقيها مشارا له بالقاهرة في شأن البلاد إلى أن انتهى

1- عن الابلي انظر مقدمة كتاب بغية الرواد ج1 ص16.

2- يحيى بوعزيز المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الوادي مقال بمجلة الاصالة ع 26 ،1975 ص3

إلى الحديث عن تلمسان فأخرج من داره ديوانا تاريخيا يقول فيه أن تلمسان مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى نزل بها سليمان بن داود عليه السلام وأقام بهـا شهرا][1].

المعلومات المتوفرة لدينا من الكتب التاريخية تقول أن سليمان لم يترك المشرق ولم يزر بلاد المغرب ولذا فالرواية غير مؤكدة حاليا.

- مدينة تلمسان من خلال كتب الرحالة

قال أبو عبيد الله البكري في مسالكه أغادير مدينة في سفح جبل ذي جوز.أبوابها خمسة ،ثلاثة قبلية :باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة وواحد شرق وهو باب العقبة وواحد غرب ينسب إلى أبي قرة اليفرني وبها آثار عادية وكنائس حتى الآن بالنصارى معمورة وكثير ما يوجد بها الركاز وماؤهـا مجلوب من عين الوريط على قيد ستة اميال وبجاورها وادي الصفيصف عليـه مدار ارحائها][2].

والعبدري[3] يقول عن تلمسان: [مدينة كبيرة سهلية ،جبلية، جميلة المنظر مقسومة باثنين بينهما سور ولها جامع عجيب مليح متسع، وبها أسواق قائمة وأهلها ذوو لياقة ولابأس بأخلاقهم وبظاهرها في سند الجبل موضع يعـرف بالعباد وهو مدفن الصالحين وأهل الخير وبها مزارات ومن أعظمها وأشهـرها قبر الصالح القدوة فرد زمانه أبي مدين شعيب وعليه رباط مليح مخدوم مقصود].

1- نفسه ص 5.

2- البكري المغرب ص 89.

3- العبدري الرحلة المغربية ص 14.

يقدم لنا النص الذي أخذه ابن خلدون عن البكري معلومات قيمة تتعلق بالمدينة منها على الخصوص، وعن قدمها قال ابن زكرياء يحي بن خلدون: إنها قديمة عريقة في التمدن، لدنة الهواء عذبة الماء كريمة المنبت اقتعدت بسفح جبل ودوين رأسه سيط أطول من شرق أي غرب عروس فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها أشراف التاج على الجبين[1].

يلاحظ على النص الذي أورده الكاتب أنه يحدد لنا محيط هذه المدينة في عصره والتي كانت تضم المدن التي أسست قبل قيام الدولة الزيانية والتوسع لذي حدث بعد قيام هذه الدولة وعلى الخصوص بعد تأسيس المرينيين المنصورة إلى جوارها التي مازالت آثارها لحد الآن مما يؤكد عظمة تلك المدينة الأسوار تميزت تلمسان بأسوارها الشاهقة[2].

فعندما أسس المرابطون تاجرارت أحاطوها بأسوار شاهقة كما هو الحال بالنسبة لأغادير. وحين قامت الدولة الزيانية اهتم سلاطينها بتسويرها ومن بين هؤلاء يغمراسن فقد ذكر يحيى بن خلدون إن السلطان يغمراسن بن زيـــان قـــد أمر سنة 1269/668 ابتناء أسوار الشاهقة بالقرب من باب كشوطة.

ولعل ارتفاع هذه الأسوار وعظمتها هي التي دفعت العبدري الذي زار المدينة خلال حكم السلطان ابو سعيد الى القول: [بأن اسوارها من أوثق الأسوار كما بيـــن هذا الرحالة أن هناك سور يفصل بين مدينة أجادير في الجنوب وتاجرارت فـــي الشمال، ويقول العبدري عنها إن سورها من أوثق الاسوار وأصحها[3].

1- ابن خلدون يحيى بغية الرواد ج1 ص86.

2- نفسه ج1 ص86.

3- العبدري المصدر السابق ص 14

وبعد الحصار المريني لها، قام أبو حمو موسى الأول بإعادة بناء أسوارها وحفر الخنادق، لأن الأسوار القديمة تأثرت بطول الحصار، وهدمت الأسوار من جديد خلال استيلاء السلطان المريني لها، خلال الهجوم الذي أدى إلى مقتل سلطانها أبي تاشفين الأول مدافعا عنها هو وأبناؤه.

وفي هذه الفترة قال عنها العماري إنها تحتوي على جدار يتكون من ستة حصون بعضها في اتجاه الغرب والبعض الآخر في اتجاه الشرق، وفي القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادي ذكر الرحالة عبد الباسط خليل إقامة سور جديد لها ولعله نفس السور الذي شيد فوق إحدى مقابر المدينة مما دفع بالونشريسي إلى معارضة بنائه وخوفا من انتقام السلطان منه تخلى عن تلمسان وهاجر إلى فاس[1].

- **الأبواب:**

أما الأبواب فكانت تلمسان تحتوي على مجموعة من الأبواب ذكرها الرحالة الذين زاروها منهم البكري خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فيرى أن أبوابها خمسة موزعة على النحو التالي: ثلاثة قبلية هي باب وهب وباب الخوخة وواحد شرقا هو باب العقبة وواحد غربا هو الذي ينسب إلى أبي قرة اليفريني[2].

1- عبد الباسط خليل المصدر السابق ص23.

2- البكري القرن الخامس الهجري يرى أن أبواب تلمسان هي خمسة موزعة كالتالي ثلاثة قبلة باب الحمام وباب الخوخة وواحد شرقا هو باب العقبة وواحد غربا هو الذي ينتسب إلى أبي قرة اليفريني.

أما يحي بن خلدون فقد ذكرها على النحو التالي ثلاثة قبلية باب الجـياد وشرقا باب العقبة وشمالا باب سيدي الحلوي وباب القرمديـن وغربـا بـاب كشوطة[1].

ولعل الاختلاف في توزيع الأبواب بين البكري ويحيى ابن خلدون يعـود إلى إحدى الاحتمالين:

الأول :الاختلاف في الفترة التاريخية بين المؤلفين لأن الأول عـاش فـي القـرن الخامس الهجري والثاني في القرن الثامن.

ثانيا :إن البكري وصف مدينة أجادير بينما يحي ابن خلدون[2] تاجرارت ولكن هذا الاحتمال الأخير ينقصه وجود أبواب مشتركة مثل باب العقبة الذي يقع شرقا في كل الوصفين مما يجعلنا نؤكد الاحتمال الأول ولكن أبو الفداء الذي نقل عنه يحي بوعزيز ذكر ثلاثة عشر بابا وهذا يتفق مع المؤرخين الفرنسيين أمثال الأب برجيس ووليام مارسية.

لأن المدينة لها أبواب داخلية غير هذه الأبواب الخارجية ومن هنا نشأ الاختلاف في ذكر الأبواب من حيث العدد أومن حيث الكم والتسمية.

ذكر ابن مرزوق الأبواب الداخلية عند تعرضه إلى السلطان أبي الحسن المَريني أثناء انتقاله من تلمسان السفلى إلى تلمسان العليا قال عنه [اجتاز باب زيري وهناك أبواب أخرى مثل باب إيلان كان يقع وسط المدينة بعيدا عـن الأسوار الخارجية التي تحيط بالمدينة.

1- ابن خلدون يحيى بغية الرواد ج 1 ص 216 .
- ابن مرزوق المصدر السابق ص 283.
2- ابن مرزوق المصدر السابق ص 283.

فتحت الأبواب في سور من أرقى الأسوار وأصعبها مبني بالحجارة والآجر وهناك من يقول أيضا أنها أسست من قبل مغيلة لتجاور مضاربها المدينة.

أطلقوا عليها اسم أجادير ومعناها الجدار في اللهجة الزناتية، وليس الجدار الذي ورد ذكره في القران لأن موسى عليه السلام لم يبارح المشرق وبالتحديد فلسطين حسب المصادر المتوفرة لدينا.

- الفتـــح الاســـلامي :

يبدو أن سكان تلمسان وما جاورها اعتنقوا الاسلام خلال عهد أبو المهاجر دينار بالطرق السلمية لأن سياسة هذا الأخير تمثلت في التقرب من شيوخ القبائل البربرية واستعمال الليونة معهم مما جعل هؤلاء يعتنقون الاسلام على يديه بدون أي مواجهة عسكرية.

ولا تزال بالقرب من تلمسان عين تعرف بعين أبي المهاجر دينار تذكر المصادر أنه نزل في ساحة ولم تشر إلاّ أنه استولى عليها لكن يبدو أنه بمجرد اعتناق سكانها للإسلام تركها وعاد إلى القيروان

- تلمســان في عهد الأمير أبي قرة اليفريني[1] :

إن أبا قرة اليفريني كان أول من أقام إمارة في تلمسان بعد الفتح الاسلامـــي وكان هذا الأخير على المذهب الصفري وفي هذا الصـــدد يقـــول الطبـــري إن أبا قرة اليفريني جلب مع أبي حاتم على طبنة للاستيلاء عليها في عهد عـــم بن حفص ثم قال افرجوا عليها وانصرف أبو قرة اليفريني إلى موطنه

1- عن ابي قرة اليفريني انظر البيان المغرب ج1 ص210؛ ابن خلدون العبر ج7 ص156؛ ابن أبي زرع روض القرطاس ص9 انظر أيضا سليمان بن داوود أبو قرة اليفريني مقال بمجلة الأصالة ع26 ص120.

بنواحي تلمسان وبذلك يكون هذا قد أقام إمارة في تلك المدة.

- تلمســـان في عهد الأدارسة[1]:

لما بايع إدريس بالإمارة من قبل برابرة أوروبا ومغيلة ومكناســـة نهـض إلى المغرب الأوسط سنة 174 فتلقاه محمدبن خزر بن صولات أمير زناتة وتلمسان فدخل في طاعته وحل عليه قومه مغراوة وبنو يفرن بعد أن غلب عليها أمراؤها من بني يفرن ومكنه منها فدخلها وهو الذي اختط مسجدها وصنع منبره ثم عاد الى المغرب.

وهي كيفية انتقال تلمسان من المذهب الصفري إلى الزيدي العلوي ومصير أبي قرة اليفريني. أمّا ادريس فإنه عاد إلى المغرب الأقصى بعد أن عيــن على تلمسان ابن عمه[2].

وبعد وفاته تولى السلطة ابنه إدريس الثانى الذي هاجم تلمسان بدوره عام179 ثم جدد مسجدها واصلح منبرها ودوخ المعارضين له من القبائل الزناتية الذين يبدو أنهم تخلوا عن ولائهم للدولة بعد وفاة إدريس الأول ولكي يحفظ بقاء تلمسان تحت سلطته عين عليها ابن عمه محمد بن سليمان ثم عاد إلى المغرب الاقصى ويبدو ان أبناء محمد بن سليمان استقلوا بتلمسان بعد وفاة إدريس الثاني واستمرت تلمسان بأيديهم إلى قيام الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب حيث قضت على الإمارة العلوية ومنها تلمسان التي استولى عليهـا موســى بن أبي العافية واستمرت تابعة للفاطميين إلى أن استعادها منهم يعلى اليفريني

1- ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص211.

2- نفسه ص213.

سنة 340هـ وتمسك بالدّعوة الأموية في الأندلس فعينه الناصر لدين الله على كل المغرب الأوسط ومنها تلمسان.

- عودة تلمسان لزناتة:

بعد حملة جوهر الكبرى لبلاد المغرب التي أدت إلى هلاك يعلى اليفريني، عادت السلطة في بلاد المغرب الأوسط لقبيلة مغراوة بزعامة محمد بن خزر، فاستعاد تلمسان سنة360هـ وخلالها كان مواليا للأمويين بالأندلس، لكن هذا الأخير واجه القوة الصنهاجية بقيادة زيري بن مناد الذي تمكّن من تحقيق الانتصار عليه وقتله بملوية، لأن ابنه بلكين لم يسكت عن هذه الهزيمة التي لحقت بقوته فتوجّه بقوّته إلى مضارب مغراوة فأباد البعض ودفع بالآخرين إلى الهجرة خارج مضاربهم التي أصبحت تابعة للدولة الزيرية ومن بين مدنهم تلمسان التي استولى عليها سنة 370 هـ، فملكوا تلمسان ووهران وأرشكول.

ثم عادت من جديد إلى المغراويين حيث استولى عليها زيري بن عطية الذي أسس له إمارة واتخذ مدينة وجدة عاصمة لدولته واستمرت تلمسان تابعة للمغراويين إلى أن قامت دولة المرابطين فاستولى عليها يوسف بن تاشفين.

- تلمسان في عهد المرابطين[1]:

عندما وجد يوسف بن تاشفين صعوبات في الاستيلاء على أجادير شيد مدينة مجاورة لها وأطلق عليها اسم المعسكر أي تاجرارت وبنى مسجدها ثم عين عليها واليا من بين قادته العسكريين وهو محمد بن تنغير المسوفي نسبة

1- دائرة المعارف الاسلامية مادة زيان بنو ص 454 انظر أيضا بلغراد نفس المقال ص302 ابن عذاري البيان ج1 ص325.

- تاجرارت او تاقرارت كلمة بربرية مؤنثة معناها المعسكر الذي أقامه يوسف بن تاشفين ابن عذاري البيان ج ص29.

لقبيلة مسوفة الصنهاجية حليفة لمتونة التي ينتسب لها يوسف بن تاشفين وكان ذلك عام443.

ولما توفي هذا الوالي تولاها بعده إخوة تاشفين بن تينغمر وأصبحت ضمن أملاكهم إلى أن استولى عليها الجيش الموحدي بعد مقتل آخر أمـراء الدولـة المرابطية بضواحي وهران بعدها عاد عبد المؤمن الى تلمسان فاستولى عليها ثم قام بمجزرة بالمدينة لأنها رفضت الاستسلام للموحدين[1].

- تلمسـان في عهـد الموحـدين :

كانت تلمسان في عهد الدولة الموحدية تعتبر من بين المدن التي وجهت لهـا هذه الدول عناية كبيرة لأنها غير بعيدة عن مسقط رأس عبد المؤمن وهـي مـن بين المدن التي أخذ فيها العلم عن شيوخها قبل انضمامه الـى المهـدي ابن تومرت ببجاية والمساهمة معه في تأسيس الدولة الموحدية.

ولأهميتها جعل الموحدين ولاتها من بين أفراد الأسرة الحاكمة أي من أسرة عبد المؤمن بن علي.

من بين الذين تولوا الحكم بها أبو عمران موسى بن أمير المؤمنين يوسف وكان ذلك سنة550 وكان له الدور الأكبر في إعادة بنائها وتوسيعها فهـو الـذي بنى المشور واتخذ بها القصور والصروح وغرس الأشجار وأمـر الناس باختطاط الدور الرفيعة والتوسع في الرفاهية أدار عليها الأسوار العظيمة والخنادق العميقة التي بها الآن.

1- البكري المغرب ص 66.

يلاحظ على هذا النص أن تلمسان قبل هذه الفترة التاريخية كانت عبارة عــن مدينة ذات طابع عسكري أو أن الحروب التي تعرضت لها أثرت على عمرانها لذا أمر هذا الولي السكان بإعادة البناء لكن حسب ما يقترحه هو حتى تأخذ المدينة الطابع الحضري بكثرة القصور والدور الكبيرة.

وبما أن تلمسان تحيط بها مجموعة من القبائل بعضها مستقر والبعض الآخر رحل ، خشي والي تلمسان من تعرضها لغزو هؤلاء فأمر ببناء أسوار شاهقة تحميها من تلك الغارات.

وعندما تولاها أبو الحسن بن السيد أبي حفص، عمد هو الآخر إلى إعادة بناء أسوارها لأن فترة توليها تعرضت بلاد المغرب الأوسط لغزو بنو غانية.

- تلمســـان في عهـــد بني زيـــان:

بدأ يغمراسن بن زيان بعد توليه السلطة بإعادة بناء أســـواره بالارتبـــاط بالخلافة الموحدية بمراكش، ثم انفصل عنها أيام الرشـــيد عبـــد الواحـــد بـــن إدريس، الذي حاول أن يبقى يغمراسن تابعا لدولته فأرسل هدية للمحافظة على بقاء الخطبة للموحدين.

المشور والقصبة التي تقع بالجهة الجنوبية من المدينة لها شـــكل مـــستطيل يبلغ طوله490م وعضه280م وقد شيد في المكان الذي نصب فيه يوســـــف بن تاشفين خيمته في الوقت الذي حاصر فيه أغادير.

المشور يعتبر من أهم القصور التي أسست في عهد الدولة الزيانيـــة هـــو عبارة عن قلعة محصنة يقع في الجهة الجنوبية وكان المقر الرئيـــسي لإقامـــة

سلاطين الدولة هو عبارة عن شكل مستطيل له بابان[1].

ويبدو أنه هو الآخر تعرض إلى التهديم خلال الهجومات المرينية المتواصلة على المدينة مما دفع بسلاطين الدولة إلى تجديد أسواره[2] وقد تعرض له التنسي[3] فقال قام السلطان أبو العباس بإقامة احتفالات بداخله خلال سنة 1446/845 بمناسبة المولد النبوي الشريف مثلما كان عليه الحال في عهد السلطان أبو حمو موسى الثاني.

من بين الرحالة الذين تعرضوا لوصف المشور الحسن الوزان خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي فقال في شأنه: "يقع القصر المالكي جنوب المدينة وتحيط به أسوار غاية في الارتفاع على غرار القلاع وهو يحتوي على قصور أخرى حدائقها وكلها متقنة البناء جدا مع هندسة رائعة ولهذا القصر بابان الأول يفتح على البادية والثاني نحو المدينة حيث يقيم قائد الحرس".

يعتبر النص من أهم النصوص التي تناولت المشور بالوصف فقد حدد عمارته وتحصيناته كما أشار إلى وجود متنزهات بداخله تشتمل على حدائق

يبدو من النصوص التاريخية المعاصرة لدولة بني زيان أن سلاطينها لم يكتفوا بالمشور الذي ورثوه عن الدول التي سبقتهم بل شيدوا قصورا أخرى ربما كانت أجمل وأبدع منه. لكن الحروب التي عاشتها الدولة الزيانية منذ تأسيسها إلى سقوطها كانت سببا في خراب معظم قصورها.

1- الإدريسي وصف افريقية الشمالية والصحراوية نشر بيراس 1957 ص 87.
2- ابن خلدون العبر ج 7 ص 161.
3- التنسي المصدر السابق ص 336.

حيث كان اهتمام بني زيان بالقصور لا يقل أهمية عن جيرانهم الحفصيين والمرينيين وحتى بني ناصر في الأندلس.

وقد بدأ الاهتمام بالنشاط العمراني مع بداية قيام الدولة، فأول ملوكها السلطان يغمراسن بن زيان سعى إلى صبغ محيطه بشيء من مظاهر الأبهة وهو ما جعل يحي بن خلدون يقول عنه [أول من خلط زي البداوة بأبهة الملك.

أما عبد الرحمان بن خلدون فقال في شأن تلمسان [لم يزل عمرانها يتزايد وخطتها تتسع والصروخ بها بالأجر والقرميد تعل وتشاد إلى أن نزلها بنو زيان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم فاختطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والباستين وأجروا خلها المياه وأصبحت أعظم أمصار المغرب][1].

لكن العبدري يصفها بقوله: [بأنها بلد حلت به زمانة الأزمان واخلت بها حوادث الحدثان فلم تبق به غلالة ولاتبصر في ارجائه للظمآن بلالة وقد شهدت جمعا من الحجاج ينيفون عن الألف وردوها فوقفوا إلى مالكها فأعطاهم دينار واحدا][2] وأغرب من هذا [ما شهدته من منصور صاحب مليكش وهو أن جماعة من الحجاج نحو العشرين وقفوا إليه في محلته عند بيته فكلموه في عشائهم فرحب بهم واحتفل في السلام عليهم ثم أخذ ينادي يا أهل الدوار هؤلاء ضيفان الله من يحمل منهم إلى بيته وجعل يكرر ذلك كما يصنع

1- اعتمد على وصف المشور المؤرخون المحدثون الذين كتبوا عن الدولة الزيانية ومن بينهم الأب برجيس الذي لم يأت بجديد كل ماقاله كان اعتمادا على الحسن الوزان وصف افريقية ص391.

2- العبدري الرحلة ص 15 .

المداورون أهل المدر فلم يجبه أحد منهم ولى عنهم ووراءه جمع كثيف من الفرسان وهو سلطان تلك النواحي][1].

فالجزء الأول من النص نلاحظ أن زيارة العبدري لتلمسان تمت في فترة كانت الدولة الزيانية تعاني فيها من كثرة الأعداء المحيطين بها لذلك أن خزينة الدولة لم تكن بها أموال كثيرة لتوزيعها على هؤلاء الضيوف.

والجزء الثاني من النص المتعلقة بإمارة مليكش الصنهاجية بسهل متيجة التي كانت هي الأخرى تعاني من الحروب مع الدول التي تطمع في السيطرة على مضاربها وقبائل الناحية مثل الثعالبة الذين انتقلوا للمنطقة واستقروا بمضارب مليكش وأن وجود هذه القوة العسكرية يرجع بالدرجة الأولى لحماية ما تبقى لهم من المضارب.

عكس عصر ابن خلدون الذي يصادف حكم أبو حمو موسى الثاني حيث وصلت الدولة إلى مرحلة كبيرة من التحضر، فهذه الحركة العمرانية والبستنة والمساحات الخضراء تدل على التطور الحضاري ورقي الحياة الاجتماعية والذوق الفني الرفيع الذي تميز به سلاطين الدولة الأوائل.

فقد نشطت الحركة العمرانية في عهد السلطان أبو حمو موسى الأول الذي لم يكتف بالمشور بل أنشأ قصرا سمّاه الدار البيضاء وهو ما يؤيده ابن خلدون الذي أشار إلى ولوع أبي حمو موسى الأول بالعمران.

1- لم يحدد لنا العبدري ما كان إمارة مليكش أو مضارب هذه القبيلة لكن يبدوا لي أنها سهل متيجة

يذكر المؤرخين أيضا أنه شيد قصرا في مضارب مغراوة عندما هاجمها في المكان الذي يعرف اليوم ببلدية عمي موسى[1] التابعة لولاية غليــزان وهــو تحريف لقصر أبي حمو موسى ولم يتوقف عن بناء القصور فقط بــل اهتم بتشييد الحصون ومن أهمها حصن أزفون شرق الجزائر العاصمة الــذي هدم من قبل الحفصيين.

لم يكن هو الوحيد الذي اهتم بالعمران بل نجد ابنه وخليفته أبو تاشفين الأول اهتم هو الآخر ببناء الدور والقصور وتشييد الحدائق واغتراس المنتزهات مستظهرا على ذلك بألاف الأسرى الروم بين نجارين وزواقين وزلاجين][2].

وأما ابن الخطيب فيقول عنه: [مشيد القصور ومحسن الغروس ومتبني الترف إلى اتمام مدته ومن مدة اخيه بعده ومن قصوره دار الملك ودار السرور وأبي فهر].

كما عمد هو الآخر إلى بناء الحصون منها حصن بكر الذي شيد بالقرب من مدينة بجاية وحصن الياقوتة في أعلى الوادي المؤدي الى مدينة بجاية.

ولعل من أبرز الحصون التي أقامها تامزيزدكت التي شيدت في الموقع المعروف اليوم بسوق الخميس بالقرب من مدينة القصر لكنها خربت مــن طرف الحفصيين بمساعدة بني مرين.

1- مدينة عمي موسى إحدى دوائر ولاية غليزان حاليا.

2- يحي بن خلدون بغية الرواد ج1 ص 215 ؛ عبد الرحمان بن خلدون العبر ج 7 ص 163.

من بين المرافق التي عرفتها تلمسان، الحمامات لعل من أهمها حمام الصباغين الموجود بالحي الشمالي الغربي للمدينة. شيد خلال عهد الدولة المرابطية، فهو من بين آثار مدينة تاجرارت يعرف أيضا بحمام سيدي أبوالحسن الغماري.

وقد أشار الرحالة العبدري إلى وجود حمامات أخرى فقال [فقال بهـــا حمامات نظيفة أشهرها حمام العالية قل أن يرى له نظير] وهو الحمام الـــذي ورد ذكره في مستندات الأوقاف التي اصدرها أبو حمّو موسى الثاني وقد حدد النص مكانه فقال عنه أنه بالقرب من باب الحديد أو الجديد كما ورد اسم حمام آخر في الوثائق المتعلقة بالأوقاف والعائدة للمدرسة اليعقوبية عرف بحمام الطبول.

وهناك مرافق أخرى تناولتها تلك الوثيقة منها [إن هذا السلطان حبس على الزاوية المقامة على ضريح والده بداخل تلمسان المحروسة الطاحونة الملحقة بالزاوية والثلاثون حانوتا المعروفة بالصاغة القديمة والكوشة التي بمنشر الجلد وحمام الطبول][1].

لكن الحسن الوزان لاحظ قلة المياه في حمامات تلمـــسان بمقارنتهـــا مـــع حمامات فاس[2].

كذلك المدينة كانت تحيط بها أراض زراعية خصبة تتميز بكثرة الانتاج وأن أراضي ذلك السهل ملك للعائلات التي كانت بداخل تلمسان أو خارجها وبعض المؤسسات الدينية المتمثلة في المساجد المدارس التعليمية.

1- العبدري الرحلة 15.

2- ابن الخطيب اللمحة البدرية ص 216.

علق ابن خلدون على تلك الأراضي فقال تطل منها على فحص اقيح معد للفلح تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسئمه المهاري وتبقر عن بطونه عند تدميث الغمائم بطون العماري[1].

لعب بني زيان دور مشرفا في توسيع المدينة خلال حكمهم الذي دام أكثر من ثلاثة مائة سنة فازداد توسع المدينة وهو ما يعلق عليه ابن خلدون فيقول: " بها للملك قصورا زاهرا اشتملن على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه وتنوسيت اطواله وعروضه فازرى بالخوارنق وخجل الصافة وعبث بالدير"[2].

دعمت أسوار المشور في العهد العثماني بأبراج مربعة وأخرى دائرية واجريت عليه عدة اصلاحات تتماشى وتطور الأسلحة حيث استقبل المشور مجموعة من المدافع.

فتحت بالمشور باب بالقرب من الزاوية الجنوبية وتدعى باب الفروسية وبالجهة الغربية باب الحديد بجوار الباب نجد مطابخ الحراس، وبين المسافات التي تقدر مابين20 و50 مترا نجد سلما يتوجه إلى أبراج المراقبة وخاصة الجهة الشمالية حيث يوجد البرج الأكبر لأنه يتحكم في جميع تحصينات المشور.

ونظرا لحالة الصراع التي شهدتها تلمسان طوال التاريخ الزياني، كانت المدينة محاطة بسياج من التحصينات يعود بعضها للزيانيين والبعض للمرينيين.

1- الحسن الوزان المصدر السابق ص 391.أبو فضل الله العماري المصدر السابق ص 230.
2- ابن الخطيب المصدر السابق ص 217.

إن ما ذكره ابن خلدون تؤكده كتب الرحالة الذين زاروا تلمسان ومن هؤلاء الرحالة العبدري بأنّ سورها من أوثق الأسوار وأصحابها، وبها حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها حمام العالية وهو مشهور قلّ أن يرى له نظير.

وهذه المدينة بالجملة ذات منظر ومخبر وأقطار متسعة، مبانيها مرتفعة ولكنها مساكن بلا ساكن ومنازل بغير نازل ومعاهد افتقرت من متعاهد تبكي عليها فتسكب الغمام.

تعرض الحسن الوزان إلى مساكنها وأشار بأنها منازل جيدة مغطاة بالقرميد ومن أهم الملوك الذين يعود لهم الفضل في حركاتها العمرانية أبو تاشقين الأول الذي شيد بها مجموعة من القصور والمسابح واهمها الحوض الكبير لأن تلمسان كانت مزودة بشبكة من القنوات المائية بعضها يرجع إلى العهد الروماني وهي الساقية النصرانية وهو ما يؤكده أيضا ابن خلدون بقوله، وتنصب إليها من أعالي الحبل أنهار من الماء غير أسن تتجاذبه أيدي المنائب والأسراب المكفورة خلالها ثم ترسله بالمساجد المدارس والسقايات في القصور وعلية الدور والحمامات أفعم الصهريج وبقهقة الحياض ويسقي ريغه خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب.

يلاحظ على النص أن المياه التي كانت تزود مدينة تلمسان بعضها كان يأتيها من الجبال المحيطة بها، وبهذه الجبال تتجمع المياه في فصل الامطار وسقوط الثلج وفي فصل الصيف تخرج المياه المتجمعة فتوفر الماء لأهل المدينة لأنها تحتوي على مجموعة من العيون لازال بعضها لحد الان على الرغم من تغيير المناخ وقد أشار إلى ذلك ابن مرزوق في نازلة أطلق عليها

الخليج أشار فيها أن المياه التي كانت تزود تلمسان خلال عصره لم تجد عنايـــة من قبل السكان فعند خروجها تسببت في إسقاط بعض جدران المديـــنة وقــد طرح من يقوم بإصلاح هذه الجدران هل الذين يسكنون إلى جانب الأسوار المهدمة أو الذين يستفيدون من تلك المياه أثناء خروجها فيسقون منها بساتينهم وهو ما يؤكد لنا رواية ابن خلدون التي تشير إلى استفادة البساتين مــن تلك المياه.

كما يلاحظ أيضا على نص ابن خلدون أن هناك مياه مدفونة تحــت الأرض في قنوات كانت تتزود منها المدينة وبعض تلك القــنوات تأتــي مــن الوريط وتصب في العباد.

كما لاحظ العقباني وجود عيون بأزقة المدينة كان يتوافد عليها السكـــان الذين لم يكن لديهم الماء بمنازلهم وبعض هؤلاء المتوافدين من العبيد ممـــا كـــان يؤدي إلى انحلال خلقي بين هؤلاء والجواري.

كانت تلمسان كغيرها من مدن المغرب الاسلامي تحتوي على متنزهات بخارج المدينة وهو ما يؤكده يحي ابن خلدون بقوله] وتخف بخارجها الخمائل الإلف والادواح الا شبة والحدائق الغلبة بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعـــيـــن مـــن الفواكه والرمان والتين والزيتون إلى المتنزهات الرائعة والملاعـــب الحاليـــة والمعاهد الكريمة.

من بين الذين تعرضوا إلى الزراعة في محيط تلمسان العبدري26 حيــث قال عنها: [والدائر بالبلد كله بالكروم وأنواع الثمار وهو ما يؤكده ابن خلدون الذي تعرض إلى المناطق المحيطة بمدينة تلمسان التي تميزت بعمرانهاوالتـــي

الخليج أشار فيها أن المياه التي كانت تزود تلمسان خلال عصره لم تجد عنايـــة من قبل السكان فعند خروجها تسببت في إسقاط بعض جدران المديـــنة وقـــد طرح من يقوم بإصلاح هذه الجدران هل الذين يسكنون إلى جانب الأسوار المهدمة أو الذين يستفيدون من تلك المياه أثناء خروجها فيسقون منها بساتينهم وهو ما يؤكد لنا رواية ابن خلدون التي تشير إلى استفادة البساتين مـــن تلك المياه.

كما يلاحظ أيضا على نص ابن خلدون أن هناك مياه مدفونة تحـــت الأرض في قنوات كانت تتزود منها المدينة وبعض تلك القـــنوات تأتـــي مـــن الوريط وتصب في العباد.

كما لاحظ العقباني وجود عيون بأزقة المدينة كان يتوافد عليها السكـــان الذين لم يكن لديهم الماء بمنازلهم وبعض هؤلاء المتوافدين من العبيد ممـــا كـــان يؤدي إلى انحلال خلقي بين هؤلاء والجواري.

كانت تلمسان كغيرها من مدن المغرب الاسلامي تحتوي على متنزهات بخارج المدينة وهو ما يؤكده يحي ابن خلدون بقوله] وتخف بخارجها الخمائل الإلف والادواح الا شبة والحدائق الغلبة بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعـــيـــن مـــن الفواكه والرمان والتين والزيتون إلى المتنزهات الرائعة والملاعـــب الحاليـــة والمعاهد الكريمة.

من بين الذين تعرضوا إلى الزراعة في محيط تلمسان العبدري26 حيـــث قال عنها: [والدائر بالبلد كله بالكروم وأنواع الثمار وهو ما يؤكده ابن خلدون الذي تعرض إلى المناطق المحيطة بمدينة تلمسان التي تميزت بعمرانهاوالتـــي

تبدو لنا أنها ترجع للعصور الغابرة، حيث تم تعميرها واستغلال أراضيها،وفي هذا الصدد يقول توسطت قطر داكور عديدة تعمرها أمشاج من البربر مربعة الجنبات منجبة للحيوان والنبات كريمة الفلح زاكية الإصابة ربما انتهت في الزوج الواحد إلى أربعمائة بالمد الكبير وهو ستون برشالة زنتها أربعة عشر رطلا من البر سوى الشعير والبقلاء حسبما تضمن ذلك رسم ثمان وخمسين وسبعمائة[1].

- ضعف سكان مدن الدولة:

عرفت مدن الدولة الزيانية خلال هذه الفترة موضوع البحث تقلص سكانها، فتلمسان كانت قبل هذه الفترة تعتبر من أكبر أمصار المغرب الأوسط بعد أن اتخذها بنو عبد الوادي عاصمة لدولتهم فنفقت بها أسواق العلوم والبضائع ونشأ بها العلماء واشتهر بها الأعلام فظهرت أمصار الدول الإسلامية وعلى الخصوص في عصرها الذهبي خلال حكم السلطان أبي تاشفين الأول حيث بلغ نحو مائة ألف ساكن أي ما يعادل عشرين ألف عائلة.

فإذا كانت تلمسان لا تقل أهمية عن سائر العواصم الإسلامية، كما يفهم من النص الذي أورده ابن خلدون، وإذا كان متوسط كل عائلة يتراوح مابين خمسة أو سبعة أفراد كما عرف عن الزيانيين من حب النسل والإكثار في الإنجاب، فإن سكانها قليلي العدد، وخصوصا إذ اقتربت بعدد سكان قرطبة والذي بلغ نصف مليون نسمة هذا و إن تلمسان استوعبت خلال القرن 9هـ/15م وطوال النصف الأول من القرن 10هـ/16م أعدادا هائلة ممن نزحوا من

1- عن عصر أبي تاشفين الأول الذي حكم مابين 718-737هـ، 1318 - 1337م، انظر نظم الدر و العقبان، ص 139، يحي بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 134.

الأندلس الذين استقر بعضهم بداخل المدينة بين الأغلبية أقاموا علـــى ضـــفاف نهر الوريط حتى الصفيصف كما أن ملوك بني زيان ســـهروا علـــى دمجهـــم وصهرهم في مناحي الحياة الإجماعية[1].

وليس معنى ذلك أن عدد سكان الحاضرة الزيانية قد تزايدوا بعامل النزوح الأندلسي مع مر الأيام لكن هذا لم يكف لسد الفراغ الذي عرفه نمو السكان فـــي هذه الفترة نتيجة لما يلي:

أولا: إن أراضي الدولة الزيانية ومنها مدنها عرفت أمراضا معدية كمرض الطاعون[2] الذي كانت تتعرض له باستمرار وقد أشار الرصاغ الذي كان مـــن سكان تلمسان عند تعرضه انشاقة فقال: "إنه كان يقرأ القرآن في درب نفوســـه فأصاب المدينة المرض فأدى إلى هلاك أغلب أطفال الكتاب الذي كان يقـــرأ به وحتى معلمهم"[3].

كما تذكر المصادر أيضا أن تلمسان عرفت في منتصف القرن9هـ/15م مرض الطاعون فأدى إلى هلاك مجموعة من الناس ومن بين هؤلاء العالم الجليل ابن زاغو التلمساني وفي نهاية القرن9هـ/15م[4] تعرض تلمسان لنفس المرض ومات من جرائه العالم الجليل ابن زكري[5] كما ذكرت الوثائق

1- عن الهجرة الأندلسية إلى تلمسان انظر السليماني، كتاب الشماريخ، ج3، ورقة 120.

2- الصباغ، زهر البستان، ورقة 17.

3- الرصاغ، فهرسة الرصاغ، ص 17.

4- ابن مريم: البستان ص 41.

5- ابن مريم: نفس المصدر، ص 41.

الإسبانية بأنه قبل السيطرة على المرسى الكبير من قبل الإسبان ظهـر ذلـك المرض في فاس وامتدّ إلى أراضي الدولة الزيانية ومنها مدينة تلمسان.

ثانيا: الحروب المتواصلة التي عرفتها تلمسان نتيجة الصراع بين أفـراد الأسرة من أجل العرش قد أدت بدورها إلى هلاك مجموعة من سكان المدينـة لأن بعضهم كانوا مؤيّدين والبعض كانوا من المعارضين، فيحدث الانتقام مما يؤدي إلى هلاكهم ومصادرة أموالهم.

كما أن الصراع بين العثمانيين والإسبان وأمراء الدولة الزيانيـة قـد أدى هـو الآخر إلى هلاك مجموعة من سكان المدينة، والوثائق الإسـبانية تـذكر بعض الأمراء وبعض أعيان مجمع تلمسان والأمراء الذين تولوا قيادة الجيش[1].

ثالثا: إن المصادر تتعرض إلى هجرة بعض أعيانها وعلـى الخـصوص علمائها[2] مما أحدث فراغا. لكن من جهة أخرى يبدو أن هنـاك هجـرة مـن الريف نحو المدن لأن الفوضى التي كان يتخبط فيها الريف الزيـاني جعلـت السكان يفضلون الإقامة بمدن الدولة حتى لا يتعرضوا للـسلب والنهـب مـن شيوخ القبائل واللصوص الذين احترفوا مهنـة اللـصوصية للاعتـداء علـى أمـوال الناس.

وبذلك يكون عدد سكان تلمسان يتناقص ويتزايد أحيانا بقوى وهذا راجع لعدم الاستقرار فأصبحت حاضرة الدولة تعيش جوا من التروح إليها من جهة والهجرة منها إلى حيث الإمارات الانفصالية من جهة أخرى، في فترات

1- G.A le Gaja. F39

2- عن هجرة هؤلاء العلماء انظر ابن مريم: البستان، ص52، 53، 105،107،149، 155، 162، 224، 226.

متقاطعة فيما بين1500و1554 تبعا للظروف المتجددة بها ومـــا تبــقى مـــن مملكتها.

ويفيدنا الرحالة الحسن الوزان[1] بما شاهده بعاصمة بني زيان التي مكث فيها عدة أشهر فقال عنها مدينة كبيرة وهي عاصمة المملكة، وقال أنها مدينة صغيرة توسعت على إثر تهديم أرشقول[2] بعد أن جابت جيوش المنصور الأموي عن البلاد وعلى عهد بني زيان ازدادت لدرجة أنها وصلت إلى ستـــة عشر ألف منزل على عهد السلطان أبي تاشفين وبلغت في الحقيقة درجة مـــن الازدهار جدا ثم استطرد قائلا:

وعندما ضعف حكم بني مرين شهدت تلمسان تغيرا سكانيا وصل عدد منازلها إلى ثلاثة عشر ألف بيتا لأن المدينة كانت قد عانت الشيء الكثير نتيجة للحروب التي قام بها المرينيون ضد تلمسان وعلى الخصوص في عهد أبي الحسن المريني[3] الذي هدم قصور بني زيان التي توجد بخارج الأسوار[4].

ويوجد بها حي يهودي كبير يحوي حوالي خمسمائة منزل ليهود أثرياء كلهم تقريبا يضعون على رؤوسهم عمامة صفراء، لكن هذا الحي تعرض

1- الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج2، ص23.

2- أرشقول: من أهم الموانيء خلال القرن الرابع الهجري،10م اشتد التنافس عليها بين الأمويين والفاطميين، عنها انظر البكري المغرب، ص67.

3- هو السلطان أبو الحسن المريني حكم ما بين731-749هـ،1331-1348م وعن هذه الأحداث، انظر يحي ابن خلدون، بغية الرواد،ج1، ص160، عبد الرحمن بن خلدون، العبر،ج7، ص777. التنسي، الدر والعقيان، ص 145.

4- حدث ذلك عند نزوله بتلمسان يوم11 شوال735هـ، جوان1335. انظر نظم الدر والعقيان، ص145.

للنهب والسلب في عهد السلطان مولاي محمد[1].

- ثانيـــا: وهـــران:

هذا فيما يتعلق بتلمسان عاصمة الدولة الزيانية أما مدينة وهران قبل1509 التي تعتبر المدينة الثانية بعد تلمسان تأثرت هي الأخرى نتيجة للأوضاع التي عرفتها الدولة الزيانية، فقبل الاحتلال الاسبان لها زاد عدد سكانها بفضل المهاجرين الأندلسيين[2] الذين توافدوا عليها من مدن الدولة الناصرية كغرناطة ومالقة بعد سقوطهما في يد الأسبان سنة 898هـ/1492م وكون بالمدينة أسطول حربي استعمل في مهاجمة المدن الإسانية وتحرير مجموعة من المهاجرين الأندلسيين قبل وصول الأخوين عروج وخير الدين، واعتبر الأسبان أن من بين دوافع الاحتلال القضاء على هؤلاء القراصنة في رأيهم الذين أفسدوا مجموعة من القرى القريبة من البحر المتوسط وقد كتب سكانها مجموعة من الرسائل للسلطة الإسبانية ورجال الكنيسة لإنقاذهم من هذه الإغارة على السفن القادمة من وهران والمرسى الكبير وبجاية، كما وجد بالمدينة مجموعة من الأسرى المسيحيين أخذوا في هذه الحروب كان بعضهم يعمل بالسفن مجدفين والبعض الآخر بالبساتين المحيطة بوهران.

وهناك مجموعة من أفراد الجالية اليهودية[3] كانوا يحتكرون النشاط التجاري بها ويشرفون على أخذ الضريبة الجمركية من مينائها لصالح الدولة الزيانية.

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص25.

2- عن تواجد الأندلسيين بمدينة وهران قبل احتلال الإسبان لها انظر أبو راس عجائب الأسفار، ورقة 136انظرأيضا: Berbrugger,(A) Oran sous les espagnols, traduction de rapports officiels espagnols sur la prise de mers el kebir en 1505 R.A. 113, 1869, PP 100-115

3- عن هؤلاء اليهود انظر المرحلة القصرية ورقة 30.

لكن هذه المدينة فقدت سكانها بعد احتلالها من قبل الأسبان، حيث قتل بداخلها أربعة آلاف وأسر من أبنائها خمسة آلاف تحولوا إلى عبيد بيعــوا فـــي الأسواق الإسبانية وعلى الخصوص مالقا وقرطاجنة حيث توجد بهما وثائق تتعلق بهؤلاء الأسرى الذين أخذوا من وهران والذين نقلوا فيما بعــد نتيجة للغارة التي كانت تشن من طرف الحامية الإسبانية في كل من وهـــران والمرسى الكبير.

- ثالثـــا: المرســـى الكبيـــر[1].

أما المرسى الكبير فتعرض هو الآخر إلى نفس المصير الذي أصاب وهران، فتخلى عنها سكانها بعد اتفاق تم بين قائدها والمحتلين الأسبان وتوزعوا على المدن الزيانية والبعض منهم فضل الإقامة في الجبال المجاورة للمدينة.

ومن بين المدن التي استقبلت المهاجرين من المرسى الكبير ووهران ومزغران ومستغانم قلعة بني راشد لكن هذه المدن كانت هي الأخرى تعاني من الحروب المتواصلة فقد تم تهديم مدينتان تعتبران من أهم المدن.

البطحاء[2] القريبة من عين تيموشنت التي تأثرت بالحروب التي عرفتها الناحية قبل الاحتلال الإسباني لوهران وبعده ولا يوجد الآن أي أثر للمدينة.

1- عن احتلال وهران انظر أبو راس، عجائب الأسفار، ورقة 40، الرحلة القمرية، ورقة39، انظر أيضا1 er le cajo المؤرخة في شهر ماي1510 توجد بسيمنكاس don pedro navaro رسالة بيدر ونافارو Collection de decumentos inedites para la historia de Espana T XXXVI, PP 561-565 نشر ضمن الوثائق F117.

2- عن البطحاء و الكرط، انظر المشرقي، الياقوتة الوهاجة، ورقة 59-60.

ونفس الشيء بالنسبة للكرط التي هدمت من الأسبان و انسحب سكانها إلى الجبال المجاورة لها وحدث نفس الشيء بالنسبة لقلعة بني راشد التي هدمت أغلب مرافقها ودورها بعد القضاء على الحامية التركية بها منه، كما عمد الإسبان إلى تهديم مدينة هنين التي تعتبر من أهم موانيء الدولة الزيانية ومساكنها من أجمل مساكن مدن الدولة، لكن عند خروج الأسبان منها عمدوا إلى تحطيم كل ما فيها حتى لا يستفيد منها سكانها الذين كانوا قد خرجوا منها قبل الإحتلال الإسباني لها سنة 938هـ،1531م[1].

وهكذا نجد بأن الأسبان هدموا مدن الدولة الزيانية، كما فعل شيوخ القبائل العربية الذين كانوا يقومون بمضايقة سكانها مما جعل أهلها يرتحلون عنها ومن بين تلك المدن مستغانم، التي قال عنها الحسن الوزان أنها فقدت جزءا من سكانها نتيجة لمضايقة العرب لها، لكن يبدو لي أنها استعادت ما فقدته بعد تحصين العثمانيين لها وفشل الإسبان مرارا في السيطرة عليها.

ومن بين المدن التي تأثرت بهذه الحروب مزغران[2] التي واجهت مرارا الغارات الإسبانية، وهدم هؤلاء بعض مرافقها في خلال الحملة التي مات بها الكوديتي عمد إلى قلع أحد أبوابها وضع منها منجنيق لقذف تحصينات مستغانم.

وما حدث لمستغانم عرفته مازونة التي أساءت إليها القبائل العربية فأثروا على أحوال السكان بها وهو ما جعل الوزان يقول إن بها نساجين لايستطيعون تقديم رواتب عملهم لكثرة مضايقة العرب لهم.

1- عن تهديم هنين انظر الفصل الثالث من الباب الأول

2- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص237.

- ثانيا: المدن الثانوية:

من بين المناطق التي تضررت نتيجة الحروب التي عرفتها أراضي الدولة: منطقة أغبال[1] التي عرفت بكثرة سكانها قبل القرن9هـ/16 لكن انتقال القبائل العربية إلى الناحية وعلى الخصوص أشراف مليانة دفع بالسكان القدماء إلى تركها.

يضاف إلى ذلك أن المدينة كانت قد تعرضت إلى التخريب خلال الصراع الذي عرفته الدولة الزيانية وعلى الخصوص مع الدولة المرينية حيث عمد أبو الحسن المريني إلى تخريبها خلال حملته على أراضي الدولة الزيانية 737هـ/1336م ولم يعمد ملوك بني زيان إلى إعادة بنائها وهو ما جعل مرمول يعلق على ذلك بقوله: تخريب المدينة على يد ملك من فاس ولم تعمر بعد ذلك ولا تزال جدرانها قائمة في عصره ق10هـ/16م.

وما يقال عن مدينة أغبال ينطبق أيضا على مدينة البطحاء التي كانت تعتبر من أبرز المدن الواقعة على ضفاف وادي مينا لكننا لانعرف متى وقع تخريبها ويبدو أن ذلك تم خلال القرن9هـ/15 نتيجة الحروب التي عرفتها الناحية في عهد أمراء الدولة المتأخرين.

وهو ماجعل مرمول[2] يعلق عليها بقوله: "خربها الزناتيون من قبيلة مغراوة ولم تعمر بعد ذلك".

1- جبل أغبال بالقرب من وهران يتشكل من ثلاث قرى معمورة، انظر مرمول، المصدر السابق،ج2، ص352-353.

2- يحدد مرمول موقعها فيقول تقع على ضفاف نهر مينا هو نهر وادي بسا وبذلك فهي لاتبعد كثيرا عن مينا وبعض سكان غليزان يعتقدون أن المطمر القريب من غليزان شيد على أنقاضها،عنها انظر مرمول، المصدر السابق،ج2،ص326.

لأن من خصائص البدو الخروج على الطاعة وتحدي الدولة وشتى الغارات ونشر الفوضى مما جعل مدن بني زيان تتعرض لضرباتهم ومن بين تلك المدن مازونة، غليزان حاليا، هذه المدينة تعرضت إلى التخريب من قبل القبائل العربية التي استقرت بجوارها وقد تعرض لذلك المازوني من خلال مجموعة من النوازل تناول فيها ضغط هذه القبائل على سكانها مما جعلهم يعجزون حتى في إعادة بناء سورها الذي تهدم نتيجة لغارات القبائل عليها وقــد علق عليها الوزان فقال[1]: سكانها فقراء تقريبا لأن العرب يثقلون كواهلهم بالأقوات.

وإن أخطر القبائل البدوية التي امتد نفوذها خلال القرن8هـــ/14م نحو المناطق الساحلية بأراضي الدولة الزيانية جعل السكان يتخلون عن الأراضي الصالحة للزراعة ويستقرون بالمرتفعات الجبلية للدفاع عن أنفسهم.

فسكان بني يزناسن استقروا بالمرتفعات بين مغنية و وجدة وقد لاحظ مرمول كثافة سكان تلك الجبال وفي هذا الصدد قال يضم الجبل مداشر عديدة وفي أعلى الجبل قلعة حصينة يقيم فيها أمراء البلاد[2].

أما تسالة القريبة من مدينة سيدي بلعباس فكانت عبارة عن مدينة محصنة تعرضت إلى التخريب خلال الحروب بين الدولة الزيانية والدولة المرينية ولم تعمر منذ737هـــ/1337م مما أدى بسكانها إلى اتخاذ الخيام مسكنا لهم مما سهل لهم مهمة الحركة عندما يتعرضون إلى أخطار خارجية وبذلك تحولوا

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص27-28.

2- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 350-352.

مــن مستقرين إلى قبائل بدوية رحالة[1].

واستمر الخطر المحدق بهم خلال فترة موضوع البحث لأنه على الرغم من وجود حصن بالقرب من القرية المخربة فإن السكان لم يستقروا به خوفا من الغارات الإسبانية التي كانت تمتد من وهران والمرسى الكبير إلى ضواحي سيدي بلعباس وهو ما جعل مرمول يعلق على ذلك بقوله "المسلمون لايجرؤون على سكن هذا الحصن خوفا من المسيحيين".

يضاف إلى تسالة مدينة مستغانم[2] التي هجرها سكانها خوفا من غارات القبائل العربية من جهة والأسبان من جهة أخرى وهو ما دفع الوزان إلى التعليق على ذلك بقوله "في خارجها عدة بساتين جميلة لكنها مهجورة".

امتدت عملية التخريب إلى مدينة شرشال[3] التي كانت في يوم من الأيام عاصمة للدولة الجزائرية، إلا أنها تعرضت للتخريب نتيجة الحروب التي عرفتها الناحية خلال عهد الدولة الزيانية، لكن أعيد بناؤها من طرف المهاجرين الأندلسيين الذين انتقلوا إليها بعد سقوط غرناطة، فعمروا قلعتها وزرعوا الأراضي المجاروة لها وبذلك أعادوا إليها الحياة[4].

يضاف إلى شرشال حصن تمزيزدكت[5] الذي كان يعتبر من أحصن حصون الدولة، فقد لجأ إليه يغمراسن عندما داهمته الجيوش الحفصية بقيادة سلطانها

1- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص25، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص325.
2- الحسن الوزان: نفس المصدر، ج2، ص32، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 350.
3- نفسه ج2، ص34، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص366.
4- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص34.
5- نفسه ج2، ص11.

أبو زكرياء 639هـ/1240م، لكن خلال القرن10هـ/ 16م تعرض الحصن إلى التخريب نتيجة لانتقال القبائل البدوية إلى تلك النواحي، فدفعوا السكان إلـى التخلي عنه وأصبح العرب يخزنون حبوبهم به خلال قيامهم بالرحلة إلـى الواحات الصحراوية وعلى الخصوص إقليم توات ووادي الساورة.

وللأهمية الإستراتيجية للحصن عمد الأتراك إلى إعادة تحصينه لأنه يشرف على الطريق المتجه نحو المغرب الأقصى، ولعل ذلك تم بعد ضم تلمسان إلـى الدولة الجزائرية الحديثة في عهد عروج. وما يقال عنه يقال أيضا على حصن أيسلى[1] الذي كان يعتبر من أهم الحصون إلا أنه تعرض للتخريب خلال الحروب التي دارت رحاها بين الدولة الزيانية وأعدائها. ومن بين المدن التـي تعرضت إلى التخريب ندرومة[2] التي تعرضت إلى الحروب الطاحنة منـذ تأسيس الدولة حتى سقوطها. وبالقرب منها تبحيرت[3] التي لا تبعد كثيرا عن الشاطئ لذلك تعرضت لعملية القرصنة وكانت أول المدن الزيانية التـي تعرضت لعملية القرصنة من قبل الأسبان، وقد زاد خوف السكان من سقوطها بعد احتلال مدينة هنين1531 من قبل الأسبان مما دفع مرمول[4] إلى القول "يقطن هذه الجبال برابرة كانوا يعيشون في خوف دائم عندما احتل الأسبان هنين لكنهم أصبحوا أكثر راحة بعد أن غادروها، وفي أسوار المدينة سلم كبير في شتى المواضع لذلك لا يرغب الناس كثيرا في الإقامة بها.

1- نفسه ج2، ص12، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 293.
2- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص13، مرمول، نفس المصدر، ج2، ص295.
3- عن تبحريت انظر الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص14.
4- مرمول: المصدر السابق، ج2، ص269-352.

ومن المدن التي تأثرت خلال هذه الفترة موضوع البحث مدينة هنين[1] التي تركها سكانها بعد احتلال وهران ولم يبق بالمدينة إلا الحامية الزيانية.

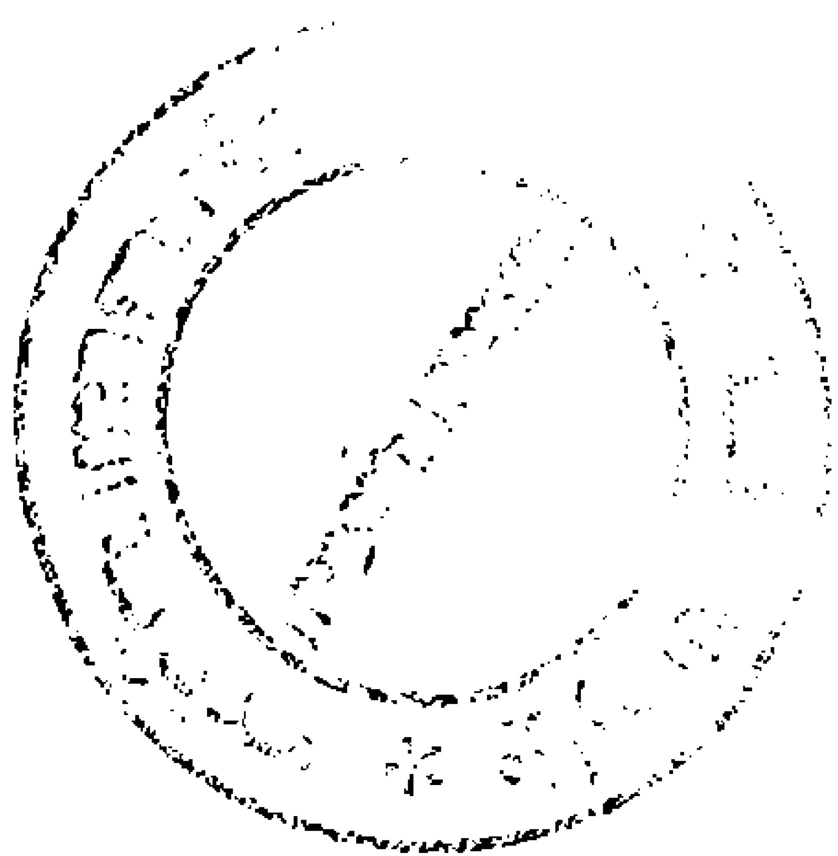
وقد علق عليها الوزان بقوله مررت من هناك فتألمت كثيرا للحالة البائسة التي صارت إليها المدينة وحتى الفواكه التي كانت ببساتينها تسقط في الأرض ولا تجد من يقطفها[2].

ومن بين المدن التي تعرضت إلى التأثيرات السلبية خلال هذه الفترة مدينة مزغران[3] والسبب في ذلك يرجع إلى عاملين أساسيين:

أولا: غارات القبائل العربية عليها بعد تقدمهم إلى نواحيها فأصبحوا يهاجمونها وكذلك الإحتلال الإسباني لكل من وهران والمرسى الكبير. وقد مال سكانها إلى الوفاق مع النصارى لكي يسمح لهم بمزاولة المبادلات التجارية مع وهران وفي هذا الصدد يقول مرمول كانت في الماضي عامرة بالتجارة والصناع المياسير، ثم أصبح سكانها فقراء بعد سقوط مدينة وهران بيد النصارى وتوالي الغارات من العرب المجاورين بها.

ولذلك مال أهلها إلى الوفاق مع النصارى حيث كانوا يقدمون رموز العرفان في صورة جزية وليمكن عائلتهم التوجه إلى أسواق وهران.

وما يقال على مزغران ينطبق أيضا على جبال ترارة[4] بين هنين وندرومة حيث كانت تتعرض إلى غارات من الأسبان مما أدى بهم إلـــى التحـ



1- نفسه ج2، ص 296.
2- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 25.
3- نفسه، ج2، ص32، مرمول، المصدر السابق، ج2، ص 349.
4- مرمول: المصدر السابق، ج2، ص352.

فـــي الأبراج والحصون لأن هؤلاء كانوا يقصدون الشواطئ القريبة من تلك الجبال فيكمنون وراء الصخور وعندما يقترب السكان منهم ينقضون عليهم فـــي الليل في مداشرهم مما دفع السكان إلى القيام بالحراسة ليلا.

- ثانيـــا: الأريـــاف

من أهم مميزات فترة موضوع البحث والمتعلقة بالريف الزياني سواء فـــي شمال تلمسان أو جنوبها شرقها وغربها، الخروج على السلطة، انتشار اللصوصية، شن الغارات والاعتداءات على أموال الناس، التعرض للقوافل التجارية زيادة على الإحتلال الإسباني الذي يأتي على رأس هذه المشكلات بحيث احتل الأسبان المراكز الساحلية ومحاولاته المتكررة في التوسع نحـــو الداخل مما يؤدي إلى قتل وأسر تلك القبائل[1].

يضاف إلى ذلك استغلال شيوخ القبائل لأهل الريف وكذلك موظفي الدولة وأغلبهم من رؤساء القبائل المواليين الدولة[2].

- أثر الغزو الإسبـــاني على الريف الزيـــاني:

فيما يتعلق بالغزو الإسباني، كانت المنطقة الممتدة ما بين تلمسان ومستغانم وحتى نواحي هنين وندرومة بعد سيطرة الأسبان على منطقة تاوانت وهنين تعاني من تلك الغارات التي لا تتوقف ليلا ونهارا من قبل الإسبان أو القبائل الموالية لهم، وفي هذا الصدد يقول السليماني فيما يتعلق بالغارة على الأبعدين فكان يهاجم إبلهم ودورهم ويدوس عامرهم ومعمورهم مثل الحشم وبني راشد

1- عن تأثير الإحتلال الإسباني على أرياف الدولة الزيانية وعلى الخصوص النواحي القريبة من وهران انظر المشرفي: الياقوتة، الوهاجة، مخطوط بالخزانة العامة، بالرباط تحت رقم 2163، ورقة 46.

2- المازوني: الدرر المكنونة، ج1، ورقة 786.

ونحوهم من بعد وطنه تارة يؤدون الأتاوة وأخرى يظهرون العداوة، فهم من الأسبان من فطرة واستقامة وتشديد الإقامة[1].

والذي يستخلص من هذا النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن الإغارة كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى الاستيلاء على المواشي والحبوب من مضارب تلك القبائل وهو ما تؤكده الوثائق الإسبانية والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

أنه خلال الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر التي قادها دومنكادا سنة 1518، وقبل وصوله إلى الجزائر نزل بوهران وأغار على القبائل المجاورة للمراكز الإسبانية وخاصة سهل هبرة، فأخذ أكثر من تسعة آلاف رأس من أغنام وبقر وجياد لتموين الحملة الموجهة ضد خيرالدين[2].

عندما اشتدت الضائقة الاقتصادية بالكوديتي في وهران بقلة المواد الغذائية ورؤوس المواشي التي يحتاجها الجند نتيجة لمقاطعة القبائل لهذه المراكز وعدم تموينها لهم بالحبوب والمواشي، أمر قوته بالإغارة على أغبال، فاستولى على حبوبهم ومواشيهم وأسر مجموعة منهم حيث نقلوا إلى أسواق إسبانيا فبيعوا كعبيد[3].

1- المشرفي: الياقوتة الوهاجة، ورقة 47.

2- عن هذه الحملة انظر غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول: مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1622، ورقة 36، انظر أيضا Grammant H.D de l'histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1330, Paris, E. le Raux, 1887, P.

3- مرمول: وصف إفريقية، ج2، ص 352.

يضاف إلى ما سبق أنه خلال اشتداد الحصار على قوة الكوديتي واستيلاء رياس الأسطول الجزائري على السفن التي كان من المفروض عليها تزويد الاسبان المحاصرين لمستغانم، طلب أحد القادة خلال انعقاد المجلس الحربي للنظر في الوضعية التي أصبح عليها الجيش الإسباني، الانتقال إلى ضواحي وهران، وشن الغارات على مضارب القبائل للحصول على ما يحتاج إليه الجيش من المؤونة ثم العودة لحصار مستغانم من جديد

ثانيا: إن النص حدد بعض القبائل الحشم و بني راشد ومضاربهما تعتبر من أخصب الأراضي، وهذا ما يؤكد بأن الهدف من هذه الإغارة السلب والنهب.

وفي نص آخر يقول لما دخلت جيوش الاسبان مع أحلافهم من كيسة وبني عامر اكتسحوا سهل غريس وخربوا مدنه وقراه وتقدموا لما وراء عين أيفكان ووادي الحمام ،فاكتسحوا بلاد تسالة وأسروا الوالي الصالح الشيخ بلاحة المهاجي الحسني مع عائلته وذهبوا به لوهران إلا أنه فر من أسره بعافية ربانية مع عائلته[1].

فالنص يحدد لنا الأماكن التي كانت هدف الأسبان وهي المعروفة اليوم بأراضي ولاية عين تيموشنت ومعسكر وسيدي بلعباس التي تتميز بثرواتها الفلاحية، ولم يقتصر الأمر على أسر سكان الناحية بل تعدى إلى شيوخ الزوايا الذين كان لهم تأثير في المجتمع وعلى الخصوص حث الناس على محاربة

1- Malki Nordine, l'Algerie au XVI siecle, une convention inconnue et inedite entre les cheikhs de Mascara et les Espagnols d'Oran contre les othomans dans cette région dans la deuxieme moitie du XVI siecle en Mojallad et tarikh C.N.E.H. N° 24, 1992, PP 6-15.

الاسبان وهو ما تؤكده الوثائق الإسبانية التي أشارت إلى مشاركة هؤلاء في التجنيد واعتبرت فشلها في بعض المعارك ومنها معركة مزغران إلى الدور الذي قام به هؤلاء حيث أعلنوا الجهاد ضد الأسبان فتجند أغلب القبائل وحتى من كان مواليا للاسبان.

أما إطلاق سراحه فكان بتدخل من قبل شيخ من بني عامر الذي طلب من حاكم وهران إطلاق سراحه.

وحتى المدن بتلك الناحية تأثرت بهذه الحملات المتواصلة فخربت مدينة الكرط[1] وكانت عامرة أهلة فر منها سكانها إلى جبل الكسانة شرقي عريس وحل البعض بمضارب مغراوة ووادي فريحة.

ومن بين الذين تعرضوا لتأثير الغزو الإسباني من سكان أراضي الدولة الزيانية الجامعي عند تعرضه إلى تحرير مدينة وهران فأبرز لنا الأثر السلبي لاحتلال وهران والمرسى الكبير على السكان والذي لم يكن مقتصرا على النواحي المجاورة لوهران فقط بل امتد أيضا إلى أحواز تلمسان وحال دون استمرار العلاقة بين مدن وقرى الدولة وفي هذا الصدد يقول: "كانت الركاب العظيمة تعجز عن قطع المفازة البعيدة خوفا من النصارى ومن انضم إليهم من أيدي العدو وأعزوه وأذلوا المؤمنين لا سيما بنو عامر"[2].

1- مدينة الكرط لا تبعد كثيرا عن مدينة معسكر وعن تخريبها انظر المشرفي، المصدر السابق، ورقة 59.

2- الجامعي: فتح وهران، ورقة 45.

فالذي يمكن استنتاجه من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن احتلال المرسى الكبير ووهران أثر في الأمن في أغلب أراضـــي الدولة الزيانية وخاصة الناحية الممتدة ما بين وهران ومستغانم، ووهــران وتلمسان التي كانت من قبل مطروقة من القوافل التجارية خلال العصر الذهبـــي للدولة الزيانية.

ثانيا: أن القبائل العربية التي لعبت دورا لا يستهان به في انهيار الدولـــة الزيانية منذ عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني قدمت خدمات جليلة للأسبـــان تمكنوا من خلاله من مراقبة تحرك القبائل المعارضة للإحتلال الإسبانـــي والإغارة على مضاربها، وقد تنبه الاسبان لقوتها فاعتمدوها، ومـــن بين تلـــك القبائل بنو عامر الذين قدر الحسن الوزان[1] عددهم بستـــة آلاف فارس والجامعـــي بعشرة آلاف[2] .

ثالثا: إن الغارات الإسبانية على مضارب هذه القبائل دفعـــت السكـــان إلـــى ترك منازلهم والتحصن بالمناطق الوعرة، وفي هذا الصدد يذكـــر الجامعـــي أن أبا عبد الله مصطفى القلعي كان رضي الله عنه يسكن بأهلـــه بيوت الشعر قرب غابة في رأس أهل بلده يأوي إليها ليلا ويقضي النهـــار فـــي داره أو مسجده يطالع كتبه ويقريء طلبته[3].

فالنص يوضح أيضا ما توصلنا إليه بأن القبائل كانوا يتركون منازلهم فرارا من الخطر الإسباني وهذه الظاهرة من مميزات المجتمع المغربي خلال مراحل

1- الحسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص 49.

2- الجامعي: نفس المصدر، ورقة 45.

3- الجامعي: المصدر السابق، ورقة 45.

حياته فهو يفضل الفرار إلى المرتفعات عند تعرضه للخطر ويؤكده ذلك مـا بقي من أثار لحصون وقلاع بجبال جرجرة والونشريس والأوراس.

كما عمد البعض إلى اتخاذ بيوت الشعر(الخيم) للالتجاء إليها في الليـل خـوفا من غارة الأسبان وحلفائهم التي لا تتم إلا في الليل وهذا منـذ بدايـة الإحتلال الإسباني لكل من وهران والمرسى الكبير[1].

وبعض القبائل كانت تلجأ إلى تجنيد حراس في الليل لمراقبة تحركات الإسبان. وهذا لم يقتصر على المناطق القريبة من وهران والمرسى الكبيـر بـل شمل أحواز تلمسان وهو ما يؤكده الجامعي بقوله: " قال أبو حسـون العبدلي أنه كان لا يهدأ لهم بال إلا إذا جعلوا من يحرسهم[2].

- ثانيا: الغـزو القبلي

لم يكن الأمر مقتصرا على غارة الاسبان فقط على مضارب هذه القبائل بـل أن خطر الأعراب كان أشد على أوضاع الريف الزياني، خلال فتـرة موضوع البحث، وفي هذه النازلة يقول ابن مرزوق الحفيد ومحمد العقبـاني عن بني عامر[3] جبابرة لهم أوطان ورعية، هدد بعضهم بني عـد فـي أوطانهم ورعايتهم وأخذ منهم على وجه العداء أشياء كثيرة فقاموا عليهم وأرادوا فتنة ومن بني عمهم"[4].

1- انظر الباب الأول من هذا الفصل

2- الجامعي: نفس المصدر ورقة 19

3- عن بني عامر انظر المشرفي في المصدر السابق ورقة 12 انظر أيضا:
Bayer Pierre: Historique de Beni Amer d ' Oranis des Origines au Sanats Consultsin R.O.M.M N° 24, 1977AIX en Provence pp265-267

4- المازوني: المصدر السابق ج1 ص265.

والشيئ الذي نستخلصه من هذه النازلة يتمثل فيما يلي:

أولا: إن هذه النازلة تعرضت إلى الصراع بين قبائل الدولة الزيانية وحددت لنا الأطراف المتصارعة وهم بنو عامر الذين أغاروا على بني عـــد فـــي مضاربهم المجاورة لبني عامر ولم توضح النازلة دوافع الإغارة لكن يبـــدو أنهـــا تتعلق بالسيطرة على تلك الأراضي التي تمتد ما بين معسكـــر وتلمسان مراكز استقرار القبيلتان.

ثانيا: إن هذه الغارة أدت إلى نهب وسلب ما كان في قبيلة المغير عليها وقـــد وقع سوء التفاهم بين شيوخ بني عامر كاد أن يؤدي إلى فتنة بينهم.

وتؤكد هذه النازلة تأثير تلك الغارات في الوضعية الاجتماعية بقرى الدولة الزيانية و في هذا الصدد يقول أبو الفضل العقباني عن أهل قرية رهن بعضهم عند بعض أنواعا من المال وأودع بعضهم عند بعض ودائع ثم بغي عليهم أقوام فسلبوا أموالهم وهتكوا حريمهم واستولوا على القرية وجلوهم عنها وادعى كل من بيده رهن أو وديعة أنه سلبه أولئك البغاة فهل يصدقون في ذلك.
يستخلص من هذه النازلة مايلي:

أولا: أن بعض القبائل يعمدون إلى نقل أموالهم لقبائل أخرى ولعل السبب فـــي ذلك يرجع إلى تعرض مضاربهم للغارات من قبل قبائل أقوى منهم، لكن هـــذا كان يطرح مشاكل ،لأن تلك القبائل عند تعرضها إلى الإغارة تدين بأن مـــا كـــان عندها من أموال ورهائن سلب منها.

ثانيا: إن هؤلاء الذين يغيرون على تلك القبائل يعمدون إلى سلب كل مـــا يجدونه، وبذلك أصبحت حياة هؤلاء الريفيين لا تختلف عما كـــان سائـــدا

فـي المجتمع البربري قبل الفتوحات الإسلامية خلال القرن الأول الهجري/ السابـع الميلادي.

ثالثا: إن بعض القبائل كانوا يضطرون إلى التخلي عن مضاربهم لصالح القبائل القوية فينسحبون إلى المرتفعات الجبلية ليتحصنوا بها وقد أقامـوا فـوق تلك المرتفعات قرى وقلاعا وحصونا للدفاع على أنفسهم من الإغارة عليهـم سواء من قبل هذه القبائل أو الحملات التي كانت ترسلها الدولـة لجـبي الضرائـب منهم وعندما يرفضون تسديدها يحاصرون وتمنع مواشيهـم مـن الرعـي فـي الأراضي التي يتوفر فيها الكلأ.

وحتى كتب الرحالة تعرضت هي الأخرى إلى هذه الصراعات بين القبائل وعلى الخصوص الأعراب ومن بين هؤلاء الرحالة الذين أشاروا إلى هـذا الموضوع الرحالة المصري عبد الباسط خليل الذي زار تلمسان في النصف الثاني من القرن9هـ/15م[1].

وقد بين لنا من خلال مجموعة من النصوص تلك الغارات التي كانت تستهدف المواطنين والقوافل التجارية ومن بين المسالك المعرضة للغارات تلـك التي تربط عاصمة الدولة الزيانية بفاس وعلى الخصوص ناحية انجـاد التي توجد بها بعض بطون القبائل العربية مثل الحداج مهنتها الاغارة عـلى القبائل والقوافل التجار[2].

1- Brunchvie Robert : Deux Recits De Voyages Inedits En Afrique Du Nord Au XV siecle Abdelbassat Khalil

2- Ibid , P 659

كما تعرض الحسن الوزان أيضا إلى تلك الغارات بعد تعرضه إلى القبائل العربية، ومكان استقرارها، بين لنا من خلالها بأن تلك القبائل كانت تستغل بالغارة وقد حاول أمراء الدولة الزيانية إبعادها عن هذا العمل بتقديم أموال لها، لكن سياستهم لم تؤد إلى نتائج مرضية.

أما الرحالة الإسباني مرمول[1] فقد تعرض إلى ذلك الصراع القبلي وقال عن ترارة[2] أن جبلهم وعر قريب من هنين يسكنه البربر الغلاة الأجلاف وهم في صراع دائم مع سكان هنين وقد عانوا غير ما مرة فسادها قبل تخريبها.

يستخلص من النص مايلي:

أولا: إن جبل ترارة يقع في أعالي هذه المدينة وتسكن محيطة بعض بطون مديونة التي تركت مضاربها في الأراضي الخصبة نتيجة للحروب التي عرفتها الناحية خلال مراحل الدولة الزيانية بين هذه القبيلة وسلاطين الدولة وبين بني زيان وبني مرين، وقد تأثرت مضارب تلك الفبيلة بهذا الأمر.

ثانيا: إن فقر هذه المضارب الجديدة جعل هؤلاء السكان يعمدون إلى الإغارة للحصول على ما يحتاجون إليه من أسواق هنين التي تعتبر من أغنى موانئ الدولة الزيانية بعد سقوط وهران والمرسى الكبير في يد الأسبان[3].

1 – مرمول: المصدر السابق، ج2، ص 352.

2 – عن ترارة انظر الحسن الوزان، ص 44.

3 – عن سقوط هنين بيد الإسبان، انظر : Feg: Henri lion: Histoire d'Oran. avant, pendant, et aprés la domination espagnole. Oran. A Perrier, 1878 et Paris 1959, PP 156-169.

ثالثا: لم يشر مرمول إلى الدور الذي قامت به هذه القبيلة، وعلى الخصوص سكان جبل ترارة بالتضييق على الحامية الإسبانية في هنين، مما جعلها تنسحب من المدينة.

رابعا: أن مرمول[1] تعرض إلى تخريب المدينة وسكت على من خربها، لأن المخربين هم أبناء جلدته الذين عمدوا قبل خروجهم منها إلى تهديم مبانيها وفعلوا ذلك عندما فرض عليهم محمد الكبير ترك وهران 1792م[2].

ومن بين القبائل التي ورد ذكرها من قبل مرمول بنو زناتة الذين قال عنهم: "وجبل بني زناتة تمرسوا بالحرب حين خاضوها ضد ملوك الاسبان وضد العرب ولهم من القوة ما يجعلهم في قتال مستمر ضد الأتراك والأشراف وعرب الصحراء بمنعة جبلهم ومن عادتهم الدخول في خصومات ونراعات حول السلطة مما يسبب التقاتل الشديد لكن عندما يهددهم مصدر من الخارج يتحدون لمقاومته"[3].

يستخلص من هذا النص مايلي:

أولا: أن هذه القبائل كانت مجندة تجنيدا كاملا، منهم الفرسان والمشاة وتتوفرت لديها الأسلحة الكافية لمواجهة الطامعين فيها ولذلك فهي لم تفرق بين القوة المصارعة من عثمانيين وإسبان وسعديين وقبائل عربية وخطر خارجي فيتحدون لمواجهة الخطر.

1- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص: 223

2- عن تحرير وهران سنة1792 انظر ابن زرفة،الرحلة القصرية،مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم2597 ج. تعرض فيه إلى ظروف التحرير ورقة إلى 350 ورقة.

3- مرمول،ج2،ص234.

وأحيانا نجد هناك تحالفا بين سكان الريف والمدينة القريبة منهم لمواجهة القوة الخارجية مثل ما هو الحال بالنسبة لمطغرة[1] الذين كانوا يدا واحدة مع أهل ندرومة لمحاربة أمراء الدولة الزيانية، هذه الحروب بدأت منذ تأسيس الدولة.

- أثر شيوخ القبائل على الأرياف:

هذا فيما يتعلق بالصراع بين القبائل، لكن هناك دور سلبي من قبل شيوخ القبائل ونستدل على ذلك من نازلة يقول عنها المازوني[2]: "سئل عن عمر بن عباس العباس عن أمير قرية، كثر الظلم والعداء على أهلها في أموالهم بسبب أوبغير سبب، ويأخذ البريء والمتهم وله في القرية عمال يوظفهم للبحث على من يدعي بدعوة كأن يقال فيه أنه سرق فلانا، كما كان القول حقا أو باطلا أو قصد به قائله أخذ شكاية من المقول فيه لنعلمه أن كل ذلك يسعه العمال المكلفون للبحث عن مثل ذلك يوصفون ذلك إلى الأمير فيأمرون بأخذه وسلب أمواله وربما يجعل لهم جعلا على ذلك فتراهم يجتهدون في الكسب في أخذ أموال الناس بسبب وشاياتهم للأمير فشاء الله أن عجبت فرس وحل الليل فقال ما فعل في هذا وخرج بهذا إلى الأسواق والأزقة بمحضر الغوغاء وغيرهم مع علمه أن قوله يصل إلى العمال المذكورين وإنهم يوصلونه إلى الأمير المذكور".

1- مطغرة من بين القبائل البربرية التي توجد مضاربها بين هنين وندرومة عنها انظر Basset Rene Nedrouma et les traras ernest le Raux، Editeur Paris، 1901، P.

2- المازوني، المصدر السابق، ج2،ورقة 199.

فالذي يستخلص من هذا النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن هؤلاء الأمراء الذين عينتهم الدولة للإشراف على شؤون الرعية كانوا يلجأون إلى طرق ملتوية من أجل السيطرة على أموال الناس بغير حق فيؤخذ البريء والمتهم.

ثانيا: أن هؤلاء الأمراء كانوا يقومون بتجنيد مجموعة من العيون يتصنتون على الناس في الأزقة والأسواق والطرقات وكل من وجد بأنه يقول في الأمير وأعوانه يتهم بالظلم والفسق يقضي القبض عليه ويسلم إلى الأمير الذي يأمر بمصادرة أمواله، وهؤلاء العيون كانوا يتقاضون أموالا من هؤلاء الأمراء للخدمات التي يقدمونها لهذا الأمير.

وهناك نازلة أخرى أوردها المازوني جاء فيها: "سئل شيخنا أبو الفضل العفياني عن رجل كان من جبابرة العرب، وأهل المغالطة منهم ألهمه الله ونشده وقاده للخير، قال بأنه تقدمت منه غضوبات وأخذ أموال الناس بالغضب وغيره وبيده الآن ما يكفي لبعض من عليه فرد لبعض أهل التباعات وجهل آخرون" [1].

وهكذا نلاحظ بأن ظلم هؤلاء كان كبيرا في أرياف الدولة إلا أن بعضهم يشهرون توبتهم ويرجعون ما غصبوه من أهله وفي نازلة أخرى قال فيها المازوني: "سئل عبد الرحمن الوغليسي عن رجل أخذ دراهم من رجل مستغرق الذمة ولم يحص ما عليه من التبعات غضب وزكاة ,وهو من يتولى قبض المغارم ويدفعها للظلمة و يتركون لهم نصيبا من المظالم وعندما حصلت

1- المازوني ،المصدر السابق،ج2 ،ورقة 256.

بيده الدراهم المذكورة وكان في سنة مجاعة" [1].

ومن بين النوازل التي تعرضت للأثر الذي عرفه الريف الزياني خلال هذه الفترة ما أورده المازوني [2] من خلال هذه النازلة فقال: "سألت الفقيه محمد بن القاسم المشدالي [3] عن مسألتنا وهي أهل قرية استولوا عليهم بعض الأعراب ولا يخفى عنكم حال العرب مع الرعية،يطالبونهم بوظائف شتى كغرائم الجنات ووظائف الحرف يوقفون على الرجل حرث مضمن مثلا كل سنة ويعينون له الأرض ويغرم عليها حرثها ولو لم يحرثها، وعادتهم مع أهل القرية أن الرجل منهم يسكن داره ويشغل مشغلاته ويعطي الوظيف الذي عليه وإن أراد أن يبيع شيئا من ريعه منعوه".

فالذي يستخلص من النص مايلي:

أولا: إن أراضي الدولة الزيانية عرفت تغييرا في ميزان القوى بين القبائل البربرية التي سبق لها أن استولت على تلك أراضي بعد ثورة ابن غانية [4] وعلى الخصوص القبائل الزناتية [5] لكن سوء العلاقة فيما بينها بعد تأسيس الدولة الزيانية واستعمالها من قبل القوى المعادية لبني زيان كالحفصيين والمرينيين جعل بني زيان يعتمدون على القبائل الهلالية فزاحموا الزناتيين واستولوا على

1- نفسه ،ج2، ص 237.

2- المازوني ، المصدر السابق، ج2، ص 96.

3- عن محمد بن أبي القاسم المشدالي ، انظر ابن مريم ،ص 250.

4- عن ثورة ابن غانية انظر ابن خلدون،العبر،ج6،ص581،و مابعدها

5- عن سيطرة القبائل الزناتية على المغرب الأوسط انظر الباب II، الفصل Iمن هذه الرسالة،ص 270 وما بعدها عن عدد السكان انظر الوزان المصدر السابق ج 2 ص 51-57 مرمول المصدر السابق ج2 ص 225 -352.

مضاربهم واستغلوها.

ثانيا: أن الهلاليين أمثال بنى عامر وسويد لم يتوقفوا عـن الاستقـرار فـي مضارب قبائل زناتة بل فرضوا ضرائب جائرة على من تبقى منهم فـي مضاربة وعلى الخصوص الفلاحين الذين فرضت عليهم ضرائب دفعـت بالبعض منهم إلى التوقف عن النشاط الفلاحي، لأن ما ينتجونه يقل عـن مـا يقدمونه لشيوخ القبائل الهلالية.

ثالثا: أنهم منعوا من التصرف في أرزاقهم فهم لا يستطيعون بيع جزء منها لأن هؤلاء يمنع عنهم المشترين وهو ما يؤكده المازوني بقوله: "إن باع شيئا منعوا المشترين من الشراء ويستغلون هم أنفسهم إن غاب البائع وإن رحل الرجل وترك داره أخذوا الكراء ممن يسكنها وربما يكريها وكيلهم على يده[1].

فلم يتوقف هؤلاء عن منعه من التصرف في أمواله بل يعمـدون إلى استغلالها لصالحهم حين يغيب عليها، لأن القبائل الضعيفة تلجأ في أغلـب الحالات إلى ترك مضاربها عندما تعجزعن الدفاع عليها، وهذه الظاهرة تتجلـى لنا بوضوح عندما نتصفح كتب الرحالة أمثال الحسن[2] الوزان ومرمول[3] يشير إلى كثرة سكان جبال الدولة الزيانية مثل الونشريس وطرارة ومطغرة وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى سوء معاملة الهلاليين لهـم وهـو مـا يؤكده الوزان[4] بقوله: "تسكن عقبة ضواحي مليانة وبمدهم ملك تنس بقلـيل من المال لكنهم فتاكون بدون شفقة ولا رحمـة".

1- المازوني، المصدر السابق، ج2،ص96

2 الحسن الوزان، المصدر السابق ،ج2، ص 50-57.

3 مرمول، المصدر السابق ، ج2 ص 325-352

4 الحسن الوزان، المصدر السابق ،ج2، ص 50.

وحتى فرسان الدولة الزيانية كانوا يعمدون هم الآخرون إلى السلب والنهب وهو ما توضحه هذه النازلة فقال المازوني سئل العقباني عن رجل لقيه فارس من الخدمة في الطريق في وقت فتنة فسلبه من ثيابه وذهبيته وجدها عنده .فبعد أيام تاب هذا الفارس وخرج عن جميع ما بيده من العين والزرع ووضعه بيد أهل العلم ليفرقه على بعض أصحابه ممن يستحقه من الفقراء والمساكين"[1].

يستخلص من هذا النص مايلي:

أولا: أن جنود الدولة كانوا يعمدون إلى النهب خاصة عندما يتجهون إلى القبائل التي كانت تعارض الدولة الزيانية وأغلبها قبائل السبية ينهبون كل ما يجدونه في طريقهم وهو ما يجعل السكان ينفصلون عن هذه الدولة وينظمون إلى أعدائها.

ثانيا: أن هؤلاء الفرسان عندما يتخلون عن عملهم هذا، يدعون أنهم تابوا مما جعلهم يقدمون جزءا من هذا المال للفقراء والمساكين. وحتى قواد الدولة كانوا يعمدون إلى عملية النهب والسلب. وفي هذا الصدد يقول المازوني: "سئل عن رجل أخذه قائد وطنه يشكون أهل دواره بامالته لهم واشغاله بهم عند الولاة والخدام وغير ذلك ولم يقتله حتى أخذ منه عدة دنانير وكرسي من بيته فلما راء أحد أقربائه قدم الدنانير بتسريحه"[2].

1 المازوني، المصدر السابق ، ج2، ورقة 257.

2- نفسه ج2،ص 266.

يستخلص من النازلة مايلي:

أولا: أن كل قائد يكون تحت تصرفه مجموعة من الولاة والخدام، وهؤلاء يكونون صلة وصل بينه وبين الرعية.

ثانيا: إن هؤلاء القادة كانوا يستغلون مناصبهم لتحقيق مآربهم الذاتية ويزاولون عملية الرشوة مثل ما هو عليه الآن وربما أكثر من ذلك فإنهم عندما يقبضون على أي شخص يرفضون إطلاق سراحه إلا بعلاوة. فهؤلاء الناس الذين كانوا يعانون من قساوة حكامهم يتوافدون على البعض من ذوي الجاه الذين لهم تأثير على الرعية للدفاع عن حقوقهم في هذا الصدد يقول المازوني[1] "سئل أيضا عن رجل له سطوة في تغيير المنكر في قبيلته فأتى إليه بعض أهل بلده مع سكانهم يشكوا بعضهم بعضا فهؤلاء كان من المفروض أن يتوجهوا إلى مسؤولي الدولة لكن هؤلاء لا يقومون بالدور المنوط بهم.

- **غـــارات القبـــائـــل:**

إن أخطر ما كان يواجهه الريف من غارات الأعراب، وفي هذا الصدد يقول المازوني "سئل عن قوم يتكسبون في وطنهم وفي الوقت نفسه يخافون من العرب كما رأيت هرج هذا الوقت ولا شك أن الخوف مشكوك فيه هل لهم المقام بذلك الموضع"[2]. يستخلص من النازلة أن الأمن في الريف كان منعدما مما جعل السكان يفكرون في ترك قراهم وأراضيهم للهجرة إلى مناطة محصنة. وفي بعض الحالات كان هؤلاء يقدمون أموالهم لهؤلاء الشيوح ى لا تتعرض قراهم إلى الغارات المتوسطة من قبل هؤلاء المغيرين، وفي هـــذا

1- المازوني، المصدر السابق، ج2 ، ورقة 233.
2- نفسه ج 2 ، ورقة 234.

الصدد يقول المازوني[1] سئل عن الرجل من أشياخ القبائل يتوب ويأتي من جهة العرب أو بعض المفسدين ما يحتاج القبيل لمدافعته بعطاء أو غيره وليس لهم من يسقط ذلك عليهم بالعدل، إن في وطنهم اليتامى والهجاجل وإذا تركه تولاه غيره ممن لا يحسن ذلك وربما يخيف في تقسيطه وهو يدافع على الوطن لئلا يخرب. فالذي يستخلص من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن شيوخ القبائل لم تكن لهم[2] امكانيات بشرية أي القوة العسكرية لمواجهة هذه القبائل المغيرة فيعمدون إلى دفع الضرائب لهؤلاء وتوزيع أموالهم على كل أفراد القبيلة وحتى الأيتام والأرامل كانوا يدفعون هم الآخرون، وإن نجاح هؤلاء في الإغارة له علاقة بضعف السلطة وهو ما يؤكده المازوني بقوله سئل الحفيد سحمد العقباني" عن هؤلاء الأعراب المتغلبين في البلاد لضعف السلطنة أحيانا يكونون خداما للسلطان وتارة يكونون مخالفين على السلطان كما يفعل عرب بلادنا مثل بني عامر وسويد[3] يعمد واحد منهم إلى قرية قاض في وقته فلا أمر إمام فيقضى هل يصح توليه و تنفيذ أحكامه.

فأجاب الأعراب والبغاة والعتاد والسعي في سبيل الفساد وخصوصا إخافة الطريق وسلب أموال واقتراب أنواع الحرابة لا يتناولهم فيها من خرج عن الإمام ويقاتل على ذلك من يغلب على الإمام تغلب على الإمارة والاستبداد بدعوة رئاسة الأئمة"[4].

1- المازوني، نفس المصدر، ج2، ورقة 267.

2- المازوني نفسه، المعهد السابق ج2، ورقة 256.

3- وعن السويد انظر أبو راس عجائب الأسفارورقة 24.

4- المازوني ، المصدر السابق، ج2، ورقة 247

فالذي يستفاد من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن القبائل العربية في هذه الفترة عرفت امتداد نفوذها فشمل مناطق كثيرة من أراض الدولة الزيانية وعلى الخصوص قبائل السويد وبنى عامر التي تعتبر أن من أهم القبائل خلال فترة موضوع البحث المناطق التي استولوا عليها و تأثيرهم على مراكز القرار.

ثانيا: أن الدولة الزيانية كانت ضعيفة ولذلك لم يستطيع أمراؤها الوقوف أمام هؤلاء بل اكتفوا بالتقرب منهم واستعمالهم في خدمة الدولة[1].

وأحيانا يكونون نوابا لهم على أقاليم هذه الدولة التي كان في الماضي يعين فيها أبناء أمراء الدولة الزيانية أو أفراد الأسرة الزيانية أو حتى من بعض بطون قبيلة بني عبد الوادي أو القبائل البربرية التي كان لها نفوذ مثل مغراوة و بني توجين، فبذلك حدث انقلاب في نظم الدولة الزيانية.

ثالثا: إن هؤلاء الشيوخ كان من الأفضل لهم المحافظة على الأمن في النواحي التي يشرفون عليها، لكن ما وقع كان وراء الفتن التي عرفتها أقاليم الدولة بإغارتهم على القبائل الضعيفة ومهاجمة القوافل التجارية وسلب السلع التي تجمعها وهو ما جعل صاحب النص يعلق عليهم بقوله من تغلب على الإمام تغلب على الإمارة كلها وهو ما عرفته الدولة الزيانية في هذه الفترة موضوع البحث وهو ما جعل بعض الفقهاء يطالبون بجهادهم لأن جهاد هؤلا أفضل من جهاد الكفرة.

1- الحسن الوزان ، المصدر السابق، ص356.

وهناك نازلة تتعلق باستبداد العمال وتسخير الريفيين وفي هذا الصدد يقــول المازوني[1] : "أهل محشر فرض عليهم بعض العمال أن يبنوا لهم مسجدا يصلون فيه الجمعة والمحشر على هيئة المعبر والأسواق فيه لكن بناؤه متصل فــلا تروعهم فتنة بكونهم موسومين بالديانة فيحترمون بذلك فعمد هذا العامل لبنائه إلى تسخيرالناس واستخدم فيه الناس قهرا من نواحيه جلب والدراهم وآلات البناء لأجور وكسر الحجر ونحو ذلك هل يصح فيه الصلاة".

فالشــــيء الـــذي يستخلص من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن بعض رجال الطرقية كانوا يختارون أماكن منيعة لإقامة زواياهم إما على قارعة الطريق أوبالقرب من الأسواق.

ثانيا: أنهم كانوا محترمين من السلطة الحاكمـــة وعلى الخـــصـــوص فـــي النواحي لعلاقتهم بالسكان لذلك فإن مطالبهم تنفذ باستمرار.

ثالثا: إن سكان البوادي خلال هذه الفترة كانوا يعانون اضطهادا من العمال فكانوا يسخرون لخدمة هؤلاء وأحسن مثال على ذلك ما وقـــع فـــي بنـــاء هـــذا المسجد حيث فرض عليهم استعمال مواشيهم و تجنيد أنفسهم في نقـــل المواد الأولية للبناء.

1- المازوني ، المصدر السابق، ج2، ورقة 46.

- **الأمــراض الاجتمــاعية:**

كانت تلمسان عاصمة الدولة تتوفر على مناظر خلابة لضواحيها وبساتينها وشلالاتها المتدفقة ومتنزهاتها التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية والأدبية مثل وادي الصفيصف وكدية العشاق وغدير الجوزاء، فالمتنزهات الآنفة الذكر تهيء الجو للسكان للالتفات للمرح والترفيه عن النفس- كما ذكرنــا ســابقا- وتثبت ذلك النوازل التي أوردها المازوني والمتعلقة بالمرأة البدوية التي تنسب إلى بني هلال تشير إلى الانحلال الخلقي وتسامح الرجل تجاه المرأة حيث قال: (نساء العرب لا يسألن عما يفعلن)، لكن هذا يتنافى مع طبيعة مجتمع القبائــل العربية.

وقد كتب أبو ضيف نصا عن القبائل فقال: (وصفها المؤرخ بأنها ســيدة مــا يتعلق بالبيت أثاثا ومتاعا ونحو ذلك والرجل بمثابة الضيف فلها أن تفعل في البيت ما شاءت من غير اعتراض عليها ولا مراقبة لكن مــا جــاء فــي النصين يبدو أنه يتنافى مع الواقع لأن الحياة في البادية والريف لم تكن أكثــر انطلاقا وانفتاحا عنها في المدن ولكن علينا أن نعرف على ما يصحب ســلطة القبائل والعشائر من ناحية وقيود العرف والعادات والتقاليد من ناحية أخــرى مما يجعلها تحدد أفق الحرية في الريف أكثر من المدينة وهذا يبدو مع نــص المازوني لا أساس له من الصحة، من ناحية أخرى أنه في حالة وفود ضيوف في غيبة الرجل فلهن أن يفعلن لهم من الاحسان ما يقوم به الرجل ولــو كــان

حاضرا ويضربن مثلا بذلك [إذا كان الأسد يقتل فاللبوءة تقتل والرجل الهيلالي يفتخر إذا قامت زوجته في إكرام ضيوفه أثناء غيابه.

أما الونشريسي فقد أشار إلى كثرة انتشار الخمر في المدن الزيانية، حيث كان الناس يخرجون من الأزقة وعلامة الخمر بارزة على أفعالهم ويتفق ذلك مع المازوني الذي ذكر هو الآخر انتشار الخمر ليس في المدن فقط بل في القرى وحسبه فإن أفراد من الجالية اليهوية يقومون بنقله إلى الأرياف، حيث يبيعونه إلى سكانها.

وهكذا نرى أن أهل الذمة من اليهود والنصارى لعبوا دورا خبيثا في انتشار ظاهرة الإدمان على الخمر ولعل هذا مرتبط بضعف سلاطين الدولة الزيانية.

ومن الأمراض الاجتماعية ظاهرة التسكع في الأزقة لأن بعض الشبان كانوا يتجمعون في الأزقة المؤدية إلى الأسواق والحمامات التي يكون الاقبال عليها من قبل النساء لمراقبتهن وفي هذا الصدد يقول العقباني [الإماء اللواتي يخرجن متلحفات كالحرائر أومكشوفات بما لايصل كشفه منهن كالظهر والبطن لأن الأمرين في حقهن محظور وكذلك خروج الرابعات في هذا الزمن متكشفات فإن ذلك من دواعي الفتنة.

يتجلى من النص أن الخروج لم يكن مقتصر على الجواري بل شمل حتى الحرائر وهذا يتجلى من خلال النصوص التي أوردها كل من العقباني والمازوني والتي اشار فيها الى خروج النساء للحمامات العمومية وقد طالب بتحريمها على اللواتي اتصفن بالجمال خوفا على انحرافهن.

من خلال ما سبق يبدو أن المجتمع الزياني بالرغم من ازدهار الحركة الصوفية ،فإن المرأة في المدينة تتمتع بالحرية الكامنة وهذا أدى إلى ضعف الوازع الديني مما نتج عنه بعض الأمراض الاجتماعية.

أما في الريف فكانت المرأة تشارك الرجل في جميع الأعمال وعلى الخصوص الأنشطة الفلاحية كالزراعة وتربية المواشي والعناية بالأشجار المثمرة .

لكن بعض النصوص تشير أيضا إلى ضعف الجانب العقائدي إلا أن هذه النقطة تبدو للباحث في الدولة الزيانية شائكة التناول لأن السكان في أواخر عهدها كانوا يشتكون من التدهور الخلقي والديني وخاصة ما تعلق بالظواهر التي كانت مرتبطة بالقيم الدينية مثل الحج فهذه الظواهر يبدو أنها فقدت محتوياتها الدينية وأصبحت في الغالب ظاهرة اجتماعية.

كما كان فقهاء العصر قد هونوا من فرض الحج وألحوا على شرط الاستطاعة مبينين أنه فقد محتواه الديني وأصبح في الغالب ظاهرة اجتماعبة قبل كل شيء لعدة عوامل أهمها:

اختلال الأمن ويعلق على هذا العبدري فيقول [أن المسافر عندما يخرج من أنظار مدينة فاس إلى الاسكندرية لا يزال في حوض ظلماء وخبط عشواء لا يأمن على ماله ولاعلى نفسه ولا يأمل راحة في غده ويومه وأمسه].

قال البرزلي بعد ماورد للخمي فتوى جاء فيها أن الطريق اليوم من الأسكندريه وما بعدها ذلك إلى مكة على صفة لا يلزم معها فرض الحج ولا يؤثم من تأخر في هذه الأحوال لأنه يكون من باب إلقاء النفس إلى التهلكة وبهذا كان يفتي شيخنا أبومحمد عبد الله الشبي1382/782 وقد جرب

هذا الطريق فيقول: "الذي يقصد الحج في ذا الوقت إنما هي شهوة نفس وهوى رخيصة ولا لقصد الله تعالى فنراه من حين خروجه يرتكب من الآثام من سب الغير وتعاطي الحرام وترك الصلواة والقذف والغيبة وعدم الوقوف عند حدود الله".

كما كانت الصراعات بين دول المنطقة سببا في اختلال الأمن وهو ما يوضحه السلطان أبو الحسن المريني في رسالة إلى السلطان المملوكي بعد سيطرته على تلمسان يتهم فيها أبو تاشفين الأول بالتعرض للحجاج فقال: "ولم يكن إلاّ ما نال الحجاج من تعنية وتعدية وطال عليهم من تعرضه وتصديه حتى جز عن الحجاز الشريف قصاده وحكم سلب الحجاج وسد عليهم المسالك والفجاج وعوق طريقهم".

أمّا فيما يتعلق بفريضة الصيام فقد جاء مثلا في هذا الحديث من السنة النبوية المتعلقة بتقديم الفطور وتأخير السحور قول البرزلي وكان بعض شيوخنا يقول هذا إنما هو عند المتقدمين الذين كانوا يأكلون الطعام الكثير حتى يشبعون ويمسكون بالنهار.

أما الونشريسي فقد تعرض هو الآخر إلى المظاهر السلبية فذكر أن بعض النساء يفطرن من غير عذر شرعي ويرجع السبب في ذلك أن المرأة كانت تخاف من انخفاض وزن جسمها وتغيير جمالها، خاصة إذا كانت مقبلة على الزواج، وهذا يوضح لنا أن الرجل في عصر الونشريسي كان يفضل المرأة البدينة على الرشيقة مما جعل البعض يضطرون إلى الافطار بضغط من أسرهن.

هذا الطريق فيقول: "الذي يقصد الحج في ذا الوقت إنما هي شهوة نفس وهوى رخيصة ولا لقصد الله تعالى فنراه من حين خروجه يرتكب من الآثام من سب الغير وتعاطي الحرام وترك الصلواة والقذف والغيبة وعدم الوقوف عند حدود الله".

كما كانت الصراعات بين دول المنطقة سببا في اختلال الأمن وهو ما يوضحه السلطان أبو الحسن المريني في رسالة إلى السلطان المملوكي بعد سيطرته على تلمسان يتهم فيها أبو تاشفين الأول بالتعرض للحجاج فقال: "ولم يكن إلاّ ما نال الحجاج من تعنية وتعدية وطال عليهم من تعرضه وتصديه حتى جز عن الحجاز الشريف قصاده وحكم سلب الحجاج وسد عليهم المسالك والفجاج وعوق طريقهم".

أمّا فيما يتعلق بفريضة الصيام فقد جاء مثلا في هذا الحديث من السنة النبوية المتعلقة بتقديم الفطور وتأخير السحور قول البرزلي وكان بعض شيوخنا يقول هذا إنما هو عند المتقدمين الذين كانوا يأكلون الطعام الكثير حتى يشبعون ويمسكون بالنهار.

أما الونشريسي فقد تعرض هو الآخر إلى المظاهر السلبية فذكر أن بعض النساء يفطرن من غير عذر شرعي ويرجع السبب في ذلك أن المرأة كانت تخاف من انخفاض وزن جسمها وتغيير جمالها، خاصة إذا كانت مقبلة على الزواج، وهذا يوضح لنا أن الرجل في عصر الونشريسي كان يفضل المرأة البدينة على الرشيقة مما جعل البعض يضطرون إلى الافطار بضغط من أسرهن.

أمّا انتشار الرشوة وشهادة الزور فيقول عنها المازوني: " مايفعل في هــذا الوقت، من أخذ الجعائل على الفتوى في رد المطلقة ثلاثا ونحوها من الرخص كما يفعله كثيرا من جهلة فقهاء البادية فلا يحل ولايجوز بالاجماع".

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل أن تلك العادة معدومة أوأقل انتشار في المدن لا أظن ذلك خاصة في آخر عهد الدولة الزيانية.

كذلك تطرح شهادة أهل البادية فيها أيضا فقد ورد قوله لا يكتفي بالقوانين المتعارف عليها في الاسلام في الشهادة فقد قال المازوني والطرر لابن غاث عند قوله تجوز شهادة أهل البادية أن شاهدوا في حق امرأة أوغيرها أو لــم يكــن عدل يستكثر منهم ويقضي شهادتهم في رؤية الهلال.

يبدو للباحث أن هذا التشدد في الشهادة مرتبط بتدهور عام وجد في المدن أيضا وجعل مقياس الشهادة يتغير نتيجة انتشار الكذب والمجاملة.

- انتشـــار اللصوصيـــة:

يضاف إلى ما سبق انتشار اللصوصية، وقد تعرض لهذا الموضوع الرحالة المصري عبد الباسط خليل[1] فبين لنا بأنه تعرض للسرقة عندما كان مقيما بمدينة تلمسان وكذلك الحسن الوزان الذي زار إحدى الأسواق بقلعة بني راشد فسرق منه جواده من أحد عمال قائد بني راشد وعندما اشتكى له قال له إن الأجور التي تعطى لهؤلاء البغالة غير كافية فيعمدون إلى السرقة. وفيما يتعلق بانجاد يقول الوزان عنهم "انجاد مأوى لعصابة لصوص من الأعراب على استعداد دائما لتفتك بالمارين ومن هناك حيث الطريق المؤدي من تلمسان إلى فاس وقليلا ما ينجو التجار منهم ولا سيما في فصل الشتاء لأن الأعراب

1- B Runschvic Robert deux Récits p 136.

المستشعرين للحفاظ على الأمن في البلاد يكونون قد رحلوا عنها إلى نوميديا[1] ويبقى منهم غير المستأجرين وحدهم يعيشون من اللصوصية.

فاللصوصية خلال هذه المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية أصبحت مهنة يكتسب أصحابها أموالا طائلة[2]، وحتى النوازل الفقهية تعرضت لموضوع اللصوصية فنجد نوازل أوردها كل من صاحب[3] (المعيار) و(الدرر المكونة).

منها أن بعض المرابطين كانوا يقيمون في المناطق التي يكثر فيها قطاع الطرق والسبب في ذلك يرجع إلى مايلي:

أ: أن بعض المرابطين كانوا يفضلون المناطق التي تجتازها القوافل التجارية والمسافرون للحفاظ على أمنهم والتدخل في حالة وجود أخطار محدقة بهم وإن ذلك يتم بواسطة الأعوان التابعين لهم"[4].

ب: أن المرابطين حلوا محل الدولة في حماية الرعية من اللصوص لذلك تشير بعض النوازل الفقهية إلى انعدام الأمن في تلك النواحي منها قول الونشريسي[5]: " سئل شيخنا أبو عبد الله محمد بن مزرق وأبو الفضل قاسم العقباني "جوابكم عن خمسة رجال من أهل السرقة والخيانة وقطع الطريق وغير ذلك من أنواع الفساد معروفين بذلك مشهورين به قدموا على محشر وأرادوا السرقة وهم بالسلاح ثم أنهم قتلوا رجلا من أهل المحشر"

1- الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج2، ص 26.

2- نفسه ج1،ص 11.

3- الونشريسي. المعارج 5 ص 267.

4- المازوني، الدرر المكنونة ،ج2،ورقة 247.

5- الونشريسي ، المعيار، ج5،ص 267.

هذه النازلة توضح لنا وضعية الريف، حيث تتعــرض باســتمرار إلــى الغارات، ومن النوازل التي ذكرت موضوع اللصوصية هي قــول المــازوني الذي يحكي عن أبي محمد صالح: أن سرّاق المغرب لصوص لأنهــم يــأتون بالسلاح عامدين على المال المكائدة، قال راقوي منــه أن يقــف عنــد رأس صاحب المنزل فمتى رآه تحرك، ضربه أو هدده[1].

يستخلص من النص مايلي:

أ: أن الذين كانوا يقومون بالغارات على مضارب القبائل كانوا يحملون معهم الأسلحة ويستعملونها في مهاجمتهم للقرى والمداشر والمحاشر أويهددون بها صاحب المنزل إذا اكتشف أمرهم.

ب: يطبق عليهم نفس القانون الذي يطبق على المحاربين لاستعمالهم السلاح. فاللصوصية لم تكن مقتصرة على الأسواق والطرقات بل امتدت إلى أعراض الناس وفي هذا يقول المازوني سئل محمد الحفيد العقباني بما نصه "ما تقولون رضي الله عنكم في رجل أتى هو ولصوص معه و هرب بإمرأة على عادة أهل البوادي ومكث عنده أياما تارة بيت معهم في هذا الدوار ليلة وتارة في دوار آخر إلى أن انتزعت منه وردت إلى أهلها".

يستخلص من هذه النازلة مايلي:

أولا: إن اللصوص في تلك البوادي خلال فترة موضوع البحث لم يقتــصر دورهم على النهب و السلب بل امتد إلى ما هو أخطر مــن ذلــك فأصــبحوا

1- المازوني ،المصدر السابق،ج2، ورقة 227.

يهاجمون المنازل ويأخذون نساءها وبناتها و ينعمون بهن مـــدة دون أي وازع ديني يضعهم عن حدهم.

ثانيا: أن سكان الأرياف كانوا عاجزين عن مواجهة هؤلاء مما يجعل اللصوص ينتقلون بكل حرية من دوار إلى آخر وربما يفرضون على سكان هذه القرى إخلاء أحد البيوت لهم حتى يشبعوا غرائزهم الجنسية.

لذلك كان السكان يزوجون بناتهم وهن لا يزلن صغيرات وهو ما يؤكده المازوني من خلال هذه النازلة " سئل عن يتيمة خاف عليها قومها الفساد أن يهرب بها بعض المفسدين طوعا منها أو كرها لكونهم ببلاد السايب بضعف أحكام القضاة بها فاتفق رأيهم على تزويجها قبل بلوغها[1] توضح لنا هذه النازلة ما سبق أن تعرضنا إليه وهو أن أرياف الدولة الزيانية نتيجة للفوضى التي كانت تتخبط فيها فإن الإعتداء على الحرمات ازداد نتيجة لضعف السلطة أوانعدامها في القبائل المستقلة عن الدولة ولم يكن عامة الناس هم الذين يلجؤون إلى هذه الوسيلة بل حتى لم يتم شيوخ القبائل أنفسهم وفي هذا الصدد يقول المازوني[2] "سئل أبو الفضل العقباني عن امرأة مهملة فرت بنفسها زمن المسغبة لوطن غير وطنها فوقعت عند شيخ من أشياخ الموضع فحبسها وتزوجها بغير ولي على وجه التعد".

- انحراف في تطبيق الأحكام الشرعية:

فسوء الوضعية الإجتماعية يعود في رأينا إلى عدم تطبيق الأحكام فقد عرفت البادية ضعف في الأحكام وهو مايشير إليه الونشريسي بقـــولـــه:

1- نفسه ج2، ورقة 125.

2- المازوني ، المصدر السابق، ج2، ورقة 238.

"قـال بعض الشيوخ وما يفعل في هذا الوقت من أخذ الجعائل على الفتاوى وفي رد المطلقة ثلاثا أو نحوها، كما يفعل كثيرا من جهلة البادية فلا يحل ولايجوز" فالنص الذي أورده الونشريسي يوضح لنا بأن الفتاوى التي كانت في عصر الدولة الذهبي وعلى الخصوص في عصر أبي عبد الله العقباني وبركات الباروني الجزائري لا تقدم في شأنها أموال أصبحت في هذا العصر يأخذ صاحبها الجعالة مما أثر في الأحكام الشرعية، الونشريسي بقولـه:

"أن أخذ القاضي الإجارة المعتادة وأما إذا ضعفت الأجرة فهو من باب الهدية وهي من باب الرشوة"، فمهنة القضاة تأثرت بالضعف السائد، فأصبح القاضي يأخذ الرشوة من أصحاب القضايا أو أمراء الدولة أو شيوخ القبائـل أو ولات الدولة الزيانية في نواحيها المختلفة. كما نجد أن الرعية كانت ترتبط بالعلماء الذين كان لهم اتصال بالسلطنة لرفع الظلم عنهم فصار خير بابا من أبواب الرشوة. لم يكن القاضي والمفتي هما اللذان يتاقضان الرشوة بل امتدت إلى علماء السلطنة الذين كانوا صلة وصل بين الأمراء والرعية لذلك كان الناس يطلبون منهم أن يقضوا حوائجهم. ويوضح لـنا الونشريسي[1] العلاقة بين ضعف السلطنة والعلماء بقوله "يحكى أن بعض الملوك المتأخرين كتب إلى فقيه من الفقهاء أن الناس قد فسدوا فكتب لـي أن لا حكم فيهم بما يطبق عليهم، فإنني استوفيت لهم المطالب الشرعية فأكـل الناس بعضهم بعضا" فقدأصبح الناس يفتون بدون علم في الأمور العقائدية لأنه في عصر الدولة الزيانية الذهبي كان لا يتولى الفتوى إلا مـن وصل درجة الإجتهاد، وفي عهد الونشريسي كان الجهال ينصبون للفتوى.

1- نفسه ج5 ، ص 236.

ويعلق صاحب كتاب المعيارعلى ذلك فيقول قد كثرت البلوى وعمت المصيبة وهلكت الأديان فيه[1]. ويجعل السبب في ذلك مجموعة من العوامل منها:

أولا: ضياع العلم وقلّ القائمون عليه وتعاطى العلم الجهّال فافتوا بغير علم.

كما أن الوظائف التي كانت مرتبتها تقدم من الدولة أصبحت تؤخذ من المواطنين فيذكر صاحب المعيار مثلا أن القضاة أصبحوا يأخذون الجعائل على الأحكام كما أصبحت تلك الأحكام لا تتقيد بالشرع الإسلامي مثل ما كان يعمل به بعض هؤلاء القضاة برجعة المطلقة ثلاثا في كلمة واحدة.

- أثر شيوخ القبائل على واحات جنوب واقليم توات:

تعرضت هذه النوازل لتأثير القبائل العربية في منطقة توات وفي هذا الصدد كتب عبد الله يحي بن يدير بن عتيق الحمد لله جوابكم الكريم في رجل كلف عليه شيخ بلده موضعه تقديم دواب حملت زرع للشيخ المذكور والدواب لأهل الموضع فقدم الرجل المذكور الدواب المذكورة إلى الموضع الذي تخزن فيه زرع الشيخ.

يلاحظ من هذه النازلة أن تأثير القبائل العربية لم يكن مقتصرا على المناطق الشمالية فقط بل امتد إلى قصور توات لضعف القبائل البربرية بها وعجزها في الدفاع عن تلك القصور التي ازدادت الغارات عليها فاتصل بعض أهل القصور بالقبائل التي كانت تشرف على مرافقة القوافل التجارية، وقد أكد هذا الحسن الوزان[2] فأشار إلى بعض قبائل الشمال كانت ترتحل

1- نفس المصدر ج6 ص 256.

2- الحسن الوزان، وصف إفريقية، ج2،ص 54.

إلـــى الجنوب فتحط رحالها بتيجرارين[1].

فتواجد هذه القبائل جعل شيوخها يفرضون إراداتهم على سكانها فكانوا يكلفونهم بتقديم الخدمة لهم ومنها نقل محصولهم بدوابهم إلى مكان خزنه[2].

لم يتوقف هؤلاء عند هذا الحد فقط، بل فرضوا ضرائب على سكان تلك الناحية عرفت بضريبة البرنوس وفي هذا الصدد يقول القصور الصحراوية جرت عادة العرب الظلمة في زمان قلة الزرع أو التمر يكلفونهم بظلامـــة يسمونها البرنوس ولا يرفعون أيديهم عن الفساد حتى يقع الصلح على أمـــر معروف على تلك الظلامة من قديم الزمان خلفا عن سلف لا يعرض لهم أحد من أشياخ القبائل ولا من أشياخ العرب[3].

ثم إن بعض الطلبة الآن يتعرضون للفتية لقنوا أشياخ القبائل وقالوا لهم ذلـــك البرنوس يلزم جميع أهل القرية شرعا أدبه من أهل القرية ومن لا يؤدي مغرما يخاف من العرب تخوف غيرهم[4] يتجلى من هذه النازلة مايلي:

أولا: أن هذه النازلة تفرض على الفلاحين لأن قصور توات تحتوي علـــى مجموعة من بساتين النخيل، تستغل الأراضي الموجودة بين أشجار النخيل فـــي إنتاج الخضر ومحاصيل الحبوب ولذا فالضريبة تسدد عندما يتم جنـــي المحصول.

1- عن تيجرارين انظر، الحسن الوزان، ج2،ص 133.

2- لمؤلف مجهول، نفس المصدر ،ورقة 25أ.

3- لمؤلف مجهول، نفس المصدر، ورقة 27ج.

4- نفسه، ورقة 27 أ.

ثانيا: أن نسبة تلك الضريبة تتم بعد الإتفاق بين أصحاب البساتين وشيوخ القبائل وعندما يرفض هؤلاء تسديدها يتعرضون للغارة من قبل هذه القبائل.

ثالثا: أن رجال الزوايا الذين يملكون بساتين كانوا معفيين من تقديم الضريبة لهؤلاء الشيوخ مثل ما هو عليه الحال بالنسبة إلى رجال الزوايا في الأقاليم الشمالية وهذا منذ فترة زمنية طويلة.

لكن بعض العلماء الذين ادعوا الفتوى في تلك القصور حثوا شيوخ القبائل على جمعها من جميع الناس وحتى رجال الزوايا و طلبة العلم[1] .

يضاف إلى ماسبق أن بعض رجال للطرقية كان لهم دور سلبي بالنسبة للمجتمع الزياني لأن وجود هذه الأجواء المعمقة بالقلق والاضطراب جعلت الناس يبحثون عن منافذ للراحة والطمأنينة فلجأ الكثير معهم إلى حياة الرغد والعزمة والإنقطاع للعبادة، ولكن المؤسف أن بعض المهندسين من الأدعياء وأمل الضلال استغلوا هذا الوضع فأنشأوا طرقا ظاهرها الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحقيقة أمرها للاسترزاق والسيطرة على الناس وافساد عقيدتهم وغير ذلك من الأغراض الدينية .وكان أثار ذلك ظهور الكثير من الإنحرافات والبدع والمنكرات التي بقيت أثارها إلى أيامنا هذه وقد وصل الأمر ببعض أتباع الطريقة الوسعية أن أدعى النبوة وتابعه في ذلك بعض الغوغاء والدماء في الحواضر والبوادي[2] .

1- نفسه ، ورقة 28أ.

2- أبو العباس الونشريسي المعيار المعرب ج2 ص301.

ولقد وصف أبو الحسن[1] الصغير هذا الوضع بقوله: انتشر في مغربنا طريق أحدثه رجال حطام الدين وجمعوا له غوانم من الذكور والإناث الذين صدورهم فارغة وعقولهم قاصرة.... وانتشر البغض بينهم وبين العلماء فافترقوا بكثرة اشياخهم على طوائف شتى، كل طائفة تجدي إلى شيخها وتطعن في الطائفة للأخرى وشيخها، وتواترت بذلك الشافئة و المباغضة بين الأشياخ وخلاصة القول أن الريف الزياني غلب عليه طابع القلق والفوضى والإضطراب وانعدام الأمن والظلم والغضب والصراع والمصادمات الجماعية والأوبئة والمجاعات ونحوها كما ظهرت العصابات التي احترفت اللصوصية وقطع الطرق على التجار المستحلين لتلمسان.

- الطرقية وتأثيرها على أحوال الدولة الزيانية:

أولا: موقف سلاطين الدولة من رجال الزوايا.

لعل اهتمام سلاطين الدولة الزيانية بهؤلاء المرابطين يعود بالدرجة الأولى إلى مكانتهم في المجتمع الزياني حيث كثرالإقبال عليهم من جل سكان الدولة، وقد كان يغمراسن[2] يتوجه إلى مدينة أجادير، لزيارة سيدي محمد بن عبد الله[3] في داره، التماسا إلى دعائه.

أما أبو تاشفين الأول[4] فقد استغل هؤلاء المرابطين لأغراض سياسية، حيث اتصل بالذين كانوا يتمركزون بالمناطق التابعة لأمير بسكرة ابن مزني[5]،

1- هو الحسن الصغير،ذوي البدع وأملها مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم946 ورقة(ن).
2- ابن خلدون يحي، بغية الرواد،ج1،ص204-208.
3- ابن مريم ، البستان، ص 224.
4- ابن خلدون، العبر، مجلد7، ص 222-225.
5- عن ابن مزني انظر ابن خلدون ، العبر، مجلد7، ص 689.

لحثهم على الثورة عليه وقدم لهم المساعدة المادية، لكي يتمكن بواسطتهم من إضعاف الدولة الحفصية[1].

أما الدولة الزيانية فكان سلاطينها يستغيثون بهؤلاء المرابطين، عندما تواجههم الأخطار الخارجية، فقد ذكر ابن مريم:

"أن السلطان أبا حمو موسى كان يوجه اعتناءه خاصة بسيدي علي، فيكثر من زيارته، ويلتمس إشارته، فلما قام عليه في أواخر سنة 841هـ/1437م ابن أخيه أبو زيان بالجهة الشرقية، وأبو يحي 838هـ/1434م الذي ملك وهران استصرخ بالشيخ علي الحسن بن مخلوف[2] فقال لها لا طاقة لي بالأمر " فإني أبعث أخي في الله سيدي بن يحي لشيخنا الهواري، وعندما وصله قال له:

" لا دخل لمحمد الهواري في أمر الملوك ولكن اذهب وقل له، لا خوف عليه، فإنه لا يرى الآخر أوالتصوف التي كانت ظاهرة إجتماعية عامة في المجتمع الإسلامي قد سبقت العثمانيين في الجزائر، ذلك أن كبار المتصوفين كانت لهم زيارة المراكز الثقافية مثل بجاية أمثال بن عربي[3] ابن سبعين[4] وكذلك سيدي بومدين وفي القرن 9هـ/15م، درس ببجاية الشيخ زروق[5] وتخرج عليه كبار المتصوفة أمثال محمد

1- نفسه، ج6، ص 688.

2- ابن مريم ، البستان ،ص 32-33.

3- أبو العباس أحمد الغبريني،عنوان الدراية فمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بوفار، الجزائر1970،ص 56-73-80.

4- نفسه ،ص86-209-211-309.

5- ابن خلدون يحي، بغية الرواد،ج1،ص 125أبو العباس،الغبريني عنوان الدراية ،ص 5-13.

الهواري[1] وعبد الرحمن الثعالبي[2] ومحمد بن يوسف الملياني فانتشرت الطرقية قبل وصول العثمانيين، كما أن حسن بن باديس صاحب السنية قد تحدث عن الشيخ عبد القادر الجيلالي وطريقته خلال القرن 8هـ/ 14م. وقد شاع التصوف في الجزائر بفضل دراسة الثعالبي والسنوسي وأحمد بن زروق.

- أثر الطرقية في الميدان الإجتماعي:

كان للطرقيين دور في القرن10هـ/16م، ومن بين هؤلاء الذين كان لهم تأثير في الأحوال الإجتماعية الملياني[3] الذي كان يحب الإتصال بأهل الريف وكان يدعو للسلم والتصالح بين القبائل المتحاربة لأن عصره عرف اضطرابات اجتماعية نتيجة لضعف الدولة الزيانية فكان لشيوخ الزوايا دور مشرف في حل المشكلات ولاتزال هذه الظاهرة إلى حد الآن. لكن في بعض الحالات كان هؤلاء سببا في سلبيات المجتمع وهوما يؤكده هذا النص: "حكي أن المرابط سليمان بن حفصة القلعيكان من تلاميذ الملياني وبلغ منزلة عظيمة ومقاما في الولاية فصار الناس يأتونه بالطرف والتحف ويدخل عليه النساء في خلوته، فنهى الشيخ عن ذلك فلم ينته[4].

نستخلص من هذا النص مايلي:

أولا: أن بعض رجال الطرقية استغلوا الوضعية السيئة للمجتمع فأصبحوا يستغلون الرعية فيأخذون أموالها وكان المجتمع يثق في كرامات هؤلاء الأولياء مثلا أن نخلات أبي بكر طارت بأجنحتها من مكة إلى المدينة

1- الصباغ ،زهر البستان، ورقة 18.

2- ابن مريم،البستان،ص228.

3- الصباغ،المصدر السابق، ورقة 12-17.

4- الصباغ، نفس المصدر،ورقة 76.

جذوعها لبناء المسجد النبوي الشريف[1] ويعترفون بأن شابا من شبان تنس مضى إلى مالقة وقت الظهر وعاد إلى تنس وقت العصر[2].

ولعل السبب في ذلك يرجع إلى انتشار الأمية في أوساط السكان والوضعية الإقتصادية والإجتماعية والسياسية التي عرفتها الدولة من جراء الحروب[3].

وتشير النوازل الفقهية التي أوردها المازوني والونشريسي انتشار الخرافات في أوساط العامة في المناطق الريفية.

فقد بين تلك النواحي الونشريسي فقد ذكر صاحب كتــاب المعيــار أنــه على تلمسان من جبل ونشريس نازله نزلت بأهله فاستفتوا فيها أشياخــنا بتلمســان وأن نص السؤال: "سيدي ماترون في رجل ينسب إلى الصــلاح ويزعم أمورا لايدعيها العقل يقول يرى جبرائيل ويقول يسمع منــه ويــرى ميكائيل حين يكيل المـــاء"[4].

فهذه النازلة توضح لنا تلك الخرافات التي كثر انتشارهــا فــي ربــوع أراضـــي الدولة الزيانية.

ومنها ما حدثني به الولي الصالح السيد يحي المغراوي القاضي الآن بقرية مصرانة، وأن رجلا يسمى سيدي علي الندرومي بلغ منزلة في الولاية تأتيه الناس من ندرومة بالهدايا والتحف[5]، لأن رجال الزوايا لهم نفوذ على المريدين

1- نفسه ،ورقة 57.

2- نفسه ،ورقة 68.

3- عن هذا الباب انظر الباب الأول من هذه الرسالة.

4- نفسه المازوني،ج2،ص4.

5- الصباغ، المصدر السابق، ورقة 18.

وأتباعهم من القبائل ولا تزال هذه الظاهرة لحد الآن فالناس يتقربون من هؤلاء ويقدمون لهم أموالا تعرف بالزيارة يأخذها شيخ الزوايا، كما يقدمون لهم نسبة من محاصيلهم الزراعية ومواشيهم[1].

وإن نفوذ هؤلاء لم يكن مقتصرا على الرعية فقط بل امتد إلى أعيان الدولة، وفي هذا الصدد يقول: "وقد رأينا عيانا والحمدالله والمنة لله السلاطين والقواد وغيرهم وسائر الظلمة يعظمون أولاد الصالحين والحفائد ويحرمونهم ويكرمونهم مع ماهم عليه من الضلال وسوء الحال والتحاسد والتباغض بينهم"[2].

وهو مايوضحه المازوني[3] بقوله: سئل عبد الرحمن الوغليسي عن مرابطي بوادينا، يكون لهم شيخ يجتمعون عليه ويدعوهم رجل للمبيت عنده ليرد ذلك مالا من يد ظالم ظلمه فيما أو لإصلاح بينه وبين من عداه من قرابة وغيرهم أو ربما كان ذلك بين قبيلتين وايقمع جائرا أجار عليهم في ماله وأهله أو في ولده في موضع لا حاكم فيه، يزجر أهل الدعارة فإن أجمع هؤلاء المرابطون للذكر لا يقتصرون عليه بل لا بد مع من التصفيق بالأكف والتمايل يمينا وشمالا[4]. وإن الظلمة لا يرجعون من المظالم التي ظلموا فيها الناس شيئا إن لم يكون الإجماع على الوجه المذكور ولو ترك بذلك أدى إلى فساد كسفك الدماء ورفع المحصنات وغير ذلك من أنواع الفساد . يتضح من النص مايلي: أرياف المغرب الإسلامي ينتج عنها فوائد بالندبة للمجتمع حتى تؤدي إلى:

1- نفسه ، ورقة 19.

2- نفسه ، ورقة 20.

3- المازوني ،المصدر السابق، ج2.

4- المازوني ، المصدر السابق، ج2.

أ- إن الذي يشرف عليها هو شيخ الزاوية الذي يجمع حوله مريديـــة فـــي الذكر والقيام بأعمال كالرقص والتصفيق ولاتزال هذه الظواهــر لحــد الأن في أغلب الأرياف التي تتوفر على تلك الزوايا.

ب- إن الزردة تكون عند ضريح شيخ الزاوية وفي بعض الحالات في أحد منازل أحد المواطنين ويهدف من وراء قيامها مايلي:

1: التصالح بين الأسر والقبائل المتصارعة، أو قمـــع أحـــد جبـــابرة الوطن الذين كانوا يسيئون إلى سكانه فيستدعى هذا الجبـــار لحـــضورها ثـــم بعد ذلك يكون التأثير عليه للتخلي عن عمله الذي يتنافى مع مبـــادئ الشريعة الإسلامية ويستطيع شيخ الزاويـــة ومـــريـــدوه التأثيـــر عليـــه، أو إرجاع ما نهبه من السكـــان من أموال الضرائب فرضها عليهم وبذلك يكون الجانب الإيجابي لهذه الزردة أكـــثرمـــن جانبهـــــا الـــسلبـــي، لأن ترك الموضع على ماهو عليه سيؤثر على انعدام الأمن وهناك أعـــراض الناس والإعتداء على القوافل المارة وهناك نازلة توضح لنا دور رجـــال الزاويا أوردها المازوني بقوله: " سئل الحفيـــد محمـــد العقبـــاني عـــن أنـــاس من سكـــان البـــوادي ينتسبون إلى الرباط وتحـــرر لهـــم الأزواج ويعلمون دوارا ومداشر ويسمونها بالزاوية وتدافـــــع عـــن النـــاس مـــن الأخطار والمسافرين وتحصن هؤلاء بهـــا عنـــد شـــدة بـــرودة الليـــــل والخـــوف على نفوسهم يتركونهم متخوفين بساحة زاويتهم"[1].

1- المازوني ، المصدر السابق، ج2.ورقة 65.

يتضح من النص مايلي:

1: أن سلاطين الدولة كانوا يعمدون الى إقطاع الأرض للذين يريدون بــناء الزوايا بعد اختيارهم المكان الذي يريدون البناء به.

2: إن هذه الزوايا لها دور ايجابي يتعلق بحماية المسافرين إن كان موقعها على طرق القوافل التجارية، لكن بعض هذه الزوايا لا تقوم بواجبها فتتــرك هؤلاء المسافرين في ساحتها دون أن تفتح لهم أبواب الزاويـــة وتقـــدم لهــم ما يحتاجون إليه من الأكل والحماية.

عكس بعض الزوايا الأخرى التي تؤدي الدور المنوط بها وهو ما يؤكده المازوني في هذه النازلة بقوله: "عن أقوام من المرابطين تدركهم الصيانة على الدوام والاستمرار لكونهم ساكنين في الطريق وتلحق بعضهم في ذلك مشقة لتعرضهم للضياف في كل وقت فأرادوا الإعانة من جيرانهــم.

يستخلــص من النازلة ما يلي:

إن الزوايا التي كانت توجد في الطرقات، كان أصحابها يعانون مــن توافــد الناس على زواياهم من أجل الأكل والإقامة، لكن هؤلاء يعجزون عــن ذلك لقلة الإمكانيات المتوفرة لديهم، مما جعل شيخ الزاوية يطلــب مــن جيرانهم مساعدتهم[1].

كما كان هؤلاء المرابطون يشاركون في تلك الصراعات التي كانت تتخبط فيها الدولة، وهو ما يؤكده ابن مرزوق من خلال هــذه النــازلــة: "ســئل ابن مرزوق عن مرابطين إذا وقعت فتنة بين الناس ينزعون معهم وبعضهم

1- المازوني، المصدر السابق، ج2، ورقة 72.

يفصل بين الناس بعضهم عن بعض، والبعض الآخر يقف مع أحد الفريقين"[1].

وهكذا نجد بأن هؤلاء المرابطين في المجتمع الزياني، كان لهم تأثير في الصراعات التي يتخبط فيها المجتمع نتيجة للصراع بين القبائل، كانوا يقومون بالفصل بين هؤلاء القبائل، وفي بعض الحالات يكون لهم دور في الصراع حيث ينضم بعضهم إلى طرف من أطراف الصراع.

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد فقط، بل كان بعضهم يسلك مسلك شيوخ القبائل وفي هذا الصدد يقول المازوني "سئل عبد الرحمن الوغليسي عن مرابطين يتقدمون على أصحابهم فيعدون ما يجب عليهم من الزكاة أو قطع الأرض للرجل المذكور أو شبيهة إما ثلاثين ذهبا أو أربعين، أقل وأكثر ويترك لهم ما ينوبهم من ذلك ولا يقصونه بعد ذلك على قدر ما ينوبهم الغني منهم والفقير، فهل يحق لهم التمسك بذلك أم يقصونه[2] على أصحابهم أو كيف تفعل؟.

أجاب الوغليسي أن ذلك لا يحل وأنه مظلمة، وهؤلاء الذين يتوسطون في ذلك منزلة شيوخ القبائل فيما يتولون من ذلك وما يقبضونه وذلك إعانه على الظلم.

فهذه النازلة توضح لنا بأن رجال الزوايا كان البعض منهم يستعمل نفوذه في تحقيق المصالح المادية، وهذا يتعارض مع مبادئ التصوف الذي عرفه العالم الإسلامي قبل هذه الفترة فأصبحوا يقومون مقام الدولة في جبي الأموال، وبذلك فهم لا يختلفون عن شيوخ

1- نفسه،ج1، ورقة 66.

2- نفسه ،ج1،ورقة 67.

القــبائـــل في تسخير الناس، كما أساؤوا للجانب العقائدي بأخذهم الزكـــاة ظلــما من أصحابها.

- التأثيرات السلبية عــلى الأسرة:

سبق لنا تناول المجتمع ككل والآن نحاول أن نعالــج أوضاع الأســرة الزيانية في خضم هذا الصراع، لأن هذه الأخيــرة أول من تأثر بأوضاع الدولة الزيانـــية وخاصة في الجانب الإجتمـــاعي، وسيكون تركيــزنا على المرأة ،للــدور الذي تلعبه في المجتمع الزيانـــي.

يلاحظ الدارس لكتب النوازل أن سكان الدولة الزيانيـــة ينقســمون إلى بدو وحضر.

- دور الــمــرأة[1]

الطابع العام للأسرة الإسلامية هو السائد من حيث مركز الأب ونفوذه على زوجته وأبنائه واحترام الزوجة لزوجها والأبناء لوالدهم لذلك فان المجتمع الزياني يعتمد كثيرا على الذكور. فالأب هو المسؤول الأول عن الأسرة وهذا تطبيقا لما ورد في القرآن العظيم الرجال قوامون على النساء ويقوم برعاية الأسرة في غياب الأب العم أو الإبن الأكبر أوأقرباء الأسرة من الذكور وبداخل المنزل فإن الأم أو الأخت الكبرى هي صاحبة الأمر والنهي وإذا كان الأمر يتعلق بشؤون بالغة الأهمية من الزواج والطلاق والبيع والشراء فإن المسؤول الاول عن العائلة يعقد مجلسا عائليا يستمع فيه لأراء جميع أفراد

1- عن دور المراة في فترة العصور الوسطى والأعمال الفلاحيه، التي كانت تقوم بها،
- انظر: الصنهاجي، البيدق، تحقيق: حاجيات،الجزائر.
- المازوني،الدرر المكنونة، تعرض لعملها من خلال مجموعة من النوازل، ور قات

العائلة الراشدين وبذلك فإن نظام الأسرة في المجتمع الزياني يتميز بنوع من الديموقراطية على الرغم من مظهره الدكتاتوري.

لكن هذا لا يقلل من دور المرأة في الحياة العامة بالدولة الزيانية بالرغم من القيود الاجتماعية التي فرضتها التقاليد على المرأة إلا أنها أسهمت بدور بارز في النشاط السياسي، حيث أن أم يغمراسن بن زيان سوط النساء كانت على رأس الوفد الزياني الذي وقع المعاهدة مع أبي زكرياء الحفصي عندما هاجم تلمسان.

كما أنه خلال المعارك التي دارت بين المرينيين والزيانيين كانت النساء يشاركن فيها حيث يقفن وراء المتحاربين لحثهن على الصمود ولم يكن هذا مقتصرا على الدولة الزيانية بل شمل حتى المرينيين.

وخلال الحصار المريني الكبير لتلمسان كان لهن دورا كبيرا في حث أمراء الدولة على القتال فقد ذكر ابن خلدون من بين الخادمات التي يعملن في قصور بني زيان دعدع وهي قهرمانة القصر ووصيفة بنت السلطان الحفصي أبي اسحاق وزوجة أبي سعيد عثمان بن يغمراسن قد خرجت من القصر واتجهت لابنها أبي زيان وأبي حمو موسى الأول وحيتهما بتحيتها ثم قالت لهما حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم مالنا والبقاء وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لاتهامكم بالجبن ولم يبق الافراق باكية لمصارعكم ،فأريحونا من عرة السبي وأريحوا فينا أنفسكم وقربوا الى مهالكتنا فالحياة في الذل عذاب ،والوجود بعدكم عدم. فالنص يوضح لنا تدخل نساء الدولة في الشؤون السياسية.

ولم تكن المرأة الزيانية محجوبة داخل المنزل على الخصوص الطبقة الراقية بل كانت تتجه إلى المتنزهات التي توجد بداخل المدينة أوخارجها

حدائق والمقابر خاصة أيام المواسم الدينية وزيارة قبور الأولياء كالحلوي يدي بومدين وغيرهما من الاولياء الصالحين.

كما كانت تخرج إلى السوق لاستحضار مطالب الأسرة إلاّ أن خروجها يتم *إلا بموافقة أحد أفراد العائلة من الذكور. لكن مؤلفي النوازل يذكرون أن* مرأة كانت تتوافد على سوق الغزل وسوق العطارين والصياغين وسويقة نشر الجلد

وأن هذا الخروج كثيرا ما كان يشجع الانحلال الخلقي ولمحاربة هذا قام العلماء بتحريم خروج المرأة وحتى إقامة الصلاة في المسجد بالنسبة للفتيات الصغيرات غير المتزوجات.

- الزواج والأسرة:

ركز الاسلام على الزواج ومن بين أهدافه تكوين الأسرة ويتبين ذلك في *الآية الكريمة : "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل* بينكم مودة ورحمة"

قد بينت هذه الآية أن كل من الزوجين يجد السكن والطمأنينة والاستقرار في الآخر، وأن ذلك يؤدي إلى المودة والرحمة والزواج في الاسلام نصف الدين فقد قال الله تعالى: "وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادك" وقال القرطبي: الزواج طريق التعفف وقول الرسول(ص) يا معشر الشباب من *استطاع منكم الباء فليتزوج ومن لم يستطع* فعليه بالصوم فإنه له وجاء، وقوله (ص) من كان موسرا ولم يتزوج فليس مني.

الخطبة : وهي مقدمة تمهيدية للزواج أساسها التعارف، وقد أجيز للفتى أن يلاحظ الفتاة عنها ويراها خلسة أوعلنا قبل الإقدام على الخطبة فإذا رجح لديه جانب الايجاب واطمأن إلى أخلاقها وشخصيتها يتقدم لخطبتها وتجري العادة أن يقدم لها شيئا يرمز إلى الإرتباط، وتنتهي مدة الخطبة بعقد الزواج الذي غالبا ما كان يتم عن طريق قاضي الأنكحة، والأثر الذي يترتب على الخطبة أنه يحرم على غير الخاطب أن يتقدم لخطبة هذه الفتاة.

العقد يتم بموفقة القاضي بعد موافقة الأب ووجود شاهدين وموافقة البنت والولد وتحديد الصداق ثم يدعوا الخاطب إلى قراءة الفاتحة بالمسجد.

أما العائلات الغنية فكانت تستدعي القاضي لكتابة العقد بالمنزل بعد موافقة الطرفين وبحظور أفراد العائلتين.

وأما في البادية فتتم الخطبة بحظور كبار القرية الذين يتدخلون حتى في تحديد شروط المهر ولهم الكلمة المسموعة وهذه الظاهرة استمرت في الأرياف الجزائرية.

ويرى الونشريسي بالنسبة للقرى أن عدم حضور القضاة لتسجيل عقد الزواج في البوادي راجع إلى الجهل في هذه البوادي وفي هذا الصدد يقول: "من عادة أهل البادية ذم الكتب حين العقد وعدم حضور من يعرف أركان النكاح".

على أن واجبات المرأة تختلف فالبداوية تكد و تجد في العمل حتى يكاد أن يكون الزواج في بعض الأحيان نوع من الاجارة والعبودية لايمكنها التخلص منه بينما تكون حياة الحضرية أكثر رفاهية ومما يؤكد ذلك قول المازوني:

[كان شيخنا عبد الله السبتي رحمه الله توفي 1389/782 يحكي عن شيخ من شيوخنا أتته امرأة من صنف الحضر- وكان قاضي أنكحه - تشكوا وجع يديها من العجن، قام زوجها بشراء خادمة تخدمها وجاءته بدوية تشكوه خدمتها من الطحن وحمل الماء والحطب وغير ذلك من خدمة البادية ومشقاتها فأمرها أن تقع معه وتعاشره على ذلك وقال إن نساء البوادي دخلن على ذلك.

الصداق : أو المهر، هو مقدار من المال أو المتـــــاع يقدمه الرجل للمرأة وقـــد قال الله تعالى: وآتوا النساء صداقتهن نحلة ...الآية . ونتوصل من خلال هذه الآية أن الصداق منحة وعطاء للمرأة رغبة في الإقتران بها والمال حق خالص للفتاة والمفروض أن يقدم المهر كله عند العقد ولكن قد يجرى العرف أن يقدم نصفه وثلثه ويؤخر الباقي، وكان هذا متبعا خلال العهد الزياني فقد ذكر المازوني عن رجل زوج ابنته البكر بصداق وخادم على أن المعجل من ذلك الشطر الدنانير.

والصداق هو من أركان الزواج في الشريعة الاسلامية ولكنه يتماشى مـــع مستوى الشخص من الناحية الاجتماعية ويتجه الفكر الاســـلامي إلـــى عـــدم المبالغة فى المهر. قال رسول الله (ص) خير المهر أيسره مؤونة.

وفي المجتمع الزياني كان مرتبطا بالناحية الطبقية. قال المازوني أن أحد القضاة خطب إبنة رجل من مرابطي وطنه، وكان ليلة العقد عمل لها الزوج في نقدها ما يليق به من حلي وثياب وغير ذلك وعمل الأب لابنته في شورها ما يليق أيضا بمنصبه وهمته ويساره.

كما يحدد المهر بالدنانير وهو ما يؤكده المازوني بقوله عمن عقد علـــى ابنتـــه البكر النكاح من فقير بمائة دينار ذهبا وهو لا يعلم ماعنده إلا قيمة عشرين دينار.

لم يكن الصداق مقتصرا على الدنانير فقط بل كان يشمل الأساور والملابس والفراش والمواشي في البادية كانت هي الأخرى تشكل جزءا من الصداق وتدفع أثناء نقل الفتاة من منزلها حتى أن بعض العائلات الغنية كانت تلجأ إلى تقديم قطعة من الأرض أوبستان كهدية للعروس عند زفافها.

وهناك زواج كان يتم بين أمراء المغرب الإسلامي كما حدث بين الأسرتين الزيانية والحفصية.

وفي بعض الأحيان بين شيوخ القبائل وأمراء بني زيان وقد استمر هذا إلى نهاية الدولة الزيانية وفي المرحلة الأخيرة كان مقتصرا على شيوخ بني عامر أو بني راشد مما كان في الغالب يؤدي إلى الصراع بين القبيلتين.

كما كان التسري بين سلاطين الدولة والجواري المسيحيات من الأمور الشائعة فهناك وثيقة تشير إلى تسري تم بين أبي سعيد وجارية مسيحية ولعل هذه لم تكن الحالة الوحيدة .

يلاحظ بأن سكان الدولة الزيانية خلال هذه المدة تأثروا بالجوانب العقائدية عن طريق الفقهاء ورجال الزوايا المنتشرين في أغلب أرياف الدولة الزيانية ومدنها، وكان للمرأة نصيبا كبيرا من عناية هؤلاء الفقهاء، ولعل السبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى انعدام الاستقرار السياسي وضعف قوة الدولة، وتأثير العناصر الأجنبية في المجتمع الزياني من أهل الذمة، وحتى الجالية الأندلسية.

ففي البوادي كانت حياة المرأة لا تختلف عما هي عليه الآن في بعض المناطق النائية مثل الأوراس وجرجرة، حيث أنها تشتغل إلى جانب زوجها

بالأعمال المتعلقة بالفلاحة، مثل الإعتناء بالأشجار وجمع ثمارها والحصاد وجمع الزرع مع إشتغالها بعملها المنزلي كربة بيت، تسهر على إعداد الخبز والحطب، وتسقي الماء والعنابة بمواشيها، وهذه الأعمال كانت مألوفة لدى المرأة منذ القدم.

لكن في هذه المدة بدأت تطرح مجموعة من الأسئلة من قبل الفقهاء عــن رأي الشريعة في أعمال المرأة. فرأى بعضهم أن تكاليف المرأة إن كانت داخلة في تقاليد المجتمع والأسرة، وإن الأعمال التي تقوم بها طواعية وتلقائيا بقصد خدمة زوجها فلا شيء يسمح لها بأن تطالب بأجرة عن التكاليف.

فالدّارس لكتب الفتاوي في المغرب الإسلامي، ومنها أراضي الدولة الزيانية، وعلى الخصوص ما كتبه المازوني[1] يلاحظ الحماية التي أقرتها تلك الفتاوى لصالح المرأة من أجل استغلال محتمل من قبل زوجها أو من لدن الورثة عند وفاته مثل الإخوة و أقارب المتوفي. لكن النساء القرويات فــي هــذا العصر كــن معافيات أو معفيات من قلة الوعي مما جعلن عرضة لاستغلال الرجال. وفــي هذا الصدد يقول المجاجي[2]: "ومن جملة الأسباب التي يستعان بها في هذا الوقت سيما الضعفاء والمساكين والفقراء والتكسب والتحرش بخدمة النساء، فأردت الآن أن ننقل مافي ذلك من كلام الأئمة ليكــون فيما يتعاطاه من ذلك وفي تركه على ثقة لأنه لا محل لمن يؤمــن بــالله واليوم الأخرأن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه".

1- المازوني ، المصدر السابق، ج3،ورقة 114.

2- المجاجي، المغارسة، ورقة 57.

فهذه النازلة توضح لنا مايلي:

أولا: أن استغلال المرأة كما أسلفنا لم يكن عاما بالنسبة إلى جميع أفـراد المجتمع، بل كان مقتصرا على الطبقة الفقيرة التي تعمل أكثر لكـي تحصـل على احتياجاتها، ويشارك في العمل كل أفراد الأسرة بما فيهم المـرأة نفسهـا وهذه الظاهرة لم تتغير لحد الآن.

ثانيا: إن الفقهاء يحـاولـون ربط عمل المرأة بما تـم الإجماع علـيه مـن قبـل الأئمة.

ومن بين الأئمة الذين رجع إليهم المجاجي القرطبي فقال:

"من الناس من أوجب على المرأة خدمة بيتها مطلقا، ومن هنا التفـصيل علـى مقتضي العادة، فإن كانت شريفة فلا تخدم، وإن كانت المرأة من قوم عـادتهم الخدمة خدمت، وإن جهل الحال ولم تعرف عادة أهل المرأة فالأصل الخدمـة إلا أن يتبين عدمها"[1].

نستخلص من هذه النازلة مايلي:

أولا: أن القرطبي أورد آراء الناس في خدمة المرأة، فقال عنهم أنهم اختلفوا فيما بينهم، فمنهم من يرى بأن المرأة لا بد عليها خدمة بيتـهـا، وفـي هـذا الصدد يجب عليها أن تنظف بيتها وتفرشه وتخدمه وتطبخ الطعام وتسقي الماء إن كانت عادة البلد كذلك، وهي الأعمال التي لا تزال المرأة تقوم بهـا حتـى الآن في الأرياف، ومنهم من يرى عكس ذلك، ومن هـؤلاء القاضي عيـاض الذي ذكر بأنه لا يجب على المرأة خدمة خـارج البيـت إلا بتطوعها عـلى وجـه الإعانة وحسن الصحبة.

1- المجاجي ، المصدر السابق ، ورقة 128.

وأما الخدمة في البيت كالطحين والطبخ والكنس، فذلك بحسب أقدار النساء، فعلى الشريعة الأمر والنهي[1].

فالقاضي عياض يفرق بين نوعين من العمل:

الأول: خارج البيت، وهذا لا يتم إلاّ بتطوع منها ولا يجوز لزوجها أن يرغمها على ذلك، لأنه خروج على الشريعة الإسلامية.

الثاني: العمل داخل البيت، هذا مرتبط بمكانة المرأة، فإذا كانت من الطبقة الفقيرة، فيجوز لها العمل أو يفرض عليها عكس إن كانت من الطبقة الغنية، فإنه يجب على زوجها أن يحضر لها عاملة تقوم بمهام البيت. وهو ما يؤكده المازوني[2] بقوله:" كان شيخنا أبو محمد رحمه الله تعالى، يحكى عن من أدركه من الشيوخ أنه أتته امرأة من الحاضرة تشتكي وجع يديها من العجين فأمر زوجها بشراء خادمة لها، وأتته إمراة من البادية تشتكي من الطحن وحمل الماء والحطب، وغير ذلك، فأمرها بالبقاء مع زوجها ومعاشرته على ذلك، لأن نساء البادية على ذلك دخلن. فالمازوني في هذه النازلة يجمع بين النكاح والإجارة بالنسبة للبدوية، لأن عادة نساء أهل البادية يقمن بهذه الأعمال عكس أهل الحاضرة، مما جعله يطلب من زوج المرأة التي قدمت إليه من المدينة أن يشتري لها زوجها خادمة تخدمها، لإختلاف المستوى الإجتماعي بين أهل المدينة والريف، لأن النساء في المدينة في عادتهم لا يقمن بذلك العمل، وهذا يتفق مع ما ذكره القرطبي، إذا كانت من قوم عادتهم الخدمة خدم وإن كانت شريفة لا تخدم. وفي بعض الحالات كانت المرأة تقوم

1- نفسه ، ورقة 129.

2- المازوني، الدرر المكنونة ،ج2، ورقة 117.

بالعمل وتطلب من زوجها أن يدفع لها مقابل عملها، وهو ما يؤكده المازوني عندما طرح نازلة، وجهت للمشدالي، وقال سئل عن الرجل يشتري الصوف أو الشعر، ويأتي بذلك لزوجته ويستعمله كما هو شأن البادية ثم أرادت بعد فعلها ذلك أن تحاسب زوجها بعملها. يتوصل المازوني[1] إلى نتيجة مفادها، أنه إذا كان هناك اتفاق مع زوجها على ذلك فيجب عليه أن يدفع لها نصيبها، فهي بمثابة شريك له، فهو بالصوف وهي بالعمل. وهناك نازلة أخرى تتعلق بعمل المرأة، جاء فيها: "سئل العقباني عن المرأة تريد التصرف في الصوف لنفسها بغسله ومشطه ونسجه ويريد زوجها أن يمنعها من ذلك". فالمنع ربطه العقباني بعاملين أساسيين.

أولا: إذا كان الرجل لا يريد أن يرى زوجته في هذه الحالة من غسل ومشط، بل يريد أن يجدها نظيفة متزينة لكي يستمتع بها وأنه لا يريدها أن تذهب إلى المجاري المائية لغسل الصوف حفاظا على شرفه، فهو محق في ذلك، ويجوز له منعها عن هذا العمل خاصة إن كان له ما يكفيه دون الحاجة لعمل زوجته.

ثانيا: إذا كان عملها لا يمس بشرفه ولا بنظافة زوجته ولا ينقص من واجبها نحوه، فهو لا يجوز منعها من العمل، لأنه يعتبر إلحاق الضرر بها، لأنها تستفيد من عملها. وهكذا فإن الفقهاء حاولوا تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بعمل المرأة، ولا تزال مشكلة العمل بالنسبة للمرأة مطروحة في عصرنا الحالي. ومن العادات التي كانت متبعة في أراضي الدولة الزيانية عدم التزام أبي الفتاة بالزواج قبل بلوغ سن الرشد، وأن الزواج

1- المازوني، المصدر السابق،ج2، ورقة 87.

لا يتم في الغالب إلا برضاها وبوجود شهود، لكن هذه الفترة التي لم تعرف الاستقرار جعلت بعض الرجال يستغلون الفرصة ويخطفون الفتيات[1]. ويعيشون معهن مدة ثم ينتهي الأمر بالزواج منهن إن وافق أبو الفتيات على الزواج وإلا حرمت الفتاة من رؤية ولديها.

- أثر انعدام الأمن على المرأة:

إن وضعية المرأة في الدولة الزيانية خلال هذه الفترة موضوع البحث لا تقل عن بقية أفراد المجتمع الزياني لأنها جزء منه، فكان استغلالها بأشبع الصور خاصة في الريف حيث ينعدم الأمن وتقل سلطة الدولة، فتتعرض المرأة إلى استغلال أشبع كالاعتداء على شرفها وكرامتها لعدم وجود من يدافع عليها إذا كانت تنتمي إلى القبائل الضعيفة أو الغارمة حسب مصطلح ابن خلدون، وقد أورد المازوني مجموعة من النوازل تتعلق بها منها عن رجل اغتصب امرأة فهرب بها فبقيت عنده نحو الجمعة (أسبوع) يستمتع بها على سبيل الإكراه ثم بعد ذلك ردها إلى أهلها هل يلزمه الصداق[2]. فهذا الشخص يبدو لي أنه من ذوي الجاه مثل شيوخ القبائل الذين لا يراعون حرمة الله والعباد وعلى الخصوص أمام ضعاف القوم، لذا كيف نفسر سكوت أفراد عائلتها على ما حدث لها و اكتفوا ببساطتهم بالصداق فقط وهذا لم يكن من سمة المجتمع الزياني في فترة قوة الدولة حيث وفرت الحماية للمواطنين. وهناك نوازل أخرى تتعلق بهذا الموضوع منها سئل عن يتيمة خاف '' الفساد لأنها في موضع يغلب عليه الفساد وهو المعروف ببلاد السايب التي

1- المازوني، المصدر السابق، ج2،ورقة 66.
2- نفسه، ج2، ورفة 56.

لا يوجد بها أي أثر لسلطة الدولة الذي يعرفه المازوني[1] بقوله: " لضعف أحكام القضاة وهو مايدفع بولي أمرها تزويجها في سنة مبكرة مما يشكل خطرا على حياتها خلال عملية الإنجاب الأولى. يعرفنا الحفيد العقبـــانـــي عـــن كيفية هذه الإعتداءات فيقول الهارب على عادة البادية وهي العادة المشهورة عندهم يأتون في صورة الحرابة شاهري السلاح وبذلك لا يمكـــن لأي أحد الوقوف أمامهم. هذا فيما يتعلق بالمرأة الريفية أما أختها في المدينة فتبدو أكثر حظا منها مثل اللواتي ينتمين إلى العائلات ذات الجاه و المال كبار الحرفيين والتجار والمزارعين الذين يملكون ثروة كبيرة وتجعلهم يعيشون حياة الترف وهو ما أكده السليماني[2] عند تعرضه للسلاطين المتأخرين لهذه الدولة ولا يمكن في رأينا اقتصاره على الأسرة الحاكمة فقط بل موظفي الدولة وشيوخ القبائل وهؤلاء يملكون عدد من الخدم جواري وعبيد مصدرهم تجارة الدولة الزيانية مع أوربا والسودان الغربي فازداد عدد هؤلاء في تلمسان مما جعلهم يؤثرون سلبا على الأحوال الإجتماعية بها وهو ما يؤكده العقباني بقوله: "وماهو مألوف في تلمسان اجتماع الجمع الغفير والملأ الكثير منهـــن على السقايان والأفران لسقي الماء أو طبخ الخبز فيطلن الوقوف هناك بغير ماتبين له على الاستدعاء في الحديث مع فسقة العبيد وبعض الأحرار على ما ظهرت آثاره في الكثير من الدور بولادة الخدم فيهن أبناء الزنا[3]. زيادة على ماسبق يلاحظ الباحث أن مدينة تلمسان كانت تحتوي على مجموعة من الأفران

1- المازوني،المصدر السابق،ج2،ورقة 97.
2- السليماني، الشماريخ، ج3، ورقة 124
3- العقباني ،تحفة الناظر،ص261

خاصة بطهي الخبز سواء الذي يخبز بالدور أو من قبل الخباز نفسه ثم يباع للناس وهو ما يوضح لنا الرقي الذي بلغته هذه المدينة.

كما أن تلمسان كانت تحتوي على مجموعة من العيون بأغلب دروب المدينة وأن نقل الماء منها إلى المنازل يكون بواسطة هؤلاء الخدم فيما يتعلق بالعائلات الغنية.

لم يقتصر الإنحلال الخلقي على العبيد والجواري فقط بل امتد أيضا إلى بعض العائلات فانتشر في صفوفها الشذوذ الجنسي، ولعل ذلك راجع بالدرجة الأولى لتأثير الهجرة اليهودية والأندلسية في أراضي الدولة الزيانية انتشرت بها عادات لا تتماشى مع المجتمع الزياني .وقد أكد أحد السجلماسيين الذي ألّف للمتوكل كتابا في الأحكام، تعرض للموضوع وأثاره على المجتمع كما تعرض إليه العقباني فقال: "ومنها ما يفعله شرار النساء من التفاعيل لا سيما ما يدعو إليه اطلاع بعض الفاسقات على محاسن الأخريات وتحريك شهوة التفاعل على الذين يختار بعضهن لذته عن مباضعة الرجل والحكم في تأديبها وقد كثر هذا في زماننا[1].

فالشذوذ الجنسي نشأ داخل العائلات وبين النساء خلال اجتماعهن في بعض المناسبات التي تعرض لها العقباني[2]، ومنها:

خروج النساء لمجالس تجمعن كما يفعلن عندنا في مجمع يسمونه التويزة، يغزلن عند امرأة واحدة في منزلها عندما تدعوهن لغزله من كتان وصوف إعانة ورفق، لكن بالنسبة للعقباني وبعض فقهاء تلمسان المتشددين في أحكامهم

1- نفسه، ص،269.

2- العقباني، المصدر السابق. ص:264.

يرون فيه خطرا على الفتاة أو المرأة الصغيرة المتزوجة حديثا، حيث يضع لهن الشباك بعض النساء المحترفات في ميدان الدعارة، فيؤدي بهن إلى الفرار من بيت الزوجية.

لم يقتصر إجتماعي في مجتمع التويزة فقط وبل حتى لدى الصناع، وعلى الخصوص الذين يصنعون الحلي[1] والمنسوجات والتجار الذين يبيعون القماش، وما تحتاج إليه المرأة من عطر وغيره. وهذا في رأي العقباني له تأثير سلبي، لأن صناع عصره والفترة الموالية له، لم يتقيدوا بالأحكام الشرعية لضعف الدولة الزيانية وضعف من يتولى شؤون الحسبة. يضاف إلى ماسبق ما يحدث في المناسبات كالأعراس، حيث تقوم الأفراح ويحدث الإختلاط فيما بين الرجال والنساء لسماع المغنيين والمغنيات، لأن تلمسان خلال هذه الفترة عرفت توافد عدد من الأندلسيين الذين نشروا الموسيقى بها. وهو ما يؤكده العقباني بقوله: "وأما ما يقع في تلمسان من اجتماعهن على احتفال أو تزيين فيحلقن دائرة على رجل غير محرم يغنين ويطربن"[2]. يضاف إلى ماسبق زيارة المقابر، وعلى الخصوص في المواسم الدينية، لأن أغلب المقابر في الدولة الزيانية توجد خارج المدينة. فكان الرجال، وعلى الخصوص الشبان يتعرضن لهن لمغازلتهن وتحديد موعد لهن، مما دفع بالعقباني إلى المطالبة بمعاقبة هؤلاء حتى يتم القضاء على الآفات الإجتماعية التي بدأت تنتشر في تلمسان.

1- نفسه، ص: 260-261.

2- العقباني، نفس المصدر،ص :264.

- التأثيرات السلبية بالنسبة للطبقة العاملة

*** أولا: المــزارعــين:**

إن خصوبة أراضي الدولة الزيانية التي كانت تمتد من جبال أكفــادوا فــي بلاد القبائل الكبرى إلى حوض وادي الملوية[1] وسط الجزائر وغربها جعلــت السكان لا يعتمدون على نمط واحد في الحياة، بل نجد ثنائية الاستقــرار والترحال، بين الزراعة وتربية المواشي.

*** أنواع المزارعــين:**

فإذا كانت المصادر التاريخية التي تناولت حياة الدولة الزيانية قــد ركزت بالدرجة الأولى على أمراء هذه الدولة وعلاقتهم الخارجية، وخاصـــة مع الدول المجاورة لهم والقبائل المستقرة بمحيط دولتهم، فإنها لم تلق الضوء على المزارعين، لذا كان لا بد لنا من الإعتماد على كتــب النوازل، لأنها تغطي بعض الجوانب المظلمة من حياة هؤلاء الفقــراء والمساكين. وحسب ما أورده المازوني[2] فإن هؤلاء المزارعين يتشكلــون من ثلاث أصناف:

أولا: مزارع مستأجر[3] وهو الذي يكتري أرض غيره لمدة سنة أو أكثــر، ويلتزم بدفع الكراء إلى صاحبها.

1- عن سهول هذه المنطقة، انظر : حليمي، المرجع السابق،ص: 96

2- المازوني، المصدر السابق،ج2،ورقة 76.

3- نفسه ،ج2،ورقة 86

ثانيا: مزارع مشارك[1] لصاحب الأرض ويعرف بالخماس، و كان عليه أن يقوم بجميع الأعمال بما في ذلك خدمة الحيوان الخاص برب الأرض.

ثالثا: مزارع موسمي يعمل بالأجرة في أيام الحرث والقطف والحصاد.
والراجح أن أغلب هؤلاء المزارعين كانوا يعملون في أراضي القبائل العربية التي استقرت بأغلب أراضي الدولة الزيانية بعد أن أزاحت عليها القبائل البربرية كبنى توجين و مغراوة وبني راشد وبني عبد الواد الذين فضل بعضهم الاستقرار بالمناطق الجبلية الوعرة مثل الظهرة وجبل الونشريس، فأصبحت أراضي السهول ملكا لهذه القبائل بعد أن تخلت عليها الدولة الزيانية لصالح سويد وبني عامر وبني يزيد الذين كانوا يقدمون مساعداتهم للدولة خلال الحروب التي دارت بينها وبين أعدائها من المرينين والحفصين والقبائل البربرية المعادية لها، وعلى الخصوص في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، الذي عرف بكثرة اقطاع هذه القبائل كما هو الشأن بالنسبة لبني عامر وسويد وذوي عبدالله من المعقل.

لم يتوقف عمل هذه القبائل على استغلال الأرض فقط، بل فرضت ضرائب باهضة على المزارعين، خاصة في المرحلة الأخيرة من حياة دولة بني زيان، وهو ما ساعد على نمو ثرواتهم العقارية بشكل أثار انتباه الحسن الوزان.

كما أثرت على المزارعين ودفعتهم إلى ترك أراضيهم، ناهيك عن عملية الإغارة والسلب والنهب التي كانت تقوم بها بين الفينة والأخرى بعض القبائل العربية من بني هلال.

1- نفسه ،ج2،ورقة 87 كذلك عرفت أراضي الدولة الزيانية خلال فترة هذا البحث سوء الأحوال الطبيعية جفاف انظر ابن خلدون ،العبر،مج6،ص : 156
الحسن الوزان ،المصدر السابق،ج2،ص : 48-57.

وعلى العموم فقدعاش المزارع حياة تعيسة وبؤس مع أسرة متكونة من عدة أفراد كانوا يعملون إلى جانبه في الحقل، على الرغم من ذلك لم يحصلوا على ما يحتاجون إليه، مما أدى ببعضهم إلى مزاولة حرف أخرى كالصناعة التقليدية مثل المنسوجات والأواني المنزلية وغيرها.

- الظـروف الطبيعيــة:

اجتاحت بلاد المغرب الإسلامي سنوات جفاف، وهو ما تؤكده بعض النصوص والوثائق الإسبانية على الرغم من قلّتها، منها أنه في سنة/1535م وقع قحط شديد ضرب جميع أنحاء الدولة الزيانية فقل الإنتاج الزراعي وماتت أغلب المواشي.

كما أن انتشار الجراد أصبح هو الآخر ظاهرة مألوفة، وكل هذه الظواهر السالفة الذكر أثرت على مزارعي الدولة الزيانية وعمقت أزمتهم، مما جعل الكثير منهم يعوضون هذه الخسارة بالإلتجاء إلى الرعي الذي يتطلب الترحال.

*** الرعـــاة:**

الواقع أن معلوماتنا عن الرعاة تبقى ناقصة، وإن كانت أوصاف الرحال لاتخلوا من فائدة، لأنها تؤكد كلها على أن أراضي الدولة الزيانية تعد مـن أحسن المناطق الرعوية، حتى وصل وزن الشاة من الشحم إلى مائة أوقية.

والنمط الرعوي هو النمط الغالب على الحياة المعاشية للفئات الإجتماعية في أراضي الدولة الزيانية.

وبما أن أغلب سكان الدولة الزيانية من عنصرين بارزين: البربر والعرب، وكلاهما يهتم بتربية المواشي، فالزناتيون مثلا، قال في شأنهم ابن خلـدون:

من عوائدهم ايتلاف الرحلتين، مشيـرا بذلـك إلى عملـيـة الانتجـاع بيـن المرتفعـات والسهول.

وإذا كانت هذه الظاهرة الطبيعية تشير إلى وضعية إيجابيـة، فـيـجـب ألا يغرب عن الأذهان أن عائد الماشية كان يؤول إلـى القبائـل العربيـة كمـا أن سنوات الجفاف كانت تخلف نتائج سلبية على و ضعية الرعاة.

*** الحـرفيـون:**

بعد أن عرضنا لأحوال الرعاة في أراضي الدولة الزيانية نحاول أن نرصد أحوال الصناع والحرفيين. فمن بين العوائد أن الحرف والصنائع كانت ضمن الأنشطة الهامة التي تزاولها جماهير الدولة لكسب رزقها.

ومن المؤكد أيضا أن الدولة الزيانية عرفت أسواقا متنوعة، كان يستقر بها الحرفيون[1] .

*** الصنـــاع:**

أما عن علاقة الإنتاج التي كانت سائدة في أوساط الحرفيين فيمكن استخلاصها من كتب النوازل وعلى الخصوص إذا اعتمدنا على قاعدة وحدة التشريع في المدن المغربية بقياس الشاهد على العايد على حد تعبير ابن خلدون، فمن خلال قراءة تلك النوازل يتضح أن الصناع كانوا ثلاثة أصناف:

الصانع الخاص[2] الذي يملك آلات العمل ويكتريها لغيره بأجر لأجل معلوم.

1- الحسن الوزان،المصدر السابق، ص : 48-51.
ابن خلدون، العبر، مج6،ص : 220.
الحسن الوزان،المصدر السابق،ص : 26.
2- نفسه الوزان،ص.36.

الصانع المشترك[1] وهو ليس بأجر عند رب العمل وإنما يحسن استخدام لكـــل ما يقدم له الصانع المتجول مثل صانع الأدوات الحديدية والخشبية وغيرها.

أما عن أوضاع هؤلاء الحرفين ،فالثابت أنها كانت مزرية فلا غرو أنهم كانوا يسمون في البنائين العصر الموحدي بعبيد المخزن ويمكن أن تسوق فـــي هذا الصدد مثل الذين جندوا لخدمة أغراض السلطة في بناء الحصـــون والقلاع، فمن المؤكد أنهم كانوا يعملون ساعات كثيرة تفوق طاقتهم مـــن صـــلاة الغداة إلى المساء.

* **التجـــار:**

وعلى غرار الحرفيين، لم يكن الباعة الصغار في حالة يحسد عليها إذ سلّط عليهم المحتسب تحت مبرر قمع الغش، فكانوا يتعرضون من جراء ذلك إلـــى أقصى العقوبات، ومن بينها الطرد من السوق، أما الباعـــة المتجولـــون فقـــد تعرضوا لمضايقات كبيرة وأغلب الظن أنهم كانوا يملكون حوانيـــت لكـــنهم عجزوا عن أداء كرائها مما جعلهم يتحولون إلى باعة متجولين[2].

يتضح مما تقدم أن وضعية الفئات الشعبية في المرحلة الأخيرة من حيـــاة الدولة الزيانية كانت مزرية للغاية وقد زادت الظروف الطبيعيـــة وضـــعيتهم تفاقما، إذ كانت مجاعات دورية تقع على رأس كل سبع سنوات يتبعها إرتفـــاع في الأسعار.

1- نفس المصدر ص37

2- العقباني، المصدر السابق ص162-163.

- **بقية الوظائف:**

تعرض الونشريسي: في كتابه (المعيار) لبعض الوظائف التي عرفتها تلمسان فيقول: سئل عن معلم يقرئ الأولاد وفيهم أولاد الموثقين وأولاد الحلاجين، والدلالين، والصيارفة، والحجامين، وأولاد المخزنين فهل يجوز أن يأخذ منهم أم لا[1].

مهنة الموثقين من بين المهن التي عرفت انتشارا في هذه المرحلة وقد ألف في شأنها كل من ابن الخطيب الأندلسي، وأبو العباس الونشريسي، ويبدو أن مهنتهم لاتقتصر على كتابة العقود المتعلقة بالبيع، والشراء، مثل ماهو عليه الحال لا بل كان هؤلاء يرافقون الحاميات العسكرية، التي تخرج من مدن الدولة، وخاصة تلمسان، بجمع والجبايات المخزنية المحرمة ولعل ما كان يقوم به الأتراك، فيما بعد هو امتداد لما كان معمولا به في عهد الدولة الزيانية.

ولعل علاوتهم تأتي من الجبايات التي كانوا يقومون بجمعها من القبائل وعلى الخصوص التي تقوم بمعارفه الدولة الزيانية والبعض من هؤلاء الموثقين لا يأخذون مالا إذا كان حلالا.

يقول عن هؤلاء: "فلا أدري حقيقة أمرهم لكنني سمعت أنهم إذا نزل التاجر عند أحدهم تولى ضبط جمع ماجلب وفرض ما يجب عليه للمخزن، وأخذ سلع منه ثم يبيعها الجلاس ويدفع ثمنها للوالي ولهم من معه مرتب يحال به على الوالي فيقطعه من خزن السلع التي يأخذها من التجار النازلين على يديه، مع قبح كيفية عقود استجارهم، وقبح شركتهم مع الدلالين وإنما يجب للجلاس أجر

2- الونشريسي،المصدر السابق،ج2،ص:167

مثله، فيما يتولى مما التاجر فله منفعة خاصة، وأقبحهم حالا من يأخذ المرتب من المخزن.

يلاحظ على النص الذي أورده الونشريسي[1] مايلي:

أولا: أن هؤلاء الجماعة كانوا يستقبلون التجار القادمين من المناطق الأخرى، فينزلون عندهم، ويتولون ضبط كمية السلع التي أتوا بها، ولعل هذه العملية تتم بالفنادق لأنها مكان استراحة التجار، وتحتوي على مخازن للسلع، وهنا يتم تحديد ثمن الضريبة التي تدفع إلى بيت مال المسلمين، وإن لم تكن لديهم أو أموال يأخذون منهم سلعا فيبيعونها يدفعون ثمنها للوالي والسلطان أو المكلف بجمع هذه الأموال.

ثانيا: أن هؤلاء كانوا يعمدون إلى أخذ أجور أصحاب السلع الذين ينزلون عندهم، ومن الدولة لأنهم يعتبرون أنفسهم موظفين لديها، أو يأخذون أجور من السلع التي تدفع للوالي ومن الذين يكلفون الدلالين، الذين يأخذون منهم السلع، لعرضها على أصحاب الدكاكين، لأن العادة المتبعة في أسواق الدول الإسلامية، أن التاجر عندما يحط رحاله في المدينة يكلف الدلالين بعرض سلعته على التجار، ويأخذون مقابل ذلك نسبة من الفائدة.

*** الحجامون:**

مهنة الحجامة من بين المهن التي لا تخلو منها أسواق الدولة و نجد في تلمسان بعض العلماء يلقبون بالحجام، ويعتبر هؤلاء بمثابة الحلاقين، الآن ولعل نفوذهم كان كبيرا. وهو ماجعل الونشريسي[2] يصفهم بالتعاون

1- أبو العباس الونشريسي المعيار ج6 ص 157.

2- الونشريسي، المصدر السابق،ج2،ص: 169.

مـــع مغتصبي أموال الناس الصيارفة:

من أبرز المهن في أسواق الدولة الزيانية التي تتوفر على مختلف السلــع القادمة من السودان الغربي، والبلدان الأوروبية والدول الإسلامية، وأغلــب مـــن يقوم بهذه المهنة هم اليهود لأن المسلمين يبتعدون عنها لوجود الربـــا ضمن تلك المعاملة التي لا تختلف عن معاملة المصارف المالية في عصرنـــا وهو ما جعل الونشريسي يعلق على هؤلاء الصيارفة بقوله هؤلاء الناس أغلـــب معاملهم التجارية بالربا".

*** المخـــزنيـــون:**

هؤلاء وظيفتهم، جبايات الأموال من الولايات ومن التجار فـــي أســـواق الـــدولة الزيانية ويعتبرهم الونشريسي[1] من مستغرقي الذمة لأنهـــم يأخـــذون أموال الناس بغير حق.

1- نفسه،ج2،ص :256

الفصل الثالث

الجـــاليـــات الأجـــنبية

- الجالية الأندلسيـــة:

علاقة الدولة الزيانية بالأندلس قبل سقوط غرناطة:

عرفت تلمسان في عصورها الذهبية علاقة حسنة مع الأندلس فقد تولى بعض أفراد هذه الجالية وظائف حساسة في الدولة وهذا منذ تأسيس الدولة الزيانية وعلى الخصوص في عهد السلطان أبى حمو موسى[1] الأول والثاني[2] الذي تأثر كثير بالحضارة الاندلسية.

أما أسباب الهجرة فترجع إلى عاملين أساسين:

أولهما : أن أراضي الدولة الزيانية كانت تشكوا من انهيار ديمغرافي تواصل خلال المراحل التي مرت بها الدولة نتيجة لكثرة الاضطرابات الداخلية التي أدت إلى مقتل الكثير من سكانها وهجرة البعض الآخر وقد ذكر لنا الحسن الوزان أن مدينة شرشال خالية من السكان وقد عمرت من قبل مهاجري غرناطة وقد أشار إلى عدم قطف ثمار بساتين هنين ومليانة والسبب في ذلك على ما يبدو لنا هجرة سكانهما وانتشار الأمراض المعدية نتيجة للحروب المتواصلة وانتشار المجاعات.

1- من بين الشخصيات الأندلسية التى تولت إدارة الدولة الزيانية في عهد السلطان أبي حمو موسى الأولى707، 717، 1307،1317 إبراهيم بن محمد بن ميمون بن الملاح وعلي بن عبد الله، انظر التنسى، تضم الدرر والعقبان، ص202.

2- أما في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني750،791، 1358، 1389، فنجد محمد بن علي بن القاسم المرسى أحد كتاب الانشاء، انظر ابن خلدون يحي، بغية الرواد ، ج1، ص118.

ثانيهما: مأساة الأندلس: وتبدأ المأساة من بداية انهيار ذلك الصرح الكبير الذي أقامه الأمويون بالأندلس منذ العشرية الرابعة من القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي إلا أن ذلك الصرح بدأ يتحطم في أواخر القرن الرابع الهجري الشيء الذي أفقد الدولة وضعيتها السياسية الموحدة وكان ذلك في نهاية حكم الحاجب المنصور وبدأ عصر الدويلات والطوائف وهذه بداية النكبة التي أصابت المجتمع الأندلسي ربما كانت تلك الأسباب قوة الدافع الاسلامي القائمة على دعوة التوحيد ضعفت عندما وصلت إلى أقصى انتشارها وأن العناصر البدوية ،عربية أو بربرية حالت دون القضاء على الجيوش الاسبانية المدحورة في الهضاب العليا الشمالية من شبه جزيرة ايبيريا وسمحت هذه التناقضات لهذه الجيوب أن تتكامل وأن تقوى وأن تتربص بالمسلمين الدوائر، حتى لاحت لهم لائحة الخلاص من المسلمين حين راحت ملوك الدويلات الاسلامية تترامى على أعتاب بلاط ملك قشتالة يؤدون الجزية لملوكها صاغرين.

وقد كان لسقوط طليطلة عاصمة مملكة بني ذي النون بداية لسقوط الأندلس وهي أول حاضرة أندلسية كبرى تسقط وهو ماجعل ملوك الطوائف يستغيثون بالمرابطين ،حيث أجاب صراخهم يوسف ابن تاشفين فكانت موقعة الزلاقة سنة 1086/464 فبسط بعدها المرابطون نفوذهم على الأندلس وجاء الموحدون على انقاضهم واستمرت وضعية الأندلس تحت حكم المغاربة قرنا ونصف بعد مواقع حاسمة مع الإسبان منها:

موقعة اقليش1008/501 وفراغة 1134/528 والعقاب 609/ 1212 وفي هذه الأخيرة كانت الغلبة للاسبان، حيث انهار سلطان الموحدين في الأندلس والمغرب الإسلامي.

بعد هذا التمزق انتهزت اسبانيا الفرصة لاسترجاع الحواضر الأندلسية قرطبة واشبيلية ولم يكن القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي سب حتى كانت الولايات الأندلسية الشرقية والوسطى قد أصبحت بيد سبان. ولم تبق سوى ولاية صغيرة في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة بريا هي مملكة غرناطة تتحمل المسؤولية من جديد وقد استطاعت أن تحافظ ى الوجود الإسلامي في الأندلس لقرنين من الزمن وكل الفضل في ذلك ود إلى تدعيم هذه المملكة من قبل الخلفاء الموحدين وبني مرين وبني زيان ذين استجابوا للصريخ فتحالفوا مع الأندلسيين تحالفا أخويا على أساس أن لمسلمين أمة واحدة وأن الجهاد الإسلامي واجب في أي مكان من البسيطة كانت هزيمة الاسبان سنة1275/674على يد السلطان أبي يوسف يعقوب وكان نصرا عظيما أعاد إلى الأذهان ذكريات الزلاقة والارك.

لكن الصراع بين دول المغرب الإسلامي خلال تلك المدة حال دون تكمين تلك الانتصارات فعادت الجيوش المرينية إلى المغرب الأقصى لمواجهة الدولة الزيانية.

من خلال ماسبق يتبين لنا أن الهجرة الاندلسية إلى أراضي المغرب الإسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية كانت نتيجة لظروف سياسية جعلت هؤلاء السكان يتركون أراضهم ويتوجهون إلى المغرب الإسلامي.

وقد مرت الهجرة الأندلسية إلى المغرب الإسلامي بعدة مراحل على النحو التالي:

المرحلة الاولى: ترجع إلى القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي حيث نجد البعض منهم كانوا يمارسون النشاط التجاري مما نتج عنه انشاء مراكز عمرانية بالموانيء التي كانوا يتوافدون عليها مثل تنس ووهران ومن هنا نؤكد وجهة النظر التي تقول أن الأندلسيين كان لهم الدور الكبير في بناء المدينتين.

المرحلة الثانية: في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وقد بدأت هذه المرحلة مع بداية ضعف المسلمين في الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية 1029/422 وتكوين دولة الطوائف وقد نشطت مع ازدياد حركة الاسترداد المسبحي للمراكز الاسلامية في الأندلس ،ولذلك توافد مهاجروا الأندلس من تلك المدن التي سقطت في يد الاسبان مثل اشبيلية وقرطبة. وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون [وأمّا أهل الاندلس فاستقروا في الاقطار عندما تلاشى ملك العرب بها ومن خالفهم من البربر وتغلب عليهم النصارى فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتغلب خطهم على الخط الإفريقي.

نستخلص من النص السابق أن الهجرة الأندلسية قد بدأت مع بداية ضعف المسلمين في الأندلس توسع النصارى على حساب المراكز الاسلامية مثل قرطبة التي سقطت سنة 1235/633 وبنلسية سنة636/ 1238 ومرسية سنة 1266/666 مما جعل سكن تلك المدن يتوجهون الى غرناطة ومدن دول المغرب الاسلامي كتلمسان.

الدولة الزيانية بعد سقوط اشبيلية سنة1248/646 فاستقروا بها.

وخلال الصراع بين دولة بني ناصر ومملكة اراجون وغيرها من دول شبه الجزيرة ايبيريا باسبانيا المجاورة لبني ناصر نجد عدد من الأندلسيين يتوجهون نحو أراضي الدولة الزيانية واغلبهم استقروا بمدينة تلمسان ووهران وقد تعرض يحي بن خلدون لبعضهم وعلى الخصوص المستقرين بتلمسان منهم: ابو العيش بن عبد الرحمان الخزرجي ومحمد بن العيش الاشبيلي الأصل ويقول عنه:

[روي ببلده عن أبي بكربن سعادة وأبيه أبي زيد عبد الرحمان بن ابي العيش وولده متقن ذوعلم وخط بارع خطيب الجامع الأعظم بتلمسان.

ومع أن الأندلسيين كانت هجرتهم جماعية فهناك عائلات بكاملها توجهت إلى تلمسان وخاصة المثقفون منهم الذين وجدوا مكانة كبيرة عند الزيانيين وفرصا للعمل في جميع الميادين الثقافية والسياسية.

ومن العلماء الذين توافدوا على أراضي الدولة الزيانية يحيى بن علي المرسي التلمساني وكذلك موسى بن أحمد بن مروان الهمداني الوهراني الأصل التلمساني المنشأ الشلبوني المقدم وعلي بن يحيى بن سعيد بن سعود بن سهل الأنصاري القلي الذي كان قد سكن اشبيلية ومراكش وكان فقيها أديبا حسن الخط قرأ بجامع قرطبة زمنا.

ومن علماء اشبيلية الشيخ أبو عبد الله الحلوي الاشبيلي الذي كان يحترف مهنة بيع الحلويات في تلمسان ويتصدق بنقودها على الفقراء والمساكين وهو من الأولياء الله الصالحين المعروفين في تلمسان.

ومنهم أبو بكر بن سعادة الاشبيلي وقد قال في شأنه يحي ابن خلدون: [هــو أبو عبد الله أخذ عن أبي الحسن شريح وأبي العباس بن حرب المسيلي الزابي بكر بن العربي وأجازه أبوبكر بن رزق وابن مدير وأبو الطاهر السفلي كان مجودا للقران حافظا محدثا نفاذا على الرواية نزل تلمسان وعمر بها وتوفي في رجب سنة ستمائة وهؤلاء تمتعوا بثقافة عالية فأصبح لهم التأثير في المجتمع الزياني وقد تركوا بعد وفاتهم تلامبذ تأثروا بهم ومن أبرزهم أبوزكرياء يحيى بن عصفور وأبو العباس بن عبد الرحمان الخزرجي.

وقد شملت هذه الهجرة التجار والحرفيين وقد تجمع هؤلاء يحــي خــاص بتلمسان عرف بدرب الأندلسيين.

المرحلة الثالثة: ترجع هذه المرحلة إلى القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي .إثر سقوط دولة بني ناصر حيث خرجت هجرات كبيرة بلغت الأسكندرية لكن أغلب هؤلاء استقروا بالمغرب الاسلامي وفي هذا الصدد يقول ابن غالب [ولما نفذ قضاء الله على أهل الأندلس بخروج اكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة فافترقوا ببلاد المغرب من بر العدوة حتى بلاد افريقيا فأهل البادية قد مالوا إلى البوادي إلى ما عتدوه ودخلوا مع أهلها وشاركوهم فيها فاستقوا المياه وغرسوا الأشجار واحدثوا الأراضي وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها. فأشرقت بلادهم وصلحت أحوالهم].

وقدد حددت نوعية الثقافة أو الحرفة لدى الأندلسيين المكان الذي كانوا فيه بالاندلس فأهل البادية توجهوا لاستغلال الأراضي الزراعية.

أمّا المثقفون فتوجهوا إلى الحواضر ومنها تلمسان ووهران وكذلك التجــار والحرفبن وأما أصحاب صناعة الملاحة والصيد فقد استقروا بالموانيء.

لقي هؤلاء المهاجرين في أراضي الدولة الزيانية صعوبات نتيجة لانعدام الأمن بعد ضعف الدولة مما جعل بعضهم يتعرض لعملية النهب والسرقة من قبل بعض القبائل وهو ما دفع بالأغلبية منهما إلى متابعة الهجرة نحوتونس وغيرها من حواضر الدولة الحفصية.

ومن فوائد هذه الهجرة الأخيرة أن هؤلاء حذروا سكان الدولة الزيانية وأطلعوهم على جرائم الاسبان ونواياهم تجاه البلاد الإسلامية ولكنهم لم ينتفعوا بشيء من هذا.

- أثر الأندلسيين في المجتمع الزياني:

أما أثرهم في المجتمع الزياني فقد شمل مجموعة من الميادين لعل أبرزها الميدان الإداري، حيث تقلد هؤلاء مناصب في الدولة الزيانية وهذا يرجع إلى تجاربهم في ميدان الإدارة وكونهم يتحلون بالأمانة والصدق والسيرة الحسنة ومن بين هؤلاء، الفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن داوود بن خطاب الغافقي المرسي وهو من بين الذين ترجم لهم ابن خلدون يحيى فقال عنه: "روي عن أبي بكر بن جمهور وأبي بكر بن محرز وأبي بكر الغافقي وأبي الحسن عبد الرحمن بن وفاء وأبي عيسى محمد بن محمد بن أبي سداد وأبي مطرف بن عميرة الميورقي وغيرهم.

أجازه أبو الربيع سالم وكان من أبرع الكتاب خطا وأدبا ومن أعرف الفقهاء بأصول الفقه كتب بغرناطة عن ملوكها وقفل إلى مرسية وقد اختلت أمورها فارتحل إلى تلمسان ولما ظهر اهتمام يغمراسن بالعلوم قربه منه فقال عنه يحيى بن خلدون كتب بها لأمير المؤمنين يغمراسن بن زيان وتوفي بتلمسان يوم عاشوراء سنة 1238/636.

ومن الموظفين الذين توافدوا من الأندلس على تلمسان ابن وضاح بعد سقوط دولة الموحدين اجتاز البحر مع جالية أندلسية. فأثره يغمراسن ثم قربه من مجلسه وأكرم وفادته وأجله من الخطبة والشورى بمكان اصطفاه له.

ومن هؤلاء الفقيه عبدون بن الحباك الذي تولى القضاء كما أشار إلى ذلك ابن خلدون يحيى إلا أنه لم يحدد لنا مكان توليه القضاء وزمنه فاكتفى بقوله [هو الفقيه القاضي أبو محمد عبدون بن محمد الحباك كان خطيبا وصاحبا لأمير المسلمين أبي يحيى بن زيان ويرى جورج مارسي أنه من أصل أندلسي لأن اسمه ينتهي بالواو والنون.

ومن بين الشخصيات الأندلسية أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الابلي التلمساني ويعود أصل أجداده إلى مدينة ابلة بالأندلس وقد وولد بتلمسان حوالي681/ 1280.فدرس بها.

وكذلك إبراهيم بن ميمون بن محمد بن ميمون بن الملاح كان دور هـذه العائلة الأندلسية قد انتهى بنهاية السلطان أي حمو موسى الأول.

ومن موظفي الدولة من الأندلسيين في عهد السلطان أبي حمو موسى الثانـي محمد بن علي بن القاسم المرسي أحد كتاب الانشاء وشعراء البلاط العبد الوادي، أما سعيد العقباني فقد خلف أبا عبد الله الشريف في التدريس بالمدرسة اليعقوبية.

ومنه أبوعثمان محمد بن محمد العقباني ولد بتلمسان سنة1320/720 أخذ العلم عن الأخوين ابني الإمام ثم درس على الابلي الأصول والعلوم العقلية.

ومنهم قاسم بن سعيد العقباني فقد أخذ عن والده وغيره من العلماء فبرع في العلوم الدينية وولي القضاء بتلمسان وأخذ عنه حفيده محمد بن أحمد العقباني وابنه محمد بن قاسم العقباني الذي كان فقيها عارفا بالنوازل ولي قضاء الجماعة بتلمسان ومن أبرز ماكتبه تحفة الناظر في تغيير المناكر.

ومن الأندلسين الذين زاروا تلمسان وتأثروا بها وأثـــروا فيهـــا الشيـــخ أبـــو الحسن على بن محمد بن على السبطي الشهير بالقلصادي، عنه السخاوي قال صاحب الصالح الرحلة المؤلف أخر من له التأليف الكثير من أئمة الأندلس

أخذ عنه الإمام السنوسي[1] صاحب العقائد وجملة من الفرائض والحساب واجازه جميع مروياته، وعند ارتحاله إلى المشرق مر بتلمسان فأخذ بها عن الإمام عالم الدنيا حسب تعبيره ابن مرزوق والقاضى أبى الفاضل قاسم العقباني وابن العباس بن زاغوا وغيرهم من علماء تلمسان ومن بين هؤلاء أبو عبد الله محمد بن على بن الازرق قال عنه ابن دارد أنه من كبار الطريقة الشاذلية. وقد قال العلامة ابن دارد حدثني مولاي رضي الله عنه لقيته في تلمسان يوم الاثنين سنة 895 هـــ.

كما قال دخل علي في نفس السنة وبالتحديد في شهر رمضان و من الذين استقروا في تلمسان من الأندلس أبى عبد الله محمد بن الحداد الوادي نزيل تلمسان.

وقد قال المقري تذكرة ما رأيته مكتوبا على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التى بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الزياني من بدائع الدنيا وهي:

1- نفسه، ج2،ص65.

انظربعينــك بهجتي وسنائى «» وبديع اتقاني وحســـن بنـــانــي
وبديع شكلي واعتبر فيما ترى «» من نشأنى بل من تـــدفـــق مائي
جسم لطيف دائب سيلانـــه «» صاف كذوب الفضـــة البيـــضاء
قد خف الى ازهاروشينى تمقت «» قعدت كمثل الروض غـــير سماء

ومن بين الذين توافدوا على تلمسان أيضا شمس الدين عبدو الله الوداشي[1] قال في شأنه ابن مرزوق عاشرته فقرأت عليه الكثير وقيدت من فوائده وانشدني الشعر وقرأت عليه بمنزلي من تلمسان[2].

هذا العالم درس بتلمسان الحديث والفقه والأصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض وكان كثير الأسماع في الفقه والجدل.

ومن بين الذين نزلوا تلمسان من الأندلس الزاهد أبو عمرة بن غالب المرسي[3] وكان بتلمسان غير واحد من أصحابه وسأله بعضهم أن يشهد عقد ابنته ،فتعذر عليه حكم، فلم يزل نه حتى أجاب بعد جهد، فحضر العقد، وطعم الوليمة ثم لما حضر الزفاف استحضره في ركوبها إلى دار زوجها على عادة أهل تلمسان فأجابه مسرعا، فقيل له أين هذا التيسير من ذلك العسير فقال من أكل طعام الناس مشى في خدمتهم[4].

1- نفسه ،ج1،ص 149.
2- نفسه، ج1،ص 149.
3- نفسه، ج5، ص192
4- نفسه، ج1، ص 92.

فهذه الرواية التى ذكرها المقرى عن هذ العالم يمكن أن نستنتيج منها مايلى:

أولا: أن بعض أفراد الجالية الأندلسية كانوا يرفضون المشاركة في بعض مناسبات الزواج وغيرها من الإحتفالات التى تتم بتلمسان.

ثانيا: بعض العادات في تلمسان فيما يخص حفلات الزواج حيث تقام احتفلات في بيت العروس وعندما تنتقل العروس لبيت زوجها يرافقها بعض المعروضين لزوجها.

- هجرة الأندلسين ومراكز تواجدهـم بأراضي الدولة:

أولا/ تلمسان: من بين الأندلسين الذين توافدوا على تلمسان، القلصادي ومن الذين استقروا بتلمسان أبوعبد لله محمد بن الأزرق896هـ/1491م صاحب كتاب بدائع السلك في طباع الملك قبل سقوط مالقا 883هـ/ 1468م[1]. يقول المقري عن هؤلاء الأندلسين « تقلص الإسلام بالجزيرة واستولى الكفار على أمصارها، وقراها، على وجه الغنوة والصلح، والاستيلاء، لم يزل العلماء، والكتاب والوزراء يحركون حميات ذوي البصائر[2].

فالشيء الذي يمكن استخلاصه من النص يتمثل فيمايلي:

إن الدوله الأرغونية والقشنالية استطاعت خلال النصف الأول من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، أن تسيطر على أغلب أراضى الدولة الناصرية، بعد ضعف هذه الدولة نتيجة للخلافات الأسرية، وضعف دول

1- هو أبو عبد الله الزغل المعروف بالمجاهد خرج إلى مرسى وهران في آخر شوال سنة1491،897، انظر الزياني المصدر السابق، ص141.

2- ابن الخطيب من أكبر علماء الأندلسين في القرن 8هـ، 14م مات مقتولا بفاس لمزيد من المعلومات عنه، انظر المقري نفح الطيب: ج5ص 141.

المغرب الإسلامي، وعدم تقديم يد المساعدة للناصرين، سهل حركة الاسترداد المسيحي.

إن رجال الفكر والموظفين السامين، وهذا منذ عهد ابن الخطيب[1]، أدركوا خطورة الاسترداد، والنتائج التى يمكن أن تصل إليها، والمتمثلة في نهاية الدولة الاسلامية بالأندلس بذلك استمروا في تجنيدهم للمسلمين، لكن صيحاتهم لم تجد أذانا صاغية لدى الأندلسين، مما أدى ببعضهم إلى ترك الأندلس والاستقرار بدول المغرب الإسلامي. ومن هؤلاء العلماء الذين اتجهوا إلى تلمسان أبو جعفر أحمد بن على البلوي[2]، توجه لتلمسان لأنها كانت من بين مراكز الثقافة. تعرض المقري لهذه الهجرة، فذكر البلوي وقال عنه: « أنه من بين علماء الأندلس الذين تركوا غرناطة، ونزلوا بتلمسان ومن بين هؤلاء المذكورين في فهرسة ابن غازي[3]. هؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غرناطة، لكن لما رأوا تضيق العدو عليها، وأن أخذها لا محالة، فولوا رجالهم عنها فنزلوا تلمسان، المحروسة، وأخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقليل».

نستخلص من النص مايلي:

أولا: إن الهجرة الأندلسية حدثت قبل سقوط غرناطة وهو ما يؤكده هذا النص، الذين فضلوا تلمسان عن غيرها من أمصار المغرب الإسلامي، لكن

1- المقري، المصدر السابق، ج5، ص 368.
2- نفسه،ج5،ص 397.
3- نفسه، ج5، ص 363.

بعض الباحثين لا يوافق المقري لأن كلامه يوحي بأن هجرة البلويين كانت بعد أن أيقنوا من أخذ غرناطة أن عاجلا أو آجلا[1]».

ومما يؤكد هذا النص أيضا قول السليماني: نزلت الجالية الأندلسية في عهد الأمير أبو العباس أحمد بن أحمد أبى زيان، محمد بن أبي حمو، وأكثر هؤلاء استقروا بتلمسان، وجزائر بنى مزغنة وبجاية وفضل بعضهم ندرومة، وهنين وغيرها من أمصار الدولة الزيانية فالذي يستخلص من النص يتمثل فيما يلي:

أولا: أن الأندلسين الذين توافدوا على أراضي الدولة الزيانية لم يقتصر هجرتهم على مدينة من مدن الدولة، بل انتشروا في أغلب مدنها، وعلى الخصوص الساحلية التي وجدوا بعض منها خالية من السكان، مثل ماهو الحال بالنسبة لشرشال، التى قال عنها الحسن الوزان[2] "انه أعيد بناؤها من قبل الغرناطيين الذين استقروا بها، وطوروا الزارعة في الأراضي المجاورة لها، كما عمدوا إلى بناء مدن جديدة مثل مدينة البليدة، والقليعة[3]".

ثانيا: يبدو أن استقرارهم في المدن جعلهم يؤثرون على حالتهما الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، وهو ما يؤكده السليماني بقوله: "وأما من قصد منهم تلمسان فقد اسنقرعلماء، وأهل بيوتهم، بداخل المدينة وعامنهم أنزلهم السلطان بوادي الوريت خارجها، فاتخذوا قراها سكنا لهم وأهلها، وملؤوا تلك الشعاب من البساتين المتنوعة الثمار وأنواع الرياحين، والأزهار،

1- السليماني، المشاريخ، ج6، ورقة 116.

2- الحسن الوزان وصف افريقية : ص 136.

3- مدينة القليعة من بين المدن التي شيدت من طرف الأندلسيين وقد استغلوا الأراضي المجاورة لها، انظر مرمول المصدر السابق، ج2، ص566.

واتصلت مساكنهم بذلك الوادي فأقاموا به عمارة بقيت أثارهم الى نهر الصفصف[1]، فاقاموا به عمارة بقيت آثارهم بتلك الشعاب ذات الادراج المؤنقة والحياة المترفة وامتدت الى جبل يدر حيث زاوية الشيخ احمد بن الحـــاج، بـــن محمد بن على المناري، الحسنى المتوافى بسنة930هـــ/[2]". أما المقري فينقل عن ابن غالب فيقول: "ولما نفذ قضاء الله على أهل الأندلس، بخروج أكثرهم عنها في تلك الفتنة الأخيرة، فتفرقوا ببلاد المغرب من برالعدوة حتى بلاد افريقية، فأهل البادية قد مالوا إلى البوادي، إلى ما اعتدوه ودخلوا مع أهلها وشاركوهم فيها، فاسقوا المياه، وغرسوا الأشجار، واحدقوا الأراضي، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها، ولا رأوها، فأشرقت بلادهم وصلحت أحوالهم[3].

نستخلص من النصين مايلي:

أولا: عوامل الهجرة أما أسباب الهجرة الأندلسية، فترجع إلى عاملين أساسين:

أولهما: إن أراضي الدولة الزيانية، كانت تشكو انهيارا ديموغرافيا تواصل خلال المراحل التي مرت بها الدولة الزيانية، نتيجة كثرة الاضطربات الداخلية، وعلى الخصوص الصراع بين الدولة الزيانية والقبائل الزيانية، كمغرارة[4] وبنى توجين[5]، في البداية ثم بينها وبين القبائل الهلالية، التى استغلت الصراع وانتقلت إلى النواحي التلية، وأصبحت تتدخل في شؤون الدولة

1- وادي الصفصف لا يبتعد كثيرا عن مدينة تلمسان .

2- السليماني، الشماريخ ، ج3، ورقة 112.

3- المشرقي بهجة الناظر ورقة 12.

4 ابن خلدون،العبر،مجلد7، ص134 .

5- نفسه ج7، ص316 .

الداخلية وعلى الخصوص قبيلة سويد[1] وحصين[2]، وبنى عامر[3] ثم الحروب مع الدولة المجاورة لها، إمارة بجاية الدولة الحفصية الدولة المرينية». يضاف إلـــى ذلك الأمراض المعدية كمرض الطاعون الذي كان يصيب أراضي الدولة، فأدى إلى هلاك عدد كبير من السكان مما أدى إلى فراغ في بعض أقاليم الدولة، وهو مايؤكده الوزان بقوله: « إن مدينة شرشال كانت خالية مـــن السكان وقد عمرت من قبل مهاجري غرناطة[4]، كما أشار أيضا إلى عدم قطف ثمار أشجار هنين ومليانة والسبب في ذلك على ما يبدو لنا هجرة السكان فحـــل محل هؤلاء المهاجرون والأندلسون، هو ما يؤكده الوثائق الاسبانية التـــى أشارت إلى سكان المرسى الكبير ووهـــــران بأن أغلبهم من المهاجرين الأندلسيين، قبـــل الاحتلال الاسباني لهما. لكن بعض هؤلاء المهاجرين لقوا صعوبات فـــي .أراضي الدولة الزيانية، نتيجة لانعدام الأمن من قبل بعض القبائل مما دفع بالأغلبية منهم إلى متابعة الهجرة نحو تونـــس أو غيرها مـــن حواضر الدولة الحفصية، ومن فوائد هذه الهجـــرة الأخيـــرة أن هؤلاء حذروا سكان الاولة الزيانية وأطلعوهم على جرائم الاسبان ونواياهـــم تجاه البلاد الاسلامية، ولكنهم لم ينتفعوا بشيء من هذا، بعـــد استعراضنا للشخصيات الأندلسية التى توافدت على تلمسان خلال عهد الدولة الزيانية فـــي مرحلتها الأخيرة".

1- نفسه مجلد6، ص124 .

2- نفسه مجلد 6، ص124 .

3- نفسه مجلد 6، ص105 .

4- الحسن الوازن ، المصدر السابق ، ج2، 34 .

- أثـــر الأنـــدلسيـــين:

كان من نتائج نزوح الأندلسين إلى تلمسان: إزدهار الحركة الفكرية بهـــا حيث قام مجموعة من أفراد هذه الجالية بنشرها التعليم بواسطة القائهم الدروس بالمؤسسات التعلمية المتواجدة في تلمسان والمدن التابعة لها. ومن هؤلاء محمد بن أبى زيد عبد الرحمن بن محمد بن أبى العيش الخزرجي الذي قام بأحـــد مساجد تلمسان بتفسير القرآن لطلابه وشرح أسماء الله الحسنى، كما يبدو أنـــه درس الأصول والتصوف و ألف فيهما.

- مـــراكز تواجـــد الأنـــدلسين:

يضاف إلى مدينة تلمسان مراكز أخرى استقبلت عددا لا يستهان به مـــن أفراد الجالية الأندلسية ولعل من أهم مدن الدولة التى توافد عليها الأندلسيون المدن الساحلية وبعض المدن أو القرى الداخلية مما أدى إلى إدماج العنصر الأندلسي في المجتمع الزياني لأنه لم يكن غريبا عن المناطق فبعض الأندلسيين ينحدرون من القبائل البربرية التى هاجرت إلى الأندلس خـــلال المراحل التى مرت بها من قبل الدولة الاسلامية بها[1].

ومن بين هذه المدن مدينة ندرومة لقربها من تلمسان من جهة وهنيـــن مـــن جهة أخرى وهو ما يجعلنا نؤكد على أن بعض الأندلسين استقروا بـــهـــا خاصة بعد سقوط هنين[2] بيد الاسبان سنة/1531.

1- مرمول المصدر السابق ، ج2 ، ص295 .

2- وعن سقوط، هنين، انظر، الباب الأول الفصل الثالث من هذه الرسالة ص .

يضاف إلى مدينة ندرومة هنين التى تقع على الساحل البحرى المتوسط ولها علاقة بساحل البحر المتوسط ولها علاقة بالأندلس منذ القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي فكان انتقال التلمسانين إلى الأندلس أو توجه الأندلسيين الى تلمسان عن طريق ميناء هنين ونتوصل لذلك من خلال كتب التراجم التى أرخت للأندلسيين، وكما لعبت هذه المدينة دورا لا يستهان بـــه فـــي العلاقة التجارية في الأندلس وأراضي الدولة الزيانية، منذ تأسيسها حـــتى سقوط آخر القلاع الاسلامية وهنين مدينة غرناطة.

ويبدو أنه خلال هذه المدة قصدها مجموعة من المهاجرين الأندلسين اتخذوا منها قاعدة للجهاد البحري ضد السواحل. الاسبانية وهو ما يؤكده مرمول بقوله: « أن سكانها لم يكتفوا بتجارتهم بل مارسوا القرصنة وخرجوا لشـــن الغارات على شواطىء اسبانيا[1] ».

ويعتقد مرمول أن ذلك كان من بين العوامل التى دفعت بشارل الخامس إلى الهجوم عليها من قبل قائد أسطوله واحتلالها. أما اقليم بنى راشد وعلـــى الخصوص القلعة فإنها استقبلت مجموعة من المهاجرين الأندلسين بعد سقـــوط مدينة غرناطة لبقي هؤلاء الترحاب من قبل سكانها مما جعلهم يلعبون دورا مشرفا في ازدهار الحركة الفكرية بها وسوف نعالج هذا عند تعرضنا للأحـــوال الثقافية. لكن أهم المدن التى عرفت توافد الأندلسيين عليها هنين المدن الساحلية وعلى الخصوص المنطقة الممتدة ما بين تنس والمرسى حيث توافـــد عليها مجموعة كبيرة من الأندلسيين أشار إلى ذلك أبوراس[2]

1- مرمول، المصدر السابق، ج2، ص296

2- أبو راس الحلل، ورقة 47.

الناصري عنـــد تعرضه إلى قبيلة هبرة الذين أساؤوا إلى هؤلاء الأندلسيين فقتلوا بعضهم وفتحوا بطونهم بدعوة.

أنهم يخفون بها الجواهر، وقد أشارت إلى ذلك إحدى الوثائق بالأرشيف الوطني وهي عبارة عن رسالة أرسلت من قبل هؤلاء لسلاطين العثمانيين تشتكي له معاناتهم فأرسل السلطان رسالة إلى باشا الجزائر حسن بن خير الدين يطلب منه الاحسان لهؤلاء الأندلسين. ومما يؤكد أيضا كثرة هؤلاء الوافدين. أن إحدى الشواطىء القريبة من وهران عرفت بالأندلسيات، كمـــا تنص الوثائق الاسبانية التى استطعنا الاطلاع عليها على وجود مجموعة مـــن الأندلسين في كل من المرسى الكبير ووهران اتخذتا قاعدة للهجوم على السواحل لتحرير إخوانهم الذين كانوا مضطهدين من قبل المسيحين، وفـــي هـــذا الصدد يذكر الوزان فيقول كان التجار فيما مضى يجهزون على الدوام سفنا شراعية وأخرى مسلحة يمارسون بها القرصنة ويجتاحون سواحل قطالونة وجزر يــــابسة وميورقة ومنورقة حتى أصبحت المدينة تزخـــر بالأسرى المسييحين، لكن ما يعاب على هذا النص عدم تعرضه للأندلسين الذين كانوا يرافقون المجاهدين لوهران[1] ».

أما مدينة شرشال فقد استقبلت هي الأخرى مجموعة كبيرة من الأندلسيين استقروا بداخلها بعد إعادة تعميرها وفي هذا الصدد يقول الوزان:"بقيت المدينة خالية من السكان زهاء عدة قرون حتى سقوط غرناطة في يد المسيحين فقصدها الغرناطيون واعادوا بناء عدد من دورها وجددوا القلعة وزرعوا

---

[1] الحسن الوزان: المصدر السابق، ج2، 30.

الأراضي المحيطة بها إلا أن وجدوا هناك كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض[1] ». فالذي يمكن التوصل إليه من خلال هذا النص:

أولا: أن الأندلسين الذين توافدوا على شرشال وغيرها من الدولة الزيانية مارسوا نفس الحرف التى كانوا يقومون بها في الأندلس مما ساعد في ازدهار الصناعة ،قد تعرض في هذا الصدد السليمانى الى الاندلسين الذين أقاموا بضواحي تلمسان وعلى الخصوص ضفاف وادي الصفصف بالاضافة إلى بناء منازلهم التى لاتزال أثار بعضها ماثلا للعيان .كونوا ورشات زاولوا فيها النشاط الحر فازدهرت الصناعة بخارج تلمسان لفترة زمنية. أما الذين نزلوا بشرشال فزيادة على النشاط الحر حيث ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية عمدوا أيضا إلى تطوير الزراعة باستغلال الأراضي غير المستعملة وهـــو ما يؤكده مرمول بقوله: قام بعضهم ببناء قلعة شرشال وأصلحوا الدور التـــى راؤوا فيها فائدة في بعض اصلاحها. وشيئا فشيئا قام العمران بهذا السهل على أيدي المدجنين وأهل تاكارت والمسلمين الأندلس المتصفين بالشهامة والحدق حتى صارت لهم الأراضى المزروعة الممتدة وأشجار كثيرة من الكروم والزيتون ومعاصر تقع داخل الأسوار القديمة كما قاموا بغرس عدد من أشجار التوت تقتات منها دودة القز وصار الحرير أهم مواردهم لأن البلد طيب لمثل هذا النشاط ». لم يكن نشاط هؤلاء الأندلسين قد اقتصر على شرشال فقط بل امتد أيضا لكي يشمل سهل متيجة حيث كان لهم دور في بناء مدينة الة! التـــى استقبلت المهاجرين من قشتالة والثغور ومملكة بلنسية، وعمـــد هـــؤلاء

---

1 نفسه ، ج2 ، ص34.

عن شلالة الوريط التى ورد ذكرها في المصادر القديمة ، انظر بغية الرواد، ج1 ، 87-91.

الى استغلال الأراضي المحيطة بوادي الزعفران وغرسوا بها أشجار البرتقال والتوت فازدهرت بها الصناعة والزراعة، ومايقال عليها ينطبق أيضا على مدينة البليدة.

- ثانيا: موقف علماء الدولة من مأساة الأندلسيين:

وقف علماء الدولة الزيانية موقفا متميزا عن غيرهم من مشكلة الأندلسين التى كانت تحتل المرتبة الأولى في تفكيرهم ومن هؤلاء ابن مقلاش[1] عالم وهران في القرن الثامن الهجري الرابع عشرالميلادي، كان من كبار علماء عصره وله علاقة بمحمد الهواري، وقد نسب له صاحب المعيار المازوني مجموعة من النوازل مما يدل على أنه من بين المجاهدين في عصره زاول الفتوى في وهران، كما يبدوا أنه تولى بها القضاء وأصلح كتاب السهو لمحمد الهوراي، كما كانت له علاقة بأفراد الجالية الأندلسية في وهران أو في منطقة الثغور[2] التى كانت أول المراكز التى تسقط في يد الاسبان لقربها من أراضي أرغوان وقشتالة وبعد السيطرة عليها اتصل مسلمو الثغور بابن مقلاش في وهران لاصدار فتوى تتعلق بعلاقتهم بالمسيحين وكيفية المحافظة على معتقداتهم الدينية بعد الاضطهاد الذي سلط عليهم. وقد أصدر هذا العالم فتوى تنص في مجملها على أنه يمكنه المحافظة على اسلامهم باتخاذ التقية، لكي لا ينكشف أمرهم المسيحيون الذين سيطروا على أراضيهم وسمحوا لهم بالبقاء واستغلال أراضيهم مقابل دفع الجزية للإسبان. ولم تكن الفتوى معرفة لدى

1- أبوزيد عبد الرحمن بن مقلاش علم شهير أخذ بالمغرب عن ابن غازي و هو من سلالة محمد الهوراي أصلح كتاب السهو الشيخ محمد الهواري ، انظر الزياني دليل الحيران ص37 .

2- الثغور هي المناطق الواقعة بين حدود الدولة الاسلامية بالأندلس في الشمال والدول المسيحية-ارغوان-قشتالة»

الباحثين الذين تناولوا في دراستهم الجالية الأندلسية وعلاقتهم بالدولة الاسبانية وقد استطعنا الحصول عليها خلال زيارتنا لإسبانيا وبحثنا في مخطوطات مكتبة مدريد وجدناها ضمن مجموع يتعلق بالفقه هذا فيما يتعلق بالقرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي أما القرنان التاسع والعاشر الهجريين الموافق للقرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، فإن قضية الأندلس قـــد ازدادت تدهورا بسقوط المراكز الاسلامية التى بدأت مع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بيد الاسبان ودشنت بسقوط مدينة طليطلة[1] التـــى تعتبر من المدن التى تحتل مكانة في التاريخ الاسباني لأنها آخر عاصمة للدولة القوطية ومراكز للكنيسة الكاثولكية بها لذا كان التركيز عليها من قبلهم وبعد سقوطها، ثم هزيمة الموحدين في معركة العقاب سنة609هــ/ 1212م[2] سمحت للاسبان السيطرة على أغلب المدن الاسبانيـــة وقراها وحصونها وقلاعها وسقطت مدنها الرئيسية كقرطبة واشبيلية ومرسية[3].

فانهـــيار هذه المدن دفـــع بالاندلسيـــن إلى الهجـــرة الى المـــدن المغربية فأصبحـــوا يكونون جالية أندلسية[4] كبيرة في كل من فاس ومراكش والرباط وتلمســـان ووهران وبجاية وتونس وامتدت هجرتهم إلى المشرق الإسلامـــي وعلـــى الخصوص مدينة الاسكندرية.

1- مدينة طليطلة كانت عاصمة الدولة القوطية قبل الفتح الاسلامي لها سنة 92هــ، 710وقد استولت عليها دولة قشتالة سنة492هــ، لمزيد من المعلومات، انظر المقرى، نفح الطيب ج6، ص124

2- عن هذه المعركة، انظر ابن عذري البيان، ج5 ص236 .

3- وعن سقوط هذه المراكز، انظر المقرى، المصدر السابق، ج5 ، ص 267 .

4- عن الهجرة الأندلسية لتلمسان، انظر السليماني الشماريخ، ج3 ورقة 101 .

وقد كان لعلماء المسلمين دور كبير لمحاولة في توحيد القوى الاسلامية لوقف الخطر المحدق بما بقي من المراكز الاسلامية فالدارس لكتاب المقرى (نفح الطيب) يجد معلومات قيمة يتعلق بها الموضوع وتحتاج الى دارسة، لكـــن استغاثتهم لم تجد القبول من قبل الدول الاسلامية التى كانت مستغلة بخروجها فيما بينها وبين القبائل الداخلة تحت نفوذها.

وإن اختلاف المسلمين فيما بينهم قدم خدمات جليلة لحركة الاسترداد وأكبر فرصة استغلت من قبل الاسبان ثورة ابن غانيه التى كانت ضربة قاضية لوحدة القوى الاسلامية في المغرب الاسلامي، ثم الصراع بين دول المغرب الاسلامي التى نشأت على أنقاض الدولة الموحدية، ثم الصراع بين هذه الدول "المرينيون-الزيانيون-الحفصيون- بنوناصر".

كل ذلك أثر في قوة المسلمين وسهل مهمة الاسبان أمّا المهاجرون الذين بقوا في أراضيهم فقد عوملوا كأهل الذمة فأصبحوا يدفعون الجزية للدولة مقابل قيامهم بالنشاط الاقتصادي في ميدان الزراعة والحرف.

ولم تسلك إمارة ارغوان وقشتالة تجاههم سياسة التصفية العرقيـــة، لكـــن عندما توحدت اسبانيا على عهد فرديناند الكاثوليكـــيFerdinand وإيزابـــيلا Isabelle تغيّرت سياسة الدولة الاسبانية وعلى الخصوص بعـــد أن تـــدخلت الكنيسة ورجالها في توجيه سياستها في الداخل والخارج وظهرت إلى الوجود فكرتان تتعلقان بالوجود الاسلامي في الأندلس من قبل قادة الكنيسة.

فالفكرة الأولى ترى بأنه يجب المحافظة على المهاجرين الأندلسين وادماجهم في المجتمع الاسباني المسيحي عن طريق التكثيف من العلوم الدينية وتكليف علماء من رجال الكنيسة يحسنون العربية يعملون على نشر المسيحية في صفوفهم أي تنصيرهم بالطرق السلمية. وأما الفكرة المعارضة لها التى جاء بها الكردينال اخسيمانس الذي تولى الكردينالية بغرناطة وبه علاقة بإزبيلا ثم بفرديناند الكاثوليكي فكان يرى عكس الرأى الأول وهو لا يقبل تواجد هؤلاء بإسبانيا لأنهم لا يتخلون عن دينهم بتلك السهولة ولذا لابد من طردهم إلى خارج الأندلس وفرض التعليم المسيحي عليهم بالقوة وعدم السماح لهم بإظهار الشعائر التي لها علاقة بالاسلام ومطالبتهم بإرسال أولادهم للكنائس لتلقي المسيحية وحضورهم للصلوات بالكنائيس والزواج المختلط بينهم وبين المسيحين وأن كل من يرفض هذا يكون مصيره القتل بعد محاكمته من قبل رجال الكنيسة. وقد وصف هؤلاء أحوالهم في[1] رسالة مؤثرة إلى الدولة العثمانية، طالبين منها التدخل لانقاذ أرواحهم ومعتقداتهم أما في المغرب الاسلامي فقد أرسل هؤلاء طالبين منهم اصدار فتوى تتعلق بالوضعية التى أصبحوا عليها وهل يحق لهم الهجرة وترك ديارهم أو يبقون في بلادهم يعانون مايعانونه لأن امكانياتهم تحول دون مواجهتهم للاسبان. وهنا نجد موقفين لعالمين جزائريين.

أولا: أبو العباس الونشريسي[2] الذي اعتبر من كبار علماء عصره هاجر من تلمسان بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين أميرها المتوكل الذي صادر أمواله

1- توجد هذه الرسالة مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية وقد نشرت لمزيد من المعلومات انظر، ليلى الصاغ ثورة جبال الشارات مقال بمجلة الاصالة ع26.

2- عن أبى العباس الونشريسى وظروف هجرته لفاس، انظر ابن مريم البستان ص37 .

ولولا خروجه لكان مصيره القتل فالتجأ الى فاس ولعب دورا مشرفا في ازدهار الحياة الفكرية بها خلال عهد الدولة الوطاسية وتولى التدريس بها وكان من كبار أعيان مدينة فاس التى استقبلت مجموعة من المهاجرين الأندلسين وعلى رأسهم آخر ملوك الأندلس. فالمكانة الاجتماعية حاولت له الاطلاع على أحوال المهاجرين الأندلسيين، وكذلك مستواه الفكري مما جعله يصدر فتوى تتعلق بالهجرة الأندلسية وركز فيها على ما يعانيه هؤلاء للمحافظة على عقيدتهم، وأنه لا يمكن لهم المقاومة.

نتيجة للامكانيات المتاحة لهم، وانعدام وصول الامدادات لهم من إخوانهم في المغرب الاسلامي للمشاكل التى يعانون منه ،فطالب بعودتهم إلى المغرب الاسلامي وأنه يجوز للاسبان أن يهاجر بدينه وقد اعتمد على سيرة الرسول«ص» إلا أنه أمر أتباعه بالهجرة الى الحبشة ثم المدينة المنورة عندما اشتد اضطهاد القريشين لهم.

فالأخذ بهذه الفتوى سيكون ضربة قاضية للوجود الاسلامي في الأندلس، لأن هؤلاء سيأخذون الفتوى محل جد ويتخلون عن منازلهم وأراضيهم ثم يرحلون الى دول المغرب الاسلامي وأن هذه الأخيرة كانت حالتها لا تشجع حركة الهجرة لأنها كانت تعاني من أزمات اقتصادية نتجت عن انتشار الجفاف وقلة المواد مما أدى إلى ارتفاع أسعارها وانعدامها في بعض الحالات كما كانت تتعرض على الخصوص في أراضي الدولة الزيانية والمرينية زيادة على انعدام الاستقرار وهو ما دفع بعض المهاجرين[1] الى العودة لاسبانيا والتخلى

1- نفسه ، ج ص.

عــن اسلامهم واعتناق المسيحية كما أن الخطأ الذي ارتكب من قبل المهاجرين الأندلسين ارتكب أيضا من قبل الفلسطنيين الذين تخلوا عن منازلهم وأراضيهم بعد حرب 1948و1967 إلى الدول العربية المجاورة لهم وقد عاناهم ما عانه الأندلسيون فلو مكثوا بأراضيهم ورفضوا الهجرة لكان مصير فلسطين أحسن على مما هو عليه الآن. كما أننا لو أخذنا بفتوى الونشريسي فإن الاسلام سيزول بزوال الدول الاسلامية لأنه لو أن كل دولة اسلامية تحتل من قبل النصارى لابد لسكانها من محاربتها فإنه لم يبق للمسلمين أي أثــر فـــي العالم.

ثانيا/ أبوجمعة الوهراني: أما أبو جمعة الوهرني فقد كان هــو الآخرعالما جليلا لا نعرف الكثير عن حياته قبل هجرته الى المغرب الأقصى ودافع هــذه الهجرة لكن يبدو لى أنه تولى وظيفة القضاء والفتوى في وهران قبل سقوط المدينة وأنه هاجر منها نحو تلمسان ومنها إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، فاستقر بها وكتب هو أيضا فتوى تتعلق بالهجرة الأندلسية وقد وجد الكتاب الاسبان عناية بها لأنه طلب من المهاجرين الأندلسيين بعدم الهجرة وترك أراضيهم للنصارى مقابل اللجوء إلى ما عرف في الاسلام بالتقية أي اخفاء اسلامهم على النصارى وهذا جائر واستدل على ذلك بما حدث لعماربن ياسر عندما اضطهد من قبل قريش في بطائح مكة فنسب الرسول«ص» وعندما سأل الرسول«ص» أخبره بأنه يمكنه له أن يحافظ على سلامة لأن الايمان بالقلب واللسان ولذا فيمكن القيام بما يطالب منهم ثم عند عودتهم لمنازلهم يغتسلون ويؤدون شعائر الاسلام وحتى ما يتعلق بالزواج، فأنه يمكن أن يتم زواجهم بالكنيسة ولكن عندما يرجعون لمنازلهم يحيون مانصت عليه الشريع

الاسلامية، وعندما مايطلب منه سب الرسول«ص» يرددون ماطلب منهم ولكن يقصدون شخصا آخر غير محمد«ص». وعلى الرغم من أن الاسبان كانوا يفرضون عليهم بقاء منازلهم مفتوحة الأبواب في كل المواسم الاسلامية واحتفالهم بمناسبة الزواج لكي يتمكنوا من مراقبتهم فانهم حافظوا على اسلامهم والمحافظة على اسمائهم العربية الاسلامية وخلال زيارتنا للمكتبة الوطنية بمدريد وجدنا وثيقة ترجع إلى النصف الأخير من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ذكر فيها صاحبها أنه ولدت له سنة1551 بنت سماها فــاطمة وفي سنة 1556 أخرى سماها على بركة الله سعدية فهؤلاء الذين مكثوا في الاندلس نفذوا ماجاء في فتوى الجامعي فكانوا يسمون أبناءهم بأسماء مسيحية وفي نفس الوقت ينادونهم بأسمائهم العربية الاسلامية وكانوا يعتقدون بأن الأندلس ستعود لحظيرة الدولة الاسلامية بعد أن يتم تحريرها[1].

هذا فيما يتعلق بالجامعي وموقفه من الهجرة الأندلسية التي أرى فيها أنه كان صائبا ولو طبقت فتواه بحذافيرها ووجد هؤلاء المهاجرين مساعدة من قبل إخوانهم في أراضى الدولة الاسلامية وعلى الخصوص الدولة العثمانية التي كانت من أهم الدول التي في امكانها تقديم يد المساعدة لهؤلاء الاندلسين إلاّ أن حروبها في المشرق الاسلامي وأوروبا الشرقية والوسطى حال دون إنقاذ الأندلس على الرغم من هؤلاء كتبوا مجموعة من الرسائل لسلاطين الدولة العثمانية وقد اعتذر أحد سلاطين الدولة بوجود توحيد المسيحين في جزر البحر المتوسط قبرص صقيلية-سردينيا وعندم تم تحرير هذه الجزر سيرسل أسطوله لاستعادة الأندلس.

1- هذه المعلومات توجد ضمن مخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم162 يحتوي على معلومات تتعلق بالاندلس

أما دول المغرب الاسلامي فإنها لا يمكن لها تقديم المساعدة لانشغالها بالصراعات الداخلية التى كانت تتخبط فيها، ولكن عندما ظهر الاخوان عروج وخيرالدين بالأراضي الجزائرية لم يبخلا بتقديم مساعدتهما لهؤلاء المهاجرين الاندلسين حيث تم نقل بعضهم للمدن الساحلية وتزويد ثوارهم بما يحتاجون إليه من الاسلحة[1] يضاف إلى ما سبق أن خروج الاندلسين من الأندلس أثر على الاوضاع بأراضي الدولة الزيانية فقد شارك أغلبهم في الحملات ضد السواحل الاسبانية، لأن خروجهم من الاندلس لموانئ اسبانيا جعلهم يتولون المقاومة فكانوا يشترون السفن ويزاولون عليها النشاط البحري[2]. ومن بين المدن التى تعرضت لضرباتهم قرطاجة والمرية ومالقا وأن العمليات العسكرية تتم خلال الليل و في النهار بالأماكن المتطرفة.

ومما يؤكد هذا الدور الحربى أنه في سنة 1500م قاد سفن من المرسى الكبير وهران لضرب قرطاجة أحد أفراد الجالية الاندلسية الذي سبق له أن التجأ إلى وهران مع عائلته وجند معه أفراد من الجالية الاندلسية تولى قيادتهم[3].

وعندما استولى الاسبان على المرسى الكبير كان من بين الذين قادوا المقاومة ضد الاحتلال الاسباني أفراد من الجالية الأندلسية لأن سكان المرسى الكبير سبق لهم أن استقبلوا مجموعة من المهاجرين الاندلسين وعلى الخصوص بعد سقوط غرناطة والمراكز الاسلامية الأخرى بالجنوب الاسباني كالمرية وقرطاجية ومالقا.

1- توجد رسالة بمراكز الوثائق اشارت الى ذلك ضمن علبه 36 رقم16.

2- الحسن الوزان وصف افريقية ص222.

3- مرمول وصف افريقية ، ح .

- **الجـــالية اليهودية:**

أصل اليهود بأراضي بنى زيان: أما فيما يتعلق بتواجد الجالية اليهودية بأراضي الدولة الزيانية فإنها ترجع إلى مرحلتين.

* **المرحلة الأولى:** فترجع إلى ما قبل الفتوحات الاسلامية نحو المغرب بعد اضطهاد اليهود في فلسطين وغيرهم من أراضي المشرق[1] بعد الاحتلال الروماني لتلك الاقاليم فانتقل اليهود فرارا من الاضطهاد الذي تعرضوا لـــه، وخلال اتصالهم بالسكان عمدوا إلى نشر الديانة اليهودية، ومن بين القبائل التـــى أخذت هذا الدين قبيلة جراوة في الأوراس[2] ومديونة بنواحي تلمسان واستمروا على اليهودية. حتى الفتوحات الاسلامية حيث تغلب الاسلام علـــى جميع الديانات التى كانت بالمغرب الاسلامي ولم تبق إلا فئة قليلة تخلـــى البعض منهم في عهود الدولة الموحدية، لأن سياسة عبد المؤمن كانت تتمثـــل في وحدة المغرب[3] دينا.

* **أما المـــرحلة الثانية** فيمكن تقسيمها إلى فترتين تاريخيتين:

أولا: تتمثل في الهجرة اليهودية التى انطلقت من أوروبا إلى أراضي الدولة الزيانبة نتيجة للاضطهاد الذي تعرض له في الأراضي الأورزبية زعلى الخصوص بميورثة وأرغوان وقشتالة كان ذلك في أواخر القـــرن الثامـــن الهجري الرابع عشر الميلادي[4] 792هـــ،1391م وما سهل مهمة هـــؤلاء،

1- انظر: Mayar Voyage d' Ettudes Juives P 166

2- عن جراوة التي كانت مضاربها بالأوراس وقد وقع اختلاف بين المؤرخين عن عقيدة سكانها وعلى الخصوص رعيتها الكاهنة، انظر ابن خلدون العبر ج2 ص160

3- وعن مديونة، انظر ابن خلدون، نفس المصدر، ج6 ص286.

4- عن هذه الهجرة، انظر Mayar O . P 556-559

الحفاوة التى كانوا يتلقونها من قبل أمراء الدولة الزيانية وسكانها، زيادة على العلاقة التى كانت تربطهم بيهود الدولة المستقرين فيها منذ فترات تاريخية أوالقادمين إليها لغرض التجارة فاليهود الذين كانوا بميورقة لهم علاقة جيدة بإخوانهم المتواجدين بأراضي تربط ميورقة بالدولة الزيانية ولذا فالهجرة كانت سهلة ومما يؤكد دليلنا هذا الوثيقة الميورقة[1] التى ترجع الى سنة728هـ/ 1327م والمتعلقة بدور الجالية اليهودية في المبادلات التجارية مع أراضي الدولة الزيانية وإن أهم ما ورد فيها أبلغت المجموعة اليهودية بجزيرة ميورقة الأمير فليب الوصي على العرش والمملكة أن القنصل الميورقي بتلمسان قد أمر جميع تجار ميورقة الموجودين في دولة السلطان أبى تاشفين الأول737هـ/1373 مبارحة تلمسان غير أن هؤلاء التجار يذكرون أن هذا الأمير قد أعطى أوامره بمبارحة أراضي الدولة منذ شهر ونصف وقد قرب الأجل وأن يهود ميورقة سلموا سلعهم الى تجار الدولة، الزيانية الذين يسافرون بها إلى مناطق بعيدة وبعدها يرجعون بقيمة السلعة سواء الدفع عينا أو نقدا ونظرا لأن هؤلاء التجار علموا أن الأمير قد أعطى أمره لهؤلاء بمغادرة أراضي الدولة فأنهم تأخروا وعمد الى الرجوع لتلمسان، لأن التجار الذين كانوا ينتظرونهم في تلمسان مدينون لعدة تجار في ميورقة نفسها وليس لمجموعة اليهود السالفة بالجزيرة أي مورد عبر هذا التجارة وبما أن اليهود معرض للإفلاس، كما لا يمكنهم تسديد ما عليهم من ضرائب دولة ميورقة فهم يرجون الأمير فليب أن يتدخل لصالحهم فيطلب من أمير تلمسان السماح لهم بالتجارة وعدم طردهم من أراضي دولته .

1- Bargcs J.J Mémoire sur les relations Commerciales de Telmecen avec le Soudan sous le Réne de beni Zane

فالوثيقة تبين لنا أن أمراء الدولة الزيانية في هذه المرحلة كانــوا يتحكمــون في الجالية اليهودية و لهم حرية الطرد عند ما يزداد نفوذهم لــم نلاحظــه فــي العصر المتأخر من حياة الدولة حيث كانوا يحتكرون اقتصادهـــا في جميع الميادين.

- يهــود وهـــــران:

من بين المدن التى استقبلت المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا وهران لقربها من الدول الأوروبية فقد استقر بها مجموعة من هؤلاء تزعمهم الحاخام سيمون بنرماح كما انتقل البعض لقلعة بنى راشد لموقعها الاستراتيجي مــن جهة وازدهارها التجاري ثم مدينة الجزائر التى كانت هي الأخرى من المدن التى استقر بها اليهود والملاحظ على هؤلاء اليهود أن أغلبهم قدموا إليها مــن قشتالة وبرشلونة من بينهم تاسغرام الذي ولد ببرشلونة حوالي710هــ/ 1391م[1] فاستقر في البداية بمليانة ومنها انتقل إلى الجزائر يتولى بهــا رئاســة الجالية اليهودية.

- يهــود تلمســـان:

أما في تلمسان نجد الخاخام الكاوة[2] المعروف في المــصادر الاسلامـــية بابن الأشقر كان يشرف على أبناء جاليته ويتمتع بنفوذ واحترام من قبل أمراء

1- Lettres du Fourc (Ch.E) une Coute de l'or moyen âge dans billin et on informatique hist Faculé des et on Alger N° 7 - 1966 PP.9 ET 11.

2- (ابرهيم لكاوة عرف في المصادر الاسلامية بابن الأشقر توفي بتلمسان سنة 846هــ، 1442م، انظر Barges (J.J)، P. Tlemcen OP.CIT.P 236 . 236.

الدولة الزيانية كما أشرف على تعليم علوم الطب وتتلمذ عليه الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل[1].

أما الفترة الثانية التي تبدأ بسقوط مراكز دولة بنى الأحمر في الأندلس وعلى الخصوص مدينة غرناطة898ه -/1492م فقد عرفت هي الأخرى هجرة كبيرة من قبل يهود الأندلس وأغلبهم رافقوا المسلمين ووجدوا ترحابا من قبل سكان الدولة الزيانية، ومن اهم المدن التى استقروا بها وهران ولم تكن مدينة وهران في المرحلة الأولى من بين المدن التى تحتل فيها الجالية اليهودية نسبة كبيرة بالنسبة لمراحل تواجد الجالية اليهودية بأراضي الدولة الزيانية قبل القرن العاشر والسادس عشر الميلادي وأغلبهم من التجار الذين كانوا يتنقلون بين وهران وأراضي الدول الأوروبية المطلة على البحر المتوسط كمرسيلية ومالقة والمرية وغيرها من الموانئ.

لكن خلال القرن العاشر الهجري/16م فقد زاد عددهم عن ما كان عليه في السابق كنتيجة لمعاملة الدولة لهم فكانوا يشرفون على مراكز الديوانة في وهران وأبواب المدينة لقبض المكس من التجار الوافدين على المدينة .وهذا سهل مهمة الاسبان في التحالف معهم واحتلال وهران سنة 915هـ/1509م.

وهكذا نجد رغم الترحاب الذي وجدته الجالية اليهودية بأراضي الدولة الزيانية بأن موقفهم كان سلبيا حيث تعاونوا مع الذين اضطهدوهم في الأندلس لأنهم ضمنوا لهم مصالحه لهذا عمد أحد اليهود بالتحالف مع الكردينال

1- Abl al Basit I bn khalil، traduit en Franc&is par R.Brunshwik , et Bassit deux Recitres de Voyaze inedits en AFrique du nord ABdil . B.khalil et , adorne . Paris 1936 .PP 136 -137

اخسمنايس وفتح له أحد الأبواب الرئيسية بوهران وتمكن من خلالها الجيش الاسباني من الدخول إلى المدينة[1]، وقد ضمن للجالية اليهودية باستمرار نشاطهم التجاري والمحافظة على أرزاقهم بداخل المدينة كما كلفوا من قبل الاسبان جباية الضرائب من القبائل المجاورة لوهران وكانوا يقومون بأعمال تعسفية تجاه القبائل التى ترفض دفع الضرائب لصالح الأسبان[2] كما أسروا سكانها وبيعوا في أسواق وهران ومنها ينقلون إلى الدول الأوروبية.

وتذكر الوثائق الاسبانية أن اليهود كانوا يتعاملون مع الاسبان بعد سقوط وهران والمرسى الكبير فقد ورد في إحدى الوثائق أن يهود مزغران ومستغانم عقدوا معاهدة مع الإسبان سنة917هـ/1511م مقابل السماح لهم ببيع سلعهم في أسواق وهران كما شارك يهود تلمسان في المعاهدة التى أبرمت بين مولاى عبد لله والملك فرديناد الكاثوليكي. ومنها الوثيقة التى ترجع إلى سنة946هـ/1539م فقد نصت هي الأخرى على التعاون بين اليهود والكوند الكوديتي .

وخلال الصراع الذي حدث بين الدولة الجزائرية الحديثة والاسبان على أملاك الدولة الزيانية كان لليهود دور كبير في التجسس لصالح النصارى.

ومما يؤكد ذلك وجود مجموعة من الوثائق الاسبانية تبرز الدور الذي لعبه هؤلاء وعلى الخصوص ما يتعلق بتقديم المعلومات عن جنود الدولة

1- المزاري سعد السعود، ج1، ص126 .

2- الجامعي، فتح وهران ورقة 9 .

الجزائرية[1]، لأنهم كانوا متواجدين في كل من تلمسان والجزائر ولهم علاقة مع إخوانهم بوهران عن طريق الزيارة وتبادل الرسائل وحتى المبادلات التجارية فيما بينهم.

ولم يكن هذا العمل مقتصرا على الجزائر فقط بل شمل المغرب الأقصى ففي سنة957هـ/1550م نجد الانتقال من الوطاسين للسعديين ثم تقديم تقرير عام عن التلمسانين الذين ارتحلوا إلى مدينة فاس.

ومما سهل مهمة اليهود في تحسين علاقتهم الجيدة بالسكان عكس الجالية المسيحية لأنهم كانوا يتواجدون في المدن والأرياف ويرافقون القوافل التجارية.

- أثر اليهود على الأحوال الاقتصادية:

لعبت الجالية اليهودية في هذه الفترة موضوع البحث دورا لا يستهان بها في العلاقات التجارية بين العالمين الغربى المسيحي والشرقي الاسلامي ومنها أراضي الدولة الزيانية، واستغلال الأوضاع السياسة المتميزة بعد الاستقرار لصالحها ولهذا تكون معالجتنا لدور الجالية اليهودية في النشاط الاقتصادي ضمن محورين أساسين.

- المناطق الشمالية:

المناطق الشمالية من المغرب الاسلامي و منها أراضي الدولة الز... عرفت توافد عدد كبير من أفراد الجالية اليهودية منذ نهاية القرن الثامن

1- تعرض فيها: Primauderaie (de la) documents inédits sur l’ histoire de L’accupation espagnole en Afrique A.1875-1876-187

الهجري إلى سقوط غرناطة أواخر القرن التاسع الهجري الرابع والخامس عشر الميلاديين[1].

وأغلب هؤلاء توافدوا على المدن ذات الأهمية الاقتصادية كوهران[2] وتلمسان[3] ومستغانم وهنين وجزائر بني مزغنة، وهو ما جعل الجواسيس ثم القادة الإسبان يشيرون في تقريرهم إلى هذه المدن وعلى الخصوص وهران وتلمسان اللتين حظيتا بتدفق عدد كبير من أفراد الجالية الأندلسية واليهودية، لأن الطرد الذي فرض على غير المسيحيين لم يكن مقتصرا على المسلمين فقط، بل شمل اليهود أيضا، الآن رجال الدين المسيحيين خلال هذه الفترة يعتبرونهم كفارا، يجب محاربتهم أو على الأقل إبعادهم، لكي تتمّ الوحدة الدينية بشبه جزيرة البربر، كما اتهمهم البعض بأنهم كانوا وراء نجاح الفاتحين الأوائل.

لقد اجتمعت المصادر الاسلامية وكذلك التقارير المرسلة من الاسبان على أن هؤلاء المهاجرين وعلى الخصوص اليهود قد لعبوا دورا لا يستهان به في تسميته النشاط الاقتصادي وفي هذا الصدد يذكر العلامة المقري أن وهران وتلمسان استفادوا من الهجرة اليهودية من اسبانيا بحيث استقر التجار منهم بالمدينتين وتعاطوا مهنة التجارة.

كما كونوا روابط مع من بقي من إخوانهم في البلدان الأوروبية مثل مايورقة وكامل جزيرة إيبريا، كما انتقل البعض منهم الى الواحات الصحراوية وعلى الخصوص توات جرارة تيديكلت وسجلماسة ووداي درعة للتحكم

1- السليماني، المصدر السابق، ورقة 197.

2- المقري، نفح الطيب، ج1 ، ص166 .

3- الحسن الوازن، المصدر السابق، ج2 ، ص20 و يحدد عدد اليهود بها بنحو خمسمائة دارا اليهود وكلهم أغنياء يضعون على رأسهم عمامات صفراء » .

فـــي تجارة السودان الغربى وأن تأثيرهم في هذه المناطق كتوات نتعرض لـــه في المحور الثانـي.

يضاف إلى ماسبق أن الاستقرار لم يكن مقتصرا على الأمصار فقط بينما نجد البعض الآخر ينتقل من المدن إلى الأرياف للقيام بالنشاط الحرفي وعلى الخصوص تصليح ما يحتاج إليه هؤلاء الريفيين في حياتهم كالحلي والغربل والبردع وبعض الآلات الحديدية كما كانوا يقومون بمقايضة السلع التى يأتون بها من المدن بالحبوب والجلود والأصواف والحنابل وغيرها وهو ما يؤكـــده المازوني بقوله: سئل أبو الفضل العقباني[1] عن يهود سكنوا في البادية ويتجرون في أنواع المتاجر وبعضهم سكنوا الحاضرة وتطول إقامتهم فـــي البادية هل تؤخذ الجزية من جميعهم تؤخذ من الساكنين خاصة».

ومما يؤكد أيضا استقرارهؤلاء بالأرياف ما أورده الصباغ عند تعرضه للأمراض في عصر أحمد بن يوسف الملياني وعلى الخصوص مرض الزهري الذي جاء به المهاجرون من الأندلس ومنهم اليهود وأن انتقاله بيـــن الأفراد بواسطة العلاقات الجنسية بين هؤلاء وسكان قلعـــة بنـــي راشـــد ومـــا جاورها[2].

1- المقري نفح الطيب، ج1، ص160، انظر كذلك بليوري سيد احمد: طرد اليهود وأثاره الاقتصادية والسياسية مقال في مجلة مخبر تاريخ الجزائر وإفريقيا وحوض البحر المتوسط العربي، دفاتر التاريخ المغربية عدد 2 مارس 1988 جامعة وهران ص16.

2- الصباغ وزهرة البستان ورقة 17 وعلق الوزان على هذا المرض فقال وداء الافراج الزهرى الفضيع بأوجاعه وبثوره وقرحه منتشر كثيرا في بلاد البربر لايكاد يسلم منه إلا قليل» انظر وصف افريقية،ج2 ،ص84.

- **موقف أمراء بني زيـــان وحكام وهران من الجـــالية اليهودية:**

إذا كان أمراء الدولة الزيانية قد استقبلوا اليهود كما استقبلوا إخوانهم المسلمين وعاملوهم أحسن من غيرهم فإن الاسبان عاملوهم أيضا بنفس المعاملة بعد احتلالهما لوهران والمرسى الكبير ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الدور الذي قام به هؤلاء في احتلال وهران عندما فتحوا أحد أبواب المدينة لهم وهؤلاء يؤكده أبوراس بقوله أن الكفرة أذنهم الله لما استولى على برج المرسى وكان ذلك على يد يهوده ولما ملكوا المدينة انزلوا اليهود بهذا البـــرج وخلوا لهم النظر في الخرجات البرية والبحرية وثوراتها عنها بنـــوه مـــن سنـــة خمسة عشر وتسعمائة لا سنة ثمانين وتسعمائة».

فالذي يمكن استنتاجه من النص:

أولا: أن اليهود كانوا بوهران قبل الاحتلال الاسباني لها سنة 915هـــ/ 1509م ويبدو أن عددهم بها لا يستهان به فكانوا يزاولون النشاط الحرفـــي والتجاري ويتحكمون في جبي الضرئب على السلع لصالح الدولة الزيانية، وبعد احتلال الاسبان لوهران حافظوا على ماكان لهم من قبل.

ثانيا: أن الإسبان كانوا في اشد الحاجة لهم نتيجة العلاقة التي كانت تربطهم بسكان الدولة الزيانية ومعرفتهم للعربية والاسبانية وتحكمهم في النشاط التجاري بأراضي الدولة الزيانية لذا سمح بإنشاء الدكاكين وإقامة المخازن ولعل أغلبها للتجار المسلمين الذين كانوا بوهران قبل احتلالها، وحتى اليهود الذين بارحوا المدينة بعد دخول الاسبان عادوا إليها[1].

1- بلوري سيد احمد ، نفس المقال ص19 .

- أثرهم فـــي الصنـــاعة:

لم يقتصر عمل اليهود على النشاط التجاري، فقط بل امتد إلى النشاط الحرفي .فاليهود منذ القديم كانوا يزاولون الحرف في أغلب مدن الدولة الزيانية وهذا في عصرها الذهبي، لكن تواجدهم بتلك المدن قد زاد بعض الهجرات الأندلسية المتعاقبة على أراضي الدولة الزيانية منذ القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع وعلى الرغم من قلة هؤلاء اذا ما قورنوا بما توافد على أراضي الدولة المرينية ثم الوطاسية فالسعدية وكذلك الدولة الحفصية فإن دورهم لا يستهان به في بعث الحركة الصناعية[1] بالمدن التابعة للدولة الزيانية وعلى الخصوص في كل من وهران والمرسى الكبير وهنين وارشقول وبعض المدن الداخلية كتلمسان وقلعة بنى راشد. ومن بين المهن التى زاولها هؤلاء في هذه المرحلة موضوع البحث الخياطة والحدادة وصناعة الحلي. إن موقف الإسبان تغير من تواجدهم بوهران لأنهم أصبحوا يشكلون خطرا عليها[2] ونحـــن لا تهمنا هذه الفترة التي يمر فيها طرد اليهود بقدر ماتهمنا مكانتهم ودورهم قبل.

فالتقرير نص على مايلي: رغبـــات دون بيدر أرغوان حاكـــــم وهـــــران دون سون يرى أن تواجد اليهود في المدينة يـــشكل خطـــورة، فقـــــد وصـــل عددهـــم إلـــى ثمان مائة بالاضافة إلى العبيد التابعيـــن لهـــــم، ممـــــا جعـــل عددهـــم يبلـــغ ألـــف نسمة، وبالرغم مـــن فقرهـــا عرفنـــا أنهـــم ســـيعاقبون

1- عن هذه الحرف، انظر الباب المتعلق بالحياة الاقتصادية، الفصل الثاني ص211 وما بعدها.

2- هذه الوثيقة تحمل رقم9، 6436 رقم10، لاكاديمية الملكية للتاريخ مدريد بليوري نفس المقال، ص17.

3- عن دون بيدر الارغوان donpedr نفس المقال، ص7، اماحاكم وهران خلال سنة 1669فكان دون فرناد DFernanda،انظر Primauderaie (Felix de la) OP cit P479 ..R.A.1877

علـــى أخطائهم بالأشغال الشاقة ونضيف أنهم فقراء دون أجور قليلة، كـــم مـــن فرص عديدة سمحت للحاكم القيام بالخرجات للبطحاء لتأديب العرب لكن ترك المدينة بكاملها لهذه حال دون ذلك».

يبدو أن هناك عوامل خفية كانت وراء اصدار قرار الطرد الذي لم يجد أذانـــا صاغية من قبل وهران ومن ضمن تلك العوامل نذكر مايلي:

أولا: أن اهتمام اليهود بالنشاط التجاري الحرفي بوهران وعلاقتهم بإخوانهم في أراضي الدولة الزيانية والدولة الجزائرية الحديثة قدم خدمات حليلة للاسبان وعلى الخصوص في ميدان الجوسسة التى نستعرض لها فيما بعد لكن انهيار الدولة الزيانية 964هـ/1554م وتغلب باشاوات الدولة الجزائرية على المناطق التي كانت موالية للاسبان وبعد النجاح الذي حقق استعاد بجاية سنة 963هـ/1535م والضربة القاضية التى وجهت للاسبان في مزغران سنة 966هـ/1558م فقتل فيها الكوديتي Comte Al Caudete فقد أعظم قوته وكادت وهران والمرسى الكبير أسقط بيد الدولة الجزائرية لولا تحصيناتها ووصول الامدادات من اسبانيا لم تسمح للإسبان فيما بعد بالمغامرة خارج مراكزهم عكـــس ماكان من قبل وعلى الخصوص خلال حكم الكوديتي[1] لوهران فأضعـــف ربما نشاط الجالية اليهوديـــة بأراضي بني زيـــان التي كانت تتعامل مع الإسبان.

1- حكم دون مارتيناز القرطبي الملقب بالكوديتي Comte martin de cordava yvelazlo dalcaude'te مابين4 جوان1534 و26 اوت1558 ،انظر P 467 (elie de laPrimauderie .R.A.1877

لأن نهاية هذه الدولة واشتداد الحصار البحري على وهران والمرسى الكبير جعل السلطة الاسبانية ترى في تواجد ألف من أفراد الجالية اليهودية في وهران خلق لها أزمة اقتصادية من جهة وأمنية من جهة أخرى خوفا من تحالفهم مع المسلمين.

ثانيا: أن موقف حاكم مدينة وهران الذي يتجلى من خلال التقرير المرافق للوثيقة والذي دفع فيه عن اليهود و ذكر بأن الأزمة التي تعاني منها وهران ستكون ظرفية تزول مع الأيام، لكن هذا لا يتماشى مع الواقع ولعل دفاعه يرجع بالدرجة الأولى الى العلاقة التى تربطه بهؤلاء ومن عادتهم استغلال العلاقة مع السلطان الحاكمة لصالحهم وقد حدث هذا بالنسبة لأمراء الدولة الزبانية فالعلاقة الحسنة بينهم وبين أبى عبد الله الثاني هي التي، سمحت لهم بالدخول إلى المدينة والاستقرار في المنطقة الفاصلة بين القيصرية والمنشور.

ثالثا: إن اليهود قدموا خدمات جليلة للإسبان فهم الذين كانوا يخرجون إلى الدواوير المجاورة للمدينة لجمع الضرائب من الفلاحين المزارعين ومربي المواشي. كما كانت لهم الحرية الكاملة في الحركة خارج المدينة يرافقون القوافل بين تلمسان ووهران وهذا يتجلى لنا من الوثائق الاسبانية نقتصر على البعض منها خلال سيطرة خير الدين على حصن البنيون ببعث، أحد اليهود من مدينة الجزائر مع أفراد جاليته تقرير مفصل حاكم وهران عن مصير الحصن وماحدث للاسبان به تذكر بأن عدد القتلى بلغ خمسة وستين جنديا والاسرى مائة وخمسة عشر منهن خمسة وعشرين امرأة مع أطفالهن حول أغلبهم إلى عبيد[1]. وهو ما توضحه أيضا الرسالة التي بعث بها الكوديتي إلى الامبراطور

1- انظر lettre écrite d'Alger par un espion juif لكن حاكم وهران حددها في تقرير Sans date Arch de simancas estada ,lezago 4611529

شارل الخامس والمؤرخة في خمس وثلاثين وخمسمائة وألف عالج فيها صاحبها دور الجالية اليهودية في نقل المعلومات عن أمراء بنى زيان لحاكم وهران ولم يقتصر الأمر على هؤلاء فقط بل حتى القبائل المعادية للاسبان لأن اليهود كانوا يخرجون من وهران حاملين السلع لبيعها في الأرياف وتبادلهما بما يحتاج إليه الاسبان من حبوب ومواشي وبعض الصناعات التقليدية.

وفي ظل هذا يبدو بوضوح ما لليهود من نفوذ في المجال الاقتصادي وموازرة الاحتلال وتدعيمه.

رابعا: عمد اليهود إلى اضطهاد السكان عندما يِخرجون الى الدواوير لاستخلاص الضرائب ناشرين الظلم والاضطهاد يتصرفون في السكان بكامل الحرية وفي هذا الصدد يقول المشرفي[1] كانت لهم حولة عظيمة على بنى عامر لكون الجباية بمحلته على يد اليهود الضريبة فيضرب خباؤه بواسطة دواوير بنى عامر من أولاد عبد الله وغيرهم يتصرف بهم لكونه الملك في رعيته كما شاء أمر ولهذا يضع على رجل هذا الرجل الحبال ويجلد هذا ويتخلى عن سبيل هذا إلى غير ذلك دون معترض.

- أثر علاقة اليهود مع الســودان الغربي وأثرها:

لعبت الجالية اليهودية دورا هاما في المبادلات التجارية بين السودان الغربي وبلدان العالم الاسلامي وقد اتخذوا من مفترق الطرق التجارية ومراكزها للإشراف على حركة القوافل التجارية[2]. تعرضت كتب الرحالة

1- عبد القادر، المشرفي، في بهجة، الناظر، ص35.

2 حساني المختار الاحوال الاقتصادية والاجتماعية للدولة الزيانية رسالة دكتورة الحلقةIII جامعة الجزائرية 1987ص 93.

لدور هؤلاء اليهود وكذلك أصحاب النوازل الفقهية ووجهت أسئلة في شأن اليهود إلى علماء تلمسان ومن بين هؤلاء عائلة العقباني وفي هذا الصدد وردت النازلة التالية: (وكتب قاسم سعيد العقباني[1] لمحمد بن موسى الحسني جوابكم في شراء اليهود الذين بالبلاد الصحراوية القريبة من ظاهرة السودان العبيد والإماء الواردين عليهم إبتغاء التجور والاستفادة وطلب الفضل في بيعهم لايعود ذلك من القصور التى تحمل على شرائهم كدوام الملك أو الاستخـــدام أو الاستيلاء بل الفائدة في الربح خاصة على أن الرقيق في أول انفصالهم عن بلادهم يأتون على مجدهم وناقصون عليه، والاسلام إنما يخالف قلوبهم ويتزينون به بعد الاستقرار في عامة البلاد فهل يصح شراء اليهود باسم التجار فيهم وهم بالحال المعهودة الذي يستخلص من هذه النازلة يتمثل فيما يلي:

أولا: إن توات من أهم الواحات الصحراوية في أراضي الدولة الزيانية التى يتوافد عليها العبيد من السودان الغربي ولا تزال لحد الآن بعد مظاهر تلك التجارة فهؤلاء الرقيق مازلوا يعاملون معاملة تختلف عن بقية المسلمين، وتوجد أخباء خاصة بهم في القصور منفصلة عن أسيادهم ويمنع التصاهر معهم وحتى المقابر منفصلة في بعض القصور لأنه لايمكن للعبد ان يدفن الى جانب السيد، لكن هؤلاء الزنوج اعتنقوا الاسلام بعد وصولهم الى تلك الواحات والبعض منهم كانوا على الاسلام.

ثانيا: إن النازلة توضح لنا بأن الذين كانوا يحتكرون هذا النوع من التجار هم العبيد الذين كانوا يرافقون القوافل التجارية وعلى الخصوص في المسالك التى بين سلجماسة وتوات وتمبكتوا وجوجو وغيرها من المراكز التجارية،

---

[1] لمؤف محهول مجموعة من النوازل الفقهية ورقة 39 .

كما توضح لنا سيرة المغيلي عبد الكريم أن هناك جالية يهودية كانت متمركزة في إمارة السودان كدولة سنغاي ولهم علاقة مع إخونهم الذين كانوا بتوات ولذا حاول عبد الكريم المغيلي[1] أن ينتقم منهم عندما علم بمقتل ابنه في أحد قصور توات، طلب من السلطان سنغاني[2] معاقبتهم.

ثالثا: إن هذا النوع من التجارة يهدف من ورائها الربح الكثير حيث كان هؤلاء يعمدون إلى نقل العبيد نحو الموانئ الشمالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط ومنها موانئ، الدولة الزيانية حيث يوجد إخوة لهم يحتكرون هذا النوع من التجار فيصدرن العبيد إلى الدول الأوروبية فيباعون من طرف اليهود الذين يتواجدون في أغلب المراكز التجارية وعلى الخصوص الموانئ وتؤكد الوثائق، الاسبانية أن اليهود في كل من الدول الأوروبية والدولة الزيانية والواحات الصحراوية والمراكز التجارية في كل من السودان الغربي متصلون ببعضهم في بعض الأحيان ،هم أفراد من أسر موزعة على تلك المراكز فهم الذين يحددون أسعار العبيد.

رابعا: أن النازلة توضح لنا ما توصل إليه الحسن الوزان بأن هؤلاء العبيد كانوا ينقلون من قراهـــم بالقوة بعد الحروب التى كانت تتخبط فيها منطقة السوادن الغربي، وبعض هؤلاء يأتون من النواحي التى اعتنق سكانها الاسلام، وبعض هؤلاء يعتنقون الاسلام بعد أن يتم شراؤهم من أسر اسلامية للعمل فـــي الدور أو في البساتين.

1- المغيلي عبد الكريم مجموعة المغيلي مخطوط بالزاوية البكرية تمطيت ورقة 56 .

2- عن هذا ،انظر رسالة المغيلي تتعلق بدوابة سنغاني مخطوط بالخزانة العامة بالربط تحت رقم 1026 ورقة 16 ورقة.(2) لمؤلف مجهول نوازل فقهية، ورقة 41 أ

ففيما يتعلق بالرقيق المسلمين نجد نازلة وردت في هذه المجموعة ورد فيها قول صاحبها: « من اشترى من اليهود رقيقا حقق إسلامهم هل شراؤهم صحيح، وإنما يحرم بيعه: فأجاب محمد بن موسى الحسنى بقوله: الحمد لله بيع السودان الكفار الأول وردوهم من بلادهم، وهم بصفة المتجسيسين من اليهود، والنصارى، ليس بحراس، وإن كان ترك الرفيع منهم أولى وأما صغار السودان فلا سبيل لبيعهم[1]» أما أبو القاسم العقباني فقال وأما شراء اليهود من حقق اسلامهم من الرقيق، فلا يجوز، ولا يكاد يصدر من مسلم ولله الموافي، فلا يجوز، ولا يكد يصدر من مسلم، ولله الموفق[2].

أولا: هذه النازلة وردت الإجابة عليها من عالمين يعتبران من أبرزعلماء تلمسان في عصرهما وهما السنوسي وابن زكري وقد وقع اختلاف في إجابتهما عن النازلة.

1: يركزون على الرقيق الذين نقلوا من السودان الغربي وهم على وثنيتهم، فإن بيع من قبل اليهود ليس بحرام، وفرق بينهم حسب السن، والمكافحة الاجتماعية، فترك الرفيع منهم أولى وأما صغار السودان أي الأطفال فلا سبيل لبيعهم، لأنه أحيان وربما في أغلب الحالات يفضل بين أفراد الأسرة الواحدة، فيباع بعضهم في مركز والأخرون في مراكز أخرى.

2: إن العقباني يمنع الاتجار بالمسلمين من قبل اليهود سواء كانوا أطفالا أونساء ويطلب المسلمين منع هؤلاء اليهود .من النوازل أوردها المازوني يتعلق بمنع هذا النوع من التجارة، لكن عندما ضعفت الدول المغربية، ومن

1- نفسه، ورقة 42 ب. الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ص : 256.
2- نفسه، ورقة 42 أ.

بينها الدولة الزيانية، أصبحت الجالية اليهودية تتاجر بموانئ هذه الدولة، فهذه المراكز محتلة من قبل الاسبان. ومما يؤكد على ازدهار المبادلات التجارية بين تلمسان وتوات، وردت هذه النازلة.

- دور اليهود في المبـادلات التجـارية بين تلمسـان وتوات:

من بين السلع يتم تبادلها بين توات وتلمسان العبيد، كما أسلفنا حيث كـانت مجموعة، هؤلاء يملكون المخازن التجارية، في القيـصرية، تلمـسان، وقـد أشارت إلى ذلك الوثائق الاسبانية حيث حدد هؤلاء موقع الحي اليهودي، بأنـه مجاور للمشور[1]، والنازلة توضح هذه العلاقة، فأهم ماورد فيها: « سل عبيـد الله أحمد بن محمد بن زكريا التلمساني جوابكم الكريم في أمة مملوكـة ببلـدنا تزوجت عبدا، لأهل تمنطيت، في زمن العافية وبما أن حدثت الحرب ذهبـت العبدة إلى سيدة.

وبقـيت الأمة عند سيدها، ولما طال الأمر أرادت تطليق نفسها الانفاق.[2] توضح هذه النازلة بالاضافة إلى العلاقة بين توات وتلمسان الاضطرابات التي عرفتها الدولة الزيانية، وخاصة العاصمة، وكان الناس يتركون المدينة كلما كثرت الحروب بها، ومن بين المهاجرين أفراد من الرقيق[3].

وهناك نازلة أخرى تؤكد دور اليهود، في المبادلات التجارية وأهم ماجاء فيها، سؤال للإمام سيدي قاسم العقباني: جوابكم المبارك في مسألة يهودي

1- Cueva, Francisca de la Relacion de la zuerra de Tlemcen» in caleccion de libros Raros curiosos txv Madrid 1881, 397 B .N .de Madrid nº G 47 en manuscr

2- المؤلف مجهول نفس المصدر ورقة 43أ .

3- نفسه ورقة 43 ب

مـــن تجار الصحراء إتباع من تجار المسلمين تحقق سلعا كثيرة بثمن معلوم، إلـــى أجل مما يقرب الثمانية ألف دينار ذهبا ونحوها، فلما وصل إلى قصر مـــن قصور الموضع المذكور، وتمنع بأهله، إلا أن سافر أرباب الديون، عـــاد إلـــى موضعه وصار، يبيع ويشتري، كما كان أولا وبيده مال كثيـــر فعندما يطلبه أحـــد من أرباب الديون الذين كان اشترى منهم السلع المذكـــورة، يقول هـــو عديم[1] وهل يطاف اليهودي المذكور بالأسواق وينادي عليه بالعدم والسلام.

فأجاب العقباني يجب في الحاكم أن يضرب على يديـــه، ويحال بينه وبيـــن ما يؤخذ بيده، ويهجم على منزله، فيجمع جميع أمواله، ويصال حبسه، و يحمل عليه بالسوط ثم يمنع من السوق، ويشهر أمره بإقامة الناس عنـــد المساجد، ومحل الاجتماعات[2].

وما يمكن استخلاصه من النص يتمثل في أن موقف المسلمين من اليهود لـــم يكن الدافع إليه الجانب العقائدي كما ذكر بعض الباحثين، واليهود، عندما عالجوا موقف عبد الكريم المغيلي من الجالية اليهودية في تمنطيت.

أولا: أن التجار الذين كانوا يتوافدون على توات من المراكز التجارية، كانوا يعمدون إلى بيع سلعهم لكبار تجار الجالية اليهودية، بتوات، وينتظرون بيع السلع ولأخذ أموالهم لذلك يجدون وقت أخذ تلك الأموال، ثم يعودون لقبض أموالهم لكن هؤلاء يعمدون إلى إتباع طرق ملتوية حتى لايسددوا ديونهم ومنها

1- لمؤلف مجهول المصدر السابق ورقة 43 أ
2- نفسه ورقة 43 ب .

الدخول إلى قصرهم والتحصن به وبذلك نجد الصراع الذي حدث بين هؤلاء وأولئك.

ثانيا: أن اليهود كانوا يعودون إلى عملهم في السوق بعد مبارحة صاحب الدين بتوات، وهو ماجعل العقباني يطالب بمصاردة أموال هؤلاء التجار وحسبهم.

ثالثا: أن كل تاجر سواء أكان يهوديا أو مسلما يقوم برفع الأسعار أواحتكار السلع أو عدم تقديم الديون لأصحابها يطرد من السوق و يشهر به في الأماكن التى يتوافد عليها الناس كالساحات والمساجد حتى لا يتعامل الناس معــه فــي المستقبل وهذه العملية مجدية للغاية لأنها تقضي على تلاعب التجار بــأموال الناس[1].

- موقف المغيلي من اليهــود في توات:

كما تعرض عبد الكريم إلى وضعية الجالية في توات وغيرها من القصور الصحراوية في نهاية القرن9هــ/15م وبداية القرن10هــ/16م. ومن بين مــا أورده قوله: قبائل في أطراف الصحراء، حيث لا سألهم حكم ولا أمراء، يتخذهم اليهود اجلاء ويلقبونهم بالغلائف، ويجعلون الموازين والسكة بأيديهم، دون أمير يكون عليهم، فيغشون للمسلمين خاصموه حتى لا يتوصل إلى أخذ الحق منهم[1]».

1- مثل ما عليه الحال في عصرنا هذا.

1- لمؤلف مجهول نفس المصدر ورقة 56 .

نستخلص من هذا النص:

أولا/ إن اليهود في الواحات الصحراوية وبالخصوص اقليم توات كانوا يعتبرون سادة القوم، لتعاونهم مع أعيان تلك القصور، فكانوا لا يعترفون بما تقره الشريعة الاسلامية في حقهم.

ثانيا/ إن اليهود كانوا متواجدين في أغلب قصور توات وبالخصوص قصر أولاد داود[2] تمنطيت، لأن هذه الأخيرة تعتبر المركز الأساسي للمبادلات التجارية بين السودان الغربى وبلدان العالم الاسلامي في مشرقه ومغربه لأنها تقع على الطريق التجاري الذي يربط هذه البلدان لذلك توافد عليها عدد من اليهود من الدول الاسلامية والمسيحية لاحتكار النشاط التجاري بها، فالمكائل والموازين بأيديهم، وبذلك يتحكمون في السلع وأسعارها كما كانوا يقومون بضرب النقود المتداولة بين التجار سواء في توات أوغيرها من الواحات الصحروية ولم تكن هناك سلطة تراقب النوعية في تلك الأماكن وهو ماجعل هؤلاء المسلمين يردون على المغيلي بقولهم: على هذا أدركنا أباءنا وعليه أدركت أباؤنا أباءهم، ولم نسمع من أنكر ذلك تطبيق الأحكام الاسلامية على هؤلاء لم يتم منذ نزولهم بتلك البقاع الصحراوية، وحتى الفقهاء أنفسهم لم يفرضوا على هؤلاء اليهود الجزية.

ثانيا/ إن هؤلاء هم المشرفون على الأسواق التجارية، ولذلك فإن خروجهم من قصورهم سيؤدي إلى تعطيل هذه الأسواق، ويشيركذلك المغيلي إلى خطر

2- لا يزال قصر أولاد داواد لحد الآن محافظة على تلك الأسوار والحصون التى كانت في عصر عبد الكريم المغيلي وحتى الدكاكين لا تزال الآن باقية.....

هؤلاء اليهود، على أمن السكان في توات[1] وغيرها من الواحات التى كان يقيم بها المسلمون، فتسببوا في الفتن بين القصور حتى لا يكون هناك اتحاد، يهدد مصالحهم الاقتصادية، في المنطقة وهي نفس السياسة التى كان عليها اليهود في أغلب أمصار الدول الاسلامية، كالأندلس، والمغرب، وحتى بلدان المشرق، وعلى الخصوص عندما يكون هناك تعاون بينهم، وبين أعيان تلك القصور[2]. لأن القصور التواتية كان يشرف عليها الأعيان و رجال الزوايا لتأثرهم على المجتمع هناك وذكر المغليى أن نفوذهم جعلهم لا يتقيدون بما جاءت بـــه الشريعة الاسلامية، فهم ينكرون ارتداء الزنانير ويتزينون بالزي الرفيع ويتخذون الرقيق، ويظهرون ماشاعوا من التعاظم أولا وأمورهم، ويرفعون أصواتهم، بذلك في أعيادهم وأفراحهم ويحدثون المعابد حيث شاؤوا بين دور المسلمين ويرفعون أصواتهم بالقراءة وغيرها، وأحدثوا كنيسة، واتخذوا النقــود وعلى الخصوص جودة الذهب المستعمل.

كما كانوا يقومون بتقديم القروض للتجار وهو ماجعل هؤلاء فـــي رأي المغيلي يغشون المسلمين ويخونهم ويخدعونهم[3].

ثالثا/ نجد هناك تعاونا بينهم وبين ذوي الجاه، والمكانة في تلك القصور، فيتقدمون هؤلاء اليهود عندما يحددون معارض لهم وأحسن مثال على ذلك، مـــا وقع لعبد الكريم المغيلي الذي لم يستطع أن يحقق ماكان يصبو إليه فـــي توات، مما جعله يفضل الانتقال إلى السودان العربي، وقد تعاون هــؤلاء

1- لمؤلف مجهول المصدر السابق، ورقة 45أ.

2- نفسه ورقة 45 ب الركائز من اللباس فرض على اليهود منذ القرون الأولى للهجرة.

3- لمولف مجهول، المصدر السابق ةرقة 44أ.

اليهود وحلفاؤهم على ابنه فقتلوه.

وكان هؤلاء اليهود لا يدفعون الجزية لأن المسلمين الـذين كـانوا بتلـك القصور لما طلبوها منهم إدعوا أنهم كانوا معفيين منها في العصور التي سبقت وصول المغيلي إلى توات، وهو ما جعل هذا الأخير يردّ على ذلك بقوله: "فإذا قيل لهم أنكم أعنتم اليهودي على التمرد ومنع الجزية، وإذاية المسلمين بقولـه، على هذا أدركنا أباءنا، وعليه أدركت آباؤنا آباءهم، ولم نسمع قط مـن أنكـر ذلك، وحتى الفقهاء ونحن ان قهرنا اليهود يرحلون عنا إلى من يمنعهم فتدركنا المعرة وتعطل أسواقنا[1]"، ومن الملاحظ: 31

أولا: إن وجود اليهود في توات، وغيرها من الواحات يعـود إلـى فتـرة زمنية قديمة ولعله لعهد الدولة الرستمية[2] التي اهتمت بالمبادلات التجارية مـع السودان، وكان بداخل تلمسان حي خاص باليهود[3] ومن جملـة مـاعرفوا بـه يقولون العرب بنو أمة منا ونحن خير منهم في الدين لأنهم يقتلـون النفـوس، ونحن لا نقبلها، إلى غير ذلك من العظائم التي ارتكبوها[4].

ثم يوجه نقدا للعضو الذي أفتى اليهود في رفع الأصـوات عنـد القـراءة والألات وأنواع الظلالات[5].

1- لمؤلف مجهول المصدر السابق ورقة 44ب.

2- الدولة الرستمية 160-296 هـ/776-909م.

3- ابن مريم، البستان ص263.

4- لمؤلف مجهول المصدر السابق ورقة 45 ب.

5- نفس المصدر ورقة 45أ.

ومما يؤكد احتكار هؤلاء اليهود للنشاط التجاري يقول المغيلي تصرفات في البيع والشراء وقضاء الحوائج في بعض بلاد الصحراء على أيدي اليهود، فـلا يكاد المسلم يتوصل لحاجة من حوائجه، ولا يدفع شيئا من سلعته، فـي غالب الأمر إلاّ على أيديهم حتى أن أهل البلد المذكور اذا جاء عليهم يوم السبت سبتوا في كثير من تصرفاتهم وظهر أثر السبت على أسواقهم وجرى ذكره على ألسنتهم، يوم السبت لا يجد قبولا فترى التاجر إذا أقدم للبلد نزل فـي منازل اليهود يأكل من أطعمهتم ويصبح ويمشي في جماعتهم، ويخالطهم كما يخالط المسلمين أحبابه المسلمين خوفا على تجارته من الكساد واختيار منازلهم على سائر منازل البلاد[1].

ومن أهل البلد المذكورين من يتخذ من اليهود خادما يتصرف في قضاء حوائجه ويؤهله على البيع والشراء وغيره. فهذا النص الذي أورده المغيلي نستخلص منها مايلي:

أولا: أن اليهود كانوا من ذوي النفوذ في توات لعلاقاتهم بأعيان القصور، الذين كانوا يقبلون الهدايا التى تقدم لهم من قبل هؤلاء وهو ماجعل السكان الذين يواجهون مشاكل يتوافد على دكاكين اليهود، الذين كانوا يتدخلون لصالحهم لدى أعيان هذه القصور، للعلاقة الحسنة بينهم وبين أفراد الجالية اليهودية، وإحتكارهم للنشاط التجاري، لأنه لا يمكن لأي تاجر أن يعارض اليهود تسويق سلعتهم، وشراء أخرى من أسواق توات، والقصور التابعة لها، وقد أدرك ذلك حتى التجار القادمون إليها من السودان الغربي، أو بلدان المغرب، فكانوا يخاطبون هؤلاء اليهود لكي يتمكنوا من التصرف في سلعهـم

1- نفسه ورقة 45 ب .

وشراء سلع جديدة وهوما دفع إلى القول: يكاد المسلم أن يتوصـــل لحاجـــة مـــن حوائجه أو أن يبيع شيئا من سلعته في أغلب الأمر إلاّ بأيديهم[1].

ثانيا: أن قصور توات أصبحت تحمل طابعا يهوديا لسيطرة هؤلاء على شريانها الإقتصادي، فالأسواق والدكاكين تعلق يوم السبت بدل يوم الجمعـــة، ولا تقضى حوائج الناس في ذلك اليوم، وكذلك أعياد اليهود التي يحتفلون بهـــا في أغلب تلك القصور التواتية.

ثالثا: إن القوافل التى تأتي من السودان الاسلامي، كانت لا ينزل إلاّ بأحياء الجالية اليهودية، لكي يتمكنوا من بيع سلعهم، وشراء السلع التى يحتاجون إليها، واذا نزلوا بخارج منازل اليهود تبقى للسلعة مكدسة في الأسواق لضغط اليهود على التجار[2] .

- أثر اليهود على الأحوال الاجتماعية:

هذا فيما يتعلق بدور الجالية اليهودية، في الميدان الاقتصادي أما في الجانب الاجتماعي فإن لليهود دورا كبيرا أيضا.

وفي هذا الصدد يقول: صاحب هذه النوازل: «سئل محمد بن احـــمـــد بـــن قاسم العقباني جوابكم في أهل الذمة، هل تلزمهم الضيافة في البادية، والحاضرة، أو لا تلزمهم إلا في الحاضرة وعلى اللزوم فهل يلزمهـــم منهـــا إلا مقدار ما يقوم بالضيف غداؤه وعشاؤه؟».

1- لمؤلف مجهول، نفس المصدر السابق ورقة 46 أ.

2- نفسه، ورقة 46 ب.

فأجاب: «الجزية المفروضة علـــى أهـــل الذمة، مع الأرزاق، والضيافة لازم أن ذلك غير أن الضيافة على حـــال المضيف وراء الإمام يمكن سقوط الأرزاق، والضيافة مع ما أحدث عليهم مـــن الظلم فإن لم يكن ظلـــم».
يستفاد من هذا النص مايلي:

أولا: إن هناك ضريبة تدفع من قبل أفراد أهل الذمة، ومن بيـــنهم الجاليـــة اليهودية، والتى تعرف هذه الضريبة، والمقصود بها دفع جزء مـــن أمـــوالهم لصالح بيت مال الدولة، ترجع عائدتها على الغرباء الـــذين يتوافـــدون علـــى أراضها، لكن يبدو أن فترة انصعف التي عرفتها الدولة دفـــع بقـــابض هـــذه الضريبة إلى التعسف في أخذها لذا قال تسقط الأرزاق، والضيافـــــة، مـــع ما حدث عليهم من المظالم.

ثانيا: إن القرآن وأحاديث الرسول «ص» لا تقر هذه الضرائب بل تذكر الجزية التى حددت من الفقهاء بالنسبة للوضعية الاجتماعية، الأهل الذمة وكذلك سن الذي يدفعها، ومن بين المواضيع التى تعرضت لها كتب النوازل الفقهية قضية الملابس التى حددتها الفقهاء.

وردت مجموعة من النوازل تتعلق بهذا الموضوع منها هذه النازلة قال فيها: « كتب محمد بن العباس جوابكم في لباس اليهودي هل يمنعون من الترفه في اللباس؟، وإنما يكلفون بشد الزنار ويتركون مايشتهون من اللباس وهل يسوغ رفع أبنيتهم عن أبنية المسلمين» وإلا فإنه لا يسوغ ذلك فكيف إذا كان فعلهم ذلك على وجه التحصن لرقابهم وأموالهم؟، لأنهم بموضع لاسلطان فيه ولا والي من جهته، فإذا كانت فتنة بين القبائل فى الموضع ركب أهل

القصور المجاورين لقصور اليهود قصورهم مما يجعل هؤلاء لا يخشون على أنفسهم[1]».

إن الجالية اليهودية بعد احتكارها للمبادلات التجارية بين المراكز المختلفة وتحكمها في السلع القادمة من السودان الغربي، والدول الأروبية، وتقريرها للأسعار التى تراها مناسبة لها، جعلتها تستفيد من ثروات مالية كبيرة وبالخصوص في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية، أثرت تلك الأموال على وضعيتها الاجتماعية، فأصبح أفرادها يعيشون حياة الترف، بملكهم للعبيد، والجواري، وبنائهم للقصور إرتدائهم ملابس فاخرة، وامتطائهم، أجود الجياد فتخلوا عما كان يربطهم بالدولة الاسلامية التي كان حدد لهم فيها نوع الملابس حتى يفرق بين أهل الذمة والمسلمين.

ثانيا: أن بعض الفقهاء عارضوا هذه الوضعية في مقدمة هؤلاء عبد الكريم المغيلي الذي شن حربا على هؤلاء.

وهناك فريق يرى بأنه لا يمنع عليهم اللباس الفاخر بل يطالبون بشد الزنار فقط، لكن البعض لا بفرض علي هؤلاء لباسا معينا لأن الوضعية السياسة التي أصبحت عليها بلدان المغرب الاسلامي وعلى الخصوص الدولة الزيانية حيث انعدم الأمن، سيؤثر على أفراد الجالية اليهودية الذين كانوا يزاولون أنشطة الاقتصادية لذلك لا يطالبون بلباس معين حتى لا يكتشف أمرهم خوفا على أرواحهم ونهب أموالهم نتيجة للفوضى التى عرفتها منطقة توات في نهاية القرن9هـ/15 وبداية القرن10هـ/16م، حيث اشتد الصراع بين قبائل

1- لمؤلف مجهول، نفس المصدر، ورقة 46 ب .

الناحية والإغارة على القصور، منها قصر بني داود الذي تقطن بــه الجاليــة اليهودية في تمنطيت.

الواقع أن اليهود حينما أحسوا بضعف دولة بنــي عبــد الــوادي حــاولوا التخــلي عن دفع الجزية التي فرضت عليهم شرعا وفي هذا الــصدد يقــول العقباني عن ذلك ومثله: "ماعهدناه في مغربنا يقصد القرن9 هــ/15م".

مواطاة العمال لبعض يهود الكبوس على اعتزازهم بوضع الجزية استقباحا عندهم مساواتهم للذين يؤدنها واستكبار في مخادعة للخروج عن دائرة من رسم الله فيهم أدائها مذلة وسمحوا في ذلك لولا خدمتهم للعامل.[1]

يستخلص من هذا النص: «إن هناك تواطؤ بين السلطة الحاكمة واليهود التحايل على الشريعة[2] التي لها موقف واضح من أهل الذمة والجزية مصدر من مصادر بيت مال المسلمين[3] وفي توات نال اليهود منزلة سامية جعلتهم يعمدون الى بناء البيع فبنوا عدة بيع لهم في قصور توات حيث كان يقيــم ابــو عبد لله محمد بن عبد الكريم التلمساني[4] وصحبته، فقام عليهم بمساعدة اهالى توات في هدم البيع وتطبيق الجزية عليهم»، وقد تعرض المغيلي الــى محالفة قاضي توات، وهو ابو محمد عبد الله بن ابي بكر العصنوني، فكتب المغيلي الى علماء فاس وتلمسان في شأن هذا الموضوع فانقسم هؤلاء بيــن مؤيد ومعارض، فمن المؤيد له الإمام محمد بن يوسف السنوسي المشهور

1- لمؤلف مجهول : مجموعة من النوازل ورقة 17ب.
2- نفسه. ورقة 47 ب .
3- المازوني الدرر المكنونة ، ج1، ورقة 276.
4- الونشريسي المعيار ج1 ، 256 .

بتأليفه في علم التوحيد(والمتوفي سنة 895هـ/1484)[1] ولقد استفدنا مما دلل به السنوسي على فتواه الفقهية الصبغة السياسية التى اكتشفها في هذه القضية، وعرفنا مـــدى الهـــوة العميقـــة التي احدثتها اليهود، وبعد ووصول جواب السنوسي[2] لتوات ثار التواتيون، وهدموا معابد اليهود. ويعلق المغيلي على تعامل اليهود مع السلطـــة فيقـــول: «من التعدي والطغيان والتمرد على مـــا في الأحكام بتولية أرباب الشركة أوخدمة السلطان وأنه تسهلا من المسلمين مـــع هؤلاء اليهود حتى كان الواحد منهم بقربه إلى اليهود من نفســـه وعيالـــه أو يستعمله في أعماله ويجعل بيده ماشاء من ماله مع أنه لا ديـــن لـــه ولا مروة»، يوضح هذ النص:

أولا: إن سلاطين الدولة الزيانية قد جعلوا من اليهود بطانة يشاركونهم فـــي الأحكام وهو ماجعل العلماء يعارضون ذلك ويعانون من ثروتهم ضدهم مما أدى بالبعض إلى الهجرة كما فعل عبد الكريم المغيلي الذي ترك تلمسان وتوجه إلى توات وعندما ما فشل في القضاء على اليهود بها لوجود مؤيدين لهم في توات وهو ما تؤكده هذه النازلة، رحل إلى السودان فوجد تأييدا مـــن أمرائها الذين ساعدوا في نشر الاسلام في تلك الربوع .

أما النازلة فقد جاءت على لسان قاسم بن سعيد العقباني وكتب قـــاســـم بـــن سعيد العقباني لطف الله به الحمد لله سيدي جوابكم في مسألة وطن ليس به سلطان ولا حاكم وأهل الوطن المذكور لا بد لكل واحد منهم أن يشتـــد إلاّ مـــن له هنالك وجاهة وحرنـه ليمنعه من الظلم والافرط في الإهانة إن لـــم

1- ابن مريم البستان، ص237

2- نفسه، ص 236 .

يفعل اليهود ذلك فضاع حقهم وأخذت أموالهم وجرت عادة هؤلاء أن يتحصنوا أمرا استندوا إليه بالهدايا والصرف والدرهم وغيرهم فهل يا سيدي يسوغ لأحد منهم و يحل بمانعهم ويكون ذلك شبيها بالجزية ولا يحل له.

فأجاب: « الحمد فتول هدية اليهود إلى أمد استند إليه فمن له وجاهة يمنعه من العداء عليه في ماله أو في بدنه سائغ ان يشاء الله ولا خرج بـــه على قائلـــة منه[1] ».

فالنازلة توضح لنا الرأي المعارض لعبد الكريم وهو أن هؤلاء اليهود يوجدون في منطقة ليس لها سلطان وأهل الوطن يعتمدون على ذوي الوجاهة أي شيوخ قبائل الناحية الذين يتحكمون في أمور الوطن، ولذا لا يمنع على اليهود أن تكون علاقتهم حسنة بهذه الفئة للمحافظة على تجارتهم وحتى تقيم نصيبا من الأموال لصالح هؤلاء الناس.

ولعل هذا ماجعل هؤلاء يعارضون عبد الكريم المغيلي في موقفه من اليهود ويتهمونه بأمور تتعارض مع الشريعة الاسلامية[2] وهو ما تؤكده هذه النازلة فقد خصصها صاحبها إلى أولاد يعقوب[3] أنصار عبد الكريم المغيلي فقال عنهم رجل من أولاد يعقوب أصحاب المغيلي: « هربت إليه أمة امرأة من القبيل الذي قاتلوهم بأمر حلول المغيلي عندهم وقـــد سمعتهم وعلمتم

1- لمؤلف مجهول نفس المصدر ورقة 49 أ

2- توجد في الخزانة العامة بالربط رسالة لابن هلال رد فيها على عبد الكريم المغيلي في قضية اليهود مخطوطة تحت رقم 2500 ورقة 56 .

3- يوجد قصر أولاد يعقوب بتمنطيت غير بعيد عن قصر أولاد دواد ولازال المنزال الذي نزل به المغيلي الآن.

مـــا يزعمه المغيلي في أعدائه من إباحة دمائهم وأموالهم فعمد الرجل إلى الأمة ووطئها فولدت منه ولدا فهل يدار عنه الحق ولا يلحق بـــه الولد وكانت عادة البلاد أنهم يملكون مثل ذلك ولكنه ما استمروا على قبيح عادتهم فزادهم الله الرجل بزعمه فوقع الرجل فيما وقع فيه[1] ».

فالذي يستخلص من هذه النازلة يتمثل فيمايلي:

أولا: أن وصول *المغيلي إلى توات جعل أعيانها* ينقسمون على أنفسهم منهم من اليده ووقف إلى جانبه ويأتي في مقدمة هؤلاء بنو يعقوب الذين لا يزلـــون لحد الآن يحتفضون بذكرياته ولايزال بداخل قصرهم المنزل الـــذي سكـــن بـــه والمخزن الذي كان يخزن فيه سلاحه خلال مواجهة يهود قصر دواد غيـــر بعيد عنه. بينما وقف آخرون إلى جانب عبد الله العصوني قاضي توات وهو تلمساني أيضا، وكان الأخير من المعارضين لموقف عبد الكريم المغيلي من الجالية اليهودية ولا يزال أثر القصر الذي كان به العضوني والمسجد الـــذي عرف به.

ثانيا: ماهو معروف في المصادر الاسلامية أن عبد الكريم المغيلي قـــد أبـــاح أموال اليهود ودمائهم وأعلن الجهاد في قتالهم ولعل هذا أساء إلـــى حلفائهم من قصور توات الذين كانت لهم علاقة ودية بهؤلاء اليهود.

لم يكن المغيلي هو المعارض لهؤلاء اليهود بل نجد في كتاب الونشريسي مجموعة من النوازل تعالج هذا الموضوع منها الإمام الذي يدخل اليهود لـــداره وتخرج زوجته وأولاده خسيس عديم الغيرة ».

1- لمؤلف مجهول نفس المصدر السابق ورقة 49 ب .

فالنص يؤكد على ان أهل الذمة كانوا على علاقة جمبع الفئات الاجتماعية ومن بين هؤلاء الأئمة الذين كانوا يستقبلونهم في بيوتهم يتنافى مـــع غيـــر الاسلامية.

المصادر والمراجع

* **المخطوطـــات**

- التنسي: نظم الدر والعقبان في شرف بني زيان مخطوط بالخزانـــة العامـــة بالرباط تحت رقم444

- أبوسعيد العقباني: تحفة الناظر وغنية الذكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر.

- مؤلف مجهول: زهر البستان مخطوط بمانشستر ببريطانيا

- مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين مخطوط بالمكتبة الوطنية.

- المازوني: الدرر المكنونة في نوازل مازونة مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم1335/ 1336

- الياكوتي: تلخيص الأثار وعجائب المسالك والأمصار مخطـــوط ومـــصور على ميكروا فيلم بمعهد المخطوطات القاهرة.

* **المصـــادر**

- ابن آدم أبوعبيد قاسم: الخراج تحقيق محمد شاكر الطبعة الثانيـــة القـــاهرة 1384.

- ابن الابار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ت سنة658: كتاب الحلة السيراء ط1 تحقيق حسن مؤنس الشركة العربية للطباعة والنـــشر القاهرة1963.

كتاب التكملة لكتاب الصلة تحقيق محمد بن أبي شنب والفريـــد بـــل المطبعـــة الشرقية الجزائر.

- ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت630: الكامل في التاريخ8 اجزاء نشر دار الكتاب العربي بيروت1967/1387

- ابن بشكوال ابي القاسم خلف بن عبد الملك: كتاب الصلة مراجعة عزت العطار الحسيني مكتبة المثنى بغداد1955/1374

- ابن بطوطة شمس الدين ابو عبد الله بن ابراهيم ت703: رحلة ابن بطوطة دار صادر بيروت للطباعة والنشر بيروت1964/1384

- ابن حزم ابو محمد بن سعيد456: جمهرة انساب العرب تشر ليفي بروفنسال القاهرة1948

- ابن حوقل ابو القاسم ابن حوقل النصيبي ت367: كتاب صورة الارض ط2 مطبعة بريل ليدن1938

- ابن خردادبة ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله في حدود300هـ: المسالك والممالك بريل ليدن1889

- ابن الخطيب لسان الدين بن عبد الله ت776: أعمال الاعمال فيمن بويع قبل الاحتلام تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني دار الكتاب الدار البيضاء 1964.

الاحاطة في اخبار غرناطة نشر محمد عنان رقم الحلل في نظم الدول تونس1899/1316.

نفاضة الجراب تحقيق محمد العبادي بدون تاريخ

اللمحة البدرية في الدولة الناصرية القاهرة1947

معيار الاختبار في ذكر المعاهد والاثار الرسالة الثالثة من مشاهدة لسان الدين ابن الخطيب ببلاد المغرب جامعة الاسكندرية1958

- ابن خلدون عبد الرحمان ت808: العبر وديوان المبتدأ والخبـر فـي أيـام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر دار الكتـاب اللبنـاني للطباعة والنشر بيروت1968
المقدمة دار الكتاب اللبناني1968
التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا تحقيق ابن تاويـت القـاهرة لجنـة التأليف والنشر1951
- ابن خلدون يحيى: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد نشر الفريد بل مع ترجمة الى الفرنسية جزءان ج1904/1 والثاني في قسمين1913 وقـد حقق الدكتور حاجيات الجزء الاول سنة1980
- ابن خلكان ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ت681: وفيات الاعيـان وانباء أبناء أهل الزمان تحقيق احسان عباس دار الثقافة بيروت1971
- ابن ابي زرع ابو الحسن علي بن عبد الله الفاسـي ت ق8هـ: الانـيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس
- ابن ابي دينار ابو عبد الله محمد بن ابي القاسـم الرعينـي القيروانـي ت 1681/1092: المؤنس في اخبار افريقية وتونس تحقيق محمـد شـمام طبـع المكتبة العتيقة ط 3 تونس 1967 ونشر مطبعة النهضة تونس 1950
- ابن صاحب الصلاة المن بالامامة تحقيق ممد التازي الدار البيضاء
ابن ابي الضياف احمد ت1291/1874؛1875
اتحاف أهل الزمان باخبار تونس وعهد الامان ج 1 ط تونس 1963
- ابن سعيد علي بن موسى المغربي: كتاب الجغرافيـا ط2 تحقيـق العربـي اسماعيل ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982
- ابن الصغير حي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري

تاريخ أئمة الرستميين 1908
- ابن عبد الحكم عبد الرحمان بن عبد الله ت 257: فتوح افريقية والانــدلس تحقيق انيس الطباع مكتبة دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت 19
- ابن عذارى المراكشي ابو عبد الله محمد ت في القرن السابع الهجري البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب تحقيق ج ؛ س؛ كولان وليفي
- بروفنسال دار الثقافة بيروت1965/1384
ابن فرحون ابو الفداء ابراهيم علي بن محمد توفي1397/799
الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ط 1 دار السعادة القاهرة1329
- ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية
الوافيات نحقيق عادل نويهض.
- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي الانــصاري ت711: لــسان العــرب المحيط اعداد يوسف الخياط دار لسان العرب بيروت1970.
ابن مريم ابو عبد الله محمد بن احمد الشريف المليتي المديوني التلمساني البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان تحقيق محمد بن ابي شنب الطبعــة الثعالبية الجزائر 1908/1326.
- ابو الفداء عماد الدين بن اسماعيل بن محمد بن عمر ت732: تقويم البلــدان تصحيح رينود ديسلان باريس1840
المختصر فياخبار البشر جزءان المطبعة الحسينية القاهرة
- البغدادي ابن عبد المؤمن ت1438/839: مراصد الاطــلاع علــى اســماء الاماكن والبقاع طبعة حديثة في 3 اجزاء

- البكري ابو عبد الله ت487: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك مكتبة المثنى بغداد ومطبعة الحكومة الجزائرية 1857

- التيجاني ابو محمد عبد الله بن محمد التيجاني كان حيا سنة 13/702 رحلة التيجاني المطبعة الرسمية تونس 1958

- التنسي ابومحمد عبد الجليل التنسي: نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان حقق جزء منه محمود بو عياد 1977

التمبكتي ابو العباس احمد بابا بن احمد الصنهاجي السوداني 963 / 1555 نيل الابتهاج بتطريز الديباج وهو على هامش المذهب لابن فرحون ط 1 القاهرة 1329

- الدباغ ابو زيد عبد الرحمان الانصاري ت696: معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ط2 اكمله وعلق عليه ابو الفضل القاسم بن عيسى بن يحيى التنوخي ت839 تحقيق محمد الاحمدي ابو الانوار واخرون مكتبة الخانجي 1968

- الدرجيني ابو العباس احمد بن سعيد ت670: كتاب طبقات المشائخ بالمغرب تحقيق ابراهيم طلاي مطبعة البعث قسنطينة 1974/1394.

- الزركلي خير الدين: الاعلام 11 جزء ط 3 بيروت 196

الزاركشي تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية تحقيق محمد ماضور تونس المكتبة العتيفة 1966

- الزهري: كتاب الجغرافيا نشر محمد الحاج صادق مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي دمشق 1967 :1968

- الضبي ت 459: بغية الملتمس في تاريخ اخبار الاندلس علمائها وامرائهـــا وشعرائها ودوي النباة ومن دخل اليها واخرج منها ط مجريد1884.

- الشيرازي عبد الرحمان بن ناصر بن عبد الله الشافعي ت1193/589.

نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيقق ونشر باز العريني القاهرة1946.

- العمري ابن فضل الله ت1349/749: مسالك الابصار في ممالك الامصار نشر وتحقيق احمد زاكي القاهرة1924.

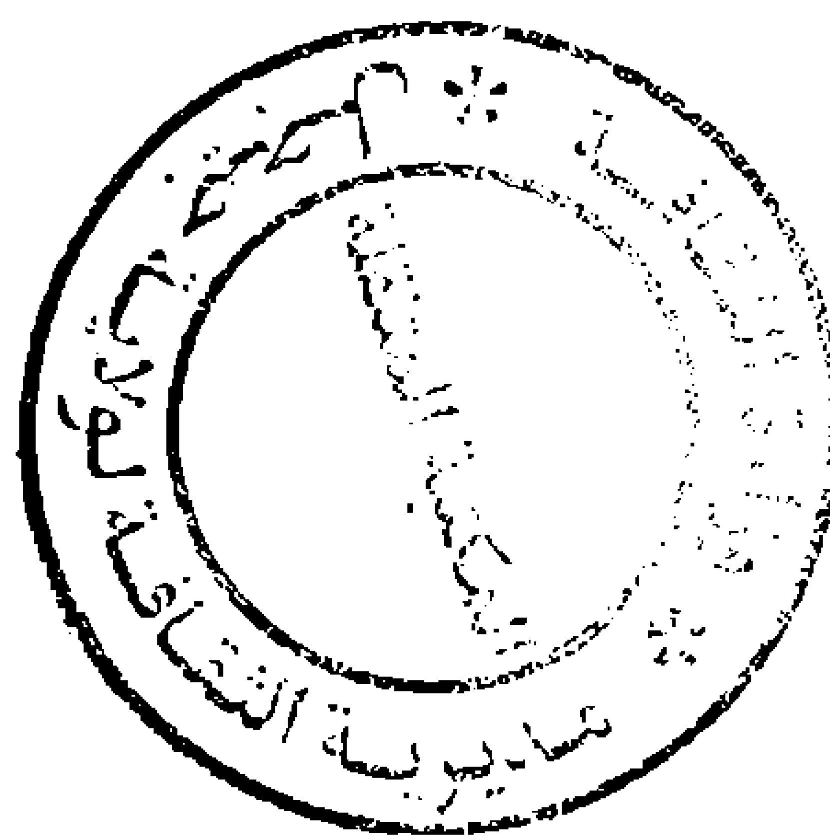
- العبدري ابو محمد عبد الله بن محمد العبدري القــرن8 : رحلـــة العبـــدري المسماة بالرحلة المغربية تحقيق محمد الفا سي الرباط.

الفهرس

الفصل الأول

الفصل الثاني

الــفــصـــــل الــثــالــث



Achevé d'imprimer sur les presses
de l'imprimerie HASNAOUI M.
09, Rue Med BOUCHAKOUR. Alger. - Tél. : 021 74 70 83
Juin 2009

هذا الكتاب

دراسة تارخية، سياسية، اقتصادية، ثقافية واجتماعية..

تعد مرآة صادقة لأحوال الدولة الزيانية، التي تعتبر من أهم الدول التي نشأت على أرض الجزائر، حيث استمرت أكثر من ثلاثة قرون..

وقد مرّت الدولة الزيانية بجميع المراحل التي ورد ذكرها في مقدمة ابن خلدون حيث كان شاهدا هو وأخوه يحى بن خلدون على أهم مراحل هذه الدولة.

منشورات الحضارة

ص.ب 04 بئرالتوتة -الجزائر

هاتف فاكس: 021.44.34.41

الإيداع القانوني 2009-759

ردمك 978-9961-767-67-2

صدرهذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة